رسـائـل الـعـلامـة الـقـاضـي الـحـاج أحـمـد سـكـيـرج الأنصاري الخزرجي

الـجـزء الثالث

دراسـة وتـحـقـيـق

الأسـتـاذ مـحـمـد الـراضـي كـنـون الحسني الإدريسي

رقم الإيداع القانوني 97/1326
ردمك 9981 - 153 - 02 - 8

مطبعة

المؤلف محمد الراضي كنون
الهاتف 01 39 21 98
07 65 14 00

الإجادة على الإفادة

للعلامة سيدي أحمد سكيرج رضي الله عنه

تحقيق ذ محمد الراضي كنون
الإدريسي الحسني

بسم الله الرحمن الرحيم و صلى الله على الفاتح الخاتم و آله و صحبه و سلم تسليما

الإجادة على الإفادة[1]

حمدًا لمن شرح صدور ذوي العناية من الخلق. فشكروه بلسان الصدق. فأدخلهم لرياض أنسه، و توجهم بتيجان القبول من حضرة قدسه. و أدار عليهم كؤوس الخمرة العرفانية. فطربوا على قدر ما منحوه من المواهب الربانية.

و كانوا لحمل السر أهلا و كلهـم ببحر من العرفان في الكون يسبح
و إن كتموا أسرارهم عن سواهم فإن لسان الحال منهم يصـــــرح
هم في الأوان كالأواني لســـــره و كل إناء بالذي فيه يرشـــــــح

ملئت قلوبهم حكمة. و امتلأت صدورهم رحمة. قدس الله أرواحهم. و الصلاة والسلام على ينبوع الفضل. و من هو في وجود الموجودات أصل.

---

[1] الإجادة على الإفادة: أراد من خلاله تسليط الضوء على محتويات كتاب الإفادة الأحمدية لمريد السعادة الأبدية. للمقدم الشريف سيدي الطيب السفياني رحمه الله و رضي عنه. و يظهر من اختياره للفظ الإجادة أن مراده كان منصبا لتصحيح بعض الهفوات الواردة في الكتاب المذكور. ولم يكن العلامة سكيرج أول من أزمع القيام بهذا المسعى الحميد. بل سبقته في هذا النطاق رغبة أكيدة من طرف بعض أكابر علماء الطريقة. كالمقدم سيدي محمد بلقاسم بصري المكناسي. وسيدي محمد أكنسوس. و سيدي محمد العربي بن السائح و آخرين.

غير أن رغبة هؤلاء لم يكتب لها أن ترى النور، الشيء الذي دفع العلامة سكيرج إلى السير نحو إنجاز هذا العمل الجليل، بيد أنه هو الآخر لم يكتب لعمله هذا أن ينجز، و اكتفى بكتابة صفحات قليلة منه.

و لا بأس أن نذكر في هذا المحل كلاما للعلامة الولي الصالح سيدي محمد العربي بن السائح حول هذا الكتاب. قال رضي الله عنه:

كتاب الإفادة. وقع فيه إيهامات و مبهمات كثيرة. و نقل شيء على غير ظاهره. فيجب أن لا يعمل فيه إلا بالمشهور المتواتر عن سيدنا الشيخ التجاني رضي الله عنه، و أما غيره فلا، و انظر ما وقع في الإفادة في حرف الواو من قول صاحبها: و الله ما قطع مقام التوبة. و نسبه إلى سيدنا رضي الله عنه. و ليس بصحيح. فإنه لم يقل سيدنا رضي الله عنه كذلك. و إنما قال سيدنا الشيخ لما سئل عن الشيخ سيدي محمد بن القطب سيدي أحمد الصقلي و عن مقامه. ما نصه: قرب أن يقطع مقام التوبة. و بقي شيء يسير بينه وبين درجة القطبانية. هذا معنى قول الشيخ رضي الله عنه. فبين القولين المنقولين مخالفة. و لذلك كان الشيخ الإمام العلامة العارف بالله سيدي محمد بن أحمد أكنسوس الجعفري رضي الله عنه. كان قد أخذ كتاب الإفادة و نقل منه الصحيح الثابت المروي عن سيدنا الشيخ رضي الله عنه. و يقول: بلغنا عن الشيخ رضي الله عنه كذا و كذا. حتى أتى على جميع كتاب الإفادة. فما أخذه الفقيه المذكور و صححه فهو صحيح. و ما لم يأخذه و لم ينقله في رسالة البلاغ فلا عمل عليه و لا يلتفت إليه، لأن الناقل لكتاب الإفادة رضي الله عنه كان ينقل عمن وجد من غير تثبت في ذلك فافهم. قال: و قد أمر بعض المقدمين من العلماء المعتبرين في الطريق برفض هذا الكتاب و حرقه لما فيه مما هو منقول عن الشيخ رضي الله عنه و ليس بصحيح و لا معمول به. إهـ

خير الأنام محمد من فضله	عمَّ الوجود وجوده لا ينفـــد
و لأجله قد أوجد الله الورى	لولاه هذا الكون لم يك يوجد

و على آله أمان الله في الخلق. و أصحابه المؤيدين له بكمال الإيمان في اتباع الحق. ورضي الله عن حامل سره الرباني. العارف الصمداني. خاتم الولاية المحمدية. والمتقدم أمام أهل الحضرة الأحمدية. أبي العباس سيدنا و مولانا أحمد التجاني. سقانا الله و جميع المحبين منه بأعظم الأواني.

و بعد، فإن لسان الحب في جناب هذا القطب الرباني. دعاني إلى إخراج ما قيدته على كتاب الإفادة الأحمدية. لمريد السعادة الأبدية. و إيضاح ما اشتملت عليه. فإنها قد جمعت من كلام سيدنا و سندنا قطب الأقطاب التجاني جملة وافرة، عالية المسلك، غالية المدرك، صائبة المنفذ، سهلة المأخذ، يفرح بها المحب في الجناب الأحمدي. وتتقبض بها نفس الحسود المعتدي. فأجبته لما دعاني إليه معتمدا على توفيق الله. وهو المستعان عليه و عنونته بالإجادة على الإفادة. و قد كنت كتبت على نسخة منها هذه الأبيات و نصها:

هذي الإفادة ضمنها أســــــرار	و بها معان كلها أزهــــار
تشفي مطالعها و تشرح صــدره	و عليه منها تشرق الأنوار
هي من كلام الشيخ عقد جواهــر	متناسق باهت به الأحبــار
لو أنها ظهرت لعين حسودهـــا	زادت بما فيها له الأغيــار
أو أنها حلت بأيدي وامـــــق	زالت بها عن قلبه الأكدار
فاعرف بها و بحق من وافى بها	فلها على أفق العلا المقدار
بشراك يا من في محاسنها غدت	منه تنزه في الورى الأفكار
فيرى سطور معارف قد سطرت	فيها شطور منى لها أسرار
لم لا و جامعها الجليل مقامــــه	من بين صحب كلهم أقمـار
ذاك الشريف الطيب ابن الطيب الـــــــــعالي المقام و من له أنــوار[1]	
لله در يَدٍ بِـــــــــدُرٍّ نظمتــــــــــــــــــــها من تجان درها مختــار	
فيها لكل مطالع نيل المنـــــــى	و بها تتم لحزبها الأوطــار

[1] الطيب بن محمد السقفي الشهير بالسفياني. من خاصة أصحاب الشيخ أبي العباس التجاني رضي الله عنه، توفي في شهر جمادى الثانية عام 1259 هـ، و دفن بجبل زعفران خارج باب عجيسة من فاس، أنظر ترجمته في كشف الحجاب للعلامة سكيرج 170_184. رفع النقاب، للمؤلف نفسه 2: 235_249. إتحاف أهل المراتب العرفانية بذكر بعض رجال الطريقة التجانية، للعلامة الحجوجي: الجزء الأول رقم الترجمة 14. نخبة الإتحاف فيمن منحوا من الشيخ التجاني بجميل الأوصاف، للمؤلف نفسه رقم الترجمة 20. روض شمائل أهل الحقيقة في التعريف بمشاهير أهل الطريقة، لابن محمد العلوي الشنقيطي رقم الترجمة 10. موسوعة أعلام المغرب (إتحاف المطالع) 7: 2567. رسائل معلمة معالم سوس أبي عبدالله سيدي محمد أكنسوس، للعبد المذنب محمد الراضي كنون 1: 75.

ولقد ترجمت لمؤلفها في كتابنا كشف الحجاب، عمن تلاقى مع القطب التجاني من الأصحاب رضي الله عنه بما فيه غنى عن ذكره هنا، و من الله أستمد الإعانة على ما أردته من هذا الشرح و التوفيق لما جمعته لما فيه في الدارين تمام الربح و التأييد في الحقيقة بالسلوك على أقوم طريق، و أن ينفع به الإخوان، في السرِّ و الإعلان، إنه رب ذلك و القادر عليه، و لكن لا بأس بذكر مقدمة منوطة بما قاله بعض جلة الطريق في هذه الإفادة، و ما كان زعمهم عليه فيها قبل انتشار نسخها بيد الإخوان، فنقول:

مقدمة

اعلم أن ما اشتملت عليه الإفادة الأحمدية من كلام سيدنا رضي الله عنه قد تلقى جله المؤلف رحمه الله عن سيدنا رضي الله عنه مشافهة و سماعا منه. مع اطلاعه على السبب الذي يذكره عقب كل جملة من جمله المذكورة في حرفها، و بعض ذلك رواه عن بعض الخاصة من أصحابه حسبما أشار إلى ذلك في خطبتها، فأما ما تلقاه مشافهة منه فقد سلك فيه مسلكا لا إيهام فيه و لا إبهام، و لا شك فيه و لا في ذكر سببه عند ذوي الأفهام، و أما ما نقله عن غيره فقد اضطرب فيه الفهم، حتى تنازع في صحته العزم و الوهم، فكان بسبب ذلك علماء الطريقة يتساءلون عما تضمنه، فترجح عند خاصة الأعلام من أعيان الإخوان قبول ما تواتر عن الشيخ من الموافق لجمل حروفه، مع إلغاء ما انفرد به مؤلفه مما لم ينص على أنه سمعه عن الشيخ رضي الله عنه.

و لقد وقفت على كلام يتعلق بهذه الإفادة في كنانيش[1] الولي الصالح، ذي الفضل الراجح، العارف بالله، بركة العصر، أبي عبد الله سيدي محمد بن يحيى بلامينو الرباطي[2] أدام الله حرمته، و حدثني به أيضا مشافهة حسبما حدثه به الولي الصالح، سيدي العربي بن السائح رضي الله عنه[3].......

[1] من ذلك ما جاء في كناش الفقيه سيدي محمد بن يحيى بلامينو الرباطي عن العلامة الولي الصالح سيدي محمد العربي بن السائح أنه قال: كان المقدم سيدي محمد بلقاسم بصري قد أمر بجمع النسخ الموجودة منها. فجمع ذلك كله إلا واحدة طارت بها الركبان لعين ماضي حيث نجل سيدنا رضي الله عنه. و بقيت واحدة عندي. لم يقدر المقدم أن يكلمني فيها ظننًا منه أني لا أظهرها لأحدٍ حتى يأمرني بما يكون عليه العمل في شأنها. ثم أتى نجل سيدي الطيب السفياني لمكناس. و أنزل لي عمامته بين يدي. و قال لي: هذا عار مولانا رسول الله صلى الله عليه و سلم عليك. أحبك أن تعطيني كتاب الإفادة الأحمدية. قال: فاستحييت منه و لم أشعر أن أعطيتها له. بعدما أخذت عليه المواثيق و العهود أن لا يعطيها حتى آمره بذلك. ثم كان من قضاء الله و قدره أن استعجل فأظهرها بالفور. و كان مراد سيدنا المقدم رحمه الله بإخفائها و جمع نسخها أن يكون عليها تقييد يشرح معانيها. و يرصع مبانيها. لأنها لا تستغنى عن الشرح كما هو ظاهر. ثم انتشرت عند الناس حين انتسخت من ذلك السيد نسخ كثيرة. فزهد المقدم رضي الله عنه فيما كان ناويًا له من التقييد عليها. ووقع له غيظ عظيم في ظهورها على تلك الحالة بلا بيان يوضح مراد صاحبها. و الله غالب على أمره. إهـ..

[2] سبق التعريف به ضمن الجزء الأول من هذه الرسائل

[3] سبق التعريف به ضمن الجزء الأول من هذه الرسائل

حرف الألف

<u>قول سيدنا رضي الله عنه</u> "إذا سمعتم عني شيئا فزنوه بميزان الشرع فما وافق فخذوه و ما خالف فاتركوه"

هذه المقالة من سيدنا رضي الله عنه نصبها ميزانا مستقيما بين أعين مريديه وأصحابه، لوزن ما ينسب إليه من قول أو فعل أو حال أو اعتقاد، و كل شيء من الأشياء، منبها لهم به على أنه لا يؤخذ منه إلا ما كان موافقا للشرع، و أما ما خالف الشرع فلا يؤخذ منه بل يترك و يطرح، لأنه لا يأمر إلا بما يوافق الشرع من ذلك. وقد جرى في هذه المقالة مجرى النصح التام، للخاص و العام، في كون الشيخ لا يتبع إلا فيما جاءت الشريعة به، و أما ما يخالفها فلا يقتدى به فيه، و ذلك أن كل شيخ زالت الشريعة عنه في سائر أحواله أو في بعضها فإن الإقتداء به مضر، و لو كان لخوارق العادة بكل كرامة يظهر، كما قال الإمام ابن العربي الحاتمي قدس سره:

لا تغترر بالذي زالت شريعته   عنه و لو جاء بالأنبا عن الله[1]

و ذلك بأن يكون جاهلا من أول الأمر، أو مجذوبا مطبقا عليه، لا يفرق بين نهي أو أمر، أما الأول فيلغى رأسا كما يقول الشريشي رحمه الله في رائيته في صفة الشيخ:

إذا لم يكن علم لديه بظاهر   و لا باطن فاضرب به لجج البحر[2]

و أما الثاني فسلم له حاله. و لا يقتدى به في شيء من أحواله. و أما إذا كان سالكا في حال مجذوبا في حال، فهو صاحب حال يقتدى به فيما يوافق الشرع، و لا يقتدى به فيما خالفه، ويسلم له حاله، و لا يعترض عليه بعنف، و إنما ينبه عليه خشية أن يقتدي به فيه الغافل عن حكم ما صدر منه، مع ملازمة الأدب معه بأتم وصف، و أما السالك العالم العامل إذا صدر منه ما يخالف الشرع فلا يقتدى به في ذلك، غير أنه لما كان المريد المستغرق في محبة

---

[1] البيت من قصيدة هائية للشيخ محيي الدين ابن عربي الحاتمي قالها لدى مطلع الباب 181 و هو في معرفة مقام احترام الشيوخ و نصها:

ما حرمة الشيخ إلا حرمة الله   فقم بها أدبا لله بالله
هم الأدلاء و القربى تؤيدهم   على الدلالة تأييدا على الله
الوارثون هم للرسل أجمعهم   فما حديثهم إلا عن الله
كالأنبياء تراهم في محاربهم   لا يسألون من الله سوى الله
فإن بدا منهم حال تولههم   عن الشريعة فاتركهم مع الله
لا تتبعهم و لا تسلك لهم أثرا   فإنهم طلقاء الله في الله
لا تقتدي بالذي زالت شريعته   عنه و لو جاء بالأنبا عن الله

[2] البيت من قصيدة أنوار السرائر و سرائر الأنوار، للعلامة الصوفي أحمد بن محمد الشريشي، وهو البيت السادس عشر من القصيدة المذكورة.

شيخه قد يحمله صدق حبه على أن يقتحم الإقتداء به في تلك المخالفة، و يظن أنه مأمور بذلك لهذا السبب، أشفق كل شيخ كامل على مريديه بالتنبيه لهم على أن مخالفة الشرع لا يقتدى بهم فيها، و ليس كل ما يصدر منهم يعد موافقا للشرع، و قد كان الإمام مالك و ربيعة[1] يقولان: لسنا من أهل العصمة في كل ما نقول، بل كذلك في كل ما يفعلان.

و كان الإمام مالك أيضا يقول: كل كلام فيه مقبول و مردود إلا كلام صاحب هذا القبر. ويشير لقبر الرسول صلى الله عليه و سلم، و كان الإمام الشافعي يقول: إذا سمعتم مني قولا يخالف قول الرسول صلى الله عليه و سلم فاعملوا بكلام رسول الله و اضربوا بكلامي هذا الحائط، و هذه المقالة شبيهة بمقالة سيدنا رضي الله عنه، ولكن مقالة الشيخ أعم، لشمولها لكل شيء يخالف الشريعة، قرآنا و سنة و تقريرا، أو إجماعا أو قياسا.

و قد كان الإمام أحمد يقول: لا كلام لأحد مع كتاب الله تعالى و سنة رسوله صلى الله عليه وسلم، فهم رضي الله عنهم يتبرؤون مما يصدر منهم أو ينسب إليهم من الأشياء التي تخالف الشرع، و كذلك غيرهم من كمل العارفين يتبرؤون من ذلك، و الغالب ما ينسب لهم من ذلك يكون مدسوسا عليهم و مكذوبا عليهم فيه، و لذلك لما قيل لسيدنا رضي الله عنه أيكذب عليك؟ قال نعم، و هو سبب قوله: إذا سمعتم عني شيئا فزنوه. إلخ ... فكأنه يقول رضي الله عنه: ما كان موافقا للشرع فنسبته إليَّ صحيحة. فخذوه و لا تهملوه. و ما كان مخالفا فهو مكذوب عليَّ فاتركوه. و لا تعرجوا عليه بحال، ولو كان في نفس الأمر صادرا عني لأني لا أوافق إلا على ما كان موافقا للشرع غير مخالف له.

و لكن الغالب فيما خالف الشرع أن يكون مكذوبا عليه فيه. فهو متبرئ منه. غير أنه لا سبيل للقطع بكذب ما ينسب له من ذلك. لأنه لم يقل أجزموا بكذبه. و إنما قال فاتركوه. و الأمر بتركه لا يقضي بالقطع بأنه مكذوب عليه. إلا ما كان من الباطل الذي لا يصدر عن عاقل. فالجزم بكونه مكذوبا عليه هو المتعين على كل متدين يقدر قدر أهل الله الكمل. خصوصا من كان منهم معلوم الفضل، زكي النفس، سامي القول و الفعل، و بالأخص خاتمهم الأكبر سيدنا القطب التجاني رضي الله عنه. فإن لكلامه صولة و مذاقاً يتحقق به صاحب الذوق السليم ما يؤيد به قوله. و أما ما ينسب له من القول و لم يكن من فعاله فيكاد أن يجزم بكونه ليس من كلامه من يعرف جلالته بما ينطق به لسان حاله.

[1] ربيعة بن فروخ التيمي المدني، يدعى بربيعة الرأي، و به تفقه الإمام مالك، و هو أحد كبار علماء عصره بالمدينة المنورة، قال فيه ابن الماجشون: ما رأيت أحدًا أحفظ للسنة من ربيعة. توفي سنة 136 هـ، أنظر ترجمته في الأعلام للزركلي 3: 17.

و قد وقفت على تأليف صغير الحجم سماه مؤلفه: يعسوب السر الرباني، في الشيخ أبي العباس التجاني[1]. لم يراقب واضعه مولاه فيما وضع فيه من الكذب على الشيخ رضي الله عنه في كرامات عدها و لا أصل لها. مع كلام في فضل الطريقة التجانية لم ينقل عن الشيخ قدس سره و لم يقله. و نَوَّهَ فيه غاية التنويه بالمسمى السيد عبد المالك بوطيبة و السيد عبد الباقي المرشدي. و هما من أصحاب الشيخ رضي الله عنه. و أفرط غاية الإفراط بذكر ما يرويه عنهما بعبارة عامية. دالة على أن ذلك الكلام لا يصدر إلا عن جاهل بالطريقة. أو عامي زنديق، و أدى به الحال إلى تفضيلهما على الشيخ رضي الله عنه. مع بعض كلامهما مما هو من الكفريات غير بعيد، و حاشا من جريان ذلك على لسان أحد من أصحاب الشيخ العامة. فضلا عن الخاصة، فليحذر من عثر على ذلك التويلف من الضلال، و ليتحقق أن طريقتنا المحمدية ليست على ذلك المنهج الذي يفضي للوبال، عياذا بالله من الجهل، و سوء الأدب على ذوي الفضل.

و لما طالعته أمرت من وجدته عنده بحرقه و تمزيقه، لأنه محض كذب لا يأتي بخير. ليستريح منه الغير، و قد حدثني محل الأخ حفيد شيخنا العارف بالله سيدي أحمد العبدلاوي رضي الله عنه سيدي أحمد بن السائح أنه حلت بيده نسخة من ذلك التويلف بعين ماضي. فقرأه على حفيد سيدنا قدس سره العارف بالله سيدنا البشير[2] رضي الله عنه. فحصل له به غيظ كبير على مؤلفه. و كتب للإخوان و الأحباب القاطنين بالوطن بعد تمزيقه. محذرا لهم من مطالعته. و آمرا لهم بحرق ما يعثرون عليه منه.

قوله رضي الله عنه "أكابر أقطاب هذه الأمة لا يدركون مراتب أصحابي"

اعلم أن أهل الله الذين أذن لهم في التعبير عما أدركوه من المقامات إلهاما من الحق لهم ليزدادوا بذلك ترقيا فيها بمقتضى شكر النعمة و التحدث بها في سائر الحالات، لا يمنعهم من ذكر ما أحرزوه بالفعل. و ما وعدوا به من الفضل، ما يخطر على الأوهام من التبجح، وحب التمدح، لصفاء سريرتهم، و تنوير بصيرتهم، و تنزيه قدرهم من أن يقفوا مع هذا الحظ الذي تنحط به الرتب العلى إلى الحضيض الأسفل. و الدرك الأرذل، و الظن بهم أن يكون قصدهم

---

[1] حول هذا التأليف قال العلامة سكيرج في كتابه جناية المنتسب العاني فيما نسبه بالكذب للشيخ التجاني 2: 64. قال: و قد وقفت عند بعض الإخوان في قبيلة بني يزناتن، من دائرة مدينة وجدة من الإيالة المغربية، و أنا متول لخطة القضاء بها، على تو ليف في نحو كراسين، ذكر فيه مؤلفه بعض فضائل الطريقة التجانية، و ما هو من الكرامات و الفتوحات الربانية، مما رآه في نظره من المناقب المختصة بالشيخ التجاني رضي الله عنه، و بأصحابه العامة منهم و الخاصة، و نوه غاية التنويه بصاحبي الشيخ رضي الله عنه السيد عبد المالك بوطيبة و السيد عبد الباقي المرشدي، و أفرط غاية الإفراط فيما نقله عنهما من ذلك بعبارة عامية، دالة على أن ذلك الكلام لا يصدر إلا عن جاهل بالطريق، أو أمي زنديق، أو مبغض في الشيخ و في صاحبيه المذكورين و في طريقته الأحمدية، ليتداول العامة ذلك فيقوم ضجيج الإنكار بما نسبه إليهم من تلك التقولات، التي هي من قبيل الترهات و التهورات، التي تشغل الأفكار وتشتعل بها نار الإنكار.

[2] المراد به سيدي محمد البشير بن محمد الحبيب بن الشيخ أبي العباس التجاني رضي الله تعالى عنه، سبقت ترجمته ضمن الجزء   من هذه الرسائل.

المولى، كما هو أليق بهم و أولى، فإن التحدث بالنعم مأمور به شرعا[1]، و القصد من أعمال القلوب لا سبيل إلى الإطلاع على حقيقته قطعا، و إنما يطلع عليها من يعلم السر و أخفى.

فالمتعين إذًا سلوك حسن الظن بكل متحدث منهم بما أعرب عنه من الفضائل والمناقب. وحسن الشمائل و المراتب. و نحو ذلك مما يخصهم أو يعم غيرهم بسببهم[2]. إلا أن إساءة الظنون بمن جرى على هذا المهيع قاضية بالطرد و المقت و البعد، نسأل الله السلامة من ذلك.

و قد ابتلي جل أهل كل زمان بالنظر إلى معاصريهم من المتحدثين بالنعم بعين التهم. و سوء الظن بهم فيما يقولون أو يفعلون. و يخصون من مضى قبل زمانهم بالتقديس[3] و حسن النية طبق ما ينكرون أو يعتقدون، تلك سنة الله سنها لهم ما جبلت عليه النفوس من الإرتياب. وألزمهم السلوك على منهجها ما انسدل عليها من حجاب المعاصرة الذي هو أعظم حجاب. فلم ينتفع بأهل عصره إلا القليل من قليل. و تلك سنة الله في خلقه جرت على نهجها القويم من قديم. حتى لا ينتفع إلا الخاص بالخاص. بمحض الإختصاص، لذلك تجد كثيرا من أهل الله لا ينتفع بهم إلا البعض من الناس. و لا يحصل فيهم اعتقاد من أهل قطرهم. بل من أهل عصرهم. إلا من يسره الله لهم أو يسرهم له. فيجد من نفسه قابلية الحب فيهم. و إقبالا على ما يقابله منهم بوجه القبول، فيرى الخصوصية فيهم. فيجد ذاته كلها عيونا تنظر. و تنتظر ما يلوح لها من محاسن من اعتقدت فيه تلك الخصوصية. و كله آذانا تسمع حديثه و ما حدث عنه. و كله ألسنة تثني عليه طبق ما له من حسن الظن فيه. حتى أنه يستحسن ما يستقبحه غيره. و يهجر من أجله من لا يوافقه في الإعتقاد، و هذا كله من قبيل ما يسلمه كل شخص. وذلك ليستدل على صحته بما يجده من الحال في نفسه. بين أبناء جنسه. فلا يحتاج إلى الإستدلال عليه من كلام رجال هذا المجال.

---

[1] إشارة لقوله صلى الله عليه و سلم: التحدث بالنعم شكر. إهـ.. مسند الشهاب القضاعي 1: 61 رقم 44، ومن ذلك أيضا قوله صلى الله عليه و سلم على المنبر: من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير، و من لم يشكر الناس لم يشكر الله، التحدث بنعمة الله شكر، و تركها كفر، و الجماعة رحمة، و الفرقة عذاب. إهـ.. مسند الإمام أحمد (حديث النعمان بن بشير) 5: 349 رقم 18104 رقم 18105.

[2] قال في الفتوحات المكية   و لما كانت النعم محبوبة لذاتها، و كان الغالب حب المنعم، حتى قالت طائفة إن شكر المنعم واجب عقلا، جعل الله التحدث بالنعم شكرا، فإذا سمع المحتاج ذكر النعم مال إليه بالطبع و أحبه، فأمره أن يتحدث بنعم الله عليه، و أما بنعمة ربك فحدث، حتى يبلغ القاصي والداني، إلى أن قال: و من هذا الأمر ذَكَرَ أهلُ الله ما أنعم الله به عليهم من المعارف و العلم به والكرامات، فإن النعم ظاهرة و باطنة، و قد أسبغها على عباده كما قال: و أسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة. إلخ.. الفتوحات المكية. الباب 558 في معرفة الأسماء الحسنى (حضرة الإجابة) 7: 464.

[3] أشار إلى هذا بعض الشعراء بقوله:

قل لمن لا يرى للمعاصر شيئا   و يرى للأوائل التقديمـــــا
إن ذاك القديم كان حديثـــــا   و سيسمى هذا الحديث قديما

و منه أيضا قول شاعر آخر:

أولع الناس بامتداح القديم   و بذم الجديد غير الذميم
ليس إلا لأنهم حسدوا الحـــــي و رقوا على العظام الرميم

و إذا تقرر هذا المقال في هذا المقام أنتج لمطالعه نتيجة حسن اعتقاد في كل من حدث بنعمة مولاه. بما خصه به و أولاه، و لا يفتح باب الإنكار لفضله الذي أعرب عنه بنفسه. إلا المحروم في معناه و حسه. و لا موجب للإنكار أو الإعتراض إلا سوء الظن. أو الحسد. أو سوء الأدب. و قل من يصدر منه ذلك من غير حظ نفس. و هو نفساني. و لهذا تجد الكمل من العارفين يزرعون حب الأدب في قلوب المحبين. ويؤكدون عليهم قطف ثماره من أفنانها. حتى يتمكن فيهم ذلك ليكمل لهم الإنتفاع بسراية السر عند الإستمداد منهم. أو التعلق بهم. أو الإختصاص بهم من بين العموم. و كثيرا ما يلهج الكمل بين مريديهم بما منحهم الحق به ليتمّ على يدهم الإنتفاع لعمومهم و خصوصهم. و ينوهون بما أحرزوه من المقامات من بينهم حتى ترسخ المحبة في قلوبهم. و هي المغناطيس الجاذب للسر النافع. الذي لا تؤثر فيه عوامل القواطع.

و المقصود من ذلك كله توثيق العلائق و الروابط القلبية بين المريد و شيخه. فيظفر بالمراد طبق ما يريد. و فوق ما يريد. و كل شيخ يصرح بما يرى فيه مريديه. و كلما عظمت رتبته زاد تنويها بما لديه. ليعظم الإنتفاع على يديه. و من هذا الباب قول سيدنا رضي الله عنه: أكابر أقطاب هذه الأمة لا يدركون مراتب أصحابي.

قول سيدنا رضي الله عنه: القطب له عصمة كعصمة الأنبياء عليهم الصلاة و السلام

معناه أن القطب محفوظ من الوقوع في المعصية. لا تصدر منه لا في السر و لا في العلانية، فالعصمة للقطب هي الحفظ التام. من الوقوع في الآثام. بحيث لا يكاد أن تصدر منه معصية قبل تكليفه و بعده. حتى أنه يكاد أن يحكم عليه بأنه لا يعصي الله أبدًا في جميع أحواله. و إلا فليس بقطب. فإن تأكيد الحفظ من المعاصي في حقه هو كالشرط في المتصف بالقطبانية. وهو المراد بتشبيهه بالعصمة. و إلا فالعصمة على الحقيقة لا تكون إلا للأنبياء. [1]

[1] قال في الفتوحات المكية إذا حصلت للإنسان حالة مشاهدة عين فقد كمل و كملت معرفته وعصمته، فلم يكن للشيطان عليه من سبيل، و تسمى هذه العصمة في حق الولي حفظا، كما تسمى في حق النبي و الرسول عصمة، ليقع الفرق بين الولي و النبي، أدبا منهم مع الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، ليختصوا باسم العصمة، و مع هذا فإني أبين الفرق بينهما، وذلك أن الأنبياء لهم العصمة من الشيطان ظاهرا و باطنا، و هم محفوظون من الله في جميع حركاتهم، و ذلك لأنهم قد نصبهم الله للناس ولهم المناجاة الإلاهية، فالأنبياء المرسلون معصومون من المباح أن يفعلوه من أجل نفوسهم، لأنهم يشعرون بأفعالهم و أقوالهم، فإذا فعلوا مباحا يأتونه للتشريع ليقتدى بهم، و يعرفون الأتباع عين الحكم الإلاهي فيه، فهو واجب عليهم ليبينوا للناس ما أنزل إليهم، يقول الله تعالى: يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك، و إن لم تفعل فما بلغت رسالته، و الله يعصمك من الناس، و للورثة من هذا التبليغ حظ وافر، و الولي محفوظ من الأمر الذي يقصد الشيطان عند إلقائه في قلب الولي ما شاء الله أن يلقي إليه، فيقلب عينه بصرفه إلى الوجه الذي يرضي الله، فيحصل بذلك على منزلة عظيمة عند الله، و لولا حرص إبليس على المعصية ما عاد إلى هذا الولي مرة أخرى، فإنه يرى ما جاءه به ليبعده بذلك من الله يزيده قربا وسعادة، و الأنبياء معصومون أن يلقي الشيطان إليهم، فهذا الفرق بين العصمة و الحفظ، و إنما جعلوا الحفظ للولي أيضا أدبا مع النبي، فإن الشيطان ما له سبيل على قلوب بعض الأولياء من أجل العلم الذي أعطاه التجلي الإلاهي لقلوبهم، يقول تعالى: و حفظا من كل شيطان مارد. إلخ.. الفتوحات المكية الباب 69 في معرفة أسرار الصلاة وعمومها، (وصل في فصل من يتوجه عليه حكم السجود) 2: 257.

و مذهب الشيخ هنا جارٍ على ما قاله أكابر أهل المعرفة بالله الذين يقولون بأن الولاية لا تكون إلا للمحفوظ من الوقوع في المعاصي. حتى قال بعضهم في قوله تعالى: و لم يكن له ولي من الذل[1]: أن الحق تعالى نفى الولاية عن كل من صدرت منه معصية. و بعضهم قال فيها: لا يكون وليا من نتج عن معصية كولد الزنا. و بعضهم قال: لا يكون وليا من وقعت فيه الفاحشة. و خص بعضهم عدم صدور المعصية ممن يحل محل القطبانية بالفعل. و أما قبل جلوسه على منصتها فالمعصية تصدر منه. و يوفق للتوبة. حتى أن بعض العارفين سئل هل يزني العارف؟ فقال: قد يزني و كان أمر الله قدرا مقدورا.[2]

ثم إن كلام سيدنا رضي الله عنه يؤخذ منه بالتشبيه أن القطب لا يصدر منه ذلك بعد جلوسه على كرسي القطبانية. و يؤخذ أيضا من قوله أن حالة القطبانية محفوظة من ذلك. و أما قبل صيرورته قطبا فقد يعصي. و مقتضى العصمة أنه لا يعصي قبل جلوسه على منصة القطبانية أيضا. سواء كانت كبيرة أو صغيرة. فإنها لا تصدر منه حالة قطبانيته. و قد يتنزل على أنه لا تصدر منه الكبيرة. و أما الصغيرة فقد تصدر. كما قيل بجواز صدورها من النبي قبل النبوة. و الذي أعتقد أن النبي قبل النبوة معصوم من ذلك كله. لأن العصمة تدفع عن نفسها وقوع المتصف بها في ذل معصية. و إنا لله ممن جوز صدورها منه مع أن الولي هو قطرة من نبي، و قد قيل فيه بأنه لا يكون وليا إن صدرت منه، و يقال أن المعصية لا تسلب الولاية. و لكن حالة التلبس بها يكون الولي في حجاب الغفلة. كالمؤمن الذي يتلبس بمعصية الزنا. فإنه يكون محجوبا عن إيمانه كما نص عليه حديث: لا يزني الزاني و هو مؤمن[3]. إلخ ... فهو بعد الفراغ من المعصية و توبته منها يرجع له الإيمان. و ترجع للولي ولايته. لكن في نقص عن المرتبة التي كان فيها.

قال العلامة الشيخ محمد بن خليل في المسألة الخامسة عشر من مسائله الأربعينية ما نصه: قال خطيب بلد بالمغرب أن الولي محال أن يعصي الله تعالى. و قال خصمه ممن يدعي علم الباطن أن الولي يعصي الله تعالى. فاجتمع الناس و أتوا بهم إليَّا ورضيا بحكمي في المسألة. و قيل لي: من أخطأ من هؤلاء و من أصاب، فقلت لهم: كلاهما أخطأ الصواب. و ذلك أن

---

[1] سورة الإسراء الآية 111

[2] قال الإمام النووي في كتابه بستان العارفين ص23: قال الإمام القشيري: فإن قيل هل يكون الولي معصوما أم لا؟ قلنا إما وجوبا كما يقال في حق الأنبياء، و إما يكون محفوظا فلا يصر على الذنوب، و إن حصلت هفوات في أوقات أو زلات فلا يمتنع ذلك في وصفهم، و قد قيل للجنيد: العارف يزني؟ فأطرق مليا ثم رفع رأسه و قال: و كان أمر الله قدرا مقدورا. إهـ..

و في الموضوع نفسه يقول الشيخ زروق في كتابه النصيحة الكافية ضمن الباب الخامس المعنون بالنصيحة لخاصة المسلمين. قال: و أما الفقراء فيسلم لهم في كل شيء لا يقتضي العلم إنكاره، وما وجب إنكاره أنكر عليهم مع اعتقاد كمالهن، إذ لا يبعد أن يكون للولي الزلة و الزلات، إذ الأولياء محفوظون، والحفظ يجوز مع وقوع المعصية، إلا أنه لا يجوز مع الإصرار عليها، و قد سئل الجنيد رحمه الله تعالى: أيزني العارف؟ فقال و كان أمر الله قدرا مقدورا، و قال ابن عطاء الله ليت شعري لو قيل له: أتتعلق همة العارف بغير الله؟ لقال: لا. إلخ..

[3] إشارة لقوله صلى الله عليه و سلم: لا يزني الزاني حين يزني و هو مؤمن، و لا يسرق حين يسرق وهو مؤمن، و لا يشرب الخمر حين يشربها و هو مؤمن، و التوبة معروضة بَعْدُ. إهـ.. صحيح مسلم (كتاب الإيمان) باب بيان نقصان الإيمان رقم 170.

الخطيب قد ألحق الولي بمنزلة الأنبياء في العصمة. و الخصم الآخر قد حكم أن الولي يعصي في حال الولاية. و كلاهما على خطأ. لأن الله تعالى لا يولي الفاسقين، فخرج من المسألة أن الولي يجوز أن يعصي، فإن وقع منه هذا الجائز لم يطلق عليه حينئذ أنه ولي.

قوله رضي الله عنه "قل له يرهن لنا هذا البرنوس في شيء من الخبز و الكرموس"

اعلم أن بعض المنكرين حين رأى هذه االمقالة الشريفة مكتوبة في الإفادة استقبح ذكرها. وقال: أي فائدة في عدها من كلام الشيخ المنوه بشأنه بين ذوي المجادة، و ما درى هذا المنكر أن هذه المقالة تضمنت من حسن الشمائل ما يدل على رفعة همة سيدنا رضي الله عنه. ومعاملة أحبابه و أصحابه بما به تنشرح صدورهم. و يكمل به نفعهم. و يتم به سرورهم. وبيان ذلك أنه رضي الله عنه لم يتصدر للمشيخة ليخدمه التلامذة المتعلقون بأذيالِه. فيسلب منهم الأموال بنصب شبكة الإحتيال في سائر أحواله. بل كان رضي الله عنه على خلاف ما يعهد من المتمشيخين في استخدام المريدين. خصوصاً في حضرات المذاكرة و المحاضرة والمسامرة. فكان هو القائم بالإنفاق و لا يفترق مع واحد منهم إلا على الأذواق. و يبالغ في مقابلتهم بما يدخل السرور عليهم. و يتحافظ على ما يحفظ قلوبهم مما يشوش عليهم. في كل ما يسديه إليهم. حتى أنه حضر ليلة مع الإخوان رجل غير صديق، فأعطاه سيدنا رضي الله عنه شيئا ليقضي به غرضا خارج الزاوية. و حين خرج أمر أصحابه بسد الباب. وأن لا يفتحوها لأحد بعده، و قال لهم: إنه لا يعود إليكم. و قد اشترينا ليلتكم بما دفعناه إليه. قاصدا بذلك رضي الله عنه عدم التشويش على أحبابه بحضور من ليس منهم. لأن انفراده معهم قاض بذكر بعض أسرار الطريق. و غيرها مما لا تنفع غير الصديق. بل ربما تضره على التحقيق.

و لهذا كان بعض خاصة المقدمين إذا حضر مع الأحباب يتفقدهم واحدًا واحدًا. ويستفهم عن أحوال الحاضرين معه و يقول: هل من سحاب بين الأحباب[1]. مستفهما عن غير المحب ليخوض مع الإخوان في فضائل الطريقة. و ما أعده الله لأهلها من جزيل الفضل. و هو من قبيل المحافظة على الأسرار. و التحافظ على ما ينتج من الدخيل في جمعهم من الإنكار[2]. وإن كان بعض من ليس من أهل الطريق قد يستاء بذلك الإستفهام عند حضوره. و لكن الإنكار أشد إساءة. و هو أحق بالمراعاة. بغير مداهنة و لا مدارات. كما يعرف ذلك كل منصف.

---

[1] من هذا القبيل ما جاء في الطبقات الكبرى للشعراني ص 11. قال: و كان الجنيد رضي الله عنه لا يتكلم قط في علم التوحيد إلا في قعر بيته، بعد أن يغلق أبواب داره و يأخذ مفاتيحها تحت وركه و يقول: أتحبون أن يكذب الناس أولياء الله تعالى و خاصته و يرمونهم بالزندقة و الكفر. إهـ..
و يحكى عن شيخنا أبي العباس التجاني رضي الله عنه أنه كان كثير الإستشهاد في هذا الصدد بقول الشاعر:

لا يكتم السر إلا كل ذي ثقة	و السر عند خيار الناس مكتوم
السر عندي في بيت له غلق	ضاعت مفاتحه و الباب مقفول

[2] يستأنس لهذا بقوله صلى الله عليه و سلم خاطبوا الناس بقدر ما يفهمون. إهـ.. و في رواية أخرى خاطبوا الناس على قدر عقولهم. إهـ..

و لقد كان سيدنا رضي الله عنه مع أصحابه على جانب عظيم في معاملتهم بالجميل. و العمل على ترك ما يثير غيض المنكرين. مما يعد من هذا القبيل في هذا السبيل. شفقة عليهم. ورحمة بهم. و يسدي للجميع من المعروف ما ائتلفت به قلوبهم كما بيناه سابقا. و لا شك أن رهنه لبرنوسه في ما ذكره يظهر به لكل ذي بصيرة منورة أنه رضي الله عنه كان لا يكلف أصحابه بكلفة مع ترك التكلف بكل عفة. و قد اقتدى بالرسول صلى الله عليه و سلم في رهن درعه[1] كما في الصحيح.

[1] إشارة لما رواه البخاري عن مولاتنا عائشة رضي الله عنها قالت: توفي رسول الله صلى الله عليه و سلم و درعه مرهونة عند يهودي بثلاثين صاعا من شعير، و قال يعلى: حدثنا الأعمش: درع من حديد، و قال معلى: حدثنا عبد الواحد عن الأعمش و قال: رهنه درعا من حديد. إهـ. صحيح البخاري (كتاب الجهاد والسير) باب ما قيل في درع النبي صلى الله عليه و سلم رقم 2849 (كتاب المغازي) باب منه رقم 4353.

الأنباء بنصح الأبناء

للعلامة سيدي أحمد سكيرج رضي الله عنه

تحقيق ذ محمد الراضي كنون
الإدريسي الحسني

بسم الله الرحمن الرحيم و صلى الله على الفاتح الخاتم و آله و صحبه و سلم تسليما

الأنبـاء
بنصح الأبنـاء[1]

الحمد لله الذي أوصى بالتقوى، ولم يكلف نفسا فوق ما تقوى، والحمد لله الذي حمد نفسه في سابق الأزل، وأنطق الألسنة بحمده على ما به تفضل، ومازال سبحانه يزيد العباد نعما، ويمنحهم كرما، حتى صرح سيد الخلق عليه السلام بالعجز عن الوفاء بشكره تعالى فقال (لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك[2]) فنشكره سبحانه بلسان هذا النبي الكريم، الذي نقر بالعجز عن الوفاء بما استحق قدره من التعظيم، فصل اللهم عليه صلاة تناسب قدره العظيم، وتشمل جميع الآل والأصحاب والتابعين لهم في سلوك نهجه القويـم.

أما بعـد: فهذه كلمات غير مُنَسَّقة، ولا بزخرف الأحرف مزوقة، وإنما أكتبها طبق ما تأتى لي بحسب الوارد، من أعذب الموارد، وأقدمها تحفة لابني، ومن كان مثله من طلبة العلم، رزقهم الله سلامة الإدراك والفهم، وأسأل الله لي ولهم الفتح اللدني، والتوفيق للسلوك بالجميع على المنهج السني، وسميتها **(بالأنباء بنصح الأبناء)** نفع الله بها الجميع في الدارين ولا جعلها حجة علينا في حالتي القرب والبين[3]، إنه رب ذلك والقادر عليه. وهذا أوان الشروع فيما أورد الوارد، على لسان الوالد، فقال راجيا منك أن تعيره سمعا:

يا بنـي إني أخاطبك مخاطبة الوالد المشفق على أضعف بنيه، حين يراه محتفا بما يسوءه، ولا قدرة له على انتشاله، من أوحاله، فيقول مرشدا له بما تحصل به نجاته من الشرور، إن عمل بمقتضى ما يشير به عليه طبق ما يهمه من حالـه؛

يا بنـي أريد بك النجاة، وأرشدك إلى طريقها، ولا قدرة لي على دفع ما قدر لك في الأزل، ولا حيلة لي في جلب ما لم يقدر لك من خير كثر أو قل، ولكن إن لم أشر عليك بما فيه النفع لديك، أعدّ مقصرا في حق رعايتك، ولا ينبغي الإحتجاج بالقدر مع عدم قدرتي على نفع نفسي، فأحرى ما ينفع غيري، وليس لي من الأمر من شيء، ولكن الحق تعالى يوفق لما فيه خير العبد في الدارين بفضله، وله أن يقابله بعدله.

---

[1] هو من عداد مؤلفاته التي كتبها بمدينة الجديدة، و يذكر في بعض تقاييده أنه شرع في كتابته أواخر سنة 1344 هـ_1926 م، و قد أودع فيه نصائح و توجيهات تربوية هامة، ليس لولده فحسب، بل لسائر أقرانه و أبناء جنسه.

[2] إشارة للحديث الذي رواه الإمام مسلم عن عائشة رضي الله تعالى عنها أنها قالت: فقدت رسول الله ليلة من الفراش فالتمسته، فوقعت يدي على بطن قدميه و هو في المسجد، و هما منصوبتان، و هو يقول: اللهم أعوذ برضاك من سخطك، و بمعافاتك من عقوبتك، و أعوذ بك منك لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك. إهـ.. صحيح مسلم (كتاب الصلاة) باب ما يقال في الركوع رقم 1042.

[3] البين: البعد

يا بنـي: لم أر نافعا لك أكثر من صفاء مرآة باطنك مما يصديها من حقد على أحد من خلق الله، ومن حسد يزيد في ظلمة النفس، وضيق النفس، فسس نفسك برياضة سلامة الصدر، وخذ حذرك من اتخاذ أي شخص عدوا في الظاهر، فإن عدواة العلانية تعجل بالعطب، وصاحبها دائما لا ينظر عند عدوه بعين الرضى، وإنما ينظر بمقلة الغضب.

يا بنـي: أوجب عليك الحق الإيمان والتصديق، فكن مؤمنا مصدقا، ولا تعترض على خواص خلقه، واعتقد في كل مؤمن أنه الخضر فتعد من الخواص[1]. فإن كنت ذا اعتقاد سليم، فماذا يضرك؟ فلعمري أن كل معتقد لقريب من السلامة من المنتقد، والإنتقاد أقرب من الخطر الجلل في كل مقام سرا وجهرا. فحذار من سوء الظن في أهل الله، ولمقتضى البشرية التي أنت من طينتها، أخشى عليك أن تستولي عليك العصبية فتكون في حيز التنافس والدفاع عما يوافقك، سيان كنت فيه على خطأ أو على صواب، وما أخالك إلا متعصبا في كل ما تجادل فيه في بساط المعتقدات، وقلّ من سلم في المحاورات والمناظرات.

يا بنـي: منحك الحق نور الإيمان، بعد أن أودع فيك نور العقل، فخذ من النورين قبس الأدب، لتسلك به في مضايق المسالك، فتنجو غالبا من العطب، واعقل نفسك بحبل العقل المنور عن الخوض في الباطل في الباطن والظاهر، فإن النفس إذا أطلقت وهواها أسرعت بالتلف لصاحبها، ولا تلف أكبر من تلف الدين، وهو أسرع ما يكون عندما يمس بجانبه أدنى اهتضام. فحذار من التلف، وتلاف أمر نفسك قبل السقوط للحضيض من أعلى الشرف، ولا تعتمد على ما ينوهك به أهل الشرف، وما أظنك تنجو إن لم توطد نفسك على السيرة المحمودة باجتناب ما يذم.

يا بنـي: إن الأدب الديني ما سنه الرسول، وجماعه التقوى، وإن الأدب الدنيوي لا تنافيه التقوى، وجماعه حسن الخلق، وطريقه المباشة مع الأدون بغير سقوط همة، فقوّ نفسك عند ملاقاة العبيد بمعجون التواضع، الممزوج بعسل نحل الأدب، ولين الخطاب، وأخشى عليك إن لم تعط المقامات حقها من الردى، فكن عند الظن بك إذا لم تصادف محلا

---

[1] قال الإمام سيدي محمد الباقر رضي الله عنه يوصي ابنه: إن الله خبأ ثلاثة في ثلاثة، سخطه في معصيته، فلا تحقرن معصية فلعل سخطه فيها، و رضاه في طاعته، فلا تحقرن طاعة فلعل رضاه فيها، ووليه في خلقه، فلا تحقرن أحدا فلعله ذلك الولي. إهـ..

و في هذا المعنى يقول بعضهم:

فلا تحقرن شخصا من الناس علـــه	ولي إله العالمين و لا تـــدري
فذو القدر عند الله خاف عن الورى	كما خفيت عن علمهم ليلة القدر

و في الباب نفسه يقول الشيخ الشريشي في قصيدته الرائية:

و لا ترين في الأرض دونك مؤمنا	و لا كافرًا حتى تغيب في القبــــــر
فإن ختام الأمر عنك مغيـــــــــب	و من ليس ذا خسر يخاف من المكر

لجميلك، ومجاملتك أن لا تعمل على مقتضى الهوى[1]، فإن الضرر سريع الخطا، لمن إليه خطأ، في صواب وخطا.

يا بنـي: إن زمانك الذي وجدت فيه يقضي عليك بأن تكون لابسا حلة قومك في الظاهر، وتكون متحليا بسيرة نبيك وصحابتهم وتابيعهم في الباطن، فلا تخرق سفينة العادة وأنت راكب فيها على لجج تنافس نفسك، والأهواء ترمي بك أمواجها لما لا تحمده بين أبناء جنسك. وأراك تحمل كلامي على غير المقصود منه، فتطلق نفسك من حبل الدين، أو تتغافل عن مداراة من تدري، فتعامل بنقيض القصد، فحذار من تركك لما تطلب بالنهوض به في كل مظهر، والخلق كلهم مظاهر الحق، فكن من الكل على بال، مع التمسك بحبل الديانة.

يا بنـي: تعلم العلم لتعمل به إن وفقك الحق، واصرف الوجهة إليه لتعلمه لغيرك، فتعليمه والعمل به سيان، والتعلم طريق العمل، ومنهاج لفتح أبواب العلم اللدني، وأن مفتاح كنزه بالعمل المشروع، فما نال مفتاح كنز المعرفة من لم يظفر سر العمل بالإخلاص، ولا أنفع من نظرة كامل، أوجب محبوب للعالم، بل وللجاهل. وحذار من أنفة العلم أن تخر بها رغما على الأنف عند ما ترى غيرك ليس له ما عندك بزعمك بين القوم. فالعالم إن طرد يطرد بعنف بمقتضى الحال، ويزج به في سجن الأهوال، واعتبر بقضية إبليس فهي لكل عالم عبرة، يحق بها ما دام عالما أن تفيض عيناه عبرة. وإني أخشى أن تظن أنك صرت عالما فتكتفي عن طلب العلم، فتعد من الجاهلين، فإياك أن تعدّ نفسك عالما، وكن دائما متعلما، فتعدّ عند الخلق والله عالما.

يا بنـي: إن منحت لذة التعلم تنسى بها لذة الدنيا، وإن حرمت لذة العمل لم ينفعك علمك في الأخرى، ولكن تجد في الدارين العلم أحسن من الجهل، فالعالم جلّ قدرا، وقد ألبسه الحق حلة من الوصف الذي يخشى، وإنما يخشى الله من عباده العلماء، تكريما لوصفه، وتعظيما لذلك العنوان، فالعار كل العار على اللابس لحلة العلم وهو عار عنها في مواقف بين أهل صنفه. فيا لله عليك إلا ما عملت بمقتضى العلم، وعامل نفسك في العمل بموجب العنف

---

[1] اتباع المرء لهواه من أكبر المعضلات التي تحول بينه و بين ربه، و قد نهى الله سبحانه و تعالى عن هذه المعضلة في آيات كثيرة من كتابه العزيز، من ذلك قوله: فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا، و من ذلك أيضا قوله: يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق و لا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله.
و من هذا الباب أيضا قوله صلى الله عليه و سلم: المهلكات ثلاث، إعجاب المرء بنفسه، و شح مطاع، وهوى متبع. إهـ.. أنظر مجمع الزوائد (كتاب الإيمان) باب في المنجيات و المهلكات 1: 270 رقم 315.
و يرحم الله الشاعر إذ يقول:

إذا أنت لم تعص الهوى قادك الهوى ... إلى كل ما فيه عليك مقـــــــــــال

و كذلك قول البوصيري في بردته:

و النفس كالطفل إن تهمله شب على ... حب الرضاع و إن تفطمه ينفطـــــم
فاصرف هواها و حاذر أن توليـــه ... إن الهوى ما تولى يصم أو يصـــــم
و راعها و هي في الأعمال سائمة ... و إن هي استحلت المرعى فلا تسـم
كم حسنة لذة للمرء قاتلـــــــــة ... من حيث لم يدري أن السم في الدسم

والحلم. وإني أخشى عليك أن تكلفها ما لا تطيق فتمل، والملل غير محمود[1]، وغالبا صاحبه لا يصل للمقصود، فكن منشرح الصدر بعلمك المقرون بالعمل، واحذر من عمل غير مصحوب بعلم، أو بعلم ممزوج بكسل، واعتبر بمقيم الصلاة، وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين [2]، وليس كل مصل بمقيم.

يا بنـي: لا يهمنك إن اعتدت من نفسك ترك العمل بالعلم، فتدع طلب العلم، فإن العلم يجذب لحضرة الفضل، ويكسوك حلة الهاء، وبه تتجلى عنك الغمة، ويسمو بك بقدر مالك من همة، وأن المتجمل لتربأ به نفسه عن المجالسة في صف بني غبراء، وهم في الدنس والوسخ، كما أن المتسخ ينظر لحالته بنفسه، فيتنفس الصعداء إن جالس المتجملين في بساط المباهاة. فاربأ بنفسك عن تلطيخ علمك بالفعل القبيح، وكن عند الظن بك، في استنهاض نفسك، لما تحمده في العاجل والآجل، واحذر في هذا المقام من التكبر فإنه حلية الجاهل، وبلية للمتجاهل[3]، وأخشى أن تكون من الجاهلين، الرافلين في أذيال العالمين.

يا بنـي: لا تظن أن هناك رتبة شريفة أكبر من رتبة العلم بين المكتسبين للفضائل، فإنه لا أفضل ولا أجمل ولا أكمل طريقة للفضل المكتسب من فضل العلم. فساقط النسب وهو عالم يزاحم الشريف الطيني في علاه الحقيقي عند مولاه، وإن كان الشريف الطيني لا يساويه شيء، ولكن العلم يدرك به مدارك تقاصر عنها أهل الخصوصية لخاصية مودعة فيه في الدنيا وفي الآخرة. وحيث كان الشرف الذاتي غير مكتسب، وهو النسبة المحمدية، والعلم شرفه مكتسب يعين على غير الشريف الذاتي أن يبذل في إحرازه النفس والنفيس، ولا يرضى لنفسه الجهل الذي لا يعدّ صاحبه من أهل الفضل، حتى إذا ظفر بنصيب من العلم عدّ شريفا، ولكن شرفه مكتسب، ولو بلغ في العلم الغاية القصوى، فغاية الأمر أنه عالم، والشريف الذاتي في كمال مقام بمحض ما منحه المولى. فإياك والزلق في هذا المقام، بما تسوله الأوهام، فغير الشريف الذاتي في قلبه حزازة تظهر دائما في فلتات اللسان، فيقع في قذف نفسه من حيث لا يشعر بإذاية آل البيت عليهم السلام[4].

يا بنـي: إن العالم إذا استولت عليه أنفة العلم وقع في مهواة الردى، وعد كل الناس ممن لا يستعبدهم من العدا، خصوصا إن كان له بين العامة صولة، أو أدناه أحد الأمراء لمجلسه، أو اتخذه الأمير أنيسا أو سميرا، أو معلما أو ملحوظا عنده بكمال الإعتبار. فكن بمن

---

[1] إشارة لقوله صلى الله عليه و سلم ضمن حديث طويل: خذوا من العمل ما تطيقون، فإن الله لا يمل حتى تملوا. إلخ.. أنظر صحيح البخاري (كتاب الصوم) باب صوم شعبان رقم 1947 (كتاب اللباس) باب الجلوس على الحصير رقم 5727 . (كتاب الإيمان) باب أحب الدين إلى الله أدومه رقم 43.

[2] سورة البقرة، الآية 45.

[3] إشارة لقوله صلى الله عليه و سلم: لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر. إهـ.. أنظر صحيح الإمام مسلم (كتاب الإيمان) باب تحريم الكبر و بيانه رقم 227.

[4] حول هذا المعنى يقول المؤلف العلامة سيدي أحمد سكيرج في بعض مقطعاته:

شرف الآل لهم ذاتي يرى | و لدينا شرف الغير عــرض
فلتكن خادمهم متصـــــفا | بكمال الحب من غير غرض

هو بهذه الحالة على حذر، لأنه حل محل الضرر، ولا يرجى له نجاح في غالب أعماله القلبية في الغالب، مادام معجبا بذلك، ويرى له المزية على الغير في هذه الطرق سالك، وأخشى أن تكون مغرما بحب الظهور[1]، فترضى لنفسك هذه الأمور، فالله الله في دين من يعلم ويعمل لنيل المراتب عند الأمراء، وأنا منهم، فياليتني حيل بيني وبينهم بسور النوى، فلم يعرفوني ولم أعرفهم، ولله عاقبة الأمور.

يا بنـي: لا يغرنك إقبال العامة على العالم، فتحب أن تكون بينهم عالما، ولكن كن عالما لخصوص نفسك، فإذا تعلمت كثيرا فعد ذلك قليلا، وقل رب زدني علما. وعلم الناس ليكونوا في ميزانك، لا أنك تكون في ميزانهم، فالعالم في ميزان المنفق عليه، ولو كان المنفق من أجهل الجهلة. وقد خفى عن العالم أنه إن أكل بعلمه كان هو وعلمه في ميزان المأكول منهم، فضاع عند الحق علمه من حيث لا يشعر، وعد عند أهل الله ممن باع دينه بالدنيا. فحذار من التشوف للرئاسة بالعلم بين العامة، فهي الطامة الكبرى في الأخرى. وإني أخشى أن تكون مغرما بهذه الحالة، فتقع فيما وقعت فيه، فلا أنت ظافر بها، ولا أنت بالغ من العلم ما تحمده دنيا وأخرى، فانشل نفسك بالتعلم دائما، وعدم الإكتفاء بما تعلمته، فإن من شغل نفسه، وعمر أوقاته بالتعلم لا يحل في هذه البلية غالبا، ومن اشتغل بالتعليم، واكتفى عن التعلم وقع في هذه المهامه المردية.

يا بنـي: لا تجعل علمك وسيلة للدنيا، فالدنيا دنية، وعلمك عالي القدر، عرفت منزلته أو لم تعرفها، فإنه في نفسه فوق قدرك، إن لم تقدر قدره، فكيف تبذل نفيسا أفنيت فيه نفائس نفسك فيما لا يزن عند الله جناح بعوضة، فتنحط قدرا عند العبيد ومولاهم، وتلحظ بلحظ البغض عند الكل أو عند البعض. وما أراك تعرض عن هذه الفخفخة النفسانية، إن لم تقصد بعلمك وتعلمك وتعليمك وجه الله، وهو المقصود من فطرتك ونشأتك، فبالله عليك لا تعتضها ببدل غير مرضي. وإني لأخشى أن تُدْعَى في هذا المقام بالصوفي، فتأكل مال المعتقدين فيك بالباطل، فتضيع أعمالك الماضية، وما أخالك صوفيا بعد ذلك.

يا بنـي: إذا تعلمت وعلمت بعلمك المحمود، فأنت الصوفي الذي يرجى له بلوغ المقصود. وليس بصوفي من خرق عادة قومه، فلبس مرقعات الصوف وهو جاهل، وإنما الصوفي عند من تزيّ بزيّ الوقت في ظاهره، وتجرد عن خواطره، وأوهامه، وكل ما يوجب له الشهرة بين الخواص والعوام. ولك أن تقول: الصوفي الحقيقي في آخر الزمان، وهو زماننا فما بعده، هو المتجرد عن لباس الصوف، فلا يلبس الصوف، ولا يقتات في العمل بمقتضى علمه السوف. فالعالم يكاد أن يكون صوفيا ولو لبس الكتان، والجاهل غير صوفي ولو لبس الصوف، وادعى ما ادعاه من مراتب رفيعة الشأن من مقامات الإحسان.

---

[1] حب الظهور آفة خبيثة مذمومة، أكدت على تحريمها نصوص كثيرة من الكتاب و السنة و الآثار الشريفة، و يعجبني في هذا الصدد قول بعض العلماء الأخيار: الظهور يكسر الظهور. و كذلك قول الشاعر محمد بن عبد الرحيم الطنتدائي إذ يقول في قصيدته الإستغفارية:

أستغفر الله من حكم النفوس و من ... حب الظهور و من حرص و من جدل

وإني أخشى أن تفهم من كلامي ما لا اقصده، فتسارع على المتجردين في هذا الزمان بالإنكار وتقول: الصوفي هو من كانت هذه حالته، فتقع فيما نهيت عنه، وترجع القهقرى، وأنت مأمور بحسن الظن، وترك الإعتراض، لكن في نفسك كن متحكما، وكن لها بعمل الخير ملزما، ولفمك بلجام النطق بالحق ملجما، واتهم نفسك في هذا المقام فتريح وتستريح علما منك بأن المتهم في غالب أموره يكون منكسر القلب، يحذر من تحقق ما اتهم به.

يا بنـي: لا تعتمد على فضيلة العلم فتترك العمل، ولا تحتفل بالعمل، بغير علم، ولا تترك طلب العلم، إن علمت من نفسك الكسل عن صالح الأعمال، أو علمت منها ترك القيام بمقتضاه، خشية الوعيد الذي وعد به من لم يعمل بعلمه[1]، فإن الشيطان يفرح بهذه الحالة، ويغري نفسك على ما تسوله لك، من حيث تظن أنك وفقت للخير، وهي تظهر الشر بذلك النهي والأمر. فتعلم العلم على أي حالة كنت عليها، وعسى أن يكون لك في العمل النصيب الأوفر، ولقد قال بعض العارفين: تعلمنا العلم لغير الله، فأبى العلم أن لا يكون إلا لله[2]، فاعمل على هذه الطريقة، والتوفيق بيد الله.

يا بنـي: إن العلم على أنواع مختلفة الأوضاع، فإذا تعلمت منه فنا واحدا أو فنونا، فلا تنسب لنفسك كبير إطلاع، ولا طول باع، فإن العلم فسيح المجال، وعالي المنال، وغاية ما حصلته إن تعلمت ذلك أنك على بصيرة مما أنت له مدرك من تلك المدارك، ولربما تكون في فن من الفنون موصوفا بين العامة بتحصيله، وأنت لم تشم له رائحة، ولم تحصل منه مسألة، فارجع لنفسك واختبرها تجد الأمر طبق ما ذكرته لك. فكيف يليق بك أن تدعي الوصول، لغايةٍ قدرُك دونها في النزول، فعجيب من الشخص يعرف ما هو عليه من الجهل ويدعي المعرفة، أو يغتر بوصف من وصفه بذلك، فيظن أنه من أهل الفضل، وهو في الحقيقة ساقط من علو لسفل، وإني أخشى عليك، أن تقنع بما تحصل لديك، والقناعة من الله حرمان، في كل شيء في سائر الأحيان، فشمر عن ساعد الجد بصدق الطلب للعلم، واستكثر منه، ولا تفرق بين محمود منه أو مذموم إلا من حيثية العمل، فإن العلم من حيث كونه علما محمود، ومن حيثية العمل فيه تفصيل، والجهل أقبح الخصلتين بين ذوي التحصيل.

---

[1] إشارة لقول مولانا علي كرم الله وجهه حيث قال: يا حملة العلم اعملوا به، فإنما العالم من عمل بما علم و وافق علمه عَمَلَهُ، و سيكون أقوام يحملون العلم لا يجاوز تراقيهم، يخالف عَمَلُهُمْ عِلْمَهُمْ، و تخالف سريرتهم علانيتهم، يجلسون حلقا فيباهي بعضهم بعضا، حتى إن الرجل ليغضب على جليسه أن يجلس إلى غيره و يدعه، أولئك لا تصعد أعمالهم في مجالسهم تلك إلى الله. إهـ .. سنن الدارمي (كتاب النبي صلى الله عليه و سلم) باب التوبيخ لمن يطلب العلم لغير الله 1: 106 رقم 387.

[2] فيه تحذير من طلب العلم لغير الله تعالى، لما في ذلك من شديد الوعيد، كقوله صلى الله عليه و سلم: من طلب العلم ليباهي به العلماء أو يماري به السفهاء في المجالس لم يرح رائحة الجنة. إهـ.. رواه الطبراني في المعجم الكبير، و ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (كتاب العلم) باب فيمن طلب العلم لغير الله تعالى 1: 439 رقم 866.

و في رواية أخرى من هذا الحديث: من طلب العلم ليباهي به العلماء، أو ليماري به السفهاء، أو ليصرف به وجوه الناس إليه فهو في النار. إهـ.. جامع الأحاديث و المراسيل (حرف الميم مع النون) 7: 61 رقم 20873.

يا بنـي: إذا تعلمت علما، وفتحت أبواب كنوزه، فاطلب علما بعد علم، واغتنم الأخذ عمن له تحصيل أي علم لم تعلمه، وتفهم على يديه ما لم تفهمه، ولو كنت في ضيق حال، وشغل بال، فلربما تفرغت بعد مفارقته للطلب ولم تجد من تأخذ عنه قواعد ذلك الفن الذي كان صاحبه موجودا في وقت صار بعده مفقودا، فتتأسف على ما فاتك من انتهاز فرصة التعلم، فتعد نفسك محروما من ذلك، حيث بيتت الحكمة برأس من يموت، أو في وقت منك أو منه يفوت، فيقال: في الصيف ضيعت اللبن، والعلم إنما هو كما علمت بالتعلم، وهو كيفما كان لا ينتزع انتزاعا، وإنما ينتزع بقبض أهله[1]. ثم إنك لا تجد أحدا يتأسف على تعلم أي علم كان، وإنما تجده متأسفا على عدم معرفته للعلم بين الأقران، وهذا هو الغالب، ولا يستدل بالنادر، ورب علم رفع صاحبه بين أقوام، والحال أنه وضيع، ورب إكرام كان بسبب عالم علم بين فئة عدوّه كرامة في حقه، فأنزلوه بذلك في منزل رفيع، ولكن أخشى عليك أن تعمل بما هو مذموم إن تعلمته، غير أنه إن صلحت نيتك فلا أخشى عليك، ولو تعلمت علم الشطرنج، وعلم السحر، فما دون ذلك.

يا بنـي: لا تكن مدعيا في العلم حصول كفايتك عن الغير، ولو بلغت فيه ما بلغت، فإن بضاعتك فيه مجزاة، وكفى بالمدعي إهانة حقد النفوس عليه، وتوغر الصدور ببطره، وإحصاء فلتاته عليه، ولربما كابره قومه فقطعوه وانقطعوا عنه، فكان من المعتزلين المهملين. فحذار من ادعائك لذلك، واجهد في تحصيل ما فاتك من مسائل العلم الذي لك فيه قواعد، واحفظها بالتكرار و المراجعة، وحافظ عليها من الضياع. فالعلم بحر لا ساحل له، فقف عند حده، وفوق كل ذي علم عليم.

يا بنـي: لا تعتمد على ما تستحضره من الفنون المحررة لديك فتدع تقييدها، فإن مرآة الفكر قد تمر عليها سِنَةُ النسيان، فتمحو من لوح حافتها ما حفظته في سنه، فأحرى ما خطر بالبال، فقد ترى في نفسك استحضار بعض المسائل فتأخذ منها الثقة، حتى إذا كنت في مجال الإفادة أو الإستفادة وجدتها إن لم تأخذ باحتياط فيها في اضمحال أو اضطراب، أو كأنها لم تمر منك على بال، ولهذا تجد أهل الخبرة يعدون للمحاضرات كتابة ما يملون، والخطيب الداهية يصاحب معه نسخة الخطبة التي يريد إملاءها في الجماعة، وإن كانت عن ظهر قلب منه، فيقيد ما تستفيد تقييدا، لا يكون قريب التلف، ولا بعيد التناول، فلربما قيدت شيئا بغير تثبت، فكان تقييده فيه عند مراجعته أكبر تعب ومشقة عليك، وعلى من يراه بعدك، فتندم على قلقك وضجرك، ولات حين مندم، ولو كنت حسنت خطك وانتقيت له ظرفا ظريفا لانتفعت به ونفعت به غيرك، فخذ بحظ وافر من التثبت في مثل هذا البساط، ليكون لك فيه ولغيرك بمراجعته كمال انبساط.

---

[1] إشارة للحديث الذي رواه عبد الله بن عمرو بن العاص قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول: إن الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من العباد، و لكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يُبْقِ عالما اتخذ الناس رؤوسًا جهالا، فسئلوا فأفتوا بغير علم، فضلوا و أضلوا. إهـ. أنظر صحيح البخاري (كتاب العلم) باب كيف يقبض العلم رقم 100، صحيح مسلم (كتاب العلم) باب رفع العلم و قبضه و ظهور الجهل و الفتن في آخر الزمان رقم 6747.

يا بنـي: لا شيء أحلى من كلام الله، ومن ذكر الله، والصلاة على نبي الله، وتعلم العلم وتعليمه، فتمتع بالإستكثار من ذلك في جل أوقاتك، وأعمرها بهذه المحامد التي لا تنال الولاية إلا بها، فهي مفتاح المواهب اللدنية، وباب الدخول للحضرة القدسية. فلا تصرف نفس أنفاسك في غيرها، وإن لذة الدنيا مشوبة بكدر، ولا كدر في هذه النعم، فهي قوت الأرواح، ودور الأشباح، و لا تكن ممن استلذ بطلب الدنيا حتى استولت عليه بما أبدته له من سحرها، ولكن قابل زخارفها التي تموه بها عليك بجميل الصبر، وعزيمة العفة، فالقليل منها يكفيك، ولا يكفيك كثير العلم والمعرفة في خاصة نفسك، فأحرى مع غيرك، بين أبناء جنسك، فاربح هذه التجارة، فإنها موافقة لضعفك، ولا تكن من الغافلين.

يا بنـي: لا تنظر لأهل الدنيا من حيثية ما بيدهم فيتطاولون عليك، ولا يكبر بين عينيك ما يجمعون، فتخضع لهم[1]، فيتوهمون أنك فيما لديهم طامح فيلحظونك شزرا بعين الإحتقار فتلوم نفسك، لأنهم عاملوك بما اعتادوه، وأنت لم تعمل على ما لديك، فإن كان ولابد، فعاملهم كما تعامل غيرهم من الفقراء، واستعظم أمر الفقر بتعظيم شأنه عند المولى، خصوصا أهل النسبة فباه بهم في المجالس والمواقف، غير أنه يتعين عليك أن تجامل أهل الدنيا بالرفق لتستميلهم لسماع كلامك، وكن من خيارهم على حذر، حتى تخرج من بينهم، وليس في قلوبهم عليك حزازة، فكلهم شربوا من عين واحدة، فلا يعتبرون علم عالم، وإنما يعظمون المُعْرِضَ عنهم مُظْهِرًا لهم الغنى فينحاشون إليه ليزدادوا دنيا، وقَلَّ من يتواضع له دينا، حيث أنهم إنما يعتبرون ما حل بيدهم وما ضاهاه، فكيف لا يعتبر العالم ما لديه، ويحوط ما حلّ بيده من نفيس العلم، فيرفع عنهم نفسه، ويعظم جانبه وجانب حملته في جلب ودفع، ولكن لا بد أن تعطي المناصب حقها، وتلاحظ حظ المجالس، فرُبَّ مجلس لا يليق فيه ذكر الفقر و لا ذكر أهله، صونا لسره، ومحافظة على نخوة رفعته بين الجاهلين، وإن لكل مقام مقال، فلا تكن من المُنَفِّرين بين القوم ببخس ما لديهم، والله يتولى هداك.

يا بنـي: إن الدنيا تسحر النفوس، وتستعبدها بما تبديه من اللذات والشهوات، والنفوس مجبولة على استحسان ذلك، مع أن أقل حظ في الشهوة يكفي، والشهوة قتالة للهمم، توقع صاحبها فيما لا ينفع فيه الندم، فلا تتبع الشهوة، فإنها بنت الهوى، و الهوى لن يفلح تابعه. ولقد جربت في خاصة نفسي أني لما لم أخض في القبض والدفع كنت سالي البال، لا يهمني شيء في إقامة وترحال، فلما قيدتني الدنيا بما تقضيه الخدمة التي بُليت بها شغلت أفكاري، فلم أجد فراغ قلب لعبادة، ولا وجدت لذة كانت عندي قبل الخدمة معتادة، ولست بمزهد لك في حظ من الدنيا تعول به نفسك وأهلك، ولكن أحذرك من الإستكثار، وتقييد النفس بخدمة لا تجد معها فراغ قلب فتبلى بما بُليتُ به، سيما إن تشوفت لمحمدة الناس، وتلذذت بالوهم الذي يتوهمه أولوا الإمارة بما لهم من الغفلة من هادم اللذات، فالله الله في نفسك، إن استولى عليك

---

[1] فيه تحذير من الوقوع في وعيد التواضع لغني من أجل ماله، و قد جاءت في هذا الباب أحاديث كثيرة، منها قوله صلى الله عليه و سلم: لعن الله عز و جل فقيرا تواضع لغني من أجل ماله، من فعل ذلك منهم فقد ذهب ثلثا دينه. إهـ. أنظر جامع الأحاديث و المراسيل (حرف اللام) 6: 48 رقم 17122، كنز العمال، للمتقي الهندي المجلد الثالث 1: 458 رقم 6288.

ذلك، وأنت لو اجتهدت ما اجتهدت لتدرك الغاية ما وصلت إليها، لكون المنهوم لا يشبع[1]، وعبد الدرهم والدينار لا يقنع[2]، فكن حرا بالقناعة، وما أراك تنجح فيك نصيحتي إن خشيت الفقر وبلواه، وما تشاهد من تعظيم الناس لذوي الغنى، ولو لم يمنحوهم مما لديهم، والفقير لا يزن عندهم شيئا، فأعرض عن هذه التوهمات، فإنك إن قنعت كنت فوق كل ذي مال، وتقدمت في حضرة الحق على كل ذي بال، وملكت ما لم يملكه السلطان، سائلا من المولى أن يؤيدك ويحفظك من نزغات الشيطان.

يا بنـي: لا تكن عالة على غيرك، فيما تنفقه على نفسك وعلى أهلك، بل اتخذ لنفسك حرفة تحترف بها فتستعين بروجانها على الضروريات، وإذا خسرت مرة في سلعة فترقب الربح بعده، فلا تترك الحركة متيقنا بما قدر لك، فقد علمت أنه لا بد لك من تعاطي الأسباب، ولو بأخس الحرف، فإن امتُحِنْتَ بعدم الوجد، فإنك لن تموت حتى تستكمل رزقك، ولا يموت أحد من أهلك، ومن هو تحت نظرك إلا بعد استيفاء رزقهم، وانقضاء أجلهم المكتوب. فإن أبيت إلا الإهتمام، وفرط الضجر فانظر إلى من في قدرتك إيصال رزقك إليهم، واقطع مادة الرزق عنهم، فلا تجد لذلك سبيلا. وكيف يكون لك من الأمر شيء في ذلك، والمولى هو قاسم الرزق قهرا عليك، لا يصلك إلا ما كتب الله لك، فكن راضيا بحكمه، تكن مومنا موفقا، مستريح الخاطر، من الهواجس والخواطر، فما قدر لك ياتيك مع ضعفك، وما لم يقدر لك لا تصل إليه، ولو استعملت مع حولك وقوتك من الحيل ما قدرت عليه، واستعرت جميع حيل المحتالين كلهم فأعاروك حيلهم فلا ينفعك ذلك في جلب أو دفع، فكن عند الظن بك ملقي السلم والسلب لمولاك، وما أراه إلا رازقا لك، مغنيا لك، كافيا لك عن سواه، فخذ ما قدر لك بعز، ولا تأخذه بذل، والله يلهمك لم فيه رضاه.

يا بنـي: إن مرارة الفقر أمرّ من كل مُرّ، فإن ابتليت به مرة فتجرع ما يسهل مرتها من الصبر، ولا تجزع من اضطراب أحوالك عند صدمتها، وتلق ما يقابلك به من عهدت مودتهم في الدعة من الجفاء والغلظة وتغير الأحوال بجميل المعاملة، ولا تلمهم على ما ترى منهم، فإن الفقير مرموق بعين لا يرى بها الغني، ولو كان الفقير أعلم أهل وقته، والغني من أجهل الناس، ذلك طبعٌ جُبِلَت عليه جل النفوس. فلذلك يتعين عليك أن تلبس حلة الجمال، وتعتني بلباسك مع كمال النظافة، ورفع الهمة عن كل قريب وبعيد، مظهرا لهم الغنى عنهم وعن أمثالهم، ولو بِتَّ جائعا، وظلت طاويا، فإنهم يهابونك ويحترمونك، ولا تشتكي لأحد ما أضر بك من ذلك غير المولى البصير بأحوالك. ولا تقطع يأسك منه في كشف ما أهمك وأغمك، وجار أهلك على قدر عقولهم بالمواعيد فيما يؤملونه من الأمور التي يتجملون بها ويتمتعون،

---

[1] إشارة لقوله صلى الله عليه و سلم: منهومان لا يشبعان، طالب علم و طالب دنيا. إهـ. أنظر سنن الدارمي (كتاب النبي صلى الله عليه و سلم) باب في فضل العلم و العالم 1: 96 رقم 340. مصنف ابن أبي شيبة (كتاب الأدب) ما جاء في طلب العلم و تعليمه 6: 187 رقم 21860، مجمع الزوائد، للهيثمي (كتاب العلم) باب منهومان لا يشبعان إلخ.. 1: 350 رقم 571.

و في حديث آخر: منهومان لا يشبعان، منهوم في علم لا يشبع، و منهوم في دنيا لا يشبع. إهـ. المستدرك للحاكم (كتاب العلم) 1: 169 رقم 318.

[2] إشارة لقوله صلى الله عليه و سلم: لُعِنَ عبد الدينار، لُعِنَ عبد الدرهم. إهـ. أنظر سنن الترمذي (كتاب الزهد) رقم 2415.

فإنهم يكتفون منك بالوعد ولو إلى حين، وأدخل عليهم السرور في منحك إياهم بما تقدر عليه من جبر خاطرهم إنفاقا، فترغم بذلك أهل النفاق. فإن كنت مع أهلك بخير فإنك لا تهتم أبدا بحال المال قَلَّ أو كَثُر. وأخشى عليك أن تكون ملولا عند مصادمة هذه الحالة فتُظْهِرَ الجزع، فلا أنت بمال تطفي به لهيب التلهف، ولا أنت بإرغام أنوف عداك وحسادك. وأرجو من المولى أن يغنيك به عمن سواه، فلا يذيقك هذه المرارة.

يا بنـي: استكثر من أصحاب الخير في السر والجهر، ولا تعاد في الظاهر أحدا من أهل الشر، ولو كافرا، فأنت في زمان يقضي عليك بالمداراة[1]، وكن قابضا على حبل دينك ما دمت حيا، فالدين قد يفتتن فيه من لا يداري، ولا ينجو من إذاية الخلق أحد، فإذا ابتليت بمؤذ فاجتهد في الإحسان إليه بقدر الامكان، وأظهر له أنك لم تشعر بما أذاك به، حتى كأنه لم يصدر منه إلا الجميل إليك، وهو في الحقيقة إن نظرت إلى ذلك بعين الاستبصار وجدت إذايته من الجميل المُسْدَى إليك، فإن عرفت من حاله أنه يزيده تواضعك له حقدا عليك فخذ بخاطره، بإظهار الضعف والمسكنة، وأنه هو أفضل منك بلسان الحال، وبلسان المقال، واثن عليه في ظهر الغيب إن ذكر في مجمع، فإنه يصله ذلك، فإن زاد في إذايتك فاجعله في حل وآو إلى ركن شديد، وهو اعتصامك بحبل الله بانكسار قلب، وادع له في ظهر الغيب بما توفق له، فإن أخذت منك البشرية حظها، وحركت إذايته منك الدم، فلا تسرع بما تُذَمّ على فعله فتندم، واتخذ بينك وبينه حصن النوى، مع عدم التعرض لذكره لا بخير ولا بشر. وإن حضرت بمجمع حضر فيه أو ذكر فيه فاجتهد أن لا يكون لك ذكر ولا صوت، ولا تنطق إلا بخير، فإن عارضك فلا تجبه إلا بالتسليم، وخير ما تدخره لنجاتك من أهل وقتك هو أن لا تذكر أحدا منهم بسوء، وإن أساء إليك. وكل من تظاهر بشيء فلا تزاحمه فيه إلا أن يكون خيرا، فخذ منه حظا وافرا، وانسب المزية له عليك فيه، حتى يرى منك أنك تعتقد أنه هو الذي تسبب لك فيه، وحذار من معارضته في شيء إلا إذا ضل أو أضل فقل الحق في صورة المستفهم له فيه، كأنك هو الذي أفادك، فإن أصر على الضلال فدع عنك الجدال، وأخشى أن

---

[1] إشارة لقول النبي صلى الله عليه و سلم: مداراة الناس صدقة. إهـ.. أنظر صحيح ابن حبان (باب حسن الخلق) ذكر كِتْبَةِ الله الصدقة للمداري أهل زمانه من غير ارتكاب ما يكره الله جل و علا فيها 1: 249 رقم 470. و هناك حديث آخر في نفس هذا الباب قال فيه النبي صلى الله عليه و سلم: رأس العقل بعد الإيمان بالله مداراة الناس، و لن يهلك رجلٌ بعد مشورة، و أهل المعروف في الدنيا هم أهل المعروف في الآخرة. إهـ. مصنف ابن أبي شيبة (كتاب الأدب) ما جاء في اصطناع المعروف 6: 102 رقم 21171.
و في هذا المعنى أيضا يقول الشاعر:

تجنب صديق السوء و اصرم حبالــه	و إن لم تجد عنه محيصا فَدَارِهِ
و من يطلب المعروف من غير أهله	يجده وراء البحر أو في قَرَارِهِ
و لله في عرض السماوات جنـــــة	و لكنها محفوفة بالمــــــكارِهِ

و منه قول شاعر آخر:

لي صديق يرى حقوقي عليه	نافلات و حقَّه الدَّهر فرضــــــــــا
لو قطعت البلاد طولا إليـــه	ثم من بعد طولها سرت عرضـــــا
لرأى ما فعلت غير كثيـــــر	و اشتهى أن أزيد في الأرض أرضا

تجادله بحق فيحقد عليك، والحقود أخو الحسود في علته، ولا يرجى برد إلا بما تصاب به من السوء حالا أو استقبالا. ولعلك تقول: أنتصر للحق ولا أبالي، فأقول لك: إن اتهمت نفسك بما جبلت عليه النفوس، من كونها لا تخرج من حظها النفسائي، فلا تفه ببنت شفه، ولا ترمي بنفسك في السفه، واعتبر في هذا المقام، بقوله عليه السلام (إذا رأيت شحا مطاعا، وهوى متبعا، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، فعليك بخويصة نفسك[1]).

يا بنـي: إذا حضرت بمجلس فيه أهل الدنيا، وطفقوا يتذاكرون فيها فأظهر لهم من نفسك الغنى، حتى كأنك أغناهم، ولا تتغص عليهم تلذذهم بحديثهم، ولكن اخرج من بينهم في حلة نسجت بالعفة، وخيطت بحرير الليونة، غير مظهر احتياجا إليهم، ولا مضمر سوءا، فإن توقف لك غرض في معاملتهم فتصارف معهم مصارفة ذي نفس أبية، لا ترضى بدنية التعاطل عند أداء ما بالذمة، ولا تدع عليك فلسا دينا، ولو بأن تبيع ثيابك التي على ظهرك، وعولة أهلك، فإن الدين مقراض العرض، والدين والمديان دائما في مذلة عند المدين، فلا تهتم بشيء غير أداء ما بذمتك قبل الطلب، فذلك كفيل لك بأن تسمو بين ذوي المعاملة إلى أعلى الرتب. ولا تكن شخصا مسوفا لغيره، عند طلب خيره، فالتسويف سيف المقاطعة بين العامة والخاصة. وأخشى أن تقف مع الجد وقفة الإتقباض، فتكون موصوفا بما يستثقله منك بعض ذوي الأغراض، ولا يحملك خفض الجناح منك في الأمور على مركب الإتهام عند الناس، فإن سوء الظن سريع لتشويش الصدور، ولكن اسلك مسالك التوسط، أخذا وعطاء وبيعا وشراء، وكن على حذر تام، في هذا المقام، فإن جل التجار، فجار، والناس ذئاب، في ثياب. فلا تلم من أساء الظن بك، ولا تثق بمن استأمنك على أن لا يخونك، فَرُبَّ أمينٍ صار خائنا. وما أراك تنجو إن لم تعمل على الإحتياط فيما تحاوله بنفسك أو بنائبك في النوب، وادفع بالتي هي أحسن فيما لا تقدر على تحمله من كل طلب. واحذر كل الحذر من قول أو فعل أو حال، تقضي بأوحال، أو غضب، والله يؤيدك بمنه في سائر الأحوال.

يا بنـي: إذا كنت في محضر الأعلام، فاجتهد أن تكون دائما مستفيدا، ولا تتكلم إلا عند الضرورة، ولو كنت في تحصيل ما لم يحصلوا عليه بلغت المرام فيما تسمعه منهم تزداد تحققا وتحقيقا، وتعرف قدر نعمة الله عليك إن فقت عليهم في الإدراك. فإن استنطقوك فأقلل من الكلام ولا تطلق عنان الخطاب، فإن الخطأ أقرب من المكثار من الصواب، فإن استزادوا منك قولا فلا تخرج عن الموضع بقيل وقال، إلا إذا استطابوا منك المقال، فراع المقام، ولا

[1] إشارة لما رواه الترمذي عن أبي أمية الشعباني قال: أتيت أبا ثعلبة الخشنيِّ فقلت له: كيف تصنع في هذه الآية؟ قال: أية آية؟ قلت: قوله تعالى: يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذ اهتديتم. قال: أما و الله لقد سألت عنها خبيرا. سألت عنها رسول الله صلى الله عليه و سلم، فقال: بل ائتمروا بالمعروف و تناهوا عن المنكر، حتى إذا رأيتم شحا مطاعا، و هوى متبعا، و دنيا مؤثرة، و إعجاب كل ذي رأي برأيه، فعليك بخاصة نفسك، و دع العوام، فإن من ورائكم أياماً الصبر فيهن مثل القبض على الجمر، للعامل فيهنَّ مثل أجر خمسين رجلا يعملون مثل عملكم، قال عبد الله بن مبارك: و زادني غيرُ عُتبة، قيل يا رسول الله أجر خمسين رجلا منَّا أو منهم؟ قال: لا بل أجر خمسين رجلا منكم. إهـ. سنن الترمذي (كتاب تفسير القرءان) باب و من سورة المائدة رقم 3157. سنن أبي داوود (كتاب الملاحم) باب الأمر والنهي رقم 4337. سنن ابن ماجه (كتاب الفتن) باب قوله تعالى يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذ اهتديتم رقم 4101.

تكن مثل مغني دار الدباغة، ولا مثل المعجب بصوته في الحمام بغنة الغناء، فإن الثقيل يستحسن ذلك من نفسه، والنفوس تتضرع من هوسه. وعلامة استثقال الحاضرين لمقالك اشتغالهم عنك بالتخاطب فيما بينهم في موضع آخر، أو كثرة الإعتراض عليك، أو تناومهم، أو تثاؤبهم، أو قيام جلهم ونحو ذلك، فلا تحوجهم إلى شيء من هذه الأحوال، وأنت البصير بأن بعض الناس يستحسن منك النطق، وبعضهم لبغضهم أو حسدهم لك يستبشع ذلك منك، واعمل على قول القائل:

وإذا جلست إلى الرجال وأشرقت	في جو باطنك العلوم الشرد
فاحذر مـذاكرة الجحود فإنمـــا	تغتاظ أنت ويستفيد ويجحد

ولا تلم من لم يحتفل بكلامك إذا تكلمت، ولكن لُمْ نَفْسَكَ على مكالمته، وحذار من قطعك لحديث غيرك بحديثك، فإن نفسه تواخذك، فتكون قد غيرت خاطرا لم تجد لتصفية مرآته عنك سبيلا إلا بكثرة استعطافه لمسامحتك في ذلك المحضر. وما أخال أحدا يسامح في ذلك إلا النادر الذي لم يقف مع حظ النفس، واتخذ له عندك أعذارا بعد اعتذارك لما صدر منك، فإنك ما قطعت حديثه بحديثك إلا لعظيم غفلتك، أو سوء تربيتك، أو عجلتك بالوقوف عند حد حظ نفسك، وأنت الملوم على ذلك، في معناك وحسك، ولا لوم عليّ في ذلك، حيث بالغت في تحذيرك، ولم تعمل عليه، وما أراك إلا بلغت منالك مما بلغتك من النصح، فعملت ما تحمد عليه، ودعوت لي بالرحمة. والله المسئول أن يثمر غرسك.

يا بني: إذا خالطت أهل الدنيا فخالطهم في الظاهر، وكن مع الفقراء بالقلب، وإياك أن يشموا منك رائحة الإحتياج إليهم، أو يلوح عليك أمارة الفقر، فإن نفوسهم جبلت على إهانة من قعد به دهره، ولو كان في عفة يوسف، وزهد عيسى، وخصوصا أهل الإمارة منهم، فإنهم لا يبالون بالفقير إلا إذا توسموا فيه كونه من أهل السيمياء، أو تخيل لهم فيه أنه من أهل الصلاح، فإنهم يستميلون قلبه ببعض مودة تظهر بين أعينهم أنهم وفوا حقه بها، ويؤملون منه قضاء ما يحبون من إدراك دنيا أو رياسة، أو خدمة، فيها كلمة وجاه، فإن ظفروا بمقصودهم اتخذوه وثنا، وقد يُجْعَلُ بينهم أضحوكة يستهزأ به في حضرات أنسهم إذا خلا الجو فيها لهم، فكيف يرضى من له همة عالية بهذه الحالة، فلا تجالسهم إلا عند الضرورة، ولا تبسط معهم في بساط إهانة أحد، فالله يغار على حرمة مهتضم الجناب. وإياك أن تعمر وقت الفراغ معهم بإطلاق اللسان فيما يمس بجانب أحد بإذاية، بغيبة أو نميمة، حتى بقولك: فلان ربح أو خسر، فمالك ولهذا؟ وإن بارت لك بضاعة فارصد لها وقتا ومكانا يحصل فيه الروجان، ولا تسلك طريقة الغش، فإنه مشتت للعش، فإن افتقرت، ولا بد لثمن تلك البضاعة فبعها أقساما في أوقات وأمكنة مختلفة، ولا يأخذ الأسف منك اطمئنان بال، ولو حصلت عشر عشر ثمنك، بل ولو خسرت رأس المال. فلا تكون ممن اجتمع لديه حسرتا الموت والرزية، وتذكر رأس مالك عند خروجك من بطن أمك وأنت عار، وخض في سبب الكسب لجج البحار، فما على متعاطي حرفة من عار، وأقبح خصلة البطالة ولو تساوت الأسعار، سائلا من المولى أن يأخذ بيدك.

يا بني: لا تكن غنيا متكبرا، ولا فقيرا يهين نفسـه، أو يفرط فـي تعظيم نفسه، فيجتمع لديه -كما قالت العامة (الزلط والفرعنة) ولكن خير الأمور التوسط فيها، فإن كنت غنيا كنت

بخفض الجناح من الملحوظين المحفوظين، ولو لم تبسط يدك بالعطاء، وإن كنت فقيرا كنت بعزة النفس غنيا عن غير مولاك، ولو مددت يديك للاستعطاء، ولكن لا أرض لك ذل السؤال، فإنها معرة الرجال[1]. فأين همتك التي تربأ بك عن المذمات؟ فاختر من الحرف ما تعيش به، ولو بنقل الأحمال على ظهرك، وخرز النعال، ورمي الأزبال، فذلك أهون عليك من السؤال، فدع عنك الأوهام التي زادت في تكبرك حتى رضيت لنفسك بأن تكون طاوى الأضلع على نار التحسر على المال، وعدم مساعدة الحال. وإني لأخاف عليك إن تشوفت للرفاهية، فلا تبال من أين اكتسبت الأموال، فتتعاطى التكسب بوظيفة المكس[2]، ولست براض عنك إذا استخدمت فيه فمت جوعا ولا تقرب ساحته، فأنت ابني حقا، وقد نهيت عنه وعن مهر البغي[3]، ولست بقابض يديك عن تناول الحرام، إن لم توفق بإلهام من الله، أو خوف بلاء عاجل أو آجل، ولكن لا تخض في بحره إن كنت سعيدا، وعجل بالتوبة إن امتحنت بشيء من ذلك، فإنك غير معصوم. وأرجو من الله لك التوفيق للتوبة النصوح.

يا بني: حافظ على أداء الزكاة، فإن الحق يربي مالها وأصلها، وإياك والربا، فإن الله يمحقه كما أوعد على ذلك فقال وهو أصدق القائلين (يمحق الله الربا ويربي الصدقات[4]) وهل يكون في ممحوق نفع؟ لا والله، مالك فيه خير ولا لأهلك ونسلك، وهو وإن كان في الظاهر يكبر التكاثر به فهو ممحوق البركة في الباطن، فلا تقرب ساحته. ولا أراك إلا متعاطيا له، إن اعتذرت بفساد الوقت، وما بنيت التجارة عليه، مع أنه ملحوظ عند الشارع بلحظ المقت، إلا إذا اعتقدت أن النفع بيد الله، والإنتفاع بالقليل بدون ربا أجل قدرا من النفع العاجل الذي تعظم فيه الحسرة مع طول التعب، وما تراه نفعا، وإنما هو فتنة، فإنك قد تعرض عن تعاطيه، فإن وفقك الله لترك الخوض فيه فأكثر من حمده. فقد شاهدنا كثيرا ممن استغرقوا عمرهم في التجارة التي دخلها الربا، وفتحت كنوز الأرباح عليهم فيها فماتوا في أسوء حال، ولم ينجح لهم سعي في المآل، مازالت عائلتهم في أوحال، في إقامة وترحال. فحذار من هذا الداء العضال، الذي حلا لمتعاطيه وليس بحلال، وتستحسن المماطلة به نفوس الغافلين، وما أراهم متمتعين بلذيذ الراحة، وإن ضحكت في وجوههم الدنيا، فعما قريب تجدهم من الباكين. فالله الله في هؤلاء المساكين الذين ظهر لهم الربح به، وهم في الحقيقة من الخاسرين، ومالهم في الآخرة من خلاق، وعما قريب ليصبحن نادمين، ولات حين مندم.

---

[1] تماشيا مع قوله صلى الله عليه و سلم: و الذي نفسي بيده لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب على ظهره خير له من أن يأتي رجلا فيسأله أعطاه أو منعه. إهـ. صحيح البخاري (كتاب الزكاة) باب الإستعفاف عن المسألة رقم 1452. باب قوله تعالى لا يسألون الناس إلحافا رقم 1462.

[2] إشارة لقوله صلى الله عليه و سلم: لا يدخل الجنة صاحب مكس. إهـ. أنظر مسند الإمام أحمد (حديث عقبة بن عامر الجهني) 5: 136 رقم 16967 رقم 17026. سنن أبي داوود (كتاب الخراج و الفيء والإمارة) باب في السعاية على الصدقة رقم 2939، صحيح ابن خزيمة (كتاب الزكاة) باب ذكر التغليظ على السعاية رقم 2322.

[3] إشارة لقوله صلى الله عليه و سلم: شر الكسب مهر البغي، و ثمن الكلب، و كسب الحجام. إهـ. صحيح مسلم (كتاب المساقاة و المزارعة) باب تحريم ثمن الكلب و حلوان الكاهن و مهر البغي و النهي عن بيع السنور، رقم 3965. صحيح البخاري (كتاب الطلاق) باب مهر البغي و النكاح الفاسد رقم 5219.

[4] سورة البقرة الآية 276.

يا بنــي: البس لباس التقوى في الظاهر والباطن بقدر الاستطاعة، وتخل عن الرذائل وسفاسف الأمور، فذلك من أعظم القربات والطاعة، وتَحَلَّ بزينة الحياء من الله ومن خلقه، فإنه لا خير فيمن لا حياء له، وليس من الحياء ترك السؤال عما يهمك من أمور الدين، وإنما تركه من صفة المتهورين، أو المتكبرين. فاسأل عن أمور دينك، ولا حياء في ذلك، والحياء الحقيقي هو ترك المحرمات، وتعظيم الحرمات، وذلك كله على سبيل الإجمال، فإن أردت التفصيل، فيحتاج فيه إلى تطويل، و لكن عيون أقسامه تدلك على طريق التحصيل، وذلك حفظ الجوارح من استعمالها في ما يذم شرعا، ولا تخرق العادة بما تلام عليه جلبا ودفعا. وإياك إرخاء جلباب الخلاعة بين جنسك عن نفسك، فتكون ممن لا يبالون بما يصدر منهم من قول وفعل في حال الإنقباض والإنبساط، فاستحضر إن تكلمت أن الناس كلهم يسمعون ما تلام عليه، والناس كلهم لديك معتبرون، وعليك في فلتاتك مواخذون، والله فوق ذلك، وحفظتك يحصون ما هنالك. وإني أخشى عليك أن تقارن قرناء السوء فتكون في زمرتهم معدودا[1]، وتسقط من أعين أهل الفضل، فلا تصاحب الأردى فتردى معهم في رداهم، وتكون عند أهل الاعتبار مرتديا برداهم، فلا تُحْسَبُ إلا منهم، ولو أعرضت بعد حين عنهم. فاختر لنفسك أصحاب الخير[2]، والأولى أن لا تتعارف إلا من لا بد لك منه، وإن كان ولابد من اتخاذ صاحب فلا تجعل معه رابطة اتحاد في ماليتك ومعلوماتك إلا عند الضرورة، فما لابُدّ منه فلا تزد عليه، وخذ حذرك من المتداخلين معك:

واحذر عدوك مرة واحذر صديقك ألف مرة
فلربما انقلب الصـــــــديق فكان أعرف بالمضرة[3]

يا بنــي: إن المصارفة مع المسلمين أسلم لك من جهة الدين، واحذر كل الحذر من مصارفة الذميين، وإن المصارفة مع النصارى رأسا بدون واسطة لقريبة من السلامة الدنيوية في المعاملة ونحوها، فهم كما هم: وأنت على بال منهم، بخلاف المتنصرين الذين لهم بهم خلطة، وهم في زي المسلمين. واعتبر ما قلته لك في المستخدمين معهم غالبا، فإنهم

[1] تماشيا مع قوله صلى الله عليه و سلم: مثل الجليس الصالح و الجليس السوء كمثل صاحب المسك و كير الحداد، لا يعدمك من صاحب المسك إما تشتريه أو تجد ريحه، و كير الحداد يَحْرِقُ بدنك أو ثوبك أو تجدَ منه ريحا خبيثة. إهـ .. صحيح البخاري (كتاب البيوع) باب في العطار و بيع المسك رقم 2077 (كتاب الذبائح و الصيد) باب المسك رقم 5407، صحيح مسلم (كتاب البر و الصلة و الآداب) باب استحباب مجالسة الصالحين و مجانبة قرناء السوء رقم 6644.

[2] مما يناسب هذا المحل قول الإمام الشافعي رحمه الله و رضي عنه:

إذا المرء لا يرعاك إلا تكلفـــــا فدعه و لا تكثر عليه التأسفـــــــا
ففي الناس أبدالٌ و في التركِ راحة و في القلبِ صبر للحبيب و لو جفـــا
فما كل من تهواه يهواك قلبــــــه و لا كل من صافيته لك قد صفـــــا
إذا لم يكن صفو الوداد طبيعــــة فلا خير في ودٍّ يجيء تكلفــــــــا
و لا خير في خِلٍّ يخون خليلـــه و يلقاه من بعد المودة بالجفـــــــا
و ينكر عيشا قد تقادم عهــــــده و يظهر سرا كان بالأمس قد خفـــا
سلام على الدنيا إذا لم يكن بهـــا صديق صدوق صادق الوعد منصفا

[3] البيتان للعلامة الشاعر منصور بن اسماعيل الفقيه، أحد كبار فقهاء الشافعية في العهد العباسي، توفي سنه 306.

من أخشن الناس طبعا، وأقبح ملاقاة مع أحسن خلق الله ما لم يقدم لهم نفعا، ولا تجد النادر إن عثرت عليه هينا لينا إلا إذا امتحن بالزجر على سوء المعاملة مع العباد، أو أنذر بالطرد عنهم بوصية منهم، إن لم يحسن السيرة. فإذا توقف لك عند مخدوميهم غرض، أو جمعتك الضرورة بأحد منهم فاحذره كل الحذر، وعامله بمقتضى هواه، واصبر لخشونة طبعه، حتى تخرج منه سالما، وإن وجدت سبيلا للمسامحة في ذلك الغرض واجتناب ما يجمعك بأحد منهم فهو أليق بدينك وعرضك. وأرجو أن لا يحوجك الدهر إلى الوقوف على من هذه حالته، فيكفيك الله مئونة المداراة والمداهنة، ولكن الليالي حبلى تلد العجائب، والدهر ما هو لأحد بصاحب، وفساد الزمان وأهله يقضي على ابن الوقت أن تكون له يد بيضاء عند الحكام، يقي بها طوارئ الحوادث بين العوام، فالعامة لا يحترمون إلا من له صولة وكلمة، أو مال، ودليل ذلك المشاهدة.

وقد كان شيخنا الولي الصالح مولاي عبد الله بن إدريس البدراوي يقول لنا عندما يذكر وصية الإمام مالك ليحيى التي قال فيها (ليكن لك سند تستند عليه) إلخ.. لا يغرنكم تعظيم العامة لي، فإنهم لو لم يكن لي اعتبار عند الأمراء ما احتفلوا بي، ولكنهم يرون الأمراء، وخصوصا الوزير فلانا يأتون لداري لزيارتي، فيستعظمون ذلك، وليس تعظيمهم لي من أجل علمي وصلاحي، وإنما ذلك من أجل ذلك. فاعتبر قدر هذا المقال، واجعله على أحسن المحامل، ولا تفهم منه ما يحملك على التعلق بأذيال الأمراء والحكام، والتملق لهم، والتوسل بأحسن الوسائل للتوصل إلى إقبالهم عليك، وهم ليسوا بمقيمين على حال، وما أراك إذا فعلت هذا إلا مهضوم الجناب، ما دمت عن غير إقبالهم عليك مترددا بالأبواب، وأخس بها من حال. وإذا أسعدك الحظ بأن لم تعرفهم ولم يعرفوك، ولم يتوقف لك غرض منهم فأنت سعيد رشيد، وإلا فكن على حذر من كثرة التردد عليهم، والتداخل معهم في فضول، أو في وشاية بأحد، فتعد من الجواسيس، ويتطرق في عرضك المقول. وقد كنت حفظت قول القائل:

لباب الأمير فكن لازما ... ولا تخش ممن بغى أوحسد
فإن الذئاب تهاب الذي ... تصرغ يوما بباب الأسـد

وما عملت بضمنه حتى دعيت للخدمة، ومع ذلك فإني أرجو أن تكون أحسن مني حالة، لينفعني الله بك في اجتناب الظلمة وأعوانهم، حتى لا تكتب في ديوانهم.

يا بنـي: إن الناس ينظرون أولا لهيئة الرجل، فأول ما يعظم قدره لديهم لباسه، فكن دائما معتنيا بالزي الحسن، مع النظافة التامة، واجتنب الدنس ما أمكنك، وأظهر نعمة الله عليك من غير تبجح ولا افتخار. وإياك وأنفة التكبر التي يشمخ بها أنف المتجملين بالثياب، ولا يعظم بين عينك لباس الشخص أكثر من جثته، وما انطوت عليه من المعارف وضدها، فقد قال الإمام الشافعي:

علي ثياب لو يباع جميعهـــــا	بفلس لكان الفلس فيهن أكثـــــرا
وفيهن نفس لو يقاس ببعضها	نفوس الورى كانت أعز وأكبرا[1]

فإن قدرت أن لا تلبس من اللباس إلا الرفيع فافعل، إلا فلا تخرج عن النظافة ما أمكنك، وخير الأمور التوسط، والزيادة في الشيء نقصان. وكن متحليا بحلية الجمال، ولا تنس الجميل المعمول معك، ولا تستحضر جميلك مع أحد على وجه التبجح ولا تذكره، فإن المنة لغير الحق مذمومة لديه وعند الخلق. وإياك أن يعظم بين عينيك بياض حليتك من الرأس للقدم فتتقدم بها على غيرك في نفسك، ولكن ليكن لديك اعتناء بحلية الباطن، فقَدِّم أهل الفضل في مقام التقديم حتى تقدم بيد العز، وتواضع مع كل أحد على قدر ما يجعله ذلك منك على عدم إهانتك. فرب تواضع في غير محله موجب للإهانة عند من لا تربية له، ولا مرؤة ولا دين. ولقد أجاد من قال:

تذلل لمن إن تواضعت له	يرى ذاك للفضل لا للبله
وجانب مودة من لم يزل	على كل حال يرى الفضل له[2]

واعتبر ذلك في المجالس، فلا تقم من موضعك لمن لا يعتبر أنك قمت إجلالا له، فيجعلك من أجل ذلك، فإن لم يعتبر ذلك فلا تقوم له، خصوصا في محافل الأجانب، فلا تجلس إلا حيث لا يقيمك أحد، ولا تقوم فيه لأحد، فإن الجلوس في محافلهم، والحضور فيها معهم، لا دخل له في التواضع، ولو كانت لك عفة فلا تقرب ساحتهم، وكن دائما مجتنبا تلك المحافل، إلا إذا خفت على نفسك من إذاية أحد وقلبك مطمئن بالإيمان. فكن مراعيا لما لا تعاب عليه، ولا يهضم به جانبك دينا ودنيا، ولا تتأمر على أحد بمحضر الناس، فربما هتك ستر إمارتك ومروتك، وتلطف دائما في أوامرك التي يسند إليك الصدع بها، ولا تكلف أحدا بقضاء غرض لك، خصوصا الضروريات، فلا تكن عاجزا عن قيامك بنفسك بها، وإن كان ولابد من التكلف، فاسلك طريق اللينة مع الرفق التام، ومراعاة المقام. ولا تلم أحدا على تركه للنهوض لما كلفته به، والتمس له المعذرة، إلا فأنت الملوم، لكونك رضيت لنفسك ما لم ترضه لغيرك، ورضيت لغيرك ما لم ترضه لنفسك، و إلا فمن أين لك تكليف الغير، وذاته إن نظرت إليها أحسن من ذاتك، وعقله أحسن من عقلك، وقدرك لا يذكر في جنب فضله شيئا عنده، فإن كل من فيه نقص في خاصة نفسه لا أحد يساويه، فاعتبر تفضيل الناس عليك، والمفضول لا يتأمر على الفاضل، فكن مكبا على اقتناء الفضائل، حتى تكون مخدوما بطيب نفس، والله يحفظ أحوالك.

يا بنـي: إن النفوس دائما تميل للراحة، وتتشوف لنيل المحمدة، والحصول على الرفاهية، أكلا وشربا ولباسا ومسكنا ونحو ذلك مما يرجع للشهوات التي جبلت على حبها.

---

[1] البيتان للإمام الشافعي رحمه الله، و لهما بيت ثالث لم يذكره المؤلف و هو:
و ما ضر نصل السيف إخلاق غمده   إذا كان عضبا حيث وَجَّهْتَهُ فرى

[2]- البيتان لأحمد بن جعفر بن موسى البرمكي، المعروف بجحظة البرمكي، أحد شعراء العصر العباسي، توفي سنة 324 هـ.

وأضر شيء بالقلب الوقوف في هذا المقام، الذي يكبر بين أعين العوام، ولا يرضاه لأنفسهم الكرام. فإن أجهدت نفسك في المبادئ وجدت في النهاية كفاية المئونة، وإن واظبت على المجاهدة في قُوَّتِكَ حمدت ذلك عند ضعفك فاعمل على أنك دائما في مباديك، ولا تتوهم أنك بلغت النهاية في شيء فتلج لجة الكسل، ولا يقوم لك عمل، إلا أنه ينبغي لك أن تتيقن بأنك في كل يوم بالغ في آخره نهاية الضعف منك. فكلما شممت من نفسك رائحة القدرة على فعل ما يحمد منك فعَجِّل بالنهوض به فتكون قد غنمت قوة شبابك، فإذا تكاملت وسوفت نفسك من يوم لغد فإني أخشى عليك أن تعتاد التسويف وتقتاته، فلا تحمده عند عجزك، وذهاب وقت فروسيتك، فتضيع منك انتهاز الفرصة من نفسك، ولا تجد عاذرا في ذلك فتلوم نفسك، وحق لها أن تلام. والذي يليق بك أن تقطع حبل تشوفها للمحامد، وهي تعمل بموجب الحمد، أحرى إذا كانت تحب المحمدة، وهي لم تفعل، فتعد ممن يحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا، ولا تحمد منها أعمالها فتدخل بك من باب المفخرة والتبجح إلى حضرة التقاعد من كل محمود، فلا تصل للمقصود، سيما إن كنت لا تعبأ بما يصدر منك من هذا القبيل، ولا تحاسبها على الكثير والقليل، فإنها لاتبالي بفعل ما تصر عليه مما تسره أو تعلنه، ولا تقدر بعد ذلك على رد جماحها من غوايتها، حتى تقع في مهواة الردى، وفي ذلك شفاية العدا. فلا ترض لنفسك بهذه الحالة، وقد أوقفتك على قولي:

لا تترك النفس في اللذات هائمة	فـإن لذاتهـــــــــا بالـذات فتاكـه
فالنفس من دأبها تسعى لصاحبها	في الفتك حتى يحل الشرك اشراكه

وعلـى قولـي

عليك بردع النفس عن طغيانها	فـإن هي لم تردع عليك تجبرت
ولا تنتصر يومـا لنفسك إنهـــا	إذا أبصرت منك انتصارا تنصرت

فاعمل على سوء ظنك معها بالحذر، حتى لا يستولي عليك سلطانها، ويقيدك بقيد الغفلة شيطانها، فلا يرجى خلاصك من شبكة أهوائها، إلا بعد التي واللتيا، إن أيقظ منك الإتعاظ نائما، وأوقدت بيد التوفيق منك ما كان كامنا، وحركت ساكنا، وإلا فأنت المغرور الذي أقام على شفا جرف هار، والبلاء محيط به من كل جانب، وعليك في ذلك العار. فكن أبيّ النفس لا تقف في حد حظها، ولا تعودها الترفه والرفاهية، فإن ذلك لا يتأتى في كل وقت، و قد قال من نصح: تبدوا و اخشنوا، فإن الحاضرة لا تدوم، وإن اعتادت ذلك ولم تجده قاست معها شدة لا تذوق أمر منها، كما ذاق من جرب، وتنغص عليه ما تمتع به، ولا ترى نفسك عند ذلك وبعده إلا ملوما متحسرا، غير راض بما لديك حتى ترمي بك في بحبوحة الضلال، ولا تبالي بما حل لديك من حرام وحلال، ولا تعبأ بما تصادفه مما يسقط مراتب الرجال، وتلك هي البلية التي تدوم فيها الحسرة، ويعظم الخسران بها في كل مرة. فبالله عليك كن لما نصحت به لك واعيا، واعمل عليه تكن ابنا مرضيا، والله يرضي عنك.

يا بنـي: كل ذي شعور نفساني، تتشوف نفسه أن يكون من أجل أهل عصره، وأكمل أهل قطره، حتى يكون هو الوحيد الذي يشار له بالبنان، في سائر الأزمان، فإن نهض لاقتناء المحامد، ولم يتكل منها على ما خلده له نسبه أو حسبه فهو غير مخذول، سيما إن ساعدته الأقدار، فحصل منها على حظ وافر، ولم يقنع من المعارف بما حصله، فعن قريب تفتخر به

الرتب، ويتم له ما طلب. وإن تقاعد عن اكتساب المعالي، ورام إدراكها بالهوينا من غير تعاني[1]، فهو المغرور الذي قيده الكسل بحبل الهوى، وعما قريب يقع في مهواة الردى، ويكون شماتة للعدا، ولا يفلح ما دام على هذه الحال أبدا. فإياك ثم إياك والأماني من غير نهوض لاكتسابها، والقناعة بما حزته من الخيرات بعد أن دخلت لرحابها من أبوابها، فالقناعة من الله حرمان، إلا ما كان من الدنيا وشهواتها، فاقنع بما يكفيك، والقناعة في نفسها لك عنها كفاية. وإياك وإماتة نفسك، في معناك وحسك، فأنت نفسك حية فاحذرها من أن تلدغك من حيث لا تراها، فإن الغفلة عن المؤذي حتى يؤذي لمن أكبر الحسرات التي لا يفيد التأسف فيها، سوى غم على غم. فإن وفقك الله للأخذ بزمام الخير، وقدت نفسك لاقتناء الذخائر النافعة دنيا وأخرى، فلا تظن أنك فقت غيرك، فإن ذلك حجاب لك، عن تمام مرادك، وعدم انتفاعك، بمن تزعم أنه أقل منك مالا مثلا، فضلا عن كمال رشادك. ولا يقود لك الهلع إلى طلب ما ليس من شأنك، فمثلك إذا طمع في الملك مثلا عد مختل العقل والدين، وهو في الحقيقة من الضالين المضلين، وكان كمن طلب أن يكون نبيا في هذه الأمة، فلا تطمع في مرتبة الملك، ولا في مرتبة النبوة، و إلا فأنت أكثر من فرعون الذي ادعى الألوهية، صان الله نفسك عن مثل هذه الترهات، ولا جعلك ممن يتشوف لها. وأرجو من المولى أن لا يشمت فيك عدوا، وأن لا يجعلك في حزب من سعى في الأرض الفساد، فساد أو باد، في خزي أو عناد بين العباد، وأخذ الله بيدك، إن زلت بك القدم.

يا بنـي: إذا نافست المتنافسين في إحراز المحامد، فلا تظهر لهم منك ما يوجب نفورهم عنك، ولا تقنع بالقليل من الفضل كيف ما كان، إلا إذا رأيت من حال من منحكه أنه يحب إقناعك به، فكن مظهرا له شكرا، واستزد منه خيرا، وعرفه من نفسك أنه أرفع منك قدرا. وأظهر احتياجك دائما للمزيد من العرفان، وأعمل بكليتك ما يحمده منك الحق والخلق، وتشكر على فعله عند كل محق. وكن مقتديا بي في محبة أهل الفضل، وتعظيم أهل الله، والتسليم لكل من انتسب لحضرته، من غير إساءة لأحد بسوء الظن فيه، وسس نفسك حتى تراها فوق كل فائق بحسن تواضعك، ولا تقتد بي في التكاسل عن الإستكثار من الخير، فأنت تراني في الخير مجزى البضاعة، قليل الطاعة، سيئ الأخلاق في أهلي وداري، بخلاف ما

---

[1] مما هو مناسب في هذا المحل قول بعض العلماء:

تريد المجد ثم تنام ليـــــــلا	لقد أطمعت نفسك بالمحـــال
يغوص البحر من طلب اللآلي	و من طلب العلا سهر الليالي

و قد بنى على هذين البيتين سيدنا الشيخ أبو العباس التجاني رضي الله عنه فقال:

تريد المجد ثم تنام ليـــــــلا	لقد أطمعت نفسك بالمحـــالِ
لقد رمت الحصاد بغير حـــرث	يغوص البحر من طلب اللآلي
فدع عنك التعلل بالأمانـــــي	و جد تنل مقامات الرجـــال
فليس ينالها سعي الهوينـــــا	و لا بالهون ترقى للجبـــال
ألا خل التكاسل و التوانـــــي	و نفسك جَرِّعَنْ مر النكـــال
و خذ في الكد و احتزمن و شمر	بعزم إن سوم الدر غالـــــي
فمن ركنت سجيته لعجـــــــز	تقاعس عن محاولة المعالـــي
فإن قصد المفاخر لم ينلهـــــا	و من طلب العلا سهر الليالي

يعتقده الناس في مما بيني وبينه بعد المشرقين، فلا تفضح سر والدك، بسوء فعلك، وإساءتك لغيرك، فإن الولد سر أبيه، وصلاح حاله يدل على صلاح باطن والده، إن كان معه في عشرته، وتربى في حجره، و إلا فهو على كل حال مشبه لأبيه، ومن يشابه أباه فما ظلم. فكن فرعا طيبا تكن أصلا ثابتا في الخير، ويكون فرعك نابتا في رياض البر، فينتفع منك ومنه الغير. وإني وإن كنت مقصرا في تربيتك بما يعتريني من الجلال في مخاطبتك، فإني أدعو لك في ظهر الغيب، بما تجد بحول الله فيه لك النفع الكثير في حضرتي وغيبتي، وإن دعائي لك لكثير، فلا تنسني من دعائك لي بالرحمة بلسانك، ولسان من تحسن له، ولو بكف إذايتك عنه، فكف الأذى عن الناس[1] منك موجب لك منهم الدعاء لك ولوالديك، والله يرضى عنك.

يا بني: إني رأيت كثيرا من الأجلة ممن يشار لهم بالبنان نصحوا أبناءهم، فلم يلتفت جلهم لنصيحتهم، وهي من أجل مما ينتفع بها الشخص في خاصة نفسه، وينفع بها غيره، فلا تهمل ما تقف عليه من نصائحهم، ولا تضيع نصيحتي بالإعراض عن العمل بمضمنها، فإنها زبدة طرية بعسل خالص، فلا تقدمها لغيرك وأنت محتاج إليها، وما أراك في غنى عنها، ما تتخلق بالأوصاف المحمودة، وتردّ بالك عند بغيتك المقصودة، فتفتح بصرك في أمور الدين، فقد قال ناصح لابنه:

أبني إن من الرجال بهيمة	في صورة الرجل السميع المبصر
فطن بكل مصيبة في ماله	وإذا تصبه بدينه لم يشعر[2]

وقد سنح لي أن أنقل لك هنا نصائح بعض الحكماء السالفين لتقف عليها. وكأني أخاطبك بها على لسانهم لتعمل بها، فقد قال أبو حنيفة لابنه:

يا بني: أرشدك الله تعالى وأيدك، أوصيك بوصايا، حفظتها وحافظت عليها، رجوت لك السعادة في دينك ودنياك إن شاء الله تعالى.

أولها: مراعاة التقوى بحفظ جوارحك عن ارتكاب المعاصي خوفا من الله تعالى. والقيام بأوامره، عبودية له تعالى. والثاني: أن لا تستقر على جهل ما تحتاج إلى علمه. والثالث: أن لا تعاشر إلا من تحتاج إليه في دينك أو دنياك. والرابع: أن تنصف من نفسك، ولا تنتصف لها إلا لضرورة. والخامس: أن لا تعادي مسلما ولا ذميا[3]. والسادس: أن تقنع من الله تعالى بما رزقك الله تعالى من جاه ومال. والسابع: أن تحسن التدبير فيما في يدك استغناء عن الناس. والثامن: أن لا تستهين عين الناس عليك. والتاسع: أن تقمع نفسك من الخوض في

---

[1] تماشيا مع حديث أبي برزة قال: قلت يا نبي الله علمني شيئا أنتفع به، قال: اعزل الأذى عن طريق المسلمين. إهـ. صحيح مسلم (كتاب البر و الصلة و الآداب) باب فضل إزالة الأذى عن الطريق رقم 6625.

[2] البيتان لأمير المؤمنين مولانا علي كرم الله وجهه.

[3] إشارة لقول النبي صلى الله عليه و سلم: المسلم من سلم المسلمون من لسانه و يده، و المهاجر من هجر ما نهى الله عنه. إهـ. صحيح البخاري (كتاب الإيمان) باب المسلم من سلم المسلمون. إلخ.. رقم 10 (كتاب الرقاق) باب الإنتهاء عن المعاصي رقم 6337، صحيح مسلم (كتاب الإيمان) باب بيان تفاضل الإسلام و أي أموره أفضل رقم 125.

الفضول[1]. والعاشر: أن تلقى الناس مبتدئا بالسلام، محسنا في الكلام، متحببا إلى أهل الخير، مداريا لأهل الشر.

وقال لقمان لابنه في وصيته (وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم. ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله في عامين أن اشكر لي ولوالديك إليّ المصير. وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفا، واتبع سبيل من أناب، إلي ثم إلي مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون. يا بني إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السماوات أو في الأرض يات بها الله إن الله لطيف خبير. يا بني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر، واصبر على ما أصابك، إن ذلك من عزم الأمور. ولا تصاعر خدك للناس، ولا تمش في الأرض مرحا، إن الله لا يحب كل مختال فخور. واقصد في مشيك واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير[2]).

خاتمـة

وأختم وصيتي لك بهذه الأبيات المنسوبة لأمير المومنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، فإنه قال لابنـه:

أبنيّ إني واعظ متـــــــأدب   فافهم فإن العاقل المتـــــــأدب
واحفظ وصية والـــد متحنـــن   يغذوك بالآداب لا يتغضـــــب
أبني إن الرزق مكفول بـــــه   فعليك بالإجمال فيما يطلـــــب
لا تجعلن المال كسبك مفـــردا   وتقى إلاهك فاجعلن ما تكســب
واتل الكتاب كتاب ربك موقنـــا   فيمن يدوم به هناك وينصـــــب
بتدبر وتفكـــر وتقـــــــرب   إن المقرب عنده يتقــــــرب
واعبد إلاهك بالإنابة مخلصـــا   وانظر إلى الأمثال فيما تضـرب
وإذا مررت بآية تصف العـــذا   ب فقل وعينك بالتخوف تسكـب
يا من يعذب من يشاء بقـــدرة   لا تجعلني في الذين تعـــــذب
إني أبوء بعثرتي وخطيئتـــــي   هربا وهل إلا إليك المهـــرب
بادر هواك إذا هممت بصالـح   وتجنب الأمر الذي يتجنـــــب
واعمل لنفسك إن أردت حباءها   إن الزمان بأهله يتقلـــــــب
أبني كم صاحبت من ذي غدرة   فإذا صحبت فانظرن من تصحب
واعمل صديقك من إذا آخيتــه   حفظ الإخاء وكان دونك يضـرب
واحذر ذوي الملق اللئام فإنـــــــــهم في النائبات عليك فيمن يخطب

[1] تماشيا مع قوله صلى الله عليه و سلم: من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه. إهـ.. سنن الترمذي (كتاب الزهد) رقم 2354، موطأ مالك (كتاب حسن الخلق) باب ما جاء في حسن الخلق 4: 252 رقم 1648. سنن ابن ماجة (كتاب الفتن) باب كف اللسان في الفتنة رقم 4062، مجمع الزوائد، للهيثمي (كتاب الأدب) باب من حسن إسلام المرء إلخ.. 8: 40 رقم 12636.

[2] سورة لقمان من الآية 13 إلى الآية 19.

كمال الفرح والسرور
بمولد مظهر النور

للعلامة سيدي أحمد سكيرج رضي الله عنه

تحقيق ذ محمد الراضي كنون
الإدريسي الحسني

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد الفاتح الخاتم وعلى آله وصحبه.
هذا **كمال الفرح والسرور بمولد مظهر النور**[1] للفقيه العالم العلامة الأديب سيدي أحمد بن الحاج العياشي سكيرج أدام الله النفع به.

بمولد خير الخلق تم لنا الفرح … ولم لا وصدر المومنين به انشرح
فيا حادي العشاق فَاحْدُ بمدحه … فقد فاز من في العالمين له امتدح
وحدث بما في المولد النبوي قد … روته أناس فيه عندهم مرح
فتنتعش الأرواح عند سماعه … ويرقص من فرط السرور به الشبح
أما ومحيا منه قد أشرق الدجى … وفضل له بسائر الكون قد رجح
لقد ساد كل العالمين محمد … وفاقهم والكون لولاه ما انفتح
به فتح الله الوجود وجودُه … على يده قد عمَّمَ الكل وانفسح
فقم واسق أهل الحب فيه بخمرة … بها انكشفت عن قلبهم غمم الترح
فلا غمة إلا انجلت عند ذكره … ولا منهج إلا بأنواره اتضح
وقل لكم البشرى بحب محمد … فقوموا بأمداح بها يكمل الفرح
هنيئا لكم دوموا على الحب واعمروا … بأمداحه عمرًا تعمكم المنح
بمولده تحيا القلوب بسرده … وكل مرام بالسرور به نجح
وأكثر من الأمداح فيه فإنما … كمال السرور للمحب لمن مدح
ومدح رسول الله حمدٌ لربه … ولا حمد إلا ما بحب النبي وضح
عليه من المولى كمال تحية … بحسن قبول منه عرف لها نفح

[1]- هو من أوائل مؤلفاته، فرغ من كتابته في شهر محرم الحرام سنة 1326 هـ- 1908م، ولم يقدمه للطباعة إلا في خضم عام 1333 هـ - 1915م، وهو من أبرز المواليد التي دأب الناس على العناية بها واستظهارها على ظهر قلب، إلى جانب مولد الفقيه سيدي محمد الحجوجي المسمى : بلوغ القصد والمرام، في قراءة مولد خير الأنام، وهما معا من أكثر المواليد شيوعا بين الناس، سواء من الفقراء التجانيين وغيرهم.

بسم الله الرحمن الرحيم
وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

نحمدك اللهم على ما تفضلت به على الوجود، من وجود ينبوع الفضل والجود. عين الرحمة الربانية، والواسطة في جميع النعم في السر والعلانية، حمد عبد أقر لك بالوحدانية في الذات والصفات والأفعال، وبالرسالة لسيدنا ومولانا محمد خاتم الأنبياء والإرسال، عليه أتم سلام، ما بقي للدوام دوام، وعلى آله الطيبين، وأصحابه أجمعين.

ما أقام الصلاة من عبد الله وقامت بربها الأشياء[1].

وبعد : فإن أفضل الأيام، وأشرف الأعياد عند خاصة الأعلام، يوم ازداد فيه سر الوجود، من بطون السر إلى مظهر الشهود، فكان أشرف مولد، فيه الرسول عليه السلام وجد.

أكرم بمولده الكريم فيومـــــــه	عين الزمان وأشرف الأعياد
يوم به الإسلام في فرح وفـــي	طرب ودين الكفر في أنكاد
يوم به شمس المعارف أشرقت	للكائنات بمظهر الإرشـــاد[2]

يوم شرف الله به الزمان الذي وجد فيه، وحصل له الفخر على غيره من الأزمان بماله من التنويه، عند كل ذي دين يصطفيه، يوم تنورت به العليا فضاءت به الدنيا، وفتحت فيه الجنان، وأغلقت فيه أبواب النيران، وكم بدت فيه من إرهاصات، وآيات باهرات[3]، فكان أعظم عيد. بطالع هذا النجم السعيد. وانسحب فضله على سائر الأيام، في كل عام، خصوصا اليوم الموافق له في الشهر الموافق للشهر الذي ازداد فيه، فهو أجل قدرا، وأتم فخرا، وأكمل إجلالا، وأفضل كمالا، ولقد أجاد من قال : عند إقبال هذا الشهر النبوي في المقال :

---

[1]- البيت من قصيدة الهمزية في مدح خير البرية للبوصيري وهو آخر أبيات القصيدة المذكورة.

[2]- مما هو قريب من هذه الأبيات قول الشاعر السوري أمين بن خالد الجندي في تخميسه لقصيدة الهمزية:

قل لمن هام فيه قَبْلِي وَبَعْدِي	من أولي الفضل والتقى يا ابن ودِّي
ليلة القدر لا تعادل عندي	ليلة المولد الذي كـــان للـــدِّيــ

ـــن سرورٌ بيومه وازدهاء

[3]- من هذا الصدد قول العلامة الأديب العارف بالله سيدي محمد أكنسوس، حيث قال في بعض قصائده :

لا يمكن العد في آيات مــولده	من كــان للعدِّ بالآيات طماحا
إيوان كسرى غدا إذ ذاك منكسرا	وملك مالكه في الحين قد طاحا
وبحر ســاوة قد غــارت ينابعه	ونــارهم كرمـــاد ليس لقَّاحا
والشهب تنقض والأصنام ناكسة	والجن تنفر عند الرجم جمَّاحا
وأنزل اللــه في الإنجيـل حليته	كما قد أنزل فيه التوراة ألواحا
وكل حبر وكهـــان وذي خبـر	بقرب ميلاد خير الخلق قد باحا

أهلا بسلطان الشهور فإنه   نور العيون وراحة المحزون
وربيعنا وربيع كل موفق   لـم لا وفيه ولادة المأمـــــون[1]

شهر تنجلي فيه عن القلوب الأحزان، وتمتلئ بنور الإيمان، شهر تنشط فيه نفس كل سعيد، وتتقبض فيه نفس كل شقي طريد، وتنتعش فيه الأرواح، بما ينشد من الأمداح، في الجناب الأحمدي، عليه من ربه السلام السرمدي.

---

[1]- قريب من هذا البيت قول علي ابن الجياب الغرناطي المتوفي سنة 749 هـ :
يا ربيعَ الخيْرِ شهرِ المولدِ   كَمْ يَـدٍ أولـيتَنا وكَمْ يَـدِ

وأيضا قول الشاعر السوداني الفاضل مدثر بن ابراهيم بن الحجاز :
اليمن أقبل نحو أمة سيـــــدي   خير الوجود الهاشمي محمــــد
والسعد جاء ميمما ومعممـــا   لجميعها مذ جاء شهر المولــــد
شهر شريف فـائض البركات ميـــــــمون ومقبـول كثير الســــؤدد

وأيضا قول الشاعر محمد الباجي المسعودي التونسي في مطلع قصيدة له :
عيد المسرة وهو شهر المولد   وافاك فانهض للمكارم واسعدِ
يرجوك ما عودت من تعظيمه   وهو الأمــان فَحَيَّهَلْ للمـــولدِ

ومنه أيضا قول بعض مادحيه صلى الله عليه وسلم :
يقـــول لنـــا لســـان الحـال منه   وقول الحق يعذب للسميع
فوجهي والزمان وشهر وضعي   ربـيع فـــي ربيع في ربيـع

ومنه أيضا قول العلامة العارف بالله سيدي محمد بن أحمد أكنسوس :
شهر تشـرف بالإسـلام حق لـه   بين المـــواسـم تعظيم وتبجيــل
شهر تعــاظم مجدا أن يمــاثله   عيدُ ولا زمنُ بالفضل مشمـــول
شهر غدا غرة في كل مكــرمة   وأين من غرَّةٍ في الفخر تحجيل
فيه تكون كَوْنُ الفضل وانفتحت   أبـوابه وأتـــانا العز والسول
فيه تفــجر كـــل الخـير منبجسا   على الخـلائق طرا فهو مبذول
فيه البشائر قد لاحـت أشعتها   فــــيه تعيـن للخيـرات تسهـيل
وزخــرفـت لعبـاد اللـه جنتــه   واستبشر الملأ الأعلى وجبريـل

اللهم صل على سيدنا محمد الفاتح لما أغلق، والخاتم لما سبق، ناصر الحق بالحق، والهادي إلى صراطك المستقيم، وعلى آله حق قدره ومقداره العظيم.

وللتبرك بهذا الموسم المنيف، نتشرف بسرد بعض ما ورد في هذا المولد الشريف، تلذذا بسماع ذكر الحبيب المحبوب، وفرحا بالمولد المبارك على هذا الأسلوب، وقد استحسن الأفاضل من أهل العلم، ذكر ما ورد من الأثر في ذلك تنويها به وتنويرا للفهم، وإن كان لا يخلوا بعض ذلك من ضعف السند، أو وضع في الصناعة الحديثية غير معتمد، فَلْنَأْتِ ببعض ما رويناه في ذلك على هذا النسق، ونمتع به السمع والنطق والحدق، فنقول مستمدا من مدد هذا الرسول صلى الله عليه وسلم، وشرف وكرم ومجد وعظم :

اللهم صل على سيدنا محمد الفاتح لما أغلق، والخاتم لما سبق ناصر الحق بالحق، والهادي إلى صراطك المستقيم، وعلى آله حق قدره ومقداره العظيم

اعلموا أيها الإخوان، أمدني الله وإياكم بمدد سيد الأكوان، أن المولى جل علاه، وتعالى عمن سواه، كان كنزا لم يعرف، فأحب أن يعرف، فخلق الخلق ليعرفوه، وما خلق الجن والإنس إلا ليعبدوه، فقبض قبضة من نوره المصون، الذي قدر ببديع حكمته أن يخترع منه ما كان وما يكون، وفق ما في علمه، فشرف تلك القبضة بخطابه المستطاب، بما يذهل الألباب، فقال : أيها النور كن عبدي محمدا، وبمحبتي مخصصا ممجدا، فلباه بالسمع والطاعة، واشتغل بالعبادة من تلك الساعة، لا يفتر عن التسبيح والتمجيد، والتقديس والتحميد، وذلك قبل خلق الأزمنة والأمكنة، بستمائة ألف سنة وأربع وعشرين ألف سنة، ثم أوجد سبحانه وتعالى اثني عشر حجابا، لبث في كل حجاب منها سنينا وأحقابا، مشتغلا بطاعة مولاه، مستعملا كليته في شكره على ما أولاه، وهي حجاب القدرة، وحجاب العظمة، وحجاب المنة، وحجاب الرحمة، وحجاب السعادة، وحجاب الكرامة، وحجاب المنزلة ، وحجاب الهداية، وحجاب النبوة، وحجاب الرفعة، وحجاب الطاعة، وحجاب الشفاعة.

حجب تكامل قدرها لولا سنى	من نوره لعرى الورى اضمحلال
فتجمعت في روحه أنـوارهـا	وبنوره قد حفـها إجـــــــــــلال

وكلها منه وإليه، ومدارها في الحقيقة عليه، فكان منفردا قبلها بربه، وزاده بعد إيجادها سرًا مشعرًا بكمال قربه، فهي حجب لغيره، وليست تحجبه عن خيره.

فكان بها في غاية القرب وهي من	سناه تدلت كي يصان ظهوره
وصيره المولى حجابًا لذاتـــــــه	ولولا سناه أحرق الكون نوره

وبعد إبداعه لهذه الحجب الرفيعة المقام، أمره مولاه بالإقامة في حجاب القدرة اثني عشر ألف عام، وكان ذكره في ذلك الحجاب الأغلى، سبحان ربي الأعلى، وفي هذا الحجاب الأول، ألبس من لباس الفضل ما تحقق به أنه لكل مكرمة أهل.

رسول الله عظمه الإله وأوجد منه سائر ما براه[1]

ثم أمره بالإنتقال لحجاب العظمة، فأقام فيه أحد عشر ألف عام، وكان ذكره في هذا الحجاب الحفي، سبحان عالم السر الخفي، وفي هذا المقام انكشفت له الأسرار التي لم يطلع عليها إلا مولاه، ولم يعرفها سواه.

وبالفتح اللدني قد تجلـى له في حضرة فيها اصطفاه
له انكشفت حقيقة كل سر ولم يدرك حقيقته ســـواه[2]

ثم أمره الحق بالانتقال إلى حجاب المنة، فمكث فيه عشر آلاف سنة، وكان ذكره فيه للمولى، سبحان الرفيع الأعلى، وفيه امتن الحق عليه بأصناف المنن بما لم تتكشف حقيقة ظاهر النزر منها لأحد إلا له، ثم أمره بالانتقال إلى حجاب الرحمة فأقام فيه تسعة آلاف سنة، وكان فيه ذكره للمولى الكريم، سبحان الرؤوف الرحيم، وفي هذا الحجاب الجليل النعمة، تحقق بأنه صلى الله عليه وسلم هو عين الرحمة.

---

[1]- قريب من هذا البيت قول العلامة الأديب سيدي محمد بن عبد الرحمان ابن زكري الفاسي :

أنت أصل الوجود فالكون من فـــــــرش إلى العرش منك ما أزكـــاكا
لولا جاهك لم يكن له كـــون ولدام انعدامه لــــــولاك

[2]- إشارة للحقيقتين الأحمدية والمحمدية، وهما من أشرف الحضرات العلية، وقد تحدث عنهما الشيخ أبو العباس التجاني رضي الله عنه طويلا في كتابه جواهر المعاني فلينظره من أراد التوسع في هذا الصدد.

ورحم الله الشيخ البوصيري إذ يقول في بردته :

وكيف يدرك في الدنيا حقيقته قوم نيام تسلوا عنه بالحلم

وفي الموضوع نفسه يقول العلامة الشيخ يوسف النبهاني رحمه الله :

لا يعلم الناس في الدنيا حقيقتـه فالعقل عنها بحبل العجز معقول
وفي القيامة تبدو شمس رتبتـه كـأنها فوق هـام الـخلق إكليـل
يجر في الحشر ذيلا من سيادته بفضـله كـل خلـق الله مـشمـول

فأيقن أنه خير البرايا وأن الله قد أعلا علاه

ثم انتقل محفوفا بالكرامة والسيادة، إلى حجاب السعادة، فأقام فيه ثمانية آلاف سنة، وكان فيه ذكره مدة النزول، سبحان من هو دائم لا يزول، وهناك تحقق بأن السعادة منه وإليه، وأن الخير لا يجري إلا على يديه.

وأيقن أنه للخير باب وأن الخير ما بذلت يداه

ثم انتقل إلى حجاب الكرامة، فأقام فيه سبعة آلاف سنة، وهو في غاية التعظيم، وذكره فيه سبحان العليم الحليم، وفيه انكشف له على من سيوجد من الخلائق على اختلاف أجناسهم.

فأبصر كل ما سيفيض منه وكل مكون حقا رآه

ثم انتقل إلى حجاب المنزلة، فأقام فيه ستة آلاف سنة، وكان ذكره في هذا المقام الجسيم، سبحان ذي الملك العظيم، وفي هذا الحجاب تحقق بالخلافة الكبرى عن مولاه، في سائر مملكته التي لم يتصرف فيها سواه.

تحقق بالخلافة في وجود عن المولى بجود قد حباه

ثم انتقل إلى حجاب الهداية، فأقام فيه خمسة آلاف سنة، وكان ذكره للمولى الكريم سبحان رب العرش العظيم، وفي هذا المقام تحقق بما هو المقصود من إرشاد الخلق للحق، فاستوى على عرش الهداية في حضرة الغيب بلسان الصدق.

تحقق أنه المقصود حقا وما في الخلق من يرقى علاه

ثم انتقل لحجاب النبوة، فمكث فيه أربعة آلاف سنة، فتحقق في هذا المقام بنبوته قبل نبوة غيره من الأنبياء عليهم السلام، وكان ذكره فيه للمولى العظيم، سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم.

فأضحى رافعا منشور رشد وكل الخلق قد صاروا وَرَاهُ

ثم انتقل إلى حجاب الرفعة، فأقام فيه ثلاثة آلاف سنة، وكان ذكره فيه سبحان الملك القدوس، وفي هذا المقام رفع الله ذكره، وعظم قدره.

ويوم ألست سارع قبل كل   لقول بلى ولولاه لتاهوا[1]

ومن هذا المقام انتقل لحجاب الطاعة، فمكث فيه ألفي سنة، وذكره في هذا المقام العلي، سبحان القديم الأزلي، وفيه تحقق بسر العبودية، وأفرغ عليه ما لا يكيف من الأسرار الألوهية.

تيقن أنه عبد حقيقي   فوحد ربه جل ثناه

ثم انتقل لحجاب الشفاعة، وأقام فيه ألف عام، وذكره المشروح، سبوح قدوس رب الملائكة والروح، وفي هذا المقام فتح عليه بما لا يفتح به على غيره، وتحقق بما فاض عليه من مواهب ربه وخيره، ورمز على ذلك، بقوله عليه السلام : لا يعرفني حقيقة غير ربي.

عليه بلا انتها أزكى سلام   من الرحمان يشمل من تلاه

صلى الله عليه وسلم.

اللهم صل على سيدنا محمد الفاتح لما أغلق، والخاتم لما سبق، ناصر الحق بالحق، والهادي إلى صراطك المستقيم، وعلى آله حق قدره ومقداره العظيم.

ولما مرت هذه الأعوام والسنون، في هذه الحجب على هذا النور المصون، ووفى بطاعة مولاه، على وفق ما حكم به قضاه، أمره بالسباحة والغوص في عشرة أبحر، وهي بحر النظرة، وبحر الرحمة، وبحر المحبة، وبحر القدرة، وبحر الكرامة، وبحر السخاء، وبحر الهداية، وبحر الشفاعة، وبحر الحكمة، وبحر المعرفة، فامتثل الأمر، وسبح منها بالتسبيح في كل بحر، وأثنى على الله بما هو أهله في هذه الأبحر الواسعة، ذات الأنوار الساطعة، ونال في كل بحر منها ما لا تكيفه العقول، وتكل عن النظر فيه أبصار ذوي البصيرة من أهل الوصول.

بحور أسرار ذات لا تكيفها   عبارة وهي من سر الألوهية
لها حقائق لكن ليس يدركها   عقل وفيها كمالات العبوديـة

ففي بحر النظرة، اختص بنظرة سبق بها الأولين والآخرين، وفي بحر الرحمة صار رحمة للعالمين، وفي بحر المحبة اصطفاه ربه سبحانه بها على الأنبياء والمرسلين، وفي بحر القدرة اقتدر على الفضائل النفسانية على وجه الكمال بقدرة رب العالمين، وفي بحر

[1]- قريب من قول العلامة سيدي حمدون بن الحاج السلمي :

ويومَ ألستُ كان أوّلَ قائل   بلى فَهْوَ ذُو التقديم ليس له سِوَى

الكرامة اختص بالكرامات التي لا يعلم حقائقها إلا أحكم الحاكمين، وفي بحر السخاء تجلى بحلية الجود والسخاء فكان من جوده وجود سائر المخلوقين، وفي بحر الهداية صار هاديًا للهادين والمهتدين، وفي بحر الشفاعة أخذ بالحظ الأوفر حتى غرق في بحر شفاعته سائر الموحدين من العصاة والمطيعين، وفي بحر الحكمة نال حكما لم يشم رائحتها سائر الحُكماء والحاكمين والمحكمين، وفي بحر المعرفة فاض عليه من المعارف والأسرار واللطائف والأنوار ما لا يقدر قدره إلا الله الذي خلقه[1]. فتبارك الله أحسن الخالقين.

حباه ما قد حباه من مواهبه ... وخصه بكمال في محاسنـــه
فلم يطق أحد إيفاء ظاهره ... بما استحق فكيف مدح باطنه[2]

---

[1]- بدليل قوله تعالى : وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم، وكان فضل الله عليك عظيما. إهـ.. سورة النساء، الآية 113.

ورحم الله بعض العلماء إذ يقول في مدحه صلى الله عليه وسلم :

فإن تك فاتح الخيرات طرا ... فإنك قد ختمت المرسلين
علوم الآخرين عليك قصت ... وقد أوتيت علم الأولين

وكذلك قول بعضهم في مدحه :

عرضت عليه كنوز الأرض فلم يرد ... علما بأن مصيرها لذهاب
وإذا سـألت عـن العلـــوم فإنــــه ... لمدينة مفتوحة الأبـــواب

[2]- لا يستطيع أحد مهما بلغ من المرتبة أن يفي في مدحه بحق النبي صلى الله عليه وسلم، أو أن يلم بقدره وشمائله وأخلاقه، فذلك من باب المستحيل، إذ ليس في مقدور عقولنا القاصرة أن تلج هذا البحر الخضم المتلاطم الأمواج، ولهذا وقفت الأولياء عند ساحله، وما لا يؤخذ كله لا يترك كله، ويكفيه فخرا ما مدحه الله عز وجل به في أول سورة نون حيث قال : وإنك لعلى خلق عظيم.

ويرحم الله العلامة ابن الخطيب التلمساني إذ يقول في هذا المعنى :

يا مصطفى من قبل نشأة آدم ... والكون لم تفتح له الأغلاق
أيروم مخلوق ثناءك بعدمـا ... أثنى على أخلاقك الخـلاق

وروي أنه أُخْبِرَ بعد موته في النوم أنه غفر له بسبب هذين البيتين.

ومن هذا القبيل أيضا قول العلامة سيدي محمد بن عبد الرحمان ابن زكري في آخر همزيته :

قصر القول فالجناب رفيع ... من يطاوله أعجزته السماء
وارض بالعجز غاية فقديما ... عجزت عن وصوله الشعراء

قال الزركشي : ولهذا لم يتعاط فحول الشعراء كأبي تمام والبحتري وابن الرومي لمدحه صلى الله عليه وسلم، وكان مدحه عليهم من أصعب ما يحاولونه، فإن المعاني دون مرتبته، والأوصاف دون وصفه، وكل علو في حقه تقصير، فيضيق على البليغ مجال النظم. إهـ..

ومما هو مناسب لهذا الموضوع أن بعضهم لام الشاعر أبا نواس على عدم مدحه لمعاصره الشريف علي الرضا بن موسى الكاظم حفيد سيدنا الحسين رضي الله عنه، فقال أبو نواس :

قيل لي أنت أحسن الناس طرا ... في فنون من المقال النزيه
لك من جيـد القريـض مديـح ... يثَّمَ الدُّرَّ فـــي يدي مجتنيـه
فعلى مَ تركت مدح ابن موسى ... والخصال التي تَجَمَّعْنَ فيه
قلت لا أستـــطيع مــدح إمــام ... كان جبريل خـــادمًا لأبيــه

اللهم صل على سيدنا محمد الفاتح لما أغلق، والخاتم لما سبق، ناصر الحق بالحق، والهادي إلى صراطك المستقيم، وعلى آله حق قدره ومقداره العظيم،

ولما سبح هذا النور، في هذه البحور، وخرج في كمال البهجة متلألأ، وبالحب الإلاهي ممتلئا، نظر المولى إليه بنظرة الرضى والقبول، فترشح النور عرقا في حضرة الوصول، فقطرت منه مائة ألف وأربع عشرون ألف قطرة، فخلق الله من كل قطرة روح نبي أو رسول، ثم تنفست أرواح الأنبياء عليهم السلام، فخلق الله من أنفاسهم نور الأولياء و السعداء و المطيعين من المومنين، و من ظلهم وجدت أرواح غيرهم، و بقي الجميع ساجدا لمولاه، والنور المحمدي يمدهم وهم ساجدون كل على قدر ما تحمله آنيته بتوفيق الله.

وكلهم من رسول الله ملتمس	غرفا من البحر أو رشفًا من الديم
وواقفون لديه عند حدهـــم	من نقطة العلم أو من شكلة الحكم[1]

ولم يزل هذا النور المحمدي سابحًا في العوالم بالإذن الإلهي بعد أن أوجدها عنه في حال إقامته في تلك الحجب الربانية، وفي حال سباحته في تلك الأبحر العرفانية، وأبرزته القدرة منه على أبدع تنظيم، وفق ما جرى في العلم القديم، فسار فيها مسير البدر في الشرف، وصار مسبحا للمولى وهو يرى تولدها منه وهي محيطة به كالجوهرة في الصدف، وفي تنقلاته في تلك المراحل، ازدادت ابتهاجا بنوره الكامل، وهو يقول في ذكره، سبحان العالم الذي لا يجهل، سبحان الجواد الذي لا يبخل.

إن نور النبي نور عظيـــــم	بجميع الأكوان أضحى منيرًا
فأضاء الوجود منه وأضحى	كل نور من نوره مستعيـرًا[2]

---

[1]- البيتان من قصيدة البردة للإمام البوصيري وهما تحت رقم 39 و40.

[2]- قريب من هذين البيتين قول العارف بالله سيدي عمر ابن الفارض :

روح الوجود حياة من هو واجد	لولاه ما تم الـوجود لمن وجـد
عيسى وآدم والصدور جميعهم	هم أعين هــو نورها لمــا ورد
لو أبصر الشيطان طلعة نـوره	في وجه آدم كان أول من سجـد
أو لو رأى النمرود نور جمالـه	عبد الجليل مع الخليل وما عنـد
لكن جلال الله جلَّ فلا يــرى	إلا بتخصيص من الله الصمـد

وكذلك قول العلامة محمد بن عبد الرحمان ابن زكري :

محمد ممد كل العالميـــن	أهل السماوات وأهل الأرضيـن
مدده في العالم العلـــوي	لـــه سـراية وفـي السفلــــي

اللهم صل على سيدنا محمد الفاتح لما أغلق، والخاتم لما سبق، ناصر الحق بالحق، والهادي إلى صراطك المستقيم، وعلى آله حق قدره ومقداره العظيم

ثم أن الله تعالى استخرج من هذا النور جوهرة نيرة، وأشار إليها فانفلقت فلقتين، فنظر لإحدى الفلقتين بنظرة الهيبة، وللأخرى بنظرة الشفقة، أما التي اختصت بنظرة الهيبة فتكون منها المياه الجارية، والبحار والأنهار والسماوات والأراضون والجنة والنار، وأما التي تشرفت بنظرة الشفقة فخلق منها العرش والكرسي واللوح والقلم والملائكة المكرمين حملة العرش وغيرهم من عالين وكروبين، فاشتغلوا بالتسبيح والتقديس والصلاة والسلام على هذا النور المقدس وهم محيطون به، ومستمدون منه، سائرون حيث سار، وانتشروا في الكون أي انتشار.

وكلهم قد غدا يبدي الثناء علـــى	محمد بالذي ما قاله ثـــــــان
وعطر الكون من شكر الإله على	ما خصه منه من سر وإعلان

ثم أمر القلم بالكتابة فانشق من هيبة الأمر وسجد لمولاه، وكتب على لسان الحضرة الإلاهية : بسم الله الرحمن الرحيم إنني أنا الله لا إله إلا أنا محمد رسولي، فلما تشرف القلم بذلك الخطاب، وَرَأى ما ألهم إليه من كتبه ذلك على اللوح المحفوظ الذي هو أم الكتاب، قال سبحانك لا إله إلا أنت يا رب من هذا الذي قرنت إسمه باسمك، فخوطب القلم : أيها القلم بعزتي وجلالي لولا محمد ما خلق أحد[1]، وما خلقت الخلق إلا لأعرفهم كرامة محمد ومنزلته عندي، فدهش القلم من حلاوة الخطاب، وألهمه الله أن يقول: السلام عليك يا محمد، فأجيب القلم من الحضرة: وعليك السلام أيها القلم ورحمتي وبركاتي، ثم ألهم بكتابة ما يكون وما هو كائن إلى يوم القيامة، حتى آل أمر الكتابة إلى ذكر أحوال الأمم، فكتب في حَقهم أن أتقياءهم ومطيعيهم في الجنان، وأن عصاتهم وبغاتهم في النيران، حتى انتهى إلى أمة سيدنا محمد عليه السلام، فأراد أن يكتب على ذلك النسق، فخوطب من الجناب الأكرم : تأدب يا قلم، يا قلم أكتب في حق أمة حبيبي محمد : أمة مذنبة ورب غفور.

---

[1] عن هذا الصدد يقول العلامة العارف بالله سيدي محمد أكنسوس :

محـمد حجة الأكـوان علة مـــا	في الكون من رحمة تبدو وامداد
لا شيء من هذه الدنيا وضرَّتها	إلا مــنوطًــا بأحمــد وحمــــاد
من أجله دارت الأفلاك وابتهجت	حور الجنان ابتهاجا غيـر معتـاد
لولاه ما بعث الرسل الكـرام ولا	تنزل الوحي تنزيلا لإرشـــــــاد
لولاه ما أمسك الله السمـــاء ولا	أرسى بحكمته أرضا بأوتـــــاد
لولاه ما أخرجت أرض زخارفها	وابتهجت بين أغوار وأنجــــاد
ولا لساكنـــها أجـرت مذانبهـــا	ولا استقرت بأشباح وأجســـاد
فهو النبيء الذي حـقت نبؤتــه	وآدم بَعْدُ في طين وآتـــــــاد

بشرى لنا معشر الإسلام إن لنا   من العناية ركنا غير منهـدم
لما دعا الله داعينا لطاعتـــــه   بأكرم الرسل كنا أكرم الأمم[1]

اللهم صل على سيدنا محمد الفاتح لما أغلق، والخاتم لما سبق، ناصر الحق بالحق، والهادي إلى صراطك المستقيم، وعلى آله حق قدره ومقداره العظيم.

ولما أراد المولى أن يجعل في الأرض الخليفة، وأن يظهر للوجود هذه الخليقة، ليشرف الكون بمولد الذات المحمدية الشريفة، أمر عزرائيل أحد الملائكة الكرام، عليهم السلام، بأن يقبض من جميع أمكنة الأرض ما يتشرف بالقبض، فامتثل الأمر، ونزل إلى الأرض، وأخذ من جميع نواحيها من الطول للعرض، قبضة من تراب الزوايا الأرضية، لتكون منه الذات الآدمية.

فأضحى للتراب رفيع قدر   لسر تواضع في طبع ذاته
فشرفه الإله فكان منـــــه   وجود الآدمي في كائناتـه

ثم أمر المولى الملك جبريل عليه السلام أن ينزل إلى الأرض بجماعة من سادات الملائكة المتصفين بكمال الأدب، وأن يأخذ من أشرف مكان في الأرض قبضة تراب، فنزل بالملائكة المأمورين إلى البقعة المقدسة، التي هي قبر سيد المرسلين، فأخذ ما أمر بأخذه من تلك القبضة، التي هي أبيض من الفضة، وصعد بها إلى عين التسنيم، في جنة النعيم، فعجنت بمائها، وغسلوها في جميع أنهار الجنان، حتى صارت كالكوكب الدري في البريق واللمعان، وسار بها جبريل مع طائفة من الملائكة الأبرار، في السموات والأراضين والبحار وسائر الأقطار، ليعلم سائر الأنام، بشرف هذه الطينة المحمدية عليها السلام، فاعترف بفضله في عالم الغيب سائر الأرواح، وأخذ على ساداتها الميثاق بمتابعته قبل حُلولها في الأشباح، ثم ضمت هذه الدرة المكنونة، إلى الطينة الآدمية المصونة، وصور الجسد الآدمي بيد القدرة، ووضع النور المحمدي الذي هو أصل الأنوار في صلب هذا الجسد الكريم، والذي خلق في أحسن تقويم، وأمر الملائكة له بالسجود، تشريفا لسيد الوجود، فسجدوا طبق ما أمروا به، وبالسجود له ظفر كل واحد منهم بكمال مرغوبه.

شرف الله بالسجود إلى آدم   أهل الكمال من أملاكـــه
وحباهم بالامتثال رضـــــاه   فعلا قدرهم على أفلاكه

ثم صارت الملائكة الكرام، تصطف وراء ظهر آدم عليه السلام، للتمتع بالنظر للنور المحمدي المستودع في صلبه، فسأل آدم مولاه حين علم باصطفائه، أن يكشف له عن موجب اصطفاف الملائكة من ورائه، فأجيب من الحضرة بأن ملائكتي ينظرون إلى نور حبيبي محمد، الذي أودعته في صلبك، وسوف يخرج من صلب إلى صلب متقلبًا في الساجدين،

[1]- البيتان من قصيدة البردة للشيخ محمد بن سعيد البوصري، رقم 114 و115.

وهو خاتم النبيئين والمرسلين، فسأل آدم ربه أن يجعل هذا النور في جبهته، لتواجهه الملائكة ، فنقل النور المكنون لجبهته، وتشرفت بذلك لكونها محل السجود، للمولى المعبود، فأشرق في جبهته مثل الشمس المنيرة، ثم سأل من ربه الأعلى أن ينقل ذلك النور الأبهى إلى عضو من أعضائه يمكن النظر إليه، ليتنعم برؤيته، فنقل إلى أصبعه المسبحة، وتشرفت بذلك لتحركها في التشهد بالإشارة للتوحيد، ثم زينت ببقية النور أصابعه الباقية، فوضع نور أبي بكر في الوسطى، ونور عمر الفاروق في البنصر، ونور عثمان في الخنصر، ونور علي في الإبهام، وذلك من سر خلافتهم عن النبي صلى الله عليه وسلم.

اللهم صل على سيدنا محمد الفاتح لما أغلق، والخاتم لما سبق، ناصر الحق بالحق، والهادي إلى صراطك المستقيم، وعلى آله حق قدره ومقداره العظيم.

ولما تم خلق سيدنا آدم عليه السلام، ووضع فيه النور المحمدي في أحسن انتظام، طافت به الملائكة الكرام، في بقاع الأرض والسموات كلها مقدار مائة عام، حتى وقفوا به على كل شيء من عجائب ما خلق من أصل الأنوار، وعلمه الله من الأسماء والمسميات ما لم يعلمه غيره من الملائكة الأبرار، ولما وصلوا به لباب الجنة، ألقى الله عليه النعاس، فأخذت عينه سنة، فخلق منه حواء عليها السلام من ضلعه اليسرى، فلما هب من نومه رآها عند رأسه كأحسن ما خلق الله، فقال لها : من أنت ؟ قالت : أنا زوجتك، خلقني الله لك تسكن إلي وأسكن إليك، فقالت الملائكة عند ذلك : يا آدم ما هذه ؟ قال: امرأة. قالوا : لما سميت بذلك ؟ قال : لأنها خلقت من المرء، قالوا : وما إسمها ؟ قال : حواء، لأنها خلقت من حي، قالوا : أتحبها ؟ قال : نعم.

فكان لها نعم المحب لأنهـــــــا	ستحمل ذاك النور منه وتحفظـــه
فأكرم بها من زوجة شرفت به	وأكرم به زوجا بها الأنس يلحظه

ولما رام القرب منها طلبت منه المهر. فقال : يا رب ماذا أعطيتها . قال : يا آدم صل على حبيبي محمد بن عبد الله عشرين مرة. فعند ذلك زوجها الله إياه.

أعظم به من صداق قد غلا ثمنا	ولا صداق له بال يعادله
فكان مهرًا مبـاركًا لهـا وبـــــه	لآدم تم ما غدا يحاولـــه

ثم خطب الحق خطبة الرضى. وفق ما جرى به القضا. فقال : الحمد ثنائي. والعظمة إزاري.والكبرياء ردائي. والخلق كلهم عبيدي وإماءي. اشهدوا يا ملائكتي وحملة عرشي وسكان سماواتي. أني زوجت حواء أمتي عبدي آدم. بديع فطرتي. وصنع يدي. على صداق تقديسي وتسبيحي وتهليلي. يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة. ولا زال آدم معها في خير ونعمة. حتى دلاهما اللعين بغرور. حسدًا لهما فيما رآهما فيه من النعمة والسرور. بعدما طرد من الرحمة لأجل آدم عليه السلام.لامتناعه من السجود الذي تشرفت به الملائكة الكرام. فكان من فرح إبليس المطرود من رحمة الله مخالفتهما في الظاهر بما نَهَاهُمَا عنه الله. ولم

يعلم ما في تلك المخالفة النفسانية. من ثبوت سر الخلافة الربانية. ليقضي الله أمره. ويظهر للوجود سره. على وفق ما قضاه في سابق العلم من إيجاد النسل الآدمي للعيان. وتشريفه بوجود سيد ولد عدنان. صلى الله عليه وسلم.

اللهم صل على سيدنا محمد الفاتح لما أغلق. والخاتم لما سبق.
ناصر الحق بالحق. والهادي إلى صراطك المستقيم.
وعلى آله حق قدره ومقداره العظيم.

ثم إن الله تعالى بعدما رد نور الحبيب إلى صلب آدم عليه السلام. قال له : تطهر يا آدم وسبح وقدس. واغش زوجتك على طهارة منك ومنها : فإني مخرج منك ذلك النور المحمود. ليتشرف به الوجود. ففعل آدم ما أمره به ربه. فنقل الله نور حبيبه محمد صلى الله عليه وسلم من صلبه الطاهر إلى رحم حواء الطاهرة. فكان في حضرة الأنس يرى في وجه حواء دارة كدارة الشمس. فلما وضعت سيدنا شيت عليه السلام انتقل النور إلى جبينه[1]. فلما كبر وأخذ حد الرجال. أخذ عليه آدم العهد والميثاق. أن لا يضع هذا السر إلا في المطهرات من النساء. ليصل إلى المطهرين من الرجال. فما زالت تلك الأمانة تنتقل من أصلاب الرجال الأخيار. إلى المحصنات من النساء الأطهار. إلى أن وصل ذلك السر الباهر. الذي وصل من طاهر لطاهر. إلى سيدنا عبد الله بن عبد المطلب. والد سيد الأنام عليه السلام.[2] حتى انتقل إلى رحم مولاتنا آمنة ابنت وهب. والتي وهب الله لها هذا النبي الكريم ولدا. وأكرم به من مولود عم الكون مددًا.

تنقل من صلب طهور لطاهر	لطاهرة ميمونة الفرع والأصل
وما مس هذا النور عند انتقاله	مع الطول نقص في اتصال وفي فصل

[1]- مما قيل في هذا الصدد قول الشيخ يحي الصرصري رحمه الله ورضي عنه :

لذاك آدم لما قام معتذرا	إذ غره من عدو الله تسويل
دعا به فأجاب الله دعوته	وكان منه له قرب وتبجيل
وزانه نوره أيام مَهْبِطِه	كأنَّما هو فوق الوجه قنديل
وأُودِعَتْ نوره حواءُ فابتهَجت	وكان منه لها تاج وإكليل
وبالأبوة شيث نال منفردا	شأوًا من الفضل لم يدركه هابيلُ
وحلَّ في صُلب نوح في السفين وفي	صُلْبِ الخليلِ وللنيران تشعيلُ
والمدية انقلبت عند الذبيح لِمَا	مِنْ نوره فيه مكنون ومجبول
ولم يزل بصحيح العقد يودعه الـ	زهر الطواهر آباء بَهاليل
حتى استقرت له في هاشم قدم	لها من المجد تفريع وتأصيل
وأحرز النور عبد الله فهو به	ناج من الذبح تفديه الشماليل
ثم استقلت به الزهراء آمنة الـ	حصان لم يلقها في الحمل تثقيل

[2]- إشارة لقوله صلى الله عليه وسلم : أهبطني الله في صلب آدم، وجعلني في صلب نوح، وقذف بي في صلب إبراهيم، ثم لم يزل ينقلني من الأصلاب والأرحام الطاهرة حتى أخرجني بين أبوايا، لم يلتقيا على سفاح قط. إهـ. أنظر الشفا في التعريف بحقوق المصطفى، للقاضي أبي الفضل عياض 2 :33. جامع الأحاديث والمراسيل (حرف الكاف) 5 :464 رقم 16002.

إلى أن تناهى عند آمنة علـى   أمـانة عبد الله حـامل ذا الفضـل

اللهم صل على سيدنا محمد الفاتح لما أغلق. والخاتم لما سبق.
ناصر الحق بالحق. والهادي إلى صراطك المستقيم.
وعلى آله حق قدره ومقداره العظيم.

وقد ورد أن الله عز وجل أمر جبريل عليه السلام في ليلة زفاف سيدتنا آمنة إلى سيدنا عبد الله. أن ينادي في الأكوان بالتبشير. بقدوم هذا الحبيب البشير النذير.فنادى بأعلا صوته : يا حملة العرش. و يا أهل السدرة، و يا أهل الجنة. ويا أهل السماوات. ويا أهل الأراضين. إن كلمة الله قد تمت. وحكمته نفذت. ورحمته قد عمت. وإنه سبحانه أنجز وعده بإيجاد النبي الأمين. سيد الخلق أجمعين. خاتم النبيئين وإمام المرسلين.المبعوث رحمة للعالمين. المسمى بمُحمد وأحمد وطه وياسين. الناسخ بدينه كل دين.وهاهو الآن بإذن الحكيم الخبير. المعطي لكل شيء خلقه بحسن التدبير. قد قدم من عالم الأرواح. إلى فضاء الأشباح. و أودع نور دره المصون. بحفظ الرب في رحم آمنة ابنت وهب. وقد حق الهناء بهذا الطالع الميمون. فلما سمعت الملائكة هذه البشارة ضجوا بالتقديس والتسبيح والتمجيد والتهليل. وأثنوا على الله بما هو أهله. وهنت الملائكة بعضهم بعضا. وأظهروا البهجة والسرور. وكمال المبرة والحبور. فرفع الحق عنهم حجب الأنوار. وتجلى لهم برضاه عنهم كرامة لقدوم حبيبه النبي المختار. ثم نزلت الملائكة المكرمين بالإذن الإلاهي. وتفرقوا في أقطار الأرض. من الطول للعرض. وانتشروا في الكون أي انتشار. مبشرين بقدوم هذا المصطفى المختار. فابتهج الكل بهذه البشارة. وسقطت أصنام الأرض على الوجوه.وصاح إبليس صيحة هائلة[1]. ودعا على نفسه بالويل والوبال. وعلى أعوانه وجُنوده بالخسار و النكال. فدهمته الشهب المحرقة. وأزعجته عن الخروج عن كل منطقة. وتشتت شمل أعوانه وجنوده. ومزقت جميع أعلامه وبنوده[2]. إجلالا لقدوم هذا الطالع الميمون. والنور المصون. صلى الله عليه وسلم.

اللهم صل على سيدنا محمد الفاتح لما أغلق. والخاتم لما سبق.
ناصر الحق بالحق. والهادي إلى صراطك المستقيم.
وعلى آله حق قدره ومقداره العظيم.

قالت مولاتنا آمنة: حملت بحبيبي محمد صلى الله عليه وسلم في رجب. وكنت ليلة من الليالي في خلال ذلك الشهر في لذيذ المنام. إذ دخل حجرتي رجل له جمال ورائحة طيبة

---

[1]- قال بعض الأدباء في هذا الصدد :

لمولده قد رن إبليس رنة   فسحقًا له ماذا يفيد رنينه

[2]- قال في السيرة الحلبية : روي أن الشياطين كانت تصعد إلى السماء، ثم تجاوز سماء الدنيا إلى غيرها، فلما ولد عيسى عليه الصلاة والسلام منعوا من مجاوزة سماء الدنيا، وصاروا يسترقون السمع في سماء الدنيا، حتى ولد نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، فمنعوا من التردد إلى السماء إلا قليلا، أي فصاروا يسترقون السمع في سماء الدنيا في بعض الأحايين، وفي أكثر الأحايين يسترقون دونها، حتى بعث النبي صلى الله عليه وسلم فمنعوا أصلا، فصاروا لا يسترقون السمع إلا دون سماء الدنيا. إهـ..أنظر السيرة الحلبية، باب ذكر مولده صلى الله عليه وسلم 1 : 109.

وأنوار. وقال : مرحبا بك يا محمد. فقلت من أنت يا صاحب الأنوار؟ قال : أنا أبو البشر آدم. فقلت : أي شيء جاء بك. فقال : يا آمنة لك البشرى. فإنك حملت بسيد البشر.

لك البشارة يا شبيهة القمر　　　فقد حملت بخير الخلق والبشر

قالت : وفي الشهر الثاني دخل حجرتي رجل مبارك. وقال : السلام عليك يا رسول الله. فقلت : من أنت؟ فقال : أنا شيث. فقلت : ما جاء بك؟ فقال : لك البشارة يا آمنة فقد حملت بصاحب التأويل والحديث.

لك البشارة بالنبي الذي سطعت　　　أنـواره وأتى بمحكم السور

وفي هذا الشهر سافر سيدنا عبد الله والد النبي صلى الله عليه وسلم إلى يترب بإذن والده عبد المطلب، بقصد تحصيل الأمنية، فأصابته في طريقه المنية.

ومن كانت منيته بأرض　　　فليس يموت في أرض سواها

وعمره إذ ذاك خمس وعشرون سنة، فبلغ الخبر إلى مولاتنا آمنة فقالت فيه :

عفا جانب البطحاء من آل هاشم　　　وجاوز لحدًا خارجًا في الغماغـــم
دعته المنايا دعوة فأجابهـــــا　　　وما تركت في الناس مثل ابن هاشم
عشية زادوا يحملون سريـــره　　　تعاوده أصحابه في التزَاحــــم
فإن يك غالته المنايا وريبهـــا　　　فقد كان معطاءً كثيرَ التراحـــم

وقد ورد أنه لما توفي سيدنا عبد الله[1]، قالت الملائكة : إلاهنا وسيدنا صار نبيك بلا أب، فبقي من غير حافظ ومرب، فقال الله تعالى : أنا وليه وحافظه وحاميه ومربيه، وعونه ومراقبه وكافيه، قالت مولاتنا آمنة : ثم إنه في الشهر الثالث من حملي دخل حجرتي شخص رئيس، وقال : السلام عليك يا نبي الله ؟ فقلت من أنت ؟ قال : إدريس، ولك البشارة يا آمنة فقد حملت بالدر النفيس.

لك البشارة يا أم النبي فقد حملت بالمصطفى المختار من مضر

[1]- جاء في الحديث : أحيا الله أبوي النبي صلى الله عليه وسلم حتى آمن به. أنظر كشف الخفاء ومزيل الألباس، للعجلوني (حرف الهمزة مع الحاء المهملة) رقم 150، وقد ألف الحافظ السيوطي في هذا الصدد تأليفا سماه : مسالك الحنفا في إسلام والدي المصطفى.
وللإمام السيوطي أبيات في هذا الموضوع قال فيها :

إن الذي بعث النبـــــــي محمـــدا	نجى به الثقلين مما يجحــــف
ولأمه وأبيه حكـــــــم شائـــــع	أبداه أهل العلم فيما صنفـــوا
فجماعة أجروهما مجرى الـــــذي	لم يأته خبر الدعاة المسعـــف
والحكم فيمن لم تجئه دعـــــــوة	أن لا عذاب عليه حكم يؤلـــف
فبذاك قال الشافعية كلهـــــــــــم	والأشعرية ما بهم متوقــــــف
وبسورة الإسراء فيها حجــــــــة	وبنحو ذا في الذكر آي تعـرف
ولبعض أهل الفقه في تعليلـــــــه	معنى أرق من النسيم وألطـف
إذ هم على الفطر الذي ولدوا ولــم	يظهر عناد منهم وتخلـــــــف
ونحى الإمام الفخر رازي الـــورى	معنى به للسامعين تشنـــــف
قال الأولى ولدوا النبي المصطفــى	كل على التوحيد إذ يتحفـــف
من آدم لأبيه عبـد الله مـــــــــا	فيهم أخو شرك ولا مستنكـف
فالمشركون كما بسورة توبـــــــة	نجس وكلهم بطهر يوصـــف
وبسورة الشعراء فيه تقلـــــــــب	في الساجدين فكلهم متحنــف
هذا كلام الشيخ فخر الدين فـــــي	أسراره هطلت عليه الـــذرف
فجزاه رب العرش خير جزائـــــه	وحباه جنات النعيم تزخــرف
فلقد تدين في زمان الجاهلـــــــــــ	ـية فرقة دين الهدى وتحنفـــوا
زيد بن عمرو وابن نوفل هكذا الـــــــ	ـصديق ما شرك عليه يعنـــــف
قد قرر السبكي بذاك مقالـــــــــة	للأشعري وما سواه مزيـــف
إذ لم تزل عين الرضا منه على الـــــــ	ـصديق وهو بطول عمر أحنـــف
عادت عليه صحبة الهادي فمـــــا	في الجاهلية للضلالة يعـرف
فلأمه وأبوه أحـــرى سيمـــــــــا	وارت من الآيات ما لا يوصف
وجماعة ذهبوا إلـــــى إحيـــاءه	أبويه حتى آمنا به واحتفـــوا
وروى ابن شاهين حديثـــا مسندا	في ذاك لكن الحديث مضعف
هذي مسالك لو تفرد بعضـــــــها	لكفى فكيف بها إذا تتألـــــف
وبحسب من لا يرتضيها صمـــته	أدبا ولكن أين من هو منصـف
صلى الإله على النبي محمـــــــد	ما جدد الدين الحنيف محنـف

قالت : وفي الشهر الرابع ظهر في حجرتي رجل له نور يلوح، وقال : السلام عليك يا حبيب الله، فقلت : من أنت ؟ فقال: أنا نوح، ولك البشارة يا آمنة لأنك حملت بصاحب النصر والفتوح.

لك البشارة بالحبيب سيدنا محمد خير أهل البدو والحضر

قالت : وفي الشهر الخامس دخل حجرتي شخص ذو فضل مشهود، وقال : السلام عليك يا صفوة الله، فقلت : من أنت ؟ فقال أنا هود، ولك البشارة يا آمنة لأنك حملت بأفضل مولود.

لك البشارة بالبشير سيدنا محمد منقذ الأحباب من سقر

قالت : وفي الشهر السادس ظهر في حجرتي رجل فضله جليل، وقال : السلام عليك يا رحمة الله، فقلت : من أنت ؟ فقال : إبراهيم الخليل، قلت جئت لتشرفنا بقدومك المبارك، فقال : لك البشرى يا آمنة فقد حملت بالنبي الجليل.

حملت يا ابنة وهب بالنبي وقد وافت لحضرتك البشرى مع الظفر

قالت : وفي الشهر السابع دخل حجرتي رجل ذو وجه مليح، وقال : السلام عليك يا من اختاره الله، فقلت : من أنت ؟ فقال: أنا إسماعيل الذبيح، ولك البشارة يا آمنة فقد حملت بصاحب الفضل الصحيح.

حملت بالمجتبى خير الوجود ومن تمت محاسنه بالحسن والخفر

قالت : وفي الشهر الثامن دخل حجرتي رجل كريم، وقال : السلام عليك يا خيرة الله، فقلت : من أنت ؟ قال : أنا موسى الكليم، ولك البشارة يا آمنة فقد حملت بمن نزل عليه القرآن العظيم.

لك البشارة يا ذات الجمال فقد ظفرت بين النسا بخير مدخر

قالت : ولما دخل الشهر التاسع بالسعادة والإقبال، دخل علي رجل ذو جمال، وهو يبتسم، وقال : السلام عليك يا رسول الله، قد قرب قدومك، فقلت : من أنت ؟ قال : أنا عيسى ابن مريم، ولك البشارة يا آمنة فإنه النبي المكرم، والرسول المعظم.

لك البشارة بالذي أتى بهدى للعالمين وفيه منتهى الوطر

اللهم صل على سيدنا محمد الفاتح لما أغلق. والخاتم لما سبق.
ناصر الحق بالحق. والهادي إلى صراطك المستقيم.
وعلى آله حق قدره ومقداره العظيم.

قالت مولاتنا آمنة في الليلة الأولى من ربيع الأول حصل لي كمال السرور والهنا، والتبشير ببلوغ المنى، وفي الليلة الثانية انشرح صدري، وارتفع على كل النساء قدري، وفي الليلة الثالثة سمعت قائلا يقول : إن الذي يقول بحمد الله وشكره قد قرب قدومه إلى عالم الظهور، بالنور والحبور، وفي الليلة الرابعة سمعت تسبيح الملائكة وتقديسهم للرب بمسرة ورود الحبيب، وفي الليلة الخامسة رأيت في المنام إبراهيم خليل الرب وهو يقول : يا آمنة لك الهناء والبشارة التامة، فقد تشرفت بالنبي الرسول، صاحب الثناء المتوج بتاج القبول، وفي الليلة السادسة ملئت الأقطار بالأنوار، وفي الليلة السابعة سمعت ضجيج الملائكة بالتقديس، وفي الليلة الثامنة سمعت لسان الفرح والسرور ينادي ويقول : يا آمنة قرب ولادة نور النور، وبدر البدور، وفي الليلة التاسعة سمعت من ساحة اللطف، قد قرب إبان الوضع، فابشري بالسعد الدائم، وفي الليلة العاشرة اطمأنت نفسي، وكدت من شدة فرحي أن أغيب عن حسي.

وفي الليلة الحادية عشر وكانت قمراء، ولم يكن فيها شيء من الظلماء، وكان عبد المطلب قد ذهب مع جميع أهله وأولاده إلى تعمير الكعبة الغراء، وما عندي أحَد، فحصلت لي وحشة من الوحدة، وتحرك حملي برفق ولطف، فقلت في نفسي ما هذه الوحدة والوحشة، في هذه الحالة المدهشة، وليست معي امرأة تعينني في شدائد الوضع، إذ أخذني الوجع، فبينما أنا في تلك الفكرة، إذ انشق طرف من بيتي، ودخلت علي أربعة من النساء، وجوههن كالشمس، وريحهن أطيب من المسك الأنفس، غشيهن النور، لهن مشابهة لبنات عبد مناف، يخبر مظهرهن أنهن من بنات الأشراف، فتقدمت إلي إحداهن وقالت : يا آمنة من مثلك، ومن يشبهك، فإنك حملت بسيد الأنبياء والمرسلين، وحبيب رب العالمين، وجلست بجانبي الأيمن، فقلت لها : من أنت ؟ قالت : أنا أم البشر حواء، ثم تقدمت الثانية وقالت : من مثلك ومن يشبهك، وأنت حملت بالنبي الطاهر، وقعدت بجانبي الأيسر، فقلت لها من أنت ؟ فقالت : أنا سارة حَليلة خليل الرحمان، ثم تقدمت الثالثة فقالت : يا آمنة من مثلك ومن يشبهك، لأنك حملت بالحبيب المحبوب، وقعدت وراء ظهري، فقلت : من أنت ؟ فقالت أنا آسية بنت مزاحم، ثم تقدمت الرابعة وكانت هيبتها زائدة، ورونقها وبهجتها متزايدة، وقالت يا آمنة من مثلك ومن يشبهك وأنت حملت بصاحب الآيات، والمعجزات الباهرات، وسيد أهل الأرض والسماوات، يا آمنة ألْقِ ذاتك علي، واجعلي ميلك بكليتك إلي، فقلت : من أنت ؟ فقالت : أنا مريم بنت عمران، ثم قلن لي : يا آمنة نحن قابلات حملك وخادماتك، قالت : فاستأنست بهن، وذهب ما بي من ألم الوحشة.

ورأيت في تلك الحالة ديباجًا أبيض أُرْخِيَ فيما بين السماء والأرض، وسمعت قائلا يقول : خذوه عن أعين الناس، ورأيت أشخاصا في الجو بأيديهم أباريق من فضة، ورأيت طيورًا أحاطت بحجرتي، أجنحتهن من الياقوت، وأنوفهن من الزمرد، وشاهدت أشخاصًا يدخلون حجرتي ويخرجون ويتكلمون باللغات المختلفة، فبينما أنا كذلك إذ رفع الله عن عيني الحجب، فعاينت قصور بصرى من أرض الشام، ورأيت ثلاثة أعلام قد نصبت، علم

بالمشرق، وعلم بالمغرب، وعلم بالكعبة، وقد استولى علي العطش في تلك الحالة، فعرضت علي كأس شرابها أبيض من اللبن وأحلى من العسل، فأخذتها وشربتها[1].

بكمال الحبور في خير جمع　　　قد وضعت الحبيب أحسن وضع

مرحبا بك يا سيدنا محمد، صلى الله عليك وعلى آلك وسلم
السلام عليك يا رسول الله، صلى الله عليك وعلى آلك وسلم
السلام عليك يا نبي الله، صلى الله عليك وعلى آلك وسلم
السلام عليك يا حبيب الله، صلى الله عليك وعلى آلك وسلم
السلام عليك يا صفوة الله، صلى الله عليك وعلى آلك وسلم
السلام عليك يا رحمة الله، صلى الله عليك وعلى آلك وسلم
السلام عليك يا من اختاره الله، صلى الله عليك وعلى آلك وسلم
السلام عليك يا خيرة الله، صلى الله عليك وعلى آلك وسلم.
السلام عليك يا رسول رب العالمين، صلى الله عليك وعلى آلك وسلم
السلام عليك يا خاتم النبيئين والمرسلين، صلى الله عليك وعلى آلك وسلم.

هذا الحبيب وهذا سيد الرسل　　　هذا منير الدجى وسائر السبل
هذا الذي ملأت قلبي محبته　　　هذا الذي سهرت من حبه مُقلي
هذا الذي أنا أهواه وفزت به　　　يا فرحتي انفصلي يا فرحتي اتصلي
هذا الذي للهدى والدين أرشدنا　　　لملة شرعها يسمو على الملل
هذا الذي انشق إكراما له قمر　　　لما أشار له في محفل حَفِل
هذا الذي راودته الشم من ذهب　　　فردها وإلى الدنيا فلم يمل
هذا الذي في مقام العرض شافعنا　　　إذا استغثنا به من شدة الوجل
هذا الذي من به المولى توسل لم　　　يخب له القصد وهو مانح النحل
هذا الذي أكرم الرحمان أمته　　　فجل قدرهم بالعلم والعمل
بشرى لنا أمة الإسلام إن لنا　　　من العناية ركنا غير منفصل

---

[1]- قال العلامة سيدي الحاج أحمد سكيرج رضي الله عنه : في هذا المحل ينبغي أن يقف قارئ المولد ويقف الحاضرون، ويسلم عليه، ويجيبون بالصلاة والسلام عليه.
قلت : مشروعية القيام في هذا المحل واحدة من الآداب التي ينبغي أن يتحلى بها المومن إزاء النبي صلى الله عليه وسلم، لا سيما من امتلأ فؤاده بحب هذا النبي الكريم، وسكنت في قلبه بواعث تعظيمه وتبجيله.
ويذكر في هذا الباب أن النبي صلى الله عليه وسلم كان قد نهى بعض الصحابة عن القيام له لدى وفوده على مجالسهم، فحدث مرة أنه وفد على مجلس للصحابة رضوان الله عليهم، فلم يقم له أحد منهم سوى سيدنا حسان بن ثابت رضي الله عنه، وكأنه لم يبلغه ذلك النهي، فأشار له النبي صلى الله عليه وسلم بالجلوس، وأنه لا داعي للوقوف، فقال حسان رضي الله عنه :
أقوم إليك والقيام فرض　　　وترك الفرض أنَّى يستقيم
أيمكن من له عقل رجيح　　　ومعرفة يراك ولا يقوم
فتهلل وجه النبي صلى الله عليه وسلم، وبدت على ملامحه علامات البهجة والسرور، كما دعا لقائل هذين البيتين وأثنى عليه.

لما أتانا الرسول وهو خير نبـي يأكرم الرسل كنا أكـرم الملـــل

اللهم صل على سيدنا محمد الفاتح لما أغلق، والخاتم لما سبق، ناصر الحق بالحق، والهادي إلى صراطك المستقيم، وعلى آله حق قدره ومقداره العظيم.

قالت سيدتنا آمنة : لما وضعت حبيبي محمدًا خرج معه نور أضاء ما بين المشرق والمغرب[1]، وأضاءت له قصور الشام[2] حتى رأيتها، ثم نظرت إليه فإذا هو ساجد، قد رفع أصبعيه إلى السماء كالمتضرع المبتهل[3].

رافعا رأسه وفي ذلك الرفع إلـــى كل سـؤدد إيمــــــاء
رامقا طرفه السماء ومرمى عين من شأنه العلو العـــلاء
وتدلت زهر النجوم إليه فأضاءت بضوئها الأرجاء
وتراءت قصور قيصر بالروم يراها مـن داره البطحــاء[4]

قالت : ثم رأيت سحابة بيضاء قد أقلبت من السماء، لها نور عظيم، أسمع فيها صهيل الخيل وخفقان الأجنحة وكلام الرجال، فأحاطت به حتى غشيته، وغاب عني، ثم سمعت قائلا يقول : طوفوا به في جميع الأرض، وأعرضوه على كل روحاني من الجن والإنس والملائكة والطيور والوحوش، وكل شيء ليعرفوه باسمه ونعته وصورته، وأعطوه خلق آدم، ومعرفة شيث، وشجاعة نوح، وخلة إبراهيم، ولسان إسماعيل، ورضا إسحاق، وفصاحة صالح، وحكمة لوط، وحكمة لقمان، وبشرى يعقوب، وجمال يوسف، وطاعة يونس، وجهاد يوشع، وحب دانيال، وحكم سليمان، وصوت داوود، ووقار إلياس، وقبول زكرياء، وعصمة يحيى، وزهد عيسى، وأغمسوه في أخلاق النبيئين.

---

[1]- إلى هذا النور يشير سيدنا العباس بن عبد المطلب بقوله في قصيدته التي امتدح بها رسول الله صلى الله عليه وسلم عند رجوعه من غزوة تبوك، حيث قال له لدى عودته من الغزوة المذكورة : يا رسول الله إني أريد أن أمتدحك، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : قل لا يفضض الله فاك، فقال قصيدة منها :

وأنت لما ولدت أشرقـت الأر ضُ وضاءت بنورك الأفق
فنحن في ذلك الضياء وفي النـــــــــــــور سبل الرشاد نختـــرق

أنظر زاد المعاد في هدي خير العباد، لابن القيم الجوزية، فصل رجوع النبي من غزوة تبوك، السيرة الحلبية باب ذكر مولده صلى الله عليه وسلم 1 : 91، الوفا بتعريف فضائل المصطفى، لابن الجوزي، أبواب بداية نبينا، الباب الثاني في ذكر الطينة التي خلق منها محمد صلى الله عليه وسلم.

[2]- إشارة لقوله صلى الله عليه وسلم : رأت أمي حين وضعتني سَطَعَ منها نورٌ أضاءت له قصور بصرى. إهـ. الفتح الكبير في ضم الزيادة إلى الجامع الصغير (حر الراء) 2 : 123 رقم 6493، كنز العمال، للمتقي الهندي (المجلد الحادي عشر) 1 : 2278 رقم 31906، فيض القدير، للمناوي (حرف الراء) رقم 4359.

[3]- أنظر السيرة الحلبية، لبرهان الدين الحلبي، باب ذكر مولده صلى الله عليه وسلم 1 : 87، البداية والنهاية، لابن كثير 3 : 295.

[4]- الأبيات من قصيدة الهمزية للشيخ سيدي محمد بن سعيد البوصيري، رقم الأبيات من 24 إلى 27.

به جمع الله المحاسن كلهــا	ولا حسن إلا ما انتمى لمحاسنه
وكل كمال فهو بعض كماله	وظاهره عنوان أسرار باطنـــه

قالت : ثم انجلت عني، فإذا به قد قبض على حريرة خضراء مطوية طيًا شديدا، ينبع من تلك الحريرة ماء، وإذا بقائل يقول: بخ بخ قبض محمد على الدنيا كلها، لم يبق خلق من أهلها إلا دخل طائعا في قبضته، قالت : ثم نظرت إليه، فإذا به كالقمر ليلة البدر، وريحه يسطع كالمسك الأذفر، مكحلا مختونا[1] نظيفا، ما به قذر، وإذا بثلاثة نفر في يد إحداهم إبريق من فضة، وفي يد الثاني طست من زمرذ أخضر، وفي يد الثالث حريرة بيضاء، فنشرها، فأخرجَ منها خاتما يحار أبصار الناظرين دُونه، فغَسله من ذلك الإبريق سبع مرات، ثم ختم بين كتفيه بالخاتم، ولفه في الحريرة، ثم احتمله بين أجنحته ساعة، ثم رداه إلي.

فرد به روحي إليَّ وكدت من	تزايد وجدي أن أغيب عن الحس
وكدت به من شدة الفرح الذي	عراني به أعلو على رتبة الشمس

صلى الله عليه وسلم

اللهم صل على سيدنا محمد الفاتح لما أغلق، والخاتم لما سبق،
ناصر الحق بالحق، والهادي إلى صراطك المستقيم،
وعلى آله حق قدره ومقداره العظيم

وقد وقع هذا كله وعبد المطلب عند الكعبة مع أهله يطوف بها تعبدًا لله وقربة، فبينما هو يطوف، وإذا بالبيت الشريف قد اهتزت جوانبه الأربع، وسمع التهليل والتكبير، وجعلت أركانه يسلم بعضها على بعض، وهي تقول : قد جاء رسول رب العالمين، صاحب النور والكتاب المبين، قال سيدنا عبد المطلب : فخرجت من باب الصفا أطلب منزل آمنة، وإذا بالأرض ومن عليها يهللون ويكبرون، ثم نظرت إلى الكعبة، فرأيت جميع الأصنام ساقطة على وجهها، فصرت أمسح على عيني وأقول : أنا نائم أم يقظان، حتى وصلت إلى منزل آمنة، فرأيت الأنوار منه ساطعة، والمسك الأذفر يفوح من حجرتها، وقائل يقول : ما الخبر ؟ فقيل له : ولد سيد البشر، فطرقت عليها الباب، فخرجت وليس عليها أثر النفاس، ثم أخبرتني بما جرى، وما بها من بأس، فطلبت رؤيته فإذا هو :

---

[1]- إشارة للحديث الشريف الذي يقول فيه النبي صلى الله عليه وسلم : من كراماتي على ربي أني ولدت مختونا ولم يرا أحد سوأتي. إهـ.. أنظر السيرة الحلبية باب ذكر مولده صلى الله عليه وسلم 1 : 86.
وقد جمع بعض العلماء أسامي الأنبياء الذين اختصوا بهذه الفضيلة وهم سبعة عشر نبيا فقال :

وفي الرسل مختون لعمرك خلقة	ثمان وتـــسع طيبــون أكارم
وهم زكريا شيت إدريس يوسف	وحنظلة عيسى وموسى وآدم
ونوح شعيب سام لوط وصــالح	سليمان يحي هود يس خـــاتم

نور تكل به الأبصار عن نظــر	يا حسن منظره المحوط بالخفـــــر
سجدت لله شكرا عند رؤيتـــــه	وقلت سبحان ربي خالق الصــــور
فما سمعت ولا رأيت في عمري	في الدهر من يشبه الحبيب في البشر [1]

ثم حكت له ما وقع لها من المرائي من قبل، وبالإسم الذي قيل لها سميه به بعد الوضع للحمل، فقال لها : يا آمنة إنه إسم حسن يحمده أهل الأرض والسماوات، قالت : إني سمعت قائلا يقول :

أعيذه بالواحـــــد	من شر كل حاســــد
وكل خلق زائــد	من قائم وقاعـــــــد
عن السبيل حائـد	على الفساد جاهـــد
من نافث أو عاقد	وكل خلق مـــــــارد
يأخذ بالمراصـــد	في الطرق والموارد
أعيذه بربـــــــه	من فتنة المعانـــــد

ثم أخذه سيدنا عبد المطلب، وذهب بِهِ إلى الكعبة، وأدخله إلى جوفها، وقام عندها يدعو الله و يشكره على ما أعطاه، فقال يومئذ :

الحمد لله الذي أعطانــــــــي	هذا الغلام الطيب الأردان
قد ساد في المهد على الغلمان	أعيذه بالبيت ذي الأركان
حتى أراه بالغ البيـــــــــان	أعيذه من شر ذي شنئـان

من حاسد مضطرب العينان

ثم أقام له عقيقة، وسماه بذلك الإسم الشريف، فقيل له : لم سميت ابنك محمدًا، ولم يكن من أسماء آبائك ولا أجدادك ؟ فقال : رجوت أن يكون محمودًا في السماء لله، وفي الأرض لخلقه، فحقق الله رجاءه فيه صلى الله عليه وسلم.

---

[1]- ينطبق على هذا ما جاء في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال : ما رأيت شيئا أحسن من رسول الله صلى الله عليه وسلم، كأن الشمس تجري في وجهه، إهـ" رواه الترمذي وأحمد والبيهقي وابن حبان، ومن هذا المعنى قول الصحابي الجليل حسان بن ثابت رضي الله عنه :

وأجمل منك لم تر قط عيني	وأكمل منك لم تلد النساء
خلقت مبرءا من كل عيب	كأنك قد خلقت كما تشاء

ومنه أيضا ما ينسب لمولاتنا عائشة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها :

فلو سمعوا في مصر أوصاف حسنه	لما بذلوا في سوم يوسف من نقـد
وصحب زليخـــا لو رأيـن جمـــاله	لآثرن بالقطع القلوب على الأيدي

اللهم صل على سيدنا محمد الفاتح لما أغلق، والخاتم لما سبق،
ناصر الحق بالحق، والهادي إلى صراطك المستقيم،
وعلى آله حق قدره ومقداره العظيم

ثم إن سيدتنا آمنة حصل لها على أثر النفاس ضعف وألم، شغلها عن رضاع هذا المولود المبارك، وكان من عادة أهل مكة أن يخرجوا بالأطفال إلى المراضع، وقد سبق في الأزل أنه لا يرضع هذه الدرة اليتيمة، والنفس الكريمة، غير حليمة الحكيمة، وقد ناداها لسان القدر، بأن تقدم لمكة لتضفر برضاع سيد البشر، وحادي السعادة ينشد لها :

قومي حليمة إن سعدك قد طلع ولمكة سيري فغصنك قد ينـــع
فإذا وصلت لها تفوزي بالمنى برضاع من ما مثله ثديًا رضــع
فلتقصديه بكل شوق إنــــــه في مكة نور عليه قد سطــــــع
فهو الذي أنواره قد أشرقــت وعلى الوجود لديه جود قد همع
بشراك بالسعد الذي وافاك يــا سعدية فالخير فيه قد اجتمــــع
قولي لزوجك قد ظفرنا بالغنى وبه يكون لديك رزق متســـــع
فالله أكرمنا به في خلقـــــــه فله كمال الحمد ما نجم طلـــع

فجاءت إليه حليمة ودفع إليها، ورجعت إلى محلها بهذه الغنيمة، فقامت برضاعه أتم قيام، ورأت من بركاته ما شهد لها به الخاص والعام، إلى أن فصلته وبها البرحاء من فصاله، ولكن من شدة ما اعتراها عليه من الخوف، ردته إلى أهله محفوفا برداء جماله.

وفي السنة السادسة من مولده صلى الله عليه وسلم توفيت والدته سيدتنا آمنة[1]، وقد نظرت إليه في مرضها الذي توفيت فيه وقالت :

بارك فيك الله من غـــــلام يا آبن الذي من حومة الحِمــام
نجا بعون الملك العــــــلام فودي غداة الضرب بالسهـــام
بمائة من إبل ســــــــوام إن صحَّ ما أبصرت في المنام
فأنت مبعوث إلى الأنــــام من عند ذي الجلال والإكرام
تبعث في الحل وفي الحرام تبعث في التحقيق والإســلام
دين أبيك البر إبرهــــــام فالله أنهاك عن الأصنــــــام
أن لا تواليــها مع الأقـوام

[1]- توفيت رحمها الله بالأبواء، وهو محل بين مكة والمدينة، وهو إلى المدينة أقرب، وكانت حينئذ في طريقها إلى مكة المكرمة، بعدما قضت بالمدينة مدة شهر عند أخواله بني عدي بن النجار، وكانت ترافقها في هذه الرحلة خادمتها السيدة أم أيمن بركة الحبشية، وعموما فقد مرضت سيدتنا آمنة بالأبواء، وبها توفيت ودفنت، وتركت ابنها صلى الله عليه وسلم في يد خادمتها السيدة أم أيمن، التي جاءت به بعد ذلك إلى جدِّهِ عبد المطلب، ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول في السيدة أم أيمن : أنت أمي بعد أمي.

ثم قالت : كل حي ميت، وكل جديد بال، وكل كبير يفنى، وأنا ميتة، وذكري باق، وقد تركت خيرا، وولدت طهرًا، ثم ماتت، فسمع نوح الجن عليها، وهاتف يقول :

نبكي الفتاة البرة الأمينة	ذات الجمال العفة الرزينة
زوجة عبد الله والقرينة	أم نبي الله ذي السكينة
وصاحب المنبر بالمدينة	صارت لدى حفرتها رهينة

وقد أحيا الله أبويه بعد البعثة، فآمنا به صلى الله عليه وسلم، فكانا من أمته كرامة لهما ومعجزة له، كما ورد بذلك الخبر، وإليه أشار من قال :

حبا الله النبي مزيد فضل	على فضل وكان به رؤوفا
فأحي أمه وكذا أباه	لإيمان به فضلا لطيفا[1]
فسلم فالإله بذا قدير	وإن كان الحديث به ضعيفا[2]

ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد شب في قومه في عفاف وصيانة، وله تشير أشرافهم برفع المكانة، وهو بينهم الأمين المأمون، والطالع الميمون، حتى ظهر أمره، وعم البرية بره، فدعاهم إلى الله أحسن دعوة، فأجابه كل سعيد، وخاب لأجله كل جبار عنيد، إلى أن دعاه الحق إليه، فلبى الدعوة، وترك تحت حفظ الله أمته، فهو مرشد الخلق للحق، والداعي إلى الله بلسان الصدق، صلى الله عليه وسلم.

لعمركم ما في الوجود كأحمد	ولا أحد في الخلق والخلق ماثله
فقد خصه خلاقه بشمائل	وأكرم أخلاق وحسن المجامله
فكان لكل الخلق منه تكرم	وجود به عم الوجود مناوله
وأجمع أهل الفضل أن له على	جميع الورى فضلا به الله عامله
أقر له بالفضل كل موفق	وكل دليل قاطع فيه قام له
ومن فضله قامت عليه شواهد	ببرهان صدق ليس فيه مداخله
ومن عنده من نفس كل مجادل	دليل كمال كيف فيه المجادله
أبى الله إلا أن يكون محمد	عليه مدار الكون دون مماثله

[1]- جاء في الحديث عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت : حج بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حجة الوداع، فمر على عقبة الحجون وهو باك حزين مغتم، فبكيت لبكائه، ثم إنه طفق، أي شرع يقول : يا حميراء استمسكي، فاستندت إلى جنب البعير، فمكث عني طويلا، ثم عاد إلي وهو فرح متبسم، فقلت له : بأبي أنت وأمي يا رسول الله نزلت من عندي وأنت باك حزين مغتم فبكيت لبكائك، ثم إنك عدت إلي وأنت فرح مبتسم، فمم ذاك ؟ قال : ذهبت لقبر أمي فسألت ربي أن يحييها فأحياها فآمنت وردها الله تعالى، إهـ" أنظر السيرة الحلبية، لبرهان الدين الحلبي (باب وفاة أمه وحضانة أم أيمن له وكفالة جده عبد المطلب إياه) 1 : 172، كشف الخفاء ومزيل الألباس للعجلوني (حرف الهمزة مع الحاء المهملة) عند حديث أحيا الله أبوي النبي صلى الله عليه وسلم حتى آمن به، رقم 150.

[2]- الأبيات لحافظ الشام العلامة الشهير ابن ناصر الدين، أنظرها في كشف الخفاء ومزيل الألباس، للعجلوني (حرف الهمزة مع الحاء المهملة) لدى شرحه للحديث : أحيا الله أبوي النبي صلى الله عليه وسلم حتى آمن به، رقم 150.

ومن نوره قد أوجد الخلق كلهم	ومنه أمد الكل كل مواصلـــــه
وأمته صارت به خير أمـــــة	لها في مقام الفضل كل مفاضلـه
فأكرم بها من أمة أحمديــــــة	به قد حباها الله حسن المعاملـه
فبشرى لنا بشرى لنا بنبينـــــا	فإن له سرا به الله أوصلـــــه

اللهم صل على سيدنا محمد الفاتح لما أغلق، والخاتم لما سبق،
ناصر الحق بالحق، والهادي إلى صراطك المستقيم،
وعلى آله حق قدره ومقداره العظيم

اللهم إنا نتوسل إليك يا ذا الجلال والإكرام ، ويا من لا معبود بحق سواه، ويا باسط الآلاء على سائر الأنام، ولا يخيب رجاء من دعاه، بجاه نبيك عليه السلام، القائل توسلوا بجاهي فإن جاهي عند الله عظيم، أن تكفينا ما أهم وما لم يهم في الدارين، وتغفر ما نعلم من ذنوبنا وما لا نعلم في الحالين، وأن تأخذ بيدنا وبيد والدينا وأولادنا، وأهلينا وأحبابنا، وكل من له حق علينا، وتبسط علينا خيراتك، وتوفقنا لشكرك الملحوظ بقبولك ومرضاتك، وأن تُهَدِّئَ روعتنا، وترخص أسعارنا، وتنصرنا على من عادانا، وتكفينا شر كل هم، وشر كل ذي شر، وتختم لنا بالسعادة، وتتفضل علينا بالحسنى وزيادة، واحشرنا في زمرة الذين أنعمت عليهم من النبيئين والصدقين والشهداء والصالحين، بجاه نبيك خاتم النبيئين والمرسلين، والحمد لله رب العالمين، هـ.

التقريظ الأول

الحمد لله على إفضاله، وصلى الله على سيدنا محمد وآله، ولأديب طنجة الشريف الأصيل، الفاضل الجليل، ذي الأخلاق العذبة المذاق، الدالة على طيب الأصول والأعراق، سيدي عبد الله بن محمد بن الهاشمي الوزاني، بلغه الله غاية الأماني، في تقريظ هذا المولد اللطيف قائلا :

تأمل كتاب كمال الفــرح	يزل عنك كل عنى وترح
بمولد سيدنا المصطفـــى	من أرشد أمته ونصــــح
فيا طالب العلم فارتع بــه	فما مثله مولد يمتـــــدح
فلا عجب إن غَدَا روضة	فزهر المحاسن فيه نفــح
لقد جمع الفضل جامعـــه	وفاز بنيل المنى ونجـــح
سكيرج أحمد من صـدره	بحب النبي وذويه انشرح
أديب الزمان وعالمـــــه	فما مثله للنبي مــــدح
شمائله بالتقى كملـــــت	فتم كتاب كمال الفـــرح

قاله بفمه عبد الله بن محمد بن الهاشمي الوزاني لطف الله به

التقريظ الثاني

وقرظه أيضا الشاب الفقيه الأديب الغطريف محمد البيضاوي الشنقيطي بقوله

رأيت مولد خير الخلق نمقـــه	متوج بأكاليل وأنـــــــــوار
فأظهر الدر من مكنون جوهره	من كل علم ومن أسحار الأشعـــار
سكيرج نصرة المختار ديدنـــه	لا غَرو إن نصر المختار أنصاري

وكتبه بقلمه محمد البيضاوي بن أمانة الله الشنجيطي رفعه الله.

التقريظ الثالث

وكتب عليه العلامة الذي لا يحتاج في تفضيله على غير العلامة. الفقيه الأجل، سيدي الحاج عبد الكريم بنيس، أمنه الله ورعاه ما نصه :

كمال السرور لنا والفـرح	بمولد طه انجلى واتضـــح
وأحمد علامة العلمــــــا	أتى بكنوز المنَى والمنـــح
كتاب حوى جملا قد حكت	رياض تبسم لما انفتــــح
تخلل من نظمه بعقـــــــــــــــود بها فاز من لعلاه امتدح	

وقد طبعت بعدما كملت	فشاق لها الصدر ثم انفسح
ولَمِْ لا وتاريخه معلـــم	بطه زمان الشفاء وضَـــح
	1333= 104 1113 98 18
عليه وآل وصحب ومن	تيممه للمنى فاقتـــــــرح
صلاة تلاها السلام بـلا	تناهي بها السعي منا نجـح

قال وكتبه عبد ربه عبد الكريم بن العربي بنيس لطف الله به.

تائية المنى والسول
في ذكر مولد مولانا الرسول

للعلامة سيدي أحمد سكيرج رضي ا عنه

تحقيق ذ محمد الراضي كنون
الإدريسي الحسني

تائية المنى و السول
في ذكر مولد مولانا الرسول[1]

بسم الله الرحمن الرحيم و صلى الله على الفاتح الخاتم و آله و صحبه و سلم تسليما

متى يا حبيبي لي تجود بعطفة ... وتمنحني في الوصل كأس المودة
و تشفي فؤادي من شجون تراكمت ... علي بما كابدته في القطيعة
ألم تراني قد كدت أخفى من الجوى ... بفرط نحول من معاناة محنتي
أبى الله إلا أن أكون متيما ... رهين غرام فيه تزداد حيرتي
شربت كؤوس الحب بعد امتزاجها ... بماء حياة الروح بين الأحبة
وإني خلعت في الصبابة و الهوى ... عذاري بما ألقاه من فرط لوعتي
وإني قد أسلمت نفسي في الورى ... إليك لعل أن تمن بزورة
ولست للوم العاذلين بسامع ... ولو أطنبوا في اللوم لي بنصيحة

---

[1]- كان العلامة سكيرج رحمه الله حريصا على تعظيم ذكرى المولد النبوي المجيد و إحياء مناسبتها الكريمة. و استيعاب الدروس النافعة منها. و ما أكثر دروسها. و ما أعظم العبر المستخلصة منها. كيف لا و هي بداية مرحلة بشرية سامية. ذات معان و آفاق غير معهودة من قبل، و يكفي أن نَذّكر في هذا الصدد بزوغ فجر أمته التي وصفها الله عز و جل في كتابه العزيز بقوله: كنتم خير أمة أخرجت للناس. تامرون بالمعروف و تنهون عن المنكر و تومنون بالله.

و من خلال هذا المولد الجليل، الذي هو عبارة عن نظم مبارك، حاول المؤلف فيه استنهاض الهمم الفاترة، و استنفار الطاقات في محبة هذا النبي الكريم، الذي جعله الله رحمة للعالمين، ومبشرًا و نذيرا و مفتاحا لسائر النعم و الخيرات، كما دعا من خلاله كافة المومنين إلى التعرض لنفحات هذه الذكرى العزيزة، التي هي ذكرى يمن و بركة و فرج، مع حثهم على الإهتداء بهديه صلى الله عليه و سلم، و اقتفاء خطاه، والسير على منهاجه و طريقه، و الزيادة من محبته، والتعلق به، و الإعتصام بحبله، إلى غير ذلك من مغازي أخرى.

و كثيرا ما كان يقول رحمه الله أن العبرة بهذه الذكرى الغالية تكمن في عموم اللفظ لا بخصوص السبب، كما هو مقرر و معروف عند الأصوليين، و لا حجة لمنكر هذه الذكرى أو القائل بعدم شرعيتها، بل هو عمل حسن محمود، و فرصة للقاء المسلمين على الخير، و قراءة القرءان وسرد السيرة النبوية العطرة، وسماع القصائد النبوية الجليلة، كالهمزية و البردة و بانت سعاد، إلى غير ذلك من تلاوة قصة المولد، وتشنيف الأسماع بخبر ولادته صلى الله عليه و سلم. و ما زامَنها من أحداث، و مسرات و خوارق عادات، و معجزات و آيات و غيرها.

و خلاصة القول فإن هذا المولد هو نظم جليل، تائي القافية من بحر الطويل، و قد نظمه المؤلف حسبما وقفت عليه فِي ليلة واحدة، و ذلك من ليالي شهر ربيع الأول عام 1326 هـ، و قد سرد هذا النظم المبارك في رحاب الزاوية التجانية الكبرى بمدينة فاس مرات عديدة، لا سيما ما بين عامي 1326_1336 هـ موافق 1908_1918م حيث كان المؤلف مقيما بمدينة فاس، و كان للإحتفال بذكرى المولد النبوي وقتئذ طابع خاص ، إذ هو أضخم احتفال سنوي تعيشه الزاوية المذكورة، حيث تمتلئ عن آخرها بساداتنا المريدين الذين يقصدونها من كل فج عميق، بغية إحياء الليلة المباركة في محفل مهيب، تنشرح فيه النفوس، و تقر فيه الأعين، و توزع فيه كؤوس الشاي والحلوى باختلاف أنواعها، و التمر و الحليب، والكسكس، و ألوان من المأكولات والفواكه وغيرها. كما تكون الزاوية في تلك الليلة كأنها عروس متألقة في حلل بهية و أنوار متناسقة، وروائح عطرة، و أجواء سعيدة.

وإني طول الدهر لست إلى السوى   أميل و لا أرتاح يوما لسلوة
وإني صبار على حرق الجوى   سوى الهجر لم أقدر عليه بحيلة
لقد رقت العذال طرا لحالتي   على أنني في الحب طابت بليتي
فلست تراني بالشكاية مفصحا   ولكن نحولي قد وشى بمضرتي
فكم بت و الأشجان من بين أضلعي   تؤججها نيران شوقي بزفرتي
وكم بت أرعى السائرات مسامرا   أنظم عقيان الدموع بمقلتي
وأنت الذي بالقهر مني ملكتني   وعذبتني بالتيه بعد المحبة
ومني سلبت النفس بين ذوي الهوى   وألبستني ثوب الجوى بعد صبوتي
وإني لأرضى طول عمري بالذي   فعلت بنفسي بين أهلي وجيرتي
حَنَانَيْكَ فارحم ذلتي و تملقي   إليك و دعني من بعاد و جفوة
ألم تتيقن أنني بك مغرم   وأن غرامي فيك صار جبلتي
ومَا لِي التِفَاتٌ عَنْكَ إلا لمدحتي   لخير الورى المختار بين البرية
محمد المحمود في كل مشهد   ومن هو وافى للورى عين رحمة
هو العلم المرفوع في المجد قدره   ومن أجله الأكوان طرا تبدت
وأول نور أوجد الله نوره   ومنه جميع الكائنات استمدت
ولما أراد الله إيجاد خلقه   على ما قضى سبحانه في المشيئة
دعا قبضة من نوره بمراده   وقال لها كوني محمدَ قبضتي
فكان على وفق المراد مراده   وكان هو المقصود بين الخليقة
فلولاه دام الكون في موطن العما   ولولاه كل العالمين اضمحلت
فكان أبا معنى لآدم جده   وكان له ابنًا ظاهرًا مثل صورة
فآدم يدعوه لدى كل موطن   أبا و هو يدعوه بوصف الأبوة
فهذا لهذا والد لظهوره   وهذا لهذا والد في الحقيقة
ولما بدا من نوره القلم الذي   جرى باسمه في اللوح في أصل نشأة
دعا الله يا مولاي من ذا الذي به   قرنت اسمك المحمود في خير رتبة
فإنا عرفنا الله باسم جلالة   ولم ندر من هذا المحوطُ بعزة
فقيل له عبدي تأدب فإن ذا   حبيبي محمد أجل البرية
فعندئذ لله قد خرَّ ساجدا   وكاد من المولى يذوب بخجلة
وبعد سجود ألهم الله نطقه   فقال على المختار خير تحية
فرد عن المختار ربي سلامه   فأعظم بمن عنه التحية ردت
وما زال نور الهاشمي محمد   محوطا بحفظ الله في كل لحظة
إلى أن برا رب البرية آدما   فألبسه من نوره خير حلة
فمن أجله الأملاك قد سجدت له   وأبلس إبليس بخزي و لعنة
ولما رأى الأملاكَ آدمُ خَلْفَهُ   تشاهد أنوارًا به قد تجلت
دعا ربه المولى عن السبب الذي   له تقف الأملاك من خلف جثتي
فأخبره المولى بنور محمد   ولولاه لم أخلقك يا صنع قدرتي
فألهمه الله السلام على النبي   فرد عليه الله خير التحية
فقال إلاهي انقل بفضلك نوره   إلى جبهتي كيما أفوز ببغيتي
ولما أنال الله آدم قصده   وصار يرى الأملاك في كل وجهة

دعا ربه المنان ينقل نوره … لأصبعه كيما يفوز بنظرة
فأعطاه ما قد رامه فغدا يرى … بأصبعه نور الحبيب لنعمة
وما زال يحظى آدم بمراده … بجاه ابنه المختار في كل دعوة
فتاب عليه حين ناداه باسمه … لدى أكله من شجرة بدسيسة
وزوجه حواء بعد صلاته … عليه و أدى مهرها خير قربة
ولما أتت حوا بشيت مطهرًا … بدا فيه هذا النور باهر نضرة
وقد جاء شيت دون أخت تشرفا … لذا النور كي يمتاز من بين الإخوة
تقيا نقيا طاهرا و مطهرا … محوطا بحفظ الله من كل ريبة
وآباؤه السادات نالوا بحفظه … مراتب فخر في المعالي تبدت
فلم يُرَى منهم واحدٌ متهاونا … وَلا سيم منهم واحد بمعيبة
لقد طهر الله الكريم أصوله … وخصصهم في العالمين برتبة
فما نال ما نالوا سواهم لكونهم … قد امتاز كل منهم بمزية
وذلك أن الله جل ثناؤه … قد اختارهم للنور بين البرية
فأعظم بعبد الله والده الذي … له شهدت أعداؤه بالفضيلة
لقد كان ميمون الطليعة حاملا … لواء كمال قد تحلى بعفة
وأعظم بقدر شيبة الحمد من غدا … محل التقى و الفضل بين الأجلة
رفيع المقام عبد مطلب و من … به قد رعى الرحمان حرمة مكة
رفيع المقام ذي المزايا و ذي العلا … و ذي الهمة العليا بنفس أبية
وأعظم بعالي القدر هاشم الذي … له تنتمي في الخلق كل جميلة
وأعظم بمن قد حل في رتبة الكما … ل عبد مناف ذي المزايا الجليلة
وأعظم بمن نال المحامد في الورى … قصي محل المكرمَات الحميدة
وأعظم بمن حاز المقام الذي سما … كلاب حكيم الحاكمين بن مُرة
وأعظم بذا المولى الذي هو مرة … مغيث الذي ناداه في كل مَرَّة
وأعظم بكعب من غدا في ذوي العلا … يرى دائما ينبوع سر و حكمة
وأعظم بمن قد ساد أهل زمانه … لؤي مجير الناس من كل شدة
وأعظم بعالي القدر غالب الذي … حوى في مرامي المجد أرفع رتبة
وأعظم بفهر سيدًا جل قدره … وحل مقامًا في مكانة رفعة
وأعظم بمن حاز الفضائل مالك … ملاذ الورى عند الأمور الملمة
وأعظم بذاك النضر بدر العلا الذي … به أشرقت للناس كل دُجُنَّة
وأعظم بمغني السائلين كنانة … مزيح العنا عن كل نفس تعنت
وأعظم بشمس في العوالم قد بدت … خزيمة عالي القدر دون تعنت
وأعظم بأصل المجد مدركة الذي … له خضعت هام النفوس النفيسة
وأعظم بإلياس أخي البأس و الندى … وذو الهمة العلياء فوق المجرة
وأعظم بمرفوع الذرى مضر الذي … يزيح عن القصاد كل مضرة
وأعظم ببحر الجود بين ذوي العلا … نزار مزار الفائزين ببغية
وأعظم بمن لا يحصر العد فضله … معد عماد المجد بين البرية
وأعظم بمن قد عظم الله قدره … على غيره عدنان أصل الفضيلة
أولئك قوم طهر الله أصلهم … وطهرهم من كل نقص و ريبة

وأعلى بأعلا المكرمات مقامهم   وتوجهم تاج القبول ببهجة
وصدرهم في المجد فوق مراتب   لها قد عنت أهل النفوس الأبية
وقد لحظوا في كل غيب و مشهد   بملحظ تعظيم لدى كل ملة
وكان عليهم ذلك النور لائحا   يشاهده من نال فتح البصيرة
ولما انتهى النور الكريم لوالد الـــ ـــــ ـنبي و لم تمسسه أدنى دنية
تزوج بالمولاة آمنة التي   لها من كمال الحسن أبدع صورة
فأكرم بها فالله عظم قدرها   وصيرها أما لأكرم بضعة
وأكرم ببحر الجود وهب فإنه   منيل الهبات ذو المزايا الكثيرة
وأكرم بمسدي الخير عبد منافهم   سمي الرضى جد النبي في المكانة
وأكرم بعالي القدر زهرة من غدا   له في مراقي المجد أرفع رتبة
وأكرم بمن قد صار مجمع عنصري   تناسب أنساب كلاب ابن مرة
كريم السجايا ذو المزايا التي بها   قد امتاز حتى صار ينبوع حكمة
وأكرم بها من زوجة قد تزوجت   بأكرم زوج نال أكمل نعمة
فكانت كشمس في الضحى قد تبرزت   وكان كبدر مشرق كل ظلمة
فزفت إليه في كمال عفافها   وما مثلها عذراء للزوج زُفَّتِ
وكم نسوة قد مِتْنَ من حسد لها   عليه بما اختصت به من مزية
وكُنَّ لعبد الله يطلبن قربه   ويبذلن في لقياه كل نفيسة
وما اختار عذراء سواها لنفسه   بعقد نكاح لا يزن بريبة
ففازت به من بينهن فلم تطق   على كيدها أنثى بشدة غيرة
وفي الليلة الغراء ليلة زفها   توالت بها البشرى بكل مسرة
بها ضجت الأملاك لله بالثنا   من أجل جلالة عليها تجلت
فَضَاءَ فَضَاءُ الكون بالبهجة التي   بها انشرحت كل الصدور السليمة
فكان لحمل النور أعظم موقع   بعالم علوي و سفلي ببهجة
ولما استقر النور في الرحم التي   لها كمل التطهير من كل وصمة
توالت به الأفراح في كل عالم   به بعضها الأملاك للبعض هنت
وقد حفظ المولى مبارك حملها   إلى وضعه بالحفظ كامل خلقة
وما وجدت في حملها وحمًا و لا   عراها به ثقل و لا بعض غمة
وقد بشرت في مدة الحمل بالذي   تقر به العينان منه لفرحة
فقيل لها أنت التي قد حملت بالـ ـــــ ـنبي الذي قد فاق كل البرية
إذا ازداد سميه الحبيب محمدا   فإن له في الكون أكمل رفعة
وكم من مرائي قد رأتها لها بها   بشائر قد سرت قلوب الأحبة
وفي ليلة الوضع الشريف تفتحت   جنان من الرضوان و النار سدت
وزهر النجوم قد تدلت و أشرقت   ببهجتها الأرجاء من كل بقعة
وقد حضرت ميلاده خير نسوة   بهن كمال الأنس من بعد وحشة
فقد أخذتها وحشة و هي وحدها   ببيت لها كانت به دون جيرة
فجاءت لها حوا على خرق عادة   مع السيدات العائدات برحمة
فكن لها نعم القوابل جئن من   حظيرة قدس كي يفزن بنظرة
فكانت لهن في الحضور مزية   بها زادهن الله كل مودة

وناهيك باللاتي حضرن لوضعه ... ولم يك معها غيرهنَّ بحفلة
فشوهد نور يخرق الأفق مُشرقا ... به مشرقا من مغرب كل ظلمة
تراءت قصور قيصر لانتشاره ... وقد فاح نشر الطيب من كل وجهة
وقد أبصرت أم النبي سحابة ... من النور قد حاطت به ذات وجبة
بها سمعت صوت الملائكة التي ... به في زوايا الأرض طافت بسرعة
وردته من بعد اعتراف بعرضه ... على الخلق كيما يعرفوه بخلقة
ووافته أملاك تؤدي سلامها ... عليه و قد فازوا بأكمل زورة
فقم مظهرا إجلاله بتأدب ... وسلم عليه كي تفوز بعطفة
وقل مرحبا بالمصطفى سيد الورى ... عليك من المولى أتم التحية
عليك سلام الله يا كامل البها ... عليك سلام الله يا خير صفوة
عليك سلام الله يا بهجة العلا ... عليك سلام الله يا بحر حكمة
عليك سلام الله يا خير مرسل ... من الله مبعوث إلى خير أمة
عليك سلام الله يا علم الهدى ... عليك سلام الله يا عين رحمة
لعلك أن تحظى برد سلامه ... ورد السلام منه خير ذخيرة
وقد ظهرت في يوم مولده به ... أمور بها نفس الشياطين ضلت
فظلت حيارى من عظيم مصابها ... بما شاهدوه من كمال النبوة
وإيوان كسرى انشق فانكسرت به ... له شوكة لم تنجبر بجبيرة
وقد خمدت نيران فارس آية ... له و به غاضت بحيرة ساوة
وخرت به الأصنام و اضطربت لها ... قلوب الطغاة قد هَوَوْ في مصيدة
وقد طردت عن مقعد السمع في السما ... فمن يستمع يرمى بشهب مصيبة
وذلك من إرهاص سر نبؤة ... ومن بعده كم معجزات تبدت
وقد أفصحت كتب سماوية به ... فجاء رسولا مثل ما الكتب نصت
وكل نبي قد أتى مخبرًا به ... إلى أن أتى من بعدهم بالشريعة
وقد أخذ المولى عليهم مواثقا ... متى ما أتاهم ينصروه بحجة
فقالوا بظهر الغيب و الله شاهد ... بك الله آمنا بصدق عزيمة
فأنت إله العالمين و إنه ... رسولك قد خصصته بالوسيلة
وقرت به في عالم الروح عينهم ... ونالوا به قربا محوطا بعصمة
ولولا رسول الله يوم ألست ما اهــ ـــــــ ـتدت لجواب روح كل الخليقة
فقال بلى في ذلك الوقت مرشدا ... لهم فاهتدت للحق من بعد حيرة
فأعلن بالتوحيد لله ربه ... فقرت لهم عين بحق أقرت
فكان لهم مفتاح أبواب جوده ... فعم وجود الكلِّ منه بنعمة
وَصَارَ حِجَابًا أعْظَمًا لِحَيَاتِهِمْ ... وفي الكل من أنوار ذات تجلت
فلولا سناه لاضمحل وجودهم ... ولولاه ضلوا في عمى و قطيعة
على الخلق طرا قد تسامى مقامه ... إلى أن غدت من تحته كل رتبة
فرتبته الدنيا إذا ما وصفتها ... بحق على عرش المعالي استقرت
ورتبته العليا على الخلق تختفي ... على أنها في العالمين تبدت
تبدت بحال ليس يدرك وصفه ... وغاية ما يدرى كمال النبوة
فدع عنك أوصاف الألوهية التي ... بها ذات رب العالمين استبدت

وقل في علاه ما تشاء من الثنا ... فإن له في الكون كل فضيلة
وكل صفات المدح منه تفرقت ... وفيه انطوت و الله كل جميلة
هو الكل و الأكوان من بعض نوره ... تكون منه خلقها في الحقيقة
فلا شيء دون الله إلا أمده ... بما يده عمت بجود و خصت
فما مثله في الكون كان و لم يكن ... له كفؤ في خلقة و حقيقة
قضى الله قبل الخلق تخصيصه بما ... به خصه و اختاره بعد نشأة
فلم يك في الإمكان أبدع صورة ... ولا خير منه طبق ما في المشيئة
فَخَصَّصَهُ بين الخلائق ربُّهُ ... بأكمل أخلاق و أحسن صورة
وطهَّرَهُ من كل شيء يشينه ... وكمله حسًا و معنى بصفوة
فما هو بين الخلق إلا محمد ... فطابق الإسم للمسمى بحكمة
فللحق محمود و للخلق كلهم ... وفي يده ألوية الحمد حلت
وأحمدهم لله في كل مشهد ... وأرشدهم للحق في كل وجهة
لقد خصص الرحمان أمته بما ... به غبطتهم في العلا كل أمة
لذلك أحيا الله أم نبيه ... ووالده كي يدخلا حرز ملة
وكانا على منهاج حق تسابقا ... بحسن سريرة و أحسن سيرة
وأحياهما المولى الكريم كرامة ... به لهما بالفضل من بعد بعثة
ولا عجب إذ كان أحياهما له ... فإن به تحيا نفوس البرية

نفع العموم
بالمسامرة ببعض العلوم

للعلامة سيدي أحمد سكيرج رضي الله عنه

تحقيق ذ محمد الراضي كنون
الإدريسي الحسني

بسم الله الرحمان الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه

نفـع الـعمـوم
بالمسامرة ببعـض العـلوم[1]

خذ العلوم وإن كسلت عن عـمـــل … فالعلم من أكمل الأوصاف في الرجل
لم يستو عالم وجاهل أبــــــدا … ولو بلا عمل أحرى مع العمـــل[2]
فالعلم لابد يدعو حامليـه إلـــى … ما فيه خير لهم من غير محتمـــل
والجهل يردي أخاه في مـراتعـــه … وإن يكن نال ما ذو العلم لم ينـــل
ولا تكن عالة على سواك بـــه … وإن على الله كنت خير متكـــل
فالناس لا يقدرون قدر مفتــقـــر … لهم ولو كان منهم في علوم علـــي[3]
ولا تدنسه بالأطماع في رتـــب … وارفل بأطمار عز النفس في حلـــل
وكن بحزمك حر النفس مجتنيــا … ثمار عمرك فهـي أثمن الغلـــل
والحر من ليس فيه في السوى طمع … ولم يضع نفسه في موضع الزلـــل
وليس بالحر من يهـــن ديانتـــه … بما اقتضاه هواه غـير محتفـــل
وليس بالحر من تجني حرارتـــه … عليه عارا سرى للأهل والخـــول
فالحر يملك حظ النفس في غضـب … وليس يدرك حد النفس بالعـجـــل
فبالتأني نجاح السعي منك وهـــل … يصيب مستعجل خير الذي مهـــل
فاعمل على العلم فيما أنت تعملـه … واعلم بأن كمال النفع بالعـمـــل
ولا تضيع نفيس النفس في طـلـب … لما به أنفس الأعمار في شـغـــل
فالحر لاشيء قد ساوى له نفـــسا … فكيف يبذله يومـا بـلا بـــدل

---

[1] تعد هذه المنظومة من أوائل مصنفات العلامة القاضي سيدي أحمد سكيرج رحمه الله و رضي عنه، كتبها إبان مقامه بمدينة طنجة ما بين عامي 1328هـ_1331هـ موافق 1910_1913م. و أقدم على طباعتها على الحجر بمدينة فاس عام 1336 هـ و كثيرا ما كان يرجع إليها في تآليفه الكثيرة. و تقع هذه المنظومة في 209 أبيات، تناول فيها التعريف ب 57 علما. تتلخص الأهداف العامة لهذه المنظومة في تزويد الطلاب (لاسيما طلبة جامع القرويين) ببعض المعارف الأساسية، اللازم الإطلاع بها لدى الطالب النجيب، و تزويدهم بالمعلومات المتقدمة التي تساعدهم على دراسة هذه الفنون، و الإلمام بمختلف أصنافها. و من تم تضم هذه المنظومة جملة من الفوائد العجيبة، التي تساهم في تطوير مهارات التلاميذ، وتمكينهم من الإحاطة بأسامي العلوم و آفاقها و ماهياتها و أنواعها، فاتحة في الوقت نفسه أمام هؤلاء التلاميذ آفاقا لاقتفاء آثار هذه العلوم، و تطويرها، و العمل بمقتضاها، و التوعية بأهمية مجالاتها.

[2] إشارة لقوله تعالى: قل هل يستوي الذين يعلمون و الذين لا يعلمون، سورة الزمر الآية 9.

[3] إشارة لمولانا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، و بالضبط للحديث النبوي الكريم الذي جاء في حقه حيث قال النبي صلى الله عليه و سلم: أنا مدينة العلم و علي بابها، فمن أراد المدينة فليأت الباب. رواه الحاكم في مستدركه (كتاب معرفة الصحابة رضي الله عنهم) 3: 137 رقم 4686.

الحث على تعاطي الصنائـــع

ولتتخذ لك شغلا فيه منفـــعـــــــة فالناس ما انتفعوا بغير مشتــغـــــل
فالله يكره بطالا[1] وإن بطـــــــــــلا لم يحترف فاحترف وإن بمبتـــذل
وقدر كل امرئ ما كان يحســنـــه[2] فاختر من الحرف العالي تعد علي
واجعل لنفسك في أبناء جنسك مـا به تعز ودع حــبائل الحيـــــــل
واترك نواميس محتال يصون بها دنيا وبالدين منه غــير محتفـــل

الحـريـة

وأن حرية الإنسان قاضيـــــــــة عليه أن يرتقي عن دورة الهمـــل
فينشل النفس من حضيض شقوتها إلى السعادة بــين سائر المــلـــــل
وروض النفس بالتقوى بغير عنى عساك تقوى على ما رمت من عمل

[1] إشارة لقوله عليه السلام: إن الله يكره الرجل البطال. إهـ. أنظر الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة، للسيوطي 1: 109 رقم 114، و عزاه فيه لابن عدي من حديث عبدالله بن عمر بسند فيه متروك.

[2] إشارة لقول مولانا علي كرم الله وجهه: لكل شيء قيمة و قيمة المرء ما يحسنه. إهـ. و في المعنى نفسه يقول بعض الشعراء:

لا يكون السري مثل الدنـــي لا و لا ذو الذكاء مثل الغبي
قيمة المرء مثل ما يحسن المر ءُ قضاء من الإمام علــــــي

و قال آخر في المعنى نفسه:

إن كنت تطمع في العلياء تخطبها و تبتغي منزل التكريم تسكنــه
لا تخل نفسك من علم تســود به فقدر علم امرئ ما كان يحسنه

علم الأدب

ليس الأديب الذي ترضيك هيئته   وقد تأبط شرا وهو ذو حيل

يجر ذيل افتخار في ملابسه   وفي الخلاعة من حسن الخلال خلي

بل الأديب الذي يجني المعارف من   أفنان خير الفنون غير منخذل

مستنكفا من تعاطي ما يدنسه   دينا ودنيا وعن تقواه لم يحل

يخالط الناس فيما هم عليه ولا   يعد ما الوقت أبداه من العطل

بل حكمة الله بالوجود محكمة   وأحمق الناس من يراه في خلل

وأجهل الناس من أراد يظهر في   زمانه غير ما قد كان في الأزل[1]

السياسة

دع السياسة لا تخض بلجتها   فإنها خطر من كل ذي خطل

كفاك غيرك ما يكف عنك أذى   فكيف تسلك فيها أضيق السبل

إن السياسة في ترك السياسة إن   تبغي السلامة فاتركها بلا جدل

ومن يسس نفسه بالدين يلق هنا   دنيا وأخرى ولا يزال في جذل

التمدن

وبالتدين زن منك التمدن في   مصر حللت به تسمو ذوي الحلل

ليس التمدن في خلع المروءة عن   وجه وليس بلبس خلعة السفل

فليس بالزي زين المرء في علن   ولا بما امتاز فيه مثل معتزل

يرى مخالفة في جنسه حسنا   وكم رمى مثله بالخبل والخبل

بل التمدن تمرين النفوس على   نجاح سعي بإصلاح بلا كسل

وحسن تربية يزينها أدب   والرفق بالخلق بين سائر الملل

---

[1] إشارة لقول ابن عطاء الله الإسكندري في حكمه: ما ترك من الجهل شيئا من أراد أن يحدث في الوقت غير ما أظهره الله فيه. إهـ... أنظر الحكم العطائية الكبرى رقم الحكمة 17.

الشطرنـج

لا تنقلن قدما قبل التأمل فـــــــــي
مآل أمرك بعد النقل والنقــــــــــل

وكن كلاعب شطرنج تأمل فـــــــي
نتيجة النقل كي يفوز بالأمـــــــــل

فإن يصادف لفرصة لها فــــــــرس
عدا لأجل انتهازها بلا وجـــــــــل

ولا تعاند دني الأصل في غـــــرض
فكم لساقط قدر حط قدر علـــــــــي

كم مات شان ببيدق يحاربــــــــه
ولم تفد فيه عند الحصر من حيــــل

فخير أغراضك الإعراض عنه وهل
كصون عرضك شيء عنه أن تصل

آداب البحـث والمنـاظـرة

وخض بآداب بحث في مناظرة
وخذ بأحسنها في حومة الجـــدل

ولا تناضل بباطل فصاحبـــه
ما عدّ عند ذوي الإنصاف بالبطل

فـن المحاضرة[1]

ولتجعل اللطف دأبا في محاضـرة
و احذر بأن تحضرن حضرة الهمل[2]

فمن يجالسه من لا يجانســـــه
يجني على نفسه اختلال مختبـــــل

وانصف الخصم إلا في تكبـــره
أو في مكابرة فاتركه في خبـــــل

ولتؤخر علم ما سواك يجهلـــه
فالجهل للشيء قد يزيد في الفشـــل

تعلم الخير بل والشر في شـــره
فرب شر يقي من بالشرار بلـــــي

[1] علم المحاضرات: قال عنه في كتاب مفتاح السعادة: هو علم يحصل منه ملكة إيراد كلام للغير مناسب للمقام من جهة معانيه الوضعية، أو من جهة تركيبه الخاص، و الغرض منه تحصيل تلك الملكة، و فائدته الإحتراز عن الخطأ في تطبيق كلام منقول عن الغير على ما يقضيه مقام التخاطب من جهة معانيها، ومن جهة خصوص ذات التراكيب نفسه.

[2] قريب من هذا البيت قول الطغرائي في آخر بيت من قصيدته اللامية:

قد رشحوك لأمر إن فطنت له
فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهمل

فـن الـعروض[1]

كن للعروض إذا شعرت معتبـــرا ... أوزانه وعن الميزان لا تمـــــل
كم مدع يخسر الميزان من عمـــه ... ولم يقم وزنه بالقسط في عمـــل
ولم يبال بما يعاب منـــــــه إذا ... ما قيل في قوله نقص بلا وجـل
فيأخذ النغم التي توافقـــــــــــه ... ويستدل بها في وزنه الجلـــــل
و ربما ساعدته ساعة حضـــــرت ... بها أماثله في الجهل للعلـــــــل
يؤيدون مقاله بغنتهــــــــــــــــم ... و ليتهم علموا ما عيب من خلـل
وربما جرأته نيل جائـــــــــزة ... من أجل واسطة يأتيه بالأمـــــل
يقول لو لم يكن ميزانه حسنـــــا ... ما نال جائزة والغير لم ينـــــل
فدعه فالجهل يعمي قلب صاحبـه ... والعلم يفضحه والعيب منه جلي
ولا تلم زمنا فيه تقدم عـــــــــن ... سواه فالسعد في مطالع الوعـــل

فــــن القـــــــوافي[2]

وارع القوافي في تأليفها وأجـد ... في حكم أحكامها في القول والعمل
فغير مستحسن أن لا تسير على ... وتيرة وتصير مثل ذي حـــــــول

---

[1] علم العروض: قال عنه في كتاب كشف الظنون: هو علم يبحث فيه عن أحوال الأوزان المعتبرة. إلى أن قال: و اعلم أن أول من اخترع هذا الفن الإمام الخليل بن أحمد الفراهيدي، و لا حاكم في هذه الصناعة إلا استقامة الطبع و سلامة الذوق، فالذوق إن كان فطريا سليقيا فذاك، و إلا احتيج في اكتسابه إلى طول خدمة هذا الفن.

[2] علم القوافي: قال عنه في كتاب كشف الظنون: قال في الموضوعات: هو علم يبحث فيه عن تناسب أعجاز البيت و عيوبها، و غرضه تحصيل ملكة إيراد الأبيات على أعجاز متناسبة، خالية عن العيوب التي يتنفر عنها الطبع السليم، على الوجه الذي اعتبره العرب، و غايته الإحتراز عن الخطأ فيه.

فـــــن الـــقرض[1]

وقرضك الشعر لا تهذي به أبدا	من قبل تهذيبه في الجد والهزل
فالنقد إن لم يكن من الخبير بـــه	يجره لانتقاد وهو في خجـــــل

فـــــن الإعــراب

وكن بالإعراب في الكلام معتنيـا	فاللحن أقبح ما يكون بالرجــــل
وراع فيه بساطا يقتضيـــــه ولا	تلك لسانا به لغير محتفــــــــل
دع التبجح لا تجعل مخاطبـــــة	نحوية وسط العوام في جمــــل
فكم ثقيل يظن أن منطقـــــــــه	حلا بذلك وهو مج من ثقــــــل
إن كنت تعلمه فاسلك مسالكــــــه	بمقتضى الحال فيه غير مبتــذل
حذار من كبر نحوي ومن خطــأ	يفضي بإصلاحه لورطة الخطل
فكم مصيب أصيب فيه من بطــر	به وكم هابه في الناس من بطـل
فاحفظ لسانك يا إنسان واعن بمـا	يعنيك يغنيك حتى منتهى الأجـل

فـــن الشــعــر

إياك إياك أن تكون مسترقــــا	للشعر يوما وقله غير منتحـل
فسارق الشعر يوما عدّ منتحلا	وإن يفق في النظام كل منتخل

[1] علم قرض الشعر: قال عنه صاحب كتاب كشف الظنون: هو علم باحث عن أحوال الكلمات الشعرية، لا من حيث الوزن و القافية، بل من حيث حسنها و قبحها من حيث أنها شعر، و حاصله تتبع أحوال خاصة بالشعر من حيث الحسن و القبح و الجواز و الإمتناع. إلخ .. و مما قيل في هذا الصدد قول بعضهم:

الشعراء فاعلمن أربعـــــه	فشاعر يجري و لا يجرى معه
و شاعر من حقه أن ترفعه	و شاعر من حقه أن تسمعـــــه

و شاعر من حقه أن تصفعه

فــــن الكيــــميا[1]

لا تطلب الكيميا فإنها شـــــرك لدى شياطين إنس في اصطياد ملي
مدّوا له حبل شمس من مطامعه ليسلبوا ماله بأعظم الحيـــــــــل
وكم جهول أضاع عند تجربـــة أنفاسه ونفيس الحلي والحلـــــــل
واها على عقله فيما يؤم لـــــه من صنعة تقلب الأعيان بالأمـــل

الحـراثة والتـجارة

ما الكيميا غير أسباب تلازمهـــا بحرث أو بتجارة بلا خلـــل
فاترك سبيل غرور واطرقن غنى من باب هذين تلقاه بلا وجل

طـــلب الكـنوز

إن الحـــراثة كنز لو فطنت لـــــه مفتاحه الجد في عزيمة العمـل
واترك من ارتاد كنز المال في نفق يفضي به لردى بغير محتمل
وابحـــث بلا ملل عن كنز معرفة وكن أخا أدب تجـل في الملـل

علم الجـدول وسر الحروف

ولا توافق ذوي الأوفاق في غرض واربأ بنفسك عنهم خشية الخبـل
ما خاض في ذلك الفن امرؤ ونجـا مما يلاقي من الأوهام في ملـــل
وإنهم يعبدون الله فيه علـــــــــى حرف أقاموا به على شفا الخلـل[2]

[1] علم الكيمياء: قال عنه في كتاب كشف الظنون: هو علم يعرف به طرق سلب الخواص من الجواهر المعدنية و جلب خاصية جديدة إليها. إهـ. و يسمى أيضا بعلم جابر، أحد تلامذة الإمام جعفر الصادق، وقد كتب عنه بعض المذمين لهذا العلم فقال:

هذا الذي بمقالـه غر الأوائل و الأواخر
ما أنت إلا كاسر كذب الذي سماك جابر

و مما جاء في هذا العلم أيضا قول الشاعر حسن بن علي بن جابر الهبل اليمني:

صرفت عن الكيميا همتي و صرفتها في اكتساب الأدب
فما قلت للبدر أنت اللجين و لا قلت للشمس أنت الذهب

[2] إشارة لقوله تعالى: ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به، و إن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا و الآخرة ذلك هو الخسران المبين، سورة الحج الآية 11.

علـم السـحر[1]

أعرض عن السحر لا تمل لفاعله فإن فيهم أذى ياتيك عن عجل
فالسحر صـولته اسـتولت بداهية الأوهـــام تقضي على الأفـهام بالخـطل

فـن الشعبذة[2]

لا تشغل الفكر عن جد بشعبذة فإنها حيلة تحتال في العمل
بدت خيالاتها بخفة ليــــد وأي فائدة فيها لمشتغـــل

فـن الطلسم[3]

وفي الطلاسم إيهام بمنفعة لطالبيها وما فيها سوى الوحل
لا تبذل الـنفس منك في اطـلاعك عـــن سر لــها فهو شر كامن وجـلي

فـن أحكام النـجوم[4]

لا تلتفت للذي تقضي الكواكب من حكم لدى ثابت منها ومرتحل
فمن تطلب أحكام النجوم فقـــد رام ارتقاء السما بسلم الطفل

---

[1] علم السحر: قال عنه صاحب كتاب كنز الجواهر: هو علم يستفاد منه حصول ملكة نفسانية يقتدر بها على أفعال غريبة بأسباب خفية، و منفعته أن يعلم ليحذر لا ليعمل به، و لا نزاع في تحريم عمله، أما مجرد علمه فظاهر الإباحة، بل قد ذهب بعض النظار إلى أنه فرض كفاية لوجود ظهور ساحر يدعي النبوة فيكون في الأمة من يكشفه و يقطعه. إلخ..

[2] من أنواع السحر

[3] علم الطلسم: قال عنه صاحب كتاب كشف الظنون: الطلسم عبارة عن علم بأحوال تمزيج القوى الفعالة السماوية بالقوى المنفعلة الأرضية، لأجل التمكن من إظهار ما يخالف العادة أو المنع مما يوافقها.

[4] علم أحكام النجوم: و يسمى أيضا بعلم التنجيم، و هو من العلوم القديمة التي كانت تتعاطها الأمم السالفة، و قد أجاد بعض الشعراء حيث قال فيه:

خبرا عني المنجم أنـــي كافر بالذي اقتضته الكواكب
عالم أن ما يكون و ما كا ن قضاء من المهيمن لازب

و منها أيضا قول شاعر آخر:

أحساب النجوم أحلتمونـــا على علم أدق من الهبـــاء
علوم الأرض لم تصلوا إليها فكيف بكم إلى علم السماء

فـن التوقيـت[1]

إن السما فيها غدت قرينته   للإهتداء بها في غالب السبل

الطـبيـعة[2]

ولا تمل للطبيعي في اعتقاد هـوى   وكل ما قاله فللإله كـــــــل
وخض بعيشك في سر الطبيعة كي   تبدي من الكهربا عجائب العمل

عـلم الرمـل[3]

من البطالة علم الرمل تطلبـه   وتضرب التخت في بحث عن الأجل
تقول راية أفراح لذا طلعـت   وذا له طلع الإنكيس في زحـــــل
وتتبع الشكل بالتوليد مجتهدا   لدرك غيب وحكم الغيب لم ينـــل

عـلم الـزرايج[4]

أما الزراييج لا تسلك طرائقهـا   فإنها للفال في الحمـــــــل
ما تحتها طائل يبدو لطالعـــه   لأنها نسجت بمنسج الحيـــل
على الخبير سقطت في تالف ما   أبقيت من أحرف بالأخذ والبدل

فـن الكتف وكـف اليد[1]

[1] فن التوقيت: قال عنه صاحب كتاب أبجد العلوم: هو علم مواقيت الصلوات الخمس، أو ميقات الناس على اختلاف مساكنهم و بلدانهم عند إرادة الحج و العمرة، إلى أن قال: و الغرض منه و المنفعة و الغاية ظاهرة لمن يعرف دين الإسلام.

[2] علم الطبيعة: مما وقفت عليه حول هذا العلم قول العلامة محمد بن أحمد بن جبير الأندلسي صاحب الرحلة:

ضلت بأفعالها الشنيعـــة   طائفة على هدى الشريعـــةْ
ليست ترى فاعلا حكيما   يفعل شيئا سوى الطبيعـةْ

[3] علم الرمل: قال عنه صاحب كتاب كشف الظنون: هو علم يعرف به الإستدلال على أحوال المسئلة حين السؤال بأشكال الرمل، و هي اثني عشر شكلا على عدد البروج، و أكثر مسائل هذا الفن أمور تخمينية مبنية على التجارب. إلخ...

[4] علم الزيجات و التقاويم: قال عنه صاحب كتاب أبجد العلوم: علم يتعرف منه مقادير حركات الكواكب، سيما السبعة السيارة و تقويم حركاتها و إخراج الطوالع و غير ذلك، إلى أن قال: و منفعته معرفة الإتصالات من الكواكب، من المقارنة و المقابلة، و التربيع و التثليث، و التسديس و الخسوف و الكسوف، و ما يجري في هذا المجرى.

وكف نفسك عن كف وعن كتف فمن تعاطاهما يعدّ من همــل
تراه مسخرة لدى مجالســــــه وبالطعام لدى وقت الطعام بلـي

فـن الاختـلاج[2]

لا تكثرن باختلاج الطرف منك ولا بما اقتضاه لدى تحرك العضــــــــل
فالاعتداد بذاك منك وسوســــــة وإن قضى الطب فيها البعض من علل

علـم الطـب

وخذ من الطب ما يشفيك من مرض فالله قد أنزل الدواء للعلــــــل
وشاورن الطبيب عند نازلـــــــة قبل استحالتها لمعضل جلــــل
ولا تخالفه فيما قد أشار بــــــــه ولا تعاطي الذي أعطاك بالكسل
احذر تطبيب جهال فكم سفكـــــوا دماء قوم وقالوا مات في أجــل

فن الصيدلة[3]

لا تحسب الطب أنواعا منوعـة من العقاقير من سهلي ومن جبلي
ولا يغرك من قد صار يمدحها بلا اعتماد على الطبيب في عمـل
وكم تصدى لبيعها الجهول بها إذا رأى البذل لم يبال بالبـــــدل

فن الفراسة[1]

[1] علم الاكتاف: قال عنه صاحب كتاب كشف الظنون: هو علم باحث عن الخطوط و الأشكال التي في أكتاف الضأن و المعز إذا قوبلت بشعاع الشمس من حيث دلالتها على أحوال العالم الأكبر من الحروب والخصب و الجدب، و قلما يستدل بها على الأحوال الجزعية لإنسان معين. إلخ...

[2] علم الإختلاج: قال عنه صاحب كتاب كشف الظنون: قال أبو الخير: هو علم باحث عن كيفية دلالة اختلاج أعضاء الإنسان من الرأس إلى القدم على الأحوال التي ستقع عليه، إلى أن قال: و الغرض منه ظاهر، لكنه علم لا يعتمد عليه لضعف دلالته و غموض استدلاله.

[3] علم الصيدلة: قال عنه صاحب كتاب كشف الظنون: من فروع الطب، و هو علم يبحث فيه عن تمييز المتشابهات بين أشكال النباتات من حيث أنها صينية أو هندية أو رومية، و عن معرفة زمانها صيفية أو خريفية، و عن تمييز جيدها عن الردي، و عن معرفة خواصها و الغرض و الفائدة منه ظاهر. إلخ..

وبالفراسة كن مستبصرا حذرا   مما يشين وخذ بالحزم لا الفشل
إن الفراسة لا تكاد تخطئ بـل   تكاد تفصح عن حال بلا خلــل
ولا تسارع إلى شر لتفعلـــــه   فكم يد رميت في الشر بالشلــل

زجر الطير والطيرة[2]

نهاك شرعك عن أخذ بطيـــــرة[3]   فكيف ترضى نهاك الزجر بالزجل
والاستخارة أولى في أمورك من   خزعبلات بها اشتغال مشتغــــــل

فن التصريف واللغة

وأسس النحو بالتصريف في لغـة   على قواعدها من غير محتمل
واختر من اللفظ ما يحلو لسامعه   فغير مستحسن وحشي كمبتذل

فن المعاني والبديع

لمقتضى الحال كن مراعيا وأبن   ما بالضمير استكنّ منك في جمل
فإن سحر البيان في النفوس لــه   جلالة وبه يصول من يصـــــــل
يبدي بديع معان في تزخرفهـــا   نظما ونثرا ولا يمليه في ملــــــل

الإنشاء[1]

[1] علم الفراسة: قال عنه صاحب كتاب مفتاح السعادة: هو علم يعرف منه أخلاق الناس من أحوالهم الظاهرة من الألوان و الأشكال و الأعضاء، و بالجملة الإستدلال بالخلق الظاهر على الخلق الباطن، وموضوعه و منفعته ظاهران. إلخ..

[2] علم الطيرة: قال عنه صاحب كتاب أبجد العلوم: هذا ضد الفال، إذ الفال سبب للإقدام، و هذا سبب للإحجام، و هو تشاؤم بشيء يرد على المناظر و المسامع مما تنفر منه النفس، و أما ما ينفر منه الطبع كصرير الحديد و صوت الحمار فليس من ذلك، و الطيرة مأخوذة من الطير، و هو الأصل في هذا الباب، و ألحق به ما عداه.

[3] إشارة للحديث الذي رواه البخاري عن أبي هريرة أنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول: لا طيرة، و خيرها الفأل، قالوا: و ما الفأل؟ قال: الكلمة الصالحة يسمعها أحدكم. إهـ.. صحيح البخاري (كتاب الطب) باب الطيرة رقم 5622.

واختر من السجع في الإنشاء منسجما | ولا تكن تتكلف فيه إن تقل
واحفظ تقل ما تشاء بالدليل ولا | تكن ذليلا إذا ما النص منك جلي

علم التوحيد

كن بالبراهين في التوحيد مجتهدا | واسلك به في ثبات أوضح السبل
فرب صاحب تقليد تزلزل من | أدنى الشكوك بها ينحد في زلل

علم الأصول

فارع الأصول وفرعها تجل وهل | تحل أبوبها إن كنت ذا كسل
لا تدعي لو بلغت ما بلغت من العلوم منك اجتهادا في خفي وجلي
فإن باب اجتهاد الشخص لو فتحت | لكاد يدخل منها كل منتحل
ورب شخص يرى من نفسه بطرا | أهله لاجتهاد وهو في خلل

علم الحديث

ونور الصدر بالحديث محتفظا | رواية ودراية بلا ملل
وغص مع العلم لاستخراج أنفسه | من بحره فهو بالدر الثمين ملي

علم التفسير

وخض لتفسير آية بآلته | وحد عن الرأي واسلك واضح السبل
فصاحب الرأي قد يفضي به لردى | فأحذر وقوعك في مواقع الزلل

علم القراءات

خذ القراءات لا تترك روايتها | بنهج الأفراد والتركيب في جمل
واستفرغ الذهن في تمحيص زبدتها | واستغرق الوقت في علم وفي عمل

---

[1] علم الإنشاء: قال عنه صاحب كتاب أبجد العلوم: أي إنشاء النثر، و هو علم يبحث فيه عن المنثور من حيث أنه بليغ و فصيح، و مشتمل على الآداب المعتبرة عندهم في العبارات المستحسنة و اللائقة بالمقام، إلى أن قال: و موضوعه و غرضه و غايته ظاهرة مما ذكر، و مباديه مأخوذة من تتبع الخطب والرسائل، بل له استمداد من جميع العلوم، سيما الحكمة العملية، و العلوم الشرعية، و سير الكمل، و حكايات الأمم، و وصايا الحكماء و العقلاء.

فن التجويد[1]

وإن تلوت فرتب ما ترتلـــــــه وجوّد النطق كي تفوز بالنحـــــل
فأخذك الذكر بالتجويد مفترض[2] فاحفظ وحافظ على التكرار وامتثل

فن الرسم[3]

وحسن الخط ما استطعت واعن به فقد يرى الحق بالتخطيط غير جلي
ورب خط يحط قدر صاحبـــــــه وقد يلاحظ شزرا فيه بالمقـــــــل

علم التاريخ[4]

ولتعتبر عبرة التاريخ موعظة فقد كفي من بغى ما حل بالأول
فاعرف ذوي العصر والماضين مطلعـــــا على معارفهم في سائر الدول

علم السير[5]

---

[1] علم التجويد: قال عنه في كتاب أبجد العلوم: هو علم باحث عن تحسين تلاوة القرءان العظيم من جهة مخارج الحروف و صفاتها، و ترتيل النظم المبين بإعطاء حقها من الوصل و الوقف و المد و القصر والروم و الإدغام و الإظهار و الإخفاء و الإمالة و التحقيق و التفخيم و التشديد و التخفيف و القلب والتسهيل إلى غير ذلك.

[2] إشارة لقوله صلى الله عليه و سلم: ليس منا من لم يتغن بالقرآن. إهـ.. رواه البخاري (باب قوله تعالى وأسروا قولكم أو اجهروا به) رقم 7361.

[3] علم الخط: هو علم يعرف به أحوال الحروف في وضعها و كيفية تركيبها رسما، جاء في العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي قال في باب (أول ما يجب على الكاتب أن يأخذ به نفسه) قال إبراهيم الشيباني: أول ذلك حسن الحظ الذي هو لسان اليد، و بهجة الضمير، و سفير العقل، و وحي الفكرة، و سلاح المعرفة، و أنس الإخوان عند الفرقة، و محادثتهم على بعد المسافة، و مستودع السر، و ديوان الأمور. إلخ.. و قد جمع بعض الشعراء الأسباب التي تساعد على جمالية الخط و حسنه فقال:

ربع الكتابة في اسوداد مدادها و الربع حسن صناعة الكتـاب
و الربع من قلم تساوى بريـه و على الكواغد رابع الأسباب

و ما أحسن قول بعضهم: الخط الجميل يزيد الحق وضوحا. إهـ... و أيضا قول الشاعر:

الخط يبقى زمانا بعد صاحبه و كاتب الخط تحت الأرض مدفون

[4] علم التاريخ: قال عنه في كتاب أبجد العلوم: هو معرفة أحوال الطوائف و بلدانهم و رسومهم و عاداتهم، و صنائع أشخاصهم و أنسابهم و وفياتهم، إلى غير ذلك، و موضوعه أحوال الأشخاص الماضية من الأنبياء و الأولياء و العلماء، و الحكماء و الملوك و الشعراء و غيرهم.

[5] علم السير: قال عنه في كتاب مدينة العلوم: علم سير الصحابة و التابعين من فروع المحاضرات. إهـ.. و قال صاحب كتاب كشف الظنون: أول من صنف فيه الإمام المعروف بمحمد بن إسحاق رئيس أهل المغازي المتوفي سنة 151هـ، ثم جمعه و دونه (يعني الكتاب المذكور) أبو محمد عبد الملك بن هشام الحميري المتوفى سنة 218 هـ فأحسن و أجاد.

وكن بسيرة خير الخلق معتنيا واعرف شمائله في الصحب والرسـل
فإن سيرته و سيرة الخلفـــــا بهـــــا يكون ثبـــات الرجل للرجل

علم التصوف[1]

كن ابن وقتك والبس في التصوف من نسج الفضائل ما يزين من حلـل
وجرد النفس من دعوى تصرفهـــــا ولا تكن في الهدى تختال بالحيل

علم الفقه[2]

وخذ من الفقه أحكاما محــررة وعن محجته في الحق لا تمـــل
فالفقه أثر وعلم أنت طالبـــــه لأنه هو نور الحق في السبـــــل
فإن تنل قبل الاستحقاق مرتبة فلا تثق بارتقائها وإن تطـــــــل
وما أظنك ترضى أن ترد إلـى مولاك علما إذا ضللت عن سبل

علم الفرائض[3]

أما الفرائض فهي كالفرائد بـل أعلى وهل مثل نصف العلم من مثل
وإن يكن قول لا أدري لعالمها تواضعا نال أجر العلم والعمـــــــل

علم الحساب[4]

وحاسب النفس عن أنفاسهـــــا وإذا عاتبتها فَلْيَكُ العتاب بالمهـــــــــــل
واجمع على الله قلبا منك معتمــــدا عليه واضرب عن الأغراض في عمل
من صحح الظن في مولاه في طلب يجبر له الكسر بالتعجيل بالأمـــــــل

---

[1] علم التصوف: قال عنه في كتاب أبجد العلوم: هو علم يعرف به كيفية ترقي أهل الكمال من النوع الإنساني في مدارج سعادتهم، و الأمور العارضة لهم في درجاتهم بقدر الطاقة البشرية، و أما التعبير عن هذه الدرجات و المقامات كما هو حقه فغير ممكن، لأن العبارات إنما وضعت للمعاني التي وصل إليها فهم أهل اللغات. إلخ...

و من هذا القبيل قول بعضهم:

علم التصوف علم ليس يعرفه إلا أخو فطنة بالحق معــــــروف
و ليس يعرفه من ليس يشهده و كيف يشهد ضوء الشمس مكفوف

[2] علم الفقه: قال عنه في كتاب مفتاح السعادة: هو علم باحث عن الأحكام الشرعية الفرعية العملية من حيث استنباطها من الأدلة التفصيلية.

[3] علم الفرائض: قال عنه صاحب كتاب كشف الظنون: هو علم بقواعد و جزئيات تعرف بها كيفية صرف التركة إلى الوارث بعد معرفته، و موضوعها التركة و الوارث.

[4] علم الحساب: قال عنه صاحب كتاب أبجد العلوم: هو علم بقواعد تعرف بها طرق استخراج المجهولات العددية من المعلومات العددية المخصوصة من الجمع و التفريق و التصنيف و التضعيف و الضرب والقسمة، و المراد بالإستخراج معرفة كمياتها، و موضوعه العدد، إذ يبحث فيه عن عوارضه الذاتية.

علم القافة[1]

قد يعرف الشخص قافيه بمنظره ويستدل على الأصول بالعمل
وبالقرين القرين يقتدي و بــــــه مقارن فاجتنب مخالط السفـل

علم التعبير[2]

لا تطلعن أحدا على هواك ولا تقصص على حاسد رؤياك في وجل
ولا تعبر بلا علم غوامضهـــا ولا تخف ما تراه من خفي وجلـــي

علم الوضع[3]

وإن موضع علم الوضع مرتفـع فاعرف به موقع الأفراد والجمل
ووضعك الشيء في محله حسن وكم وضيع أضاع شكر ذي نحل

علم المنطق والكلام[4]

ولترق سلم علم منطق لعـلا من دونها رتب علت على زحــــل
وزن بميزانه الكلام فهو به عند الخطـــا الخطأ مع الصواب جلي

---

[1] علم القافة: هو فن يستعان به في الاستدلال بالشبه على النسب إذا تعذر الإستدلال بالقرائن.

[2] علم تعبير الرؤيا: قال عنه في كتاب أبجد العلوم: هو علم يتعرف منه المناسبة بين التخيلات النفسانية والأمور الغيبية، لينتقل من الأولى إلى الثانية، و ليستدل بذلك على الأحوال النفسانية في الخارج، أو على الأحوال الخارجية في الآفاق، و منفعته البشرى أو الإنذار بما يرومه.

[3] علم الوضع: قال عنه صاحب كتاب مدينة العلوم: هو علم باحث عن تفسير الوضع و تقسيمه إلى الشخصي و النوعي و العام و الخاص، و بيان حال وضع الذوات ووضع الهيئات، إلى غير ذلك.

[4] علم المنطق: قال عنه صاحب كتاب أبجد العلوم: سمي بالمنطق لأن النطق يطلق على اللفظ، و على إدراك الكليات، و على النفس الناطقة، إلى أن قال: و كان أبو علي يسميه خادم العلوم، إذ ليس مقصودا بنفسه، بل هو وسيلة إلى العلوم فهو كنادم لها، إلى أن قال: و يسمى أيضا بعلم الميزان إذ به توزن الحجج و البراهين.

علم التشريح[1]

وانظر لما اشتمل عليه ذاتك من عجائب الخلق تلف السر فيك جلي
وتستدل على كمال قدرة مـــن بحكمة قدر الأشياء فـــــي الأزل

الفلسفة[2]

دع عنك فلسفة تفضي إلى سفـــه في الدين والرأي من علوي ومن سفل
فحبل دينك لا تفسخه منك يد الأو هام خشية أن تصاب بالشلـــــــــل

الهيئة والهندسة

وكن أخا هيئة جميلة فتـــــرى ملحوظ قدر ولو شهرت بالبخل
فهيئة الشخص عند الجاهلين به بها يقدم عن سواه في الحفــــل
ورب هندزة[3] يجل لابسهـــــا بحسن هندسة فيه بلا خلـــــل
والفضل للشخص لا للثوب عند ذوي الـــــفضل الحقيقـي بين سـائر الـملل

علم الإشتقاق

وفي مناسبة اشتقاق لفظك لا تحد عن القصد في معناه إن تقل

[1] علم التشريح: قال عنه صاحب كشف الظنون: هو علم باحث عن كيفية أجزاء البدن و ترتيبها من العروق و الأعصاب و الغضاريف و العظام و اللحم و غير ذلك من أحوال كل عضو.

[2] علم الفلسفة: من العلوم التي احتلت مكانة لدى العلماء العرب، لاسيما في القرون الوسطى من التاريخ الهجري و كان لها بطبيعة الحال مؤيدون و منتقدون، و ممن ذمها العلامة محمد بن أحمد بن جبير الأندلسي الرحلة حيث قال:

يا وحشة الإسلام من فرقة شاغلة أنفسها بالسفــــــه
قد نبذت دين الهدى خلفها و ادعت الحكمة و الفلسفه

و قال أيضا:

قد ظهرت في عصرنا فرقة ظهورها شؤم على العصر
لا تقتدي في الدين إلا بمـــا سنَّ ابن سينا و أبو نصـــر

أما مؤيدوها فمنهم الشاعر أبو الفتح البستي حيث يقول:

تق الله و اطلب هدى دينه و بعدها فاطلب الفلسفه
و دع عنك قوما يعيبونـها ففلسفة المرء فك السفه

[3] هندزة: تطلق بالدارجة المغربية على نوعية من اللباس غالبا ما يلبسه المجاذيب.

النيرنيجات[1]

وكم خصائص بل خواص فيك ومـــا عرفت منك الذي يشفيك من علل
دع عنك خاصـية الذات التي سفلت وخذ مـن الـنفس أسرارا بـلا ملل

فن التكسير والبسط[2]

قد كاد لم ينجبر منهم كسيرهـــــــم في البسط والقبض وهو عنه لن ينجل

فن الربط

يريد حلا لربط وهو يعقـــــــده وأمره في انعكاس غير محتمـــــــل

صرف الجامعة

واصرف لجامعة الأموال منك على تحصيلها فتكون بالعلوم ملـــــــي

حكم ونصائح

ولا تعاد وليا واتخذه يـــــــــــــدا[3] عند الموالي له تعدّ خير ولـــــــــي
والزم توسط حال في الأمـــــور[4] ولا تسلك مضايق أمر الجد والهــــزل
وروح النفس إن ألزمتها عمـــــــلا من بعد جدك خوف الكل والكســــل
والحر من لا يخون جاره أبـــــــدا[5] ولا يجور ومن يجر ذي وحــــــل
وعن سماع القبيح صان مسمعـــــه ولم يكن آلة في كف ذي حيــــــل
لا يستفز بأهواء النفوس إلــــــى ما فيه هضم ذوي الحلال في جلــــل
و احذر موارط مزح في مباسطــــة واجعله كالملح أو كالزبد بالعســـل

---

[1] علم النيرنجات: من فروع علم السحر، يدور حول الإستعانة بالخواص الطبيعية.

[2] علم البسط و التكسير: من فروع علم السيميا. قيل عنه: هو علم بوضع الحروف المقطعة، بأن يقطع حروف اسم من أسماء الله و يمزج تلك الحروف مع حروف، و يوضع في سطر، ثم يعمل على طرق يعرفها أهلها، حتى يغير ترتيب الحروف الموجودة في السطر الأول إلى السطر الثاني، ثم و ثم إلى أن ينتظم عين السطر الأول، فيأخذ منه أسماء ملائكة و دعوات يشتغل بها حتى يتم مطلوبه.

[3] إشارة لقوله صلى الله عليه و سلم فيما يرويه عن ربه عز وجل أنه قال: من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب. إلخ.. صحيح البخاري (كتاب الرقاق) باب التواضع رقم 6355.

[4] إشارة لقوله صلى الله عليه و سلم: خير الأمور أوساطها، أنظر مصنف ابن أبي شيبة (كتاب الزهد) حديث أبي قلابة 8: 254 رقم 30973.

[5] إشارة لقوله صلى الله عليه و سلم: من كان يؤمن بالله و اليوم الآخر فلا يؤذ جاره، و من كان يؤمن بالله و اليوم الآخر فليكرم ضيفه، و من كان يؤمن بالله و اليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت، رواه البخاري (كتاب الأدب) باب حق الجوار في قرب الأبواب، رقم 5880.

ولا تمازح ولو بالجد ذا سفـــه ... أحرى بهزل ففيه مرتع السفـــل
وألجم النفس بالصبر الجميل لـــدى ... جليل أمر وكن تعتد للجلـــل
وادفع بأحسن مدفع إذا نزلـــت ... بك الهموم لدى غياهب السبـــل
واحذر صديقك حذر من تجانبـــه ... ودار كلا بهذي الدار بالعـــدل
فالزبد في الشيء قد يفضي لمنقصـة ... تقضي على الشخص بالإخلال والخلل
أعط المراتب حقها تجـــل ولا ... تحل قصر مهانة وعنه حلـــي
وصن محياك مِمَّن لا حياء لـــه ... وطول محياك لا تفخر ولا تصـــل
وادفن وجودك في ظل الخمـــول ولا ... تبغي على أحد وسر على مهـــل
فالخرق يفضي لشر لزّ في هـــرج ... والرفق صاحبه يدوم في جـــذل[1]
واصحب ذوي الخير وادخر محبتهم[2] ... دنيا وأخرى ولا تصحب ذوي الملـــل
ولا تصاحب فتى يرضى لنفسك مـا ... لنفسه لم يكن يرضاه من عمـــل
وخير من تصطفيه صاحبا رجـــل ... ذو همة لم تكن ترعى مع الهمـــل
وإن نفسك أولى من تؤذبـــه ... وتصطفيه خليلا غير ذي خلـــل
والله مولاك أولى من تعاملـــه ... وأن تكون له عبدا على وجـــل
فحسن الظن فيه فهو مانح مـــا[3] ... أمّلته منه في الدارين من أمـــل
ولتتخذ عنده وسيلة لك فـــي ... كل الأماني بصدق سيد الرســـل
أجل من يُرْتَجَى في النائبات وفـــي ... كل المهمات حتى منتهى الأجـــل
صلى عليه الإله ما تكامل فـــي ... كمال عز علاه عند كل علـــي
تعمّ آلا وأصحابا ومن بهـــم ... قد اقتدى واهتدى في واضح السبـــل

---

[1] إشارة لقوله صلى الله عليه و سلم لمولاتنا عائشة رضي الله عنها: يا عائشة إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف و ما لا يعطي على ما سواه. إهـ.. صحيح مسلم (كتاب البر والصلة و الآداب) باب فضل الرفق رقم 6553.

[2] إشارة لقوله صلى الله عليه و سلم: مثل الجليس الصالح و الجليس السوء كحامل المسك و نافخ الكير، فحامل المسك إما أن يحذيك، و إما أن تبتاع منه، و إما أن تجد منه ريحا طيبة، و نافخ الكير إما أن يحرق ثيابك، و إما أن تجد ريحا خبيثة. إهـ.. صحيح مسلم (كتاب البر و الصلة و الآداب) باب استحباب مجالسة الصالحين رقم 6644.

[3] إشارة لقوله صلى الله عليه و سلم فيما يرويه عن ربه عز وجل أنه قال: أنا عند ظن عبدي بي و أنا معه إذا دعاني. إهـ.. صحيح مسلم (كتاب الذكر و الدعاء و التوبة) باب فضل الذكر و الدعاء رقم 6780.

رفU الكمو!
في ٩ رN نU2 العمو!
المسامرة GGع f العلو!

للعلامة سيدي أحمد سكيرج رضي ا عنه

تحقيق ذ محمد الراضي كنون
الإدريسي الحسني

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

رفع الغموم
في شرح نفع العموم
بالمسامرة ببعض العلوم[1]

أحمد الله الذي علم الإنسان ما يلم يعلم. وفضل العالم على الجاهل وإن لم يعمل بمقتضى ما تعلم. واشكره سبحانه على ما إليه ألهم. وما به تفضل وأنعم. والصلاة والسلام على سيد العالمين. رسول الله رب العالمين. وعلى آله وأصحابه أجمعين.

أما بعد: فإن العلم نور. تنشرح به الصدور، وهو وإن تنوعت أنواعه، واختلفت موضوعاتها وأوضاعه، فكل فن محمود أومذموم شرعا فهو شريف في حدّ نفسه، مؤيد لمن يعرفه في قربه وبعده بين أبناء جنسه، ولا يستوي العالم والجاهل بأي فن كان، في كل مكان، بل العالم أرفع مكانا، وأسطع برهانا، وأعزّ سلطانا. فالعلم عند المحق عظيم، وصاحبه مستحق به على غيره التقدم من حديث وقديم، وتعلم الأشياء خير من جهلها، ولو كانت حراما، لأنه متصف بالفضل في حد نفسه، وتظهر فضيلته في العالم وإن لم يعمل به، كما أن للعمل به فضلا، وقد يذم العمل بمقتضى بعض العلوم شرعا، ولا يذم العلم من هذه الحيثية إلا في حق بعض سيئ الفهوم قطعا. فالعلم حائز للفضيلة الأولى بعلمه، والعامل بمقتضاه حائز لفضيلة ثانية، والجاهل به لا نصيب له من الفضيلتين، وقد يكون خطؤه بالعمل. أعظم خطرا من ترك العالم للعمل فيما أمل، حتى قيل:

ذاك الذي بغير علم يعبد   لا يصلح العمل لكن يفسد

أيها السادة: إنه قد اختلج في صدري أن أطرق باب هذا الموضوع في هذه المسامرة تحريكا للهمم للإقبال بقريحة وقادة على تحصيل العلوم، والتنافس في إحياء ما كاد أن يندثر من الفنون بين الخصوص فضلا عن العموم، وقد ضمنت مسامرتي هذه ما يزيد على الخمسين فنا، على أسلوب غريب في قصيدة لامية، و إني وإن ساعدني الحظ بالوقوف في هذا الموقف، لأشنف الأسماع بما أصنف، وأقرط الأذان بما أصف للمنصف، فلست بمتبجح ولا مفتخر عليكم في هذا المقام، بما أمليه من منثور ومنظوم الكلام، ولكني أرى الفضل لكم في حضوركم، بانشراح صدوركم، راجيا أن ينبغ منكم خطباء جلة، تفخر بهم هذه الملة.

---

[1] هو شرح غير تام لمنظومة نفع العموم بالمسامرة ببعض العلوم (للمؤلف نفسه) بلغ فيه إلى البيت التاسع عشر الذي هو قوله:

و قدر كل امرئ ما كان يحسنه   فاختر من الحرف العالي تعد علي

ثم انشغل عنها بتآليفه الأخرى، و لو أتم هذا الشرح لكان نفيسا في بابه، اعتبارا لقيمة المؤلف و ما له من قدرات علمية و أدبية واسعة.

فأنتم في عصر التقدم، فنوروا الأفهام بحسن التعليم والتعلم، ولا يقعد بكم التكاسل بالأخذ في العلم بالتساهل، ولا أحتاج إلى استدلال لكم على فضل أي علم من العلوم، لأن كل فرد له شعور يعلم. ولا يجهل أن العلم صفة حميدة، والعلم على أي حالة كان رتبته رفيعة مجيدة. قلنا على أي حالة، لأن الجاهل وإن بلغ ما بلغ في نفسه، ولو تصدر بين أبناء جنسه، فإن العالم أرفع منه قدرا في الحقيقة، لكمال شعوره في سلوك كل طريقة.

وما ترقت دولة من الدول إلا بالعلم على اختلاف أنواعه[1]، والجهل مرتعه وخيم في اتّباعه وأتباعه[2]، فهو إن كان دنيويا تحسن به الأحوال، وتنمو به الأموال، وتتم به الآمال، وإن أخرويا هدى للنهج القويم، ورقى صاحبه للمقام الجسيم، مع الحصول على الفضل العظيم، وإن كان بين بين طابت به أنفاس حامليه، وفاقت مرتبتهم على مرتبة جاهليه. فالعلماء عند كل دولة وأمة يستحقون التقدم على الجهال، وإن قعد بهم الدهر في بعض الأحيان، لعوارض أحوال، ولعمري إنه يحتاج لهم في الدنيا وفي الأخرى. أما في الدنيا فللاستنارة بنورهم في غياهب المعاملات، وتحسين الصنائع وغير ذلك من معرفة أمور الديانات، وتهذيب الأخلاق في الحركات والسكنات. وأما في الآخرة فإنهم يرشدون الناس لما يكمل به تنعمهم في روضات النعيم ونحو ذلك.

---

[1] مما أحفظه في هذا النطاق قول الشاعر معروف الرصافي:

بالعلم تنتظم البلاد فإنـــــه لرقي كل مدينة مرقـــــــاة

و قول الشاعر نفسه أيضا:

إذا ما الجهل خيم في بلاد رأيت أسودها مسخت قرودا

[2] من أحسن ما قيل في الجهل قول بعض الشعراء:

و في الجهل قبل الموت موت لأهله و أجسامهم قبل القبور قبـور

و إن امرأ لم يحيي بالعلم ميــــــت و ليس له حتى النشور نشور

و قول شاعر آخر:

لا يبلغ الأعداء من جاهــــــــــل ما يبلغ الجاهل من نفســــــه

و قول شاعر آخر:

إذا لمت أهل الجهل ضيعت منطقي بإلقائه في سمع من ليس يفهم

وقد فاز والله من اهتدى بهم، والمحروم من ضيع عالم وقته بترك الاسترشاد به، وكفى بالعالم فضلا أنه يكون على بصيرة مما ناوله أو حاوله، وعلى يقين تام بما ناله أو نابه في كل مداخلة أو معاملة، وإن لم يجد عونا على دفع شر أو جلب خير، فهو على كل حال بالعلم أفضل من الغير، سواء عمل بالعلم أو لم يعمل[1].

وقد فتح جل من تكلم في فضل العلم والعلماء من قديم وحديث أبوابا يعسر سدها، ويكاد أن تعدّ مباحة لدخول من يريد إطلاق اللسان في جانب العالم الغير العامل بما قالوه وتقوّلوه، من أن جميع ما ورد في فضل العلم والعلماء إنما هو في حق العاملين بمقتضاه، فلا يليق بعالم ناصح أن يحط من قدر العلم وحامليه بمثل ذلك بين العوام، ولا يحل لجاهل إطلاق لسانه في علماء وقته، وإن لم يعملوا بما هنالك مثل خيرة الأعلام.

---

[1] يستدل على هذا بعدة آيات بينات منها قوله تعالى: قل هل يستوي الذين يعلمون و الذين لا يعلمون (سورة الزمر الآية 9) و قوله تعالى: إنما يخشى الله من عباده العلماء (سورة فاطر الآية 28) و قوله تعالى: يرفع الله الذين آمنوا منكم و الذين أوتوا العلم درجات (سورة المجادلة الآية 11) و قوله تعالى: و ما يعقلها إلا العالمون (سورة العنكبوت الآية 43) و من الحديث قوله صلى الله عليه و سلم: فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم. ثم تلا هذه الآية: إنما يخشى الله من عباده العلماء، إن الله و ملائكته و أهل سماواته وأرضيه و النون في البحر يصلون على الذين يعلمون الناس الخير. إهـ.. أنظر سنن الدارمي (كتاب النبي صلى الله عليه و سلم) باب من قال العلم الخشية و تقوى الله 1: 88 رقم 293. سنن الترمذي (كتاب العلم) باب ما جاء في فضل الفقه رقم 2755.
و مما ينسب للإمام علي كرم الله وجهه في هذا الصدد قوله:

ما الفخر إلا لأهل العلم إنهـــم ... على الهدى لمن استهدى أدلاء
و قدر كل امرئ ما كان يحسنه ... و الجاهلون لأهل العلم أعـداء
ففز بعلم تعش حيا به أبـــــدا ... الناس موتى و أهل العلم أحياء

وقد فات من لاحظ حق العلم من حيثية ما اقتضاه من العمل إعطاء منصف العلم حقه للمتصف به، وإن لم يعمل به، ولو مع الكسل، فوجد الجهال بذلك مجالا لإطلاق الألسنة في عالم زاحمهم في أمور دنياهم، ونظر جلهم إلى ذوي العلم من المعاصرين لهم شزرا، وقالوا بسوء الظن: لم يبق إلا علماء الدنيا، وذهب علماء الأخرى، اعتمادا على ما يسمعونه من أن العلم لا فضل لحامليه إلا مع العمل، وهو حجة على غير العاملين، فحملهم هذا ومثله على مفاسد وخيمة الموقع، أدت إلى سقوط حرمة العلماء بذلك من عيون العامة ومن شاكلهم، وسقط بذلك منصب العلم باتهام حامليه بكونهم غير عاملين، وما علموا أن من جملة العمل بالعلم صرف نفيس الأنفاس في طلبه، وكونه محفوظا بوجودهم. فالعالم وإن لم يعمل به، فقد يأخذ عنه من يعمل به، فيكون منتفعا به[1]، لا عدمنا حملة العلم. وقد يعد مثل ذلك عائقا كبيرا عن تعاطيه، لكونه إنما ينتفع به في هذا الزعم من عمل به، و العمل به غير متحقق، فيعرض عنه المحرومون، وذلك مقصود الشيطان ليراهم هو وقبيله في ظلام الجهل يعمهون، وذلك هو الضلال المبين. فاتضح لكم بهذا كون العلم على كل حال أفضل من الجهل، ولو بلا عمل به، ولذلك قلت مخاطبا لمن ألقى سمعه، والله يعلم أنني ما قصدت إلا نفعه:

خذ العلوم وإن كسلت عن عمل — فالعلم من أكمل الأوصاف في الرجل
لا يستوي عالم وجاهل أبـــدا — ولو بلا عمل أحرى مع العمـــــل
فالعلم لابدّ يدعو حامليه إلـــى — ما فيه خير لهم من غير محتمـــل
والجهل يردي أخاه في مراتعه — وإن يكن نال ما ذو العلم لم ينـــل
ولا تكن عالة على سواك بـــه — وإن على الله كنت خير متكـــل
فالناس لا يقدرون قدر مفتقـــر — لهم ولو كان منهم في علوم علـــي
ولا تدنسه بالأطماع في رتــب — وارفل باطمار عز النفس في حلـــل
ولا تكن بمزاح القول مسخـرة — ولا يجرك الانقباض للملـــــــل

---

[1] وردت في هذا الصدد أحاديث كثيرة منها قوله صلى الله عليه و سلم: من عَلَّمَ عبدا آية من كتاب الله فهو مولاه لا ينبغي أن يخذله و لا يستأثر عليه. إهـ. مجمع الزوائد للهيثمي (كتاب العلم) باب في معرفة حق العالم 1: 339 رقم 535. و منه أيضا قوله صلى الله عليه و سلم: و قروا من تعلمون منه العلم، ووقروا من تعلمونه العلم. إهـ. جامع الأحاديث و المراسيل (حرف الواو مع القاف) 8: 103 رقم 24693. الفتح الكبير في ضم الزيادة إلى الجامع الصغير (حرف الواو) 3: 302 رقم 13170. و من ذلك أيضا قول الإمام الشافعي رحمه الله: من علمني حرفا صرت له عبدا. إهـ و من أبدع ما جاء في النطاق قول أمير الشعراء أحمد شوقي:

قم للمعلم وَفِّهِ التبجيـــــــــلا — كاد المعلم أن يكون رسولا
أعلمت أشرفَ أو أجلَّ من الذي — يبني و ينشئ أنفسا و عقولا

لا يخفى عنكم أن العمل لا يعتدّ به إلا بعلم، وبالعلم يحصل الحال المزعج للعمل، والتوفيق إليه بيد الله، لذلك والله أعلم وقع التنويه بالعلم على لسان الشارع[1]، ثم حض على العمل به في حق العالم[2]، وليس تهديد تارك العمل به من قبيل أمره بالوقوف مع الجهل، فإن الله لا يعبد إلا بعلم، وإن وقع تخويف العالم بسوء الحالة بترك العمل، حتى تلطف بعض الشعراء وقال:

قالوا فلان عالم فاضـل	فأكرموه مثل ما يقتضـــي
فقلت لما لم يكن عاملا	تعارض المانع والمقتضي

[1] وردت أحاديث كثيرة في باب التنويه بالعلم و ضرورة طلبه، من ذلك قوله صلى الله عليه و سلم من حديث طويل: من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين، رواه البخاري (كتاب العلم) باب من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين رقم 71. و من ذلك أيضا قوله صلى الله عليه و سلم: لا حسد إلا في اثنتين رجل أتاه الله مالا فسلط على هلكته في الحق، و رجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها و يعلمها. رواه البخاري (كتاب العلم) باب الإغتباط في العلم و الحكمة رقم 73. و من ذلك أيضا قوله صلى الله عليه و سلم: طلب العلم فريضة على كل مسلم. إهـ.. مجمع الزوائد، للهيثمي (كتاب العلم) باب في طلب العلم 1: 323 رقم 472، رقم 473، رقم 474، رقم 475. و من ذلك قوله صلى الله عليه و سلم: اطلبوا العلم و لو بالصين، فإن طلب العلم فريضة على كل مسلم. إهـ.. جامع الأحاديث و المراسيل (حرف الهمزة مع الطاء) 1: 463 رقم 3207. و من ذلك قوله صلى الله عليه و سلم: إن العلماء ورثة الأنبياء. إهـ.. ضمن حديث طويل رواه الترمذي و أبو داود و ابن حبان و ابن ماجة.

و من هذا القبيل أيضا قول الشاعر أبي الفتح البُسني:

العلم أنفس شيء أنت ذاخره	من يدرس العلم لا تدرس مفاخره

و في المعنى أيضا يقول الشاعر سابق البربري

العلم يحيي قلوب الميتين كمـــــــا	تحيا البلاد إذا ما مسها المطر
و العلم يجلو العمى عن قلب صاحبه	كما يجلي سواد الظلمة القمـر

و منه أيضا قول الإمام الشافعي رحمه الله:

علمي معي حيثما يممت يتبعنـــــــي	قلبي وعاء له لا بطن صنــــــــــــدوق
إن كنت في البيت كان العلم فيه معي	أو كنت في السوق كان العلم في السوق

[2] جاءت في هذا النطاق أحاديث كثيرة منها قوله صلى الله عليه و سلم: إن أشد الناس عذابا يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه. إهـ.. مسند الشهاب القضاعي 2: 171 رقم 1122. و من ذلك أيضا قوله صلى الله عليه و سلم: لا تزال أمتي بخير ما لم يظهر فيهم حب الدنيا و علماء فساق، و قراء جهال و جبابرة، فإذا ظهرت خشيت أن يعمهم الله بعقاب. إهـ.. جامع الأحاديث و المراسيل (حرف اللام ألف) 8: 220 رقم 25593. كنز العمال، للمتقي الهندي (المجلد الثالث) 1: 458 رقم 6326.

و مما أستحسنه في هذا الموضوع قول بعض الشعراء:

يا أيها الرجل المعلم غيـــــــــــــره	هلا لنفسك كان ذا التعليــم
تصف الدواء لذي السقام و ذي الضنـــى	كيما يصح به و أنت سقيـم
و نراك تصلح بالرشاد عقولنــــــــــا	أبدًا و أنت من الرشاد عديم
فابدأ بنفسك فانهها عن غيهــــــــــا	فإذا انتهت عنه فأنت حكيـم
فهناك يقبل ما تقول و يهتـــــــــــدي	بالقول منك و ينفع التعليـم
لا تنه عن خلق و تأتي مثلــــــــــه	عار عليك إذا فعلت عظيـم

معناه أن علمه يقتضي إكرامه وتعظيمه، وعدم عمله بعلمه مانع من إكرامه وتعظيمه، فتعارض المانع من إكرامه والمقتضي له، والقاعدة الأصولية إذا تعارض المانع والمقتضي قدم المانع على المقتضي. وتلطف القائل أيضا:

لو كنت منتفعا بعلمـــــــــــك مع مواصلة الكبائر
ما ضر شرف السم ذا علم بأن السم صائر

أما الأحاديث الواردة في هذا المعنى، والتأويلات المبنية عليها فكثيرة، ولكن أقول ولا أزال أقول: إن مجرد العلم أفضل من مجرد العمل، وقد قال في الذكر الحكيم: هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون[1] وقال وهو أصدق القائلين: أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها[2]. والذي جعل الله له النور هو العالم. والآخر الجاهل، كما قرره جمهور المفسرين، ولا بن سينا:

إنما النفس كالزجاجة والعلـــــــــــــــــم سراج وحكمة الله زيت
فإذا أشرقت فانك حيّ وإذا أظلمت فإنك ميت[3]

وقال آخر:

أخو العلم حيّ خالد بعد موتـــــــــــــه وأوصاله تحت التراب رميم
وذو الجهل ميت وهو ماش على الثـرى يُظَنّ من الأحياء وهو عديـم[4]

ولا يعدم العالم من نفسه منهضا للعمل والإخلاص فيه، ولو بعد حين، فقد كان مجاهد رضي الله عنه يقول: طلبنا هذا العلم، وما لنا فيه كبير نية، ثم رزق الله بعد فيه النية[5]. وقال الحسن البصري: كنا نطلب العلم للدنيا فجرّنا إلى الآخرة. وقال أيضا: طلب أقوام العلم ما أرادوا به الله وما عنده، فما زال بهم حتى أرادوا به الله وما عنده[6]، وعقدت هذا المعنى في قولي:

يا طالب العلم للدنيا الدنية في حياته وعلى الإخلاص ما قدرا
فدم عليه فإن العلم منهجـــه يفضي إليه ولا تكن به ضجـرا

---

[1] سورة الزمر، الآية 9

[2] سورة الأنعام، الآية 122

[3] من أبيات ثلاثة لابن سينا افتتحها بقوله:

Ĭ ۊرķ! ǅوǅz!ǉ Σ 5ڗ!ƒ ɣRǋ   Ƙǒh Ɉ‡ǅ! Ǒnj5 Ɉ‡!ƒ رR و

[4] البيتان للعلامة الشاعر عبدالله بن محمد المعروف بابن السيد البطليوسي

[5] أنظر سنن الدارمي (كتاب النبي صلى الله عليه و سلم) باب من طلب العلم بغير نية فرده العلم إلى النية 1: 101 رقم 364. سير أعلام النبلاء للذهبي الطبقة السادسة من التابعين ترجمة هشام الدستوائي 5: 88 رقم 1052.

[6] أنظر سنن الدارمي (كتاب النبي صلى الله عليه و سلم) باب من طلب العلم بغير نية فرده العلم إلى النية 1: 102 رقم 365.

وكان سفيان بن عيينة يقول: قرأنا هذا العلم لغير الله، فأبى العلم أن يكون إلا لله[1]، وعقدته في قولي:

طلبت العلم للدنيا   وهذا الفعل للاهي
ويأبـى الله إلا أن   يكون العلـــم لله

وبالضرورة نفع العالم بالعلم أصح من نفع الجاهل بالعمل، ولو ملك ما ملك، ولو زاحم بمجاهدته في الأعمال الصالحة الملك، فإن رتبة العالم أعلى قدرا منه، لذلك لا ينبغي له أن يحط من قدره بتملق أو نحوه، ويستهون ما لديه. والرسول عليه السلام يقول: ليس منا من لم يتعاظم بالعلم. ويحسن في هذا المقام إنشاد ما كان ينشده القاضي الجرجاني لنفسه، وهو يناسب ما قلناه في اللامية:

يقولون لي فيك انقباض وانما   رأوا رجلا عن موقف الذل أحجما

إلى أن قال:

ولم أقض حق العلم إن كان كلمـا   بدا طمع صيرته لي سلمـــــــــا
إذا قيل هذا منهل قلت قـــد أرى   ولكن نفس الحر تحتمل الظمـــأ
ولم أبتذل في خدمة العلم مهجتي   لأخدم من لاقيت لكن لأخدمـــا
أأشقى به غرسا وأجنيه ذلــــــة   إذن فاتباع الجهل قد كان أحزما
ولو أن أهل العلم صانوه صانهم   ولو عظموه في النفوس لعظمــا
ولكن أذلوه فهان ودنســـــــــوا   محياه بالأطماع حتى تجهمـــــا

قال الإمام ابن السبكي في كتابه (معيد النعم) إثر هذه الأبيات: فلقد صدق هذا القائل، لو عظموا العلم لعظمهم. وأنا أقرأ قوله(لعَظَّما) بفتح العين، فإن العلم إذا عظم تعظم، وهو في نفسه عظيم. ولهذا أقول: ولكن أهانوه فهانوا، ولكن الرواية (فهان ولعُظْم) بضم العين، والأحسن ما أشرت إليه. إهـ. والملخص من هذا كله ترك الطمع، وترك الإعتماد على ما للغير:

وإنما رجل الدنيا وواحدها   من لا يعول في الدنيا على رجل[2]

---

[1] ذكره الحافظ الغزالي في مواضع كثيرة من كتابه إحياء علوم الدين.

[2] هو البيت الثامن و الأربعون من القصيدة اللامية للطغرائي، التي يفتتحها بقوله:

ƗŀlƮ Ɨ!ﺭا! ǏŀiĸiŀƮ ŁJع ƖŨخ!ƒ   و ƗǒơƗ!ƒ ƲƱ5!ƒ ǑŀiĸiƒƧ ăþ! ƖŨz!ƒ

فيتخذ لنفسه حرفة تقيه نظر غيره إليه بعين الإهانة، فإن أهل الدنيا يعتقدون في نفوسهم أن من لا حرفة له هو عالة عليهم، ولقد أرشد حكيم الأمة عليه السلام إلى ما فيه الخير للشخص، حتى يحصل له الكمال، ويزول عنه قيد النقص، فقال: إن الله يحب العبد المحترف، ويكره العبد البطال. وترجمت لهذا المعنى فقلت:

الحث على الاحتراف

ولتتخذ لك شغلا فيه منفعة   فالناس ما انتفعوا بغير مشتغل[1]

لأن من لا شغل له تطمح به النفس للسوء والإساءة، ولا نفع فيه أصلا. خصوصا إذا كان وصفه ما أشار له الشاعر العربي في قوله:

إن الشباب والفراغ والجـــــــده   مفسدة للمرء أي مفســـده[2]

ثم قلت:

واجعل لنفسك في أبناء جنسك ما   به تعزّ ودع طرائق الحيل

والذي يعزّ به رفع نفسه عن الطمع، ولا ينصب شبكة الحيل بالهوى المتبع، كما يفعله بعض بني ساسان، حتى قال زعيمهم:

اجعل لنفسك ناموسا تعيش به   إن صنته سنة يصنك أعوامـــا

ثم قلت:

فالله يكره بطالا وإن بطـــــلا   لم يحترف فاحترف وإن بمبتذل

[1] قريب من هذا قول سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أرى الرجل فيعجبني، فإذا قيل لا صناعة له سقط من عيني. إهـ... و منه أيضا قول الخليفة المأمون العباسي: الناس أربع طبقات، بين إمارة و تجارة وزراعة و صناعة، فمن لم يكن منهم كان كلا عليهم.

[2] هو البيت الثلاثون من قصيدة رجزية لأبي العتاهية، قال في مطلعها:

الحمد لله على تقديره   و حسن ما صرف من أموره

فإن الحرفة، وإن كانت مبتذلة خير من البطالة، ولا تضره تلك الحرفة لأنه متشرف بالعلم الذي فيه، كما إذا احترف بها أيضا ذو تقوى، فلا نقص عليه بها يلحقه، وفي ذلك قيل:

وليس على عبد تقي نقيصـــــة   إذا صحح التقوى وإن حاك أو حجم[1]

ثم قلت:

وقدر كل امرئ ما كان يحسنه   فاختر من الحرف العالي تعد علـــي

فاستعمال المرء نفسه في الحرفة العالية يدل على رفعة همته، وتكون بين الناس رتبته بقدر اعتبار حرفته، كما هو مشاهد بين الناس.

[1] البيت للشاعر أبي العتاهية و قبله بيت آخر و نصهما معا:

ألا إنما التقوى هو العز و الكرم   و حبك للدنيا هو الذل و العـــــــدم

و ليس على عبد تقي نقيصــــة   إذا صحح التقوى و إن حاك أو حجم

مورد الوصول لإدراك السول

للعلامة سيدي أحمد سكيرج رضي الله عنه

تحقيق ذ محمد الراضي كنون
الإدريسي الحسني

مورد الوصول لإدراك السول[1]
على حل كمال الصلاه
على رسول الله على روحه السلام

بسم الله أول الأمر و على رسول الله و أهل وده أسلم.
أحمد الواحد الأحد. و هو الله الصمد. له الكمال الأكمل. و العلاء الأطول. لا إله إلا هو الدائم كرمه. و المسدل آلاءه على كل الورى. و محمد رسوله أكمل الرسل الكرام. و أعلى الوسائط للوصول إلى الله. و هو الإمام الأكرم. و سواه ورا.

محمد هو أصل السر و الكرم	محمد هو طود العلم و الحكم
محمد أحمد الورى و أكملــهم	محمد هو أهل الحمد للأمـــم

صلى الله على سره الأطهر و سلم. و على آله و كل موحد سلم لله أمره و له أسلم. أكمل سلام وصلاه. ما دام ملك الله. و على الله كمال ما أحرره و أرسمه لك وأسطره. و هو حل كلم الصلاه[2]. على أكمل أهل الله. لدى الكمل أمرها. و الكامل سرها. و لو أملى العالم الحامل لأسرارها سطورا على عدد الرمل و الحصى. ما أدرك لها مدى و لا حصرها إحصا. و هاك مورد الوصول. لإدراك السول. على حل كمال الصلاه. على رسول الله. أسرد كلمها محلوله. و أسرارها لك موصوله. و أسطر حلها مهمل الكلم. لكل مسلم صدره سلم. و الله أسأل كمال المرام. و السلوك على مسلك الهدى مدى الدوام. إلى إدراك أعلى محل لدى دار السلام.

---

[1]- مورد الوصول لإدراك السول، من مؤلفاته التي كتبها بمدينة فاس قبل عهد الحماية الفرنسية، وقد أقدم على طباعته على الحجر بالمدينة المذكورة عام 1332 هـ_1914م. و كان حينها ناظرا لأحباس فاس الجديد، و هذا المؤلف هو شرح لصلاة جوهرة الكمال في مدح سيد الرجال، اختار المؤلف أن يسلك فيه نهجا غريبا، يتمثل في اعتماده للحروف المهملة فقط، أي الخالية عن النقط، و لعله اقتدى في هذا الإطار بخطبة مولانا علي كرم الله وجهه التي يفتتحها بقوله: الحمدلله الملك المحمود. المالك الودود. مصور كل مولود. إلخ.. و هي الأخرى خالية عن النقط.
و يفيد العلامة سكيرج في بعض وثائقه أنه استنبط هذا العمل من الهيللة الشريفة، لكون حروفها مهملة غير منقوطة، و هو ما دفعه للكتابة على هذا النسق، و مهما يكن من أمر فهو جهد جبار يشكر عليه، كما أنه عمل لا يستطيع القيام به سوى من له الباع الطويل في علوم لغة الضاد.
[2]- إشارة لصلاة جوهرة الكمال في مدح سيد الرجال، التي هي من أذكار الوظيفة لدى السادة التجانيين، تذكر 12 مرة عند ختام الوظيفة المذكورة، و تشترط فيها الطهارة المائية، و نصها:
اللهم صل و سلم على عين الرحمة الربانية. و الياقوتة المتحققة الحائطة بمركز الفهوم و المعاني. و نور الأكوان المتكونة الآدمي صاحب الحق الرباني. البرق الأسطع بمزون الأرباح المالئة لكل متعرض من البحور و الأواني. و نورك اللامع الذي ملأت به كونك الحائط بأمكنة المكاني. اللهم صل و سلم على عين الحق التي تتجلى منها عروش الحقائق. عين المعارف الأقوم. صراطك التام الأسقم. اللهم صل و سلم على طلعة الحق بالحق. الكنز الأعظم. إفاضتك منك إليك. إحاطة النور المطلسم. صلى الله عليه و على آله صلاة تعرفنا بها إياه.

مهمه

أرسم لك أولا أسرارا لها أملاها الرسول على ولده إمام أهل الله[1]. و حامل سر رسول الله. الواصل لأعلى محل. لا وصول لسواه لعلاه لدى الكمل. العالم العامل. الواصل الكامل. موصول الإمداد. لأهل الأوراد. و السالك على أكمل المسالك. و المدرك لأعلى المدارك. محل العلاء و المكارم. أحمد ولد سالم. على روح أصله مع سره أكمل سلام. و على أهل أوراده و أولاده و سائر أهل الإسلام. و أكمل أسرارها لكل امرئ سردها عدد الحاء إلا واحدا. هو حلول الرسول على سره السلام محله مع أهل الإمامه و السر و الكرامه[2]. و لو دام ساردا لها إلى كمال سردها. و كل امرئ داوم على العدد المسطور وصل إلى محل ما وصله. إلا امرؤ عمل. و أدرك الوصول إلى الله. و حوى الوداد الكامل لدى رسول الله. على روحه أكمل الصلاه. و كل امرئ أملاها العدد المرسوم على محل طاهر أول الكرى و داوم العمل رأى رسول الله لا محاله. و كل امرئ سردها عدد الحاء مع عدد الدال[3] على طهاره حصل له ما حصل للمسلم على أهل الله لدى محلهم الواصل لمراده و كمال إمدادهم. والأسرار المرسومه على حد السواء كلها لكل مسلم و مسلمه مهما أعطاها لهما أهل إعطاء أوراده. و أول الصلاه ***(اللَّهُمَّ)*** هو الإسم الأكرم لدى علما الإسلام. و كمل الأعلام. ولكمال سره لحصول المرام. على أكمل حال صار مصدرا لأول كل دعاء. و هو دعوى أهل دار السلام و لراسمه:

أكمل الأسماء هو اللهما	كما دراه علماء الأسما
و سره الله و ما حـــواه	مدده لسـائـــــــل دعاه

و الإسم الأكمل لدى كمل أهل الله. هو إسم علمه الله. و لا مطمع لأحد للحصول على سره إلا أحاد أهل الصلاح. إما امرؤ واصل. أو عالم عامل. أو صالح كامل. والمسلك الموصل لإدراكه هو إلهام الله لأهله على أمر ملك أو رسول أو صالح صدر لإعطائه. و هو سر الأسماء كلها. وأسماء الله لا حصر لها. و إحصاؤها كلها أراه محالا. و الإحصاء الممدوح هو للعدد الوارد. و هو مائة إلا واحد. و الإسم المحمود المسطور هو معها دائر. و هو لدى أحد كمل علماء الأسرار أوله أهم. و أمر الإسم كله أهم. و الله أعلم ***(صَلِّ)*** أمر محمول على الدعاء للرسول المكرم. و المراد دوام الرحمه. و عموم الإكرام له على روحه السلام. و هو

---

[1]- المراد به شيخ الطريقة التجانية أبي العباس سيدي أحمد بن محمد التجاني رضي الله تعالى عنه.

[2]- أنظر بغية المستفيد لشرح منية المريد ص 356. عند قول الناظم:

و من تلا جوهرة الكمـــــال	سبعا يكون سيد الأرسـال
و الخلفاء الراشدين الأربعة	ما دام ذاكرا لها بَعْدُ معه
و ذاك بالأرواح و الــذوات	و ليس للمنكر من نجــاة

ثم قوله بعد ذلك:

و من يكن لازمها سبعا لدى	منامه يرى النبي أحمـدا

[3]- يعني 12 مرة، و في ذلك إشارة لقول الشيخ أبي العباس التجاني رضي الله عنه: من ذكرها (يعني جوهرة الكمال) اثني عشرة مرة و قال: هذه هدية مني إليك يا رسول الله، فكأنما زاره صلى الله عليه وسلم في روضته الشريفة، و زار أولياء الله تعالى و الصالحين جميعا من لدن آدم عليه السلام إلى وقته ذلك. إهـ. أنظر بغية المستفيد لشرح منية المريد ص 379.

دعاء له عم سائر الأمه. والدعاء على كل حال أمر محمود. و أكمله الدعاء للرسول[1]. و هو مورد لكل وارد السر موروود.

للدعا سر دراه الحكمـــــا و هو معلوم لدى كل أحد
لو دعـا الله أمرؤ أعطاه ما رامه مع كل سر و مـدد

و الدعاء للرسول هو أمر مؤكد لكرمه على الله. و إكرامه لسائر الورى لكماله. لم لا و الله ما أكرمه إلا إكراما له. و لولاه ما أسدى لأحد كرمه. و لا عم سائرهم رحمه. ولما سطر صار الدعاء له أهم الأمور مدى الدهور. و ما أدى كمال حمده على إكرامه لهم إلا هو. و لا أوصل كمال مكارمه مدحا للرسول إلا الله. و لو أطال سائرهم الدعاء له طول أعمارهم ما أدوا ما لعلاه على روحه السلام.

محمد المحمود عم الورى سرا و أولاهم مما حواه لدى الإســــرا
أمد الورى سرا و أولاهم هدى و أعلاهم الإمداد لما حوى الســـرا
علا لمعال ما علا أحد لهــــا و حل محلا ما سواه له أســــــرى
و حمله مولاه وردًا له حــــلا وسرا لــه صار الورى كلهم أسْرى

(و سَلِّمْ) السلام أحد أسماء الله، و الأمر محمول على السلامه، و دوام الكرامه، وإدراك كل سول، لمحمد الرسول. على روحه السلام. و لأحد مداحه مادحا له:

سر السلام على الرسو ل محمد عم الورى
سرًا أمدهم و مــــــا أحد سواه لــه درى

[1]- إشارة للحديث الذي رواه الإمام مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول: إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلوا علي، فإنه من صلى علي صلاة صلى الله عليه بها عشرا، ثم سلوا الله لي الوسيلة فإنها منزلة في الجنة لا تبتغي إلا لعبد من عباد الله، و أرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لي الوسيلة حلت له الشفاعة. إهـ.. صحيح مسلم (كتاب الصلاة) باب استحباب القول مثل قول المؤذن لمن سمعه رقم 800.

و سلام الله دائم على الرسول. و السائل للسلام على علاه عائد سر سؤاله. و هو أكمل الوسائل إلى وصاله. ***(عَلَى عَيْنِ الرَّحْمَةِ الرَّبَّانِيَةِ)*** المراد أصل الرحمه[1]. و مورد كل مدد ومكرمه. و هو مسلك الوصول. إلى المولى لإدراك كل سول.

هو مورد الأســـــــرار	لمدارك الأحــرار
و على علاه مدارهـــــم	و مدار كل مــدار
و إلى الورى أهدى هدى	مددا و سرا ســار
و كماله و عطـــــــاؤه	لهم على أطـــوار

(و اليَاقُوتَةِ) أكمل الدر و اللآلئ. و أعلاه سوما لعلوه على سواه. و كمال علاه على كل العوالم. على سره أكمل السلام و الصلاه.

رسول الله أرسله الإلـــــه	رسولا ما حوى أحد عـــلاه
و للرسل الكرام كمال مدح	و ما وصلوا إلى أولى عُلاه

(المُتَحَقِّقَةِ) المراد الكاملة:

هو أعلـــــى كل عال ولدا	و هو أصل الحمد مهما حمدا
ما عراه دائما عـــار و لا	مسه سوء على طـول المــدا

---

[1] ـ إشارة للحديث الذي أخرجه عبد الرزاق في مصنفه عن جابر بن عبدالله قال: قلت يا رسول الله بأبي أنت و أمي أخبرني عن أول شيء خلقه الله تعالى قبل الأشياء؟ قال: يا جابر، إن الله تعالى خلق قبل الأشياء نور نبيك من نوره، فجعل ذلك النور يدور بالقدرة حيث شاء الله تعالى، و لم يكن في ذلك الوقت لوح و لا قلم، و لا جنة و لا نار، و لا ملك و لا سماء، و لا أرض و لا شمس و لا قمر، و لا جني و لا إنسي، فلما أراد الله تعالى أن يخلق الخلق قسم ذلك النور أربعة أجزاء، فخلق من الجزء الأول القلم، و من الثاني اللوح، و من الثالث العرش، ثم قسم الجزء الرابع أربعة أجزاء، فخلق من الجزء الأول حملة العرش، و من الثاني الكرسي، و من الثالث باقي الملائكة، ثم قسم الرابع أربعة أجزاء، فخلق من الأول السماوات، و من الثاني الأرضين، و من الثالث الجنة و النار، ثم قسم الرابع أربعة أجزاء، فخلق من الأول نور أبصار المؤمنين، و من الثاني نور قلوبهم، و هي المعرفة بالله، و من الثالث نور أنسهم، و هو التوحيد، لا إله إلا الله محمد رسول الله. إهـ...

أخرجه عبد الرزاق في مصنفه، و البيهقي في سننه بألفاظ مختلفة، و انظره أيضا في المواهب اللدنية في المنح المحمدية، للحافظ أحمد بن محمد القسطلاني 1: 71.

و من هذا القبيل أيضا ما جاء في المواهب اللدنية، للقسطلاني قال: لما خرج آدم من الجنة رأى مكتوبا على ساق العرش و على كل موضع من الجنة اسم محمد صلى الله عليه و على آله و سلم مقرونا باسم الله تعالى، فقال: يا رب هذا محمد من هذا؟ فقال تعالى: هذا ولدك لولاه ما خلقتك، فقال: يا رب بحرمة هذا الولد ارحم هذا الوالد، فنودي يا آدم لو تشفعت إلينا بمحمد في أهل السموات و الأرض لشفعناك. إهـ.. المواهب اللدنية في المنح المحمدية، للحافظ القسطلاني 1: 82، و أخرجه البيهقي أيضا في كتابه دلائل النبوة، و ذلك بألفاظ مختلفة.

(الحَائِطَة) الدائرة ***(بِمَرْكَز)*** هو و سطها و مدارها ***(الفُهُوم)*** العلوم ***(وَ المَعَانِي)*** ما وصل الإدراك له. و مراده أصل كل مدرك. و كل ما وصل له سائر العلماء والحكماء لدى كل عصر مدى الدهر. على روحه السلام.

أصل العلوم و أصل السر و الكرم	هو الرسول محل السول للأمم
على علاه سلام دائـــــــم و على	أل ووال و أهل الود كلـــــهم[1]

و هو الموصل لكمال الإمداد. و مورد موارد السعد و الإسعاد. لكَم أهدى للورى حكما وأحكاما. و هداهم لصراط الله أعواما. و أسدى لهم إكراما. و له طرح السلاح. أهل الصلاح. و طأطأوا له الرؤوس. و حلا لهم على سماع اسمه دور الكؤوس. وهاك مدح مادح لكماله. سائلا لوده و وصاله.

على صراط السلامــه	أسلك لدرك الكرامـــه
و اصعد مصاعد سعد	إلى محل الإمامـــــه
وصل و واصل ودادًا	و اكرع كؤوس المدامه
و سل رسول إلــــه	أعطاه دوما مرامـــه
أعلى علاه و أولـــى	عداه كل ملامـــــه
كل امرئ و رســول	وراه و هو إمامـــــه
له كمال علـــــــو	على سواه علامـــــه
الله أولاه أولـــــــى	سلامهِ و سَلامَـــــــه

و ورد مورده المورود. أهل الإلهام المحمود. و هم على أطوار. و أكملهم أهل العلم و العمل. أولائك أهل الله. و للعلماء الأعلام مورد حلو الورود. و أمرهم لدى المولى محمود. و هم الألى أوصلوا لسواهم هدى الرسول و حكمه. و درسوا السور المحكمه. و أهدوا لكل سائل ما أراده. و سلكوا على المسلك الموصل للسعاده. و لكل مدارك مما عملوا.

---

[1]- قريب من هذا البيت قول الشاعر اللبناني قاسم بن محمد الكستي:

مولى له الأمر المطاع و شرعه	يقضى به الحق المبين و يفصل
هو قطب دائرة العلوم و مركزٌ	لإحاطة عنها الحقائق تنـــــقل

و منه قول الشاعر:

محمد مطلع أنوار العلـــــــــوم	من شمس عرفان و بدر و نجوم
منه استفادها الخصوص و العموم	فانسب إلى علمه إطلاق العلــوم
أطلعه الله على الحقائـــــــق	فكل ما قد قاله مطابـــــــــق
قد أوضح السبل و الطرائـــــق	و بين النكت و الدقائـــــــــق

و منه أيضا قول الشيخ محمد بن سعيد البوصيري في بردته:

فإن من جودك الدنيا و ضرتهـــا	و من علومك علم اللوح و القلم

و أرسم لك كلاما محكما. كله أراه حكما. لا أدع رسمه. لحكم مهمه. أسطرها للعالم مكرمه. ولكل ساه ولاه لأحرك هممه. و كلها كالدرر هاكه مسطرا. و هو سارع للسمع و الطاعه. والأوامر المطاعه. و أعمر سوائع عمرك عملا صالحا. و داوم على ما ورد مدحه على حال سائرا و رائحا. واسع للصلاح كما أمر الله. و داوم على رسول لله كمال الصلاه. و على الآل. و كل موال. و سلم لله الأمور. لدى الورود والصدور. و أمسك على عرى العلم والعمل. و دع الأمل والكسل.

إلى م و الهوى لك مالك. و إلى الحمام عمرك سالك. أمالك ارعوا. عما أساءك وأساء السوى. همك دائما لم الدراهم و طم المال. و ما أهمك المآل. و مالك للمعاد صالح الأعمال. إلا مطامع الآمال. لا و الله ما لامرئ أطاع أو عصى عما أوعد الله أو وعده. إلا ما أعده لإدراك الموعده. و إلا عدَّ هالكا إلا امرءا رحمه الله. ولولا الرحمه ما سلم مسلم و لا مسلمه. و لو سلك على صراط الهدى. و حادا عما أهل له أهل الردى. اسع لدواء عللك. و إصلاح عملك. و دع الطمع. و اسلك مسلك الورع. وارع صلاح أحوالك. و سائر أعمالك. و اهرع إلى الله. و اسأله دوام هداه. و كمال الرحمه. لك و لسائر الأمه. و السلام.

و هاك مرسوم حكمه لأحد العلماء وهو: إلى م طرحك صالح الأعمال. و على م إهمالك واللحد المآل. و لم سدلك رداء مراك. وردك أوامر مولاك. أسكرك اللهو. وأداك للسهو. أعمالك كاسده. و آمالك للم المال عامده. و ملكك حصر أعمالك و مالك عاصم. و الله مطلع وعالم. و هو سواك وعدلك. و أمدك وعمرك مد لك، و كم إهماك أوامره. وإمحالك دارك العامره. طالما رماك الدهر و عكس مرامك. و كساك الهوس حلى العار و طمس أعلامك. طال مطلك. و كل حملك. و لم أدر ما معولك. وما مؤولك.

أمالك لكلام سواك مسمع. ولكل لاه مصرع. أمالك لمصورك مهرع. أمالك لحسم عمرك سح مدمع. أما لأطماعك حد. أما لحصر سوءك عد. كلا ساء وهمك. لسوء همك. و ساء عملك. ومر طعمه. و صرم عمرك و درس رسمه. و الدهر لك مرصد. و الإهمال له أمد. و الله أحاط و علم. و ما كل مصر سلم. أطع الله و الرسول. واعمل لدار أمرها مهول. وحر أهوالها وحول. و ما لعاص لأدواحها وصول. و احسم أملك و أدرك عللك. وارع الحلال. و دع الحرام. و أعد لكل هول أداء الأحكام. وأم صدور آل طه لإدراك كمالك. و سل دموعك. واذكر حلول رمسك. و إعدام سماع همسك. واسوداد طرسك. و طردك لعكسك. و حول حالك الحالك. و سلم أمرك للمالك. و اسل المحارم. و سله المراحم. و لا هم إلا ما أهمك معادا. و عكس لك مرادا. و ما كل حلول محل سمح. و لا كل دار صرح. و ما مراؤك والأمر مطاع. و الملك ماله إلا السماع. و سل الروح حال الحمام. مؤلم و ما أدراك ما الألام. لعمرك ما أدراك إلا طول الأمل. و ما أساءك و كدر موردك إلا اسوداد العمل.

مالك عهد إلا وردا. و ساء وردك وردا. أما رأس مالك إصلاح حالك. الماء حولك والطهر ما حلك. و أعمالك هواك. و العلم ما دلك. ما إعدادك للسؤال. و ممرك الصراط و لا أعمال. واها ممن أمره طَم. و ألمه ألم و عم. هلا ماح سوء الردى. ومعاد لمعاد أعدى العدا. كلاما لألمك دواء حاصل. و الحاكم عادل. و ما الأمر سهل. و لا ولد و لا أهل. أما ردعك حسم

عمرك لهوا و سهوا. و ما محالك و سكرك عاد صحوا. أما أهلك الله للإسلام. ودعاك لدار السلام. ما آمالك إلا آمال ملاحد. وأعمالك أعمال لاه. و الأمر لله لا إله إلا هو الواحد. والسلام.

(و نُور) هو ملمع الحوالك. و الدال على المرام لدى سلوك المسالك. ***(الأكْوَان)*** ما سوى الله ***(المتكونة)*** المعلوم أمرها. و مصورها هو الله لا سواه. و سائر الأرواح والصور ما علم حصرها إلا الله. و علمها الرسول على ما صححه أهل العلم لاطلاعه على سائر العوالم وعلى أسرارها. على روحه السلام ***(الآدَمِي)*** و هو لآدم ولد حسا. و هو له والد سرا[1]. و ممد له المدد. و أصل له و لكل ممد. و هو لسائر العوالم أصل مؤصل. و هو أكمل الوسائط وأكرم الوسائل. و على الله و على كرم رسوله المعول.

(صَاحِبِ) مراده ممهد. و هو ماسك عرى الإسلام. والسالك على مسالك الإلهام. والموصل للسعاده. و المواصل لسواه إمداده ***(الحقِّ)*** هو الهدى المعد لدرء الردى ***(الرَّبَّانِي)*** هو المعصوم المحمود أمره. و ماله هوى لدى أعماله و سائر أحواله. و لا أمر له إلا ما أمر الله.

هو للورى أهدى الهدى	و هداهم لهـــداه
و أمدهم أســـــــراره	مددا سرى لسواه[2]

(والبَرْقِ الأسْطَعِ) هو اللامع ***(بِمزُونِ)*** هو حامل المطر أو المطر ***(الأرْبَاح)*** واحده إسم لما علا على رأس المال. و المراد الأسرار و العلوم و سائر ما دل على الكمال والصلاح. وهدى إلى المرام. و كل ما هو محمود و ممدوح ***(المَالِئَة لِكُلِّ مُتَعَرِّضٍ)*** سائل لكرم مولاه ***(من البُحُور)*** هم الرسل و الأملاك و سائر أهل العصمه ***(والأوَانِي)*** هم الكمل و أهل الصلاح وسائر أهل الله. والمراد هو إمداده لأهل الكمال على حد السواء. و هو الموصل لسائر أطوارهم أو أوطارهم و دوام الألاء.

ملأ الأسرار سرا	و هدى أهل الموده
و أمد الكل ســرا	مددا لم أرى حــده

---

[1]- من هذا القبيل ما ورد في بعض الآثار أن آدم عليه السلام يقول لدى مخاطبته للنبي صلى الله عليه وسلم: يا ولد ذاتي و والد معناي. إهـ.. إشارة لكونه صلى الله عليه و سلم أصل الأرواح ويعسوبها وأبوها، و قد أحسن العلامة الشاعر ابن زكري حيث قال:

و في حضرة الأنوار نوره سابق	و فيه بدا نور الوجود بلا ميـــــــــن
فمن تم في حشر يناديـــــــه آدم	أيا والدي روحا و في الذات أنت ابني

و كذلك قول العارف بالله ابن الفارض في تائيته على لسان النبي صلى الله عليه و سلم:

و إني و إن كنت ابن آدم صورة	فلي فيه معنى شاهد بأبوتـــــــــــــــي

[2]- إشارة لكونه صلى الله عليه و سلم هو الهادي و المهدي لكل من اهتدى، و غيره من الهداة نوابه وفروعه لا غير.

(وَ نُورِك اللاَّمِعِ الَّذِي مَلَأتَ بِهِ كَوْنَكَ) هو العوالم كلها ***(الحَائِطِ)*** كالسور الدائر ***(بِأَمْكِنَةِ المَكَانِي)*** سائر الصور اللائحه. و المحال الصالحه. و لمادحه:

مدد الرسول محمـــــد ملأ العوالم كلهـــا
و هو الموصل للورى سرا و أصل أصولها[1]

(اللهُمَّ صَلِّ و سَلِّمْ عَلَى عَيْنِ الحَقِّ) أصل الهدى و الصلاح. و مصدر العلم والسماح. ولمادحه:

أمد الله أحمد كل ســـــــر و أولاه كمالا دائما لـــه
و أعطاه و صالا ما سواه دراه و ما حوى أحد محله[2]

(الَّتي تَتَجَلَّى مِنْهَا عُروشُ الحَقَائِقِ) كل ما وصل للملكه. مع العلوم المدركه. والأسرار المحكمه. للهمم الملهمه. ***(عَيْنِ المَعَارِفِ)*** هو على روحه السلام. الأصل الموصل لسائر الحكم و العلوم. و مصدر كل سر لدى كل محل. و لكل كمال هو أهل. و لمادحه:

هلم هلم اسلك على المسلك السهــل إلى درك كل السؤل و الحمد و الوصل
و دع كل لهو و اسأل الله دائمـــــا مرامك و اسأل المكارم للأهـــــــــل
و داوم على مدح الرسول و آلـــــه و سله وصولا مدركا سائر الســـــؤل
لعمرك ما لله إلا مــحـــمـــــــــد موصل أهل الوصل و السر كالرســل
و أهل الهدى لولاه ما لهم ســـرت على كل حال ما أمد إلى الكـــــــل
أمد لهم إمداد سر سرى لهـــــــم وعم سواهم سره و لهم مســـــــــل
و هل هو إلا الأصل للسر و الهدى لدى كل مرء والمدار على الأصـــل

---

[1]- من هذا القبيل أيضا قول ابن نباتة المصري:

لولاه ما كان أرض لا و لا أفـــــق و لا زمان و لا خلق و لا جيل
و لا مناسك فيها للهدى شهـــــــب و لا ديار بها للوحي تنزيـــل
ذو المعجزات التي ما اسطاع أبرهة يغزو منازلها كلا و لا الفيــل

و قريب منه أيضا قول العارف بالله سيدي عبد الرحيم البرعي:

إن ضاقت بي و بك الخناق فلم يضق عني و عنك عريض جاه محمد
ذاك الغياث المستغاث به الــــــذي لولاه ما كان الوجود بموجـــد

[2]- قريب من هذا البيت قول الشاعر:

الله عظم قدر جاه محمـــــد و أناله فضلا لديه عظيمـــا
في محكم التنزيل قال لخلقه صلوا عليه و سلموا تسليمـا

و من ذلك أيضا قول الشاعر محمد بن حسن وادي المعروف بأبي الهدى الصيادي:

سر الوجود إمام أهل الجود عنــــــــــــــــوان الشهود و سيد الشفعـــاء
عين العيون الجوهر المكنون كشا ف المهمة ملجأ الضعفـــــاء
باب لنيل الخير و الأفـــــراح دا فع كل خوف مزعج و قضاء

علا لمعال ما سواه لها عـــــــــلا و أولاه مولاه كمـــالا مع العـــــــدل
حوى وحده كل المحامد حامـــــدا لمولاه ما أولاه سرا مع الوصـــــــل
على سره صلى الإله مسرمـــــــدا و صل على آل له و على الأهـــــل

(الأَقْوَمِ) هو الأعدل الحامل لكمال العداله. و الموصل لسواه كل مدد سرى له ***(صِرَاطِكَ التَّامِ)*** المسلك الموصل للسعاده. و ما سلكه أحد إلا وصل لله و أوصله الله مراده. و لمادحه:

دعاك لإدراك العلا مورد الهــدى هلم هلم اسلك إلى المورد الأحلـــــــى
ورد ورده المورود واسع لكل مـا هداك إلى رحمى الإله و سل وصـــــلا
و سارع له و اردع هواك مؤمـلا هداك و سلم كل أمرك للمولـــــــــــى
و مدح رسول الله أكمل مسلـــك لإدراكك المأمول و السؤل و الوصـلا
له مدد عم العوالـــم كلـــــــــها و صار مدارًا للورى و لهم أصـــــلا
إلى السعداء الله أرسله هـــــــدى لهم و دوام السعد حاطهم كـــــــــلا
أدم مدحه و اسئله كل مؤمـــــــل و أد سلاما عمم الآل و الأهــــــــلا
و سله وصولا للمكارم و ادعـــــه لدى كل أمر دائما همه حــــــــــلا
له الله أعطى ما أراد مواصــــــلا له كل مؤمول رءاه له أهـــــــــلا
و أولاه سرا ما له وصل الســوى له الرسل و الأملاك ما وصلوا أصلا
و صار إماما حوله الكل ركـــــع و صلوا على روح له معه صلـــــــى
و كل امرئ رام الهدى أمه حوى مكارم والمولى له أوصل الســــؤلا
على روحه دام السلام مسرمـــدا مدى الدهر عم الأل و الأهل و الرسلا

(الأَسْقَمِ) هو كمال له على روحه السلام. لما له مما أهمه. لسائر الأمه. و الآل وما ألمه. وهو دائما سائل لهم دوام الرحمه. و لا هم له إلا هم الأمه.

على روحه صلى الإله و سلمـا و أولاه مولاه المحل المكرمـــا
و صلى على آل و وال و سالك على مسلك الإسلام ما دام ملهما

و ما همه لهم إلا كمال له و للأمه. و هو دال على ما أولاه الله مما دل على كمال الرحمه. والعلم ما حل عرى العصمه كما هو معلوم ***(اللَّهُمَّ صَلِّ وَ سَلِّمْ عَلَى طَلْعَةِ الحَقِّ)*** مراده مطلع الهدى لكل الورى. و هو إلمام العوالم و سواه ورا ***(بِالحَقِّ)*** هو الله. و ما هداه إلا لله لا لسواه ***(الكَنْزِ)*** هو المال الهائل. و كل محمود كالدر و اللآلي وسواها. و للواصل له كمال السرور. و المراد محل الهدى و السعاده. و كل امرئ أمه حصل على ما أراده ***(الأَعْظَمِ)*** الأكمل. وهو ما حوى سائر المحامد. و ما هو إلا محمد صلى الله على روحه المطهره. و لمادحه:

لمحمد أعلى محل عال	أولاه مولاه كمال وصال
الله أعطاه المحامد كلها	و أمده سرا سرى لـــلآل[1]

(إِفَاضَتِكَ مِنْكَ إِلَيْك) مراده محمد. مراد الله لله. و سواه كالعدم. و لولاه صار العالم محروما. و دام الورى معدوما.

لولا محمد الرسول	ما سار سار للوصول
و لعم كل العالم الـــــــــــــــــعدم المؤصل للأصول	

(إِحَاطَةِ النُّورِ المُطَلْسَمِ) أحاط صلى الله على روحه و سلم كالسور الدائر. و وسطه سائر العوالم. و أعطاه الله علم كل مدرك. و ما اطلع سواه على ما أطلعه الله. و ما وصل لعلم روحه و سره أحد. و هو مطلسم على علاه. و الطلسم لدى أهل العلم هو ما أسس على رصد طوالع و أعمال علمها أهلها. و هو كالسحر ما عمله عالمه على أمر إلا حاط كالسور. لا وصول لأحد لما أحاطه إلا مع حصول الردع الهادم لأساسه. و هو عكس اسمه مسلط على كل امرئ أراد الوصول له. و المراد لا وصول لسر الرسول. و ما علم كماله إلا الله ***(صَلَّى اللهُ عَلَيْه و عَلَى آلِهِ)*** لما صلى على الرسول صلى على آله. و هو أمر دل على كمال الصلاه. و الآل هم أولاده وأولادهم ما دام لهم مولود. و هم أهل العلاء على كل حال لدى كل مسلم كامل الإسلام.

آل الرسول هم أهل الكمال و هل	سواهم حل ما حلوا و ما ملكـــوا
لهم كمال العلا أصل و كلهـــــم	على العلا صعدوا و للهدى سلكوا[2]

---

[1]- قريب منه قول العارف بالله الشيخ يحيى بن يوسف الصرصري:

و له الوسيلة و هي أرفع رتبة	خلصت له في جنة الحيوان
و له مزيد لا انتهاء له كمـــــا	لا منتهى لمواهب الرحمـان

[2]- قريب منه قول العلامة الشاعر إبراهيم بن علي الأحدب الطرابلسي في مطلع قصيدة له:

ماذا تقول بمدحك الشعـــــراء	و علاك ترفع أصله الزهـراء
و الله أثنى عليكم بالــــــــذي	قد شرف الثقلين منه ثنــــــاء
آل الرسول بكم يبين لنا الهدى	و يزول عن عين اليقين غشاء
نسب كمثل الصبح لاح لناظـر	ما للصباح عن العيون خفــاء

و منه أيضا قول الشاعر أبي نواس لما لامه بعضهم على عدم مدحه للإمام علي الرضا بن موسى الكاظم رضي الله عنهما:

قيل لي أنت أحسن الناس طرا	في فنون من المقال النزيــه
لك من جيد القريض مديـــــح	يَثَّمَ الدر في يدي مجتنيـــــه
فعلى م تركت مدح ابن موسى	و الخصال التي تجمعن فيه
قلت لا أستطيع مدح إمــــــام	كان جبريل خادما لأبيـــــه

و لا ننسى أيضا قول الإمام الشافعي رحمه الله:

يا أهل بيت رسول الله حبكم	فرض من الله في القرءان أنزله
يكفيكم من عظيم القدر أنكم	من لم يصل عليكم لا صلاة لــه

و الآل لدى محل المدح هم كمل الأمه. و السالك على مسلكهم و لدى محل الدعاء سائر الأمه.
و هو الأولى لدى الأعلام لعمومه ***(صَلاةً تُعَرِّفُنَا بِهَا إيَّاه)*** هو سر الصلاه. و ما حواه كلها لدى أهل الله. و المراد الوصول. إلى محل ود الرسول. والحصول على كمال السول. و دوام وداده. و إدراك سر إمداده. و هو كمال المراد. لدى أهل السداد. و الله أعلم. و صلى الله وسلم على الرسول المكرم. و على آله وكل موال والاه. و على سائر أهل لا إله إلا الله محمد رسول الله. ما دام ملك الله. هـ

و كتب على هذا الشرح الشاب العفيف. محب الحضرة التجانية و خديمها الظريف. الطالب الأنجد. السيد أحمد بن التهامي المكناسي. أمنه الله ما نصه:

الحمد لله على كمال إحسانه. و إبداع صنعه و إتقانه. مخترع الوجود على غير مثال. فسبحانه من كبير متعال. و الصلاة و السلام على الواسطة العظمى. صاحب المنصب الأسمى. الموعود بالمقام المحمود. سيدنا محمد منبع الفضل و الجود. وعلى آله المطهرين الطيبين. وسائر الصحب و التابعين إلى يوم الدين. و بعد: فقد اطلعت على هذا الشرح العجيب الصنع. البديع الطبع. الدال على صرف همة مؤلفه. و نفيس أنفاسه في استخراج الدرر من أصدافها. و مبديها في عجيب تناسق أسرارها بقريب ائتلافها. و هذا الشرح و إن كان مهمل الحروف. لعمرك إنه لمعتبر عند كل شريف ومشروف لم لا. و هو ألفه خديم الحضرة التجانية. المقتطف من أفنانها طرائف اللطائف العرفانية. العارف بالله شيخنا و أستاذنا العلامة الفاضل الفقيه سيدي أحمد بن الحاج العياشي الأنصاري. أبقاه الله منبع أسرار في هذه الطريقة. وأفاض علينا وعليه ينابع العرفان و الحقيقة. و جعله في حيز القبول الملحوظ بعين الرضى في الدارين. بجاه النبي الرسول صلى الله عليه و سلم.

قاله و كتبه عبد ربه أحمد بن التهامي المكناسي و طبع في 10 شوال عام 1332هـ.

مطالع الأسرار لمدارك الأحرار
في شرح صلاة الفاتح لما أغلق بالحروف المهملة

للعلامة سيدي أحمد سكيرج رضي الله عنه

تحقيق ذ محمد الراضي كنون
الإدريسي الحسني

مطالع الأسرار لمدارك الأحرار[1]
في شرح صلاة الفاتح لما أغلق بالحروف المهملة

لخديم الحضرة المحمدية الأحمدية، الفقيه العلامة الأديب، العاقل اللبيب، سيدي أحمد بن الحاج العياشي سكيرج، حمد الله سعيه، و سدد رأيه، آمين

بسم الله الرحمن الرحيم و صلى الله على الفاتح الخاتم و على آله و صحبه و سلم.
ولمؤلفه أمنه الله هذه الأبيات اللطيفة المتضمنة لصلاة الفاتح على طريقة من أنواع البديع:

بَسَطْتُ كَفِّي لَكَ اللَّهُمَّ مُفْتَقِرَا	مُسْتَمْنِحًا مِنْكَ مَا يَسْتَمْنِحُ الفُقَرَا
وَمِنْكَ صَلِّ عَلَى المُخْتَارِ سَيِّدِنَا	مُحَمَّدٍ فَهْوَ بَحْرُ الجُودِ مِنْهُ جَرَا
وَأَنَّهُ الفَاتِحُ الَّذِي أَبَانَ لِمَا	فِي الكَوْنِ أُغْلِقَ مِنْ خَيْرٍ بِهِ ظَهَرَا
وَ أَنَّهُ الخَاتِمُ الأَعْلَى لِمَا سَبَقَ	العِلْمُ القَدِيمُ بِهِ وَوَافَقَ القَدَرَا
وَ أَنَّهُ نَاصِرُ الحَقِّ المُؤَيَّدُ بِالحَقِّ	الَّذِي لَمْ يَزَلْ بِاللهِ مُنْتَصِرَا
صَلِّ اللَّهُمَّ عَلَيْهِ فَهْوَ عَبْدُكَ و الـ	ـهَادِي بِحَق إِلَى الصِّرَاطِ دُونَ مِرَا
صِرَاطِكَ المُسْتَقِيمِ مَنْ أَقَمْتَ بِهِ	الدِّينَ الَّذِي اخْتَرْتَهُ فازْدَانَ وازْدَهَرَا
صَلِّ اللَّهُمَّ عَلَيْهِ دَائِمًا وَعَلَى	سَادَاتِنَا آلِهِ وَصَحْبِهِ الكُبَرَا
تَفِي بِهَا حَقَّ قَدْرِهِ وَرُتْبَتِهِ	وَحَقَّ مِقْدَارِهِ العَظِيمِ مُعْتَبِرَا
بِهِ تَوَسَّلْتُ فِي نَيْلِ الأَمَانِ وَإِذْ	رَاكِ الأَمَانِي وَحَاشَى لا أَرَى الظَّفَرَا

باسم الله الأكرم، أرسم أول الأمر الأهم، مع السلام الكاملِ على أكملِ رسولِ على روحِه الإلَهُ صلى و سلَّمَ. الحمد لله على سائر الآلاء، حمدا كاملا مدى الدهور، على الأدواء والسراء. لا إله إلا هو. مالك الملوك. الواسع الكرم على كل مالك و مملوك. و سلامه على أعلى الرسل الأعلام الكرام، الحامل لواء الحمد طول الدوام. و على آله الساده، وعلى الماسك لعهده، والسالك مسلك أهل السعاده. اعلم رعاك المولى، و أهَّلك لما هو أولى، لما طال سؤال أحد الكمل لمولاه، إدراكه أكمل صلاه، لها أسرار سواها. ومردها عَمَّ كل امرئٍ وعاها. و طالما دعا الملكَ العلام، إلى وصول المرام، أعطاه مراده، على أكمل ما أراده[2]، و هو على مسلك الإلهام، مرسوم على مسطور إكرام، و كمل الله المرام، ووصل سره الأعلام و العوام، و لما رأى أحد أهل الوداد كَلِمَها كامله، ورسومها سالمه، و رام حلها على مسلك إهمال الرسم، الحلو الوسم، واطلع المملوك على أمره المطاع، سارع لحلها ما استطاع، مساعدًا له على حله، سائلا الدعاء الصالح له و لأهله، و سمى الحل المحرر، لما هو مسطر، مطالع الأسرار، لمدارك الأحرار، وأولها ولله ما أحلاها، و ما أكرمها و ما أعلاها.

---

[1]- هو من عداد مؤلفاته التي كتبها بمدينة فاس ما بين عامي 1322هـ_1328هـ موافق 1904م_1910م.
[2]- جاء في كتاب جواهر المعاني و بلوغ الأماني، قال الشيخ رضي الله عنه: و أخبرني صلى الله عليه وسلم أنها لم تكن من تأليف البكري، أي صلاة الفاتح لما أغلق. إلخ.. و لكنه توجه إلى الله مدة طويلة أن يمنحه صلاة على النبي صلى الله عليه و آله و سلم فيها ثواب جميع الصلوات، و سر جميع الصلوات، وطال طلبه مدة، ثم أجاب دعوته، فأتاه الملك بهذه الصلاة مكتوبة في صحيفة من نور. إلخ..

وَ مَا أَرَى لِلْوُصُـولِ		إِلَى مَدَى كُل سُـولِ
سِوَى المَدَائِح دَوْمًـا		على الإمَامِ الرَّسُـولِ

اللَّهُمَّ هو إسم حل أول كل دعاء، و هو أعلى الأسماء، كما رواه الأعلام، و هو موصل لإدراك السُّول، و كل مأمول، و هو واردٌ كاللهم مالك الملك، كما لدى الكلام المحكم، وكدعاء أحد الساده:

أَسْئَلُكَ اللَّهُمَّ مَالِكَ المُلْـوكْ		إِدْرَاكَ سِرٍ وَ هُدًى لَدَى السُّلُـوكْ
و أسأل اللَّهُمَّ عِلْمًا وَ عَمَـلْ		مَعَ الوُصُولِ لِعُلَى أَعْلَى مَحَـلْ

صَلِّ هو دعاء لله لإدراكِ الموعود للرسول على رُوحِهِ أَسْمَى السلام، أو المراد سؤال دوام الإكرام للرسول ودوام الرحمه لما أسداه للأمه و لسائر العوالم.

وَ مَا أَحَدٌ أَسْدَى لِكُلِّ امرِئٍ هُدًى		سِوَاهُ وَ لا أَوْلاهُ مَا هُـوَ أَوْلاهُ
وَ هَلْ هُوَ إِلا أَحْمَدٌ وَ مُحَمَّـــــدٌ		لِكُلِّ الوَرَى و اللهِ أَرْسَلَــهُ اللهُ

و على كل حال الدعاء له مؤكد على كل مسلم، و على كل ما سوى الله.

صَلَّى الإِلَهُ عَلَى الرَّسُو		لِ مُحَمَّدٍ الأَوَّاهِ
مَعَ آلِهِ أَهْلِ العُلَـــــــى		مَا دَامَ مُلْكُ اللهِ

عَلَى سَيِّدِنَا ساد المرء أهل عصره سؤددًا، صار أعْلاهم كرمًا و حلمًا أو علمًا وصلاحًا. والرسول على سره السلام ساد الورى كلهم، و هو أكملهم أصلا، و أحكمهم حكما و عدلا، وأحلاهم كلامًا، و أطولهم طولا و كرما، و سؤددًا و إكراما، و أوسعهم صدرًا، و أكملهم طرًا، كل العوالم أمدهم سِرًا و مَدَدًا، و عمهم كرما على طول المدى، و لولاه ما ولد مولود ولا سعد السعداء، و لا حصل لأحد الهدى، كماله لا حد له، وسوى علاه محدود المدى.

سِرُّ الرَّسُولِ سَرَى لَدَى		كُلِّ الوَرَى وَ لَهُمْ أَمَدْ
وَ لِكُلِّهِمْ أَمَدٌ وَ مَـــــا		لِعُلَى مَحَامِدِهِ أَمَـــدْ

مُحَمَّدٍ لله أسماء لا حصر لها، أكملها إسم الله، للرسول أسامٍ لا إحصاء لها، أكرمها على الله إسم محمد، و روى أحد الأعلام كل امرئٍ إسمه محمد أو أحمد سلم لدى الأهوال والأوحال، إكرامًا لمسمّى الإسم الأكرم على روحه السلام[1]، و للإسم المسطور كمسماه أسرارٌ و محامد و مكارم كامله، لا حد لها و لا حصر، كلها أحلى ورودا لكل وارد. وأعلى مدحا لدى كل مادح و حامد. أصوله معطره. و سرائرهم مطهره، و كلهم على هدى، ما سلك أحد مسلكَ ردا، و ما ولده إلا الكرام، و ما وطئوا وطئ حرام، إلى آدم والدهم و حواء أمهم على كلهم السلام[2]، ووالده و أمه إكرامًا لله لهما و إكرامًا له أسلما و هما وسط رمسهما، و هو على رأسهما، كما أورده أحد الأعلام، ورواه أهل الله وصححوه على مسلك الإلهام[3]، و ما أرى إسلامهما محالا، و الأولى والأكمل هو عدم المراء لدى الأمر المسطر والكلام المحرر، وكل امرئ رآهما أهل إساءه، رماه هواه لدى مهوى الردى، و لِمَ لا ورسول الله هو أكمل الورى أصلا، و هم أصوله الكرام.

و اللهُ طَهَّرَ أَصْلَهُ — و آلهُ وَ مَحَلَّـــــــــهُ
و اللهُ أَعْلَى عُلاهُ — صَلَّى عَلَى رُوحِهِ اللهُ

---

[1]- إشارة لقوله صلى الله عليه و سلم: من ولد له مولود ذكر فسماه محمدًا حبًّا لي و تبركا باسمي فإنه هو ومولوده في الجنة. إهـ. أنظر جامع الأحاديث و المراسيل (حرف الميم) 7: 403 رقم 23255. كنز العمال، للمتقي الهندي (المجلد السادس) 1: 3392 رقم 45223.

وكذلك لقوله صلى الله عليه و سلم: من تسمى باسمي يرجو بركتي غدت عليه البركة وراحت إلى يوم القيامة. إهـ. أنظر جامع الأحاديث و المراسيل (حرف الميم) 7: 169 رقم 21662. كنز العمال، للمتقي الهندي (المجلد السادس) 1: 3392 رقم 45221.

وكذلك لقوله صلى الله عليه و سلم: إذا سميتم محمدا فلا تجبهوه، و لا تحرموه، و لا تقبحوه، بورك في محمد، وفي بيت فيه محمد، و بمجلس فيه محمد. إهـ. أنظر جامع الأحاديث و المراسيل (حرف الهمزة) 1: 336 رقم 2302. كنز العمال (المجلد السادس) 1: 3392 رقم 45220.

ولما ورد في الخبر أيضا: إن الله يوقف عبدين بين يديه، و يقول لهما: انطلقا إلى الجنة، فإني آليت على نفسي أن لا أعذب بالنار من إسمه محمد أو أحمد. إهـ. أي إكراما للنبي صلى الله عليه و سلم، المسمى بهما في السماء والأرض.

[2]- إشارة لقوله صلى الله عليه و سلم: أهبطني الله في صلب آدم، و جعلني في صلب نوح، و قذف بي في صلب إبراهيم، ثم لم يزل الله ينقلني من الأصلاب و الأرحام الطاهرة حتى أخرجني بين أبوايا، لم يلتقيا على سفاح قط. إهـ. أنظر الشفا في التعريف بحقوق المصطفى، للقاضي أبي الفضل عياض 2: 33. جامع الأحاديث و المراسيل (حرف الكاف) 5: 464 رقم 16002. و منه أيضا قوله صلى الله عليه وسلم: إنما خرجت من نكاح، لم أخرج من سفاح من لدن آدم، لم يصبني سفاح الجاهلية. إهـ. أنظر مصنف بن أبي شيبة 7: 410 رقم 27376.

ومنه أيضا قوله صلى الله عليه و سلم: ما ولدني من سفاح الجاهلية شيء، ما ولدني إلا نكاح كنكاح الإسلام. إهـ. أنظر مجمع الزوائد، للهيثمي (كتاب علامات النبوة) باب في كرامة أصله صلى الله عليه وسلم 8: 395 رقم 13821.

[3]- هناك أحاديث تشير على أن الله تعالى أحيا للنبي صلى الله عليه و سلم أبويه، فآمنا به، و ماتا على هديه و دينه، و هو ما نعتقده و ندين الله به، و هو أيضا معتقد كبار أولياء الله تعالى، كالشيخ أبي العباس التجاني، و ابن عربي الحاتمي، و عبد القادر الجيلاني، و أحمد الرفاعي و آخرين. أنظر تفاصيل مسهبة في هذا الموضوع ضمن هذا الجزء ص

مَدَحَهُ الله مدحا ما لأحد لوصول علاه، و أعطاه ما لا مطمع لسواه درك مداه، لِمَ ولَولاهُ ما رحم الله العوالم طرًا، و هو أصل الرحمه، و هاك مدحا له أسرده لك، و هو لأحد الأعلام المداح للرسول، و لله دره، ما أحلى كلامه:

أسرك[1] دهر سره كلــــه وهــم	و مورد أكدار[2] لوارده ســـم
و آلٌ كآلٍ لا وُرُود لهــــم و لا	ولائكم راع لهم راعه هـــــم
أوداؤه عدوهـــــم كعدوهـــم	أولوا العلم لا ود حووه و لا حلــم
و أعلامه مالوا لمال لَهُ لَهْـــوًا	و ما همهم إلا الدراهم واللَّــــم
و ما راعهم[3] روع المآل[4] و مالهم	لداع دعاهم للمهـم و لا الهـــم
و موئلهم وَهْمٌ لهم و هم لهـــوا[5]	و موعدهم هدم و مَعْهَدُهُمْ عـــدم
لك الله دعهم و أعدهم و أعــدلا	إليهم صلاحا و هو مع عمل علــم
و سامح ملما واطرح اللوم مُهْمِــلا	عِداك عَدَاكَ اللوم و اللؤْمُ و الكلــم
لعمرك ما الإسعاد إلا لمسلـــم	مُسَلِّم أمرٍ حاله كلـــه سلْـــمُ
و ما حصل الإسلام إلا لمسلـم الــــكلام لأهل الله معهـــم له سهـــم[6]	
مسالم أهل العصر مُدَّرعًا لهـــم	دروع[7] مرار ما عدا درعه سهـــم[8]
مصارم أهل السهو و اللهو ما لها	ولا صده وسواس سـوء ولا وهــم[9]
مداوم أعمال الكرام مســـددًا	حماه حماه الله ما مســه وصـــم[10]
مع الله مسراه ومرساه طــارح الـــــمطامع لا طعـم دهـــاه و لا أُدْمُ[11]	
لمصرعه المعلوم دام مسارعـــا	لما معه الإسعاد و الوصل و الـــرَّمٌّ
له ساعد للسعد معه مساعـــد	و حال مع الأهوال مـا صـده ولْـمُ[12]
و صدر محل للعلوم و مصـــدر	ورأس سما سر الإله لــه دعـــم[13]
أمَا لك إحكامٌ أمَا لـك حكمُـــهُ	لِمَالِكِ أحكـام لـه الأمـر و الحكـم
لمولاك هُدْ[14] واسمع أوامره و عد	و مكرك صد لا أَمَّكَ الكره و اللَّدْمُ[15]
ومَهِّدْ مِهَادَ اللحد و اعمل لرمسه[16]	هو الدار عمِّرْهَا لها الرسم و الإسـم

[1]- أسرك: بمعنى أفرحك و أعجبك
[2]- الأكدار: جمع كدر، و هو نقيض الصافي
[3]- راعهم: أفزعهم
[4]- المآل: بمعنى يوم الرجوع إلى الله
[5]- لهوا عن الشيء: سلوا عنه و لم يبالوا به
[6]- السهم: بمعنى النصيب
[7]- الدرع: قميص من زرد الحديد يلبس وقاية من سلاح العدو
[8]- السهم: بمعنى سهم الرامي
[9]- الوهم: مفرد أوهام، و هو ما يقع في القلب من الخواطر
[10]- الوصم: العيب و العار
[11]- الأدم: جمع إدام، و هو ما يؤتدم به في الطعام
[12]- الولْمُ: مفرد وليمة، و هو كل طعام يتخذ لجمع من الناس
[13]- الدعم: السند
[14]- هُدْ: بمعنى تُبْ إلى الله وارجع إليه
[15]- اللدم: صوت الحجر إذا وقع بالأرض
[16]- الرمس: القبر مستويا لا يعلو عن وجه الأرض

أمامك هَوْلٌ هَاصِرٌ[1] الرسلِ حاصرٌ كؤودٌ مَهُولٌ ما لــوارده حَسْـــــــــمُ
و حولك أملاك كسور مـــــــدور لهولك داروا كلهـم عمهـم هــــــمّ
ووردك[2] معلومٌ مَمَــــــرٌّ[3] وروده صراط كحدٍّ مـــا لرسم له كَــــــمٌّ[4]
مرورك ما أدراك إدراك مـالــــكٍ[5] و إما لدار أهلها عمهــم رحْـــــــمُ
لهم مدد الإكرام دام مواصـــــــــلا و سعدهم الموصول ما مسه صُــــرْمُ[6]
محلهم دار السلام و أكلهــــــــم مدام و معه مدّ مع كَرَمٍ كَـــــــرْمُ[7]
أطاعوا له أمرًا و لله أسلمـــــــوا و صلوا و صاموا و الصلاح لهم وَسْمُ[8]
أُعِدَّ لما أعطوه ما عملــــوا و دم لعل مع المحكوم و اصلــك الحُكْــــمُ
و ما لك إلا أحمد الرسل كلهـــــم محمدهم محمودهم سَعِدَ الإســـــــمُ
و أكرمهم أصلا و أعلاهم عـــــلا و أطولهم طولا مكارمه عَـــــــــمٌّ
و أحكمهم حكمــا و أولاهــم وَلا[9] و أوصلهم رحمى مراحمه طــــــــمٌّ
مكارمه كل العـــــــوالم كلهـــا له العَلَمُ المعلوم و العلم و الحلـــــم
و سؤدده ساع لكل مُسَـــــــوَّدٍ كما سِرُّه سارٍ له المـــــــدد اللمٌّ[10]
لمسراه سرٌّ سار ملئ السماء و الـــــــــــسهول و أوعار[11] لها سمعَ الصــــمٌّ
و صار لأملاك السماء كَرُسْلِهَـــــا إمامًا أَمَامَ الكل و هو لهــــــم أمٌّ[12]
و حل محلا ما رآه مُكَـــــــرَّمٌ سواه و ما ساواه لمٌّ و لا هـــــــمٌّ
و أسمعه مَعْ ما أراهُ كلامَــــــــهُ و أولاه ملكا ما لأمدَادِهِ صلْـــــمُ[13]
لمسعاه سار السرح[14] طوعا لأمره وهلل صَلْد[15] مسَّهُ ولهُ سلـــــــمُ
و عاد له عود دعـــــاه لمؤلـم محاه و سر السُّمِّ أعلمَهُ اللَّحْـــــمُ
حلا ملح ماء صار كالحلِّ حلـــه كَمَاهُ له طعمٌ حَلا وَ لَهُ طعــــــــم
هو السُّؤلُ للمهموم و هو مؤمــلٌ لكل مُلِمٍّ[16] لَمَّهُ الأعْصُرُ الدُّهْــــــمُ
لَهُ مِلْ و دع دعواك و اسأله طامعا هُدَاكَ و إصلاحا مُدَامًا لَــــــهُ رُمٌّ
و حلَّ حِمَاهُ أَمَّكَ السعدُ وارْعَ مَــعْ حلولك حكم الحل صارمه الحــــرمُ

---

[1]- هصر الشيء: جذبه و أماله
[2]- ووردك: بمعنى الورود و هو خلاف الصدور
[3]- ممر: معبر
[4]- كمٌّ: بمعنى الكم و هو المقدار
[5]- مالك: هو الملك المكلف بنار جهنم
[6]- الصُرمُ: القطيعة
[7]- الكَرْمُ: العنب و المراد به الخمرة
[8]- الوَسْمُ: العلامة
[9]- الولا: بمعنى الولاء و هي المحبة و القرب و النصرة
[10]- اللَّمُّ: الكثير
[11]- أوعار: جمع وَعْرٍ و هو المكان الصلب ضد السهل، و يقال أيضا للمكان المخيف
[12]- الأمُّ: بمعنى أصل الأشياء و مصدرها
[13]- الصلم: الإنقطاع
[14]- السرح: الماشية
[15]- الصلد: الصلب ما لا ينبت فيه شيئا
[16]- الملم: مفرد ملمة و هي النازلة الشديدة

ورد موردا مـــــا رُدَّ وارد ورده	ولا مسَّهُ الأسوا ولا صده[1] صَدْمُ [2]
و دمعك أرْسِلْهُ وَ سَلْهُ لمــــادحٍ	لعل مع المُدَّاح عُدَّ له سَهْـــــمُ [3]
وأصــلٍ وأولاد وأهــــــل وداده	وآلٍ وَمَعْهُمْ سُومِحَ الأهلُ والأمُّ
ومادحا عـد اسمه دررًا لمــــــا	دعاهُ لمدحِ عاطلٍ سَامَـهُ العـــمُّ
وحمدك معه عد حدًّا وأوســطـًا	وأصل مُعَمَّاهُ[4] مُحصلـه العلـــم
وصلِّ وواصلـه سلامًا وآلــــــه	إله السما معه أوداؤه[5] الرحـــم
و أصهاره ما واصل الدهر أهلـه	سرورا و إكدارا و أولاهم كسْمُ [6]

الفَاتِح لِمَا أُغْلِقَ لولا محمد لدام الورى كلهم لدى عماء العدم، و لا حصل الهدى لأحد، و هل هو إلا أصل الكرم و الكرامه، و محل السؤدد و السلامه.

مؤملوه لهم ما أملوه مع	الإمداد و الود و الإسعاد و الكرم

علم لدى الأوائل وسمه، لما أوحاه الله إلى رسلهم الكرام مما وعاه العلماء، و دراه الحكماء، وهو أول العوالم و أصلها، و مورد الأسرار و محلها، و لولاه ما أحل الله حلالا، و لا حرم حرامًا، و لا سرى للورى مدَدٌ، و لا سمع الله دعاء أحد.

لِرَسُولِ اللهِ و اللهِ مَدَدْ	سِرُّهُ سَارٍ إلى كُلِّ أحَدْ
مَلأَ العَالَمَ سِرًّا كَرَمــًا	وَهُدَاهُ مَالَهُ وَاللهِ حَـــدْ

و الخَاتِمِ لِمَا سَبَقَ ما اطلع أحد على سر الله كاطلاع الرسول، و لا وصل أحد لما وصله على أكمل مرام و كمال السُّول، مما أعطاه الله له و هو له أهل، و ما حمل سواه ما حمل صدره المطهر، و كما سطر عند أهل الله و سائر العلماء و الحكماء لدى كل أمه، مكملا لعالم الرحمه، و مكملا لكل ما أراد الله إحصاء وعده، و حصر عده، و هو المراد للوسم.

وَسْمُ الرَّسُولِ مُحَمَّدٍ	سِرُّ الإلَـهِ لَهُ سَمَـــهْ
أعْلَى الإلَهُ مَحَلَّـــــهُ	ولَـهُ أمَدَّ المكْرَمَـــهْ
أوْلاهُ مَوْلاهُ عَطـــًا	عَمَّ العَوَالِمَ مَرحَمَهْ

---

[1]- صدَّهُ: منعه و صرفه

[2]- الصَّدْمُ: الدفع

[3]- السهم: الحظ و النصيب

[4]- المعمى من الكلام: ما عمي معناه وخفي

[5]- أوداؤه: أحبابه المقربون إليه

[6]- ناظم هذه القصيدة هو الشيخ عبد الرحمن بن أحمد بن علي الحميدي المصري، شيخ أهل الوراقة بمصر، له مؤلفات منها: الدر المنظم في مدح النبي الأعظم، توفي في 17 محرم الحرام عام 1005 هـ، أنظر ترجمته في الأعلام للزركلي 3: 296-297. معجم المؤلفين، لكحالة 5: 120-121. خلاصة الأثر، للمحبي 2: 376-377. كشف الظنون لحاجي خليفة 234 و 483 و 800. هدية العارفين، للبغدادي 1: 547. بروكلمان 11: 272.

نَاصِرِ الحَقِّ بِالحَقِّ ما أرسل الله محمدًا الرسول لسائر العوالم إلا رحمه. و لمَّا دعاهم إلى الله عموم الدعوه، أطاعه سائر الشهداء، و عصاه كل مطرود و محروم أطال المراء. و هو على روحه السلام، دعا لله وحده، و ما معه عدد و لا عده.

كَمْ رَوَّعَ الأُسْدَ وَهْوَ لا سِلاحَ لَهُ   وَ صَارَ وَحْدَهُ مِلْئَ عَسْكَرٍ عَدَمِ

و كم أصمى حصا صدور عداه الصماء سهم كلامه، و أصمهم رعد صمصامه، و هو لأهل وداده مروح على كل حال، و هو مصرح أو ملوح، كل امرئ سمعه حصل له المراح، وراح مائلا كما أمال الراح الأرواح، كلمه سحر حلال، و مورد سلسال، وحُكْمُهُ مطاع لدى أهل السعاده، و حِكَمُهُ حلل الأسماع، و مالها مُعَاد لدى الإعاده، سارع إلى سلوك صراطه كل مسعود، أمره محمود، لمَا دعا الورى هلمُّوا إلى الله على مسلك الإسلام، كما أمركم الله المحمود لا إله إلا هو، و دعوا الإلحاد المعد لدى كل ملد مطرود، و أورد لهم ما صحح لهم دعواه للرساله، وما رد أحدًا أمَّه على كل حاله.

مُحَمَّدٌ هُوَ دَاعٍ   للهِ كُلِّ العَوَالِــــمْ
هَدَاهُمُ لِهُــدَاهُ   لِمَا لَهُمْ هُوَ رَاحِمْ

أوصى سائر الرسل أممهم على سلوك صراط هُدَاهُ، كما أوصاهم الله و أعطوه العهود على وداده، و سلوك مسلكه مهما رأوه، و الكل داع إلى هُدَاهُ، كَمَا أمرهم الله، على روحهم السلام، لِمَ لا و هو:

أَصْلٌ لَهُمْ وَ مَوَصِّــلٌ   لَهُمُ المُرَادَ مُعَطَّـــرَا
وَهُو المُطَهَّرُ صَدْرُهُ   وَ عَلَى العَوَالِمِ صَدَّرَا
وَهُوَ الإِمَامُ أَمَامَهُــمْ   وَ الرُّسْلُ كُلُّهُـــمُ وَرَا

و الهَادِي إِلَى صِرَاطِكَ المُسْتَقِيمِ هدى الله المرء للهدى، ألهمه لما هو الأولى له لإدراك السعاده، و هداه سواء الصراط، دَلَّهُ على المسلك السهل للوصول للمراد، وهدى الرسول للصراط، دعا المرسَل لهم إلى الطاعه.

وِرْدُ الرَّسُولِ مُحَمَّــــدٍ   هَادٍ إِلَى دَارِ السَّـــلامْ
وَ صِرَاطُهُ سَهْلٌ عَلَـــى   كُلِ امْرِئٍ رَامَ السَّلَامْ
وَ سِوَى سُلُوكِ صِرَاطِهِ   وَعْرٌ لِسَالِكِهِ المَــلامْ

و الرسل الكرام كلهم هُدَاهُ على سرهم السلام، و أول هادٍ لسائر العوالم هو محمد الرسول المكرم صلى الله على روحه و سلم، هدى كُلَّ الأرواح لما دعاها المولى للسمع و الطاعه، لدى عالم الأرواح[1].

كُلُّ العَوالِمِ حَارُوا	لَمَّا دَعَاهُمُ سَمَاعُ
و اللهِ و اللهِ لَــوْلا	مُحَمَّدٌ مَا أَطَاعُوا

ولولا ما دعا لله داع، و لا سعى لإدراك الهدى و الصلاح ساع.

أَتَى الهُدَى كُلُّ هَادٍ	دَعَا الوَرَى لَهُدَاهُ
وَ أَوَّلُ الرُّسْلِ طَـهَ	هَدَاهُمُ لا سِــوَاهُ

و الصراط المعلوم هو مسلك على الحطمه، حده كالحسام أو أحد، و مع مد طوله للورى المرور على محله، و كل امرئ وارده على مسلك عمله، و لسائر الأمم لدى سلوكه أهوال وأوحال. ودعاء الرسل اللهم سلِّم سلِّم[2]. وما علم أحد ما أراده الله له لدى مروره، و الكل حائر، و ما أحد له الكلام إلا رسول الله محمد على روحه السلام، و هو المعطى له لواء الحمد، ألهمه الله محامدًا ما علمها سواه، و الملائكة الكرام أعطاهم الله الأوامر لإعطاء السهم المطرود للحطمه، وإعطاء السهم المطرود للحطمه، و إعطاء السهم المحمود لدار السلام المكرمه.

دَارُ السَّلامِ مَحَــــلُّ	كُلِّ مُوَحِّــدٍ للهِ
وَ اللهُ أَكْرَمَهُمْ عَلَــى	إِسْلامِهِـــمْ للهِ
أَعْطَاهُمُ أَعْلَى العُلَى	كَرَمًا لِأَهْلِ اللهِ

وَعَلَى آلِهِ، آل المرء رهطه، وآل الرسول أولادُهُ وأولادُ أولادِهِ في كمال الولاده، أو هم علماء الأمه، أو هم أهل الإسلام كلهم، لعلو علاهم على سائر الأمم، و أكمل الأمم على كل حال هم أولاده، و أكملهم عُلَمَاؤهمْ

آلُ الرَّسُولِ مَحَلُّ العِلْمِ مَا حَلِمُوا	للهِ إلا وَعُدُّوا أَكْرَمَ الأُمَمِ

كمالهم وعلاهم مؤصل، وسؤدد سواهم طارئ، ومسلك إدراكه أمور، وأكملها السلاح والحكمه. والحلم والعلم والسَّمَاحُ وَعُلُوُّ الهمه، ولا أعدُّ الآل أصلًا لِلْعَلاء أصلًا، إلا لامْرِئٍ دائم العطاء لأهل السؤال، وهاك أصولا لأمور محموده، لأهلها معدوده، كما رسمها أحد الأعلام، وكلامه مؤدٍ إلى إدراك المرام، سأل ملك عادل مدرك أحوال الأمم صدر ملكه سؤالًا

[1]- إشارة لقوله تعالى: وإذا اخذ الله ميثاق النبيئين لما آتيناكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتُؤمِنُنَّ به و لتنصرُنَّه، قال آقررتم وأخذتم على ذلكم إصري، قالوا أقررنا، قال فاشهدوا و أنا معكم من الشاهدين، فمن تولى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون. إهـ سورة آل عمران الآية 81

[2]- من حديث الصراط، و هو حديث طويل، ذكره الحافظ البخاري في ثلاث مواضيع من صحيحه.

لسرد أصل كل أمر أمامه، ولما سمع الصدر أمر الملك رَدَّ له مورد سؤاله كما أراد، وأول كلامه. أصلُ العَدَاوَةِ الإسَاءَه، وأصلُ الطَّرْدِ الرداءه، وأصلُ المَلَلِ إطَالَه العَمَلِ، وأصلُ الكَسَلِ حُصُولُ الأمَلِ، وأصلُ المَودَّةِ الكَرَمُ، وأصلُ السَّعَادَه عُلُوُّ الهِمَمِ، وأصلُ المَرَاحِمِ المَكَارِمُ، وأصلُ الإكْرَامِ الأكَارِمُ، وأصلُ الإهْمَالِ الإمْهَالُ، وأصلُ المُحَاوَرَه المُسَامَرَه، وأصلُ المَعْرَكَه المُصَادَرَه، وأصلُ الدَّاءِ الصَّدْمَه، وأصلُ الدَّوَاءِ الحِكْمَه، وأصلُ الهَمِّ الوَهْمُ، وأصلُ المُحَاكَمَةِ السَّهْمُ، وأصلُ الملاحه السَّمَاحَه، وأصلُ السَّلامَةِ السَّلامُ، وأصلُ المَلامَةِ الكَلامُ، وأصلُ الحَسْرَةِ المُدَامُ، وأصلُ الحِلْمِ العِلْمُ، وأصلُ الصُّلْحِ السِّلْمُ، وأصلُ الوَرَعِ الإمْسَاكُ، وأصلُ الطَّمَعِ الإمْسَاكُ، وأصلُ العُلُومِ الإدْرَاكُ، وأصلُ الصَّلاحِ السوَاكُ، وأصلُ الأمُورِ الإرَادَه، وأصلُ الإكْرَامِ المُوَادَدَه، وأصلُ المَدَدِ المُسَاعَده، وأصلُ المَدَارِكِ طُولُ المُدَّةِ، وأصلُ الوصلَةِ الوَحْدَه، وأصلُ السُّلُوكِ المُدَاوَمَه، وأصلُ الوِدَادِ المُكَالَمَه. هاك ملك الملوك أصول الأمور، وأحوال الدهور، ولما سمع الملك كلام الصدر، سُرَّ سرورا كاملا لكمال علمه وإدراكه، ومدحه أمام أهل ملكه. والصدر كرر له المدح، ولله درُّه مادحًا:

عد وكرر رسوم علم الأصول	وادْرِكِ الوهم واسع دار الوصول
واعلم الحكم أولا وأعــــــده	واطرح كل عاطل مسطــــــول
عم أهل الكمال حمدا ومدحــا	وهو للكل أصلح المأمـــــــول
حرروه الكرام ردا وردعـــا	لسواهم وعله المعلـــــــــول
دم رعاك الإله مورد للعلـــــــــــــــــم وحصل رسوم كل الأصــول	

كمل كلام الملك و الصدر والله أعلم، وهاك حكما رسومها مهمله، ما أراها لدى العلماء والحكماء مهمله، أوردها وارد الإلهام، على أحمدَ راسم مطالع الأسرار، لمدارك الأحرار، وهاكها على أكمل مرام:

الهَمْزَه

- أحكم الحكم لاإله إلا الله محمد رسول الله.
- أهم كل مهم لدى أهل الله إدراك السعاده.
- أدلُّ الأدله على أحكام كل عله الحرص[1] وطول الأمل[2].
- أصل كل هم، هو الهوى والحسد والدرهم.

اللامُ

- لحوم العلماء مسمومه.
- لؤم المرء مهلكه لا محاله.
- اللدد و المراء، لحمل السوء وردى المرء سواء.
- لحس الحصى ولا سؤال اللئام.

الهَاء

- الهرع إلى الله على كل حال مصلح للأحوال، و معدم للأوحال.
- هَمٌّ امرئٍ مساوٍ لِهممه.
- الهوى أصلُ كل سوء و إساءه.
- الهرم لا دواءَ له إلا الحِمَام[3]

الميم

- مهلك المرء هواه[4]، ولو طَالَ مَدَاهُ.
- ملاك الأمر حصر الهوى وسلام الصدر وإسلام الأمر.

---

[1]- إشارة لقوله صلى الله عليه وسلم: يَهْرَم ابن آدمَ و تَشِبُّ منه اثنتان: الحرص على المال، والحرص على العمر.إهـ.. صحيح الإمام مسلم (كتاب الزكاة) باب كراهة الحرص على الدنيا رقم 2365.

[2]- إشارة لقوله صلى الله عليه و سلم: لايزال قلب الكبير شابا في اثنتين، في حب الدنيا وطول الأمل. إهـ. صحيح البخاري (كتاب الرقاق) باب من بلغ ستين سنة فقد أعذر الله إليه في العمر رقم 6273.

[3]- الحِمَام: الموت

[4]- إشارة لقوله صلى الله عليه وسلم: ما تحت ظل السماء من إله يعبد من دون الله أعظم عند الله من هوى متبع. إهـ.. مجمع الزوائد، للهيثمي (كتاب العلم) 1: 447 رقم 895.

- مراد الله لا مرد له.
- ملام اللئام لا طائل معه، ولائم الكرام إمعه.

الصّادُ

- صلاح المرء سلاحه.
- صلاح العلماء والحكماء مصلح للعالم طول الدوام.
- صدور العامه على أهل العلم، دال على هلاك الأمه وحلول كل هم.
- الصدر السالم، محل المكارم.

العَيْنُ

- العلم والعمل أساس كل صلاح وإصلاح، ولَوْ مع الكسل.
- العلم أكمل الحلل ولو طرح حامله العمل.
- العالم العامل صالح كامل.
- العدل أساس المملكه والعداء مورد المهلكه.

السِّينُ

- سائق السعاده، وارد على العاده، ورأسهم على الوساده.
- سرائر الأحرار، محل الأسرار.
- سؤال اللئام وسؤال الأعداء سواء، أو هو أسوء حاله.
- السماح أحد سلاح أهل الصلاح، والأولى لدوام الإصلاح، وهو طرد أهل الطلاح.

الدَّالُ

- دواء كل داء الهرع إلى الله على كل حال.
- دعائم الملك والممالك لمد السلم، العدل والمال والعلم.
- الدال على سلوك الهدى، له كعمل السالك طول المدى.
- الدهر والد المكارم والمكاره.

الحَاءُ

- الحمدلله رأس الطاعه.
- حمد الله لدى السُّرور، مسلك لدوامه طول الدهور.
- الحسد أول الإساءه[1] وأصل العداوه.
- حكماء الأمه أولوا العلم و العمل.

الوَاوُ

- ورود المدام مره، مورد لكل حسره.
- ولد السوء لا عهد له.
- ولاء آل الرسول صلاح، وعدم ولائهم طلاح.
- وعد الكرام محدود، وعطاء اللئام ولو طال الأمد لهم مردود.

الرَّاءُ

- رَاحُ الأرواح، إدراك المسائل بالصحاح.
- روح المسلم الطائع لدى السؤال ملهمه.
- رد السلام، مؤكد لدى أهل الإسلام[2].
- رسول الكرام، مكرم لدى العموم مدى الدوام.

الطَّاءُ

- طارح السوء حامله، ومطعم السم آكله.
- طعام اللئام سم، ووداد الكرام دواء لكل هَم.
- طول العمر حاصل، لكل امرئٍ لرحمه واصل.
- الطمع مورد الرَّدَى.

---

[1]ـ قال المناوي في فيض القدير: يكفي في قبح الحسد كما في الإحياء أنه أول ذنب عصي الله به، لأن إبليس لم يحمله على ترك السجود لآدم إلا الحسد، كما أن قابيل لم يحمله على قتل أخيه هابيل إلا الحسد. إهـ..
وفي الحديث قال صلى الله عليه و سلم: إياكم و الحسد، فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب، أو العشب. إهـ.. سنن أبي داوود (كتاب الأدب) باب في الحسد رقم 4899.

[2]ـ إشارة للحديث المورود في صحيح الحافظ البخاري، أن رجلا سأل النبي صلى الله عليه و سلم، أي الإسلام خير؟ قال: تطعم الطعام، و تقرأ السلام على من عرفت وعلى من لم تعرف. إهـ.. صحيح البخاري (كتاب الإستئذان) باب السلام للمعرفة وغير المعرفة رقم 6093.

الكَافُ

- كرم المرء علامه على إدراكه السلامه.
- كمال المروءه، السماح وحصر المرء هواه وسوءه.
- كل داء له دواء إلا داء الحسد ما له دواء.
- كلامك كمالك[1]. إهـ..

واسرد لك ما حكاه ولد همام[2]، مما سرده إمامه المدرس وسط الأعلام، والمدلس على العوام، لإدراك المرام. وهو الحمدلله الممدوح الأسماء، المحمود الألاءْ[3]، الواسع العطاء، مصور الرحم، وأهل السماح والكرم، ومهلك عاد وإرم، أدرك كل سر علمه، ووسع كل مصر حلمه، وعم كل عالم طوله، وهد كل مارد حوله، أحمده حمد موحد مسلم، وأدعوه دعاء مؤمل مسلم، وهو الله لا إله إلا هو الواحد الأحد، العادل الصمد، لاولد له ولا والد، ولا ردء معه ولا مساعد، أرسل محمدًا للإسلام ممهدا، وللمله موطدا[4]، ولدلائل الرسل مُؤَكِّدًا، و للأسود والأحمر مسددًا[5]، أوصل الأرحام، وعلم الأحكام، ووسم[6] الحلال والحرام، ورسم الإحلال والإحرام، وكرم الله محله، وكمل الصلاه و السلام له، ورحم آله الكرماء، وأهله الرحماء، ما همد[7] ركام[8]، وهدر[9] حمام، وسرح سُوَّام[10]. وسطا حسام[11].

اعملوا رحمكم الله عمل الصلحاء، وأكدحوا[12] لمعادكم كدح الأصحاء، واردعوا[13] أهواءكم ردع الأعداء، وأعدوا للرحله إعداد السعداء، وادرعوا[14] حلل الورع، وداووا علل الطمع، وسووا أود[15] العمل، وعاصوا وساوس الأمل، وصوروا لأوهامكم حؤل[16] الأحوال. وحلول الأهوال. ومساورة الإعلال[17]. ومصارمة المال والآل.

---

[1]- ولد همام: هو القاسم بن علي الحريري في مقاماته.
[2]- هذا المثل لا يستحيل بالإنعكاس، بل يقرأ طردًا وعكسًا.
[3]- الآلاء: النعم.
[4]- وطد الشيء: قواه وأثبته
[5]- سدد الشيء: أصلحه وقومه
[6]- وسم الشيء: جعل له علامة يعرف بها
[7]- همد: سكن
[8]- الركام: المتراكم بعضه فوق بعض من السحاب أو الرمل و ما أشبه
[9]- هدر الحمام: قَرْقَرَ وكرر صوته في حنجرته
[10]- السوَّام: طائر
[11]- الحسام: السيف
[12]- كدح في الشيء: جهد نفسه فيه
[13]- اردعوا: بمعنى كفوا
[14]- ادرعوا: بمعنى البسوا
[15]- الأوْدُ: الإعوجاج
[16]- حؤل الأحوال: بمعنى تحولها من حال إلى حال
[17]- مساورة الإعلال: وَثَبَاتُ الأمراض والعلل

واذكروا الحِمَام[1] وسكرة مصرعه. والرمس وهول مطلعه. واللحد ووحده مودعه. والمَلَك وروعه[2] سؤاله ومطلعه. وألمحوا الدهر[3] ولؤم كره[4]. وسوء محاله ومكره. كم طمس[5] معلما. وأَمَرَّ مطعما. وطمطم عرمرما[6]، ودمر ملكا مكرما. همه صك[7] المسامع، وسح المدامع[8]، وإكداء المطامع، وإدراء المسمع والسامع. عم حكمه الملوك و الرعاع[9]، والمسود و المطاع، و المحسود والحساد، والأساود والآساد، مأمول الآمال، وعكس الأمال، وما وصل إلا وصال، وكلم الأوصال[10]، ولا سر إلا وساء، ولؤم وأساء، ولا أصح إلا ولد الداء، وروع الأدواء[11].

الله الله رعاكم الله إلى مَ مداومه اللهو، ومواصله السهو، وطول الإصرار، وحمل الاسار، واطراح كلام الحكماء، ومعاصاه إله السماء، أما الهرم[12] حصادكم. والمدر[13] مهادكم[14]. أما الحِمَام مدرككم، والصراط مسلككم، أما الساعه موعدكم، والساهره[15] موردكم، أَمَا أهوال الطامه[16] لكم مرصده[17]، أما دار العصاه الحطمه الموصده، حارسهم مالك[18]، ورواؤهم[19] حالك[20]، وطعامهم السموم، وهواؤهم الشموم، لامال أسعدهم و لا ولد، ولا عدد حماهم ولا عدد.

ألا رَحِمَ الله امرءا ملك هواه، وأم[21] مسالك هداه، وأحكم طاعه مولاه، وكدح وكد لروح مأواه، وعمل ما دام العمر مطاوعا، والدهر موادعًا، و الصحه كامله، والسلامه حاصله، وإلا دهمه[22] عدم المرام، وحصر الكلام، وإلمام اللئام، وحموم الحِمَام، وهدو الحواس،

---

[1]- الحِمام: الموت
[2]- الروع: الفزع
[3]- الدهر: الزمان
[4]- كره: رجوعه
[5]- طمس الشيء: محاه وأهلكه
[6]- العرمرم: الجيش الكثير
[7]- صَكَّ: أغلق
[8]- سح المدامع: جعلها تصب الدمع صبا
[9]- الرعاع: سفلة الناس
[10]- الأوصال: جمع الوُصْل وهو كل عضو على حدة
[11]- الأدواء: العلل والأمراض
[12]- الهَرِمُ: بلوغ أقصى الكبر في السن
[13]- المدر: الطين العَلِكُ الذي لا يخالطه رمل
[14]- مهادكم: بمعنى فراشكم
[15]- الساهرة: الأرض
[16]- الطامة: من أسماء يوم القيامة
[17]- مرصدة: بمعنى مرتقبة
[18]- مالك: المَلَك المكلف بنار جهنم
[19]- رواؤهم: بمعنى شرابهم
[20]- حالك: شديد السواد
[21]- أَمَّ: قصد
[22]- دهمه: غشيه

ومراس الأرماس، آهًا لها حسره[1]، ألمها مؤكد، وأمدها سرمد[2]، وممارسها مكمد[3]، ما لولهه[4] حاسم، وما لسدمه[5] راحم، ولا له مما عراه عاصم، ألهمكم الله أحمد الإلهام، ورداكم رداء الإكرام، وأحلكم دار السلام، وأسأله الرحمه لكم ولأهل مله الإسلام، وهو أسمح الكرام والمسلم والسلام. إهـ..
وأكد المدح على ولد همّام، واسرد لك ما أملاه مما دل على إحكامه الكلام، وهو ما أملاه لوصل رحم المصاهره، وما أحلى كلامه للمسامره، وهو الحمد لله الملك المحمود، المالك الودود، مصور كل مولود، ومآل كل مطرود، ساطع المهاد، وموطد الأوطاد، ومرسل الأمطار، ومسهل الأوطار. عالم الأسرار ومدركها، ومدمر الأملاك ومهلكها، ومكور الدهور ومكررها، ومورد الأمور ومصورها، عم سماحه وكمال، وهطل ركامه وهمل[6]، وطاوع السؤل والأمل، وأوسع المرمل و الأرمل، أحمده حمدًا ممدودا مداه، وأوحده كما وَحَّدَهُ الأواه، وهو الله لا إله إلا هو مم سواه، ولا صادع لما عدّ له و سَوَّاهُ، أرسل محمدا علما للإسلام، وإماما للحكام، ومسددا للرعاع، ومعطلا أحكام ود وسواع[7]، أعلم و علّم، وحكم وأحكم، وأصل الأصول ومهد، وأكد الوعود وأوعد، وأصل الله له الإكرام، وأودع روحه دار السلام، ورحم آله وأهله الكرام، ما لمع آل، ومملع رال، وطلع هلال، وسمع إهلال.
اعلموا رحمكم الله أصلح الأعمال، واسلكوا مسالك الحلال، واطرحوا الحرام ودعوه، واسمعوا أمر الله وعوه، وصلوا الأرحام وراعوها، وعاصوا الأهواء واردعوها، وصاهروا لحم الصلاح والورع، وصارموا رهط اللهو و الطمع، ومصاهركم أصهر الأحرار مولدا، وأسراهم سؤددا، وأصحهم موعدا، وها هو أمكم، وحل حرمكم، مملكا عروسكم المكرمه، وماهرا لها كما مهر الرسول أم سلمه[8]، وهو أكرم صهرا أودع الأولاد، وملك ما أراد، وما سها مهلكه ولا وهم، ولا وكس[9] ملاحمه ولا وصم[10]، أسأل الله لكم إحماد وصاله، ودوام إسعاده، وألهم كلًّا إصلاح حاله، والإعداد لمعاده، وله الحمد السرمدي، والمدح لرسوله محمد.

ومما حكاه معلمه، والطعم والسدى[11]، مما لا أراه سُدى[12]، وهو در علا سوم سعره، ولله درُّهُ ما سَاوَاهُ سواه رام إدراك مداه.

---

[1]- الحسرة: الندامة
[2]- السرمد: الدائم
[3]- الكمد: الحزن والغم الشديد
[4]- الوَلَهُ: الحزن الشديد الذي يكاد يذهب بعقل صاحبه
[5]- السَّدَمُ: الهم مع الندم أو الغيظ مع الحزن
[6]- هملت السماء: دام مطرها
[7]- ود وسواع: أسماء لبعض الأوثان التي كان يعكف على عبادتها قوم نوح، ومن هذا القبيل قوله تعالى: ومكروا مكرا كبارا، وقالوا لا تذرن آلهتكم، ولا تذرن ودًّا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق و نسرا.
[8]- أم سلمة: هي أم المؤمنين هند بنت أبي أمية، اشتهرت بكنيتها (أم سلمة) تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل غزوة الأحزاب، توفيت سنة 59 هـ
[9]- وكس العهد: نقضه
[10]- وَصَمَ الشيء: عابه
[11]- السَّدى: من الثوب وهو ما مد من خيوطه
[12]- ذهب سدى: أي باطلا

اعدد لحسادك حد السـلاح — وأورد الأمل ورد السمـــاح
وصارم اللهو ووصل المها — وأعمل الكوم وسمر الرمـاح
واسع لإدراك محل سمـــا — عماده لا لا دراع المـــراح
والله ما السؤدد حسو الطلا — ولا مراد الحمـــد رود رداح
واها لحر واسع صـــدره — وهمه ما سَرَّ أهل الصـــلاح
مورده حلو لسؤالـــــه — وما له ما سألوه مطـــاح
وما أسمع الأمـل ردًا ولا — ماطله والمطل لؤم صـــراح
ولا أطاع اللهو لما دعـــا — ولا كسى راحًا له كـاس راح
سوده إصلاحه ســـره — وردعه أهواءه والطمـــاح
وحصل المدح له علمـــه — ما مهر العور مهور الصحاح[1]

ولأحمد ولد الورد رحمه الله:

علم العدو ملامــه اللـــوام — ودام صدك وهو صد حمـام
لولاك ما حدر السهاد دموعه — ولما أطار كراه حـــر أوام
هل ما أسر وما أؤمـل رادع — هول الهموم وروعة الأحلام
رد السلام وما أراك مسلمـا — ورآك أهل هواك سر كــلام
كم حاسد لك أو مســر وداده — ومعلل أهواه طول مـــلام

إلى كمالها والعود أحمد، لكمال المقصد:

هلم هلم اسلك صراطا سلوكـه — مؤدّ إلى إدراكك السؤل والوصـــلا
وما هو إلا مدح أكرم مرسـل — وأعلا الورى أصلا وأكملهم كـــلا
أطل مدحه واسأله كل مؤمـل — وأد سلاما عمم الآل والأهـــــلا
وهل هو إلا أحمد الرسل كلهم — على روحه مولى الورى دائما صلى

حَقَّ قدْرِهِ أراد أكمل صلاه على رسول الله، ودل على مراده لما شطر كمال الرسول المحال على علاه، والمراد حصولها له دائما لا حصر لها، كما هو لا حصر لعلاه، لم لا وهو:

عم الورى كرما وهل — أحد كأحمد للـــورى
والله لولا أحمد الــــــــــــــــمحمود ما سر ســـرى
والله لولا ســـــره — سار لمـا أحـــد درى
سله المرام مدى الدوا — م وأمّـه ودع المـــرا
كل امرئ أم الرســو — ل محمدا حمد السرى
لوصوله لمـــــراده — ولدركه سؤلا طـــرا

[1]- الأبيات للعلامة الأديب عبد الرحمن بن إسحاق النهاوندي الزجاجي، شيخ العربية في عصره، توفي سنة 337 هـ. أنظر ترجمته في الأعلام، للزركلي 3: 299.

هو الرسول محل كـــــــــل عُلا ومدح سطـــــرا
وأدم له مدحا علـــى ما هوَّ أسدى للـــورى
صلى الإله على علا هُ مدى الدوام كما درى

وَمِقْدَارِهِ العَظِيم كمال سر الصلاه المسطوره هو ما حل محل الكمال، كما دراه أحد الكمل، والمراد سؤال دوام الصلاه على رسول الله على روحه السلام، وهو مساو لأكمل علاه، ولا مطمع لسوى الرسول لإدراك ما حواه سره، وحمله صدره، مما لا اطلاع لكل العوالم على حل طلسم أمره. أحرى الاطلاع على سره، وطالما حاول أولوا العلم الكامل، وأهل السر الهائل، الوصول لسر حامله، وما وصلوا إلى ساحله، والحاصل ما علم سره إلا الله، وهل سر مساو لواسع علاه، إلا دوام الصلاه ودوام إكرام الله له على روحه السلام.

وهاك محصل ما حرر لدى حل كلم الصلاه المسطوره وهو: **اللهم** هو أحد أسماء الله الكرام **صل** سأل الله إعطاء الرحمه ودوام الإكرام على **سيدنا** هو **محمد** محمود الأعمال الكامل الأحوال **الفاتح** الحال لكل سر وعلم وحكم وطلسم وحكمه، **لما أغلق** أمره على العلماء والحكماء وكل ما اطلعوا على سره، **والخاتم** للرسل والمكمل **لما سبق** لدى أول كل أمر **ناصر** الله **الحق بالحق** الله أو ناصر الحق وهو الهدى بالحق، وهو الله، أو العكس، والمراد الرسول المصحح للهدى، والمورد على الصحه أكمل الأدله **والهادي إلى صراطك المستقيم** الدال على مسلك هداك السواء **وعلى آله** هم أولاده وأهله ورهطه، أو سائر الأمه **حق** كمال **قدره** لا حصر له وكمال علو **ومقداره العظيم** الواسع الحاصر لكل ما سوى الله، ولا اطلاع على علاه سواه، وحاصله لا مطمع لأحد للوصول إلى مداه على سره السلام، وأسأل الله وداد الرسول، وإدراك السول، وكمال السعاده، ودوام الآلاء والسرور كما أراده، وهو المسؤول لحصول المامول، والحمدلله وحده، ولا محمود سواه على طول كل مده، وصلى الله و سلم على إمام الرسل و أهل الصلاح، أصل الكرم و السماح، حامل لواء الحمد، وعلى آله، وكل امرئ والاه مدى الدوام.

ال[illegible]ر ال[illegible]اس!
من حلي المعا[illegible]!

للعلامة سيدي أحمد سكيرج رضي ا عنه

تحقيق ذ محمد الراضي كنون
الإدريسي الحسني

الثغر الباسم من حلي المعاصم[1]

بسم الله الرحمن الرحيم و صلى الله على سيدنا محمد و آله و صحبه و سلم تسليما.
الحمد لله يحكم بالعدل قطعا. و يجزي كل نفس بما تسعى. و إليه المعاد و الرجعى. والصلاة والسلام على أفضل من أوتي الحكمة و فصل الخطاب. و على آله و جميع الصحاب. و من تبعهم بإحسان إلى يوم الحساب. و بعد فهذه حواش لطيفة. و فوائد منيفة. و فرائد شريفة. ترتاح بها النفوس. و تتحلى بها الطروس. و تتزين بها الدروس. جعلتها على شرح العلامة المحقق. الدراكة المدقق. أبي عبد الله سيدي محمد التاودي بن سودة[2]. على منظومة الإمام بن عاصم المسماة: حلي المعاصم على بنات أفكار ابن عاصم. و سميتها الثغر الباسم من حلي المعاصم. و الله المسؤل أن يجعلها لوجهه خالصة. و عن كل ما يسخط المولى قالصة. إنه ولي ذلك و القادر عليه. قول توي **بسم الله الرحمن الرحيم:** اعلم أن الكلام على البسملة أفرد بتآليف عديدة. في بابها مفيدة. فلا نطيل هنا بما هو مشهور. و في الحواشي و الشروح المتداولة مسطور. و هي وإن كان الكلام عليها طويل الذيل. فما لا يدرك كله لا يترك بعضه أو جله. أداء لحقين.

الأول حق البسملة على الطالب في الفن المشروع فيه. فقد نص العلماء على أنه ينبغي له أن يتكلم على البسملة بما يناسبها في ذلك الفن. لأن جميع العلوم بها مرتبطة. **الثاني** حق الفن عليه ليلا يخلو الفن من شيء من بركتها، فقد ورد في الحديث عنه عليه السلام أنه قال: كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم فهو أجذم. و في رواية أقطع. و في رواية أبتر[3]. و ذلك كناية عن عدم الإنتفاع بما لم يذكر إسم الله عليه. لنقصانه في المعنى. و لو تم حسا. فأقول: ذكر بعضهم أن السر في الإتيان بالاسم بين. و اسم الجلالة هو الفرق بين اليمين و التيمن. و ينظر في هذا قول البغدادي في اختصار قواعد القرافي ما نصه: قال صاحب الخصال الأندلسي[4]: يجوز الحلف بقولك بسم الله، و تجب به الكفارة. قال القرافي: هذه المسألة فيها جور. بسبب أن الإسم هاهنا إن أريد به المسمى استقام الحكم، و إن لم يرد به المسمى فقد حكى ابن السيد البطليوسي أن العلماء اختلفوا في لفظ الإسم هل هو موضوع للقدر المشترك بين أسماء الذوات فلا يتناول إلا لفظا هو إسم أو وضع في اللغة للقدر

---

[1]- من عداد مؤلفاته غير التامة، ابتدأ في كتابته له بتاريخ 5 جمادى الثانية عام 1325 هـ.

[2]- محمد التاودي ابن سودة المري، من أبرز علماء عصره، له مؤلفات كثيرة، توفي في شهر ذي الحجة الحرام سنة 1209 هـ. أنظر ترجمته في شجرة النور الزكية لمخلوف 1: 533_534 رقم الترجمة 1497. الإعلام بمن حل مراكش و أغمات من الأعلام 6: 136. الروضة المقصودة في مآثر بني سودة، لسليمان الحوات، في جزءين، سلوة الأنفاس، لمحمد بن جعفر الكتاني 1: 112. الأعلام للزركلي 7: 40. معجم المؤلفين 1: 125. فهرس الفهارس، لعبد الحي الكتاني 1: 256.

[3]- سبق تخريج هذا الحديث ضمن هذا الجزء ص

[4]- محمد بن مسعود بن طيب بن فرج بن أبي الخصال الغافقي الأندلسي. شاعر أديب وزير، يلقب بذي الوزارتين. له مؤلفات كثيرة منها: ظل الغمامة. و منهاج المناقب. و مجموعة ترسله و شعره (في خمس مجلدات) و غيرها. توفي بقرطبة سنة 540 هـ. أنظر ترجمته في الأعلام للزركلي 7: 95. جذوة الإقتباس، لابن القاضي 1: 257 رقم الترجمة 263.

المشترك بين المسميات فلا يتناول إلا مسمى، إلى أن قال: و إذا فرعنا على هذا وقلنا الإسم موضوع للقدر المشترك بين الأسماء و أن مسماه لفظ حينئذ فينبغي أن لا تلزم به كفارة إذا حلف به. و أن لا يجوز الحلف به إلى أن قال: و إن قلت هو موضوع للقدر المشترك بين المسميات و القاعدة أن الدال على الأعم غير دال على الأخص وما يكون كذلك لا يحلف به. و لا يكون قسما إلا بنية أو عرف ناقل. و لا واحد منها هاهنا. فلا تجب كفارة إذا لم يتعين صرف اللفظ لله تعالى[1].إهـ..

و اسم الجلالة اختلف فيه هل هو مشتق أو لا؟ و القول بعدم اشتقاقه أولى. و اتفق قول جماعة على أن أصله إله أسقطت منه الهمزة، ثم أبدلت بأل. فلذلك لا تزال منه في النداء كما في الألفية:

و باضطرار خص جمع يا و أل إلا مع الله و محكي الجمل[2]

قال ابن جرير الطبري بعد أن ذكر نحو ذلك من أن اسم الجلالة الله من كلام العرب أصله الإله ما نصه: فإن قال قائل: و كيف يجوز أن يكون ذلك كذلك مع اختلاف لفظيهما. قيل كما جاز أن يكون قوله: لكن هو الله ربي[3]، أصله لكن أنا الله ربي، كما قال الشاعر:

و ترمينني بالطرف أي أنت مذنب و تقلينني لكن إياك لا أقلي

يريد (لكن أنا إياك لا أقلي) فحذف الهمزة من (أنا) فالتقت نون (أنا) و نون (لكن) وهي ساكنة. فأدغمت في نون أنا. فصارتا نونا مشددة، فكذلك الله أصله الإله، أسقطت الهمزة التي هي فاء الإسم، فالتقت اللام التي هي عين الإسم و اللام الزائدة التي دخلت مع الألف الزائدة. و هي ساكنة، فأدغمت في الأخرى التي هي عين الإسم، فصارتا في اللفظ لامًا واحدة مشددة، كما وصفنا من قول الله عز و جل: لكن هو الله ربي[4]. إهـ..

تنبيه ذكر بعضهم أن هذا الإسم إذا خلا عن المد الطبيعي في اللفظ لا تنعقد به اليمين. و لا يجزئ في تكبيرة الإحرام. لأنه لحن جلي. و أما ما ورد في كلام العرب مما يقتضي جواز عدم المد فهو محمول على الضرورة، و ذلك مثل قول الشاعر:

قد جاد سيل جاء من عند الله بجود جود الجنة المغله

---

[1]- أنظر أنوار البروق في أنواع الفروق، للقرافي (الفرق 127) بين قاعدة ما يوجب الكفارة إذا حلف به من أسماء الله تعالى، و بيان قاعدة ما لا يوجب. 3: 59.

[2]- البيت من ألفية ابن مالك، و هو البيت رقم 583.

[3]- سورة الكهف، الآية 38.

[4]- أنظر جامع البيان في تفسير القرءان، للطبري، سورة الفاتحة. الآية الأولى، بسم الله الرحمن الرحيم.

و قول الآخر:

ألا لا بارك الله في سهيل إذا ما الله بارك في الرجال

و الذي تحصل لي عندي أن اليمين تنعقد به لأنها على نية المستحلف طبق ما قيل في غير ما تنعقد به فضلا عن هذا الإسم، و حذف مده لغة لا معنى لجعله ضرورة، وهو في كلام العرب وإلا فكل ما جاء في النظم يصح إدعاء ضروريته. و الرحمان الرحيم صفتان لإسم الجلالة. و قيل الأول بدل. لأنه علم. و اختاره جمع من علماء العربية. و الرحمن عربي الوضع. و قيل معرب الرخمان. بالخاء المعجمة من اللغة العبرانية، و اختلف هل هو مشتق، كما اختلف أيضا في الرحيم، و التحقيق أن الأسماء غير مشتقة من شيء. و يدل لهذا حديث قدسي: إني أنا الرحمن لا إله إلا أنا خلقت الرحم و شققت لها إسما من إسمي. فمن وصلها وصلته. و من قطعها قطعته[1].

وقدم إسم الجلالة عليهما لأن جميع الخلائق تعرفه بأنه هو الله. قال تعالى و لئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله[2]، و أما قول بعضهم قدم لدلالته على الذات فيقال عليه إسم ما بعده يدل عليها أيضا اللهم إلا إذا قصد الإختصاص به فنعم، لكن قولهم الرحمن إذا كان معرفا مختص بالله يعكر في توجيه التقديم، و الصواب غير مختص به كما ستعرفه.

قال الإمام ابن جرير فيما حدثه به عمران بن بكار الكلاعي قال: حدثنا يحيى بن صالح قال: حدثنا أبو الأزهر نصر بن عمر اللخمي من أهل فلسطين قال: سمعت عطاء الخراساني[3] يقول: كان الرحمن، فلما اختزل الرحمن من اسمه كان الرحمن الرحيم. و الذي أراد إن شاء الله عطاء بقوله هذا: أن الرحمن كان من أسماء الله التي لا يتسمى بها أحد من خلقه، فلما تسمى به الكذاب مسيلمة و هو اختزاله إياه يعني اقتطاعه من أسمائه لنفسه، أخبر الله جل ثناؤه أن إسمه الرحمن الرحيم ليفصل بذلك لعباده اسمه من اسم من قد تسمى بأسمائه. إذا كان لا يسمى أحد الرحمن الرحيم، فيجمع له هذان الاسمان غيره جل ذكره. و إنما تسمي بعض خلقه إما رحيما أو يتسمى رحمانا، فأما رحمان رحيم فلم يُجْمَعَا قط لأحد سواه. و لا يجمعان لأحد غيره. فكأن معنى قول عطاء هذا: أن الله جل ثناؤه إنما فصل بتكرير الرحيم على الرحمن بين إسمه و اسم غيره من خلقه، اختلف معناهما أو اتفقا. و الذي قال عطاء من ذلك غير فاسد المعنى بل جائز أن يكون جل ثناؤه خص نفسه بالتسمية بهما معا مجتمعين إبانة لها من خلقه ليعرف عباده بذكرهما مجموعين أنه المقصود بذكرهما دون من سواه من خلقه. مع ما في تأويل كل واحد منهما من المعنى الذي ليس في الآخر منهما. و قد زعم بعض أهل الغباء أن العرب كانت لا تعرف الرحمن و لم يكن ذلك في لغتها. ولذلك قال

---

[1]- أنظره في مسند الإمام أحمد (حديث عبد الرحمن بن عوف) 1: 313 رقم 1671، رقم 1692، رقم 1693، رقم 1698 سنن الترمذي (كتاب البر و الصلة) باب ما جاء في قطيعة الرحم رقم 1911. مجمع الزوائد، للهيثمي (كتاب البر و الصلة) باب صلة الرحم و قطعها 8: 275 رقم 13447.

[2]- سورة الزخرف، الآية 87.

[3]- عطاء بن ميسرة الخراساني، مفسر، له مؤلفات، توفي ببيت المقدس سنة 135 هـ، أنظر ترجمته في الأعلام، للزركلي 4: 235. شذرات الذهب، لابن العماد 1: 192.

المشركون للنبي صلى الله عليه و سلم: و ما الرحمن أنسجد لما تأمرنا[1]. إنكارا منهم لهذا الإسم. كأنه كان محالا عندهم أن ينكر أهل الشرك ما كانوا عالمين بصحته. أو كأنه لم يتل من كتاب الله قول الله: الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه[2]. يعني محمدًا كما يعرفون أبناءهم. و هم مع ذلك به مكذبون. و لنبوته جاحدون، فيعلم بذلك أنهم قد كانوا يدافعون حقيقة ما ثبت عندهم صحته. و استحكمت لديهم معرفته. و قد أنشد لبعض الجاهلية الجهلاء

ألا ضربت تلك الفتاة هجينها ألا قضب الرحمن ربي يمينها[3]

و قال سلامة بن جندل الطهوي[4]:

عجلتم علينا عجلتينا عليكم و ما يشاء الرحمن يعقد و يطلق[5]

إهـ...[6] و اعلم أن الشارح رحمه الله و جماعة من شراح هذا النظم لم يتكلموا على بسملة الناظم حتى كأنه لم يبتدأ بها نظمه و ذلك منهم رحمهم الله إما سهو و إما اختصار و اكتفاء عن ذكر ما هو مقرر في غير ما تأليف و الله أعلم.

قوله **الحمد لله** لا يخفى أن الشارح بسط بعض كلام على الحمد لله من كلام الناظم، فلا فائدة في تكرار ذلك إلا لزيادة إيضاح، و ذلك يأتي إن شاء الله في تعرضه للكلام على ذلك. إلا أننا نقول أتى الشارح هنا بهذه الجملة اقتداء بالكتاب العزيز. و امتثالا للأمر المقدر على بعض التأويلات في حمدلة الفاتحة. مع الإشارة إلى استغراق جميع المحامد لله بهذه الجملة المصورة بأل. قال الإمام ابن جرير: فإن قال لنا قائل و ما وجه إدخال الألف و اللام في الحمد؟ و هلا قيل: حمدا لله رب العالمين، قيل لدخول الألف و اللام في الحمد معنى لا يؤديه قول القائل حمدا بإسقاط الألف و اللام. و ذلك أن دخولهما في الحمد منبئ على أن معناه جميع المحامد و الشكر الكامل لله. و لو أسقطتا منه لما دل إلا على أن حمد قائل ذلك لله، دون المحامد كلها، إلى أن قال: حمد الله نفسه وأثنى عليها بما هو له أهل، ثم علَّم ذلك عباده، وفرض عليهم تلاوته، اختبارا منه لهم و ابتلاء، فقال لهم: قولوا (الحمد لله رب العالمين) وقولوا (إياك نعبد و إياك نستعين) إلى أن قال: فإن قال: و أين قوله: (قولوا) فيكون تأويل ما ادعيت. قيل: قد دللنا فيما مضى أن العرب من شأنها إذا عرفت مكان الكلمة و لم تشك أن سامعها يعرف بما أظهرت من منطقها ما حذفت حذف ما كفي منه الظاهر من منطقها، و لا سيما إن كانت تلك الكلمة التي حذفت قولا أو تأويل قول كما قال الشاعر:

---

[1]- سورة الفرقان، الآية 60.

[2]- سورة البقرة، الآية 146.

[3]- البيت للشاعر الجاهلي عمرو بن مالك الأزدي الشنفري، المتوفي حوالي سنة 70 قبل الهجرة.

[4]- سلامة بن جندل بن عبد عمرو التميمي، شاعر جاهلي، من أهل الحجاز، توفي حوالي سنة 23 قبل الهجرة، له ديوان شعري. أنظر ترجمته في الأعلام للزركلي 3: 106. معجم المطبوعات، لسركيس 1037. الشعر و الشعراء، لابن قتيبة 87.

[5]- البيت للشاعر الجاهلي سلامة بن جندل الطهوي، من قصيدة قافية افتتحها بقوله:

لمن طَلَلُ مثل الكتاب المنمق خلا عهدُهُ بين الصُلَيْبِ فَمُطْرِق

[6]- أنظر جامع البيان في تفسير القرءان، للطبري، سورة الفاتحة، الآية 1، بسم الله الرحمن الرحيم.

و أعلم أنني سأكون رمسا إذا سار النواعج لا يسير
فقال السائلون لمن حفرتم فقال المخبرون لهم وزير

قال أبو جعفر: يريد بذلك: فقال المخبرون لهم: الميت وزير، فأسقط (الميت) إذا كان قد أتى من الكلام بما يدل على ذلك[1]. إهـ...

قوله **الحكم، لله** در الشارح في هذه الخطبة. فقد طرزها من فن البديع ببراعة الإستهلال، وهي أن يأتي المتكلم في أول كلامه بما يشعر بمقصوده بفتحتين لغة في الحاكم، و منه قول الفرزدق:

ما أنت بالحكم الترضى حكومته و لا الأصيل و لا ذي الرأي و الجدل

و هو يطلق على الله، و على كل من له حكومة، و قالت الخوارج: لا حكم إلا الله حين خرجوا على سيدنا علي رضي الله عنه. بعدما كانوا من أصحابه، فلما سمع بذلك رضي الله عنه قال: كلمة حق أريد بها باطل[2]. و إنما مذهبهم أن لا يكون أمير. و لا بد من أمير برا كان أو فاجرا. وقضية التحكيم مشهورة فلا نطيل بذكرها.

قوله: **العدل** مصدر في الأصل بمعنى عادل. و يقال رجل عدل رضي و مقنع في الشهادة. وسئل العارف بالله القطب الرباني سيدنا و مولانا أحمد التجاني. نفعنا الله به و سقانا من بحره العرفاني. عن معنى هذا الإسم، فأجاب رضي الله عنه بقوله كما في جواهر المعاني: العدل الإلاهي هو إعطاؤه لكل شيء من نفسه على طبق ما سبق له في العلم الأزلي. بميزان يستحيل عليه النقص والزيادة، فهذا معنى اسمه العدل هـ.

قوله: **لا معقب لحكمه و لا مرد لقضائه** في بعض النسخ و لا راد. إلخ.. و القضاء بمعنى الحكم. وتعقب الحكم هو البحث فيه للقبول أو الرد. و الله تبارك و تعالى منزه عمن يبحث في أقواله ويردها عليه. فحكمه نافذ لا يسئل عما يفعل.

قوله: **على أفضل من أوتي الحكمة.** إلخ.. من المعلوم أن الله تبارك و تعالى كما في نص الكتاب يوتي الحكمة من يشاء، و من يوت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا[3]. و لا يخفى أن من أوتي الحكمة فهو أفضل ممن لم يوتيها. و النبي صلى الله عليه و سلم أفضل من أوتيها، و قد تكلم كثير من العلماء في اشتقاق الحكمة و تفسيرها. و سنذكر هنا شيئا من كلامهم فأقول:

إذا كان شكري نعمة الله نعمة علي له في مثلها يجب الشكـــــر

[1]- أنظر جامع البيان في تفسير القرءان، للطبري، سورة الفاتحة، الآية 2، الحمد لله رب العالمين.
[2]- من حديث طويل رواه الإمام مسلم في صحيحه (كتاب الزكاة) باب التحريض على قتل الخوارج رقم 2421.
[3]- سورة البقرة، الآية 229.

فكيف بلوغ الشكر إلا بفضلـه و إن طالت الأيام و اتصل العمر [1]

و قول الناظم **و من جزيل طوله يؤتى الحكم.** الجزيل في المختار [2] الجزيل العظيم، وعطاء جزل و جزيل، و أجزل له في العطاء أي أكثر هـ و الطول بالفتح المن، يقال طال عليه من باب، قال وتطول عليه أي امتن عليه. و معنى يوتى يعطى، يتعدى لمفعولين المفعول الأول هو الحكمة، و الثاني محذوف تقديره من يشاء. و حذف المعمول يوذن بالعموم. و الحكم جمع حكمة. و في تفسير الحكمة أقوال. فجمهور المفسرين أن المراد بها الفقه في قوله تعالى: يوتي الحكمة من يشاء. الآية.. والأصح أنها العلم النافع. و قيل الحكمة الموعظة. و لذلك لقب سيدنا لقمان بالحكيم. سواء كانت الموعظة من شعر أو غيره من الأقوال. و من الأول قوله صلى الله عليه وسلم: إن من الشعر لحكمة[3]. و قيل الحكمة هي العمل بالعلم أو ما ينشأ عنه من الذوق. فالحكمة مقامها أعلى من العلم و من العمل به. و قد أجاد القائل في قوله:

إنما المرء كالزجاجة و العـــــــــــــلم سراج و حكمة الله زيـــت
فإذا أسرجت فإنك حـــــــي و إذا أظلمت فإنك ميــــــت[4]

و قيل الحكمة هي علم الله و حكمه. و قال الشيخ الأزهري في شرحه للبردة عند قولها:

و كلهم من رسول الله ملتمس غرفا من البحر أو رشفا من الديم
وواقفون لديه عند حــــــدهم من نقطة العلم أو من شكله الحكم[5]

الحكم بكسر الحاء و فتح الكاف جمع حكمة بفتحتين. مأخوذ من حكمة اللجام. لأنها تمنع الفرس من الجماح. و يسمى العالم حكيما لأنه يمنع من الخطأ. إهـ.. و قيل الحكمة هي إحكام الأحكام بالعقول. وتصحيح المنقول بالمعقول. و هذا مذهب الفلاسفة. و يقال فيهم الحكماء. وحكمت المعتزلة العقل. وقال الإمام فخر الدين الرازي: الحكمة عند الماتريدية بمعنى إتقان العمل. أي خلق كل شيء على ما هو به، ووضعه في محله اللائق به صفة أزلية لله تعالى. ومن هنا قالوا: أفعاله تعالى لا تخلوا عن حكمة. بمعنى ما له عاقبة و ضدها السفه. و ذهبت

---

[1]- البيتان للشاعر محمود بن حسن الوراق، أحد شعراء العصر العباسي، قالهما في مطلع أربع أبيات، وتتمتها كالتالي:

إذا مس بالسراء عم سرورها و إن مس بالضراء أعقبها الأجـر
و ما منهما إلا له فيه نعمـــة تضيق بها الأوهام و البر و البحر

[2]- إشارة لكتاب مختار الصحاح (في اللغة) للعلامة محمد بن أبي بكر الرازي.

[3]- أنظره في صحيح ابن حبان (باب الشعر و السجع) ذكر البيان بأن عموم هذا الخطاب في خبر أبي هريرة أريد به بعض ذلك العموم لا الكل 5: 380 رقم 5680. مجمع الزوائد، للهيثمي (كتاب الأدب) باب إن من الشعر حكمة 8: 228 رقم 13324، رقم 13325، رقم 13326، رقم 13327. مسند الطيالسي (أحاديث أبي بن كعب) 1: 76 رقم 556، رقم 557.

[4]- البيتان للفيلسوف الشهير ابن سينا، افتتحهما ببيت ثالث لم يذكره المؤلف و هو:

هذب النفس بالعلوم لترقى و خذ الكل فهي للكل بيت

[5]- البيتان للعارف بالله الشيخ محمد بن سعيد البوصيري، قالهما ضمن قصيدته المعروفة بالبردة، ورقمهما 38 و 39.

الأشعرية إلى أن الحكمة بالمعنى الأول ليست صفة أزلية لله تعالى، لأنها تؤل إلى كونها صفة فعل. وصفات الأفعال عندهم حادثة، و فسروا الحكمة اللازمة لأفعاله تعالى بوقوع الشيء على قصد فاعله. وضدها السفه. و على هذا الإختلاف في تعليل قوله تعالى: لا يسأل عما يفعل[1].

فعند الماتريدية[2] لأنه حكيم بمعنى أنه يفعل ما له عاقبة حميدة. و إن كنا نجهل حمد عاقبة بعض أفعاله. و عند الأشعرية لأنه المالك المطلق. و المالك المطلق يفعل كيف يشاء. و لا يسأل عما يفعل. إهـ..

و لكل من الفريقين وجهة. فالماتريدية على قدم روح الله عيسى عليه السلام حيث قال: إن تعذبهم فإنهم عبادك، و إن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم[3] لم يمدحه على التعذيب، ومدحه على المغفرة، حيث أن الحكمة للعزيز القادر تقتضي المغفرة لأولئك المذنبين، و وجهه أن معاقبة المذنب إنما هي لردعه عن العود لمثل ذلك الذنب، أو لزجر غيره عن الوقوع لمثله، أو للتشفي من الذنب، و في الآخرة لا يتأتى عود المذنب لذنبه. و لا اقتراف غيره مثله. و لا فائدة للباري تعالى في تعذيب من خلقهم ضعافا. و صرح بذلك حيث قال: و خلق الإنسان ضعيفا[4]. ووضع فيهم الشهوة. و جعلها غالبة على عقولهم. فضلا عن كونه قدَّر ذلك عليهم أزلا. والأشعرية على قدم كليم الله موسى عليه السلام. حيث قال: إن هي إلا فتنتك[5] و لم يرد الباري عليه. إهـ... من شروح عبد الرؤوف المناوي المتوفي سنة 1031هـ على قصيدة النفس[6] لابن سينا. و قال الشيخ ابن قرقماس[7] عند التكلم على اسم الله الحكيم ما ملخصه: واعلم أن الحكمة عبارة عن كونه مقدسا عن فعل ما لا ينبغي، قال تعالى: أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا و أنكم إلينا لا ترجعون[8] وقال: ما خلقنا السماء و الأرض وما بينهما باطلا[9]، قالت المعتزلة: إذا كانت كل المنكرات بإيجاده وإرادته، فأين الحكمة؟ قلنا الباطل هو التصرف في ملك الغير، فمن تصرف في ملك نفسه فأي فعل فعله كان حكمة، و اعلم بأن الحكيم و الحكمة عبارة عن معرفة أفضل الأشياء. وأفضل العلوم العلم بالله. و أجل الأشياء

---

[1]- سورة الأنبياء، الآية 23.

[2]- الماتريدية فرقة كلامية تنسب للشيخ محمد بن محمد بن محمود الماتريدي السمرقندي نشأت هذه الفرقة عند مطلع القرن الرابع الهجري و قامت على استخدام البراهين و الدلائل العقلية والكلامية في محاججة خصومها من الفرق الضالة كالمعتزلة و الجهمية و غيرهما و استطاعت الإنتشار في بلدان مختلفة من العالم الإسلامي و احتلت به مكانة سامية لدى كبار الفقهاء.

[3]- سورة المائدة، الآية 118.

[4]- سورة النساء، الآية 28.

[5]- سورة الأعراف، الآية 155.

[6]- قصيدة النفس للفيلسوف الشهير ابن سينا، تقع في 19 بيتا، قال في مطلعها:

هبطت إليك من المحل الأرفع ورقاء ذات تعزز و تمنـــــع

محجوبة عن كل مقلة عـارف و هي التي سفرت و لم تتبرقع

[7]- المراد به الشيخ محمد بن قرقماس الناصري، صاحب كتاب: المقامات الفلسفية و الترجمانات الصوفية، توفي سنة 882 هـ، بموطنه القاهرة، و بها دفن، أنظر ترجمته في الأعلام للزركلي 7: 10.

[8]- سورة المومنون، الآية 115

[9]- سورة ص، الآية 27

هو الله تعالى. و لا يعرف كنز معرفته غيره. و جلالة العلم بقدر جلالة المعلوم، فهو الحكيم الحق. لأنه يعلم أجل الأشياء بأجل العلوم. إذ أجل العلوم هو العلم الأزلي الدائم. الذي لا يتصور زواله المطابق للمعلوم مطابقة لا يتطرق إليه خفاء و لا شبهة. و لا يتصور بذلك إلا علم الله عز و جل.

فمن حكمته التي لا يعرف وجهها ولا كنهها إلا هو تخصيصه قوما بالسعادة في الأزل من غير سبب سابق. و تخصيصه قوما بالشقاوة في الأزل من غير سبب سابق أيضا. بل جف عليهم القلم في حق الفريقين بما تعلق به العلم القديم. و إليه الإشارة بقوله تعالى: أولائك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم[1]، و قوله تعالى في حق ابن باعورا[2]: و لو شئنا لرفعناه بها[3]. جاء في قصته أنه كان يرى من الثرى إلى ملكوت السماوات. و كان يعرف الإسم الأعظم. ثم قال في حقه: فمثله كمثل الكلب[4]. فانظر كيف أبرَزه في صورة أوليائه. ثم لما كان من خفي حكمته أنه من أعداء الله قال في حقه اخرا: فمثله كمثل الكلب. و كلب أصحاب الكهف لما كان من خفي حكمته أن يكون من جملة أوليائه. و زمرة أصفيائه. أبرزه في صورة الكلب، ثم قال في حقه: ورابعهم كلبهم[5]. وجعله في تعدادهم. و قال جل و علا: و كلبهم باسط ذراعيه بالوصيد[6]. دل أنه لا عبرة بالخلقة ولا اعتماد بالصورة. بل بالعبرة لسابق الحكم والحكمة.

و قال أبو علي الدقاق[7]: لما صرفوا ذلك الكلب و لم ينصرف أنطقه الله و قال: لما تصرفوني. إن كانت لكم إرادة فلي أيضا إرادة. و إن كان خلقكم فقد خلقني. فازدادوا بكلامه إيمانا. و في قوله: وربطنا على قلوبهم إذ قاموا[8]. فقالوا: إرادته زيادته يقينهم بكلام الكلب. ثم أنهم لما سمعوا كلامه اتفقوا على استصحابه معهم. إلا أنهم قالوا يستدل علينا بأثار أقدامه. فالحيلة أن نحملوه. فحمله الأولياء على أعناقهم و هم يمشون. و هذا عندما أدركته العناية الأزلية حملته أولياء الله على أعناقهم. و تناوبوا حمله. و الحظ إبليس الذي لم يكن في الملائكة أعلا قدرا ولا أجل رتبة منه. فلما كان في حكم الأزلي شقاوته سابقة. فلما ظهر فيه الحكم أبعد و لعن

---

[1]- سورة المائدة، الآية 41.

[2]- بلعم بن باعورا، كان من كبار علماء بني إسرائيل، قيلت فيه أقوال كثيرة، من ذلك ما جاء في الدر المنثور في التفسير بالمأثور، للسيوطي. قال: و أخرج ابن المنذر و ابن أبي حاتم عن مالك ابن دينار قال: بعث موسى نبي الله بلعم بن باعورا إلى ملك مدين يدعوهم إلى الله، و كان مجاب الدعوة، و كان من علماء بني إسرائيل، فكان موسى يقدمه في الشدائد، فأقطعه و أرضاه، فترك دين موسى و تبع دينه، فأنزل الله: و اتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها. إهـ.. أنظر الدر المنثور، للسيوطي. سورة الأعراف، الآية 175.

[3]- سورة الأعراف، الآية 176.

[4]- سورة الأعراف، الآية 176.

[5]- سورة الكهف، الآية 22.

[6]- سورة الكهف، الآية 18.

[7]- الحسن بن علي بن محمد الدقاق النيسابوري الشافعي، فقيه صوفي أصولي، من آثاره: كتاب الضحايا. توفي سنة 405 هـ، أنظر ترجمته في معجم المؤلفين، لكحالة 3: 261. شذرات الذهب، لابن العماد 3: 180_181. كشف الظنون، لحاجي خليفة 2: 1434.

[8]- سورة الكهف، الآية 14

وطرد من رحمته عن حسن خلقة الملائكة إلى أقبح صورة الشيطانية. فلعنه من يعرفه و من لم يعرفه. فنسأل الله حسن الخاتمة. إهـ...

فالحظ قدر هذه الفائدة أيها الطالب و استحضر ذهنك في تحصيلها. و على الله قصد السبيل. وقيل الحكمة هي التوغل في سر الربوبية المعنى بقول بعض الكمال:

يا رب جوهر علم لو أبوح بــه	لقيل لي أنت ممن يعبد الوثنا
و لا استحل رجال مسلون دمي	يرون أقبح ما يأتونه حسنــا[1]

و قيل الحكمة هي تحصيل التصرف بالأسماء و الظفر بسر الطب و الكيمياء. و هذا التفسير مع ما قبله قيل هو المقصود بقوله عليه السلام: لا تمنحوا الحكمة غير أهلها فتظلموها و لا تمنعوها أهلها فتظلموهم[2]. و الحق أنها تفسر في كل مقام بحسبه. ويكفيك في الإغراء على تحصيلها قوله تعالى: من يوت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا[3]. و عنه صلى الله عليه و سلم أنه قال: الحكمة تزيد الشريف شرفا و ترفع المملوك حتى تجلسه مجالس الملوك[4]. و الله الموفق.

ثم اعلم أن في هذا البيت الذي هو مطلع هذه الأرجوزة فائدتان. الفائدة الأولى تتعلق بقوله يوتي الحكمة. و الثانية من قوله: من جزيل طوله. أما الأولى ففيه من أنواع البديع الإقتباس لأنه مقتبس من قوله تعالى يوتي الحكمة من يشاء الآية. و الإقتباس كما في التلخيص وشرحه أن يضمن الكلام نثرا أو نظما شيئا من القرآن أو الحديث. أي على وجه لا يكون فيه إشعار بأنه من قرآن أو حديث. إهـ...

و خصه بعضهم بالقرآن دون غيره و لو كان حديثا. و يجوز الاقتباس ببعض التغيير كما فعل الناظم. و ليس فيه نقل القرآن بالمعنى كما يظن. لأنه لم يقل فيه قال الله ما معناه. إذ هذا غير جائز قطعا. كما نص عليه الشيخ الزرقاني عن بعض شيوخه. والإقتباس عندهم على ثلاثة أقسام. القسم الأول محمود مقبول. و هو ما كان في الخطب و المواعظ و العهود و مدح النبي

---

[1]- البيتان لسيدي علي زين العابدين رضي الله عنه، و للشيخ العارف بالله الحلاج بيتان على هذه الشاكلة، غالبا ما يذكران مع هذين البيتين، و نص الجميع:

إني لأكتم من علمي جواهــره	كي لا يرى العلم ذو جهل فيفتتنا
و قد تقدم في هذا أبو حســن	إلى الحسين و وصى قبله الحسنا
يا رب جوهر علم لو أبوح بــه	لقيل لي أنت ممن يعبد الوثنــا
و لاستحل رجال مسلمون دمي	يرون أقبح ما يأتونه حسنــا

[2]- أنظره في المستدرك، للحاكم النيسابوري (كتاب الأدب) 4: 301 رقم 7780. جامع الأحاديث والمراسيل (الإكمال من الجامع الكبير) حرف الهمزة 3: 130 رقم 7714. منتخب عبد بن حميد 1: 225 رقم 675.

[3]- سورة البقرة، الآية 229.

[4]- أنظر جامع الأحاديث و المراسيل (حرف الهمزة مع النون) 2: 225 رقم 5019 (حرف الحاء المحلى بأل) 4: 249 رقم 11400. الفتح الكبير في ضم الزيادة إلى الجامع الصغير (حرف الهمزة) 1: 298 رقم 3020. كنز العمال، للمتقي الهندي (المجلد العاشر) 1: 1981 رقم 28742.

صلى الله عليه و سلم و آله و صحبه ورضي الله عنهم. و الثاني مباح مبذول و هو ما كان في القصص و الرثاء والرسائل و نحو ذلك. و الثالث مذموم مرذول. و هو على ضربين. أحدهما ما نسبه الله لنفسه ونعوذ بالله ممن ينقله إلى نفسه. كما نقل عن أحد أمراء بني مروان أنه وقع على بطاقة فيها شكاية من بعض عماله قال فيها: إن إلينا إيابهم ثم إن علينا حسابهم[1]. ثانيهما تضمين آية في هزل و نعوذ بالله من ذلك كقول بعض الشعراء:

أوحى إلى عشاقه طرفه　　　هيهات هيهات لما توعدون
وردفه ينطق من خلفــه　　　لمثل ذا فليعمل العاملــون[2]

و قول ابن نواس:

خط في الأرداف سطر　　　من بديع الشعر موزون
لن تنالوا البر حتــــى　　　تنفقوا مما تحبــــون[3]

و هذا حرام يخشى على فاعله الكفر. و مما صرح به فقهاؤنا بأنه لا يجوز ما كان على ضرب مثل في المجاوبات. كما فعلته امرأة من أهل التصوف. قال الشيخ الزرقاني: و انظر هل المعنى لا يجوز الحرمة أو الكراهة. إهـ...

الفائدة الثانية في قوله: و من جزيل طوله براعه استهلال و هي في البديع الإتيان في أول الكلام بما يُشْعِر بمقصوده. يكون المطلع في النظم دالا على ما بنيت القصيدة عليه من غرض الشاعر كقول أبي تمام:

السيف أصدق إنباء من الكتب　　　في حده الحد بين الجد و اللعب[4]

لما كان بناه على الفتح و التحريض على الحرب. و كقولنا في مطلع مرثية:

ما بال صبرك بعد الحزم قد بهرا　　　و دمع نوحك طوفانا علام جرا[5]

---

[1]- سورة الغاشية، الآية 26.
[2]- البيتان للشاعر محمد بن حمير الهمداني، المتوفي سنة 651 هـ، أحد شعراء اليمن، من قصيدة نونية تقع في 45 بيتا، قال في مطلعها:

لون الرياحين و لين الغصون　　　أرخص مني كل دمع مصون
و عاذلي في لومه عاذلـــي　　　قلت لقد هونت ما لا يهـــون

[3]- قريب منه قول العلامة الشاعر عبدالله بن محمد المعروف بابن السيد البطليوسي:

قل لقوم لا يتوبـــون　　　و على الإثم يصرون
خففوا ثقل المعاصي　　　أفلح القوم المخفــون
لن تنالوا البر حتــى　　　تنفقوا مما تحبـــون

[4]- البيت للشاعر العربي أبي تمام، افتتح به قصيدة بائية تقع في 71 بيتا
[5]- من قصيدة للمؤلف رثى بها شيخه العلامة سيدي عبد المالك الضرير العلوي المتوفي سنة 1318 هـ.

و النثر كذلك كقول ابن خاقان في مطلع خطبة القلائد[1]. الحمد لله الذي راض لنا البيان. حتى انقاد في اعنتنا و شاد مثواه في أجنتنا. و كقول ابن حبيب الحلبي في أول خطبة كتابه نسيم الصبا[2]، أما بعد حمد الله الذي أعلى مقام أهل الأدب. و منه خطبة هذا الشرح. و إنما قيل لها براعة استهلال[3] لأن البراعة من بَرَعَ الرجل أي فاق أصحابه في العلم و غيره. و الاستهلال من استهل وجه الرجل إذا تلألأ من فرحه. فكما أن هذين المعنيين يدلان على فَوَقَانِ صاحبهما المتلبس بهما كذلك الكلام الذي في أوله ذلك قد فاق غيره مما لم يكن ذلك فيه. ثم إن براعة الإستهلال في كلام الناظم من قوله طوله لأن من أبحر هذا العلم بحر الطويل. فأتى بالطول الموافق للطويل في المادة لأجل براعة الإستهلال. لكن هذه البراعة هنا ناقصة غير تامة. فلذلك أثبت الناظم في طرره بدل هذا البيت قوله:

حمدا لمن بسط أبحر النعم ... و من مديد طوله يؤتي الحكم

قال الناظم هذا البيت أولى مما في الأصل لما فيه من براعة الاستهلال صدرا وعجزا. وعليه ثبتت الأصول المروية عني و بالله التوفيق. إهـ...

فبسط من البسط أي النشر. و يقال بسط و بصط. بالسين و الصاد. أي نشره و بأنه نصر. والبسط أيضا ضد القبض. و لله در القائل في القبض و البسط:

و في قبض كف الطفل عند ولادة ... دليل على الحرص المركب في الحي
و في بسطها عند المماة إشـــارة ... ألا فانظروني قد خرجت بلا شــــي[4]

و ستأتي زيادة في ترجمة البسيط على مادته إن شاء الله تعالى. و قوله الجمع يقال **نظمت** العقد أي جمعت لآلئه. و نظمت القوم ألفت بينهم. و كثر استعماله في جمع مخصوص. كجواهر العقد وكلم الشعر على وجه يستحسن. و في البردة:

فالدر يزداد حسنا و هو منتظم ... و ليس ينقص قدرا غير منتظم[5]

و قلت في منهج الدراية في نظم النقاية:

---

[1]- إشارة لكتاب: قلائد العقيان في محاسن الأعيان، لأبي النصر الفتح بن عيسى بن خاقان القيسي، المتوفي قتيلا سنة 535 هـ، قال عنه صاحب كتاب كشف الظنون: جمع فيه من شعراء المغرب طائفة، وذكر أشعارهم، و جعله على أربعة أقسام، الأول في الملوك، الثاني في الوزراء، الثالث في القضاة والعلماء، الرابع في الأدباء و الشعراء.

[2]- نسيم الصبا: من مؤلفات الحسن بن عمر ابن حبيب الحلبي، نسبة لمدينة حلب بسوريا، توفي سنة 779 هـ.

[3]- براعة الاستهلال: معناها أن يأتي الكاتب في صدر المكاتبة بما يدل على عجزها، فإن كان الكتاب بفتح أو ظفر أتى في مستهله بما يدل على التهنئة، و إن كان لتعزية أتى في أوله بما يشير إلى المواساة، أو في غير ذلك من المعاني أتى في أوله بما ينص عليه، ليعلم من مطلع الكتاب ما المراد و الغاية منه.

[4]- البيتان لمولانا علي كرم الله وجهه

[5]- هو البيت السابع و الثمانون من بردة المديح للإمام الشيخ محمد بن سعيد البوصيري

العلم بالنظم يروق معنى كالدر بالنظم يفوق حسنا[1]

و أما في الإصطلاح فهو ما ذكره الناظم و كتب عليه في الطرر ما نصه: هذا أحد حدود النظم وهو أسلمها. و إنما قدمت حده على حد الشعر لكونه كالجنس في تعريف الشعر ولأعميته أيضا. إهـ.. و ما حد به الناظم النظم هو في الجملة مثل حد أبي بكر القللوسي. وهو كما في ابن مرزوق[2]: الكلام الموزون الذي قصد وزنه فارتبط لمعنى وقافية. فما من قوله ما قصدت بمعنى القول الشامل لكلام العرب و غيرهم. وقوله قصدت فيه وزنا يخرج به الكلام المنثور و المتزن من غير قصد. كما وجدت آيات من القرآن و شيء من كلامه صلى الله عليه و سلم كذلك كما سيأتي إن شاء الله بسط ذلك في حد الشعر. لكن اختصاص النظم في الإصطلاح بالموزون بحث فيه الشيخ ابن مرزوق بأن ظاهر كلام الأئمة إطلاقه على تأليف الكلام مطلقا كما هو معناه لغة. ولذا يوجد في إطلاقاتهم مضافا للقرآن. فيقولون من وجوه المجاز نظمه إهـ... و يجاب عنه بأن المقصود بالموزون ما كان موزونا بميزان مخصوص. و أما ما يدخل في مطلق الوزن فيخرج بقوله قافية. لأن الكلام المسجع الداخل في معنى الوزن الذي هو تساوي نسبتين عددا و ترتيبا يقال في ما هو فيه كقافية الشعر فاصلة لا قافية. و يخرج به أيضا الموزون الغير المقفى مثل قولنا:

رب فتى كنت به مولعا و هم قلبي به قد كان منفرجـا
أهملته لما غدا متشاركا في الحب بين مبغضي و بيني

و يخرج بقوله: و معنى ما لا معنى له من الكلام كالبيت الثالث من قول القائل:

وجهك يا عمرو فيه طـــول و في وجوه الكلاب طـول
و الكلب يحمى على الموالي و لست تحمى و لا تصول
مستفعلن فاعلن فعولـــــن مستفعلن فاعلن فعـــــول
بيت كما أنت ليس فيـــــه معنى سوى أنه فضـــول[3]

و الحق أن ذلك كله أيضا نظم. و أما الشعر في اللغة فقد تقدم الكلام عليه. واصطلاحا هو النظم من كلام العرب. أو ما وافقه وزنا و مهيعا كما قاله الشيخ أبو بكر القللوسي. و نقله

---

[1]- هو البيت الثامن و الثلاثون من منظومة منهج الدراية في نظم النقاية للمؤلف العلامة سيدي أحمد سكيرج

[2]- محمد بن أحمد ابن مرزوق العجيسي، فقيه أديب وزير مغربي. له مؤلفات كثيرة. منها المفاتيح المرزوقية في شرح الخزرجية. و المسند الصحيح الحسن من أخبار السلطان أبي الحسن. وإيضاح المراشد فيما تشتمل عليه الخلافة من الحكم و الفوائد. أنظر ترجمته في جذوة الإقتباس، لابن القاضي 1: 225_227. رقم الترجمة 194. الأعلام للزركلي 5: 328_329. شجرة النور الزكية، لمخلوف 1، 340 _341 رقم 877.

[3]- الأبيات للشاعر العربي ابن رومي، من قصيدة هجائية تقع في 28 بيتا. قال في مطلعها:

يا سيدا لم تزل فـــروع من رأيه تحتها أصول
أمثلُ عمروٍ يسوم مثلي خسفا و أيامه تطــول

الشيخ ابن مرزوق. و عقده الناظم في بيته. و كتب بطرته عليه بهذا حده القللوسي. و قد علمت جمعه ومنعه إهـ.. فالنظم جنس. و من كلام العرب يخرج نظم غيرهم. و قوله أو من تلاهم. أي تبعهم فمن بعدهم بكلام عربي، و هو شعر المولدين، و غيرهم ممن لم تكن العربية فيهم سليقية، فيخرج نظم غير العرب ممن لم يتكلم بالعربية. فلا يقال فيه شعر. و هذا الحد للشعر الذي عقده الناظم في بيته كعقده لحد النظم هما معا للقللوسي. و قد قال في حده للشعر الشيخ ابن مرزوق: هو حد النظم بعينه. إلا أنه خصصه بنظم العرب. و زاد ما وافقه من المولدين. فلم يحصل له ما قصد من التفرقة بين العام و الخاص. إهـ..

أقول يجاب عن ذلك بأن عموم النظم من كونه يكون عربيا و عجميا. بخلاف الشعر فإنه خاص بكونه لا يكون إلا من كلام العرب. أو من تبعهم كما تقدم. على أن التفرقة بأدنى شيء تعتبر. وهذا الحد أحسن من غيره. حتى من حد الخليل أحمد. فإنه حده بقوله: ما وافق أوزان العرب. فيرد عليه أنه يقتضي أن أوزانهم ليست شعرا. بل هو ما وافقها هو الشعر. و من حد قدامة[1] فإنه قال فيه: الشعر قول موزون مقفى. إهـ.. فإنه يرد عليه أن نظم العجم شعر و ليس كذلك. و يرد عليه الكلام الغير المفيد المنظوم بأنه شعر و ليس كذلك. وحد بعضهم الشعر بأنه كلام ذو وَزن مستعمل وقافيه مقصود به ذلك. و يرد على هذا ما ورد على ما قبله يليه. وحده بعضهم بقوله الشعر هو ما كان على وزن من أوزان العرب الستة عشر. و كانت خاتمة كل بيت منه بنفس خاتمة سواه. و يرد عليه بما رد على ما قبله إلى غير ذلك.

ثم اعلم أن لفظ **العرب** في قول الناظم العرب بفتحتين و هم من يتكلم باللغة العربية سجية وسليقة. و العربية هي ما كان على طريقة القرآن و كلام الرسول صلى الله عليه و سلم. ويقال فيه أيضا العرب بضم العين و إسكان الراء. و هذان اللغتان في ضده الذي هو العجم. و هو من تكلم بغير اللغة العربية سجية و سليقة. وإلا فسكان البوادي منهم كما في القاموس وغيره. و أسقط الكرماني لفظ منهم فقال: العرب جيل من الناس. و النسبة إليهم عُرابي. و هم أهل الأمصار والأعراب سكان البادية خاصة. و النسبة إلى الأعراب أعرابي. لأنه لا واحد له. و ليس الأعراب جمع للعرب. إهـ.. إذ لو كان جمعا له لكانت النسبة إلى الأعراب عربي، لأنه ينسب للواحد لا للجمع. قال ابن مالك:

و الواحد اذكر ناسبا للجمع[2]

فيحصل أن العربي هم سكان الحاضرة ممن يتكلم بالعربية كالنبي صلى الله عليه وسلم. فهو عربي. و إن الأعراب هم سكان البادية من العرب خاصة. و قيل سكان البادية مطلقا سواء كانوا ممن يتكلم بالعربية أو بالعجمية.

---

[1]- قُدامة بن جعفر البغدادي، من علماء العصر العباسي، يضرب به المثل في البلاغة، توفي سنة 337 هـ، من مؤلفاته جواهر الألفاظ. و نقد الشعر. و الخراج. و نزهة القلوب. و البلدان. و زهر الربيع. وغيرها. أنظر ترجمته في الأعلام للزركلي 5: 191. النجوم الزاهرة لابن تغري بردي 3: 297.

[2]- البيت من ألفية ابن مالك، و هو الشطر الأول من البيت رقم 878، و تتمته كالتالي:

و الواحدُ اذكرْ ناسبًا للجمع   إن لم يشَابِهْ واحدًا بالوضع

و أول من تكلم بالعربية سيدنا إسماعيل عليه السلام. فقد روى الشيرازي في الألقاب بسنده إلى النبي صلى الله عليه و سلم أنه قال: أول من فتق لسانه بالعربية إسماعيل عليه السلام وهو ابن أربعة عشرة سنة[1]. و نقل مثله الزركشي في البحر عن ابن عباس. و لفظ الجامع الصغير: أول من فتق لسانه بالعربية المبينة إسماعيل و هو ابن أربعة عشرة سنة. ولا ينافي هذا ما في كتب اللغة أن أول من تكلم بها يعرب بن قحطان. و أنه هو أول من تحول لسانه عن السريانية إلى العربية. فكان يتكلم بهما معا. و هو قبل إسماعيل كما هو مقرر في التواريخ. لأن المراد بالعربية التي فتق لسان إسماعيل بها عربية قريش التي نزل بها القرآن العربي المبين. كما تدل عليه رواية الجامع الصغير من وصف العربية بالمبينة. و هي التي يقال فيمن تكلم بها العرب المستعربة.

قال في المصباح: يقال العرب العاربة هم الذين تكلموا بلسان يعرب بن قحطان، وهو اللسان القديم. و العرب المستعربة هم الذين تكلموا بلسان إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام. و هي لغة الحجاز و ما والاها. إهـ.. قال ابن كثير: قيل إن جميع العرب ينتسبون إلى إسماعيل، والصحيح المشهور أن العرب العاربة قبل إسماعيل. و هم عاد و ثمود و طسم و جديس وجرهم والعماليق. و أمم أخرى لا يعلمهم إلا الله. كانوا قبل الخليل عليه السلام و في زمنه أيضا، و أما عرب اليمن فالمشهور أنهم من قحطان و الله أعلم بالصواب.

قوله: **و الخطاب الفصل** أي الكلام الفاصل بين الحق و الباطل و في هذه الجملة مع ما قبلها في وصف النبي صلى الله عليه و سلم اقتباس بالمعنى من قوله تعالى في سيدنا داوود عليه السلام: وآتيناه الحكمة و فصل الخطاب[2]. و لا شك أنه صلى الله عليه وسلم أفضل منه و من سائر الأنبياء. أما غيرهم فمن باب أولى. و اختلف في فصل الخطاب على أقوال. فقيل هو إما بعد و عليه فمعناه أن النبي صلى الله عليه و سلم أفضل ممن نطق بها. فهو صلى الله عليه وسلم أفصح الفصحاء. كيف لا و هو صلى الله عليه و سلم لا ينطق عن الهوى[3]. و قال عليه السلام: أوتيت جوامع الكلم واختصر لي الكلام اختصارا[4]. و قيل فصل الخطاب هو البينة على المدعي واليمين على من أنكر. و في هذه براعة استهلال أيضا.

---

[1]- أنظر المستدرك للحاكم النيسابوري (كتاب تواريخ المتقدمين من الأنبياء و المرسلين) باب أول من نطق بالعربية إسماعيل 2: 602 رقم 4077. جامع الأحاديث و المراسيل، حرف الهمزة مع الواو 3: 302 رقم 8770. فيض القدير لشرح الجامع الصغير للمناوي، حرف الهمزة 3: 93 رقم 2837. الفتح الكبير في ضم الزيادة إلى الجامع الصغير، حرف الهمزة 1: 470 رقم 4693. كنز العمال للمتقي الهندي، المجلد الحادي عشر 1: 2306 رقم 32309.

[2]- سورة ص، الآية 20.

[3]- إشارة لقوله تعالى: و ما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى، سورة النجم، الآية 4.

[4]- إشارة للحديث الذي رواه الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال: فضلت على الأنبياء بست، أعطيت جوامع الكلم، و نصرت بالرعب، و أحلت لي الغنائم، و جعلت لي الأرض طهورا و مسجدا، و أرسلت إلى الخلق كافة، و ختم بي النبيون. إهـ.. صحيح مسلم (كتاب المساجد و مواضع الصلاة) باب فضلت على الأنبياء بست، رقم 1119.

قوله: **خير خلقه** خير مخفف بحذف الألف كما قال في الكافية:

و غالبا أغناهم خير و شر   عن قولهم أخير منه و أشر

و معناه أفضل. و خلق مصدر بمعنى مخلوقاته. و لا شك أنه صلى الله عليه و سلم أفضل من كل ما خلق الله بإجماع أهل السنة. و لا اعتبار بمن خالفهم من المعتزلة:

و ليس كل خلاف جاء معتبرا   إلا خلاف له حظ من النظر[1]

و مما استدل به بعض المعتزلة مردود عليه كما هو مبسوط في غير ما كتاب.

قوله: **و خاتم** هو بفتح العين و كسرها. و فيه لغات.

قوله: **و رسله** جمع رسول. و هو في العرف كل إنسان أوحي إليه بشرع و أمر بتبليغه.

و قوله: **أنبيائه** جمع نبي بالهمز و بلا همز. و له جمع آخر، و هو نبئاء، و منه قول العباس بن مرداس يمدح النبي صلى الله عليه و سلم:

يا خاتم النبئاء إنك مرسل[2]

قوله: **أولي السماحة** أي الجود، و لا شك أنهم رضي الله عنهم هم أهل الجود الحقيقي. حيث جادوا بأنفسهم في الذب عنه صلى الله عليه و سلم، و لا شيء يفي بمجازاة أهل السماح إلا رحمة الله و إكرامهم بدخولهم لجنته. و رحم الله القائل:

مجازاة السماحة دار خلد   و أمن من عذاب يوم بـــوس
و ما نار بمحرقة كريمـا   و لو كان الكريم من المجوس

قوله: **البذل** بالذال المعجمة الإعطاء. فهو من عطف التفسير على ما قبله. و هو من صفات الكمال التي تسود بها الرجال. قال الشاعر:

---

[1]- البيت للعلامة الأديب سيدي حمدون بن الحاج السلمي، قاله ضمن قصيدة رائية افتتحها بقوله:

هل يا سعاد أراك لي مساعدة   مُطَوَّلُ السعد فيك غير مختصـر
و هل ترد ليالينا التي سلفـت   هيهات لا بد من صفو و من كدر

[2]- البيت للصحابي العباس بن مرداس السلمي، ابن الشاعرة الخنساء، توفي في خلافة عمر بن الخطاب سنة 18 هـ، و البيت المذكور هو مطلع قصيدة كافية قالها في مدح رسول الله صلى الله عليه و سلم، واختتمها بقوله:

و بنو سليم معـــقون أمامـــه   ضربا و طعنا في العدو دراكا
يمشون تحت لوائه و كأنهـــم   أسد العرين أردن ثَمَّ عراكـــا
ما يرتجون من القريب قرابـة   إلا لطاعة ربهم وهواكـــــا
هذي مشاهدنا التي كانت لنـا   معروفة وولينا مولاكـــــا

ببذل و حلم ساد في قومه الفتى   و كونك إياه عليك يسير

قوله: **و جيز** أي مختصر جدا مع المعاني الكثيرة، مأخوذ من الإيجاز، و هو قلة الألفاظ وكثرة المعاني ضد الإطناب و الإسهاب.

قوله: **قصدت فيه**. إلخ.. هذا المهيع الذي سلكه الشارح في شرحه هو من المقاصد التي يحمد تأليفها، و ذكر بعضهم أنها سبعة أمور أشار لها أبو العباس الهلالي بقوله:

أبدع تمام بيان لاختصارك في   جمع و رتب و أصلح يا أخي العملا

قوله: **متوقيا** أي متحيرا و متحفظا على النقول المساعدة لعبارة هذا الرجز.

قوله: **و إشارته** من عطف التفسير على قوله رمزه و الرمز الإشارة، و منه قوله تعالى: قال آيتك أن لا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا. [1]

قوله: **متجافيا**. إلخ.. التجافي هو التباعد. و هذا الذي وعد الشارح به كاد أن ينساه في مبادئ هذا الشرح. فقد طول في المقدمة مع التعريف بالناظم. و الكلام على الحمد لله و إن كان ذلك من الأمر المستحسن المحمود. و إخلال التأليف به خلل. إلا أن وضع ذلك فيما مهيعه الاختصار يؤدي إلى التطويل ...

[1]- سورة أل عمران، الآية 41.

الياقوت والمرجان
فيما اتزن من القرآن

للعلامة سيدي أحمد سكيرج رضي الله عنه

تحقيق ذ محمد الراضي كنون
الإدريسي الحسني

بسم الله الرحمن الرحيم و صلى الله على الفاتح الخاتم و آله و صحبه و سلم تسليما

الياقوت والمرجان
فيما اتزن من القرآن[1]

أنشد ابن عربي في الفتوحات:

كتاب فيه ما فيه　　بديع في معانيـــه
إذا عاينت ما فيه　　رأيت الدر يحويه[2]

مقدمة

لا يخفى أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قد نزه الله ساحته مما تقوله عليه أعداؤه من كونه مجنونا أو كاهنا أو ساحرًا، وَنحو ذلك مما يريدون به حط قدره العلي عند من لم يعرفه من العرب الذين عاصروه ودعاهم للهدى وَبَلَغَتْهُمْ دعوته، فكانوا إذا سمعوا بأنه مجنون أو ساحر أو كاهن وغير هذه الأوصاف تنفر نفسهم قبل الإجتماع به من الإذعان له وقبول ما جاء به من الحق، حتى إذا اجتمعوا به تحققوا بأن ما يشيعه عليه أعداؤه مجرَّد افْتراء عليْه، وقد كان زعماؤهم يعترفون بأن كلامه ليس بكلام كاهن ولا بشعر شاعر[3]، ولا زال يروى عنه ويتلى ما جاء به والعارفون للكهانة والعالمون بالشعر والسّامعون لذلك يقرون بأن ذلك خارج عن مهيع الكهّان والشعراء.

---

[1]- هو من عداد مؤلفاته التي كتبها إبان شبابه بمدينة فاس، حاول فيه أن يتتبع بعض الآيات القرآنية الموافقة للميزان العروضي، لكنه لم يتمه، ولو أتمه لكان نافعًا في بابه، غير مسبوق، وقبل أن أوقف يراعه عن إتمامه أدبًا مع القرآن الكريم، ومخافة الإساءة لشيء من نصوصه وأدبياته.
وكان رحمه الله كثير الإحتجاج بقول الجاحظ في كتابه البيان والتبيين، ردًا على من طعن في قوله تعالى، تبت يدا أبي لهب، زاعما أنه من الشعر، لأنه على وزن (مستفعلن مفاعلن) فأجابه بقوله: اعلم أنك لو اعترضت الناس وخطبهم ورسائلهم لوجدت فيها مثل مستفعلن مستفعلن كثيرا، ومستفعلن مفاعلن، وليس أحد في الأرض يجعل ذلك المقدار شعرا، ولو أن رجلا من الباعة صاح من يشتري باذنجان؟ فإنه في الحالة هذه يتكلم بكلام في وزن (مستفعلن مفعولات) وكيف يكون هذا شعرا وصاحبه لم يقصد إلى الشعر، ومثل هذا المقدار من الوزن قد يتهيأ في جميع الكلام، وإذا جاء المقدار الذي يعلم أنه من نتاج الشعر والمعرفة بالأوزان والقصد إليها كان ذلك شعرًا.

[2]- أنظر الفتوحات المكية، للشيخ ابن عربي الحاتمي 4: 411 الباب 274 في معرفة منزل الأجل المسمى من العالم الموسوي

[3]- إشارة لقوله تعالى: وما علمناه الشعر وما ينبغي له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين، ولقوله تعالى: وما هو بقول شاعر. وفي هذا الموضوع يقول بعض كبار العلماء: لو كان فصحاء العرب من قريش وغيرهم يعتقدونه (يعني القرآن الكريم) شعرا ولم يروه خارجا عن أساليب كلامهم لبادروا إلى معارضته، لأن الشعر مسخر لهم مسهل عليهم، ولهم فيه ما علمت من التصرف العجيب والإقتدار اللطيف، والمعرفة التامة بالأعاريض المحصورة المألوفة، والحق أنهم لم ينسبوه إلى الشعر بالمعنى المتداول، ولكن نسبوه على أنه يشعر بما لا يشعر به غيره من أهل صنعة الشعر، والشاعر كما يقولون هو الذي يفطن لما لا يفطن له غيره، وإذا قدر على صنعة الشعر كان على ما دونه في رأيهم أقدر.

فكل ما نطق به من كلامه أو كلام ربه لا دَخل له في حيز الشعر، ولا يسمّى شعرًا بوجه ولا بحال، ولو اتزن بميزان الشّعر الخصوصي من أي بحر من أبحره الستة عشر والفنون السّبعة[1] التي ابتدعها المولدون من أدباء الأندلس ومن نحا نحوهم، فكل ذلك إن اتزن بميزانه لا يسمّى شعرا قَصَدَ نظمه أو لم يقصد، ونحن لا نعترف في المتزن من كلام الرسول صلى الله عليه وسلم بأنّه ليس بمقصود له، ولا يخدش في وجه تنزيهه عن أن يكون شاعرا قصد وزنه، ولا يسمى من قال كلاما فاتزن منه في خلله بيت مثلا بشاعر، ولو قصد وزنه، لعدم ارتباطه بالقافية، ولربما كان غير تام المعنى باستقلال ما اتّزن منه حسبما سبقت الإشارة إليه، وسنوضح ذلك.

وقلما كلام تكلم به حتى غير العارف بالشعر يخلو من متّزن، ويعْرف هذا من يزن مطلق الكلام بميزان العروض[2]، فإنه يجد فيه مما اتزن أبياتا وأشطارا من تلك الأبحر مَا لا يخطر ببال المتكلم به حال التلفظ به أو بعده إلا بعْد التفطن له، فلا يقال لمن تكلم به شاعر إلا إذا كان شاعرا بكل معْنى الكلمة، ليصدق على شعره حده، كما أن من أنشد ما أنشأه غيره من أبيات الشعر لا يسمى شاعرا، إلا إذا قال ذلك من عندياته، فحينئذ يسمى شاعرا، ويقبح كثيرا أن ينسب للنبي صلى الله عليه وسلم الجهل بمثل المعلقات[3]، ومثلها مما يتناشده .

[1]- الفنون السبعة حسب المفهوم العربي هي أنواع القصيدة، أي المواليا، والكان كان، والقوما، والدوبيت، والسلسلة، والموشح، والزجل، وتتميز كلها بتأثرها باللغة العامية وتنوع القافية.
[2]- علم العروض: هو علم أوزان الشعر العربي وبحوره وتفعيلاته. ابتكره العلامة العربي الخليل بن أحمد الفراهيدي البصري، وبهذا العلم يعرف المستقيم والمنكسر من أشعار العرب، والصحيح من السقيم، والمعتل من السليم.
[3]- المعلقات هي قصائد جاهلية، بلغ عددها السبع، أو العشر على قول، برزت فيها خصائص الشعر الجاهلي بوضوح إلى أن عدت من أبدع ما بلغنا عن العصر الجاهلي من آثار أدبية، وسميت بالمعلقات لأن العرب استحسنوها وكتبوها بماء الذهب وعلقوها على الكعبة، وهذا ما ذهب إليه العلامة ابن عبد ربه في العقد الفريد وابن رشيق وابن خلدون وغيرهم.

بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على سيّدنا محمّد وآله وصحبه وسلم تسليما

نحمد الله الذي أنزل القرآن على عبده سيدنا وَمولانا محمَّد القائم بحق شكره وحمده، فَبَلَّغَ صلى الله عليه وسلم الرسالة وصدع بما أمر به على وفق مَا يرضي المولى الذي لا ينبغي الحمْد إلا له، وقد رفع الله شانه، وأرغم أنف مَن شانه، حيث جاء بما لم يجئ به غيره من المعجزات الباهرات، وخصوصا معجزة القرآن.

دامت لدينا ففاقت كل معجزة   من النبيئين إذ جاءت ولم تدم[1]

فلم يستطع أحد ولا يستطيع أن ياتي بسورة من مثله[2]، بل بآية مثل آيته في سلالة المبنى، وبلاغة المعْنى، فهو السّهل الممتنع، والمجال المتسع، الذي تسابقت حلبات الأعلام لالتقاط درره، ناشرين أعلام التحقيق في تفسير آيه وسوره، وكلما جدوا في السباق وجدوا أنفسهم واقفين في مبادئ سيرهم، وَما لغاية معانيه من لحاق، وقد أخذ كل ذي فن من فنون ما أثمرت فيه رياض أفنانه، وَسقته حياض عرفانه، وما من عالم كيف ما تطاول علمه في أوج التحقيق، إلا ويطأطئ برأسه عندما يرى من آياته ما يبهره من الحسن المشتمل عليْه مما لا يحتاج فيه لتزويق.

وقد عصم الله نبيَّه من التصنع في الخطاب، والتكلف في إنشاء مقالاته في كتاب أو جواب، بل هو وحي يوحى، تقتبس من أنواره يوحى، ولَيس بشاعر ولا كاهن ولا ساحر، لا بل السحر الحلال من ألفاظه يسبي العقول، والشعْر المعنوي من دره منقول، وليكون جامعا لما افترق من المعَارف البيانية، والفنون الجنانية واللسانية، حتى يكون مستوفيا لما انطوت عليه آية ما فرطنا في الكتاب من شيء[3]، اشتمل على ما اتزن بميزان العروض في الأبحر المختلفة، فاقتبس منها الشعراء آيات في تراكيب نظمهم الموزون، فهي جوْهر مصون، ومع اتزانها باتزان الشعر فليست بشعر، لخروجها عن حده الفني، كما أشرت لذلك في شرحي لأرجوزة ابن عمنا الأعْلى المرحوم محمد بن الطيب سكيرج[4] لدى قوله:

الشعر ما قصدتَّ فيه وزنا   وكان ذا قافية ومعنى

---

[1]- هو البيت الحادي والتسعون من قصيدة البردة للشيخ سيدي محمد بن سعيد البوصيري

[2]- إشارة لقوله تعالى: قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن ياتوا بمثل هذا القرآن لا ياتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا. وهي آية صريحة تثبت عجز العرب المعاصرين للنبي صلى الله عليه وسلم عن معارضة القرآن والإتيان بسورة من مثله، وبما أنهم عجزوا وثبت عجزهم وهم سادة البيان وملوك الفصاحة، فهذه معجزة من معجزات القرآن، وقد ثبتت واستقرت وصارت فكرة مفروغ منها لا تحتاج إلى إثبات.

[3]- سورة   الآية

[4]- سبق التعريف به في الجزء الأول من هذا الكتاب

فالقافية[1] بمعنى مقفية اسم مفعول، أو بمعناها الموافق لاسم الفاعل لا بدّ أن تكون في بيتين، فالبيت الواحد ليس بشعر قطعا[2]، وسنبسط القول في ذلك في التمهيدات في هذا الموضوع بحول الله، ولقد تتبعت ما اتزن من القرآن طبق ما ستقف عليه بحول الله في هذا التويلف، فلم أجد من هذا المتزن ما يزيد على بيت أو بيت ونصف موافق لما قبله في البحر[3]، ومخالف له في الوزن، وجمعتُ منه بالتتبع ما يفرح به المقتبس من مشكاة أنواره، والمقتطف من روضة أزهاره، فيروق نظمه بما يضمنه من ذلك فيه، ويكمل مقصده في الغرض من الاقتباس الذي يوافيه وبه يستوفيه، فتتبعت الكتاب الكريم سورة سورة، ووزنته آية آية، فجاء بحمد الله هذا المجموع طبق مسمّاه الياقوت والمرجان فيما اتزن من القرآن، محتويا على ما هو تام المعنى، أو ما يكون متمما لما يضاف له.

ولربما سقت المتزن الذي اقتطف منه غصن تجرد به عن تحويل الإسناد بما يضاف له من التراكيب القولية، مثل ما جاء في صدر الفاتحة متزنا من بحر المجتث، وهو الحمد لله رب[4]، ولا يصح أن يكون من المجزوء من بحر الرجز، والشطر الثاني ما اتزن منه بعده، وهو العالمين الرحمن[5]، بإظهار همزة آل منه، فهي لا يجوز إظهارها في الوصل، فاحتيج فيه إلى إضافته ليظهر المتكلم عن لفظ العالمين، فهو هنا متوقف في الإقتباس على نحو ضم المتكلم، كما توقف الموصول على صلته في ما اتزن من بحر الرجز، وهو: يخادعون الله والذين[6]، فذكره بدونها لا يتم إلا بتحويل الإسناد بزيادة أو نقص أو إفراغ المعنى في قالب آخر، مثل أن يتتم الناظم ذلك فيما اقتبسه فيه مثل أن يقول في ذم من يذمهم من السفهاء:

يخادعون الله والذينا قد آمنوا ويهدمون الدنيا

ومثله في حقهم قوله تعالى: قيل لهم لا تفسدوا في الأرض[7]، فهو جملة بين شرط وجواب اتزنت في بحر الرجز، فإذا أضيف إليها ما يتم به المعنى ظهرت في صورة مؤثرة في الذم، فيقال فيهم مثلا:

وهم إذا جاءوا بغير المرضي قيل لهم لا تفسدوا في الأرض

[1]- القافية: هي المقاطع الصوتية التي يلزم تكرارها في أواخر أبيات القصيدة، وتشتمل على خمسة أحرف وهي: الروي، الوصل، الخروج، الردف، التأسيس، وقلما تجتمع هذه الأحرف الخمسة في قافية واحدة.

[2]- ذهب بعض العروضيون إلى أن أقل ما يطلق عليه اسم الشعر ثلاث أبيات. وقال بعضهم: ويسمى البيت الواحد: مفردًا. والبيتان: نتفة، والثلاثة إلى ستة أبيات: قطعة، والسبعة فصاعدًا: قصيدة، وكل ما عدا ذلك فليس بأبيات شعرية.

[3]- البحر عند العروضيين هو وزن البيت الشعري وما يقع فيه من زحاف في حشوه أو علة في عروضه وضربه، وقد سمي بذلك لاستيعابه جميع أبيات القصيدة مهما بلغ عددها.

[4]- سورة الفاتحة. آية

[5]- سورة الفاتحة. آية

[6]- سورة البقرة. آية

[7]- سورة البقرة. آية

وربما تجنبت كثيرا من هذا المتزن وأعرضت عما يوقع في محذور بحذف طرفي المتزن، إلا ما كان له توجيه من معنى لطيف مستنبط، مثل ما اتزن في أول سورة البقرة من بحر الرجز، وهو قوله تعالى: إن الذين كفروا سواء[1]، فهذا المتزن وإن كان يخرج باقتطاعه عن طرفه التالي فيؤخذ منه معنى بديع في الاقتباس، وهو أن الكفار في كفرهم وبغضهم للنبي والمومنين سواء، بمقتضى قوله تعالى: ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم[2]، فاتزانه يقضي بحمله على معنى غير ما سيقت له الآية الشريفة في اللفظ المعجز من كون الكفار لا يعبئون بما أنذرهم به الرسول أو ترك إنذارهم به، فهم لا يؤمنون به، وفي قياس هذه الجملة تقول مثلا:

إن الذين كفروا سواء قد أضمر للمومن العداء

كما أني ربما أسوق ما اتزن من ذلك ولو احتيج في اتزانه إلى حذف حرفه الأول أو أكثر، مثل ما اتّزن من بحر المجتث، كقوله تعالى في السورة المذكورة: لهم عذاب عظيم[3]، ومثله أيضا لهم عذاب أليم[4]، فهو يصلح للاقتباس، ولربما اعتبرت في المتزن بعض القراءات السبع، كما اتزن في مجزوء المتدارك قوله تعالى في رواية قالون: في قلوبهم مرض[5]، وقصدي بهذا التويليف إظهار سر من الأسرار اللطيفة التي أشرت لها تحت جوهر قوله تعالى: ما فرطنا في الكتاب من شيء[6]، على أنه قد بالغ ابن العربي المعافري في أحكامه وغيره في إنكار كون وقوع المتزن في القرآن، وسرد من ذلك آيات عدَّها مما اتزن من القرآن، باحثا مع من عدها من المتزن، وقد بحثنا في بحثه بما ستقف عليْه في المقدمة بحول الله، فأقول:

تنبيه

إن جلالة الإمام ابن العربي المعافري رحمه الله تقضي بعدم الاكتراث بمن عارضه في مقاله أو اعترض عليْه عند من يعرفها، وما أدراك ما هو، إلا أنه لما كان كل كلام فيه المردود والمقبول، إلا كلام الرسول، ساغ لنا أن نبين هنا بعض ما حصل له من الأغلاط فيما هو متزن من القرآن بميزان العروض، الذي لا يقبل زيادة حرف أو نقصه عند الفتى الذي يدري هذا الفن، فيفرق بين الشعر وغيره، كما يقول الخزرجي[7] رحمه الله:

---

[1]- سورة البقرة. آية

[2]- سورة البقرة. آية

[3]- سورة البقرة. آية

[4]- سورة البقرة. آية

[5]- سورة البقرة. آية

[6]- سورة

[7]- عبد الله بن محمد الخزرجي، الملقب بضياء الدين، عروضي من أعلام الأندلس، نزل بالإسكندرية، وتوفي بها قتيلا سنة 626 هـ- 1229م. من مؤلفاته: الرامزة في علمي العروض والقافية، تعرف بالخزرجية نسبة إليه. أنظر ترجمته في الأعلام، للزركلي 4: 124.

وللشعر ميزان يسمى عروضه   بها النقص والرجحان يدريهما الفتى[1]

ولقد أراد ابن العربي هنا أن يزاحم علماء هذا الفن وليس من أهْله، فهو وإن كان له اليد الطولى في العلوم الكبيرة الشأن، فيده في هذا الفن قد قصرت عن تناول ما اتزن في هذا الميزان في جل ما بسطه في سورة الشعراء، وخاض في بحورهم من غير تروّ، كما يرى ذلك من اطلع عليْه من أهل هذا الفن، وبنقل كلامه هنا ينجلي الحق في الصورة، ولم يبق كلام في اتزان ما اتزن من غالب الآي المذكورة بين آي كل سورة، قال رحمه الله ورحمنا معَه: ...

في الفتوحات: وصل وأما أسرار الإشتراك بين الشريعتين فمثل قوله تعالى: أقم الصلوة لذكري[2]. وهذا مقام ختم الأولياء. ثم قال: ومن رجاله اليوم الخضر وإلياس، وهو تقرير الثاني ما أثبته الأول من الوجه الذي أثبته. أنظر عدد 239 من الجزء الأوّل، وهو كلام نفيس جدّا.

البسملة

لا يصح أن تكون البسملة متزنة في سائر البحور الشعرية ولا أعاريضها وأضربها، ولَو كان وَرد تشطير المتدارك لزعم زاعم أنه بيت منه مرفل أو مذال بتشعيث[3] جميع أجزائها ما عدا الأخير منها، ولَو لم يكن فيها الترفيل الإدالة لزعم زاعم أيضا أنه شطر من تام هذا البحر، فتعين عدم اتزانها في هذا البحر ولا في غيره.

فائدة: ذكر العلماء أنه لا يقاس في الكتابة على خطين خط المصحف وخط العروض[4]، ولا يسوغ كتابة آية إلا على ما كتبت عليه في المصحف الكريم، إلا إذا قصد بها غيْر القرآنية أو للتعليم، أو لقصد آخر، ولذلك قالوا: لا يسوغ تقطيع حروف آية أو بعضها أو قلبها لا في الكتابة ولا في النطق، فالبسملة مثلا لا تكتب مقطعة الحروف ولا معكوستها، فضلا عن

---

[1]- هو مطلع المنظومة الخزرجية المسماة بالرامزة، وقد أقدم على شرح هذه المنظومة غير واحد من العلماء والأدباء الكبار، كالشيخ زكرياء بن محمد الأنصاري، وسمى شرحه لها: فتح رب البرية بشرح القصيدة الخزرجية، وأيضا العلامة محمد بن أحمد الأزنيقي وعنوان شرحه لها: الإشارات الحائزة لشرح حل الرامزة، ومن شراحها أيضا العلامة محمد بن محمد الإيحي العثماني الشافعي، وسمى شرحه لها برفع حجاب العيون الغامزة عن كنوز الرامزة.

[2]- أنظر الفتوحات المكية للشيخ ابن عربي الحاتمي 1: 446 الباب 24 في معرفة جاءت عن العلوم الكونية إلخ..

[3]- التشعيث هو حذف أول أو ثاني الوتد المجموع في نحو (فاعلن) فتصبح فالن أو فاعن، فينقل إلى فعلن.

[4]- قال ابن درستويه في مصنفه المعنون ب (الكتّاب) خطان لا يقاسان، خط المصحف لأنه سنة، وخط العروض لأنه يثبت فيه ما أثبته اللفظ ويسقط عنه ما أسقطه.

وفي الموضوع نفسه يقول بعض كبار العلماء: خط العروض هو خط جرى على إثبات ما أثبته اللفظ وإسقاط ما حذفه، فالقاعدة في الكتابة العروضية أن كل ما ينطق به يرسم، سواء وافق ذلك القواعد الإملائية أم لا، وكل ما لا ينطق به لا يرسم وإن اقتضت قواعد الإملاء كتابته، ويترتب على هذه القاعدة زيادة حروف لم تكن تكتب تبعًا لقواعد الإملاء، وحذف حروف اقتضت قواعد الإملاء كتابتها.

النطق بها معكوسة، لأنها تستحيل بالانعكاس إلى معنى آخر، وَمَا لا يستحيل بالانعكاس عند علماء البديع معدود من أقسامه، مثل قول الله تعالى: ربك فكبر[1]، وقول الشاعر:

مودته تدوم لكل هول   وهل كل مودته تدوم[2]

ولم يعد أرباب الفن البديعي ما يستحيل بالانعكاس من الأقسام المعدودة فيه، لكون الإبداع إنما هو منوط بما لا يستحيل، وقَد رأينا علماء سر الحرف والأسماء والأوْفاق ذكروا خواص فهمه لتقطيع الحروف وعكسها على مقتضى فن التكسير عندهم، واعتبار ذلك عندهم مما يدل على جَوازه في سائر الأسماء والآيات، ولم أر أحدا تجرأ على رسم ذلك بخط العروض، وإني لأستغفر الله في كتب البسملة بهذا الخط لإفادة من لا يعرفه، ولا نعود لتقطيع آية أو بعضها بعدما بيناه هنا، فأما رسمها على أجزاء التفعيل من بحر المتدارك[3] مثلا، فهكذا:

بسمل لاهر   رحما نررحيم
فعلن فعلـن   فعلـن فاعـلان

ورسمها على النطق بالمتحرك والساكن في التقطيع هكذا:

بسمـل لاهـر   رحمـا نـررحيـم
1010 1010   1010010 1010

التصريع هو إلحاق العروض بالضرب، فهو من مراعاة أول الشيء بما تأخر بعده، وقد يقال حيث ادعي هنا التصريع، وهو جائز عندهم، فلا يبعد أن يكون التشعيث في هذا المتزن سابقا لإطلاقهم في جوازه في جميع أجزائه، ولم نقف على مثال من هذا القبيل حتى تتحقق لنا شعرية هذا المتزن، فتحقق لديك أن البسملة غير متزنة، لا كلها بجعلها شطرا من العروض الأولى التّامّة التي ضربها مثلها وهو

جاءنا عامر سالما صالحا   بعد ما كان ما كان من عامر

والتشعيث مع الإذالة أو الترفيل لم يذكروا لهما مثالا، وإنما ذكروه مجردا، وبيته:

---

[1]- سورة

[2]- البيت للشاعر العربي ناصح الدين الأرجاني، قاله ضمن قصيدته الميمية التي تقع في 67 بيتا، وقد افتتحها بقوله:

لأي وميض بارقـة أشيـم   ومرعى الفضل في زمني هشيمُ
أبيت وخدٌّ ليل الشعر مني   بكفٍّ الصبــح من شيبـــي لطيم

[3]- المتدارك: من البحور العروضية، يتألف من ثمان تفعيلات وهي:

فاعلن فاعلن فاعلن فاعلن   فاعلن فاعلن فاعلن فاعلن

وسمي بذلك لأن الأخفش تداركه على الخليل.

ما لي مال إلا درهم　　　أو برذوني ذاك الأدْهم

ولا شك أن الترفيل[1] أو التذييل[2] لم يسمع في سائر الأعاريض التامة، ولا في ضروبها في سائر البُحور، إلا ما أنشدوه في الطويل عن قول مسلم بن الوليد:

سل الناس إني سائل الله وحده　　　وصائن عرضي عن فلان وعن فلانْ[3]

وقد خالف فيه سائر شعراء العرب وما أراه إلا رخم فُلان في غير النداء للضرورة، أو حذف الألف اقتصارا، ولم يصح نظيره عن العرب، وكذلك لا يصح ادعاء كون البسملة مشطرة، لأن التشطير لم يقولوا به في هذا البحر مطلقا، وكان من الأولى في حقنا أن لا نذكر البسملة من قبيل المتزن على ضرب من أعاريض هذا البحر، حيث إنه لم يذكر أهل الفن مثالا له، ولكن ذكرناها تبركا بالكلام عليها، أداء لحقّ الفن منها وحقها مِن الفن، مع ما قضت به من استطراد ما لا يخلو عن فائدة، وبالله التوفيق.

وقد يقال إن المتزن من البسملة في هذا البحر إنما هو بسم الله الرحمان فقط، فهو من الضرب الثاني لعروضه الثانية المجزوءة الصحيحة، وهو مجزو مذال، وبيته عندهم:

هذه دارهم أقفرت　　　أم زبور محتها الدهور

إلا أن التشعيث أو القطع قد دخل أجزاء تفعيل هذا المتزن، وظاهر أمثلة ضروب هذه العروض أن التشعيث غير داخل فيها إلا مما سوغوه في العروض الأولى عن هذا البحر، وبيته:

ما لي مال إلا درهم　　　أو برذوني ذاك الأدهم

من غير تذييل ولا ترفيل، ولنا بحث في تمثيلهم للضرب الأوّل من العروض الثانية بقولهم:

دار سعدي بشحر عُمان　　　قد كساها البلى الملوان

---

[1]- الترفيل: هو زيادة سبب خفيف على ما آخره وتد مجموع، نحو (فاعلن) فتقلب النون ألفا. وتزيد سببا خفيفا، فتصير (فاعلاتن).

[2]- التذييل: هو زيادة حرف ساكن على ما آخره وتد مجموع، نحو (مستفعلن) فتصير (مستفعلنن) فينقل إلى (مستفعلان).

[3]- البيت للشاعر مسلم بن الوليد الأنصاري، المعروف بصريع الغواني، وهو أحد جلة شعراء العصر العباسي، وهو البيت الثامن من قصيدته اللامية التي يفتتحها بقوله:

سَرَتْ بمـــلامٍ حيـــن هوَّمَ عُذَّالي　　　ملامة لا قالٍ ولا متبـــدِّلِ
رأت رجلًا خاضَ الغنى ثم أعقبت　　　حوادث تفني عفة المتجمل

مذالا بسكون النون، وبعضهم أورده مرفلا بتحريكها بالكسر مع إشباع على عادة الوقوف على الروي، فقد قالوا أنها صحيحة، وأنت تراها إذا قطعتها مخبونة مع وجود الترفيل أو التذييل فيها، فصار فاعلن فيها فعلاتن أو فعلان، فأين الصحة المنصوص عليها فيه، وقد أجاب المحقق الدمنهوري[1] في حاشيته الكبرى على متن الكافي[2] عن هذا الإيراد بأن الخبن[3] وما معه إنما هو عارض في عروض هذا الضرب لأجل التصريع، وهو سائغ عندهم، وظاهر زيادة الزمخشري لمثمن هذا البحر عروضين مخبونة وضربها مثلها، ومشعة وضربها مثلها، مع عدم جواز الجمع بين السلامة والخبن والتشعيث أو اثنين منها في أعاريض أو أضرب القصيدة الواحدة، وهو في هذه الزيادة مخالف لغيره، لكون مَا ذكره داخل في العروض الأولى عندهم لنصهم على جواز دخول ذلك فيها كما حقق العلامة الصبان[4] ذلك في شرحه على لاميته[5].

ومن مشطور[6] السريع[7] أو من مشطور الرجز قوله: ملك يوم الدين، من العروض الرابعة للسريع، وهي نفس الضرب، وبيته:

يا صاحبي رحلي أقلا عذلي

وتفعيله مستفعلن مفعولن. وأصل مفعولن هنا مفعولات دخله الكسف، وهو حذف آخر الوتر المعروف فيه، ويصح أن يكون من الرجز دخله القطع وهو حذف آخر الوتر المفروق فيه، ويصح أن يكون من الرجز إذا دخله القطع، وهو حذف آخر الوتد المجموع وإسكان ما قبله، ولا يكون القطع في الأسباب، ولله در القائل:

---

[1]- محمد الدمنهوري المصري الشافعي، من مدرسي الجامع الأزهر بمصر، له مؤلفات كثيرة منها: الإرشاد الشافي على متن الكافي في العروض والقوافي، توفي سنة 1288 هـ- 1871م. أنظر ترجمته في معجم المؤلفين، لكحالة 9: 301-302. معجم المطبوعات، لسركيس 883-884.

[2]- متن الكافي في علمي العروض والقوافي، للعلامة أحمد بن عباد بن شعيب القنائي القاهري الشافعي، المعروف بالخواص، توفي سنة 858 هـ- 1454 م.

[3]- الخبن: هو حذف الثاني الساكن، يدخل على العروض والضرب معًا، وهو غير لازم فتصبح العروض المحذوفة وضربها المحذوف (فَعِلُنْ) بدلا من (فاعلن) أما الضرب (فاعلاتن) فيصبح بعد الخبن (فَعِلاتُنْ) ويكون الخبن التفعيلات الآتية: فاعلن، فاعلاتن، مستفع لن، مستفعلن، مفعولات.

[4]- محمد بن علي الصبان، المشهور بأبي العرفان، من أعلام مصر، عالم بالعربية والأدب، له مؤلفات كثيرة. توفي سنة 1206 هـ- 1792م. أنظر ترجمته في الأعلام، للزركلي 6: 297. معجم المؤلفين 11: 17-18.

[5]- لامية الصبان وتسمى بالكافية الشافية في علمي العروض والقافية، قال في مطلعها:

لك الحمد يا رب وصل مسلّما على المصطفى والآل من أحرزوا العلا

[6]- المشطور هو البيت الشعري الذي حذف شطره أو مصراعه، وتكون فيه العروض هي الضرب، ويكون في الرجز والسريع.

[7]- السريع: من البحور العروضية، يتألف من ست تفعيلات، ومفتاحه كالتالي:

بحر سريع ما له ساحل مستفعلن مستفعلن فاعلن

أما مشطور السريع فتفعيلته كالتالي: مستفعلن مستفعلن مفعولان، وهو نفس مشطور الرجز.

يا كامـلا شوقــي إليه وافــر	وبسيـط وجدي في هواه عزيـز
عاملت أسبابي لديك بقطعها	والقطع في الأسباب ليس يجوز

والأولى أن يكون المتزن هنا من بحر السريع، لأن القطع في مستفعلن في الرجز[1] يلزمه تغيران: حذف آخر الوتر وإسكان ما قبله، وأما على كونه سريعا فإنما يلزم تغير واحد وهو حذف تاء مفعولات، والذي يؤدي إلى تغير واحد أحسن مما يؤدي إلى تغيرين. هكذا قال العلامة الصبان في البيت المذكور حاكيا عن بعضهم أنه جعله من مشطور الرجز، وحكى في كلامه على الرجز اتفاق العروضيين على جواز قطعه مع السلامة في ضرب الأرجوزة المشطورة إجراء للعلة مجرى الزحاف كقوله:

والنفس من أنفس شيء خلقا	فكن عليها ما حييت مشفقا
ولا تسلط جاهــلا عليـــهَا	فقد يســوق حتفهــا إليهـا

قال: وأكثر المحدثون استعمال ذلك في الأراجيز المشطورة المزدوجة، والذي يظهر أن كل شطرين من ذلك شعر على حديه، وأنه ليس كله قصيدة واحدة، وإن جاوزت الأبيات سبعة لأنهم لا يلتزمون فيها رويا واحدا ولا حركة واحدة إلى آخر كلامه، وَعَلَيْه فالشطر الواحد ليس بشعر إلا بضميمة شطر مثله إليْه، وإن كان الشطر في حد ذاته نفسه بيتا وَاحدا، لا في الرجز ولا في السّريع في هذا المشطور منهما، وإنما يفرق بين كون القصيدة من السريع أو الرجز بالتزام أبيات السريع على وثيرة واحدة وبازدواجها في الرجز، فتقول في اقتباس الآية المذكورة على ميزان الرجز:

مالـــك يـوم الدين	هو الذي يحيينـــي
فإنـــه يعيـــدنــا	من بعد ما يميتنــا
أعـــدمَ ثم أوجـدا	فالمنتهى كالمبتـدا
مالي سوى معيني	ملك يوم الديـــن

ولك أن تقول في اقتباسها من ميزان السّريع:

والتين والزيتـون	مالي في تحصينـي
من كل ما يرديني	سوى الذي يهديني

مالـــك يوم الديـن

[1]- الرجز من البحور العروضية، يتألف من ست تفعيلات، ومفتاحه كالتالي:
في أبحر الأرجاز بحر يسهل   مستفعلن مستفعلن مستفعلن

قد اتزن فيها من بحر المتدارك قوله تعالى في سورة الناس "قل أعوذ برب الناس"[1] عَلى القول بجواز دخول التشعيث في هذا البحر مطلقا في حشوه وعروضه وضروبه، فيكون شطر بيت من الضرب الأول المجزو المخبون المرمَّل وبيته:

دار سعدي بشحر عُمانِ   قد كساها البلى الملوان[2]

والتشعيث في المتزن دخل في نفس الضرب المذال، ووزنه فعْلان الذي صورته مركبة من الباء الأخيرة من رَبِّ متصلة بالنَّاس، ولا أحب رسم تقطيع هذه الآية أدبا مع خط المصحف المقدم على رسم الخط العروضي، وهو سطر بيت تام المعنى، لا ينكر اتزانه من هذه الحيثية، وقد جاء مخبونا في جزءي تفعيله الأولين، وهو المطرد فيه، وحكى بعضهم شذوذ وروده سالما، مع مراعاة نقل الحركة للساكن الصحيح قبلها في قل أعوذ، وهي قراءتنا الورشيَّة.

ومن المتزن أيضا قوله تعالى ملك الناس إله[3]، فهو شطر بيت من العروض الثانية المجزوة الصحيحة على مثال:

مقفرات دارسات   مثل آيات الزبور[4]

إلا أنه قد يقال في المتزن هنا بمراعاة قرآنيته لا يكون هنا كلاما تامّا فَجَرٌّ ملك والوقوف على متحرك الروي لكونه وصفا للرب، وإنما يتم الكلام لو كان ملك مبتدأ وإله مضاف لياء المتكلم، فبنى عليه نظم هكذا مثلا:

ملــك النَّاس إلهـي   دون شــك وارتيـاب
اطلب التَّوفيق منه   في سلوكي للصوابِ

ومثل هذا قولي:

مَالك الخلق جميعـــا   ملك النَّاس إلاهي
ليس في الكون سواه   ملك دون اشتبـــاه

ولك أن تنصبه أو تبقيه على خفضه وَتُوصله بكلامك الموزون معه، مثل أن تقول على الأوَّل:

---

[1]- سورة الناس، الآية 1
[2]- أنظره في ص
[3]- سورة الناس، الآية 2.
[4]- من شواهد بحر الرمل في صورة مجزوءه السالم، سواء في عروضه أو ضربه، ورسم تفعيلته هي:
فاعلاتن فاعلاتن   فاعلاتن فاعلاتن

إنني في العفو أرجو	ملك الناس إلاهي
فهو ذو فضل عظيم	دون حد و تناهي

وتقول مثلا على إبقائه محفوظا:

كل فضل وارد من	ملك الناس إلاهي
وَالنبي وَاسطة فيه	مِن دون تتــــاهي

ومع هذا الاقتباس في الأخير هنا فلا يتم الأمر فيه لأن جوهر اللفظ القرآن في قولنا إلاهي قد تغير بإضافته للمتكلم فلذلك خرج عَن الشعرية بتحويل الإسناد وبكونه شطر بيت وقد قلنا بعدم شعرية البيت التام فأحرى شطره وإن وافق في الوزن فهو غير شعر ولا يصح أن يكون قوله تعالى يوسوس في صدور [1] متزنا من بحر المضارع[2] لأن مفاعيلن فيه وهو من دونها جزء التفعيل الأول منه تجيء فيه المراقبة بين كفه وقبضه، فلا يدخله الخبل باللام وبته عندهم

دعاني إلى سعاد	دواعي هوى سعاد[3]

تنبيه: القبض في اصطلاح الفن حذف السَّاكن الخامس من السبب في نحو مفاعيلن هنا، وَالكف حذف الساكن السابع منه، والخبل باللام جمعهما فيصير مفاعلن، وَهذا في هذا البحر ممنوع لكونه لا بد من مراعاة المراقبة فيه، وهي كون الجزء هنا إما أن يقبض فلا وكف، أو يكفو لا يقبض، وهذا هو المانع من اتزان قوله تعالى: يوسوس في صدور، ولم يصح أن يكون من هذا البحر، فليس بشعر قطعا.

ومن المتزن أيضا: قوله تعالى: من شر الوسواس[4]. فقد جاء في وزن شطر بيت من عروض مجزوء المتدارك على القول بدخول القطع أو التشعيث فيه مطلقا عروضا وَضربا وحشوا، وقيل في الحشو شاذ، والمفهوم مما نقلوه عن الزمخشري من زيادته لمثمن المتدارك عروضين، الأولى مخبونة لها ضرب مثلها، والثانية مشعثة لها ضرب مثلها عدم جواز الجمع بين السلامة والخبن والتشعيث، أو اثنين منهما في أعاريض أو أضرب القصيدة الواحدة، وهو ينافي ما شوهد كثيرا من خبر بعض الأعاريض وتشعيث بعضها الآخر، قاله العلامة الصبان وَإذا كان قوله في المثمن ففي المجزوء عدم جوَاز تشعيث الحشو وغيره، وهو المفهوم من أمثلة الاصطلاح في عروضه. الثانية المجزوة الصحيحة، فلها ضربان الأول مثلها وبيته:

---

[1]- سورة الناس، الآية 5.

[2]- المضارع من البحور العروضية، يتألف من أربع تفعيلات، ومفتاحه كالتالي:

تعد المضارعات	مفاعيل فاعلاتن

[3]- من شواهد بحر المضارع، ورسم تفعيلته كالآتي:

مفاعيلن فاع لاتن	مفاعيلن فاع لاتن

[4]- سورة الناس، الآية 4.

قف على دارهم وابكين بين أطلالها والدمن[1]

والثاني مرجل وبيته:

دار سعدي بشحر عُمان قد كساها البلى الملوان[2]

وَعليْه فإن ما ذكر في هذه السورة من هذا البحر فيه نظر، ولا يصح أن يكون قوله تعالى فيها من شر الوسواس متزنا من العروض المجزوة، لأنها مخبونة صحيحة في بيتها معا، وَاللفظ المذكور فيه التشعيث فلا يصلح أن يكون من هذه العروض ولا من ضربيها، لا المجزو الصحيح مثلها ولا من المرفل، لأنه غير صحيح، ولا مرفل طبق ما هو واضح.

من الياقوت والمرجان فيما اتزن من القرآن:

ولا تسأل عن أصحاب الجحيم[3]
حسدا من عند أنفسهم[4]
لن يجدوا من دونه موْئلا[5]

أنشد النيسابوري:

مرتع ظلـم الـورى وخيم يا صاحب اللب والحجـارة
لا تظلم الناس واخش نارا وقودها الناس والحجـــارة

وأنشد:

أيحسب الظالم في ظلمه أهمله القـــادر أم أمهـــلا
ما أهملهم بل لهم موعـد لن يجدوا من دونه موئلا

البسملة:
لا تتزن في بحر من بحور الشعر، ولو كان في بحر المتدارك جزوّ أو تشطير لاتزنت في المشطور المذال، مع دخول تشعيث في بعض الأجزاء، فتكون في التفعيل هكذا:

---

[1]- من شواهد بحر المتدارك في صورته الثانية، وهي عروض صحيحة مجزوءة وضرب مثلها.
[2]- من شواهد بحر المتدارك في صورته الثالثة، وهي عروض صحيحة مجزوءة، وضرب مجزوء مخبون مرفل، أي على رسم هذه التفعيلة:
فاعلن فاعلن فعلاتن فاعلن فاعلن فعلاتن
[3]- سورة البقرة، الآية 119
[4]- سورة البقرة، الآية 109
[5]- سورة الكهف، الآية 58

بسملْ لاهر رحما نررحيْم
فعلــن فعلـن فعلــن فاعلان

وبيت السّريع المكسوف المشطور وهو:
يا صاحبي رحلي اقلا عذلي

يشبه مصرع الرجز في الضرب المقطوع التام وبيته عندهم:
القلب منها مستريح سالم والقلب مني جاهد مجهود[1]

وحكى بعضهم لوافي الرجز عروضا مقطوعة مثلها، وأنشدوا عليه:
أنا بن حرب ومعي مخراقي أضربهم بصارم رقراق[2]

يا طالبـــا سر البسملة بها كشــف الكآبــــةْ
إلى الدواة وحرف الــــــــــــــقلم الذي صنع الكتابـةْ
وأقم لحرف الباء قـــا متها بمنزلة الخطابـةْ
ولسينهـــا فرق ودو رميمها تلق الإصابّـةْ
حسن جلالتهـــا ولّلــــــــــــــرحمان مَدّ بلا غرابةْ
جود لديها اسم الرحــــــــــــيم إذا أردتّ به ثوابـةْ
فالسر في هذا لمـــن يبغي حسن الإجابــةْ

وَفيه كفاية.

وإظهار حروفها على وفق ما تضمه الخبر المتقدم، وقد تكرر عندي خطه فلم أر حرفا منه مطموسا ولا معوجا حسبما رأيت والله الموفق.

[1]- البيت للشاعر الشهير ابن عبد ربه الأندلسي، قاله في ضمن خمسة أبيات ونصها
قلب بلوعات الهـــوى معمــــــود حي كميت حاضر مفقــود
ما ذقت طعم الموت في كأس الأسى حتى سقتنيه الظباء الغيــد
من ذا يداوي القلـــب من داء الهوى إذ لا دواءٌ للهوى موجـود
أم كيف أسلـــو غـــادة ما حبهـــا إلا قضاء ما لـه مــــردود
القلـــب منـــها مستريـــح سالــــم والقلب مني جاهد مجهود

[2]- ذكره الطبري في تاريخه 3: 64 بما نصه: عن شعيب، عن سيف، عن قدامة الكاهلي، عمن حدثه أن عشرة إخوة من بني كاهل بن أسد يقال لهم بنو حرب، جعل أحدهم يرتجز ليلتئذ ويقول:
أنا ابن حرب ومعي مخراقي أضربهم بصارم رقـــــراق
إذ كره الموت أبو إسحـــــاق وجاشت النفس على التراقي
صبرًا عفاف إنه الفراق
وكان عفاف أحد العشرة، فأصيب فخد صاحب هذا الشعر يومئذ فأنشأ يقول:
صبرًا عفاف إنها الأساوره صبرًا ولا تغررك رجل نادره

من الياقوت والمرجان:

من بحر الرجز:
وسع ربي كل شيء علما[1]

إن لم يصبها وابل فطل[2]
فيه هدى للمتقين[3]
على هدى من ربهم[4]
إن الذين كفروا سواء[5]

وإني فيه أتجنب غالبا ذكر المتزن المخل بالمعنى الخاص أو العام، إلا ما كان له توجيه في معنى مستنبط في وجه بديع، مثل قوله تعالى في أول البقرة: إن الذين كفروا سواء. فهو وإن كان جوهر الآية منظوما بما بعده في خطاب الرسول، ولكن يؤخذ منه معنى بديع، وهو أن الكفار في كفرهم وبغضهم سواء، فهو محمول على معنى غير ما سيقت الآية له في كون الكفّار لا يعبئون بما أنذرهم به أو لم ينذرهم، فهم لا يؤمنون، إلا ما كان ناقصا نقصا لا يتم بما يساق قبله أو بعده مثل قوله: "يخادعون الله وَالذين" فهو وإن اتزن في بحر الرجز، ولكن صلة الموصول لا بد منها، فذكره بدونها لا يحمل إلا بتحويل الإسناد بزيادة أو نقص أو قلب المعنى في قالب، مثل أن يتمم الناظم فيقول مثلا في ذم من يذمهم:

يخادعون الله والذين قد آمنوا ويهدمون الدينا

فهو في الهجاء من أشنع ما يقال.

ومثل قوله تعالى: قيل لهم لا تفسدوا في الأرض[6]، فيصلح للاقتباس بإضافة مثل هذا الشطر:

وهم إذا جاءوا بغير المرضي قيل لهم لا تفسدوا في الأرض

كما أني لم أسق غالبا ما نقص حرفا للاتزان مثل قوله تعالى في أولها:
لهم عذاب عظيم
لهم عذاب أليم
وإن كان يصلح للاقتباس، وإنما أذكر ما أذكر من ذلك لنكتة ربما أبينها معه في الذكر، ولربما أعتبر قراءة أحد القراء بذكر روايته، منبها عليها بذكر حرفه هنا في الاقتباس.

---

[1]- سورة الأنعام، الآية 80.
[2]- سورة البقرة، الآية 265.
[3]- سورة البقرة، الآية 2.
[4]- سورة البقرة، الآية 5
[5]- سورة البقرة، الآية 6.
[6]- سورة البقرة، الآية 11.

مجزوء المتدارك بقراءة قالون
فاعلن فاعلن فعلن
في قلوبهم مرض[1]
قالوا إنما نحن مصلحون[2]

البقرة:
المتزن منها:
فيه هدى للمتقين[3] (مستفعلن مستفعلات)
على هدى من ربهم[4] (متفعلن مستفعلن)
لهم عذاب عظيم[5] (مستفع لن فاعلاتن)
يخادعون الله[6] (متفعلن مفعولن)
لهم عذاب أليم[7] (متفعلن فاعلاتن)
قيل لهم لا تفسدوا في الأرض[8] (مستفعلن مستفعلن مستفعلن)
ذهب الله بنورهم[9]
لكم الأرض فراشا[10] (فعلاتن فعلاتن)

قالوا سكنتَ وَما في سكونك اليومَ مظمر
فَلو تحركت في القوم
كنت فيهم متصدر

فاتحة الكتاب:
الحمْد لله رب العالمين[11] (بنط)
الحمد لله رب[12] (مجثث)
ملك يوم الدين[13] (رجز)

---

[1]- سورة البقرة، الآية 10.
[2]- سورة البقرة، الآية 11.
[3]- سورة البقرة، الآية 2.
[4]- سورة البقرة، الآية 5.
[5]- سورة البقرة، الآية 7.
[6]- سورة البقرة، الآية 9.
[7]- سورة البقرة، الآية 10.
[8]- سورة البقرة، الآية 11.
[9]- سورة البقرة، الآية 17.
[10]- سورة البقرة، الآية 22.
[11]- سورة الفاتحة، الآية 2.
[12]- سورة الفاتحة، الآية 4.
[13]- سورة الفاتحة، الآية

البقرة:

ذلك الكتاب لا ريب فيه[1] (مديد)

فيه هدى للمتقين (رجز)

ويقيمون الصلاة[2] (رمل)

على هدى من ربهم (رجز)

قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون[3] (مجزو المتدارك)

---

[1]- سورة البقرة، الآية 3.

[2]- سورة البقرة، الآية

[3]- سورة البقرة، الآية

بلوغ الأماني
بالإجازة لمريد الورد التجاني

للعلامة سيدي أحمد سكيرج رضي الله عنه

تحقيق ذ محمد الراضي كنون
الإدريسي الحسني

بلوغ الأماني بالإجازة لمريد الورد التجاني[1]

بسم الله الرحمان الرحيم وصلى الله على الفاتح الخاتم وآله وصحبه وسلم.

الحمد لله الذي توج بتيجان القبول. بين ذوي الوصول. كل من ورد من ورد الختم التجاني. الذي بملازمة ذكره ينال غاية الأماني. وبلوغ السول. بضمانة الرسول. عليه الصلاة والسلام، وعلى آله وأصحابه مدى الدوام. أما بعد، فمن منن الله على عبد ربه. الواضع اسمه عقبه. أن تلقى الطريقة التجانية بالإذن الصحيح والإجازة في تلقينها لكل من طلب التقييد بحبلها. ليظفر بكمال فضلها. بمراعاة أركانها المقررة. وشروطها المعتبرة. عن جماعة من المقدمين فيها. ممن لهم الإذن الصحيح. وأعلى سند عندي في جميع أذكارها اللازمة فيها وغير اللازمة المرتبطة بأسرارها عن شيخنا العارف بالله سيدي ومولاي أحمد العبدلاوي[2] رضي الله عنه، عن القطب سيدي الحاج علي التماسيني[3] رضي الله عنه، عن شيخنا قطب الأقطاب، الختم التجاني رضي الله عنه، عن سيد الوجود صلى الله عليه وسلم مشافهة يقظة لا مناما.

وقد طلب مني أخونا في الله السيد .... أن آذن له في تلاوة أورادها لتتم الرابطة بينه وبين الشيخ رضي الله عنه بسندنا الصحيح فيها، فساعدناه لما طلبه منا بعد التزامه للقيام بشروطها المقررة.

---

[1]- كان العلامة سيدي أحمد سكيرج رحمه الله سريع الكتابة، كثير التأليف، جمع مؤلفات في مختلف العلوم التي كانت مناط اهتمام الطلبة والدارسين في ذلك العهد، وتتجلى هذه الكثرة عندما نتذكر أنه كان يقضي جل وقته في الكتابة والتدريس والقضاء والإفتاء وإلقاء المسامرات.
ويعد كتاب بلوغ الأماني بالإجازة لمريد الورد التجاني واحدًا من بين هذه المؤلفات، ورغم صغر حجم هذا الكتاب فإنه هام في بابه، اشتمل على مطالب تساعد في تربية المريدين وتهذيبهم، وتشبيعهم بالأخلاق والمثل العليا، وكان رحمه الله كثيرا ما يستعمل هذا الكتاب لإجازة بعض من يريد إجازته في الطريقة المذكورة، ويحث ضمن هذا الكتاب على العمل بالكتاب والسنة، والانقياد إلى الحق، والتشبث بالأوراد والمواظبة عليها، واعتقاد فضلها وما لها من قدر عظيم وثواب جزيل.
وليست لدي معلومات عن تاريخ تدوينه لهذا الكتاب، بيد أني وقفت على إجازة له لبعض المقدمين بمدينة فاس، استعمل فيها العلامة سكيرج نفس هذا الكتاب، وهي مؤرخة في 17 ربيع الأول عام 1343 هـ.

[2]- سبق التعريف به في الجزء الأول من هذا الكتاب ص

[3]- سبق التعريف به في الجزء الأول من هذا الكتاب ص

بيان شروط الطريقة

التزام الورد إلى الممات بانفراد الوجهة في الطريق بحيث لا يأخذ عليه وردا آخر لأي شيخ من الشيوخ، ولا زيارة أحد من الأولياء حيا كان أو ميتا. و ملازمة محبة أهل الله قاطبة، واحترام كل من ذكر منهم، وترك الخوض في الإنكار عليهم مطلقا.

بيان الأذكار اللازمة في الطريقة

هي الورد صباحا ومساء والوظيفة مرة في اليوم، وذكر الهيللة بعد عصر يوم الجمعة بشروطها جماعة أو انفرادا.

أهم ما يشتغل به المريد في سلوك هذه الطريقة

قيامه عى ساق الجد بامتثال الأوامر واجتناب المنهيات ظاهرا وباطنا بقدر الإمكان، مع الرجوع إلى الله بالتوبة فيما عسى أن يطرأ عليه من العصيان[1]. وينبغي للمريد أن يهتم قبل كل نافلة كيفما كانت بأداء الصلاة الفريضة في أوقاتها، وبالأخص في الجماعة بإتقان تام، وأن يؤدي ما عسى أن يكون تخلد في ذمته من فوائتها. فإن كثيرا من المكلفين يكون ترتب عليهم صلوات منذ بلغوا ولم يهتموا بقضائها، مع أنها في ذمتهم، والاشتغال بها أولى من سائر النوافل[2].

---

[1]- تدعو الطريقة التجانية فيما تدعو إليه إلى إيقاظ الضمائر وتنبيه الوجدان، ومحاربة البدع والخرافات التي ألصقت بالإسلام وهو منها بريء، مع إرساء العقيدة الصحيحة التي جاء بها الكتاب والسنة، وهي في مفهوم هذه الطريقة عبادة ودين وسلوك، ونور وإنابة وعمل صالح، وبناء عليه فما من مُريدٍ من مريدي هذه الطريقة إلا وتجده رجلا صادقا، متين الإيمان، عفيف النفس، طاهر الذيل، صريحا إلى أقصى درجات الصراحة، صلبا في الحق لا يلين.
ويُعرَف مريدو هذه الطريقة أيضا بكونهم من ألد خصوم الغش والخداع، والمغالطة والتضليل والاحتيال، ودس الدسائس، ونصب المكائد، وغير ذلك من الأخلاق التي تتنافى مع روح الإسلام وقيمه الفاضلة.

[2]- قال العلامة ابن عبد الرب في كتابه الإستذكار 1: 107 اتفق فقهاء المذاهب الأربعة على وجوب قضاء الفوائت من الفرائض، سواء تركت بسبب عذر، أو نسيان، أو نوم، تفريطا أو كسلا. إهـ..
وعموما فقد جاءت في هذا الصدد نصوص عديدة، منها قوله صلى الله عليه وسلم: العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة، فمن تركها فقد كفر. إهـ ..ولهذا فالواجب على المرء أن يبادر إلى قضاء ما تركه من الصلوات الفوائت، فإن لم يتذكر القدر المتروك فعليه قضاء ما غلب على ظنه، والأحوط أن يقضي كل المدة التي تكاسل فيها عن تأدية الفرائض، فيصلي مع كل فريضة حاضرة فريضتين من تلك الصلوات المتروكة، لعل الله أن يعفو عنه ويتجاوز عن تقصيره، وهكذا إلى أن تنتهي مدة القضاء، سواء كانت سنتين أو ثلاث، أو أقل أو أكثر، ولا تقوم النوافل مقام أداء الصلوات الفائتة، ومن زعم ذلك فقد أخطأ.

إكسير

مدار الأعمال على النية. فلذلك ينبغي للمريد أن يحسنها ما أمكنه، وليغتنم في طريقتنا التي هي طريقة الشكر قراءة الفاتحة بالبسملة بنية شكر الله على جميع النعم الظاهرة والباطنة. الحسية والمعنوية. المعلومة والمجهولة. العاجلة والآجلة. المتقدمة والمتأخرة. الدائمة والمنقطعة. من واحدة إلى مائة.

ثم الأصل في العمل عندنا في الطريقة على الكتاب والسنة، والفرار من البدعة عملا واعتقادا بقدر الإمكان. وقد قال سيدنا رضي الله عنه: إذا بلغكم عني شيء فزنوه بميزان الشرع، فما وافق فخذوه، وما خالف فاتركوه[1]. فتعين على المريد أن يجتنب كل ما خالفهما، ولا ينتصر للبدعة كيفما كانت، إلا إذا كانت بمثل العمل بالحديث الضعيف في فضائل الأعمال[2]، فيعمل بها، ولا يلتفت للمنكر، مثل صلاة الفوائت التي لم يتحقق بها في ذمته، فهي وإن لم يصح حديث بها فالشيخ عمل بها، فيعمل بها المريد اقتداء به.

فائدة في كيفية صلاة الفوائت

قد شاعت صلاة الفوائت بين الإخوان، وهي نافعة لمن لم يتحقق أن ذمته عامرة بفوائت، وأما من تحقق بعدد الفوائت فإنه لا بد من قضائه لها كما فعل جماعة ممن وفقهم الله من الإخوان. وكيفيتها أن يصلي أربع ركعات قبل عصر يوم الجمعة، ويسلم من كل ركعتين، يقرأ في كل ركعة بفاتحة الكتاب ثلاث مرات، وآية الكرسي عشر مرات، وسورة الكوثر خمسين مرة، وسورة الإخلاص ثلاث مرات، وبعد السلام يصلي على النبي صلى الله عليه وسلم سبعين مرة من صلاة الفاتح لما أغلق، وهناك كيفيات أخرى، وأجمعها ما ذكرناه.

ترغيب في صلاة التسبيح

يغتنم المريد صلاة التسبيح مرة في اليوم، أو في الجمعة، أو في الشهر، أو في السنة، أو مرة في العمر. والأولى أن لا يحرم نفسه منها كل ليلة من ليالي رمضان. وكيفيتها صلاة أربع ركعات، يسلم من كل ركعتين، يقرأ في كل ركعة بفاتحة الكتاب وسورة، ثم يقول قبل الركوع سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر 15 مرة. ثم يركع

---

[1]- أنظر الإفادة الأحمدية لمريد السعادة الأبدية لسيدي الطيب السفياني (باب حرف الألف)

[2]- اتفق جمهور أهل العلم على جواز الاحتجاج بالحديث الضعيف في فضائل الأعمال، شريطة أن يكون ضعفه غير شديد، وأن يندرج تحت أصل عام، وأن لا يعتقد عند العمل به ثبوته، بل يعتقد الإحتياط.

فيقول ذلك عشر مرات، ثم كذلك في الرفع من الركوع، وفي السجود والرفع منه، ثم السجود والرفع منه أيضا. فذلك خمس وسبعون مرة في كل ركعة[1].

ترهيب

لا يشتغل المريد بالبحث عن الإسم الأعظم ولا طلب خواص الأسماء، لأن ذلك من شيم البطالين الذين ليس لهم من ذلك إلا مجرد التعب[2]. ويتعين على المريد أن يترك التخليط في الأذكار، ولا يشتغل بطلب الإذن له في الأسرار المنوطة بها، فإن في ذلك تشتيت الفكرة عن جمع الهمة. والأفضل للمريد هو الإكثار من صلاة الفاتح لما أغلق، والهيللة والاستغفار بقدر الإمكان.

تحذير

لا ينبغي للشخص أن يتصدر لتلقين الأوراد من غير إذن صحيح عنده في التقديم، وليحذر من كل ما ينقطع به عن الطريق من رفض الورد ونحوه، فإن عاقبة ذلك وخيمة. ويحذر المريد أيضا من اعتقاد التأثير للشيخ في شيء فإن الفاعل هو الله، وليس بيد الشيخ مع الله إيجاد شيء أو إعدامه، وإنما هو عبد من عبيد الحضرة يدل على الله في طريقه، ولا ينبغي للمريد أن يبالغ في مدح الشيخ رضي الله عنه حتى يخرج به إلى الإطراء المذموم شرعا.

---

[1]- صلاة التسبيح، من حديث طويل قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم لسيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: يا غلام، ألا أحبوك، ألا أنحلك، ألا أعطيك، قال: فقلت بلى بأبي أنت وأمي يا رسول الله، فظننت أنه سيقطع لي قطعة من مال، فقال لي: أربع ركعات تصليهن فذكر هذا الحديث إلى آخره، أي كيفية صلاة التسبيح. رواه الترمذي في سننه (كتاب الوتر). باب ما جاء في صلاة التسبيح 2: 514 رقم 480. سنن أبي داوود (كتاب التطوع) باب صلاة التسبيح 4: 176 رقم 1297.

[2]- إشارة للفضول الذي يدفع بعض المريدين للبحث في مجال الإسم الأعظم، وما إليه من دعوات وحروف وأوفاق وطلاسم، مقتحما بنفسه في أمور لا تعنيه من قريب أو بعيد، بل يرغم أنفه فيها، ويواجه على أثر ذلك كثيرا من المشاكل التي تؤثر في حياته، فيدفعه حب الاستطلاع إلى الوقوع في المحظورات، والولوج في المنهيات، ويدخل نفسه فيما لا علاقة له به، فتارة تراه يتحسس الأخبار، وتارة قد سمع بكتاب من كتب هذا المجال فلا يهدأ له بال حتى يبحث ويستقصي، إلى أن يعثر عليه ويقرأ ما فيه، وقد يبتلى من جراء بحثه في مثل هذه الأشياء بالوسوسة والشك، وغير ذلك من الأمور التي تخل بالعقيدة الصحيحة وتؤثر فيها.

أما الإسم الأعظم فهو الإسم الذي تتفتح به طاقات النور، وتتسع له سماوات الرحمة، وتنهمر فيه أسباب المغفرة، وهو غير صالح لشؤون الدنيا وما إليها، بل للآخرة فقط، ولا يكتب على الصفحات والأوراق، بل يعطى من شخص لآخر بالتلقين فمًا بفَمٍ. ومن خصائص الإسم المذكور أنه هو من يبحث عن صاحبه لا العكس.

وبناء عليه فالأولى بالمريد الصادق أن يهتم بأوراده اللازمة دون غيرها، فإنه ما أفلح من أفلح إلا بها، وحذار أن يتهاون بها ويعتني بما لا يلزمه ويعنيه من أسماء وأذكار ودعوات مختلفة، فإن ذلك يجره إلى التخليط، والمخلط لا يصل ولا يفلح.

وهو رضي الله عنه وإن بلغ مرتبة الختمية والكتمية التي هي أعلى مرتبة من مراتب القطبانية فإنه لا ينبغي أن يفضل على أصغر صحابي، وإنما سميت مرتبة الكتمية لأن فضلها مكتوم عن العوام، فلا ينبغي إفشاؤه لئلا يُحمل على غير محمله، وينزل في غير محله، فتزول خاصيته، وربما أدى إلى نكير ممن يستهون أمر التكفير.

خاتمة

ليعلم أخونا المجاز في طريقتنا المحمدية التجانية أن المحافظة على وردها اللازم فيها كفيلة بخير الدارين بضمان لا شك فيه، بوعد من الصادق المصدوق عليه السلام في مبشرات منه للشيخ رضي الله عنه يقظة ومناما. والمدار في نيل هذا الفضل على الإعتقاد، ومدار الطريقة عندنا معشر التجانيين على ملازمة أورادها اللازمة المأخوذ العهد بالوفاء بها بشروطها بالإذن الصحيح من المقدم فيها، من غير التفات لما وراء ذلك في كتب الطريقة من الفضائل وسائر المسائل، لأن ما زاد على ذلك إنما هو فضل أو فضول. فالأول لأهل الاعتقاد، والثاني يؤدي منهم ومن غيرهم للإنتقاد، وكل منهم يعمل على شاكلته. والعاقل من اتهم نفسه في كونه لم يحط بالعلم، وسلك مع أهل الله طريقة السلم.

زيادة في الوصية

وأوصي هذا الأخ بأدائه لأوراده بترتيل، واستحضاره لمعانيها بقدر الإمكان، مع المحافظة على شروط الطريقة. وإن اختل شيء مما ذكرناه وجبت التوبة في الحين، وطولب بالتجديد في طريقته ممن عنده صحيح الإذن في التلقين، وإلا تعرض بنفسه للانقطاع بعد الاتصال. وحسبنا الله ونعم الوكيل. سائلا منه تعالى التأييد في الأقوال والأفعال، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما، والحمد لله رب العالمين.

قاله وكتبه خديم الحضرة المحمدية عبد ربه أحمد بن الحاج العياشي سكيرج الخزرجي الأنصاري

رفع الإشكال
عن وجوب الزكاة في الخرطال

للعلامة سيدي أحمد سكيرج رضي الله عنه

تحقيق ذ محمد الراضي كنون
الإدريسي الحسني

بسم الله الرحمن الرحيم و صلى الله على الفاتح الخاتم و آله و صحبه و سلم تسليما

رفع الإشكال عن وجوب الزكاة في الخرطال[1]

بسم الله وبعد، فيقول خديم الحضرة المحمدية أحمد بن الحاج العياشي سكيرج غفر الله ذنبه وستر عيبه، أني لمَّا كنت حللت بمدينة وهران عام تسعة وعشرين وثلاثمائة وألف. إجابة لمحبنا حقا، وحبيبنا صدقا، شريف النسبتين، مولانا الحبيب بن عبد المالك[2]، حين استدعتني همته للتمتع بمشاهدة محياه، وليبرز الجمع المقدر في ظهر الغيب للعيان بمقتضى: الأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف[3]، وقد ذكرت في رحلتي المعنونة بالرحلة الحبيبية الوهرانية[4] ما شاهدته في زيارتي له بذلك الوطن.

وكان من جملة ما سألني عنه في تلك السفرة بعض الأعيان، ممن يشار لهم بالبنان، عن حكم الله تعالى في **زكاة الزرع** المعروف عندهم بالخرطال[5]، حيث اضطربت في وجوبها فيه وعدم الوجوب أقوال علماء القطر الوهراني، واختلفت آراؤهم فيه، فمنهم من أفتى بالوجوب لكونه مما يقتات ويدخر، ومنهم من أفتى بعدم الوجوب لكونه من نوع ما هو علف لمثل النعم كالبقر.

فاستفهمتهم عنه بذكرهم لي أوصافه، ولما وصفوه لي تحقق لديَّ بأنه هو النوع المعروف بالعلس الذي وصفه الفقهاء في كتبهم، فأفتيتهم بوجوب الزكاة فيه، فعض بعضهم على فتواي فيه بالنواجذ، وأسر البعض منهم على مخالفتي باطنا، ولم يتظاهر في ذلك الحين بأنه لفتواي نابذ لأمرين، أولهما لما شاهده من تمسك المحبين في جانبي بما أقول، وهم بحمد الله

---

[1]- من عداد مؤلفاته غير التامة، شرع في كتابته إبان زيارته لمدينة وهران عام 1329 هـ- 1911م. وكان الجانب الفقهي غالبا على اهتماماته إذ ذاك، بل على كتاباته أيضا. والمعروف عنه حينها أنه كان أستاذا بجامع القرويين، من الطبقة الثانية، يدرس بها علم الفقه، مع تخصص عجيب في علم الفرائض.

[2]- سبق التعريف به في الجزء الأول من هذا الكتاب.

[3]- إشارة للحديث الصحيح الموورد عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: الأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف. رواه الإمام مسلم في (كتاب البر والصلة والآداب). باب الأرواح جنود مجندة رقم 6659.

[4]- أنظر الرحلة الحبيبية الوهرانية للعلامة سكيرج ص

[5]- الخرطال هو غذاء الخيول بامتياز، كما أنه يستهلك على شكل خبز من طرف الأروبيين على الخصوص، وهو يتميز بخاصيات مغذية ومنشطة معروفة، وتختلف قيمته حسب التربة والنضج والحالة التي يكون عليها عند الجني.

والمعروف عن الخرطال أنه يجنى في المغرب خلال النصف الثاني من شهر ماي، إمَّا بالمنجل أو آليًا بالحصادة الدارسة، وينقسم هذا النبات إلى عدة أشكال، أهمها الخرطال الشائع، وهو المتميز بأزهاره المتجمعة في عشكولات مهملة، وسنابله المثناة الزهر، وحباته الطويلة الملساء، ومن أهمها أيضا الخرطال الشرقي، ويتميز بعشكولاته المتجمعة، أما حباته فمحمولة من طرف عنيقات قصيرة، كلها مائلة في نفس الإتجاه.

كثيرون، بحيث لا يصغى الصادق منهم لمخالفي في ذلك تحققا منهم بأني لم أقصد إلا وجه الحق في فتواي فيما هنالك، ولا معنى للتعصب في أمُور الدين، بعد وضوح الحق للمسترشدين، ثاني الأمرين الموجب لإصراره على ما أسره من مخالفتي هو كونه لم يجد سبيلا إلى تأييد ما يزعمه من عدم وجوب الزكاة فيه إلا مَا توهمه من كون الخرطال لم يكن عند الناس معروفا، ولم يكن في كتب الفقه موصوفا، ولم يسمه أحد بالعلس.

ولم يزل مصرا على ذلك إلى زماننا هذا، فوجد من بعض المتفقهة أنصارا لما كان أضمره، فحينئذ سارع إلى التصريح بعدم الوجوب وما كان أصره من الجهل أظهره، وإلى الله أكل أمر المتعصب في الدين تبعا للأهواء ليضل الناس، وهو في ذلك على غير بصيرة من أمره.

وقد كتب إليّ جماعة من الأحباب من ذلك القطر في زيادة إيضاح هذا الأمر، ومقصودهم الوقوف على عين الحق في هذه النازلة، حيث قيل لهم بأني رجعت عن القول بوجوب الزكاة فيه، وممن أكَّد عليَّ في التعجيل بالجواب في هذا الموضوع الفقيه العلامة الشيخ السيد المنور بن البشير إمام جامع فلاج سيك، فإنه حفظه الله لما بلغه فتواي لم يداخله أدنى ريب في وجوب الزكاة في ذلك، ولم يزل متمسكا بالقول بالوجوب إلى الآن وحتى الآن.

غير أنه لما كان من ذوي التحقيق للحق، ورام الوقوف على عين الحق في هذا الأمر بقدم الصدق، أخذ من هذا الحب المعروف بالخرطال شيئا معه من غير علم أحد حين توجه للحجاز لأداء فريضة الحج في العام الذي توجهت فيه لمكة المشرفة لتهنئة أمير مكة الشريف حسين بن علي نائبا عن حضرة سلطاننا المعظم المحترم سيدنا ومولانا يوسف أدام الله سعادته، وهو عام أربعة وثلاثين، فأرى ذلك لعرب الحجاز، والقادمين للحج من بلاد اليمن السالكين على أقوم مجاز، فأخبروه بأنه هو العلس، فاطمأنَّ صدره بذلك، وقرت عينه بأن ما كنت أفتيته به صواب من غير ارتياب.

فرجع بالبشرى للأحباب والإخوان في قطر وهران، وأعلمهم بصدق المقال، بأنه الحق بحمد الله فيما كنت أفتيتهم به، رفعا لما تظاهر به المخالف من المخالفة التي أفضت بينهم لقيل وقال، وحيث وقف المخالف وقوف الجاهل المركب مع ما لديه، ولم يقبل الحق من أهله فيما ألقي بين يديه.

والعجب منه أنه داخله الشك حتى في ذلك الحج الذي أديناه في تلك السنة، وتبع في ذلك بعض السفهاء الذين أطلقوا منهم في ذلك الألسنة، فطلب مني الفقيه المذكور أن أبين وجه الحق للناس، حتى يرتفع عن كل مسلم ما داخله من هذا الوسواس، وها أنا ذا أملي في هذه العجالة التي أسميتها برفع الإشكال، عن وجوب الزكاة في الخرطال، مَا تطمئن به صدور أولي الإنصاف، و يردع من يعاند في الحق من أهل الاعتساف، والله أسأل أن ينفع به

المطالعين، ويهدي لأداء الزكاة من هذا النوع من ملك نصابه من الزارعين، وبالله التوفيق، لأقوم طريق[1].

مقدمة

الحمد لله المواق لدى خول خ لا لعلس ودخن ودرة وأرز من أجناس ما نصه:
من المدونة قال مالك أما الدخن والأرز والدرة فأصناف لا يضم بعض إلى بعض ولا تضم إلى غيرها، وروى ابن وهب في الاشقالية الزكاة اصبْغ وهو رأى وهو زرع بالأندلس يكون في أكمام كالزرع ويكون علوفة للبقر وربما احتيج طعاما إذا أجهدوا وهي جنة مستطيلة مصوقة في طول الشعير وليس على خلفته ومن إلى خلفة السلت وإلى القمح في فلقة أقرب ومن صنف كالذرة وقال ابن كنانة الاشقالية صنف من القمح يقال له العلس أي يونس قول ابن كنانة إنها تضم إلى تضم إلى القمح صواب وهو الذي حكاه ابن خبيب عن مالك وجميع أصحابه .

المطلب الأول في كون الحب المسمَّى بالعلس هو من الأصناف التي تجب فيها الزكاة:

المشهور من المذهب أن العلس تجب في نصابه الزكاة وقد اختلف فيه هل هو صنف وحده لا يضم للقمح والشعير والشعات أو يضم لها، درج ناظم مقدمات بن رسم إلى الضم فقال: ....

والمشهور عدم ضمه كما في الرسالة والمختصر وغيرهما.

المطلب الثاني في كون الخرطال هو العلس

---

[1]- حول موضوع زكاة الخرطال يقول المؤلف نفسه في كتابه تاج الرؤوس بالتفسح في نواحي سوس، وهو من عداد آخر مؤلفاته، جمعه بعد إفتائه في هذه النازلة بما يناهز العشرين سنة، قال:

وهنا تذكرت الذي قد قلت في	الخُرطَالِ مما قلت في أوزاني
فوجوبها لا شك فيه لـدي وهــــــــــو	الهرطمـــان أراه بالإيقـــان
ويقال فيه هو الشقاليـــة التي	هي خير نوع العلف للحيـوان
لا لا التفات لغير هذا القول عنــــــــــد	مريد حقٍّ جاء عن برهـــان
والله أعلم وهو يعلم صدق مـــا	قد قلتـــه في واضـــح التبيـان

[illegible] الجمان
في [illegible] كيران
في [illegible]

للعلامة سيدي أحمد سكيرج رضي ا عنه

تحقيق ذ محمد الراضي كنون
الإدريسي الحسني

نظم الجمان[1]

بسم الله الرحمن الرحيم و صلى الله على سيدنا محمد و آله و صحبه و سلم تسليما.
الحمد لله الذي أبان مجاز الحقيقة. لكل من تمسك بحبل الشريعة. فاستنار قلبه بنور الهداية. حتى صارت نفسه الأمارة بالسوء لمولاها مطيعة. و الصلاة و السلام على من أرسله الله للعالمين رحمة. يعسوب الأرواح و ينبوع كل حكمة. و الواسطة في كل نعمة.

محمد سيد الكونين و الثقلين و الفريقين من عرب و من عجم[2]

و على آله المطهرين من الرجس تطهيرا. و على أصحابه الذين أنار الله بهم طريق الحق تنويرا. و على كل من اقتفى أثرهم بإحسان على ممر الأزمان. و بعد فيقول أفقر العبيد إلى مولاه. الراجي مغفرته و رحماه، من لم يزل على أبواب فضل ربه يعرج. أحمد بن الحاج العياشي سكيرج. كان الله له و لوالديه. و أحسن لهما و إليه مع سائر المسلمين. و جعل الجميع من المقربين لديه آمين.

لما سأل مني بعض الشرفاء الأعيان. أصلح الله لي و له الأحوال في كل مقام مدى الأحيان. أن أطالع معه أرجوزة العلامة المحقق الدراكة المدقق المبرز في حلبة النظم و النثر على منصة الإتقان بين سائر الأقران. الشيخ الطيب بن عبد المجيد ابن كيران[3] رحمه الله تعالى. التي وضعها في علم البيان. و أسعفته في مقصوده على أني في نفسي بين الأقران حقير الشان. و لست من عداد فرسان هذا الميدان، أردت أن أجعل عليها تقييدا. يكون إن شاء الله تعالى لكل طالب مفيدا. وسميته **نظم الجمان في شرح نظم ابن كيران في البيان.** و على الله قصد السبيل، فهو حسبي و نعم الوكيل.

---

[1]- نظم الجمان في شرح نظم ابن كيران، للعلامة القاضي سيدي أحمد سكيرج، شرع في تصنيفه أواخر سنة 1328هـ_1910م، بيد أنه اكتفى بكتابة صفحات قليلة منه، ثم انشغل عنه بكتبه الأخرى، أما اختياره لعنوانه فالذي يبدو لي أنه استقاه من تأليف في الغرض نفسه للعلامة عمر بن إسماعيل بن مسعود الفارقي، مؤلف نظم الجمان في علم البيان.

[2]- هو البيت رقم 34 من بردة المديح للشيخ سيدي محمد بن سعيد البوصيري.

[3]- الطيب بن محمد بن عبد المجيد بن كيران، من أعيان علماء المغرب في عصره، ولد بفاس سنة 1172 هـ، له مؤلفات تنيف على العشرين، من بينها رسائل عديدة في النحو و المنطق والبيان، أذكر منها: نظم للأجرومية، و رسالة في (لو) الشرطية، و رسالة في الهمزة المسهلة، ورسالة في النكرة و اسم الجنس وعلمه و المعرف بلام الحقيقة و لام العهد، و نظم في المجاز والإستعارات، و له تفسير للقرءان الكريم من سورة النساء إلى قوله تعالى في سورة غافر: يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع.
توفي بموطنه بفاس سنة 1227 هـ، أنظر ترجمته في النبوغ المغرب لعبدالله كنون 1: 294، شجرة النور الزكية لمخلوف 1: 539_540 رقم 1516. إتحاف المطالع، لابن سودة 1: 108. سلوة الأنفاس، للكتاني 3: 2_3. الفكر السامي، للحجوي 2: 351 رقم 781. الإستقصا، للناصري 4: 149. الأعلام للزركلي 6: 178. الحياة الأدبية في المغرب على عهد الدولة العلوية، لمحمد الأخضر 345_347.

قال الناظم رحمه الله: (البسملة) غير خاف عمن كان بالأمور بصيرا. أن ترك الكلام على البسملة بما يناسب الفن المشروع فيه يرى قصورا أو تقصيرا. و ذكر ذلك فيه أداء حقين: أولهما حق المشروع فيه من هذه الحيثية، و ثانيهما حق البسملة من ذلك الفن كذلك. على أن ما لا يمكن كله لا يترك بعضه أو جله، فلنتكلم على بعض ذلك أداءً لهذين الحقين. و من الله أسأل الإعانة والتوفيق لسبيل الحق من غير مين، فأقول:

ابتدأ نظمه بالبسملة عملا بقوله صلى الله عليه و سلم أول ما كتب القلم في اللوح المحفوظ بسم الله الرحمن الرحيم، فإذا كتبتم كتابا فاجعلوها في أوله و في رواية: أول ما كتب القلم بسم الله الرحمن الرحيم، فإذا كتبتم كتابا فاكتبوها أوله، و هي مفتاح كل كتاب أنزل. و لما نزل عليّ بها جبريل أعادها ثلاثا، و قال: هي لك و لأمتك، فمرهم أن لا يدعوها في شيء من أمورهم، فإني لم أدعها طرفة عين، فقد نزلت على أبيك آدم عليه السلام. و كذلك الملائكة وخوفا من الوقوع فيما ورد عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم فهو أجذم[1]، وفي رواية: كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم أقطع[2]. و في رواية: كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه ببسم الله فهو أبتر[3]. الروايات الثلاث مختلفة وفي هذا الحديث روايات بسطنا الكلام عليها في غير هذا التقييد نظما و نثرا و الله الموفق، و مما يتعلق بها من هذا الفن مباحث: الأول في بابها: اعلم أولا أن الباء لها معان أشار لها الشيخ ابن عبد الرحمن اليبدري بقوله على سبيل التورية

تعد لصوقا و استعن بتسبـــــــــــب	و بدل صحابا قابلوك بالاستعلا
و زد بعضهم إن جاوز الظرف غاية	يمينا تحز للبا معانيها كـــــــلا

قال المحقق الصبان[4] في رسالته: فإن قلت ورود الباء كغيرها من حروف الجر لمعان مختلفة هل هو على طريق الاشتراك اللفظي أو الحقيقة أو المجاز؟ قلت: المعاني المختلفة الوارد لها حرف الجر إن تبادرت منه كالإستعانة و المصاحبة والسببية و التعدية الخاصة بالنسبة للباء

---

[1]- أنظر عمدة القاري بشرح صحيح البخاري، للعيني (كتاب الإيمان) 1: 101، ثم قال الشارح عقب ذكره للحديث: فهذا و إن كانت البسملة مغنية عنه لكنه كررها لزيادة الإعتناء على التمسك بالسنة، وللتبرك بابتداء اسم الله تعالى في كل أمر. إهـ.. و انظر أيضا نيل الأوطار للشوكاني (أبواب صفة الوضوء و فرضه) باب التسمية للوضوء 1: 159.

[2]- أنظر جامع الأحاديث و المراسيل (حرف الكاف مع اللام) 5: 430 رقم 15761.

[3]- يعزز هذه الرواية ما جاء في مسند الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: كل كلام أو أمر ذي بال لا يفتح بذكر الله عز و جل فهو أبتر، أو قال أقطع. إهـ.. مسند الإمام أحمد (مسند أبي هريرة رضي الله عنه) 3: 43 رقم 8648. سنن النسائي الكبرى (كتاب عمل اليوم و الليلة) ما يستحب من الكلام عند الحاجة رقم 10232.

[4]- محمد بن علي الصبان، عالم بالعربية و الأدب، له مصنفات كثيرة منها: حاشية على شرح الأشموني على الألفية لابن مالك، و الكافية الشافية في علمي العروض و القافية، و إتحاف أهل الإسلام بما يتعلق بالمصطفى و أهل بيته الكرام، و حاشية على شرح الرسالة العضدية، و حاشية على السعد، إلى غير ذلك من مؤلفات أخرى.

توفي بالقاهرة عام 1206 هـ، أنظر ترجمته في الخطط التوفيقية لمبارك 2: 84، الأعلام للزركلي 6: 297. معجم المطبوعات لسركيس 1194.

فحقيقة فيكون الحرف مشتركا بينها لأن التبادر علامة الحقيقة. و لا حاجة لتكلف معنى كلي جامع لتلك المعاني و جعله الموضوع له الحرف إلى آخر كلامه.

و اعلم أنه اختلف في أصالة الباء من البسملة و معانيها، فقيل بزيادتها. فيكون إسم مرفوعا بالإبتداء تقديرا لا محلا، كقولك بحسبك درهم، و الخبر محذوف، و التقدير اسم الله مبدوء به، أو أبدأ به بداءة قوية، أي بحسن إخلاص و نية، وأخذنا ذلك من كون الحرف الزائد يدل على التأكيد كما الرضى، و إلا كان عبثا لا يقع من العرب، و قولهم الزائد لا معنى له، أي غير التأكيد، ففي الباء مجاز بالزيادة على هذا القول، و مجاز بحذف الخبر على قول من يقول إن الحذف مجاز مطلقا، و قيل بأصالتها، وحقيقيها الإلصاق الذي لا يفارق الباء، وعليه اقتصر سيبويه، والإلصاق ينقسم إلى قسمين، حقيقي كأمسكت بزيد، إذا قبضت على شيء من جسمه، أو على ما يحبسه من يد أو نحوه، و مجازي نحو قولك مررت بزيد، أي ألصقت مروري بمكان يقرب من زيد، ثم استعملت هنا في غير معناها الأصلي، وهو الإستعانة على وجه الإستعارة التبعية كما سيقول الناظم:

و انسب إلى التبع إن تقع في صفة أو في فعل أو في حرف

و لك أن تجعلها من قبيل المجاز المرسل علانية الإطلاق و التقييد و تقرير الإستعارة على الأول شبهة الإرتباط على وجه الإستعانة بالإرتباط على وجه الإلصاق بجامع مطلق الإرتباط في كل مسرى التشبيه للجزئيات. فاستعيرت الباء الموضوعة للإلصاق الجزءي للاستعانة الجزءية على طريق التبعية. و على الثاني تقول إن الباء موضوعة للإرتباط المقيد بالإلصاق، فأطلقت على ذلك و استعملت في الإرتباط على وجه الإستعانة.

المطلب الرابع في معانيها

قد اختلف العلماء رحمهم الله في معنى الباء من البسملة فقيل للمصاحبة، و هي التي يصلح في وضعها مع كقوله تعالى اهبط بسلام[1]، و المراد بالمصاحبة هنا بقرينة المقام التبرك، وقيل للإستعانة، و هذا ليس فيه سوء أدب كما يتبادر للفهم، لأن الله تبارك و تعالى هو المعين.

إذا كان عون الله للمرء ناصرا تهيا له من كل صعب مراده
و إن لم يكن عون من الله للفتى فأول ما يجني عليه اجتهاده[2]

و فيها في معناها غير ذلك، و الإسم في اللغة ما دل على مسمى، و في الإصطلاح كلمة دلت على معنى في نفسها، و تعرضت بصيغتها للزمان، و هل الإسم عين المسمى أم لا؟ في ذلك

[1]- سورة هود، الآية 48
[2]- البيتان من شعر مولانا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه

كلام بين أهل السنة و المعتزلة، و الحق أن الخلاف بينهما لفظي. و على أنه خلاف المسمى قول من قال:

لو كان من قال نارا أحرقت فمه　　　　لما تلفظ باسم النار مخلوق[1]

و مذهب أهل السنة هو نفس المسمى، و اسم الجلالة الله علم على الذات الواجب الوجود، الموصوف بالصفات المستحق لجميع المحامد، الدال على الله تعالى دلالة جامعة لمعاني أسماء الله الحسنى، فقولنا علم على الذات فيه رد على النصارى الذين يقولون أنه سبحانه وتعالى صفة و تلك الصفة قامت بسيدنا عيسى ابن مريم تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا، وقولنا الواجب الوجود فيه رد على الدهرية القائلين ما هي إلا أرحام تدفع و أرض تبلع و ما يهلكنا إلا الدهر، و قولنا الموصوف بالصفات فيه ردٌّ على الظاهرية الذين نفوا الصفات كلها لا المعنوية و لا صفات المعاني وقوفا مع ظاهر القرآن و الحديث.

و قولنا المستحق لجميع المحامد فيه رد على المعتزلة الذين أثبتوا الصفات المعنوية لله تبارك و تعالى و نفوا عنه صفات المعاني، تنزه الله عن ذلك علوا كبيرا. و في قولنا الدال إلى آخره فيه إشارة إلى أنه هو اسم الله العظيم الأعظم، و عليه جمهور علماء الظاهر و جماعة من علماء الباطن، و قد ورد عنه صلى الله عليه و سلم أنه قال: ما بين بسم الله الرحمن الرحيم والإسم الأعظم إلا ما بين سواد العين و بياضها من القرب[2]، و اختلف في الأبلغ من الرحمن الرحيم، فقيل هو الأول. و قيل الثاني. وقيل معناهما واحد، و السر في اجتماع هذه الأسماء الثلاثة في البسملة هو أن العرب كانت تعرف المولى جل علاه بهذا الاسم و هو الله، و اليهود تعرفه باسم الرحمن لأنه معرب رخمان بالخاء المعجمة، و النصارى تعرفه بالرحيم، فقدم اسم الجلالة إشارة إلى تقديم العرب على غيرهم في الأفضلية، ثم بنو إسرائيل. قبل الإسلام لغيرهم إلا رتبة التأخير و قيل غير ذلك و لبعضهم:

و خصص الرحمان بالتقديم　　　　لأنه أبلغ من رحيـــم
لرحمة دنيا و أخـــــرى أبدا　　　　و أنه بالله مختصا بدا

و في هذا القدر كفاية، و اعلم وفقني الله و إياك لما يحبه و يرضاه أنه ينبغي أيضا لكل خائض في فن أن يصوره أولا و يتكلم على مبادئه العشر، فلنذكر بعض ذلك هنا تتميما للفائدة، فأقول:

---

[1]- البيت من شعر أبي نواس، و قبله بيت آخر و نصهما معا:

يا من يوجه ألفاظي لأقبحهـــــا　　　　لأنه ساحر العينين معشوق
لو كان من قال نارا أحرقت فمه　　　　لما تفوه باسم النار مخلـوق

[2]- رواه الحاكم في المستدرك عن ابن عباس أن عثمان بن عفان رضي الله عنه سأل رسول الله صلى الله عليه و سلم عن بسم الله الرحمن الرحيم فقال: هو اسم من أسماء الله، و ما بينه و بين اسم الله الأكبر إلا كما بين سواد العين و بياضها من القرب. إهـ... المستدرك للحاكم (كتاب فضائل القرءان) 1: 738 رقم 2064. جامع الأحاديث و المراسيل (مسانيد الصحابة) حرف الياء 18: 253 رقم 5461. كنز العمال، للمتقي الهندي (المجلد الثاني) 1: 275 رقم 4047.

قلادة مرصعة بالدرر في الكلام على المبادئ العشر

المبادئ العشر هي المجموعة في قولي:

لكل علم عندهم مبـــادي عشرة لحاضر أو بـــــــادي
واضع اسم حده استمداد موضوعه مسائل مفــــــاد
و فضله نسبته و الحكم فاحْفظ فلازالت علاك تسمو

و أما واضعه فهو سيدنا علي كرم الله وجهه على المشهور، و قد أشار إلى قضية وضعه ابن شعبان[1] في ألفيته بقوله:

أول من أفادنا النحو علـــــي سببه خلف حكاه الدؤلــــــــــي[2]
عن بنته التي نوت تعجبــــا فاستفهمت برفع فعله أبـــــــا
و قال قولي ما أشد الحـــرا بالنصب في الدال الثقيل و الـــرا
فاستنكرت مقالة أباهـــــا فاستخبرت عن أصلها أبـــاها
فقام في الوقت إلى الإمـــام و ارث علم سيد الأنـــــــام
و قال عندي يا إمام من لحن و اللحن في أبنائنا من المحـــن
فما الذي يرمي إلى الصواب و ما طريق الأجر و الثـــواب
قال الإمام اكتب و خذه منـي و انقله بين التابعين عنـــــي
قال و ما أكتب قال البسملـة و ضع ثلاثا في الكلام معلمـــه
إسما و فعلا ثم حرفا منهــا ركبه و المعنى يلوح عنهـــــا
فالإسم ما أنبأ عن مسمـــى و الفعل عن حركة المسمـــى
و الحرف ما عداها للمقتبس فانح على ذا النحو ثم زد و قــس

---

[1]- شعبان بن محمد بن داود الموصلي المعروف بالآثاري، نحوي أديب، من مواليد الموصل بالعراق سنة 765 هـ، له ما يزيد على ثلاثين مصنفا، معظمها في الأدب و النحو، منها ألفيته التي سماها: كفاية الغلام في إعراب الكلام، و العمدة في المختار من تخاميس البردة، و الحلاوة السكرية (أرجوزة في النحو) ووسيلة الملهوف عند أهل المعروف، و ديوان شعر، و شرح على ألفية ابن مالك في ثلاثة أجزاء، لم يتمه. توفي بالقاهرة سنة 828 هـ، أنظر ترجمته في الضوء اللامع، للسخاوي 3: 301. شذرات الذهب، لابن عماد 8: 184. الأعلام للزركلي 3: 164. كشف الظنون، لحاجي خليفة 2: 1497.

[2]- ظالم بن عمرو بن ظالم، المشهور بأبي الأسود الدؤلي، تابعي جليل، سكن البصرة في خلافة عمر رضي الله عنه، و ولي إمارتها إبان عهد علي كرم الله وجهه، له شعر جيد، و هو أول من نقط المصحف، كما أنه واضع علم النحو بإيعاز و توجيه من أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، توفي بالبصرة سنة 69.
أنظر ترجمته في الوافي بالوفيات، للصفدي 16: 305_308. وفيات الأعيان، لابن خلكان حرف الضاء 2 : 235. تهذيب التهذيب، لابن حجر العسقلاني 12: 10، الإصابة، للمؤلف نفسه 2: 241. بغية الوعاة، للسيوطي 2: 22_23 رقم 1334، سير أعلام النبلاء، للذهبي (الطبقة الأولى من التابعين) 3: 97 رقم 395.

حكى أبو الفرج الأصفهاني في الأغاني أن سبب وضعه للنحو أن أبا الأسود دخل على بنته بالبصرة. فقالت له: يا أبت ما أشد الحر؟ برفع أشد و جر الحر، فظنها تستفهمه أي زمان الحر، فقال: شهرنا حر. فقالت له: إنما أردت الإخبار و التعجب ولم أستفهمك. فأتى علي ابن أبي طالب فقال له يا أمير المؤمنين ذهبت لغة العرب حين خالطهم العجم، و أخاف أن تضمحل لغة العرب، فضع لنا علما، فقال له: و ما ذاك؟ فأخبره بخبر ابنته، فأمره باشتراء صفحة، فاشتراها بدرهم، وأملى عليه قوله الكلام كله لا يخرج عن إسم و فعل و حرف جاء لمعنى، و انحو على هذا النحو[1]، وفي رواية أن ابنة أبي الأسود لما قالت له: إنما أردت الإخبار و التعجب. قال: قولي ما أشد الحر، و افتحي فاك، يعني بنصبهما معا على التعجب، و إلى هذا أشار شيخنا الشريف مولاي إبراهيم العلوي[2] رحمه الله بقوله:

فما أشد الحر بالنصب معا　　　يرى تعجبا لدى من قد وعى
و رفع الأول و جر الثانـي　　　سمه بالإستفهام يا ذا الشـان

و أما اسمه فهو من جهة الأحكام التركيبية يسمى بالإعراب، و هو المقصود هنا، ومن جهة الأحكام الإفرادية فهو التصريف، و المصنف رحمه الله لم يتعرض لهذا، وقد يطلق القسمين معا علم النحو، سمي به لقول سيدنا علي رضي الله عنه انح على هذا النحو، و هو في اللغة يطلق على معان سبعة أشار إلى بعضها ابن شعبان بقوله:

النحو في اللغة أصل　　　وجهة قدر و قسم مثل

و أما حده فهو في الإصطلاح على أن التصريف غير داخل فيه علم يعرف به أحوال الكلمة العربية إعرابا و بناء، و إليه أشرت في منهج الدراية في نظم النقاية[3] بقولي:

علم به يعرف أحوال الكلم　　　إعرابا أو بنا لديهم قد وسم[4]

و أما استمداده فهو كلام العرب. و أما موضوعه فهو الكلمات، لأنه يبحث فيه عن عوارضها الذاتية من الإعراب و البناء و كيفية التركيب و غير ذلك، و أما مسائله فهي قضاياه وقواعده، كقولنا الفاعل مرفوع. و المفعول منصوب. و المضاف إليه مخفوض، و أما فائدته فقد أشار إليها ابن شعبان في ألفيته بقوله

---

[1]- أنظر كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني (أخبار أبي الأسود الدؤلي و نسبه). الوافي بالوفيات، للصفدي 16: 306_307. سير أعلام النبلاء للذهبي (الطبقة الأولى من التابعين) 3: 97 رقم 395.

[2]- من عداد الشيوخ الذين أخذ عنهم العلامة القاضي سيدي أحمد سكيرج، سبقت ترجمته ضمن الجزء الأول من هذه الرسائل.

[3]- منهج الدراية في نظم النقاية، من تآليف العلامة القاضي سيدي أحمد سكيرج، سبقت الإشارة إليه ضمن الجزء الأول من هذه الرسائل.

[4]- افتتح به باب علم النحو ضمن منظومته منهج الدراية في نظم النقاية، و هو البيت رقم 598 من المنظومة المذكورة.

فائدة النحو صلاح الألسنة   و الكشف عن وجه المعاني الحسنة

لأن به يعرف صواب الكلام من خطأه. و الإحتراز عن الخطأ في اللسان، مع الإستعانة على فهم جميع العلوم عموما، و على فهم الكتاب و السنة خصوصا، ولذلك قال الإمام مالك رضي الله عنه: لو صرت من العلوم في غاية، و من الفهوم في نهاية، فإن ذلك يرجع لأصلين كتاب الله و سنة رسول الله صلى الله عليه و سلم، و لا سبيل إليهما إلا بمعرفة اللسان العربي، وأخرج البيهقي في شعب الإيمان عن شعبة: إذا كان المحدث لا يعرف النحو فهو كالحمار على رأسه مخلاة ليس فيها شعير.

مثل الطالب الحديث و لا يعـــــــــــرف نحوا و لا لـــه آلاته
كحمار قد علقت ليس فيها   من شعير في رأسه مخـلاته

و قال الكسائي رحمه الله:

النحو علم شريف   و فضل معناه بـــاد
فربه في أمـــــان   من زيغة في اعتقاد[1]

و أما فضيلته فهي فوقانه على سائر العلوم بالنسبة و الإعتبار، فهو أصل أصيل في فهم معانيها وسلاسة مبانيها، و في مدحه يقول أبو حيان من قصيدة:

هو العلم لا كالعلم شيء تراوده   لقد فاز باغيه و أنجح قاصــــــده
و ما فضل الإنسان إلا بعلمـــه   و ما امتاز إلا ثاقب الذهن واقـــده
و قد قصرت أعمارنا و علومنا   يطول علينا حصرها و نكابـــــده
و في كلها خير و لكن أصلهـــا   هو النحو فاحذر من جهول يعانده[2]

---

[1]- قريب من هذا قول الشاعر:

رأيت العز في أدب و عقـل   و في الجهل المذلة و الهوان
و ما حسن الرجال لهم بزين   إذا لم يسعد الحسن اللســـان
كفى بالمرء عيبا أن تـــراه   له وجه و ليس له لســـــان

و قريب منه أيضا قول الشاعر:

إن علم الإعراب شيء عجيب   ينتقيه من العلوم اللبيـــــــــب
فبه يرتقي سماء المعانـــــي   و يحل المعنى العويص الغريب

[2]- قريب من هذا قول الشاعر

النحو قنطرة إلى العلـــــــوم فهل   يجاز بحر على غير القناطير
إن النحاة أناس بان مجدهـــــــم   فوق العباد جميعا بالمقاديــر
أصل الفصاحة لا يخشون من أحـــد   عند القراءة في أعلى المنابر
فهل علمت بذيب خاف من عنـــم   أو أجود الأسد ذلت للخنازير
لو يعلم الطير ما في النحو من شرف   غنت و رنت إليه بالمناقيــر

و أخرج البيهقي في شعب الإيمان من طريق الواقدي عن أبي الزناد عن أبيه: ما تزندق من تزندق بالمشرق إلا جهلا بكلام العرب و عجمة قلوبهم، و قال السيوطي في ألفيته[1]:

النحو خير ما به المرء عني   إذ ليس علم عنه حقا يعتني

و لذلك قال صلى الله عليه و سلم: أعربوا الكلام كي تعرفوا القرآن[2]. و عن ابن عمر مرفوعا: أعربوا القرآن يدلكم على تاويله[3]. و عن أبي داوود رضي الله عنه قال: سمعت الأصمعي يقول: إن أخوف ما أخاف على طالب العلم إذا لم يعرف النحو أن يدخل في قول النبي صلى الله عليه و سلم من كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار، لأنه لم يكن صلى الله عليه و سلم يلحن، فمهما رويت عنه و لحنت فيه كذبت عليه[4]، و من فضائل العربية أنه لم ينزل وحي على نبي إلا بها كما ورد في الحديث: لم ينزل وحي إلا بالعربية: ثم ترجم كل نبي لقومه[5]. أخرجه ابن أبي الثوري. ومنها أن كلام الجنة يكون بها، كما نص عليه غير واحد من الجلة من فحول الملة[6]. و من الآثار الواردة في ذلك ما ورد عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: مر عمر بقوم قد رموا رشقا فأخطأوا. فقال: ما أسوء رميكم، فقالوا: نحن متعلمين بالياء، فقال لهم: لحنكم عليّ أشد من سوء رميكم، سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول: رحم الله امرءا أصلح من لسانه[7]، و قال عمر رضي الله عنه أيضا: تعلموا العربية، فإنها تزيد في العقل و المروءة[8].

[1]- ألفية الحافظ السيوطي (في علم النحو) سماها الفريدة، جمع فيها بين ألفية ابن مالك و ألفية ابن معط، ثم شرحها بشرح مفيد سماه: المطالع السعيدة.

[2]- أنظر جامع الأحاديث و المراسيل (حرف الهمزة مع العين) 1: 473 رقم 3282. فيض القدير شرح الجامع الصغير (حرف الهمزة) رقم 1150. الفتح الكبير في ضم الزيادة إلى الجامع الصغير (حرف الهمزة) 1: 198 رقم 1977. كنز العمال، للمتقي الهندي (المجلد الأول) 1: 187 رقم 2783.

[3]- ذكره الحافظ السوطي في كتابه الإتقان في علوم القرءان 2: 175، و عزاه لأبي طاهر السلفي في كتابه الطيوريات.

[4]- أنظر تهذيب الكمال، ليوسف بن الزكي المزي 18: 388. تهذيب الراوي، للسيوطي 2: 106. إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، للحموي (الفصل الأول في فضل الأدب و أهله و ذم الجهل وحمله)

[5]- أنظر تفسير ابن كثير عند قوله تعالى: و إنه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين، و عزاه فيه للتابعي الجليل سفيان الثوري.

[6]- إشارة لقوله صلى الله عليه و سلم: أنا عربي، و القرءان عربي، و لسان أهل الجنة عربي. إهـ. مجمع الزوائد، للهيثمي (كتاب علامات النبوة) باب ما جاء في فضل العرب 10: 25 رقم 16600 رقم 16602، المستدرك، للحاكم النيسابوري (كتاب معرفة الصحابة رضي الله عنهم) 4: 98 رقم 7078.

[7]- أنظر كنز العمال، للمتقي الهندي (المجلد العاشر) 1: 2014 رقم 29344. مسند الشهاب القضاعي 1: 338 رقم 580. فيض القدير شرح الجامع الصغير (حرف الراء) 4: 24 رقم 4423.

[8]- أنظر جامع الأحاديث و المراسيل (مسانيد الصحابة) حرف الياء 18: 253 رقم 2306. كنز العمال، للمتقي الهندي (المجلد الثالث) 1: 635 رقم 9037. تهذيب التهذيب، لابن حجر العسقلاني (حرف الشين المعجمة) 2: 561.

و قال سيدنا علي كرم الله وجهه:

النحو يصلح من لسان الألكن | و المرء تكرمه إذا لم يلحن
و إذا طلبت من العلوم أجلهـا | فأجلها منها مقيم الألســـن[1]

ولابن بشار و قد أجاد:

رأيت لسان المرء آية عقلـــه | و عنوانه فانظر بماذا تعنـون
و لا تعد إصلاح اللسان فإنــه | يخبر عما عنده و يبيـــــــن
و يعجبني زي الفتى و جماله | فيسقط من عيني ساعة يلحن[2]

و أما نسبته لباقي العلوم فهي التباين، و أما حكم الشرع فيه فهو الوجوب الكفائي على أهل كل ناحية، و العيني على قارئ التفسير و الحديث، و في هذا القدر كفاية.

التعريف بالمصنف رحمه الله تعالى

هو الشيخ الإمام الحجة الهمام أبو عبد الله السيد محمد بن محمد الصنهاجي[3]، ولد رحمه الله سنة 672 هـ و هي السنة التي توفي فيها الإمام ابن مالك رحمه الله، وتوفي رحمه الله سنة

---

[1]- اللحن آفة فظيعة، كثيرة المساوئ، و مما وقفت عليه في هذا الموضوع قول مولانا علي كرم الله وجهه:

لحن الشريف يحطه عن قدره | فتراه يسقط من لحاظ الأعين
و ترى الذكي إذا تكلم معربـا | حاز النباهة بالبيان المعلــن

و منه أيضا قول بعض الشعراء:

إذا ركب الفقيه جواد نحو | يكون له الفخارُ على الرجال
يقول مقالة من غير لحـن | و تكمل عنده جل الخصـــال

و منها أيضا قول شاعر آخر:

إنما النحو قياس يتبــــــع | و به في كل علم ينتفــــــــــع
و إذا ما أتقن النحو الفتـــى | مر في المنطق مرا فاتســـــع
و إذا لم يعرف النحو الفتـى | هاب أن ينطق حينا فانقمــــع
فتراه ينصب الرفع و مــــا | كان من نصب و من خفض رفع

[2]- منهم من ينسب هذه الأبيات للعلامة المحدث يحيى بن عبد الحميد الحماني الكوفي، المتوفي بالكوفة بالعراق سنة 228 هـ.

[3]- المراد به محمد بن محمد بن داود الصنهاجي، المعروف بابن أجروم، له غير متن الأجرومية مؤلفات أخرى: فرائد المعاني في شرح حرز الأماني، في مجلدين، يعرف بشرح الشاطبية.
أنظر ترجمته في النبوغ المغربي لعبدالله كنون 1: 210. شجرة النور الزكية، لمخلوف 1: 312 رقم 794 . درة الحجال في أسماء الرجال 2: 109. الأعلام للزركلي 7: 33. جذوة الإقتباس، لابن القاضي 1: 233_234 رقم 208. وفيات الونشريسي 104. دليل مؤرخ المغرب الأقصى، لابن سودة 1: 261 رقم 1051 . كفاية المحتاج، للتنبكتي 2: 252_253.

723هـ وهي السنة التي ازداد فيها ابن عرفة رحمه الله، و دفن داخل باب الحديد بمدينة فاس، صانها الله من كل باس، حكي عنه رضي الله أنه ألف هذا المتن تجاه بيت الله الحرام، و لما أكمله ألقاه في البحر، و قال: إن كان خالصا لله فلا يبتل و إلا فلا، فكان الأمر على وفق مراده، و لذلك نفع الله به جميع عباده، و الله الموفق للصواب، و إليه المرجع و المآب، ثم قال رحمه الله:

يحتمل عندي أن تكون هذه ترجمة. أي هذا باب الكلام كما فعل غير واحد، و هذا هو الرجح والمرجوح الاحتمال المقابل، و بدأ رحمه الله بالكلام عليه، لأن به يقع التفاهم و التخاطب، ومن الألطاف الإلهية حدوث الألفاظ اللغوية ليعبر بها عما كن في الضمير، فالكلام هنا هو المقصود بالذات، و به يجاب عن قول بعضهم: كان من حقه أن يتكلم على الكلمة ثم يعرف الكلام لأنها مفردة و هو مركب، و معرفة المفرد سابقة عن المركب، و أل فيه للعهد الذهني أي الكلام المعهود في الأذهان، و هو كلام النحويين، و يحتمل أن تكون عوضا عن مضاف إليه، و ذلك المضاف إليه إما أن يكون إسما أو مضمرا، فيكون الأصل كلام النحويين هو كذا، أو كلامنا معشر النحويين. و المصنف من جملة النحاة هو كذا، و ذلك لأن الكلام في كل اصطلاح بحسبه، فهو في اللغة عبارة عن القول أو ما كان مكتفيا به. فيطلق عندهم على الإشارة، و منه قوله تعالى: قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا[1]. و الرمز الإشارة، ومنه قول الشاعر:

إذا كلمتني بالعيون الفواتـــــر	رددت عليها بالدموع البـوادر
فلم يعلم الواشون ما كان بيننا	و قد قضيت حاجاتنا بالضمائر[2]

و يطلق على لسان الحال، و منه قوله تعالى: يوم يقول لجهنم هل امتلأت و تقول هل من مزيد[3]. و قيل كلامها يكون حقيقة، و منه قول الشاعر:

إمتلأ الحوض و قال قطني	مهلا رويدا قد ملأت بطني

و يطلق على المعنى القائم بالنفس، و هو حديث النفس، و منه قول الأخطل:

إن الكلام لفي الفؤاد و إنما	جعل اللسان على الفؤاد دليلا

---

[1]- سورة آل عمران، الآية 41

[2]- وقفت على تشطير لهذين البيتين للشاعر حسن حسني باشا الطويراني المتوفي بالقاهرة سنة 1315 هـ، و نص تشطيره كالتالي:

إذا كلمتني بالعيون الفواتـــــر	جعلت لها الأجفان قلبي و خاطري
و إن أرغمت أمرا علي امتثاله	رددت عليها بالدمـــــــوع البوادر
و لم يعلم الواشون ما كان بيننا	و ما تفعل الأشجان بين السرائـــر
لقد جهلت أمري و عابوا تذللي	و قد قضيت حاجاتنا في الضمائـر

[3]- سورة قاف، الآية 30

و يطلق على التكلم. و منه قول الشاعر:

قالوا كلامك هندا و هي مصغية   يشفيك قلت صحيح ذاك لو كانا

و هو اسم مصدر لكلم، و في اصطلاح الفقهاء، و هو ما أبطل من حرف كم، أو حرفين كقم، أفاد أو لم يفد، إذا تعمد ذلك المصلي تبطل صلاته، و عند المتكلمين هو المعنى القائم بالذات العلية المعبر عنه بالعبارات المختلفة، المباين لجنس الحروف والأصوات، المنزه عن البعض و الكل و التقديم، و التأخير و السكون، و اللحن والإعراب، و سائر أنواع التغيرات المتعلق بما يتعلق به العلم من المتعلقات كما في المقدمات. و الكلام بفتح الكاف مشتق من الكلام بكسرها جمع كلمة و هي الجرحة جمعا قياسيا قال ابن مالك:

فعل و فعلة فعال لهما   و قل فيما عينه اليا منهما[1]

و من إطلاق الكلام على الجراح قول الشاعر:

أجدك ما لعينك لا تنام   كأن جفونها فيها كِلام[2]

---

[1]- البيت من ألفية ابن مالك، و هو البيت رقم 808 من الألفية المذكورة

[2]- البيت من شعر الصحابي الجليل سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه، هو مطلع قصيدة له في رثاء النبي صلى الله عليه و سلم، و تمام هذه القصيدة كالتالي:

أَجِدَّكَ ما لعينك لا تنــــام   كأن جفونها فيها كـــــلام
لأمر مصيبة عظمت وجلــت   و دمع العين أهوته انسجــام
فجعنا بالنبي و كان فينـــا   إمام كرامة نعم الإمــــام
و كان قوامنا و الرأس فينـــا   فنحن اليوم ليس لنا قـــوام
نموج و نشتكي ما قد لقينـــا   و يشكو فقده البلد الحـــرام
كأن أنوفنا لاقين جدعـــا   لفقد محمد فيه اصطــلام
لفقد أغر أبيض هاشمـــي   تمام النبوة و به الختـــام
أمين مصطفى للخير يدعـــو   كضوء البدر زايله الظـــلام
سأتبع هديه ما دمت حيـــا   طوال الدهر ما سجع الحمام
أدين بدينه و لكل قـــوم   تراهم من ذؤابته نظـــام
فقدنا الوحي مذ وليت عنـــا   وودعنا من الله الكـــلام
سوى ما قد تركت لنا رهينـا   توارثه القراطيس الكـــرام
فقد أورثتنا ميراث صـــدق   عليك به التحية و الســلام
من الرحمان في أعلى جنـان   من الفردوس طاب بها المقام
رفيق أبيك إبراهيم فيهـــا   فهل في مثل صحبته نـــدام
و إسحاق و إسماعيل فيهـــا   بما صلوا لربهم و صامـــوا
فلا تبعد فكل كريم قـــوم   سيدركه و لو كره الحمـــام
كان الأرض بعدك طار فيها   فأشعلها بساكنها ضـــرام

و المعنى الجامع بين الإشتقاق هو التأثير في كل من الكلام و الجراح، و ذلك أن الكلام إذا كان حسنا أثر في النفس سرورا، و إذا كان قبيحا أثر فيها تغييرا و أضفى فيها شرورا، و قد يطب الجراح بالكلام الطيب، و أما تأثير الكلام فلا دواء له كما قيل:

جراحات السنان لها التئام   و لا يلتام ما جرح اللسان

و قد أجاد القائل في قوله:

و داوي بلين ما جرحت بغلظة   فطب كلام المرء طيب كلامه

و أما الكُلام بضم الكاف فهي الأرض التي لا تنبت شيئا، و إلى هذا أشار شارح مثلث قطرب[1] بقوله:

أما الحديث فالكـــــــلام   و الجرح في المرء الكلام
و الأرض الصبخة الكلام   لليبس و التصـــــــــــب

[1]- مثلث قطرب، نسبة للعلامة النحوي محمد بن المستنير، يعرف بقطرب، و هو أحد تلامذة سيبويه، توفي سنة 206 هـ، و يسمى كتابه: المثلث في اللغة، و قد شرحه جماعة من العلماء منهم: عبد الوهاب بن الحسن المهلبي، و محمد بن جعفر القيرواني، و عمر بن محمد ابن عديس، و قد شرحه هذا الأخير في عشرة أجزاء.

النكات الجلية والم[illegible]ية
في أبيات من الكافية أحسن من أبيات ذكرت في الألفية

للعلامة سيدي أحمد سكيرج رضي الله عنه

تحقيق ذ محمد الراضي كنون
الإدريسي الحسني

النكات الجلية و المخفية[1] في أبيات من الكافية[2]
أحسن من أبيات ذكرت في الألفية[3]

بسم الله الرحمن الرحيم و صلى الله على سيدنا محمد و آله و صحبه و سلم

نحمد الله الذي رفع منصب من خفض جناحه للمؤمنين. و نشكره شكر من جزم بوفاء وعده في الدارين لعباده الموقنين. و نستغفره سبحانه من الذنوب الصادرة منا في السر و العلانية. ونستوهب منه الزيادة من مواهبه الإحسانية. حتى نحظى بنفحاته المرسلة من حضرة التداني لمن أراد الله به خيرا. و نظفر بخلاصة نعمه الكافية في الدنيا و الآخرة. و نصلي و نسلم على من كفاه الله كل خصاصه باختصاصه بالفضل على كل الخليقة. و جعله خلاصة الأنوار التي ضاءت بها سبل الحق في الشريعة والحقيقة. سيدنا محمد المحمود في الأكون. و على جميع الآل و الصحابة و من تبعهم مدى الدوام بإحسان و بعد، فيقول الفقير الذي لا يزال على أبواب فضل ربه يعرج. أحمد بن الحاج العياشي سكيرج. أحسن الله عاقبته. و أسبل عليه عافيته. و غفر له ولوالديه. وجعلهم مع المؤمنين في مقعد صدق لديه. آمين.

---

[1]- النكات الجلية و المخفية، في أبيات من الكافية أحسن من أبيات ذكرت في الألفية. من التآليف القديمة للعلامة القاضي سيدي أحمد سكيرج، شرع في كتابته أوائل عام 1324هـ_1906م. غير أنه انشغل عنه بتصانيفه الأخرى. فلم يتمه، و اكتفى بكتابة صفحات قليلة منه، أما اختياره لهذا العنوان فالغالب على ظني أنه اقتبسه من تأليف للحافظ السيوطي في نفس الغرض سماه: النكت على الألفية و الكافية و الشافية ونزهة الطرف و شذور الذهب.

[2]- الكافية الشافية، لابن مالك، تقع في 3000 بيت، نظم فيها قواعد النحو و الصرف، و هي من مزدوج بحر الرجز، نظمها بمدينة حلب السورية، و يقال أنه اقتبس اسمها من مقدمتي شيخه ابن الحاجب، وللناظم نفسه شرح على هذه المنظومة، طبع في جامعة أم القرى بتحقيق الدكتور عبد المنعم هريدي.

[3]- الألفية، و تسمى بالخلاصة، أرجوزة عدد أبياتها 1002 بيت، اشتهرت بالألفية لهذا السبب، وهي الأخرى من نظم ابن مالك، لخص فيها أرجوزته الكبرى المسماة بالكافية الشافية، و أشار إلى ذلك في ختامها عند قوله:

و ما بجمعه عنيت قد كمـــل	نظما على جل المهمات اشتمل
أحصى من الكافية الخلاصه	كما اقتضى غنى بلا خصاصه

و لأهمية هذه المنظومة فقد أقدم على شرحها أكثر من أربعين عالما، منهم الناظم نفسه، و بهاء الدين عبدالله بن عقيل، و علي نور الدين الأشموني و غيرهم.

لما طالعت كافية الإمام ابن مالك[1]. الذي هو في العلماء الجلة لأزمة العلوم العربية مالك. وجدتها كإسمها كافية لطلبة العلم. شافية لهم من أوحال الوهم و سوء الفهم. لا يعادلها في بابها نظم. تبسط لهم موائد خيرها. و تغنيهم في موضوعها عن غيرها. كما قال ناظمها في وصفها. مشوقا للاستنشاق لعرفها:

فليكن الناظر فيها واثقـــا	بكونه إذا يجاري سابقــــا
فمعظم الفن بها مضبـوط	و القول في أبوابها مبسوط
و كم بها من شاسع مقربا	و من عويص انجلى مهذبا

ثم إنه رحمه الله اقتطف منها نظمه الخلاصة التي طار صيتها في الآفاق. حتى لم يستغن عنها ذو غنى و لا ذو خصاصة، و جمع فيها ما بسطه في كافيته من هذا الفن الذي لم يشق أحد فيه غباره، في أوجز عبارة، و ألطف إشارة، بما شاع نفعه، وحسن جمعه، فكانت الألفية بهذه المثابة المعروفة. أعلى قدرا من كافيته الموصوفة. كما قال خطبتها:

تقرب الأقصى بلفظ موجز	و تبسط البذل بوعد منجز[2]

و قال في ختمتها:

و ما بجمعه عنيت قد كمـــل	نظما على جل المهمات اشتمل
أحصى من الكافية الخلاصه	كما اقتضى غنى بلا خصاصه[3]

[1]- محمد بن عبدالله بن مالك الطائي الجياني، من أبرز النحويين العرب، لاقت مؤلفاته اهتماما خاصا من طرف القراء العرب منذ عهده إلى غاية عصرنا الحاضر، أخذ العلم عن جماعة من جلة شيوخ عصره، كابن الحاجب، و ابن عمرون، و ابن الخباز الموصلي، و الحسن بن الصباح، و السخاوي، و آخرين.
و له تلامذة كثيرون، كابنه محمد بدر الدين، و الإمام النووي، و محمد بن إبراهيم ابن النحاس، وابن جعوان، و شهاب الدين الشاغوري و غيرهم.
أما مؤلفاته فهي كثيرة تزيد على ثلاثين مصنفا، معظمها في علم اللغة و النحو و الصرف والإعراب والقراءات. توفي سنة 672 هـ بدمشق، و دفن بسفح جبل قاسيون.
أنظر ترجمته في بغية الوعاة للسيوطي 1: 130_137 رقم 224. نفح الطيب، للمقري 2: 425_437. الأعلام، للزركلي 6: 233.

[2]- هو البيت الرابع من ألفية ابن مالك

[3]- من ضمن الأبيات الخمسة الأخيرة من ألفية ابن مالك

و هي جدير بشهادة الله، جدير بأعلى قدرا من هذه الصفة. و أغلى ثمنا من هذا القدر بين ذوي المعرفة. خلافا لمن عابها من الحساد، أو شابها بالانتقاد. مع معاصريه النقاد. كما قال فيها بعض الجلة، و هو أبو حيان بهاء الدين ابن النحاس[1] رحم الله الجميع كما في نفح الطيب:

ألفية ابن مالـــك مطموسة المسالك
و كم بها مشتغل أوقع في المهالـك[2]

و لم ينصف عفا الله عنا و عنه في هذا الوصف، و قد رد عليه من أنصف بقوله:

ألفية ابن مالـــك مشرقة المسالـــك
و كم بها مشتغل علا على الأرائك[3]

و ما أحسن قول ابن الوردي[4] رحمه الله في ذلك:

يا عائبا ألفية ابن مالـــــــك و غائبا عن حفظها و فهمها
أما تراها قد حوت فضائـــــلا كثيرة فلا تجر في ظلمهـــا
و اجر لمن جادل من يحفظها برابع و خامس من اسمهـــا

يعني صه. فإنه عند الاستقلال من اسمها الذي هو الخلاصة. بالرابع و الخامس يكون صه. بمعنى أسكت. ثم إن الناظم رحمه الله جعل أبيات ألفيته مختارة من أبيات كافيته. على حسب ما ظهر له. فمنها ما أخذه باللفظ. و منها ما أخذ معناه و جعله منظوما في درر عقدها لأمور رعاها ترجع للمعنى و للمبنى لهما معا. كما هو ظاهر في بعضها. و جلالته رحمه الله

---

[1]- محمد بن إبراهيم بن محمد ابن النحاس الحلبي، شيخ العربية بالديار المصرية في عصره، من مواليد سنة 627 هـ بحلب بسوريا، ثم استوطن القاهرة، و بها لقي ربه سنة 698 هـ، له مصنفات قيمة منها: التعليقة (في شرح ديوان امرئ القيس).
أنظر ترجمته في الوافي بالوفيات 2: 10_14 رقم 267. بغية الوعاة، للسيوطي 1: 13 رقم 17. الأعلام، للزركلي 5: 297. شذرات الذهب، لابن العماد 5: 442. معجم المؤلفين، لكحالة 8: 219. كشف الظنون، لحاجي خليفة 2: 1344_1805.

[2]- أنظر نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب 2: 434.

[3]- المراد به العلامة أحمد بن محمد المقري، أنظر نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب 2: 434.

[4]- عمر بن مظفر المعري الكندي، المشهور بابن الوردي، شاعر أديب نحوي مؤرخ، من مواليد معرة النعمان بسوريا سنة 691 هـ، له مصنفات عديدة منها: شرح على ألفية ابن مالك، و آخر على ألفية ابن معطي، و اللباب في الإعراب، و تذكرة الغريب (منظومة في النحو) و تحرير الخصاصة في تيسير الخلاصة، و تتمة المختصر (في التاريخ) و يسمى بتاريخ ابن الوردي، إلى غير ذلك من مؤلفات كثيرة.
توفي بحلب سنة 749 هـ، أنظر ترجمته في فوات الوفيات 3: 157، النجوم الزاهرة، لابن تغرى بردي 10: 240، بغية الوعاة، للسيوطي 2: 226_227 رقم 1858، الوافي بالوفيات 23: 46_49. الدرر الكامنة، لابن حجر العسقلاني 3: 272. الأعلام، للزركلي 5: 67.

تقتضي أن لا يجعل بدل شيء شيئا. إلا لنكتة عند صاحبها. و ما خفى عن طالبها فينبغي له أن يقول رب البيت أدرى بما فيه. و أهل مكة أدرى بشعابها.

و لكن لما طالعت بعض أبيات الكافية مما مضمنه في الألفية. و كان بحسب ما يظهر أحسن مبنى و ألطف معنى في الجملة. كما صرح به الناظم رحمه الله بنفسه في شرحه لها. و لم يظهر لي وجه عدوله عنه إلى ما في الألفية. ظهر لي أن أقيد ذلك في هذا التقييد اللطيف. منبها على وجه اختياري لذلك. و موضحا لما هنالك. ليظهر تفصيل الأصل على الفرع. ويحكم الاستحسان بأنه المناسب للوضع. و ربما استطردت بعض الفوائد. فيكون في جيدها عقود فوائد. و سميته **النكات الخفية. في أبيات من الكافية أحسن من أبيات ذكرت في الألفية.** و من فضل الله أستمد. و على الإستعانة به أعتمد. و هو سبحانه يسلك بنا أقوم سبيل. و هو حسبنا و نعم الوكيل. قال الناظم رحمه الله :

بالجر و التنوين و الندا و أل   و مسند للإسم تمييز حصل[1]

أحسن منه قوله في الكافية:

و اسما بجر سم و صرف و ندا   و جعله معرفا أو مسندا

تعبيره بالصرف أولى من التنوين لاختصاص الأول بالإسم كما قال:

الصرف تنوين أتى مبينا   معنى به يكون الإسم أمكنا[2]

و حقيقة التنوين ما قاله في الكافية:

إن يبد لفظا دون خط نون   كابسط يدا فذلك التنوين

و التعبير بالتنوين يتناول جميع أقسامه مما يختص بالإسم. و ما يكون في الفعل والحرف. أما المختص منها بالإسم فأربعة مجموعة في قول القائل:

تنويننا الذي بالأسماء حري   مكن و قابل عوضن و نكر

و هذا البيت أخصر من قول الكافية في تقسم التنوين:

و هو لتنكير و صرف و عوض   نحو صه صمتا إذ و ذو العوض
ما في الجوار و غواش و جعل   مقابلا في عرفات فقبـــــــــل

---

[1]- هو البيت العاشر من ألفية ابن مالك
[2]- البيت من ألفية ابن مالك، و هو البيت رقم 649

ثم قال:

و عوضا من مدة المطلق جا   كما لا تحمى انهجن في انهجا

يعني قول العجاج:

ما هاج أشجانا و شجوا قد شجن   من طلل كما لا تحمى انهجن

بالتاء المثناة و المهملة البرد و معنى انهجن خلف. و هو فعل التنوين فيه عوض ثم قال في الكافية:

و زيد في التنوين غال و أبي   أبو سعيد وحده ذا المذهبا

و تعبيره بالمعرف أحسن من تعبيره بأل قال في شرحه لكافيته: و من علامات الإسم قبول اللفظ لأن يجعل معرفا كقولك في غلام الغلام و غلامك، و هذه العبارة أولى من أن يذكر الألف و اللام، لأن الألف و اللام قد يكونان بمعنى الذي فيدخلان على الفعل المضارع كقول الشاعر:

ما أنت بالحكم الترضى حكومته   و لا الأصيل و لا ذي الرأي و الجدل

و جعله معرفا يتناول تعريف الإضافة. و التعريف بحق التعريف سواء قيل أن اللام وحدها على ما ذهب إليه سيبويه. أو أنه الألف و اللام معا على ما ذهب إليه الخليل ويتناول ذلك أيضا التعريف بالألف والميم و هي لغة أهل اليمن، و قد تكلم بها الرسول عليه السلام إذ قال: ليس من أمبر أمصيام في أمسفر[1]. يريد ليس من البر الصيام في السفر. و في الألفية:

بتا فعلت و أتت و يا افعلي   و نون اقبلن فعل ينجلي[2]

قد يقال أحسن منه قول الكافية:

للفعل تا الفاعل أو ياه علم   و قد وتا التأنيث ساكنا وسم

فإنه ذكر فيه من علامات الفعل خمسة أمور، و في الأول أربعة، مع ذكر ما تعرف به الأفعال الثلاثة، فتاء الفاعل تكون في الماضي تكلما و خطابا، و كذلك تاء التأنيث الساكنة، وأما ياء الفاعل فتكون في الأمر كافعلي، و تكون في المضارع، فالتعبير بياء الفاعل على

---

[1]- أنظر مسند الإمام أحمد (حديث كعب بن عاصم الأشعري 1089) رقم 23294 مسند الحميدي (حديث كعب بن عاصم الأشعري) 2: 381 رقم 869.

[2]- هو البيت الحادي عشر من ألفية ابن مالك.

هذا أحسن من ياء افعلي، و زاد من علاماته لفظة قد. و هي تدخل على الماضي و المضارع. و أما لم فتدخل على المضارع خاصا قوله في الألفية

سواهما الحرف كهل و في و لم — فعل مضارع يلي لم كيشـــم
و ماضي الأفعال بالتامز و سـم — بالنون فعل الأمر إن أمر فهـم
و الأمر إن لم يك للنون محــل — فيه هو اسم نحو صه و حيهل[1]

قد يقال أوضح من هذه الأبيات قول الكافية:

مضارعا سم الذي لم اتبعـــا — و ماضيا ما يقبل التأكد عـــا
و ميزن بالياء إن لم تتصــل — بنون رفع فعل أمر نحو صــل
و ما اقتضى أمر و ليس يقبــل — ذي الياء فهو اسم كصه يا رجل
و الحرف ما من العلامات خلا — كهل وبل و إن و ليت و إلـــى

قوله رحمه الله: و ميزن بالياء. إلخ.. أحسن من قوله وسم بالنون. إلخ.. لأن إفهام الأمر مشروط بغير الأداة ليخرج نحو لتضربن، و ليس في كلامه ما يدل عليه، وكذلك قوله و ما اقتضى. إلخ.. أحسن من قوله: و الأمر إن لم يك. إلخ.. لكن اختصار هذه الأبيات الأربعة في ثلاثة أبيات يظهر به وجه العدول عنها إليه. و الله أعلم، و قوله في الألفية:

فارفع بواو و انصبن بالألـــف — و اجرر بياء ما من الأسما أصف
من ذاك ذو إن صحبة أبـــانا — و الفم حيث الميم منه بـــانا
أب أخ حم كذاك و هـــــن — و النقص في هذا الأخير أحســن
و في أب و تالييه ينــــــذر — و قصرها من نقصهن أشهـــر
و شرط ذا الإعراب أن يضفن لا — لليا كجا أخو أبيك ذا اعتـــلا[2]

أحسن منه قوله في الكافية:

ذو المعرب ارفعه بواو و الألف — لنصبه و جره باليا عـــرف
كذا فم إن دون ميم وصـــلا — بغير يا النفس مضافا فاقبــلا
و هكذا أب أخ حم هـــــن — أو أجره كاليد فهو أحســـن
و في أب و تالييه ينـــــذر — و قصرها من نقصهن أشهـر

[1]- الأبيات من ألفية ابن مالك، و هي الأبيات رقم 12 و 13 و 14.
[2]- هو البيت العاشر من ألفية ابن مالك.

بسم الله الرحمن الرحيم

النكات الجلية و المخفية
في أبيات من الكافية أحسن من أبيات في الألفية

من اختيار العبد الذي لا زال على فضل ربه يعرج
أحمد سكيرج غفر الله ذنبه

قول الناظم ابن مالك رحمه الله في ألفيته في الكلام و ما يتألف منه

بالجر و التنوين و الندا و أل　　　و مسند للإسم تمييز حصل
بتا فعلت و أتت و يا افعلـــي　　　و نون اقبلن فعل ينجلـــي

أحسن منه قوله في الكافية:

و اسما بجر سم و صرف و ندا　　　و جعله معرفا أو مسنـــــدا
للفعل تا الفاعل أو ياه علـــــم　　　و قد و تا التأنيث ساكنا و لم

و قوله في المعرب و المبنى:

و نون مجموع و ما به التحق　　　فاكسر و قل من بكسره نطق
و نون ما ثنى و الملحق بـــه　　　بعكس ذاك استعملوه فانتبـــه

أخصر منه قوله في الكافية:

و النون في جمع له فتح و في　　　تثنية كسر و عكس قد يفـــي

و قوله في باب النكرة و المعرفة

و في اختيار لا يجيء المنفصل　　　إذا تأتى أن يجيء المتصـــل
و صل أو افصل هاء سلنيه و ما　　　أشبهه في كنته الخلف انتمـــى
كذاك خلتنيه و اتصـــــــــالا　　　اختار غيري اختار الإنفصالا

أخصر منه قوله

و لا انفصال إن تأتى المتصل　　　و نحوها سلنيه صل و قد فصل
في كنته و خلتنيه المنفصـــل　　　يختار و المختار عندي المتصل

و قوله في الألفية في الموصول

و النون من ذين و تين شـددا   أيضا و تعويض بذاك قصــــدا

أحسن منه قوله في الكافية

و النون قد تشد منهما و مــن   ذين و تين عوضا كي لا يهـــن

يتيمة الدر

في 5ر f ال[illegible]عر

للعلامة سيدي أحمد سكيرج رضي ا عنه

تحقيق ذ محمد الراضي كنون

الإدريسي الحسني

يتيمة الدر في قرض الشعر[1]

بسم الله الرحمن الرحيم و صلى الله على سيدنا محمد و آله و صحبه و سلم.
حمدا لمن أسبغ نعمه الظاهرة و الباطنة على خلقه في السر و العلن. و تفضل بالزيادة لمن شكرها و أقرضه بالقرض الحسن.

من يقرض الله قرضا   يقرض له و يوفـي
فهو الجواد بجـــــود   عم الوجود بلطـف

لا رب لي سواه. و هو الله الذي لا إله إلا هو. المنزه عن الشريك و الأشباه.

و لله في كل تحريكـــة   و تسكينة أبدا شاهـد
و في كل شيء له آيـة   تدل على أنه الواحد[2]

و نصلي على الرسول الذي أتاه الله الحكمة و فصل الخطاب. و اختصر له الكلام إختصارا يبهر الألباب، القائل: إن من الشعر لحكمة. و إن لمن البيان لسحرا[3]. المعجز بآياته الأوائل والأواخر طرا.

النبي الأمي أكرم خلق الله فضلا و خاتم الأنبيـــــــاء
أحمد المصطفى الذي خصه الله بما لم ينله أهل العلاء

و على آله الذين لهم الشرف الباذخ. و المجد الشامخ.

أولي المجادة و السيادة و العلا   و الله طهرهم من الأنجـــاس

[1]- هي من عداد مؤلفاته غير التامة، باستثناء المنظومة التي في آخرها، و التي أطلق عليها اسم: الياقوتة المكنوزة، و هي منظومة فريدة من نوعها، مفيدة للغاية، تطرق فيها لشتى الأدوات والمواصفات التي يحتاجها الشاعر، بالإضافة لمتطلبات القصيدة و قواعدها، و ما يجوز فيها وما لا يجوز.
و قد سبق لهذه المنظومة أن نشرت بمجلة دعوة الحق المغربية، ضمن شهر يناير عام 1970م، العدد الثاني من السنة 13، و ذلك بعناية و تعليق من الأستاذ محمد بن عبد العزيز الدباغ، المحافظ السابق لخزانة جامع القرويين بفاس.

[2]- البيتان للشاعر العربي أبي العتاهية ضمن خمسة أبيات له من بحر المتقارب، ونصها:

ألا إننا كلنا بائـــــــد   و أي بني آدم خالـــد
و بدؤهم كان من ربهم   و كل إلى ربه عائـد
فيا عجبا كيف يعصـــى الإلـــه أم كيف يجحده الجاحد
و لله في كل تحريكـــة   علينا و تسكينة شاهد
و في كل شيء له آيـة   تدل على أنه واحـــد

[3]- أنظر مسند الشهاب القضاعي 2: 99 رقم 962، رقم 965.

قوم هم الأعلون جل مقامهـــم   و هم السراة حقيقة في الناس

و على أصحابه الذين اتبعوه في منهاجه القويم و صراطه المستقيم.

أهل الهدى لمن اهتـــدى   فبهديهم هو مهتدي
حفظوا الرسول و شرعه   فلهم كمال السؤدد

و بعد فقد سألني بعض الأدباء الخائضين في بحر الأدب. و ينسلون إلى استخراج درره من كل حدب. أن أجعل تقييدا مختصرا على الأرجوزة التي سميتها الياقوتة المكنوزة. زيادة في إيضاح المقصود. فلم يسعني إلا مساعفته إغتناما لدعائه المحمود. و ها أنا ذا أكتب ما سنح بالبال. على حسب ما يقتضيه الحال. و إني أرجو من الله أن يكون الفتح منوطا لكل من أراد الإستعانة بها على جودة القريحة. ليجيد المدح في الجناب المحمدي و ما انضاف لذلك مما يرضي الله من الأمور المليحة. راجيا الدعاء بالمغفرة و الثواب الجزيل. و حسبنا الله و نعم الوكيل. و إني ألتمس العذر ممن وقف عليه من الأدباء أن يلحظوه مع المشروح بعين القبول. فإني قد نظمت المنظومة المذكورة من غير مراجعة الفن من أصله. و إنما جرت على حسب ما رسخ بالبال. لمن اقترح الدخول علي فيه ليعد من أهله. فأسعفته بما أمل لدي في فتح هذا الباب. فكانت بِنْتَ ارتجال مع هذا الإطناب. على أني إنما اكتفيت بالإشارة. و اللبيب لا يحتاج إلى بسط العبارة. غير أن مجال النظم أضيق من النثر. فلذلك بادرت بكتب ما يتضح به الأمر من غير تطويل في المقام و المقال. و ذلك كله على ما يخطر بالبال، فأقول: **بسم الله الرحمن الرحيم:** لا يخفى على من له بعض الإلمام بالعلم بأن البسملة يؤمر الشخص بالابتداء بها في كل أمر ذي بال. لما في ذلك من إعطاء ذلك الأمر حقه[1]. و استمداد كل مبتدأ بها في كل فن من بركتها ما استحقه. خصوصا إذا تحقق بأنه محتاج لما تنجبر به الأحوال. وأن الله هو الموصوف بالكمال. فكانت البسملة عنوانا على افتقاره للمعين. ولأن بركتها عائدة على المبتدي بها و تنسحب على الأمر المصدر بها فلا يعد ناقصا في المعنى. و ما لم يبتدأ بها فهو ناقص البركة و إن تم في الحس. و قد تكلم العلماء عليها و ألفوا فيها تآليف جمة. متنوعة الموضوع. و بسطوا القول عليها في كل فن مشروع. و لكونها برزخ العلوم. وتحار في الإطلاع على جميع ما انطوت عليه الفهوم. اقتضى مقام الإقتصار أن نحيل على مراجعة تلك التآليف من أراد فيها بسط الكلام. أما ما يناسب هذا الفن المنظوم فقد ذكرنا جملة منه في كتابنا منهل الورود الصافي. و الهدى من فتح الكافي، في علمي العروض والقوافي[2]، فلنكتف بما ذكرناه هناك ثم أقول:

حمدا لمن نعمه لا تحصى   و قرضها عن شاكريه يقصى

---

[1] - إشارة لقوله صلى الله عليه و سلم: كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم أَقْطَعُ. إهـ.. أنظره في جامع الأحاديث و المراسيل (حرف الكاف مع اللام) 5: 430 رقم 15761، الفتح الكبير في ضم الزيادة إلى الجامع الصغير (حرف الكاف) 2: 322 رقم 8695.

[2] - من مؤلفات العلامة سكيرج، سبق التعريف به ضمن الجزء الأول من هذه الرسائل.

قد اشتمل البيت على تلميحات بديعية. منها تلميح و اقتباس من قوله سبحانه: و إن تعدوا نعمة الله لا تحصوها[1]: وكيف تحصى و المولى أعلمنا بأنها لا تحصى، و كل نعمة منه كما قال جل علاه: و ما بكم من نعمة فمن الله[2]. فوجب شكره عقلا و شرعا على كل نعمة. بل شكره مطلوب على كل حال. و قد أجاد محمود الوراق في قوله:

عطيته إذا أعطى ســــــرور	و إن أخذ الذي أعطى أثابــــا
فأي الحالتين أحق شكـــــرا	و أحمد عند منقلب إيابــــــا
أنعمته التي أهدت ســــرورا	أم الأخرى التي أهدت ثوابـا
بل الأخرى و إن نزلت بكره	أحق بشكر من شكر احتسابا[3]

على أن الشكر نفسه نعمة ورحم الله القائل:

شكر الإله نعمـــة	موجبة لشكـــره
فكيف شكري بره	و شكره من بره[4]

غير أنه ورد ما يدل أن الشعور بالعجز على الوفاء بالشكر يوجب رضاء المشكور. فلهذا نشهد الله و رسوله وملائكته و سائر خلقه بأني عاجز مثل غيري عن الوفاء بشكره سبحانه وتعالى. ولا قدرة لي على استيفاء شكر نعمة الشكر فضلا عن غيرها. متيقن بأني لا أحصي ثناء عليه. فهو كما أثنى على نفسه[5]. و منها الإشارة إلى تصديق ما وعد الله به من قوله سبحانه: لئن شكرتم لأزيدنكم[6]. و لا أقل من الزيادة من إبقاء النعمة و عدم قرضها و قطعها عن الشاكر. وهو معنى عجز البيت. و في الحكم العطائية: من لم يشكر النعم فقد تعرض لزوالها، و من شكرها فقد قيدها بعقالها[7]. و قد نطق القلم هنا فقال:

شكر الإله موجـــب	زيادة من النعم
و الشكر عنوان على	سلامة من النقم

[1]- سورة النحل، الآية 18

[2]- سورة النحل، الآية 53

[3]- الأبيات للشاعر العربي محمود بن حسن الوراق، و قد افتتحها ببيتين آخرين لم يذكرهما المؤلف، ونصهما:

و منتصح يكرر ذكرى نشوى	على عمد ليبعث لي اكتئابــــا
فقلت وعد ما كانت تســـاوي	سيحسب ذاك من خلق الحسابا

[4]- البيتان للشاعر نفسه محمود بن حسن الوراق، و هما بيتان لا غير.

[5]- إشارة لقوله صلى الله عليه و سلم في دعائه: اللهم أعوذ برضاك من سخطك، و بمعافاتك من عقوبتك، و أعوذ بك منك لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك. إهـ. صحيح مسلم (كتاب الصلاة) باب ما يقال في الركوع.

[6]- سورة إبراهيم، الآية 7

[7]- أنظر الحكم العطائية الكبرى رقم 64.

و منها براعة الإستهلال. فإن المنظومة قد جعلت في القرض. و هو في اللغة القطع. وإقصاء قرض النعم و هو عدم قطعها عن الشاكر يشعر بأن المنظومة في هذا الفن المعبر عنه بالقرض. والقريض الشعر. و قد تذكرت هنا بيتين للولي الصالح سيدي العربي بن السائح[1] رضي الله عنه يشير بهما لقوله تعالى: إن تقرضوا الله قرضا حسنا[2] و هما قوله:

إن رمت نظم القريض اقرض الله   حقا ينلك المزيا فهو مولاها[3]

و قد ذكرنا هذه النبذة مساعدة للقلم. و قد أراد البسط في هذا الموضوع فحبسناه عن الركض في هذا الميدان. و هو يتلعثم حتى لا نخرج عن المقصود فنقول:

ثم على رسوله الصلاة   و الأل و الصحب لهم صِلات

من المطلوب في حق المفتقر أن يبحث عن طريق توصله للكرماء لينال من فضلهم. فيتحبب إليهم و إلى أهلهم بكل ما يرضيهم جهد الإمكان. و لا أحد أكرم من مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم. و نحن أفقر المحتاجين لما أولاه المولى من الفضل الذي لا يصل منه لمخلوق مدد إلا على يديه. و لا و سيلة يتقرب بها العبد إليه أحسن من الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم، فلذلك أرشدنا المولى إليها فقال جل من قائل: يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه و سلموا تسليما. و أرشدنا صلى الله عليه و سلم بالوعد المنوط بالثواب الذي لو تفطن له الموفق لاستكثر منه في كل وقت. وجعله ذريعة لا يلحظ المتذرع بها بعين المقت. و ذلك قوله صلى الله عليه و سلم: من صلى علي صلاة واحدة صلى الله عليه بها عشرا[4]. قال ابن عطاء الله رضي الله عنه: إذا صلى الله على عبده صلاة واحدة كفاه هم دنياه و آخرته، فكيف بمن صلى عليه عشرا، و قد صدق رضي الله عنه في ذلك. فبهذه المثابة كانت الصلاة على مولانا رسول الله صلى الله عليه و سلم أعظم القربات التي يتقرب بها العبد إلى مولاه. سيما من نفسه لا تقوى على المحافظة على شروط التقوى. و لقد أجاد الإمام البوصيري في داليته حيث يقول:

---

[1]- سبق التعريف به ضمن الجزء الأول من هذه الرسائل

[2]- سورة التغابن، الآية 17

[3]- البيت للعلامة الولي الصالح سيدي محمد العربي بن السائح، و بعده بيت آخر لم يذكره المؤلف و هو:

كم أنعم ليس يحصي العقل أصغرها   أسدى إلى الصادق المولى و أولاها

[4]- إشارة للحديث الذي رواه الإمام مسلم عن عبدالله بن عمرو بن العاص، أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول: إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول. ثم صلوا علي، فإنه من صلى علي صلاة صلى الله عليه بها عشرا، ثم سلوا الله لي الوسيلة، فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، و أرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لي الوسيلة حلت له الشفاعة. إهـ.. صحيح مسلم (كتاب الصلاة) باب استحباب القول مثل قول المؤذن لمن سمعه رقم 800.

و تزود التقوى فإن لم تستطـع   فمن الصلاة على النبي محمد
صلى عليه الله إن صلاة مـن   صلى عليه ذخيرة لم تنفـــد[1]

و لاغتنام هذه الغنيمة الكبرى طلبنا من الله أن يصلي عليه صلى الله عليه و سلم. وفوضنا الأمر إليه في مجازاته عنا بما هو أهله. فإننا لا نفي بشكره. و لو ملأنا الكون ثناء عليه وأملينا فيه إملاء تنفذ دونه البحور مدادا و النبات أقلاما. و لكن التمسنا الصلاة عليه من مولانا لفظا و كتابة في هذا المقام. تعرضا للفوز بما قاله عليه السلام: من صلى علي في كتاب لم تزل الملائكة تصلي عليه ما دام إسمي في ذلك الكتاب[2]. و مثل الكتاب النظم. لأن الكتاب بمعنى المكتوب. و هو مكتوب مع التماس ما هو موعود به المصلى عليه صلى الله عليه و سلم بما ورد من الأحاديث في ثواب ذلك. و لما كانت الصلاة التامة هي التي يصلي فيها على آله صلى الله عليه و سلم أدمجنا الصلاة عليهم امتثالا لقوله صلى الله عليه و سلم: إياكم و الصلاة البتراء[3]؟ قالوا و ما هي يا رسول الله. قال: أن تصلوا علي دون أهلي. و إلى هذا يشير الإمام الشافعي رضي الله عنه بقوله:

يا آل بيت رسول الله حبكـم   فرض من الله في القرآن أنزلـه
يكفيكم من عظيم المجد أنكم   من لم يصل عليكم لا صلاة له[4]

و الصلاة عليهم و الدعاء لهم فيه تعرض لرضاهم على المصلى عليهم. كما أن الصلاة على أصحابه الكرام تدل على سلامة صدر المصلي عليهم من بغض مطلق الصحابة. فضلا عن بغض بعض خاصتهم عياذا بالله منه. و من الأهواء المفضية إليه. و لا شك أن إظهار السني لمذهبه فيه براءة ذمته من مذاهب أهل الضلال. من خوارج وروافض و نحوهم من أصحاب الأهواء المضلة. فنسأل المولى أن يتوفانا على طريقة أهل السنة غير ضالين و لا مضلين. ولا يخفى ما في الصلاة و صلات من الجناس، فإن الأول إسم مصدر. و المصدر الأصلي تصلية. ومنه قول الشاعر:

---

[1]- البيتان للشيخ العارف بالله سيدي محمد بن سعيد البوصيري، من قصيدته الدالية التي يفتتحها بقوله:
كتب المشيب بأبيض في أســـود   بغضاء ما بيني و بين الخـــرد
وصف المشيب و قلن لي لا تبعد   خجلت عيون الحور حين وصفتها

[2]- رواه الطبراني في الأوسط، و ابن أبي شيبة، و المستغفري في الدعوات بسند ضعيف، كما ذكره العجلوني في كتابه كشف الخفاء 2: 338 رقم 2518.

[3]- بتراء: يعني ناقصة، ذات خلل كبير، و قد ذكر الله تعالى هذا اللفظ في معرض الذم للكافر أبي جهل الذي كان من أشد الأعداء لرسول الله صلى الله عليه و سلم، فقال: إن شانئك هو الأبتر.

[4]- للعلامة الصالح سيدي محمد أكنسوس تخميس لهذين البيتين، لا بأس أن نذكره في هذا المحل إتماما للفائدة، و هو:

يا سادة يا شموس الأرض نوركـــم   عم الوجود فإن الله ودكــــم
ها عبدكم قد براه الشوق ناداكــــم   يا أهل بيت رسول الله حبكم
فرض من الله في القرءان أنزله
أنتم يا سماء العلى و الناس أرضكم   ما نالهم مطر إلا سحابكــــم
حباكم ربنا بالفخر خصكـــــــــم   يكفيكم من عظيم الفخر أنكم
من لم يصل عليكم لا صلاة له

تركت القيان و عزف القيان و ألزمت تصلية و ابتهالا[1]

و بهذا البيت استشهد من جواز إطلاق التصلية بالمعنى المقصود من الصلاة. خلافا لمن منعها في الصلاة على النبي صلى الله عليه و سلم[2]. لكونها بمعنى الحرق. كما في قوله تعالى: وتصلية[3]. و شنع في ذلك غاية التشنيع. و لم يقف على أن ذلك من إطلاقات اللغة. على أن الصلاة قد وجدت بمعنى الإحراق. فلزمه ما فر منه إن لم يقل بجواز إطلاق التصلية على المعنى المقصود بالصلاة للعلة المذكورة. مع أن المدار على القصد في استعمال الألفاظ اللغوية فيما بين العبد و مولاه. و قد ساعدت القلم في الإفصاح عن هذه النكتة هنا مع الإحجاف. و إن كانت تحتاج لطول البسط. مع أن المقصود الاختصار ما أمكن. و لكن لا بأس بذلك لمن يقتنص شوارد الفوائد. و أما الثاني فهو جمع صلة.

<u>يقول</u> إن من كان عروضيا مطلعا على فن العروض و خاض في الشعر فإنه يجب عليه وجوبا أدبيا أن يعرف فن القرض. لأنه به يتوصل لمعرفة جيده من رديه. وتحصل له القدرة على إنشائه و استعماله. و يمكن قلب معنى البيت لنكتة. و ذلك أن يقال: إن من يريد قول الشعر ونظمه يجب عليه قراءة فن العروض. لأن الشعر لا يأتي على الأسلوب العربي إلا بإتفان هذا الفن، فبهذا كان المتعين على القارض معرفة العروض. و يتأكد في حقه حتى يزن ما يقوله بقسطاسه. فأفرغ الحث على علم العروض في قالب القلب. ليتفطن له طالب فن القرض و أنه لا يحمل به جهله.

---

[1] ـ البيت للصحابي الجليل ضرار بن الأزور الأسدي رضي الله عنه، من أبيات ثلاثة قالها بين يدي رسول الله صلى الله عليه و سلم و هي:

خلعت العزاف و ضرب القيا	ن و الخمر و تصلية و ابتهالا
وَ كَرِّي المُحَبَّرَ في غمـــــرةٍ	و شدي على المسلمين القتـالا
فيا رب لا أغبنــن بيعتـــــــي	فقد بعت أهلي و مالي ابتـذالا

و لدى إتمامه لهذه الأبيات قال له النبي صلى الله عليه و سلم: ما غُبِنَتْ صَفْقَتُكَ يَا ضِرَارُ، و في رواية: رَبِحَ البَيْعُ رَبِحَ البَيْعُ. إهـ.. المستدرك للحاكم النيسابوري (كتاب معرفة الأصحاب) 3: 264 رقم 5091 . 3: 719 رقم 6657. مجمع الزوائد للهيثمي (كتاب الأدب) باب جواز الشعر و الإستماع له 8: 233 رقم 13339 (كتاب علامات النبوة) باب ما جاء في ضرار بن الأزور الأسدي 9: 651 رقم 16063.

[2] ـ قال العلامة ابن عاشور في تفسيره المسمى بالتحرير و التنوير: و مصدر صلى قياسه التصلية. و هو قليل الورود في كلامهم. و زعم الجوهري أنه لا يقال صلى تصلية. و تبعه الفيروزابادي. والحق أنه ورد بقلة في نقل ثعلب في أماليه. إهـ.. تفسير التحرير و التنوير، للعلامة الطاهر ابن عاشور، سورة البقرة الآية 3، عند قوله تعالى: الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة و مما رزقناهم ينفقون.

و قال العلامة نفسه عند تفسيره لسورة الأحزاب: إن الصلاة غلب إطلاقها على معنى الإسم دون المصدر، و قياس المصدر التصلية، و لم يستعمل في الكلامم، لأنه اشتهر في الإحراق، قال تعالى: حميم و تصلية جحيم، سورة الواقعة، الآية 94، على أن الأمر بالصلاة عليه قد حصل تأكيده بالمعنى، لا بالتأكيد الإصطلاحي، فإن التمهيد له بقوله: إن الله و ملائكته يصلون على النبي، مشير إلى التحريض على الإقتداء بشأن الله و ملائكته. إهـ... تفسير التحرير و التنوير، للعلامة الطاهر ابن عاشور، سورة الأحزاب الآية 1، قوله تعالى يا أيها النبي اتق الله و لا تطع الكافرين و المنافقين، إن الله كان عليما حكيما.

[3] المراد به قوله تعالى: و تصلية جحيم، سورة الواقعة الآية 94.

بسم الله الرحمن الرحيم و صلى الله على سيدنا محمد و على آله وصحبه و سلم

حمدا لمن نعمه لا تحصـــــــى و قرضها عن شاكريه يقصــــى
ثم على رسوله الصــــــلاة و الآل و الصحب لهم صـــلات
و بعد فالقرض على العروضي إن خاض في الشعر من الفروض
و قد نظمت هذه الأرجـــوزة في فنه ياقوتة مكنـــــــــوزة
و اسأل الفتح من الله العلــــي لمن دعا لي بقبول العمــــــل

القرض وحده

علم به يعرف نقض الشعر و قدره في قيمه وَ سِعْــرِ[1]
و سبكه في قالب النضـــار سبكا يروق لذوي الأنظار

ما يطلب من مريد النظم ارتكابه و اجتنابه

لا بد للذي يريد النــــــــظما أن يقفو العروض فيه حتمـــــا
و أن يراعي القواعد التــــــي قد حررت في النحو بعد اللغـــة
و صاحب القريحة الوقـــــاده إن لم يراع ذاك بالإجـــــادة
يعد نظمه للاختـــــــــلال في وزنه في حيز الإهمــــــال
فزنة العروض في إتقانــــــــه و زينة القريض في ميزانـــــه
و عندهم مما يعين الشاعــــــر في القرض حفظ در شعر باهـــر
من شعر من مضى من الأعـــراب و غيرهم و الخوض فـــي الأداب
و يستعان بفراغ البـــــــال عليه قبل وقت الإستعمـــــــال
لذاك قيل وقته الأسحــــــــار لأن فيها تكمل الأوطـــــــار
و إن على النفس قسا تلفيقــــــه فكل شيء عندهم طريقــــــه
ما بين أغصان و ساقي الكـــاس مع الغنى به يلين القاســـــي
و عندهم يبدل الوقـــــــت إذا لم يجد الشاعر فيه المأخـــذا
لأنه في بعضها يخــــــــور و ربما في بعضها يفـــــــور
لذاك قد أكد حمل المحبـــــرة في حق من يريد أن يحـــرره
إذ ربما بلباله بالبـــــــــال يخطر ثم ينقضي في الحـــال
و كلما استحضر بيتا يعجبـــــه و لو مع اختلاف بحر يكتبـــه
و ليتبع القريحة المجيـــــــدة و لو برفض غالب القصيـــدة
فربما ينقاد قرض الشعـــــــر في أبحر من بعد خوض بحـــر
و ليجمع الأبيات مما نظمـــــا لدى المناسبة جمعا محكمـــا

---

[1]- علم القرض: قيل في التعريف به أنه علم باحث عن أحوال الكلمات الشعرية، لا من حيث الوزن والقافية، بل من حيث حسنها و قبحها، من حيث أنها شعر، و حاصله تتبع أحوال خاصة بالشعر، من حيث الحسن و القبح و الجواز و الامتناع و ما إلى ذلك، و غرضه تحصيل ملكة إيراد الشعر على تلك الأحوال الخاصة، و غايته الاحتراز عن الخطأ في ذلك الإيراد.

و ليتأنق في التخلص و فـــي   براعة لكل ما به يفـــي
و استحسن التصريع في القصائد   في مطلع و في سواه زائـــد
و ربما استحسن في انتقـــال   من كل قصة مع الكمـــال
و استحسن الجناس كلما ظهـــر   دون تكلف و ما المعنى استتـــر
و ليرع في مقاله المقامـــا   و ليزن الكلام و النظامـــا
و إن حسنه مع التلميـــح   وجودة التصريح و التلويـــح
و هو يدل ببديع نكتـــه   و الاقتباسات على فتوتـــه
فليتحفظ من أمور تفضـــي   به لما يعد غير مـــرضـي
فليحترز مما يكون سببـــا   لأن يرى يوما به ملقبـــا
و ليتفطن للذي ينطـــق بـه   فرب لفظ عاقه عن طلبـــه
و ربما أخذ بالقول الـــذي   يقوله و لم يجد من منقـــذ
و ينبغي ارتكاب ما معنـــاه   يفهم بالتعريب في مبنـــاه
و ترك وحشي اللغات في النظـام   لأجل أن يفهم مقصود الكـــلام
و مثله ترك تنافر الكلـــم   مع غرابة و تعقيد علـــم
لأنه يخل بالفصاحـــه   و تنمحي عنه به الملاحـــه
و القرض في وقت الشباب يحسن   و ذو المشيب الغزل منه يخشن
و ليحذر الخائض من ولـــوع   به يكون تارك المشـــروع
فإن فيه لوعة موجـــوده   تشغل عن فضيلة محمـــوده
و الشعر يغلو سعره بقـــدر   ما فيه من مخترعات الفكـــر
و استقبحوا مدح الفتى لشعـــره   إلا لمقصد يرى في نشـــره
كحالة الهجاء و الثنـــاء   في حالة القرب أو التنائـــي
و ليتحر القصد في المديـــح   ما لم يك الغلو بالصحيـــح
فإن في الزيادة النقصانـــا   ما لم يكن في محلها قد بانـــا
و المدح بالتجريب أولى كالهجـا   خوفا من الوقوع في خيب الرجا
و ليجتنب في الهجو سبا يســري   لغير مهجو من أهل القـــدر
و مذهبي ترك الهجاء مطلقـــا[1]   لا سيما في آل بيت ارتقـــى
فإن بالنطق البلا موكـــل   و ليس عذر في الهجاء يقبـــل

---

[1]- لعله يشير بذلك إلى قول أحد الشعراء:

لسانك لا تبدي به سوءة امرئ   فكلك سوءات و للناس ألســن
و عينك إن أهدت إليك معايبا   من الناس قل يا عين للناس أعين

و أعذب الشعر لديهم أكذبـــــه[1] لكن تحري الصدق جاء مطلبــه
و تكره السرقة المعلومـــــه و قيل مطلقا ترى مذمومـــه
و من بطرق الإنتحال سلكــا فلا يزال شعره مشتركــا
و بالإجازة النظام يجلـــو و للمسامع شداه يحلـــو
و بالبواعث يروق معنـــى و بالتعشق يفوق مبنـــى
لأن بالعشق الطباع تصقـــل و تورث البليد فهما يجمـــل
لا سيما إن هيج القلب الجـــوى أو قرب الوصال أو طال النوى
و ليجتنب في المزح و اللهو و ما أشبه ذلك اقتباسا علمـــا
و ترك معنى متكرر علـــم كترك علة قبيحة حتـــم
كمثل إيطاء و اقواء و مـــا يعاب في جميع ما قد نظمـــا
و استقبح الردف بواو مع يـــا و نحوه وإن لديهم رويـــا
و الإنسجام في جميع النظـــم سحر حلال عند أهل الفهـــم

كيفية النظم و ترتيبه

سطر تجاه سطرك القوافـــي لأجل أن تختار منها الوافـــي
لتأخذ القافية المناسبـــه لنظمك الذي تؤدي واجبـــه
ولا تكلف نفسك السير علـــى وثيرة في نظمك الذي انجلـــى
بل اقتطفه كيفما تأتـــى لك و لا ترده بيتا بيتـــا
و بعد ترتب القصيـــده و هذه طريقة مفيـــده
و بعضهم ينظم ما يستحضـــره شيئا فشيئا بعدما يسطـــره
يجعله كالصورة المشخصـــة و يسبك المعنى بما قد خصصه
و استحسنوا التشبيب و التغـــزلا صدر القصيده في مديح يجتلى
و ليتحرى القصد في القصيد في تغزل و هو بالنصف وفـــي
و ليرع في النسيب ممدوح النظام فرب قول لا يناسب المقـــام
و ليرع في تخاطب الغوانـــي ما لم يعب من جهة المعانـــي

---

[1]- ملحوظة: الشعر العربي في حد ذاته لا يحث على الكذب، بل يمقته أي مقت، حتى في فترة ما قبل الإسلام، بيد أن هناك عبارة شاعت عن العرب حول أعذب الشعر، فقالوا: أعذب الشعر أكذبه، و المقصود في ذلك ليس الكذب بعينه، و الصحيح أن مرادهم بهذه المقولة المشهورة هو الشعر الذي يبدو من قراءته لأول وهلة أنه كذب، و لكن يتحدث عن حقيقة واقعة، مستخدمًا فيها بعض ألوان البلاغة، مثل الإستعارات و التشبيهات التي أبدعها خيال الشاعر، بحيث إنك إذا أخذت بمعناها الحرفي تقول عنها كذب، و إذا أخذت بمعناها الضمني المراد التعبير عنه وجدت الصدق بعينه، و لكن أحاسيس الشاعر الجياشة و إبداعه الشعري صورته بهذه الصورة، و لنأخذ مثلا على ذلك قول الشاعر أبي الطيب المتنبي حين يقول:

الخيل و الليل و البيداء تعرفني و الضرب و الطعن و القرطاس و القلم

فلو نظرنا لمعنى البيت الحرفي لوجدنا أنه يكذب، فلا الخيل و البيداء و لا كل الأشياء المذكورة تعرف المتنبي، لأنها بعضها جماد أصم، و بعضها لا يعقل، و إنما قوله الخيل تعرفني أي أنه يكثر ركوبها، وهي من دلائل الفروسية عند العرب، و بالنسبة للبيداء أو الصحراء قصد أنه كثير الترحال من خلالها. و قصد من الضرب و الطعن أنه رجل مقدام في الحرب، و في المواقف التي تقتضي مواجهة شجاعة، و عنى بمعرفة القلم و القرطاس له بأنه رجل يكتب الشعر.

كذكره بأنه ينـــــــــــــــــــام　　و يدعي العشق فلا يـــــــلام

و ليتلطف في تخاطب الحبيـــــب　　و ليكثر الزجر للاح و رقيــب

و ليبدأ المطلع بالفأل الحســـــــن　　في المدح و الهنا بأبدع لســان

وفي الرثاء يحسن الوعظ بمـــــا　　تتعظ النفس به إن نظمـــــــا

و يحسن التاريخ في التهانـــــــي　　و في التقاريض لدى المبانـــي

و يختم القصيد بالدعـــــــــاء　　أو بالذي دَل على انتهـــــــاء

محاذاة [illegible]

أ[illegible]ي [illegible]يد ال[illegible]اسي

للعلامة سيدي أحمد سكيرج رضي ا عنه

تحقيق ذ محمد الراضي كنون

الإدريسي الحسني

محاذاة نظم
أبي زيد الفاسي[1]

بسم الله الرحمن الرحيم و صلى الله على سيدنا محمد و آله و صحبه و سلم.
الحمد لله الذي دل بالحق على خير العمل من شاء رشده. و أمر نبيه في القرآن الكريم بالأمر بالعرف و الأخذ بالعفو في الرخاء و الشدة. صلى الله عليه و على آله وأصحابه أجمعين. وعلى من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين. و بعد فالمقصود من هذا التقييد محاذاة نظم أبي زيد الفاسي[2] لبعض المسائل من الأحكام التي جرى بها عمل فاس. الذي رفع جريانه فيها الخلاف لتعين العمل به فيها و لو خالف المشهور. و هو في ذلك تابع للقول الموافق لأعراف الناس. المؤسسة على القواعد الشرعية من غير إلتباس. مما وجده الناظم المذكور عند الثقاة المعتمد عليهم. من العدول و القضاة المرجوع فيها إليهم. و بعض تلك المسائل منقولة من كتب أصحاب النوازل من المتقدمين و المتأخرين. طبق ما هو محرر من أجوبتهم الصحيحة الثابتة لهم. و قد عد منها أبو علي الزقاق[3] في لاميته ثمان عشرة مسألة. ستذكر مع المزيد عليها في نسق مستحسن بحول الله. سائلا من المولى النفع به في الدارين.

مسائل من النكاح و الطلاق
و النفقة و اللعان و العدة

جرى عمل فاس بأنه إن وقع في النكاح بين ولي الزوجة و الزوج أو نائبها الشرعي عليه. وظهر القبول من كليهما و انقطع الوعد بينهما لضرب الصداق و عقده. فإن هذا كله ينزل منزلة الدخول بهذه الزوجة. يترتب عليه من الأحكام ما يترتب بالدخول من إرث و غيره. ولعل هذا هو المشار له بقول الناظم:

---

[1]- هو من ضمن كتبه غير التامة، إذ لم يكتب منه سوى أربع صفحات لا غير.

[2]- عبد الرحمن بن عبد القادر الفهري الفاسي، من مشاهير علماء عصره بفاس، و هو صاحب منظومة العمل الفاسي، و له إلى جانبها عشرات المؤلفات القيمة، منها ما هو في التاريخ، و منها ما هو في الفقه والحديث و القراءات و التصوف و ما إلى ذلك من علوم أخرى.
توفي بفاس يوم الثلاثاء 16 جمادى الأولى سنة 1096 هـ، عن عمر لا يزيد عن 56 سنة، و دفن بزاوية والده، عند رجليه، ملتصقا بحائط يمين محرابها.
أنظر ترجمته في شجرة النور الزكية، لمخلوف 1: 456_457 رقم 1248. سلوة الأنفاس، للكتاني 1: 31 . نشر المثاني، للقادري 2: 325_329. الدرر الفاخرة، لابن زيدان 13. الفكر السامي، للحجوي 2: 336 رقم 750. فهرس الفهارس، للكتاني 735 رقم 393. جامع القرويين، لعبد الهادي التازي 3: 795. الأعلام، للزركلي 3: 310. موسوعة أعلام المغرب 4: 1689. صفوة من انتشر، للإفراني 201.

[3] علي بن قاسم بن محمد التجيبي، المعروف بالزقاق، من مؤلفاته المنظومة اللامية في علم الأحكام، تعرف بلامية الزقاق، و المنهج المنتخب إلى أصول المذهب، توفي بفاس عن سن عالية سنة 912 هـ، أنظر ترجمته في شجرة النور الزكية لمخلوف 1: 396 رقم 1045. درة الحجال، لابن القاضي 3: 252. نيل الابتهاج، للتنبكتي 343. دوحة الناشر، لابن عسكر 55. سلوة الأنفاس، للكتاني 2: 84. الأعلام للزركلي 4: 320.

و في النكاح إن بدى القبول   و الوعد للعقد هو الدخول

و جرى العمل بأن سماع الجيران بأن فلان تزوج بفلانة مع قبول الزوجة أو وليها أو نائبه لما يبعثه الزوج أو نائبه لها ثبوت للنكاح بينهما و دليل تام على صحة الزوجية. يترتب على ذلك ما يترتب على نفس الدخول أيضا. و ما في ذلك عبث كما قال:

و سمع الجيران مع ما يبعث   فهو ثبوت ما لديه عبث

و جرى العمل بصحة عقد النكاح إذا وقع اتفاق بين الزوجين أو وليهما أو نائبهما على أن نقد الصداق كله أو بعضه يكون مؤجلا إلى الدخول، و كان وقت الدخول مجهولا، إلا أن ذلك التأجيل يلغى و يحمل على الحلول، يؤديه لها وقت ما طلبته، ولو قبل الدخول، و يؤيده ما نقلوه من قول ابن القاسم في الصداق المؤجل بإلى أن تطلبه المرأة أنه جائز، و رآه حالا. إهـ ...
و هو قول الناظم:

و النقد إن أجل بالدخول   إليه من عقد على الحلول

و جرى العمل بأنه إن وقع نزاع بين الزوجين فيما شرطه الزوج على نفسه لزوجته أو التزمه لها هل القول من قال إن ذلك كان طوعا بعد العقد؟ أو القول قول من قال إنه مدخول عليه في العقد؟ فهو بفاس محمول على الشرط. فيفسخ النكاح إن وقع النزاع قبل الدخول و لا يفسخ بعده. و يسقط الشرط. و هو قوله:

و الشرط في النكاح محمول على   أنه في أصل العقود جعلا

و جرى العمل بأن الأب أو الوصي يجبر على تجهيز البنت بما يماثل النقد الذي دفعه الزوج. بحيث تكون شورتها إن دفع عشرين تساوي أربعين إن تنازعا بعد الدخول. وأما قبل الدخول فلا يجبر الأب أو الوصي عليه. و يقال للزوج إما أن ترضى أن يجهزها لك بما دفعته خاصة و إلا فطلق و لا شيء عليك. و حكى العمل بهذا أبو عبد الله الجنان[1] في حاشيته على المختصر لدى قوله: و لو طولب بصداقها. إلخ..

---

[1]- محمد بن أحمد الجنان، فقيه عدل نحوي مدرس، من أعلام مدينة فاس، و بها كان مولده سنة 943 هـ، كان إماما راتبا بمسجد الشرفاء من المدينة المذكورة، من أشهر تلامذته، الشيخ عبد القادر الفاسي، ومحمد بن سعيد المرغيتي السوسي، صاحب كتاب المقنع، و عبد الواحد ابن عاشر صاحب المرشد المعين، وحمدون الأبار.
له حاشية على مختصر خليل، و هي مشهورة بأيدي الطلبة، توفي سنة 1050 هـ، عن سن يزيد عن مائة سنة.
أنظر ترجمته في شجرة النور الزكية لمخلوف 1: 437 رقم 1187. نشر المثاني للقادري 1: 379. صفوة من انتشر، للإفراني 58. الأعلام للزركلي 6: 9. دليل مؤرخ المغرب الأقصى، لابن سودة 212 رقم 1311. موسوعة أعلام المغرب 3: 1367_1368.

وحكى ابن غازي في شفاء الغليل[1] بالمحل المذكور ما لأبي عبد الله جنان المذكور عن أبي محمد العبدوسي[2] في فتاويه و إلى هذا يشير الناظم بقوله:

و في الشوار عرفهم مثــلان ذكر في حاشية الجنــــان
و لابن غازي العالم الرئيس المثل يحكيه عن العبدوسي

و جرى العمل بأن الأب إذا خطب لابنه الرشيد و تحمل بالصداق عنه ليستريح الإبن من كلفته و شهد عليه به و لم يقع من الإبن سماع بالقبول و مات الإبن المعقود له بعد مدة حمل الإبن مع شهرة سكوته على عدم قبوله فلا صداق و لا إرث و لا عدة. لأن النكاح لا ينعقد إلا بثبوت قبوله. و هو هنا منتف. فإن سمع منه القبول. أو حصل منه ما يدل على القبول. أو صرح بعدم القبول. عمل على مقتضاه. و هو المراد بقول الناظم:

و من تحمل عن ابنه النكاح و حمل الصداق عنه ليراح
و مات الإبن بعد مدة حمـل مع شهرة سكوته إن ما قبل

و جرى العمل بأن الزوج أو نائبه إذا فوض لأم الزوجة أو غيرها في النكاح فرض الصداق صح هذا النكاح و جاز. و إن لم يعلم قدر ما يفرض فيه. و لا يجد هذا الصداق بصداق مثلها. و لا يقال هذه المرأة ترد إلى صداق المثل. و هو معروف عندهما. لأنه ربما رضي الزوج بأكثر منه أو بأقل. و جهل القدر هنا مغتفر لما بنيت عليه المناكحة من المكارمة. و يقال لهذا النكاح نكاح التحكيم و إليه أشار الناظم بقوله:

و عاقد النكاح لكــــن فوضا لأمها أو غيرها أن تفرضا
صح النكاح و الصداق لا يجد و لا يقال تلك للمثل تـــرد

و كذلك جرى العمل في نكاح التفويض. و هو الذي وقع فيه العقد من غير تسمية الصداق. ولا فوض فيه لأحد في تقديره. و إنما وقع مع السكوت عن قدره. و لو جرت عادة أهل بلدهما بقدر معلوم فيه. لا يزاد عليه لجمال. و لا ينقص منه لقبح. فيعتمدون عليه عند السكوت عند ذكره. و في هذه الصورة يكون صداق هذه الزوجة مماثلا لصداق أمها. فما تزوجت به أمها يكون مفروضا لها. و إلــيه أشار بقوله:

---

[1] إشارة لكتاب: شفاء الغليل، في حل مقفل خليل، للعلامة سيدي محمد بن أحمد ابن غازي المكناسي.

[2] عبد الله بن محمد بن موسى العبدوسي، من خيرة علماء فاس إبان عهد الدولة الوطاسية، له مؤلفات منها: أجوبة فقهية، أجاب بها عن أسئلة رفعها إليه القاضي محمد بن خليفة الصنهاجي، توفي بموطنه بفاس في شهر ذي الحجة الحرام عام 849 هـ، أنظر ترجمته في شجرة النور الزكية لمخلوف 1: 367 رقم 951. جذوة الإقتباس، لابن القاضي 425 رقم 450. الفكر السامي للحجوي 2: 304 رقم 677. نيل الإبتهاج، للتنبكتي 231_232. سلوة الأنفاس للكتاني 3: 302. درة الحجال لابن القاضي 3: 53. الأعلام للزركلي 4: 127.

لكنه إن سكتا تفويض   و ما لأم عند ذا مفروض

و جرى العمل بأنه إذا اختلف الزوج أو نائبه مع ولي الزوجة فادعى أحدهما التسمية. وادعى الآخر التفويض. فإن قول مدعي التسمية مقدم على مدعي التفويض عند التسوية في عدم البينة. و إلا فالعمل على ما قالته البينة. و هو قوله:

إلا إذا ما اختلفا فالتسميه   عرف بها القضاء عند التسويه

و جرى العمل بأن غير المجبر من نحو عم أو أخ أو وكيل إذا زوجها برجل بإذنها له في العقد. إذا فوض في تقدير الصداق للغير من غير إذن منها له في التفويض. وسمعت ذلك و لم تنكر عليه في تفويضه. فإن سكوتها يعد منها رضى بالتفويض. فتجبر على صداق المثل. وإليه أشار بقوله:

و غير مجبر إذا ما فوضا   من غير إذن فسكوتها رضى

و جرى العمل بأنه إن اقتضت الضرورة نظر النسوة لفرج امرأة حرة كانت أو أمة فإنه يجوز النظر منهن له و هو قوله:

و جاز للنسوة للفرج النظر   من النساء إن دعا له ضرر

و جرى العمل بأن من حلف بالحرام و لم ينوبه الثلاث ولا لفظ بالثلاث يلزمه طلقة بائنة لا غير قبل الدخول و بعده. لأن العرف قاض به عندهم. و العرف متبع محكوم به في هذه النازلة في كل إقليم. على أن كل إقليم يتعين بما جرى به العرف. و لو خالف إقليما آخر قريبا منه أو بعيدا. و هو قوله:

و طلقة بائنة في التحريمْ   و حلفٌ بِهِ لِعُرْفِ الإقليمْ

و جرى العمل بطلقة رجعية في حنث من حلف باليمين على حنث أو بر. كما أفتى بذلك سيدي عبد القادر الفاسي. و أبي عبد الله القصار. و سيدي عبد الواحد بن أبي العباس الونشريسي مؤلف كتاب المعيار. و عقده الناظم في قوله:

و في اليمين طلقة رجعيهْ   إذ هي قد حصلت الماهيـهْ
أفتى به والدنا كالقصـــار   كابن مؤلف كتاب المعيار

و أفتى في الحنث في اليمين بالطلاق البائن الشيخ سيدي أحمد المقري. و تلميذه القاضي ابن سودة.[1] و نزلا الحلف باليمين منزلة الحلف بالحرام الذي يلزم فيه الطلاق البائن. لكون العادة عندهما تقضي بأن الحالف باليمين كأنه حالف بالحرام المصروف للطلاق البائن. فأل عندهما للعهد الذهني. و هي قائمة مقام قول الحالف به عليه اليمين المعروفة. و هي الحرام المصروف في العرف للطلاق البائن و العمل بخلاف. و إلى ذلك أشار الناظم. و كان من حقه أن لا يتعرض لهذا في قوله:

و المقري و فرعه ابن سوده قد نظرا للعادة المعهوده
كأن أل للعهد و المعهـــــود طلاق تحريم هنا موجود

و جرى العمل بأن الحالف إذا خلت يمينه عن النية ساعة صدور اليمين منه و لم يكن يفرق بين البائن من الطلاق الرجعي فإنه ينظر إلى لفظ يمينه لعرف تخاطب أهل بلده. فيحكم عليه أو يفتي له إن جاء مستفتيا بما اقتضاه ذلك العرف. و حيث كانت العامة يشعرون بالتفرقة بين الحلف لفظا باليمين و بين الطلاق و بين الحرام. حمل العلماء لفظ اليمين على ما توسط بين الكفارة و بين الثلاث. و هو لزوم الطلاق البائن. و الحامل لهم على ذلك هو أن العامة لا يعرفون الطلاق البائن. من غيره. فصدور اليمين منهم خال عن النية مع الجهل. فيرجع حينئذ إلى عرف تخاطب أهل البلد. و لا أقل من أن يحمل اللفظ على ما توسط بين حكمين. و هو لزوم البينونة. وبيان ذلك أن الحلف باليمين على المشهور في الحنث يلزم فيه الكفارة. وتخاطب أهل البلد في عهد الناظم يقضي فيه الحنث بالحرام. و الحلف بالحرام يلزم فيه على قول الثلاث و على قول الطلاق البائن. و لكن العامة يتخيلون الشدة في لفظ الحرام عن اللفظ باليمين. و يرون متابعته في حكم أدون منه. فمن هذه الحيثية أفتى العلماء بما قرب من مأخذه. و قالوا: مؤاخذة الحالف باليمين في حنثه و هو لزوم البينونة. وإلى هذا أشار الناظم بقوله:

و إن خلا عن نيـــــــــــه للجهل بالبائن و الرجعيــــــــه
رجع للفظ فدهماء العـــوام لا يعرفون كيف تطليق الحرام
و ربما تخيلوا الشدة فيـــه عن اليميــــــــن و رأوه يقتفيه
في رتبة أحط منه فلـــــذا أفتوا بما قرب منه مأخـــــــــذا

و جرى العمل من زمن قديم بالإستغفار في حنث من حلف بقوله: عليه الأيمان. كقوله: عليه الأيمان اللازمة. و نحو هذا اللفظ مما يرجع لمعنى لزوم الأيمان، كقوله: أيمان البيعة تلزمني. أو أيمان المسلمين تلزمني لافعلت كذا. أو لأفعلنه، أو لأفعلته، أو لتفعلنه. و لم ينوي بذلك اليمين شيئا لا طلاقا و لا غيره. و إنما حلف بها تغليظا لقسمه. أو نوى أنه لا يلزمه

---

[1]- محمد بن محمد بن أبي القاسم بن سودة، فقيه مفت خطيب قاض، من مشاهير علماء عصره بفاس، وبها كان مسقط رأسه سنة 1003 هـ، من أبرز تلامذته عبد الرحمان الفاسي، صاحب منظومة العمل الفاسي، و أبو سالم العياشي، صاحب الرحلة المسماة بماء الموائد، و محمد العربي بردلة.
توفي بموطنه بفاس سنة 1076 هـ. أنظر ترجمته في شجرة النور الزكية، لمخلوف 1: 449 رقم 1224. نشر المثاني، للقادري 2: 150. صفوة من انتشر، للإفراني 159_160. موسوعة أعلام المغرب 4: 1531_1532. معلمة المغرب 15: 5163_ 5164.

شيء فإنه في ذلك كله لا يلزمه غير الاستغفار. إلا إذا نوى به الطلاق و نحوه. أو جرى العرف بشيء يلزم في الحنث فيه. فإنه يلزمه ما نواه. و لا يعدل عن العرف. لا في الحكم ولا في الفتوى. لأن العمل جار بمقتضاه. وهو المراد بقوله:

و عدم اللزوم في أيمان   لازمة شـــاع مدى أزمان

و جرى العمل فيمن أتى للعدول يريد أن يشهدهم برجعة مطلقته. و لم يأت برسم الصداق الذي انعقد أولا بينه و بينها. بأنه لا يجاب لكتب رسم المراجعة إلا بعد أن يأتي ببينة تشهد له بصحة الزوجية بينهما. و اتصالها إلى أن طلقها. و يحلف بعد ذلك يمينا بأنه لم يكن الطلاق الذي صدر منه صادف آخر الثلاث. فإذا أثبت ذلك و حلف اليمين المطلوبة منه فإنه حينئذ تكتب له المراجعة في صك تلك البينة. و إنما أمر بالحلف مع البينة مخافة أن يكون صدر منه الطلاق بالثلاث أو صادفت طلقته آخر الثلاث. و أخفى رسم الصداق ليراجعها قبل زوج آخر. سواء كان ذلك الطلاق رجعيا أو بائنا. و ما كلف به من اليمين و البينة هو غاية ما في الطوق في التحرز من هذا المحذور. و هو مراد الناظم:

و من أراد رجعة من الطلاق   و لم يكن أتى برسم للصداق
يحلف مع بينة إن لم يتـــــم   ثلاث طلقات على ما قد علم

و جرى العمل بتأبيد تحريم المرأة على الذي أفسدها على زوجها حتى نشزت وطلقها الزوج. فيعامل هذا المفسد المخلق بنقيض قصده. فلا يحل له التزوج بها أبدا. والمخلق هو الذي يوسوس للمرأة ليتزوج بها إذا طلقها زوجها. فيتأبد تحريمها عليه. و كذلك يتأبد تحريم المرأة المتزوجة على الهارب بها. سواء هرب بها بسبب تخليق و إشكال. أو هرب بها عن قهر لها و غصب. و هو المراد بقول الناظم:

و أبدوا التحريم في مخلق   و هارب سيان في المحقق

و جرى العمل بإعمال شرط من خالع زوجته في عقد الخلع معها على أن تنفق من مالها على ولده منها أو من غيرها. ذكرا كان أو أنثى. واحدا أو أكثر. لمدة زائدة على مدة الرضاع التي هي عامان. و لا يضر تكلف ذلك في عقد الخلع معها. أو مع من قام مقامها تامة سواء. كان ذلك لمدة معينة أو مجهولة. و هو قول الناظم:

و شرط من خلع في العقود   نفقة منها على المولود
لمدة على الرضاع زائده

عقد اللآل
في إعراب جوهرة الكمال

للعلامة سيدي أحمد سكيرج رضي الله عنه

تحقيق ذ محمد الراضي كنون
الإدريسي الحسني

عقد اللآل
في إعراب جوهرة الكمال[1]

بسم الله الرحمن الرحيم و صلى الله على سيدنا محمد و آله و صحبه و سلم.
حمدا لمن أعرب عن بعض فضل سيدنا محمد النبي العربي. و أنزل القرآن عليه بلسان عربي. فكانت اللغة العربية بذلك أكمل اللغات و أشرفها. مع ما اشتملت عليه من اللطائف التي جهلها من جهلها و عرفها من عرفها. و الصلاة و السلام على هذا الرسول المعرب باللسان الفصيح عما في ضميره. المختص بالمعجزة الكبرى الدالة على كمال فضله الذي ضوع الكون بعبيره.

فإن فضل رسول الله ليس له حد فيعرب عنه ناطق بفم[2]

ألا و إن هذه المعجزة الباهرة و الآية الظاهرة هي سور القرآن. التي أقر بالعجز عن الإتيان بمثلها كل مخلوق طول الأزمان. فهي المعجزة التي:

دامت لدينا ففاقت كل معجزة من النبيئين إذ جاءت و لم تدم[3]

و على آله أهل الفضل الموروث منه. و أصحابه الذين اقتدوا به و تخلقوا بما رووا عنه. وعلى من اقتفى أثرهم بإحسان. و تمسك بحبل الإسلام و عروة الإيمان. ودخل لحضرة الإحسان. ورضي الله عن شيخنا ختم الأولياء. و المتحلى بكمال الوصف بين الأصفياء. العارف الصمداني سيدنا و مولانا أحمد التجاني. سقاني الله و جميع المحبين منه بأعظم الأواني. و رضي الله عن كل من انتمى لجنابه. و تعلق بأذياله من أصحابه و أحبابه. و بعد:

اقترح علي بعض الإخوان من أهل طريقتنا التجانية المحمدية. المشتغلين بالتقاط جواهر الفنون الأدبية. و خصوصا فن الإعراب و التصريف و الإشتقاق من فنون العربية بأن أتكلم

---

[1]- المراد بها صلاة جوهرة الكمال في مدح سيد الرجال، و هي التصلية التي تقرأ في الوظيفة التجانية، وتشترط فيها الطهارة المائية، و لا تجوز بغيرها، و هي من إملاء النبي صلى الله عليه و سلم على الشيخ أبي العباس التجاني رضي الله عنه، و لها فضائل و خواص عديدة، ذكر بعضها في كتب الطريقة كجواهر المعاني و الجامع و بغية المستفيد و غيرها، و نص هذه التصلية كالتالي:
اللهم صل و سلم على عين الرحمة الربانية. و الياقوتة المتحققة الحائطة بمركز الفهوم و المعاني. و نور الأكوان المتكونة الآدمي صاحب الحق الرباني. البرق الأسطع بموزون الأرباح المالئة لكل متعرض من البحور و الأواني. و نورك اللامع الذي ملأت به كونك الحائط بأمكنة المكاني. اللهم صل و سلم على عين الحق التي تتجلى منها عروش الحقائق. عين المعارف الأقوم. صراطك التام الأسقم. اللهم صل و سلم على طلعة الحق بالحق. الكنز الأعظم. إفاضتك منك إليك. إحاطة النور المطلسم. صلى الله عليه و على آله صلاة تعرفنا بها إياه.
[2]- هو البيت الرابع و الأربعون من قصيدة البردة، للعلامة العارف بالله سيدي محمد بن سعيد البوصيري.
[3]- هو البيت الحادي و التسعون من قصيدة الهمزية، للعلامة العارف بالله سيدي محمد بن سعيد البوصيري.

على ألفاظ جوهرة الكمال. في الصلاة على سيد الرجال. التي تلقاها شيخنا التجاني رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه و سلم و رواها في اليقظة عنه. من جهة اللغة مع هذه الفنون الثلاثة اللطيفة. وذكر بعض الفوائد المنوطة بهذه الصلاة الشريفة. ليكون قراؤها على بال مما اشتملت عليه. و أنها جارية على النهج العربي الذي هو معيار الكلام. و القسطاس الذي يتضح به كل مقام. و قد ورد عن الرسول عليه السلام أنه قال أعربوا الكلام كي تعربوا القرآن[1]. فأجبته إلى ما اقترح علي. وأسعفته بما أمل لدي. و سميته عقد اللآل. في إعراب جوهرة الكمال. سائلا من المولى نفع الإخوان به. و إن يجده كل طالب من أحسن مطالبه. فيعظم النفع لنا جميعا بذلك دنيا و أخرى. وعسى أن يكون لنا ذلك ذخرا. و الله المستعان. وعليه التكلان. وصلى الله على من لا نبي بعده و هذا أوان الشروع في المقصود. فنقول:

قوله ***(اللهم)*** هذه الصيغة هي الأكثر في نداء إسم الله في اللغة العربية. فهو منادى على ضم الهاء في محل نصب. و الميم عوض عن ياء. و لا يجب أن يكون العوض في محل المعوض عنه بخلاف البدل. و قيل إنما أخرت الميم تبركا بالبداءة باسم الله تعالى. و قيل عوضت الميم عن يا من حروف النداء فرارا من دخولها على أل. ويُرَدُّ عليه أنه يسوغ جمع حرف النداء مع أل في الله و المحكي اختيارا. و إن كان في غيرهما لا يجمع معها إلا اضطرارا. كما قال ابن مالك:

و باضطرار خص جمع يا و أل ... إلا مع الله و محكي الجمل[2]

و مما أنشدوه في جمع حرف النداء مع أل في غيرهما قول الشاعر:

فيا الغلامان اللذان فرا ... إياكما أن تعقبانا شرا[3]

و الصواب أن إسم الجلالة له في النداء صيغتان. الأولى يا ألله. و الثانية اللهم. و هذه في النداء أكثر. و شد جمع الميم و حرف النداء في قوله:

---

[1]- أنظر جامع الأحاديث و المراسيل (حرف الهمزة مع العين) 1: 473 رقم 3282. الفتح الكبير في ضم الزيادة إلى الجامع الصغير (حرف الهمزة) 1: 198 رقم 1977. كنز العمال للمتقي الهندي (المجلد الأول) 1: 187 رقم 2783.
و من هذا القبيل أيضا قوله صلى الله عليه و سلم: أعربوا القرءان و التمسوا غرائبه. و منها قوله عليه السلام: أعربوا القرءان فإنه عربي، و إنه سيجيء أقوام ينعقون به و ليسوا بخياركم. و منها قوله عليه السلام: أعربوا القرءان، فإن من قرأ القرءان أعربه، فله بكل حرف عشر حسنات، و كفارة عشر سيئات، و رفع عشر درجات.

[2]- البيت من ألفية ابن مالك، من باب النداء، و هو البيت رقم 583.

[3]- ذكره ابن عقيل في شرحه لألفية ابن مالك، عند قول المصنف:

و الأكثر اللهم بالتعويض ... و شدَّ يا اللهم في قريض

ثم قال: لا يجوز الجمع بين حرف النداء و أل في غير اسم الله تعالى، و ما سمي به من الجمل، إلا في ضرورة الشعر، ثم ساق البيت المذكور كشاهد.

إني إذا ما حـدث ألمـــا أقــول يا اللهـم يا اللهـم[1]

و إلى كثرة النداء بهذه الصيغة و قلة جمع يا مع الميم أشار ابن مالك بقوله:

و الأكثر اللهم بالتعويض و شد يا اللهم في قريض[2]

فمذهب ابن مالك أن الميم تعويض عن يا. و هو مذهب أهل البصرة. فلا يقال يا اللهم إلا شاذًا في الشعر. و قال الكوفيون: إن الميم في اللهم بقية جملة محذوفة. و هي أمنا بخير و ليست عوضا عن حرف النداء و أجازوا الجمع بينهما في الإختيار و ردوا عليهم بأنه يقال: اللهم لا تؤمنهم بخير. و بأنه كان يحتاج إلى العاطف في نحو اللهم اغفر لي. و قيل في إعرابه أنه مبني على ضم مقدر على الميم لصيرورتها كالجزء منه. فيكون جعل حركة البناء على الميم كجعل حركة الإعراب على الهاء في نحو عدة وزنة بجامع العوضية. و رد بأن هذا لم يكن من مواضع تقدير الإعراب المجموعة في قوله:

في غير مقصور و منقوص أبـن إعراب اسم في سوى أحوال
إسكانه للوقــف و التخفيــف ثــــــــم حكاية اتباعه للوالــــــي
و إضافة لليــاء من متكلـــــــم و كذاك إدغام له مع تـــال

و أتيت الميم عوضا عن حرف النداء. و لم يكن العوض بغيرها للمناسبة بين يا والميم. فإن يا للتعريف. و الميم تقوم مقام لام التعريف في لغة حمير المعبر عنها بالطمطمانية. و كانت مشددة ليكون العوض على حرفين كالمعوض. و قد تحذف أل من اللهم فيقال لاهم. و منه قول سيدنا عبد المطلب و قد أخذ بحلقة باب الكعبة و معه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة وجنده:

لاهم إن العبد يمنـــــــــــــع رحله فامنع حلالك
لا يغلبن صليبهم و محالهم عدوا محالك[3]

و منه قول الشاعر:

---

[1]- البيت للشاعر قرطب، و هو من الشواهد التي ساقها ابن عقيل في شرحه لألفية ابن مالك، عند قول المصنف:

و الأكثر اللهم بالتعويض و شذ يا اللهم في قريض

[2]- البيت من ألفية ابن مالك، من باب النداء، و هو البيت رقم 584.

[3]- من حديث طويل مذكور في كتب التفاسير و السير، و انظره أيضا في المستدرك للحاكم النيسابوري (كتاب التفسير) 2: 583 رقم 4021. و للبيتين المذكورين تتمة و هي:

فلـئن فعلت فربما أولـى فَـامُـرْ مـا بـدى لـك
و لـئن فعلت فإنه أمـر تـتـم بـه فـعـالـك
جروا جموع بلادهم و الفيل كـي يسبـوا عـيـالـك
عـمـدوا حـمـاك بكيدهم رقـبـوا جـلالـك

لاهم إن كنت قبلـــــــــــــــت حجتـــــــــج[1]

بالجيم المبدلة من ياء المتكلم. و هي لغة قضاعة. يجعلون الياء المشددة جيما. وتعرف هذه اللغة بالعجعجة. و من محذوف أل قول بعض العرب في الجاهلية في تلبيته:

لاهم لو لا أن بكر دونكا   يعبدك الناس و يفجرونكا
مازال منا عثج ياتونكا[2]

العثج الجماعة. جمع عثجة. كجرعة. و زعم الداودي أن ابن رواحة قال:

لاهم إن الأجر أجر الآخرة   فارحم الأنصار و المهاجرة[3]

و إنما يتزن هكذا فأتى بعض الرواة على المعنى فأنشدوه بأل هكذا: اللهم إن الأجر أجر. إلخ. كما أنشده الرسول صلى الله عليه و سلم[4]. ورده الدماميني بأنه توهيم للرواة بلا داعية فلا يمتنع أنه قاله بألف و لام على جهة الجزم بمعجمتين. و هو الزيادة على أول البيت حرفا فصاعدا إلى أربعة. و الكلام في هذا يحتاج إلى بسط طويناه في هذا المحل و بسطناه في غيره بسطا غير ممل. و حذف أل من اللهم كثير في الشعر و في ما ذكرناه كفاية.

ثم اعلم أن لفظة اللهم تستعمل على ثلاثة أوجه. أحدها النداء المحض كما هنا. ثانيها أن يذكرها المجيب تمكينا للجواب في ذهن السامع. كأن يقول لك القائل أَزَيْدٌ قائم؟ فتقول له: اللهم نعم. أو اللهم لا. ثالثها أن تستعمل دليلا على الندرة و قلة الوقوع نحو: أنا أزورك اللهم إذا لم تدعني. إذ الزيارة مع عدم الطلب قليلة. و منه قول المؤلفين: اللهم إلا أن يقال كذا فيقال. قال بعض المحققين: و الظاهر أن اللهم في هذين الوجهين الأخيرين لا معرفة و لا مبنية لعدم التركيب و نظر فيه بعضهم بأنه لا يسلم خروجها في الموضعين عن النداء

---

[1]- هو الشق الأول من بيت لأحد شعراء قضاعة، و هو من الشواهد المعتمدة عند العديد من أصحاب المعاجم كلسان العرب و غيره، و للبيت المذكور تتمة، و نصهما معا:

لَاهُمَّ إن كنت قبلت حُجَّتِجْ   فلا يزال شاحج يأتيك بجْ
أقمر نهاز ينزي و فرتِجْ

[2]- ذكرها صاحب كتاب تهذيب اللغة، و قال بعدها: ذكر هذه الأرجوزة محمد بن اسحاق في كتاب المبعث، و أن بعض العرب في الجاهلية ارتجز بها. إهـ .. و ذكرها أيضا صاحب كتاب العين (باب العين و الجيم و الثاء معهما)

[3]- معه بيت ثان، و نصهما معا:

لاهم إن العيش عيش الآخــرة   فارحم الأنصار و المهاجرة
و العن إلاهي عضلا و القارة   هم كلفونا نقل الحجـــــارة

[4]- إشارة لقوله صلى الله عليه و سلم: لا عيش إلا عيش الآخرة، فأصلح الأنصار و المهاجرة. إهـ.. و في حديث آخر: اللهم إنه لا خير إلا خير الآخرة، فبارك في الأنصار و المهاجرة. رواهما البخاري، الأول في كتاب (مناقب الأنصار) باب دعاء النبي صلى الله عليه و سلم لا عيش إلا عيش الآخرة رقم 3708. والثاني في (كتاب المغازي) باب غزوة الخندق رقم 4011.

بالكلية. و لإن سلم خروجها فلا يسلم أنها لا معرفة و لا مبنية لعدم التركيب. لأن خروج الكلمة عن معناها الأصلي لا يستلزم خروجها عما لها من إعراب أو بناء أو تركيب. والمتجه عنده أنها باقية على تركيبها بمعنى بقائها على النداء. مع دلالتها على التمكين أو الندرة. فتكون معربة كالأول. و إذا سلم هذا فيقال أنه منادى صورة فله حكمه. و لا يوصف اللهم عند سيبويه كما لا يوصف غيره مما يختص بالنداء. و أجازه المبرد بنحو: قل اللهم فاطر السماوات و الأرض. و حمله سيبويه على النداء المستأنف. إهـ و الله أعلم.

عقد المرجان

الموجه إلى الشيخ محمد بن سليمان

للعلامة سيدي أحمد سكيرج رضي ا عنه

تحقيق ذ محمد الراضي كنون

الإدريسي الحسني

عقد المرجان
الموجه إلى الشيخ محمد بن سليمان[1]

باسمك اللهم افتح. و صل وسلم على من خاطبته بقولك ألم نشرح. هذا عقد المرجان الموجه إلى الشيخ محمد بن سليمان.

من خديم الحضرة الأحمدية التجانية أحمد بن الحاج العياشي سكيرج كان الله له وليا. و رفعه مكانا عليا. إلى من خاض بحر المعارف فاستخرج منها دررا. و دخل روض الأنس الذي لا يصف ما فيه واصف يجني منه زهرا و ثمرا. الشارب من حوض الحقيقة. ما كمل به في بساط التحدث بالنعم الجليلة و الدقيقة. شيخ الطريقة السليمانية سيدي محمد بن سليمان. زاده الله بسطة في العلم و الجسم بين الأعيان. و سلام الله على تلك الشمائل الأريحية و الهمم المضرحية عن مدد مولانا رسول الله عليه السلام.

و بعد فإن لله نفحات تحيي القلوب. و تكشف الكروب. و يستحيل بها النحاس إبريزا. و الذليل عزيزا. و العدو محبا. و البغيض محبوبا. و البعيد قريبا. و المخطئ مصيبا. و نحو ذلك من الجمع بين الضدين. بمقتضى التجليات التي لا تحصر كشفا و ذوقا ومشاهدة. بتعمل و غير تعمل. عن مجاهدة أو غير مجاهدة. فإن دائرة الفضل متسعة لا تحجير فيها على داخلها من قطف أزهارها و أثمارها. و ما شاء بما شاء لمن شاء منها. و في تلك الدائرة دوائر اقتضى الفضل الخصوصي تحجيرها على من لم يكن من أهلها بما عوضهم به من غيرها نعمة أو نقمة. و الكل لا يخلو عن حكمة. والجميع بحمد الله في كنف الرحمة. بمقتضى سبقت رحمتي غضبي.[2]

---

[1]- الشيخ محمد بن سليمان الندرومي، فقيه صوفي، من أهل ندرومة، التابعة لعمالة وهران بالجزائر، كان درقاوي الطريقة، ثم تفرد بعد ذلك بطريقة خاصة به تدعى السليمانية، ثم ادعى أنه مأذون له من الحضرة النبوية في تلقين ثلاث طرق أخرى، فضلا عن طريقته (السليمانية) وهي القادرية و الطيبية و التجانية.
و أحدث تصدره لجميع الطرق بما فيها التجانية ضجة بين أوساط المريدين التجانيين هناك، لكن بعضهم كان يهابه لمكانته من العلم و الولاية و التصريف، فلم يستطع أحد منهم الإعتراض عليه، فرفعوا الأمر للعلامة سيدي أحمد سكيرج، الذي كان حينها حديث العهد بقضاء مدينة وجدة.
و بناء عليه تصدى العلامة سكيرج للشيخ المذكور، مبينا له موقع الخطأ في تصدره المزعوم، ودارت بينهما في هذا النطاق رسائل كثيرة، منها هذا الكتاب الذي سماه: عقد المرجان، الموجه إلى الشيخ محمد بن سليمان، كما أجابه بتأليف موسع آخر يحمل عنوان: تنبيه الإخوان، على أن الطريقة التجانية لا يلقنها إلا من له إذن صحيح طول الأزمان، و لا يصح تلقينها عمن يلقن غيرها من الطرق كيفما كان.
توفي الشيخ محمد بن سليمان الندرومي بموطنه في شهر جمادى الأولى عام 1346هـ نونبر 1927م.
[2]- إشارة للحديث الذي رواه الإمام مسلم عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه و سلم قال: قال الله عز وجل: سبقت رحمتي غضبي. إهـ.. صحيح الإمام مسلم (كتاب التوبة) باب في سعة رحمة الله تعالى رقم 6919، صحيح البخاري (كتاب التوحيد) باب قول الله تعالى بل هو قرءان مجيد في لوح محفوظ رقم 7387. مسند الإمام أحمد (مسند أبي هريرة رضي الله عنه) 2: 480 رقم 7277 و 3: 81 رقم 8888. مجمع الزوائد، للهيثمي (كتاب التوبة) باب منه في رحمة الله تعالى 10: 358 رقم 17612.

و من تحقق بهذا الأمر لم يستعظم ما تظاهر به الأكابر من التحدث بالفضل الذي منحهم الحق به. و كان أول مُصدِّق لأهل الله فيما يقولون. و لكن حجاب المعاصرة مسدول رواقه على غير أهله. فلا يرون ما وراء الحجاب من خصَّه الله بفضله، إظهارا لبديع الحكمة و إخفاء لسرها في خواص كل أمة و كل ميسر لما خلق له.[1] ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة.[2] و لآمنت كل أمة بنبيها. ولأذعن كل الناس لمن تظاهروا فيهم بالمشيخة أو بالولاية. و في ذلك حكمة بالغة.

و إني أنهي إليك أيها الأخ الصالح أنه لم يجيء أحد بما جئت به إلا عودي[3] بمقتضى الوراثة المحمدية. فجدير بك أن تقف موقف الثبات عندما ترى وثبات المنكرين عليك. و تتخلق بخلق من قال: اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون.[4] فالمنصب التي انتصبت فيه قاض عليك بأن تنهج المنهج الذي قيل فيه لصاحب الخلق العظيم: خذ العفو و أمر بالعرف و أعرض عن الجاهلين.[5] فلقد طالعت شريف كتابك. و هو أول كتاب تشرفت به من عندك. فوضعته على الرأس تنويها به. و تعظيما لشأنه. وتصفحت ما فيه. فإذا سطوره شطور من المنى تلمع من بين ألفاظه أنوار المعاني و شمس المعارف، بعد إنبائكم لنا بمحبتكم لنا في ظهر الغيب منذ أخبركم عنا محبنا العارف بالله خالكم مفتي الحضرة المستغانمية زاد الله في معناه. فإنه رعاه الله ذو مرآة صافية ينظر فيها بنور الله.[6] و لم يرى منا إلا سورته و صورته، فحلانا بأوصافه، فما ظهر له فينا من الشغف برقائق الفن اللدني الموجب لمحبتك لنا فهو كما تعلم بالمثابة التي تعلم. و ربما اقتضت فراسته ذلك فينا جعلها ربي حقا. أما أنا و أعوذ بالله من قول أنا فلست ممن ذاق من ذلك الفن في خاصة نفسي. لا في معناي و لا في حسي. و إنما كنت ولوعا بمطالعة كتب القوم في اليقظة و النوم، أطالع في اليقظة ما يتجلى لي في المنام

---

[1]- إشارة لقوله صلى الله عليه و سلم حين سأله أحد أصحابه: يا رسول الله فيم يعمل العاملون؟ قال كل ميسر لما خلق له. أنظر صحيح البخاري (كتاب التوحيد) باب قول الله تعالى و لقد يسرنا القرءان للذكر فهل من مذكر رقم 7385 (كتاب تفسير القرءان) باب قوله تعالى فسنيسره للعسره رقم 4830. صحيح مسلم (كتاب القدر) باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه و كتابة رزقه وأجله و عمله و شقاوته و سعادته رقم 6688، رقم 6684.

[2]- سورة هود، الآية 118.

[3]- إشارة لقول ورقة بن نوفل لرسول الله صلى الله عليه و سلم: لم يأت رجل قط بما جئت به إلا عودي، و إن يدركني يومك أنصرك نصرا مؤزرا. إلخ .. أنظر صحيح الإمام البخاري (كتاب التعبير) باب أول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه و سلم رقم 6830. صحيح مسلم (كتاب الإيمان) باب بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم رقم 358. مسند الإمام أحمد (حديث السيدة عائشة رضي الله عنها) 7: 318 رقم 25468 و 7: 332 رقم 25559.

[4]- إشارة للحديث الذي رواه البخاري عن عبد الله بن مسعود قال: كأني أنظر إلى النبي صلى الله عليه وسلم يحكي نبيا من الأنبياء ضربه قومه فأدموه، و هو يمسح الدم عن وجهه و يقول: اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون. إهـ .. صحيح البخاري (كتاب الأنبياء) باب حديث الغار رقم 3402

[5]- سورة الأعراف، الآية 199

[6]- إشارة لقوله صلى الله عليه و سلم: اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله، ثم قرأ إن في ذلك لآيات للمتوسمين. إهـ .. أنظر سنن الترمذي (كتاب تفسير القرءان) باب و من سورة الحجر رقم 3239. مجمع الزوائد، للهيثمي (كتاب الزهد) باب ما جاء في الفراسة رقم 17940. مسند الشهاب القضاعي 1: 387 رقم 663. جامع الأحاديث و المراسيل (حرف الهمزة مع التاء) 1: 67 رقم 321.

في صور تعد عند غيري من محكمات السور. فكم رأيت و ما دريت. و ليس قولي هذا بتنزل عن المقام. و إنما أخبرك بحقيقة الأمر بصدق الكلام.

و قد تأسفت حين بلغني ما بلغني عنك في سياحتي. و لم تسمح المقادير باجتماعنا. فكنت منذ رجوعي و أنا أجد ميلانا مني يجاذب الحب في الله إلى السؤال عنك. ويعجبني ما أنت عليه من عمارة أوقاتك بما يعود عليك فيه النفع عاجلا و آجلا. و لم ألتفت لعارض العرض. لأنه لم يكن لي في ذلك غرض. و لم يحصل ما يكدر تلك اللطيفة الباطنية الممتدة بين القلبين في ظهر الغيب. تحققا مني بأن الحق لا تحجير عليه فيما منه و إليه. و لطالما ناضلت عنكم وعن أهل النسبة بما أرجوا من الله أن يجازي عنه بالأخذ باليد. إلى أن نصل غاية المقصد.

و فرحت كثيرا منذ وصلني أنكم انخرطتم في حزب الطريقة الأحمدية التجانية بإذن خصوصي. تيقنا مني بأنكم حللتم في الضمان الأحمدي بالظفر بالمقصود. فوق ما يظن. و تم بذلك لكم الفتح. و كمل لكم به الربح. ثم صار يبلغنا عنكم ما تتعاطونه من الأخذ بيد المريدين. و ما تتحدثون به من الفضل و المناقب التي ضمنت لكم بين الهادين المهتدين. فلم يزدنا ذلك إلا كمال تصديق لجنابكم بين إخوانكم و أحبابكم. حتى بلغنا أنكم صرحتم بالإذن لكم في تلقين الطريقة التجانية من غير اعتبار شروطها المقررة. و حملتم الانسلاخ المشروط فيها على محامل أنت أدرى بها. و لم أصدق بتلقينكم بالإذن لهذه الطريقة مع غيرها حتى وقفنا على رسالتكم التي وجهها للمقدم بالزاوية التجانية بفاس من جبل ندرومة الشيخ الأخضر الجبلي[1] و حين طالعتها مع من طالعها تعيَّن على جمع من أهل الفضل إلزامنا بالجواب عن مضمّن تلك الرسالة. ليكون على بصيرة من ذلك الأحباب. فكتبت الجواب الذي ستصل سيادتكم منه إن شاء الله نسخ تذكارا لكم و تبصرة للمستبصرين. فترجعوا عن تلقين هذه الطريقة بغير شروطها. و تكتفوا بتلقين طريقتكم المثلى فهي بحمد الله كفيلة لكم بما ترجون من الله. مع حصولكم على سر الطريقة التجانية بالإذن لكم فيها في خاصة نفسكم. فلا تستوجبون بذلك اعتراضا من أحد. و لا يتوجَّه إليكم إنكار من وقف مع شروط طريقته. و أنتم أولى بمن يعذر من يذب عن حمى طريقته. قاصرا كان أو طويل باع. و عسى أن يكون بالجواب نفع تام بين الجانبين. و يصلح الله به ذات البين.[2]

ثم إني أقول لك أيها الأخ الصالح أن ما ذكرتموه لنا مما سلكه معكم السيد الأخضر الجبلي حتى شوش عليكم الحال. حيث قبض الرسالة و أشاع بها في نواحي كبيرة بقصد الرد. فانقبض قلبكم من ملاقتنا من أجل هذا. مع أنه رجل لا معرفة بينكم وبينه. لكنه كان من جملة المتعصبين على إذايتك منذ حللتم ندرومة. لكن مثلكم لا يستفزه الغضب حتى يقوم للإنتصار

[1]- الأخضر المنصوري الجبلي، فقيه صوفي، من مريدي الطريقة التجانية، له فيها محبة و اعتقاد راسخ، و هو من أهل مدينة ندرومة بالجزائر، كان من أبرز المعترضين على الشيخ محمد بن سليمان الندرومي، بسبب إقدام هذا الأخير على تلقين الطريقة التجانية للناس ضمن الطرق الأربعة التي كان يلقنها.

[2]- عملا بقوله صلى الله عليه و سلم: ألا أخبركم بأفضل من درجة الصلاة و الصيام و الصدقة، قالوا بلى. قال إصلاح ذات البين، و فساد ذات البين هي الحالقة، أنظر مسند الإمام أحمد (من حديث أبي الدرداء) 7: 598 رقم 27097. سنن الترمذي (كتاب صفة القيامة) رقم 2558. سنن أبي داوود (باب في إصلاح ذات البين) رقم 4915. موطأ مالك (كتاب حسن الخلق) باب ما جاء في حسن الخلق رقم 1652.

لنفسه بالدعاء على رجل رأى ما خالف اعتقاده من جنابكم بتعرضكم لتلقين طريقة أخذ عليه العهد فيها بشروط لم تراعُوها. فَهَلا أغضيتم بطرفكم عن تعرضه لكم بالإذاية. و تصبروا كما صبر أولوا العزم. فلا يقال شيخ الطريقة السليمانية قام يرد بنفسه على مريد من مريدي الحضرة التجانية. فينسب لأحدكما الإنتصار للنّفس تبعا للهوى. و يسري في هذا عار على المريد الذي لم تخرج نفسه من حجر الترقية. و لكن العار على شيخ التربية الذي يقابل ضعفاء العقل بما لا يحمله عقلهم. و هو في مقام يقضي عليه بالتجاوز بقدر الإمكان. و إن كانت المرتبة لا تسامح من أساء الأدب عليها. و كفى بالله وليا و كفى بالله نصيرا.

و هلا حملتم ما فعله معكم محملا يليق بجنابكم بأن تجعلوه لسان حق في الخلق قيضه الحق لكم لتراجعوا ما منحتكم الحضرة التي لا تحجير عليها. فعسى أن يكون الإذن الذي حصل لكم خاصا بكم دون الإذن لكم في تلقين هذه الطريقة. التي لا تصح إلا بمراعاة شروطها. فتقف عن تلقينها بغير شروطها. فهو لسان الحق أقامه الحق اعتناء بكم. ناصحا في صورة منكر بين الخلق. فتأخذوا منه ما يليق بكم. و تغضون الطرف عما يظهر أنه عورة و ما هو في الحقيقة بعورة.

و هلا حملتموه أيضا محمل المريد المسترشد في طريق شيخه حيث رأى ما لم يبلغه عقله. فأشاع تلك الرسالة يسأل أهل الذكر عما اشتملت عليه. فتحصل له الذكرى. ويعرف ما تدعوا إليه في المرة الأولى و الأخرى. و هلا حملتموه أيضا على أنه من أعوان الحق في نشر تلك الرسالة. ليطلع عليها من لم يعرف المقصود في طريقتك السنية. فيتحقق بأمرك من لم يحط به خبرا.

و أنت رعاك الله بنفسك أمرت أحبابك في آخر تلك الرسالة بأن يقرؤوها للطلبة الذين أنكروا عليكم الجمع بين الطرق. فهو في الحقيقة كالممتثل لأمرك فكان من حقك مقابلته بالتجاوز عنه و غض الطرف عما صدر منه في صورة القبيح. و هو في الباطن مليح. و في طي ذلك ما لا يخفى عنك من درء جملة من المفاسد. و جلب جملة من المصالح الشخصية والعمومية. زيادة على ما في ذلك من معاملة الناس بالسياسة التي جرى عليها عمل الأنبياء. و قد قال الحق للنبي الموصوف بالقوة ولأخيه في مخاطبة أقوى الفراعنة: فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى.[1]

و إن الحق تعالى يعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف.[2] فالمتعين على السيادة عدم الإنتصار لنفسه بذكر الوعد الذي وعدت به على لسان من لا ينطق عن الهوى. و لا بذكر

---

[1]- سورة طه، الآية 44

[2]- إشارة لقوله صلى الله عليه و سلم لمولاتنا عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها: يا عائشة إن الله رفيق يحب الرفق، و يعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف، و ما لا يعطي على سواه. إهـ.. أنظر صحيح الإمام مسلم (كتاب البر و الصلة و الآداب) باب فضل الرفق رقم 6553. مسند الإمام أحمد (حديث عبد الله بن مغفل المزني) 5: 46 رقم 16483، رقم 16486. صحيح ابن حبان (باب الرفق) ذكر البيان بأن الله جل و علا يعين على الرفق بأن يعطي عليه ما لا يعطي على العنف 1: 273 رقم 548. ذكر ما يجب على المرء من لزوم الرفق في جميع أسبابه رقم 551.

الوعيد الذي يجازى به المنتقد عليك. و إن كنت في ذلك مضطرا من جهة أخرى تعلم سرها و خيرها و شرها. فإن ميدان المدافعة عن النفس قد يضيق بصاحبه. فيريد بسط الحق فتضيق به العبارة. و لربما كان للنفس حظ فيناضل عنها متابعة لذلك الحظ. حتى إنها ربما ترفض ما تدافع عنه إلى مزلق الإنقطاع عن الطريق التي يناضل عنها من غير شعور. و الله عليم بذات الصدور.

و لقد جرى بنا القلم إلى ذكر هذه الخزعبلات و لم أرد بها غير الحق. فإن صادفت عندكم وجه قبول فذلك المطلوب. و إلا فهو كلام من غير شيخ مربي. ليس على من لم يلتفت إليه من ملام. و قد اطلعت على ما وجهتم صحبة رقيمكم لنا فرأينا فيه سحرا حلالا. تنفعل به نفوس من ذاق المعنى. أو دخل المغنى. وإني لأقول لكم قولة ذي صدق مراقب للحق: أيها الولي الحميم، قد كنت فيما سلف قبل اشتغالي. بين الموالي. ولوعا بمطالعة كتب الحقائق. حتى دهشت في أمري بما نراه من نفسي. و يتجلى لي من حضرة الغيب. و أستحلي التكلم بين قوم أستميل قلوبهم إلي وأستلذ ما أكتسبه منهم. فهم يكرمونني لصلاحي في نظرهم. و أنا آخذ منهم بإفصاحي لهم عن حقائق غيبية أجدها في نفسي في محضرهم. و كادت نفسي أن تسوّل لي التظاهر بدعوى ليزيدوا في إكرامي. لكوني لا أعرف حرفة أكتسب بها المال أو الجاه سوى ذلك. حتى وفقني المولى بخشية منه أن لا أعد نفسي في حيز من يغر الناس في الله. و لما علم تعالى صدق إنابتي نشلني من وحلتي. و شغلني عني. فزجَّ بي في بحار المخزن حتى يقضي الله أمرا كان مفعولا.[1] و الحمد لله على هذه الحالة. و قد شرحتها لك عسى أن تجد فيها إشارة لا يعرفها غيرك فتعمل عليها.

و قد حركت منا ساكنا بخطابك المعسول. فورد عليَّ وارد بأن أكتب لك ما يمليه عليَّ هنا. ولربما تجد فيه فائدة. و هي من تتمة الجواب. و ذلك أنه حدا بي حادي المعرفة إلى مخدع أهل الصفة. من باب الصّفا. لأرى ما كملت فيه الصفة. فدخلت بسلام. أجر ذيل الاحتشام. بكمال احترام. فتلقاني من أمام المخدع قيِّمُه. و قال: إلى هنا يا أبا العباس ماذا تريد؟ فقلت له إني مريد لا أريد. فقال: و هل من مزيد. فقلت: نعم أريد ما تريد و لا أزيد. فقال: تجرد من لباس العيب. و اخلع نعلي الهوى و تطهَّر بماء الغيب.[2] و البس رداء الرضى. و تأزر بمئزر التفويض. و البس نعلي التسليم. و سر حتى تصل لبساط النعيم. و اجلس مجلس من نودي للإكرام في حضرة ذوي الكرم. فهناك ترى ما ترى و تسمع ما تسمع. و لا أخالك بصائر عن كتم ما يتراءى لك. إن لم تخش آلك. فإنك إن بحت بالسر. كنت مُكَذَّبا فيه في العلن و السر. وما تنجح مساعيك. و أعين الأقران تراعيك. فقلت: قد فهمت ما تقول. فهل من دليل للوصول. فقال: إني لأفتح عيني حين أفتحها على كثير. و لكن لا أرى أحدا. فاجعل دليلك الكتب و السنة. و برهانك التقوى عندما تناغيك الألسنة و قد قيل لك:

---

[1]- إشارة لقوله تعالى "ليقضي الله أمرا كان مفعولا" سورة الأنفال، الآية 42

[2]- من هذا القبيل قول بعض الأكابر:

تطهر بماء الغيب إن كنت ذا سر	و إلا تيمم بالصعيد و بالصخـــــــر
و قدم إماما كنت أنت إمامـــــــه	و صل صلاة الفجر في أول العصر
فهذي صلاة العارفين بربهــــــم	فإن كنت منهم فانضح البر بالبحــر

لا تقتدي بالذي زالت شريعته   عنه و لو جاء بالأنبا عن الله

و لا يمنعك الهوى باتهام البرءاء به. فإن تحت سوء الظن ما لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما وزن شعرة منه لعلو مراتبه. فقلت: لقد قلت حقا. و لكن أرشدت للمرشد بعد أن زهدتني فيه. فقال لي: المرشد هو نفس ما أرشدتك إليه. فهو يبصرك و يسير بك و تصير له و يصير لك لمطلبك. فقلت: هل هو حي أو ميت؟ فقال: هو ميت حي و حي ميت. جمع بين الضدين في اللفظ باتحاد المعنى. عند من دخل المغنى. فلا يتأثر باعتراض عليه لانتصار الحق له حوض ورده الوارد و الإدامة عليه. فتمسك بحبل حبه إذا اهتديت إليه. فقلت: أين هو؟ فقال هو تحت سوء الظن مع براءته. فلا تلتفت للدَّعوى. بعد التقوى. و لا تخسر الميزان. بلسان إنسان. فإن خرجت عن بشريتك. وصلت لبغيتك. فقلت: إني مقيد بطريق. فقال: قد عرفت المقصود. و غرفت من الحوض المورود. فالزم واقفا بالباب. فها أنذا أدخل في المخدع تحت و آتيك. بما يواتيك.

فوقفت منتظرا. لما يصدر لي حتى خرج مستبشرا. و أشار إلي أن أدخل. فدخلت البساط. وأجلسني محل انبساط. بين قوم أهل اغتباط. فنظروا إلي نظر مستنكر. وقالوا: معتقد أو منتقد منكر. فأخذ مني الدهش حظه. فلم أنطق بلفظَهْ. ثم سكتوا وأنصتوا. و بعضهم ينظر إلى بعض. و يتفرَّسون في هل أنا من أهل الحب أو أهل البغض. فالتفت إليَّ زعيمُهم و وجَّه إليهم الخطاب. و قال: لولا أنه من الأحباب. ما سوعد للدخول لهذا الجناب. فاشرح لنا قضيتك ومن أوصلك إلى هنا. فقلت إلى هنا. صيَّرنا إلاهُنا.

لولا العناية كان الأمر فيه على   حد السواء فذو نطق كذي بكم

فقالوا: أجل، من وصل إلى هنا فهو مبجل. فقلت: الله أعلى و أجل. و هو المقصود. ومن عرف ما قصد. هان عليه ما وجد. فقالوا: حدثنا أول حديث حدثك به من أتى بك. و دعنا من عتابك. فقلت يا قوم دعاني داعي الفلاح. حي على الفلاح. فلبيت الدعاء حتى وصلت إليه. فقال: إن أردت معروفي. يا صوفي.

فكن رجلا نفسه في الثرى   و هامة همته في الثريا[1]

و لا تجزع بما ألم بك من ألم. "فإن الهموم بقدر الهمم".[1] فقلت له: و أين هذا المعروف المجهول الذي تصفه لي لأبذل النفس و النفيس في إدراكه. و لو انفرد في أفلاكه، فقال: يا

---

[1]- البيت من شعر الإمام سيدنا علي كرم الله وجهه، و هو ضمن أربعة أبيات و نصها:

إذا أضمأتك أكف الرجـــال   كفتك القناعة شبعا و ريا
فكن رجلا رجله في الثرى   و هامة همته في الثريـــا
أبيا لنائل ذي ثـــــــــروة   تراه لما في يديه أبيــــــا
فإن إراقة ماء الحيـــــــا   ة دون إراقة ماء المحيـا

هذا إن عرفت نفسك عرفت ربك.[2] و إن عدمت حسك وجدت قربك. فأنت لا أنت إذا كنت أنت. و أنت هو إذا كنته. فقلت: هذا كلام فصيح. أو لغز على معنى صحيح. فقد رأيت قوما وُلِعُوا بمثل هذا الخطاب. يا أبا الخطاب. فقال: هذه كلمات. جرت عليها اصطلاحات. والزيادة في بسطها نقص لكون العبارة تريد حلها فتعقدها. و لما تتحقق ماهيتها إلا بالذوق. إن كنت لها من أهل الشوق. و ستذوق المعنى. إن كنت معنا. فعليك بمزاحمة القوم بحبهم فهم يقربونك و إن أبعدك جهلك. ويودونك و إن منعك عقلك. و عما حين إن صدقت بكلامهم تكن من المفلحين.

و بعد هذا انبعث في باطني تشوف لنيل المراتب. و تشوف لملاقاتي لأعز الحبائب. وذلك عندي من أعظم المناقب. فاجتمعت به مرارا. و سقاني حلاوة بعد مقاساتي لمرارة الإمارة. في شقاوة القساوة. و لولا ما أراه من نفسي من حب المحمدة بما لم أفعل. و ما تميل إليه من الترأس بالدعوى سرا لما له لم تصل. لقلت مقالا. و للقول كم أجد مجالا. فقالوا: حركت منا دواعي الدعاوي و ما هي إلا حجب تمنع من الوصول لمن ادعاه.

و كم من مدع لوصال ليلى   و ليلى لا تقر له بذاك

فدعنا من حديث الدعوى. و مل بنا لمعاطات كؤوس أهل التقوى. بما نفسنا عليه تقوى. فقلت: و الحديث شجون. ورب متكلم رمي بالجنون: يا قوم هل تدرون ما يوم لا يوم. فقد وقر في صدري. ما يجل به قدري. و لست بشيخ طريقة. و لا مريد حقيقي بين ذوي الحقيقة. فقالوا: شنف مسامعنا. فإنك تجد عند مخاطبتنا قلوبنا معنا. ولسنا بمن يحضر للمجالس. و لا يلقي بالا لما يحدث به المجالس. و لا ممن يتتبع فلتات المنطق في القول. و يجمع قشور الألفاظ ويرمي بلباب معناها ليعظم به الهول.

فقلت لهم: يا قوم يوم لا يوم حين لا حين. و مساوات الطالحين و الصالحين. في منهج التوحيد. من غير توحيد. و لا أقصد بما قلته لكم الأزل و لا العلم القديم. بل هو شيء ساذج يكاد أن يعبر عنه من يغرف من سر بحر الأبدية. و ما تعتبر به الأحدية. ففي ذلك المظهر كنتم و ما كنت. و كنت و ما كنتم. و كنا و لم نكن. فأنتم أنا و أنا أنتم. يا قوم إنني في هذا المقام قد أرتقي في المقال. فاضمحل الخطاب و ترقى بي لمقام اللهو. فلم يكن لي حينئذ بأن أقول أنا هو حين ذقت من معنى شراب الهوى. الذي قال فيه الشاطح:

---

[1]- هو الشطر الأخير من بيتين للشاعر الشهير الوزير إسماعيل بن عباد بن العباس الطالقاني، المعروف بالصاحب بن عباد، و قد أقدم على تشطير هذين البيتين كثير من الشعراء، و من ذلك قول الشاعر راضي بن صالح الحسيني القزويني في تشطيرها:

و قائلة لم عرتك الهمـــوم   و يجلى بك الهم مهما ادلهم
و أمرك ممتثل في الورى   و نهيك مزدجر في الأمـــم
فقلت ذريني على غصتـي   فمثلي على مثلها لم يلـــــم
و لا تنكري هم ذي همـة   فإن الهموم بقدر الهمــــــم

[2] إشارة للحديث النبوي الشريف: من عرف نفسه عرف ربه

أنا من أهوى   و من أهوى أنا[1]

و قد صحوتُ بعد ما سكرت من خمر الخطاب. ففهمت الصواب. و تحققتُ بأني عامي محض. أمي صرف. لكن تاقت نفسي للاستطلاع على حقيقتي. فجلت جولة في كوني. فخرجت عن دائرة النقطة التي تحت الباء. فوجدت نفسي في فراغ العبودية. لكن من حيث التذلي لا من حيث الترقي بالروح. لا بالروح و الجسم. لأن ذلك مقام لم يكن إلا لمن رفعه الله إليه. أو رفعه مقاما عليا. أو أسري به فكان عبدانيا. فكدت أن آتيه في ميدان الفراغ الذي هو نفس العدم و نفس الوجود. قد اجتمع الضدان هنا مشاهدة و ذوقا. لا عقلا لعقل العقل عن الجولان في هذا الميدان. والله ثم و الله لقد رأيتني في حيز الفراغ أنظر السماء دخانا. والبروج في خللها و هي في حيز. والأرض مثل السفينة و هي في حيز. و علمت هنا ما في نفس البشر من سر الحق الذي أدار به الأفلاك و لما رأيت هذه الأحوال. و هي في الحقيقة أوحال. ألزمت نفسي الرجوع لأبناء الجنس. و ألجمتها بلجام الحق حتى لا تخرج عن الحس. و خفت عليَّ مني. و مني عليَّ. و ذلك من توفيق الحق. فطويت رأسي تحت جناحي.[2] وأخذت الحذر. في البدو و الحضر. بعدم استعظام ما تجلى لي خشية الوقوف معه. فلم أعبأ في هذا المقام بنتيجة الدعوى. لتحققي بأنها بلوى. سيان كنت فيها محقا أو مبطلا. فقالوا: ثم ماذا فعلت. فقلت: فعلت فعلتي. و لبست من لباس الخمول حلتي. فلم أتظاهر بمظهر من يأكل من مال الغير بإغراره. و لا بمظهر من يربي لربه و هو مقيد في قيود أكداره و أغياره.

و لكن عرفت أن التباعد من هذا الأمر لا يكون إلا باتخاذ حرفة.[3] و لم أجد حرفة تشغل أفكاري عن الدعوى أكثر من تداخلي في حيز المستخدمين.

---

[1]- هو مطلع خمسة أبيات للعارف بالله الشيخ الحسين بن منصور الحلاج و نصها:

أنا من أهوى و من أهوى أنـــا	نحن روحان حللنا بدنـــــا
نحن مذ كنا على عهد الهـــوى	تضرب الأمثال للناس بنـا
فإذا أبصرتني أبصرتـــــــــه	و إذا أبصرته أبصرتنــــا
أيها السائل عن قصتنـــــــا	لو ترانا لم تفرق بيننـــــا
روحه روحي و روحي روحه	من رأى روحين حلت بدنا

[2]- قريب من هذا قول الشاعر:

قد كنت أحسب أن وصلك يشترى	بنفائس الأموال و الأربــــاح
و ظننت جهلا أن حبك هيـــــن	تفنى عليه كرائـــم الأرواح
حتى رأيتك تجتبي و تخص مــن	تختاره بلطائف الأمنــــــاح
فعلمت أنك لا تنال بحيلـــــــة	فلويت رأسي تحت طي جناح
و جعلت في عش الغرام إقامتـي	فيه غدوي دائما و رواحـــي

[3]- إشارة لقوله صلى الله عليه و سلم: إن الله يحب المؤمن المحترف. إهـ .. أنظر مجمع الزوائد، للهيثمي (كتاب البيوع) باب الكسب و التجارة و محبتها 4: 106 رقم 6231. مسند الشهاب القضاعي 2: 148 رقم 1072، رقم 1073، رقم 1074. الترغيب و الترهيب، للحافظ المنذري (كتاب البيوع و غيرها) الترغيب في الإكتساب بالبيع 2: 335 رقم 2611.

فالحمد لله على هذه الحالة. فها أنا ذا في راحة بال من هذه الحيثية. و إن كنت في شغل شاغل قلما أجد منه مخلصا. و لكن الله قادر على ستر القبيح بإظهار المليح. وهو المطلع على ما في صميم الصميم. فهذا ما أملاه علي الوارد لأكتبه. و قد كتبته علي الكتبة. و قد قيل:

فلا تكتب بكفك غير شيء يسرك في القيامة أن تراه

و لم أكتبه عن اختيار. و إنما هو شبه اضطرار. لذلك إن صادف عندك ما كتبناه لك قابلا فهو نافع إن شاء الله. و إلا فقد طابق كتابكم لنا. و كل كلام له جواب. و لم أتعرض فيه لشتم أحد. و لا للإعتراض على أحد. و كذلك في جوابنا الطويل عن رسالتكم المشار لها. فقد جاريناكم فيها. و المقصود من ذلك كله سلوك طريق الجد بالجد. و تنبيه المريدين على شروط الطريقة التي يتم إن شاء الله بها القصد. متحققا بأنها تقع عندكم موقع القبول. فتعمل بمقتضاها. و لا تتأثرون عند تجلي الحق بإنكار أهل الإنكار عليكم بين الخلق. و سنكتب للسيد الأخضر الجبلي بما عسى أن يكون فيه إصلاح ذات البين. و إن لم يكن بيننا و بينه سوى مكاتبات حديثة العهد. و لم نعرفه من قبل لا إسما و لا عينا. مسلما على حضرتكم السامية. و على كل من هو منكم وإليكم. و المقصود هو الله.

و بعد كتبي لهذه الأسطر عزمت على تمزيقها لما اشتملت عليه مما يعد من قبيل الشطح. الذي يحتاج في بعضه إلى زيادة شرح. و لكن لا تزيده العبارة إلا عقدا إذا رمت حله. و لا يحمله محمله من لم يطف بمغناه و يبلغ عنده الهوى محله. مع أني لم آل جهدا في حبس زمام القلم عن الزيادة في هذا الموضوع. و لو طاوعته لأملى ما يمله من يجله. و ما هو إلا من العلم اللدني الذي حُمنا حوله. و إن لم نكن عند أهل التحقيق أهله.

و كم من كلام ليس يفهمه الـــذي تكلم عند السامعيـــــن به حقـــــــــــا
يزيد ارتقاء في الدّعاوي به و لم يزل في انخفاض و هو في زعمه يرقى

فإذا طالعت كلامي هذا فلا تطلع عليه غيرك. حتى لا يحمله على ما لم أقصده. و لِمَا يراه من له أغراض فيفرغه في قالب التمويه. و إني لأشم ممن طالع هذه الكلمات رائحة التنافس النفساني. فيكاد أن يمزقه بعد قراءته. و ربما نسبني فيه للإنتحال. إن استعظمه أحزابه الحافظون لرياسته. فكن أول كاتم له. و إن شوش عليكم آخر فيما أنتم بصدده فلا تلتفتوا له. فإن للحق سلطانا. و إن يكن من عند الله يمضيه. وباستحضار هذا المعنى تستريح و تريح. ونحن بصدد جواب ما يرد علينا من مكاتبتكم بسلامة صدر و طيب نفس. و نحن على ما تحبون و تودون. طبق ما تعتقدون. و مرحبا و أهلا و سهلا بكم. و بمن هو منكم و إليكم عندما تقدمون. وحسبنا الله و نعم الوكيل. و صلى الله على سيدنا محمد و آله و صحبه و سلّم.

و نص الكتاب الذي وجهه المجاب بالكتاب أعلاه: بسم الله الرحمن الرحيم. و صلى الله على الحامد المحمود. دستور. وأفوّض أمري إلى الله إن الله بصير بالعباد. وسلام الله. السلام للخل الحميم. و الحلاحل الكريم. وليّ الله العارف به سيدي سكيرج قاضي وجدة. أيَّدك الله وسددك. و أشكرك في جمال محبته. و أخذك عنك في شهود عظمته. وإفناك عنك حتى لا أنت و لا

شهود. و هو الشاهد المشهود. و إبقاك به و بحبيبه صلى الله عليه و سلم بقاء و بقاء و بقاء. وحينئذ تجد كل معناك في طلسم مبناك. وتعلم من أنت؟ و ما أنت؟ و من أين أنت؟ و إلى أين أنت؟ و ما المراد منك في أين وبعد:

أيها الحبيب قد بلغنا سلامك مع بعض الواردين. بل فرحت بك فرحا يعلمه الله حين سمعنا بقدومك لوجدة قبل الوصول. لما كان بقلبنا من ممازجة محبتك. و التمني لملاقاتك. من الوقت الذي كنت بمستغانم[1] و كان خالنا الشقيق العلامة الهمام سيدي عبد القادر بن قدا مصطفى[2] يثني عليك. و يبلغني سلامك. و يقول لي: إن فلانا يعني السيد سكيرج له شغف برقائق الفن اللدني. ليته اجتمع بك. و كنت أحبك لمحبة الفن الذي هو قوت حياتنا. و حياة مشايخنا وأحبابنا. و كنت أتمنى القدوم لفاس لملاقاة بعض أحبابنا هناك. و عندي نية لملاقاتك. و لما قدمت نويت ممازجة في الله معكم لقرب المسافة. و لنا أيضا أحباب و قرابة بوجدة منهم في المخزنية و في غيرها. إذا زرناهم نغنم ملاقاتكم. فإذا سيدي الأخضر الجبلي عامله الله بما يستحق شوش علينا الحال. حيث قبض الرسالة و أشاع بها في نواحي كثيرة بقصد الرد والابتذال. فانقبض قلبي عن ملاقاتكم. مع أنه رجل لا معرفة بيني و بينه. لكنه كان من جملة المتعصبين على إذايتي منذ دخلت لندرومة. و لما دخل في الطريق التجانية في هذه المدة القريبة جعلها سلما لغرضه القديم. فإن شئت أن ترده للمحبة و المودة فهو أفضل. و إلا فيد الله فوق يده و لولا الحب من أمثالكم لأمرت طلبتنا و فقهاؤنا يجيبونه بألف جواب. و الآن ظهر لي أن أبعث لك ما أجبته به من الرسائل. لكن لم أعطها له سوى الغراء. خوفا أن يفعل بها كالأولى.

و أحبابنا يسلمون عليكم. و خصوصا المقدم البركة سيدي محمد بن رحال. و لما يقدم من الجزائر ربما يكون عندنا سفر لوجدة إن شاء الله. و لا سيما إن قدم الشيخ المفتي. فنجتمع إن شاء الله على سرور المحبة في الله لله. و نريد منك أن تجاوبني فيما بيني و بينك بعد قراءة هذه الرسائل. و لا بد أن تكاتبني و أكاتبك برسائل السلام. و إن كان في جواب سيدي الأخضر ما يشوش فابعث لي حتى تكون بيننا و بينكم مراجعات بقصد الاستفادة لا بقصد الاعتراض. و أما الأول الذي أجبته بالرسالة التي عندك فإنه أساء الأدب كثيرا. حتى لما قال له الفقير: إنا نذكر الاسم الأعظم الله. قال له حاش لله أن يكون كذا و كذا كما رأيت في الرسالة. و سلم على أحبابنا في الله العلامة سيدي الحاج العربي. و العلامة الحاج التهامي. والعلامة سيدي الحاج محمد المازوني. إن جمعكم مجلس. و إلا فلا كلفة بارك الله لنا فيهم وفيكم. و به خديم المتحابين. محمد بن سليمان سلمه الله وأحبابه في الدارين آمين.

[1]- مستغانم: مدينة صغيرة. تقع في الشمال الغربي من بلاد الجزائر.

[2]- عبد القادر بن مصطفى بن قدا. مفتي مدينة مستغانم الجزائرية، فقيه صوفي أديب، أنظر ترجمته في الرحلة الحبيبية الوهرانية للعلامة سيدي أحمد سكيرج 68.

الترصيف
فيما لمؤلفه من التصنيف

للعلامة سيدي أحمد سكيرج رضي الله عنه

تحقيق ذ محمد الراضي كنون
الإدريسي الحسني

الترصيف
فيما لمؤلفه من التصنيف[1]

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله وحده وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.
اعلم أن عدد التآليف التي أنعم الله بها علينا هوالمائة، و قد اقترح عليّ بعض أحبابنا تجريد أسمائها ببيان موضوعاتها، فشرعت في تويلف سميته بالترصيف، بما لمؤلفه من التصنيف، و غالب هذه المؤلفات في فقه الطريقة التجانية، و فضائلها و الدفاع عنها و عن غيرها من طرق أهل الله، غير أني لما جمعت كلها في أجزاء ما بلغتْ جزءا واحدا من المجلدات الضخمة من تآليف من مضى من أعلام الأمة، و إنما هي من باب ما يقال في المثل: كثرة العد و قلة القبض، و ليس هذا من باب التواضع و التنزل الموهوم، و إنما هو إخبار بالواقع، و قد تحقق عندي أني من المغرورين بالإشتغال بها حيث أنها ستكون حجة علي، وياليتني أخلص منها فتكون لا علي و لا لي. وهي كالتالي:

الهدية السارة. بالمسامرة ببيان بعض العلوم النافعة و بعض الفنون الضارة [2]
و هي مسامرة جامعة لفنون جمة، تزيد معلومات الطالب بمطالعتها، و ينتفع بمراجعتها، وهي نحو مائة علم، بين متداوَل و غيره، مما تقرر اصطلاحه، و ربما اندمج بعض الفنون في بعض في مسألة من مسائله، و قد تصعب التّفرقة فيما بين المتعدد منها من الجهة العلمية الخاصة بها، و لا زالت في مبيضتها إلى الآن.

[1]- هو كتاب هام ومفيد، حاول المؤلف من خلاله إلقاء الضوء على ما دبجه يراعه من مصنفات مختلفة في الأدب والتاريخ والترجمة والفقه والحديث و التصوف، مع التعريف بمحتوياتها، وتيسير سبل الإنتفاع بها، سواء منها مؤلفاته المطبوعة والموجودة في متناول القراء وقتئذ، أو التي لا زالت في طريق الإعداد والطباعة.
لكن فكرة هذا الكتاب لم تعمر طويلا في ذهن العلامة سكيرج، الذي ما فتئ أن انشغل عنه بإعداد مؤلفاته الأخرى، بينما لم تتعدى صفحات مؤلفنا هذا عشرين صفحة، تحدث فيها بإيجاز حول اثنين وعشرين تصنيفا من مصنفاته، التي تناهز 170 مؤلفا.
وللمزيد من التوضيح فسبب شروعه في تأليف هذا الكتاب يعود لتلميذه العلامة سيدي محمد الحافظ التجاني المصري، إذ هو الذي اقترح عليه هذه الفكرة، وألح عليه طويلا للعمل على إنجازها. وتفيد ما لدينا من المصادر أن تاريخ شروعه في كتابة هذا المصنف كانت في عام 1353 هـ أي قبل عشر سنوات من وفاته رحمه الله.
[2]- هي من عداد الكتب التي أَدْرَجْنَاهَا ضمن هذا الجزء الرابع.

نزهة الخاطر، في اضمحلال الثائر [1]

هي مقالة شبه مقامة، أنشأتها أيَّام السلطان المولى عبد العزيز، شرحت فيها حالة قبيلة غياية و القبائل المجاورة لها حين نزل بها الثائر أبو حماره، و ما لاقته الجنود العزيزية الموجهة إليه، و التنبئ بما يؤول إليه أمره بعبارة تأخذ بالألباب، و قد استعارها منا الأديب النابغة السيد عبد الحميد بن عبد السلام الرندة، فضاعت عنده، و لم ير وجهها أحد بعده، و هكذا الشأن فيما يُعار و ليس له نظير، و لقد أحسن القائل:

ألا يا مستعير الكتب دعني	فإن إعارتي للكتب عـــــار
فمحبوبي من الدنيا كتـــاب	و هل أبصرت محبوبا يُعار

المنفرجة السكيرجية

هي منظومة من بحر المتدارك الذي نسج على منواله أبو الفضل ابن النحوي منفرجته التي يقول في مطلعها:

اشتدي أزمة تنفـــــــرجي	قد آذن ليلـك بالبلـــــــج

فقلت في عددها و رويها على عادة المنفرجات:

فرج الله بالقرب منك يجي	لا توقع نفسك في الحرج

و قد شرحها جماعة من أعيان العارفين، منهم العارف بالله أبو عبد الله الشيخ محمد بن علي التادلي، الرباطي أصلا، الجديدي سكنى، فإنه شرحها بشرحين كبير في نحو مائة و رقة، وصغير في كراسة صيرها حكما نثرية، و أبدع في ذلك ما شاء، و قد طبع هذا الشرح الصغير بمصر، كما طبع شرح الخليفة المعظم، مفخرة القطر السنغالي، أبي عبد الله سيدي الحاج محمد بن عبد الله انياس على هذه الأرجوزة في نفس نفيس، جازى الله الجميع خيرا.

[1]- بحثت طويلا عن هذا الكتاب، غير أنني لم أقف له على أثر، وتيقنت من ضياعه، والمعروف أن كثيرًا من العلماء التجانيين عاضدوا السلطان المولى عبد الحفيظ في حربه على الثائر محمد بن الجيلاني الزرهوني، المعروف بأبي حمارة، وقد وقفت في هذا الصدد على تويلف صغير للعلامة سيدي محمد بن عبد الواحد النظيفي سماه: نصرة السلطان وإغاظة الشيطان، كما وقفت في الموضوع نفسه على قصيدة طويلة للعلامة الأديب سيدي الطيب عواد السلاوي، قالها لما شاع خبر القبض على الفتان المذكور، تقع في 78 بيتا، قال في مطلعها:

رسائل الفتح والتمكين والظفر	قد شنفت سمع أهل البدو والحضر
وأقبلت من بساط الملك منبئة	بما يسرُّ النهى من مطرب الخبـــر

حور المغاني في نظم جواهر المعاني [1]

هو أرجوزة منسجمة، نظم فيها ما اشتمل عليه جواهر المعاني المؤلف قيد حياة الختم التجاني في طريقته المثلى، و قد ذكر طرفا من هذا النظم في كشف الحجاب، و ما زيد فيه في رفع النقاب، و يظهر أنه يتم في نحو أربعة آلاف بيت، أتمه الله بالقبول و بلغ به ناظمه و من نظر إليه بعين الرضى غاية المأمول، يقول في مطلعه:

الحمد لله على الإنعـــــام　　بنعمة الإيمان و الإســـلام
حمدا يوافي سائـــر الألاء　　في حالة السراء و الضـــراء
و الشكر دائما على إحسانه　　وجوده وجودة امتنانـــــه
شكرا يليق بجنابه الجليـــل　　و منه نستوجب فضله الجزيل
ثم على خير الورى صلاته　　مع سلام عظمت صلاتُـــه

إلى أن قال في ترجمة نظم الخطبة:

الحمد لله الذي أفاضـــــا　　على جميع الأوليا حياضـــا
تدفقت في معدن الأنـــوار　　و كوثر العرفان و الأســرار
واختارهم من سره المكنون　　وكنز در علمه المصـــون
حلاهم بحلة السنــــــاء　　و حلل الجمال و البهـــاء
و في العلى أطلعهم أقمــارا　　بهم سبيل الحق قد أنـــارا
بنورهم من الهدى طريقـــه　　قد استضاءت سبل الحقيقـــه
تبوءوا منه قرارا و وطـــن　　فقلبهم بذكره حقا سكـــن
فلجميع السالكين طـــاروا　　هداية و منهجا يختـــار
و أبرزوا منا لكل لاحـــق　　منار حق لاهتدا الخلائـــق
لولاهم ما سلكت فجـــاج　　سبل الهدى و لم يكن عـلاج
و لا تبين الهُدى استبصارا　　حقا لأنفس الورى إقـــرارا
سبحان من خصهم بالحكمة　　و النور بين سائر البريـــة
و شرح القلوب و الصدورا　　بهم و قد جعلهم صـــدورا
فإنه جعلهم للديــــــن　　خير نصير في الورى معين

---

[1]- المعروف عن العلامة القاضي سيدي أحمد سكيرج أنه قام بنظم مجموعة من الكتب الهامة، خصوصا منها ذات الصلة بالسيرة النبوية العطرة، وكان الهدف من نظمها هو تمهيد قراءتها للطلاب، وتسهيل حفظها وترسيخها في أذهانهم ، وبناء عليه قام رحمه الله بمحاولة جادة في سبيل نظم كتاب جواهر المعاني، للعلامة العارف بربه سيدي الحاج علي حرازم الفاسي، غير أن هذا النظم لم يكتب له أن يسير إلى خط نهايته، بل اختار الناظم أن يقف بقلمه دون إتمامه، ليس عجزا عن إنجاز هذا المسعى النبيل، ولا تهاونًا في خدمته، ولكن نزولا عند أمر أستاذه الولي الصالح سيدي أحمد العبدلاوي، الذي طلب منه أن يترك إتمام هذا النظم إلى حين صدور إذن خاص في شأنه.

نصيحة الإخوان في سائر الأوطان [1]

هي نونية كاملية، تناهز 500 بيتا، نصح بها إخوانه من أهل الطريقة التجانية بما يتعين النصح من كل مقدم فيها سلك على قدم الصدق لمريديها، و يتعين على كل مريد العمل بمقتضاها، لاشتمالها على لب الطريقة، والوقوف بها على عين الحقيقة، مما يزيد به المعتقد حسن اعتقاد، و لا يجد فيها المنتقد أدنى انتقاد، مطلعها:

علي أرى فرضا نصيحة إخوانـــــي ... و من لي بأن يصفوا بقلـــب و آذان
و من لم يكن مستحضر الفكر عند من ... يخاطبه لم يستفد غير خســـــــران
يظل من الأوهام في حال حيـــــرة ... يضل بها عن نهج حق لبطـــــــلان
و يضحى كمن في الدين يهدم ما بنى ... و قد كان يهدي بالذي قد غدا بانـــي
و من ذا الذي يرضى بتضليله و كـم ... دعا الناس للإحسان من غير نكــران
أليس بعار أن يدنس عرضـــــــه ... و ما زال ذا عرض نقي بإيقـــــان
و يزداد حبا في التجاني و شأنــــه ... على رغم أنف الحاسد الجامد الشانـي
له في طريق النصح حسن مقاصـــد ... بها يحرز المقصود في أهل عرفـــان

و قد طبعت بالمطبعة الفاسية، و بمصر المحروسة بمطبعة الصدق.

زهر الأفانين في الجواب عن الأسئلة الثلاثين

في نحو سبع كراريس، و قد تضمن الجواب على هذه الأسئلة على أتم وجه، وجهها إليه العلامة الشيخ عبد العزيز بن عبد الماجد الأمدرماني، من سودان مصر، بعدما أجابه بالنفحة العنبرية، أولها بعد البسملة بمفتاح حمد الله: أستفتح مغلق أبواب خزائن الفضل، فأستخرج أنفس النفاس مما يطمإن القلب به في علمي الظاهر و الباطن من فرع و أصل، و نستنتج من ذلك قبول الحق في الخلق، فاعرف الخلق بالحق و الحق بالحق، إلى تجرد للأسئلة و فرعها في الجواب، و بسط القول فيها على المسلك الذي نسلكه منها.

السؤال الأول قال فيه قد اشتمل على مسائل يحتاج إلى تمييز بعضها عن بعض، كل مسألة على حدتها، لتكون ترجمة ناصة بنفسها في الجواب عنها.
المسألة الأولى: عن صفة التلقين الذي كان يفعله سيدنا رضي الله عنه عند أخذ العهد عليه.
المسألة الثانية: هل لهذا التلقين الطريقة التجانية مأخوذ من الكتاب و السنة
المسألة الثالثة...

---

[1] ـ قال في ختامها:

وَلِي بالتجاني الفخر والفخر حــق لي ... بحب التجاني في الورى طول أحياني
وإني علـــى أبوابـــــه متملـــق ... لنيل أماني في سلامــــــــة إيمانـي
ولله ربي الحمــد وهـو مـوفقــــي ... إلى خدمة الشيخ التجاني وإخوانـــي
على كلهـــم منـــي أتمُّ تحيـــــة ... وتشمل من بين الورى كل ربانـــي
إليكم بني الإنصاف ما قلتـــه لكـــم ... ولكن أعيدوا فيه نظرة إمعــــــان
ولا تقصروا الأنظار منكم على الذي ... به شغل الأفكار منتقـــد عانـــــي
فإن ظهر الحق المبين لكـــم فقـــد ... ظفرتم بحبل الله بالرغـــم للشانـــي
ولا تهملوا نصحي لديكم فإننـــــي ... قصدت به نظما نصيحـــة الإخوان

النكات الخفية في أبيات من الكافية أحسن من نظائرها في الألفية [1]
هذا التوليف يستحسن ما انطوى عليه من اعتنى بألفية ابن مالك رحمه الله، و عرف مضمن قوله (أحصي من الكافية الخلاصة) فالكافية هي الأصل، و الألفية كالفرع عنها، فالناظم يأتي في الخلاصة تارة بالبيت والبيتين فأكثر من الكافية، و تارة يختصر مضمن البيت و البيتين منها في الألفية، و مع ذلك فقد ترك أبياتا من الكافية أحسن مما جلبه في الألفية، فجمعنا بعض ذلك في هذا التويلف، ثم أعرضنا عن إتمامه لما أعرض الناس عن الألفية، و بردت الهمم عن النكات الخفية في الألفية، و نرجو من الحق أن يوفقنا للتمام، لما في ذلك من الفوائد المناسبة لذلك المهام.

القصيدة الكافية، بتضمين الهمزية في كاملية كافية [2]
سلك ناظمها فيها مسلكا واسع المجال، ثم اعترف بأنه ضاق به السلوك حين وصل لمجادلة الإمام البوصيري لأعداء الإسلام، و تأسف على ما اقتحمه في مجاراته بأخذ معاني أبياته التي أفرغها في قالب كامليته، و لم يجد فسحة يخرج بها من الضيق الذي أقلقه إلا ارتكاب الإيطاء، الذي يراه لا ممدوحة عنه، وبالتزام تكرره خفت وطأة الغيب المنوط به في علم العروض، يقول في مطلع هذه القصيدة:

كيف ارتقاء سواك في مرقـاك ... و قد ارتقت فوق السماك سماك
فالأنبياء و إن تساموا في العُلى ... لم يدركوا في العالمين عَـــلاك

و منها يخاطب الرسول عليه السلام:

و من المفازة إن بثت شكايتـــي ... لك حيث أنت تغيث من نـاداك
ضمنتها في المدح و هو تعرض ... مني به بين الورى لجـــــداك
ما حاولت نفسي مديحك ساعــة ... إلا و ساعدني نفيس ثنــــاك
ساجلت قوما فيه قد غاروا على ... من بينهم أدلى الدلا لنـــــداك
و عَلاك قد وسع الثنا فتنافـــس الـــــــــــشعراء في إبداع مدح عُلاك
لو بالغوا بغلوهم في المدح مـــا ... بلغوا الوفاء لما استحق عَلاك
فأثب بفضلك من يمد يديه كـــي ... يحظى بما لهم تمد يـــــداك
حاكهم في نسج ما حاكوه مـــن ... برد القريض لترتدي ما حاك
أو صافك الدرر الثمينة كلهـــا ... نظما و نثرا قد سمت إدراكا
فلترض نظم جواهر من تبر غيـــــري صغت في تنظيمها أســـــلاكا

و في الخاتمة:

و إليك قدمت الثناء و ليس لي ... مال أقدمه لدى نجـــواك

[1]- هي من الكتب التي أدرجناها ضمن هذا الجزء أنظر ص 187- 195.
[2]- أدرجناه ضمن كتابنا مجموع الدواوين النبوية للعلامة القاضي سيدي أحمد سكيرج.

و على ضريحك بالتمام تحية يخضل منها بالدوام ثراك
ما قام عبد للصلاة و قامت الـــــــدنيا بربك و انتهت عليـــاك

جنة الجاني، في تراجم بعض أصحاب الختم التجاني [1]

هي أرجوزة اشتملت على أسماء بعض أصحاب الشيخ التجاني الذين أخذوا عنه مشافهة، ممن ترجم لهم في كشف الحجاب و في رفع النقاب، و الزيادة على ذلك و الإشارة لبعض مناقبهم، مع ما يناسب نفس المترجم له من الأحوال التي يكتسب بها مطالعها حالا ينشرح لها صدره، و ينكشف عنه بها ضره، ويغرّف من بحر أسرارهم سرا باهرا، و يرتقي به مقاما فاخرا، إن تخلق بما به تخلقوا، و تحقق بما به تحققوا، يقول في أوله بعد البسملة.

الإمدادات الأحمدية، في نظم العهود المحمدية [2]

و هي أرجوزة طويلة الذيل، اشتملت على ما انطوت عليه العهود المحمدية للقطب الشعراني رضي الله عنه، و لا زال إلى الآن لم يتم نظمها. يقول بعد البسملة فيما اشتملت عليه خطبتها:

حمدا لمن أوفى المطيع بالعقـود و حثنا على الوفاء بالعهـــــود
سبحانه هو المربي بالنعـــــم و المخرج العباد من كهف العدم
نشكره على جميع النعـــــم فشكره يكشف كل الغمـــــم
ثم على خير الورى أزكى صلاه منه تناسب عَلاه و عُــــلاه
مع سلامه على أتباعـــــه و كل من حث على اتباعــــه
و بعد هذا فببالي قد خطــــر نظم العهود في عقود تعتبــــر
ضمنت ضمن كل عقد عهـــدا بما انطوى عليه عقدا عقـــدا
أطلقت في ميدانها عنانـــــي مقتديا بالعارف الشعرانــــي
و ربما اقتبست منه قبســـا و ربما أطلت فيه النفســـا
و ربما اختصرت ما أطال بـه تفننا في النظم من مطالبــــه
و ربما زدت عليه في كـــلام مراعيا في ذاك مقتضى المقـام
فقد أقرر الذي قــــرره و قد أكرر الذي كــــرره
و ربما خرجت عن موضوعه لغرض قد تم في مشروعـــه
فللزيادة و الإستطـــــراد للشيء معنى كان من مـــرادي
و للجديد لذة و ســــــر تنشرح النفس به و الصـــدر
و الباعث القوي في جمعي لما جمعته تحرير ما قد نظمـــا
فإنني عند مطالعتـــــه أزداد فهما بمراجعتـــــه
فالشيء لا ينظم حتى يفهمـــا و الدر يحسن إذا ما نظمـــا
فكان في نظمي له فوائـــــد لي نفعها و لسواي عائـــــد

---

[1]- هو من الكتب التي أدرجناها ضمن الجزء الرابع.

[2]- هي أرجوزة طويلة، عَمَدَ العلامة سكيرج من خلالها إلى نظم كتاب العهود المحمدية للعلامة العارف بالله سيدي عبد الوهاب الشعراني، غير أنه لم يذهب في نظمِهِ بعيدًا، وانشغل عنه ببعض مؤلفاته الأخرى، ولو أتمه لكان مفيدًا في بابه، اعتبارا لما يحتله كتاب العهود المحمدية من مكانة طيبة لدى القراء.

و يقول في المطلب الأول:

قد أخذ العهد على العمـــــوم	من الرسول كاشف الغمـــــوم
أن نرجو الوفاء من فضل الكريم	ففضله بين الخلائق عظيـــــم
و نخلص النية لله لَـــــــدَا	عملنا و علمنا إلى المـــــدى
و نخلص الأعمال مما شابهـــا	من الشوائب و ما قد عابهـــا
حتى من الشهود للإخـــلاص	و الفعل للثواب و الخـــلاص
و إن يكن بالبال منا خطــــرا	نشهَدْهُ من فضل الكريم قد جرى
و ليس ذلك للاستحقـــــاق	لما فعلناه من الخـــــلاق

إلى آخر هذا المطلب، و يقول في المطلب الثالث:

و أخذ العهد علينا أن نكون	ممن هم لكل خير يسلكون
فهم يسارعون للخيـــرات	لنيلها في سائر الأوقـــات
و قد أمرنا أن نكون منهـــم	و لا يصدنا هوانا عنهـــم

الحجارة المقتية، لكسر مرءاة المساوي الوقتية [1]

و هو نظم. نونية كاملية، رد بها على ترهات الرحلة المراكشية، على أسلوب بديع، دَافع به عن حمى طرق أهل الله التي انتهك حرمتها مؤلف الرحلة المذكورة. و هو يناهز ألفي بيت مطلعه:

حمدًا لواهب نعمة الإيمـــــان	بين العباد لطالب الإحســـان
فحباه بالتصديق بين الأوليـــا	فغدا يرى فيهم رفيع الشـــان
شملته منه عناية فأحبهـــــم	و محبهم منهم بـــرغم الشاني
و الله حارب من يعاديهم و هـــل	ينجو محاربهم من النيــــران
خابت مساعيه فلم يفلح و هـــل	ربحت تجارته مدا الأزمـــان
يا ويل من آذاهم مما يــــرى	دنيا و أخرى من أذى و هـــوان
من ذا الذي قد خاض في أعراضهم	و نجا و لو يعلو على كيـــوان

و في أثناء الرد على المؤلف المذكور حكى بعض كلامه نظما، و ربما أتى بلفظة المنثور، وتعقبه بما هو فيه مذكور، فأبرد بذلك الغليل، و أبرأ به العَليل.

---

[1]- رد به على كتاب مرآة المساوي الوقتية، لمحمد بن محمد بن عبد الله المسفيوي، المشهور بابن الموقت. وكعادته عمد العلامة سكيرج في هذا الكتاب إلى الدفاع عن التصوف وأهله، ودحض أقوال مناوءيه، وتفنيد ادعاءاتهم وترهاتهم الباطلة، ولم يقتصر دفاعه المذكور عن طريقته التجانية فقط، بل تناول فيه مأمورية الدفاع عن عشرة طرق صوفية، وهي كالتالي، الطريقة القادرية، والطريقة الناصرية، والطريقة الوزانية، والطريقة التجانية، والطريقة المختارية، والطريقة الدرقاوية، والطريقة الفتحية، والطريقة الكتانية، والطريقة الشنقيطية المنسوبة للشيخ ماء العينين، والطريقة البوعزاوية.
ويقع الكتاب المذكور في جزءين وقد تمت طباعته بالمطبعة الجديدة بفاس سنة 1357 هـ

منحة الزّائر، بالمسامرة في نادي الترقي بالجزائر [1]
هي مسامرة لطيفة، اقترحها عليَّ نابغة قطره، أعجوبة الدّهر، أبو العباس السيد أحمد توفيق[2] ، و فوض إلي اختيار الموضوع، فأنشأتها في مسقط الرأس حضرتنا الفاسية، فتكلمت عليها كلمة وقعت من الحاضرين موقع قبول، و تعرضت فيها لذكر حالتها و حال سكانها، وبالأخص كلية القرويين، و العلوم التي كانت تدرس بها، و ما اندرس فيها، و ما بقي أثره عند بعض العارفين به من فنون مما طرقت بابه، فانفتح السرور في وجهنا به، و قد حازها منا العاقل المحترم الشيخ وديع كرم مدير جريدة السعادة سابقا، ليطبعها لنا بمطبعة سورية، فكان آخر عهد بها عنده، و هكذا الشأن فيما لم يترك نسخة من تأليفه عنده، فعليه وحده العهدة.

شحذ الأذهان، بما رأيته في وهران و أبي العباس و مستغانم و تلمسان
و هو مسامرة ألقيتها بنادي المسامرات بفاس في أوائل افتتاحه، لخصت فيها ما تعرضت له في تأليفي المعنون بالرحلة الحبيبية، و ألحقت بها بعض الفوائد المناسبة لموضوعها، و قد استعارها مني الترجمان المحلف أبو عبد الله السيد الحاج محمد جسوس الجزائري ليترجمها، فأخبرني بضياعها، و كذلك كل معار لا نظير له يضيع، و لله الأمر من قبل و من بعد.

النفحات الربانية في الأمداح التجانية [3]
هو ديوان شعر، جمع فيه بعض القصائد التي مدح بها الشيخ التجاني رضي الله عنه، مرتبة على حروف المعجم، بما يناهز الخمسين قصيدة، اشتملت على الثناء على الشيخ قدس سره بذكر بعض مناقبه و فضائل طريقته، و التعلق بجنابه في الأخذ باليد، و بلوغ المقصد، بواسطته من الحضرة المحمدية عليها السلام الموصلة للحضرة العلية على حسب اعتقاد الصوفية، و من انتهج منهجهم في حسن الظن في أهل الله، ومفصحا فيه عن اعتقاده فيه، من كون مدحه من مدح الحضرة المحمدية عليها السلام، حتى قال:

لما علمت أنني عجزت على مدح النبي
أتيت أمدح ابنه و مدحه مـــــــن ؟؟؟؟

---

[1]- هو من الكتب التي أدرجناها ضمن الجزء الأول من هذه الرسائل

[2]- أحمد توفيق المدني، سياسي محنك، من مواليد تونس سنة 1317 هـ_1899م، وبها تلقى تعليمه وتكوينه، عين وزيرًا للشؤون الثقافية في الحكومة الجزائرية المؤقتة سنة 1958م، ثم سفيرًا للبلد المذكور لدى الجمهورية العربية المتحدة، ثم وزيرًا للأوقاف في حكومتين متتاليتين للجزائر بعد الإستقلال إلى حدود سنة 1966م حيث عين سفيرًا فوق العادة في العراق وتركيا وإيران.
من مؤلفاته: المسلمون في جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا، وحرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا، وكتاب الجزائر وغيرها.
توفي بمدينة الجزائر العاصمة بتاريخ 1404 هـ_ 18 أكتوبر 1983م. أنظر ترجمته في مشاهير التونسيين 114_115، التراث المجمعي في خمسين عامًا، لإبراهيم الترزي 167. المجمعيون في خمسين عامًا، لمحمد مهدي علام 36. تتمة الأعلام للزركلي، لمحمد خير رمضان 1: 29.

[3]- عليها ثمانية تقاريظ، أولها تقريظ العلامة أحمد بن التهامي المكناسي، ثم عبد الكريم بن العربي بنيس، ثم المهدي بن عبد الرحمن بن سودة القرشي، ومحمد بن الأعرج السليماني، ومحمد التونسي ابن شقرون، وعبد الرحمن بن زيدان، ومحمد الغالي السنتيسي، ومحمد سالم الشنقيطي.

و قال:

لما عرفت أننـــي عجزت عن وصف الرسول
قمت لمدح شيخنا و مدحه به أصـــــــــول

و قد افتتحه بخطبة يقول فيها: نحمدك اللهم مانح العطايا، و فاتح أبواب الفضل على جميع البرايا، المتفضل بالمواهب الوافرة، و الآلاء الباهرة المتكاثرة، إلى آخرها، و قرَّظه جماعة من الأحباب، و هو وإن اشتملت قصائده على غلو فيه، فإن لسان المحبة يطلق، وَ إنْ قيد بلجام انطلق، و المحب معذور على كل حال، غير معذول في مقال، على أننا نرى ما قلناه في هذا الجناب قليل بالنسبة لما يستحقه الشيخ رضي الله عنه من الثناء الجميل، و أول قصيدة من هذه الأوّل يقول في مطلعها:

للتجاني فضل على الأولياء باصطفاء من أفضل الأنبياء
كلما فاض منه سر تلقـــــا ه و يسري منه إلى الأشيـاء

و يقول من قصيدة ثانية فيه:

جررت من الفخار بكم رداءي فكان ردى عداي به رضائي
و ما ظنوا بأني فيك مضنـــى و عين بقاء عيني في فنائـــي

و قلت في مطلع بائية:

أمي لغير حماك القلب عنه أبي أمي فداك و نفسي دائما و أبـــي
صبابتي فيك لست اليوم أنعتهـا لكنني فيك صب منذ كنت صبي

و قلت من تائية:

نفسي على الحب فيك في الورى جبلت و عنك بالقول طول الدهر ما عدلت
غدوت فيك شجي القلب في شجـــــن و العين مني بتسهير قد اكتحـــــلت

و قلت في اليائية المختوم بها:

أجبت الهوى لما دعاني مناديــــــا و ما كان يستطـع الجواب فؤاديـــــا
فحملته ما ليس يقوى لحملــــــــه و من ذا الذي يقوى على حمل ما بيـا
أتحسب أن العشق سهل مرامـــــه و نار الهوى دكت جبالا رواسيـــــا
فإن كنت من أهل الغرام و حزبــه تعالى نحدثك الذي كنت لاقيــــــــا
عسى تأتسي بي في طريق صبابتي فيصبح مثلي عن سوى الحب ساليـا

و قلت من القصيدة الأخيرة فيه:

كلما رمت في ثناك النهاية قيل لي لم توف حق البدايه
إنما الناس كلهم إن يقوموا لثناه لم يبلغوا فيه غايـــه

إلى آخرها و قد طبع هذا الديوان بالمطبعة الفاسية عام 1333 هـ، محذرا الواقف عليه من غير الإخوان والمحبين أن يحمل ما انطوى عليه من الأمداح على الغلو المذموم، فإنما هي من أمداح جده عليه السلام.

إرشاد الأحياء، بنظم الإحياء [1]

و هو نونية كاملية، طويلة الذيل، نظم فيها ما اشتمل عليه كتاب إحياء علوم الدين للعارف الغزالي أيام شغفه بمطالعتها، و قد صرف في ذلك وقتا نفيسا، حصل فيه على ما هو أنفس منه من معارف و أسرار، و ازداد شغفا بها حين أنشده شيخه العلامة الرئيس سيدي الحاج عبد الكريم بنيس قوله:

أحي بالإحياء قلبـــا مات من ران الذنوب
فهو قوت الروح حقا جامع قوت القلـــوب

مطلعه بعد البسملة:

إني حمدت الله ذا الإحســـــان حمدا كثيرا سائر الأحيـــان
و الحمد مني لا يوفي شكــــره و لو أنني استغرقت فيه زمانـي
بل حمد كل الحامدين و إن سمـو متضائل عن شكره الحقانـــي
ثم الصلاة على جميع الأنبيـــا بعد الصلاة على النبي العدناني
و عليهم أزكى التحية دائمـــا تغشى جميع الآل و الصحبـان
و قد استخرت الله في نظمي لمـا قد ضمن الإحياء من عرفـان
فالنظم عند ذوي الولوع محــرك لقرائح الطلاب أولي الشـــان
فيزيدهم عند التأمل خبــــرة و يزيدهم ذكرى مع الإيقـــان
و لو أن إقدامي على ما رمتـــه صعب فإن النظم طوع بنـــان
و قصدت نفعي بالذي قررت من نظم المعاني منه في إمعانـــي
و لقد حلا عندي تكرر ما تقـــر ر عنده في السر و الإعـــلان
ما ازددت فيه تأملا إلا بـــــدا لي منه حسن لطالب التبيـــان

شرب المدام، بتخميس أبيات حفظتها في المنام [2]

و هو ديوان جمع تخاميس أبيات كنت حفظتها في المنام، فاستيقظت و هي على طرف لساني، نصها:

---

[1]- لم ينظم منه سوى صفحات قليلة، ثم انشغل عنه بكتاباته الأخرى.

[2]- فرغنا من تحقيقه وطبعه في شهر رمضان المعظم عام 1425 هـ_نونبر 2004م.

خذ سنة الله بين خلقه أبـــــــدا — و لتجعلنها لديك خير قسطـــــاس
ما عظم المرء آل البيت دون مِرا — إلا و عظم عند الله و النــــــاس
فالحظ بعين كمال الفضل قدرهم — و اخضع لهم دائما بالقلب و الراس

فخمَّسها نحو الخمسين أديبا، ترجمت لهم في تأليفنا المسمَّى: تحفة الأنام المتقدم الذكر، وجردنا تلك التخاميس حفظا لها قبل تراجم ناظميها، فجاءت مجموعة الشمل، إلى أن خرجت في ذلك الشكل المترجم لهم به.

تحفة الأنام، بتراجم من خمس أبياتا حفظتها في المنام [1]

جمع تراجم نحو خمسين أديبا من أدباء المغرب على أسلوب غريب، يستحسنه الأديب الأريب، و قد ذكرت بعض أدبيات لكل من ترجم هذه الأبيات، و صدرته بقصيدة سينية أنشأتها في مدح حضرة سيدنا العباس عم النبي صلى الله عليه و سلم، ختمتها بالأبيات المشار لها مكتوبة بالون الأحمر، حسبما رأيته في الرؤيا التي حفظتها فيها، و قد حكيت الواقع في هذا التويلف المشتمل على نحو أربع كراريس، بما انطوت عليه من سوابق ولواحق، و بالله التوفيق.

تفريج الشدة، في تشطير البردة [2]

قد جرى في هذا التشطير في مجرى الإنسجام من غير أن يتصنَّع فيه، و لم يصدره بخطبة، بل قال في أوله و كان ذلك منه شبه ارتجال:

أمن تذكر جيران بذي سلـــــــــم — أوقدتَّ في قلبك الأشواق في ضـــرم
فصرت مشغول فكر في هواك و قد — مزجت دمعا جرى من مقلة بـــــدم
أم هبت الريح من تلقاء كاظمـــــة — فملت معها لشم عرفها العمـــــــــم
أم طار عقلك حين طارحتك هـــوى — و أومض البرق في الظلماء من إضم

و يقول في خاتمتها:

و أذن بسحب صلاة منك دائمـــة — على الرسول تفوق طيب الديـــــم
و اسحب سحائب خيرات مؤبـدة — على النبي بمنهل و منسجــــــــم
ما رنحت عذبات البان ريح صبا — و ما تحرك وجد الصب في سلـــم
و ما توالت على كل الورى نعـم — و أطرب العيس حادي العيس بالنغم

[1]- أدرجناه ضمن الكتاب السابق، وكان فراغنا من تحقيقهما وطباعتهما معا في شهر رمضان المعظم سنة 1425م_ نونبر 2004م.
[2]- أدرجناه ضمن كتابنا مجموع الدواوين النبوية للعلامة القاضي سيدي أحمد سكيرج.

شفاء العليل، بتحويل البردة من بحر البسيط إلى بحر الطويل [1]
قد صدر هذا النظم بشبه خطبة يقول فيها: حمدا لمن بسط يديه بوافر النعم، لمن مدّ إليه اليد فملأها من كامل الفضل الأتم، إلى أن تخلص لسبب تحويل البردة لبحر الطويل، حيث وقف على تحويل بعضهم لها إلى بحر المنسرح، يقول في المطلع:

أمن تذكر عرب ذي سلم   دموع عينيك مزجها بـــدم
أم هب طيب نسيم كاظمة   أم نور برق أضاء من إضم

فنسج على منوالها من بحر الطويل حيث يقول:

أمن ذكر جيران أقاموا بذي سلم   مزجت دموع العين من مقلة بـــدم
أم الريح من تلقاء كاظمة جـرت   و أومض برق في الدياجي من إضم

و في ختامها:

فيا رب و اجعل غير منعكس رجـــــا   ء عبدك و اجعل عده غير منخـرم
و بي الطف لدى الدارين يا سيدي فلي اصطبـــــــــار متى الأهوال تدعه ينهــزم
و سحب صلاة منك تهمي على النبـــي   بأعظم منهل و أكمل منسجـــــم
على طول رقص البان في حضرة الصبا   و أطرب حادي العيس عيسه بالنغم

الذخيرة للآخرة [2]
و هو من القصائد الربيعيات، ألفت في ربيع عام 1339 في نحو 1515 بيتا، و قد امتازت عن غيرها أنها صدرت عن إذن، حيث رأى ناسجها شيخه العلامة أبا العباس بن الخياط في مشهد، و تفاوض معه في مدح الجناب المحمدي عليه السلام، فقال له: يتعين عليك أن تمدحه صلى الله عليه و سلم، فاستيقظ و هو يبكي، فأنشأها مرتبة على جل حروف المعجم، و كلما فرغ من قصيدة تلاها على مسامع والدته، و كلما تلا بيتا دعت له بما يرجو من الله قبوله، يقول في أول قصيدة منها:

ماذا أقول إذا أطلتَ ثنائـــــي   و أنا عليك قصرت خير ثنائي
إن كان مدحي ليس يدنيني إلــى   علياك أدناني إليك رجائـــــي
أتكف كفي و هي صفر حاش أن   لا تملأن يدي بخير عطـــــاء

الذخيرة الثانية في ربيع الأول عام 1340 هـ في نحو أبيات 1016
و هي من الربيعيات الجارية مجرى ما قبلها، و قد ابتدأها بترصيع الأبيات المنسوبة لبنات بني النجار، يقول فيها:

---
[1]- أدرجناه ضمن كتابنا مجموع الدواوين النبوية للعلامة القاضي سيدي أحمد سكيرج.
[2]- أدرجناه ضمن كتابنا مجموع الدواوين النبوية للعلامة القاضي سيدي أحمد سكيرج.

طلع البدر علينا في الدجى	من ثنيات الوداع ساطعـــــا
أيها المبعوث فينا مرسـلا	جئت بالأمر المطاع صادعا
وجب الشكر علينا و الثنا	ما دعا لله دَاع خاضعـــــــا

و قد ختم هذه الذخيرة بقصيدة يقول في مطلعها:

إذا الكون ما استوفى الثناء على النبي	فعجزي ما فيه يرى من تعجـــب
و أعلم أني لست شيئا حقيقـــــــــة	إذا ذكر المداح في حضرة النبـــي
فقد جل قدرا أن أوفي بمدحـــــــــه	و مقداره يعلو على كل منصـــب
و غاية ما أمليته في مدائحـــــــــي	له بعض معنى لفظه غير مطرب
فوا أسف لو كان نطقي مساعـــــدي	لإبداع مدح فيه إبداء مطلبـــــي
فأحسب ممن قد أجادوا ثناءهـــــم	عليه و نالوا منه حسن التقـــرب
على أنني مستيقن بقصورهـــــــم	و إن شيدوا فيه القصور لموجب

و قد ختم هذه الربيعيات بقصيدة يقول في مطلعها:

طويل مديحي في علاك قصيـــــــر	و لو أنني أطنبت فهو يسيـــر
قصارى عجز في ابتداء و في انتهـا	لديك لأني قد دهاني قصـــور
و اعلم أني عاجز و ابن عاجــــــز	و عاجزة عن مدح ما هو ندير

و قرض هذين الذخيرتين أديب الرباط المرحوم أبوجندار [1] بقوله:

هذا هو الدرر لا ما جاء في صدف	و مطلع البدر لا ما جاء في ســــــدف
هذا هو الشعر بل و السحر خامرنا	فاللب في كلف و القلب في شغـــــف
ما شئت من غرر ما شئت من درر	ما شئت من ظرف ما شئت من تحـف
لا فض فوك أبا العباس أحمـــــدنا	يا مفرد العصر في فضل و في شرف

[1]- محمد بن مصطفى بوجندار، مؤرخ أديب شاعر، من مواليد مدينة الرباط سنة 1307 هـ_1889م، له تآليف كثيرة منها: الإغتباط في تراجم أعلام الرباط، ومقدمة الفتح من تاريخ رباط الفتح، وتعطير البساط بذكر تراجم قضاة الرباط، وشالة وآثارها، وفتح المعجم من لامية العجم، والعطر المسكي في حياة شيخنا المكي، ترجم فيه لأستاذه الشيخ المكي البيطاوري، إلى غير ذلك من مؤلفاته الأخرى.
توفي في ريعان شبابه عن سن 38 سنة بتاريخ 19 ربيع الثاني عام 1345 هـ_27 أكتوبر 1926م. أنظر ترجمته في مقدمة الإغتباط بتراجم أعلام الرباط 1_7. الأدب العربي في المغرب الأقصى، للقباج 1: 65. من أعلام الفكر المعاصر بالعدوتين، للجراري 2: 207_213. الأعلام، للزركلي 7: 102. معلمة المغرب 5: 1646. إتحاف المطالع، لابن سودة 2: 433. موسوعة أعلام المغرب 8: 2958.

ضوء الظلام، في مدح سيد الأنام [1]

و هي معشرات طويلية مرتبة على الحروف الهجائية، مدح بها الحضرة المحمدية، و قد اعتنى بشرحها العلامة قاضي الحضرة الوجدية سابقا السيد محمد بن الطيب بن الحسين الوجدي أيّام اعتقاله بالحضرة الفاسية، إلا أنه لم يتم شرحها، و قد جربت قراءتها بحضرة المحموم في شفائه، و لا ينكر الخواص إلا جاهل أو متجاهل، و مطلعها بعد خطبتها.

وقاية العطب، ببعض الخطب

قد اقترح علي جماعة من الأحباب إنشاء خطب جمعية و عيدية في مجموع سميته بوقاية العطب، بعد أن كنت ألقي الخطبة ارتجالا من غير تقييد، فأجبت اقتراحه، و قد ضاع جلها لعدم اعتنائي أولا بها، و إني لأرى أنه يتعين على الخطيب أن يخطب دائما بما يناسب الوقت، و يتعرض في خطبه لما ينفع السامعين ويرغبهم و يرهبهم بكل ما يدفع عنهم المقت، و لا يملي الخطبة إملاء من غير نظر، لما ينبغي الترغيب فيه والتّرهيب منه طبق ما أشرنا إليه، و لا يقتصر على الخطب المرتبة على جمع الشهور بحكايتها للسامعين، فهي في الغالب غير مؤثرة، و ليجتنب الطول الممل، و الإختصار المخل، سيما إن ضاق المسجد بالحاضرين، أو كان بالصحن زمهرير حر أو قر، فيُعَدُّ الخطيب بذلك ثقيلا، سيما و النفوس اليوم رهيفة الملل، حتى كادت أن تكتفي بالعلم عن العمل، و لله الأمر من قبل و من بعد.

---

[1] ـ أدرجناه ضمن كتابنا مجموع الدواوين النبوية للعلامة القاضي سيدي أحمد سكيرج

حضرة التداني
من شرح أبيات الختم التجاني

للعلامة سيدي أحمد سكيرج رضي الله عنه

تحقيق ذ محمد الراضي كنون
الإدريسي الحسني

حضرة التداني،
من شرح أبيات الختم التجاني[1]

بسم الله الرحمن الرحيم و صلى الله على سيدنا محمد و على آله و صحبه و سلم، نحمدك يا من فتح أبواب خزائن الفضل الذي لا نفاذ له في الدار الباقية و الدار الفانية، و منح خواص عباده بالإنفاق منه كيف شاء سرًّا و علانية، و لايزال يمنح جل الخلق و يمنع البعض منهم بمقتضى حكمته، كلا على قدر قابليته و استعداده على وفق ما قضاه في الأزل، و لا يفعل ربنا إلا خيرا، فسبحانه لا إله إلا هو من إله لا معبود بحق سواه، و الصلاة و السلام على الحجاب الأعظم الذي لولاه لاحترق الكون بأنوار و جلال الحق، و لا تُوجد ذرة من الخلق، فهو صلى الله عليه و سلم منه تكوَّن كل متكون، و أنار بسنائه المكون المكون، و به أعطى كل شيء خلقه ثم هدى، و لأجله أوجَد الوجود و لم يخلقه سدى، و على آله الذين جعلهم الحق في الخلق أمانا، وأعلا في معالي العلا لهم و لمن أحبهم مكانا، و رضوان الله عن جميع الصحابة الهادين المهتدين، وعمن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

و بعد فيقول خديم الحضرة الأحمدية التجانية، ذوات المواهب العرفانية، أحمد بن الحاج العياشي سكيرج، شرح الله صدره، و غفر وزره، و رفع ذكره، كنتُ يوما أنشدتُ أبياتا مذكورة في كتب الطريقة التجانية من نظم سيدنا الختم التجاني رضي الله عنه[2]، أنشأها

---

[1]- يدخل هذا الكتاب في نطاق اهتمام المؤلف رحمه الله بآثار شيخه القطب الصمداني أبي العباس التجاني رضي الله عنه، تطرق فيه لشرح بعض مفردات قصيدة المطالب المنسوبة للشيخ المذكور، فسلط الضوء على جوانب مختلفة من معانيها الدقيقة، وأبدع في تبسيط بعض غوامض ألفاظها وتقريبها للأفهام بصورة حسنة، ضمن أسلوب سلس وتعبير بديع.
ويعود تاريخ هذا الكتاب للفترة الأولى من حياة المؤلف رحمه الله، وعلى وجه التحديد في خضم عام 1319 هـ- 1901م، أي بعد تمسكه بورد الطريقة التجانية بأربع سنوات لا غير.
والمعروف عن المؤلف ضمن هذه الفترة أنه كان منكبًا على دراسة كتابين اثنين وهما جواهر المعاني للعارف بربه سيدي الحاج علي حرازم، والجامع للعلامة سيدي محمد بن المشري، وبناء عليه يأتي هذا الكتاب في نطاق هذه الدراسة التي شملت جوانب متعددة أخرى ذات صلة بحياة الشيخ أبي العباس التجاني وآثاره وسلوكه وعقيدته.

[2]- المعروف عن هذه القصيدة أنها صدرت عن الشيخ الختم أبي العباس التجاني رضي الله عنه في فترة كان عمره فيها لا يتجاوز الأربعين خريفا، وقد ضمنها مطالب كثيرة يسأل فيه الله تعالى أن ينعم عليه بمقامات عرفانية كبيرة، كمرتبة القطبانية العظمى، مع ما لها من خصائص ومميزات ولطائف وتصاريف ونفود.
وكان الدافع له لطلب هذه المقامات ما بَشَّرَتْهُ به جماعة من كبار الشيوخ، ممن التقى بهم في رحلته الأولى لبلاد المغرب، وأيضا في رحلته المشرقية عام 1187م- 1773م، حيث أسرَّ له شيخه سيدي محمود الكردي بأنه سيدرك مقاما فوق مرتبة القطبانية، وأنه سيضع يده على خصوصيات جمة لم يسبق أن نالها وليٌّ صالحٌ آخر.
وعموما فقد كان الشيخ رضي الله عنه شديد الوثوق بهذه البشارات، يضعها نَصْبَ عينيه، ويترقب حصولها بين كل وقت وآخر، آملا أن يظفر بمطلوبه قبل حلول فترة شيخوخته، وهو ما دفعه للتوجه بالدعاء للحضرة الإلاهية، طالبا أن تمدَّهُ بعنايتها الفائقة، وتمنَحَهُ عن قُرْبٍ جميع ما يأمله من مقامات وعطايا ومواهب كريمة.
وقد استجاب الله دعاءه، وحقق له كافة مطالبه التي كان يرجوها، كما زاده من فضله أضعافا مضاعفة من المراتب العلية، والمعارف والفتوحات اللدنية.

بحال قوى في تلهفه على الحصول لما أهمّه من الدخول لحضرة التداني و الوصول، فجرى على خاطري أن أجاريها بما يُبيِّن بعض ما لوّحت له، و لم أشعر بنفسي حتى كتبت عليها هذه العجالة، وسميتها **حضرة التداني، من شرح أبيات الختم التجاني رضي الله عنه**.

و قد كان سيدنا رضي الله عنه قبل فتحه و الحُلول بمقام القطبانية و الختمية بُشِّرَ على لسان الحضرة المحمدية عليها السلام مُشافهةً بكونه أعلا مقاما من غيره، و قبل الإجتماع به يقظة كان بشره أهل الفتح و المكاشفة بما يشاهدون في عالم الغيب من جلالة القدر المنوط به، ويضمنون له بعد تعلقه بهم و الإنحياش إليهم قبل الفتح عليه ما كان يطمئن به صدره، وتطيب به نفسه، و يرى من إقبالهم عليه ما كان يزيده تيقنا تاما بالخصوصية التامة، ويستروح به في خاصة نفسه أن له بذلك شأنا كبيرا في مستقبله، بما كان يترقبه من نيل مطلبه فوق ما يهتم به، و حين طال انتظاره في أوائل أمره لكشف الغطاء عما يختلج في صدره استعمل هذه الأبيات، و هي أبيات استفهامية، في ضمنها طلب تعجيل الظفر بما يطلبه، فقال فيها:

ألا ليت شعري هل أفوز بسكرة[1]　　　من الحب تحيى منك كل رميمة

قد ترقب رضي الله عنه للجواب بالإسعاف بمطلبه في ضمن استفهامه عما في دواخل باطنه من شدة التشوف لهذه المطالب، التي هي وسائل لتحصيل غاية المطلب، الذي ما وراءه مرغب، فأتى في ابتداء استفهامه عن مطالبه بالمطلب الذي رآه فاتحة الخيرات، و المفتاح الذي تفتح به المعلقات، و هو من الأمر الأهم، الذي يستحق على غيره أن يقدم، فطلب السكر من الحب لينتعش به باطنه، و يحيي قلبه، و يشرح صدره، و تقوى نفسه على حمل ما يفيض عليها من حضرة القدس من الأسرار، فجرد من نفسه شخصا طلب له بتلك السكرة حياة كل رميمة منه على رواية منك، وفي بعضها مني، و على رواية مني يتعين حذف ياء المتكلم للوزن و لمعنى لطيف، و هو فناء النفس في معنى البقاء، و كأنه يطلب به التحير الذي يطلبه كل محمدي في كمال الترقي في المراتب التي هي نهاية السير في إدراك السر، بمقتضى زدني فيك تحيرا، و على لسان الحضرة يقول عاشقها:

---

[1]- السكر في اصطلاح الصوفية هو غيبة بوارد قوي مفرح، وهو أقوى من الغيبة وأتم منها، ويعجبني في هذا الصدد قول العلامة الولي الصالح سيدي محمد العربي بن السائح، في مطلع قصيدة له:

سكرت ولم يشعر صحابي كلهم　　　بأي شراب كان من دونهم سكري
وما بشمول كان سكري وإنمــا　　　شمائل محبوبي شمالي لو تــدري

زدني بفرط الحب فيك تَحَيُّرا وارْحَم حشا بلظى هواك تسعَّرا[1]

فالسكر منه هو التحير المطلوب من المحبوب متحققا بأن الحب عليه مدار القرب، فهو إن كان من المحب الصَّادق يدنيه لحضرة الحبيب، و إن كان من الحبيب فهو أعلا و أغلا في رفع شأن المحب على رغم الرقيب، فعلى هذا فإن الحب أول ما يعتني به المريد لإدراك مطالبه من كل أحد، فَلابُدَّ من التقرب إليه بالحب و بحب من يحب، فإذا فاز بالحظ الأوفر من الحب حتى سكر به بحيث يكون مستغرق القلب و القالب في المحبوب مطبقا عليه في الإلتفات عن الغير للغير، فلا جرم أنه ينال من المحبوب فوق ما تمناه، و يحيى به دارس الرسم من حسه و معناه، ثم قال سيدنا رضي الله عنه:

و هل لذرى الإحسان[2] ترقى عوالمي و هل تتجلى الذات فيها لفكرة

في استفهامه عن ترقي عوالمه لذرى الإحسان، و تجلي محبوبه لعين فكرته في العيان، طلب الإسعاف بمقصوده وفق ما تقدم، و لكن طلبه المتقدم فيه إجمال، لكون السكر بالحب ربما يحول بين الحبيب و المحب بكمال القرب، فلا يشعر بمذاقه لإطباقه، و إن كان في ضمن المسؤول عنه ما يحيى به كل رميم، فاستفهم هنا عن ترقي عالم حسه و عالم معناه الذي هو عالم الذات، و المراد به الجوارح، و عالم النفس و عالم الروح و عالم القلب و عالم السر في أطواره كلها، و هي العوالم التي يطلب ترقيها لذرى الإحسان إلى التمكن في العبادة المحضة، فتعمل جوارحه الظاهرة و عوالمه الباطنة ما هو في حيز القبول، بحيث تعمل ذاته بإخلاص، بعد توفيقها لما فيه من كل قيد خلاص، و تستعمل النفس و ما عطف عليها في مدارج الإحسان، الذي هو بعد درجات الإسلام والإيمان، مع تفاوته في أطوار الإنسان.

---

[1]- هو مطلع قصيدة للعارف بالله الشيخ عمر بن الفارض ونصها:

زدني بفرط الحب فيك تحيُّرا وارحم حَشَى بِلَظَى هواك تسعرا
وإذا سألتُكَ أن أراك حقيقة فاسمحْ ولا تجعلْ جوابي لن تَرَى
يا قلبُ أنْتَ وعدتني في حبهم صبرًا فحاذر أن تضيقَ وتَضْجَرَا
إن الغرامَ هو الحياة فمت به صبًّا فحقك أن تموت وتُعذَرَا
قل للذين تقدموا قبلي ومن بَعْدِي ومن أضحى لأشْجَانِي يرى
عني خذوا وَبِيَ اقتدوا ولي اسمعوا وتحدثوا بصبابتي بين الورى
ولقد خلوتُ مع الحبيب وبيننا سرٌّ أرقُّ من النسيم إذا سرى
وأباح طَرْفِي نظرةً أمَّلْتها فغدوت معروفًا وكنت مُنَكَّرَا
فَدُهِشْتُ بين جمالهِ وجلالهِ وغدا لسانُ الحالِ عَنِّي مُخبِرَا
فأدِرْ لِحَاظَكَ فِي محاسنِ وَجْهِهِ تَلْقَى جَمِيعَ الحُسْنِ فِيهِ مصوَّرا
لو أن كلَّ الحُسْنِ يكمُلُ صورةً ورآه كان مُهَلِّلا ومُكَبِّرَا

[2]- قال الجرجاني في كتابه التعريفات: الإحسان في الشريعة هو التحقق بالعبودية على مشاهدة الربوبية بنور البصيرة، أي رؤية الحق موصوفا بصفات بعين صفته، فهو يراه يقينا ولا يراه حقيقة، كما جاء في قوله صلى الله عليه وسلم: أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك. إهـ. التعريفات 14-15.
أما في مصطلح القوم فالإحسان هو مقام يكون فيه المتصوف السالك ملاحظا لآثار أسماء الحق وصفاته، فيتصور في عبادته كأنه بين يدي الله تعالى، وهو مقام الكشف والشهود.

و لذلك استفهم عن أعلا أطواره، الذي هو غاية أوطاره، فطلب بتجلي الذات له في جميع عوالمه حتى ينظرها بعين فكرته، فيكون في هذا البساط سكران يقظان، و يكون المحبوب امتزج به امتزاجا لا يوصف بانفصال، و يرى بنفسه ذلك الإتصال بعين الكمال، بحيث ينزه هذا المحبوب عن الإتحاد، و إن كان في ظاهر القصد هو المراد، غير أن المطلوب هو الحصول على مقام الاستغراق في المشاهدة بما يليق بالحضرة، و لا يفوته ملحظ حق المخلوق، فإن من فاته إعطاء هذه المرتبة حقها حالة الإستغراق في المشاهدة يفوته من المعرفة بالله بقدر ما فاته من ذلك، حسبما تقرر عند خاصة و عامة العارفين، واستفاده الحاتمي من الحضرة الهارونية في إحدى وقائعه العرفانية، و أفاده شيخنا في بعض مقالاته، و أما قوله:

و هل لي بغيب الغيب بالله غيبة تغيب كلي عن جميع الخليقةِ

فهو استفهام بتمني الغيبة التي هي غاية الصحو بكمال المشاهدة للحق، فإن غيب الغيب الذي تغيب به جميع عوالمه بالله عن غيره هي غاية المراقبة و المشاهدة و القرب التام و الود المحض في بساط الأنس به، فليست الغيبة المطلوبة هنا نقصًا عن درجة المقام الأول، الذي يجمع فيه المشاهد بين حق الرب و العبد، بل هو هنا طلب الإستغراق الكلي و الإصطلام التام حتى يكون مقامه و جميع عوالمه مستورة عن جميع الخلق، بحيث يتقدم في حضرة القدس إلى درجة لا يراه فيها غيره من الكمل، و إلى مقام لغيره لم يُنَلْ، مع رسوخ قدمه هو في إعطاء المقام حقه، و لكل عالم ما استحقه.

و هذا زيادة في التمكن من المقام الأول، و تلك الغيبة المطلوبة تفيد أي غيبة به، بمعنى أنه يأخذه الحق دفعة واحدة من كله تغيبه عن سائر الخلق، فتكون غيبته في غيب الغيب ساترة له بكمال القرب عن كل نقص و عيب، و في ذلك غاية الترقي في درجات المعرفة بالله و صفاء النفس من كل ما يشين شرعا و طريقة و حقيقة، فتصير عوالمه على أكمل درجة من التداني لحضرة القدس، في بساط الأنس، بانجلاء مقتضيات النفس، و لهذا قال:

و هل نفحات القرب[1] فضلا تعمني و قد هدمت مني رسوم الطبيعة

فهو استفهام لطلب الحلول في حضرة القرب، بحيث تعمه النفحات القدسية، حتى تستولي عليه استيلاءً كليا، فيكون معدودا من نفس تلك النفحات، لزوال ما طبعت عليه البشرية من الحظوظ النفسانية، فيعمل لغير حظ، و يقبل من غير عمل، لأن من عمه الفضل عُدَّ من أحسن المحسنين، ولو كان من أكبر المسيئين، كما قيل:

---

[1]- القرب في اللغة هو الدنو، وهو خلاف البُعْدِ، أما في اصطلاح القوم فيعبر به عن القيام بالطاعة والإنقطاع عما دون الله، وأن ترى صنائعه ومننه عليك، وتغيب فيه عن رؤية أفعالك ومجاهداتك، والإتصاف في دوام الأوقات بعبادته. قال تعالى: واسجد واقترب.

و إذا الحبيب أتى بذنب واحدٍ جاءت محاسنه بألفِ شفيع[1]

غير أنه بطلب الدخول إلى حضرة قدسية ينقطع بها عن حظوظ النفس بالكلية، فلا يصدر منه إلا موجب القرب، و هو في عين القرب بانسدال رواق الحفظ عليه، فتكون له من عناية الله به عصمة قوية، و إن كانت العصمة بين البشر لا تكون إلا للأنبياء، لكن يعطى لبعض خاصة الخاصة من المحمديين حظ منها، و هو القطب، فله بحفظ الله مشرب منها، فالشيخ رضي الله عنه يتمنى هذا المقام المخصوص، و يطلب مقام القطبانية في هذا الإبان الذي هو ابتداء أمره، بحسب البشارات التي عنده، و المبشرات من الخاصة له من أنه سينال قصده، ولكن طال انتظاره، فقال:

و هل جذبات[2] بالتجلي تؤمني فتسلبني عن كلي كلي و جملتي

فهو في ضمن استفهامه يتمنى وقوع التجلي من حضرات الجذبات القدسية، لتجذبه من مرتبة لمرتبة، و تطلعه لأعلى المراقي وفق ما طلبه، فيخلع نعليه بواد وقفت بساحله نفوسٌ غواصة لاستخراج درر اللطائف المودعة في صدق العناية من كل بحر عميق، و فج غميق، حاجز عن البلوغ إلى طور الصدمات النورانية، الذي يندك عندما يلمع منها لامع شواهق جبال النفوس العالية، عندما تستطلع عليها بالخوض في هذا البحر الذي غرقت فيه سفن أهل العزم القوي، و لا يهتدي لعبوره منهم إلا من تحلى بمقامات اليقين في ابتداء أمره في الإنكباب بكل جهد لما يوصله إلى حبل التعلق للجذب إلى تلك الحضرة، فالشيخ رضي الله عنه يتشوف بهذا العزم للجذبات التي تتجلى عليه من هذه الحضرة الإمتنانية، لتجذبه للحصول على غاية مطلبه، فتسلب منه الرعونات النفسية التي لا ينفك عنها بشر إلا بتطهير رباني ينصب من حضرة القدس، فينجلي به ما يرق من الأدران من بقايا حظوظ النفس.

فهو رضي الله عنه قد ارتقى إلى ما هو أعلا من هذا المقام بطلب ما يسلبه عن كل الكل وجملته الظاهرية و الباطنية، بحيث تكون الجذبات المطلوبة واردة عليه من جناب الحق، تحقُّه من سائر الخلق، فيكون عبدا محضا، وارثا محمديا، متحليًا بالأخلاق الإلاهية، لا ينفك عن رابطة الجواذب، و يكون مطلوبا للعناية بعد ما كان لها هو الطالب، فلا تحجبه المشاهدة عن أداء حق الله في الخلق، و لا يمنعه القيام بحق الخلق من أداء حق الحق، وهذه من الكمالات الروحية التي لا تدرك إلا باجتباء قدسي، ولنا رواية في قوله رضي الله عنه بالتجلي، و هي بالتحلي نوع من التحلية، و هي مستقيمة المعنى أيضا، من جهة كون تمنِّيه لجذبات صمدانية واردة عليه بالتحلي المناسب للعبد في دخول حضرة سيده، كما يصح أن يقرأ بالتخلي بالخاء المعجمة، بحيث تكون هذه الجذبات توافيه بالتخلية عن الكون لانجذابه إلى حضرة المكون، وعلى كل حال فهو متشوف للإنقطاع إلى الله عن كل ما يشغله عنه،

---

[1]- البيت للشاعر محمد ابن نباته المصري

[2]- جذبات: جمع جذبة، والجذب في اصطلاح أهل التصوف هو تقريب العبد بمقتضى العناية الإلاهية المهيئة له كل ما يحتاج إليه في طي المنازل إلى الحق بلا كلفة وسعي منه.

طالب تعجيل ذلك له ليدرك كمال إقبال الحق عليه، و كمال محبة الرسول صلى الله عليه وسلم فيه، و في ذلك غاية المطلب، وهذا مرتبط مع قوله:

و هل واردات[1] الوصل منها ترق لي لكي أرتقي العلياءَ من كل رتبة

فإنه يطلب تعجيل الوصل ضمن التجليات العالية المرجو ورودها عليه بصدق الوجهة، مع تباشير الهناء المخصوص به على لسان الخاصَّة، وفق ما أشرنا إليه، فهو لكمال التشوف للعرائس التي ستبرز له من تحت خدور التجليات، و تُزف لحضرته من أعلى المقامات، أزعجه الشوق للإستطلاع على وُجُوهها، منتظرا لما يرد عليه من الجذبات ليرتقي في مراقي الرتب العالية، ليصل إليها حين تجذبه يد العناية، و تفتح له باب الدخول لحضرتها ملحوظا بالرعاية، و في ذلك كمال مَطلبه، فإنه يتحقق رضي الله عنه بأنه إذا زفت له واردات الوصل فإنها ترقى به من كل رتبة على العلا التي لا يصعد فيها إلا من هو لها أهل، غير أن كل صاعد من أهلها يقف عند رتبته المخصوصة به، و لا يحمل به التشوف للرتبة التي هي أعلا قدرا من قدره قياما بواجب الأدب، فلا يطلب مطلق الولي رتبة القطب المتصدر على كرسي جلالته، و لا يطلب القطب رتبة الصحابي الذي عدَّه النبي صلى الله عليه و سلم من صحابته، و لا يطلب الصحابي رتبة النبي المنفرد بنبوة، فأحرى إذا ارتبطت برسالته، و لا يطلب النبي و الرسول رتبة الألوهية لانفراد الحق بها جلَّ علاه عن الشريك في وحدانيته و إلاهيته، فوقف الكل عند حدِّ الأدب اللائق به.

غير أن الكامل من الرجال يستطلع بهمة مؤيدة بالعناية على الرتب التي ترقى فيها الهمم، فإذا استطلعت عليها أقبلت على نيلها بعزم قوي، فتظفر منها بالوصل، و ما يفتح الحق بابا من التعرف منه لعبده إلا ودعاه للدخول منه و تنبيهه على طلب ما يراه أو بشر به، فإن الشيخ رضي الله عنه قوي العزم، له البشارة التَّامة قبل الحصول على المراد الذي تحمله له واردات الوَصل، ليرقى من كل رتبة أعلاها بين ذوي العقد و الحل، فطلبه لهذا من باب طلب الشخص لتعجيل الحق المخصوص به، فهو مستحق له في الحقيقة بالتخصيص والإجتباء له، و لا يجب عليه سبحانه شيء من الأشياء إلا ما اقتضاه عدله، وجاد من غير وجوب عليه به فضله، و الحاصل أن الشيخ رضي الله عنه كان يطلب تعجيل ما بشر به قبل الوفاة، فإن الرتب لا يعظم قدرها في العالم الأخروي إلا بقدرها المحصل في الحياة، و بعد الموت لا يبقى لها ترق إلا ما خص به الرسول صلى الله عليه و سلم من الترقي الدائم، ولخليفته قدم في الترقي معه.

و لا بأس بذكر واقعة حصلت لي بتاريخ 8 جمادى عام 1325، و الله يشهد أنها لحق، فقد ظهر لي بين النوم و اليقظة، والحالة الثانية أغلب أن صاحب حضرة القدس ترتقي مرتبته دنيا و أخرى في كل لحظة، لأنه مستمد من الحضرة المحمدية، و هي دائمة الترقي، و انظر

---

[1]- الواردات: جمع وارد، وهو في اصطلاح القوم كل ما يرد على القلب من المعاني الغيبية من غير تَعَمُّدٍ أو تعمُّلٍ من العبد.

إلى قوله تعالى: "و رفعنا لك ذكرك[1]" أي أن مرتبتك لا تزال ترتقي دنيا و أخرى، فكذلك صاحب هذه الحضرة لحلوله بمرتبة الخلافة كالشيخ سيدي أحمد التجاني، و أما غير صاحبها فينتهي ترقيه بموته، إهـ.. بمعنى ما رأيتُه و سمعتُه في هذه الوقعة الروحانية، و فيها بحمد الله داع الفلاح للموفق ليقدر قدر الشيخ رضي الله عنه، ثبتنا الله على محبته، و أما قوله رضي الله عنه:

و هل أردن بحر الشهود فيشتفي غليلي بغوص فيه في كل لمحةِ

فهو من باب طلب تحصيل المفازة، التي هي منتهى مفازات السير، للعثور على منبع كل خير، في قطع مشاهدة الغير، فإنه إذا ورد العارف من بحر الشهود، أفاض على الوجود ينابيع الجود، فينتفع في خاصة نفسه، و ينفع غيره من أبناء جنسه، في عالم معناه و عالم حسه، فيكون وارثا أحمديا، وخلفا محمديا.

و ناهيك بهذا المقام الذي هو مطمح نظر خاصة الأصفياء و أكابر الأولياء، ليجري النفع على يدهم لعباد الله عند ما يحصلون على الحظ الأوفر منه، فتدعوهم داعية الخير المفاض عليهم للأخذ بيد الضعفاء، و يسقونهم من موَاردِ الصفاء ما فيه هدًى و شفاء، و هذا المقام ينقسم بحسب الوارد و المُورد و المورود و المراد و المريد إلى أقسام ما بين سالك ومجذوب، و عذب أو ملح غير مشروب، ليس الكلام فيه الآن، حيث أن مطلب الشيخ رضي الله عنه هنا إنما هو تعجيل الفتح عليه بالورود من بحر الشهود، فيشتفي غليله بغوصه فيه في كل لمحة من لمحات بصره، و المقصود سقيه في كل نفس من أنفاسه من شراب مختلف لونه و ذوقه، من معين المعرفة بالله تعالى، و المشاهدة التامة المتمكنة من مقام الإحسان في قرار مكين، و هذا البحر الذي هو بحر الشهود ينصب في بحر الحقيقة المحمدية، ثم منها ينصب لبحر الألوهية الذي غاية ما يناله الخائض فيها بالحق من الحق في الخلق العجز عن الإدراك و التحقق بالعبودية المحضة على قدر منصبه من التمكن في المعرفة، فإن الشهود الحقي ما كان من حيز هذا المطلب، و إلا كان باطلا يأتي لصاحبه بما لا يرضيه، و يوقعه فيما يُرديه.

و الشيخ قدس سره يطلب الشهود الحقي الذي لا يأتيه الباطل، و يطلب التمكن فيه بما يرده من بحره و يغوص فيه غوصا يقضي عليه بعدم الخروج منه، فهو ممن ينطق لسان حاله بعد خوضه قائلا: خضنا بحرا وقفت الأنبياء بساحله، و على كل حال فمطلب الشيخ دوام الشهود و التعجيل عليه بالفتح به، و لهذا قال:

---

[1]- سورة ألم نشرح الآية 4

و هل تطلعن شمس المعارف[1] جهرة بباطن قلبي و الهدى لي زفت

فإنه رضي الله عنه قد كان في أشد ما يكون من الإشتياق إلى طلوع شمس المعارف بمنازل قلبه من الحضرة القدسية، و طال انتظاره لإشراق أنوارها جهرة لديه، فيرى بعين اليقين وجه محبوبه الذي ألقى نفسه بين يديه، فاستفهم عن طلوعها في مطلع الأسرار من باطنه، وفي طي استفهامه تمني التعجيل بطلوع هذه الشمس التي إذا أشرقت في قلبٍ استنار بأنوار محمدية مطلعها من أنوار قدسية إلاهية، لا تبقي من ظلام النفس بقية، فيهتدي من أشرقت في باطنه لما فيه السعادة الأبدية، و يسلك بها مطمئنا من الوقوع في مهاوي الدَّسائس النفسية، بما أشرق عليه من الأنوار المنيرة، حتى يرد من عين الحياة السرمدية، التي لا يبلغ إليها إلا من خرق الحجب البشرية، و صار نورا محضا بامتزاج نور المعرفة بنفسِهِ المرضية، فتزف له عروس الهدى من خدور الرضى، ويفوز بوصلها الذي لم ينله من عالم الغيب إلا من ارتضى، فتشوف رضي الله عنه لهذا الزفاف الذي له قرة العين بالحصول على المعرفة التي لا جهل بعدها، لطلوع شمسها في باطن صاحبها الذي خص من الحضرة العلية بالقرب التام عندها، و هذا من ضمن مطلبه رضي الله عنه المتشوف للتعجيل له به، لتكمل معرفته بالله، فيصطفيه الحق اصطفاء أفراد محمديين خصصوا بالكمال بين الخلق، فيرقى في معارج الحقائق، محوطا بالعناية في سلوك الطرائق، ولهذا قال:

و هل أرتقي سير الحقائق واصلا إلى الله محفوفا بكل كريمة

تمنى في طي هذا الإستفهام الوصول إلى هذا المقام الذي ما بعده في رتب المعرفة بالله إلا الفناء المحض، فإن عرش الحقائق غاية ما ترقى له الهمم المجدة في الترقي بقطع المسافات التي انقطع عن بلوغ غايتها كل من جاهد نفسه و اجتهد كل اجتهاد للحصول فيها على المراد، فلم يصل لهذا العرش إلا أفذاذ من كمل الصادقين، و خاصة الأقطاب المحمديين.

فالشيخ رضي الله عنه يطلب هذا المقام ليظفر به قبل أن يحول بينه و بينه حائل الموت الحسي، و لم يقف في الطلب إلى هذا الحد من الترقي، بل مقصوده الوصول إلى الله محفوفا بكل كريمة، آخذا بيده حتى تدخل به لحضرة مولاه، فيقال له: ها أنت وربك، فيقوم في حضرته بواجب الأدب، و يعطي المقام حقه من القيام بحق التوحيد للحق في هذا البساط الذي تزل فيه قدم العقول بترك ما يتعيّن على العبد الذي ساعدته العناية بالدخول لحضرة التداني بعد الوصول، و لهذا قال:

---

[1]- المعارف في اصطلاح الصوفية هي عبارة عن إحاطة العبد بعينه وإدراك ماله وما عليه. إهـ. وعن حقيقة المعرفة يقول الشيخ أبو العباس التجاني رضي الله عنه: المعرفة الحقيقية أخذ الله العبد أخذًا لا يعرف له أصلا ولا فصلا ولا سببًا، ولا تعقل فيه كيفية مخصوصة، ولا يبقى له شعور بحسه، وشواهده وممحواته، ومشيئته وإرادته، بل تقع عن تجل إلاهي ليس له بداية ولا غاية، ولا يوقف له على حدّ ولا نهاية. إلخ.. أنظر جواهر المعاني للعارف بربه سيدي الحاج علي حرازم برادة 2: 95.

و هل حلة التوحيد ألبسها و قد تمكن سري من بساط الحقيقة

فإنه يتشوف إلى الوصول إلى الله، و يكون وصوله ملحوظا بكمال العناية به، في إلباسه حلة التوحيد التي يقي بها حر الضلال، بعد ما شاهد الحق جهارا بلا اختلال، فينزهه عما لا يليق به، و هو متمكن في بساط الحقيقة بكشف حجبه، محفوظ في توحيده المتين، بعد الوقوف على عين اليقين، فالحصول على هذا المطلب من الكمالات التي لم يظفر بها إلا القليل من أهل التجديد، الماسكين على حبل التوحيد بدون تقليد، فإن من تجلت له الحقيقة، و تمكن سره في بساطها بين الخليقة باح بما يلوح عليه من أسرارها، و لكن لا يمكنه التعبير بما يجب لمقدارها، فتصادفه الأنوار الشعشعانية، فتتضاءل عندها تحقيقاته العرفانية، فيكبر عليه من الحال ما يعظم شرحه، و يشيع بين الخاصة شطحه، فيقام عليه الحد في تهتكه.

و قلما وصل أحد إلى هذا الحد فلم يبح بسره، متجردا بحكم التجلي من حلة التوحيد في جهره، و الشيخ رضي الله عنه يطلب إفراغ حلة التوحيد عليه في هذا البساط، ليكون محفوظ التوحيد الخاص، من غير تفريط فيه و لا إفراط، يعطي المنصب حقه جمعا و فرقا، حقا وخلقا، فلا يخل بأدب الحق، و لا يضله بتحققه الخلق، و لهذا قال:

و هل لي بجمع الجمع بالله وصلة وقد طلعت شمس الوصول بقبلتي

فهو قد استفهم عن تحصيل الوصلة بالله في حضرة جمع الجمع، و هي مكانة عالية القدر، لا يحصل عليها إلا أفراد محمديون مخصوصون بالاجتباء من حضرة القدس إلى حضرة الزلفى، بعدما يتمكن مقام المدرك لها في حضرة غيب الغيب، فيتم ظهوره بها، و يكون بين أولياء عصره كالشمس المنيرة، فلا تخفى على أحد من الناظرين إليها بدون حائل، فلا يحجب مقامه بعد ظهوره عن أحد منهم، و لا ينكشف لهم عن سره إلا بقدر ما يشفعون به من جهة الإستمداد منه و التعلق به في نيل المراد من غير تقصير في حقه، فإن الشيخ رضي الله عنه قد طلعت شمس الوصول بقبلته، وفق رغبته، بل فوق أمنيته، فظهر لأولياء وقته نورُه، و تحقق الكل بأن قدره فوق ما عليه ظهوره، مع ما هو عليه من كمال الظهور في المرتبة ظاهرا و باطنا، لم يزدد إلا ترقيا في إقباله على الله، و إقبال الخلق عليه بما يرضي الله ويرضى به عنهم، فهو إمامهم الذي تقدم في محراب القرب من حضرة الوصول، و وراءه أهل الاختصاص قائمون بحق الأدب الذي تستحقه الحضرة، فإنه رضي الله عنه في هذا المظهر الذي طلبه أضحى نفس القبلة التي طلعت فيها شمس الوصول، فتوجه لها كل من رام نيل المنى و بلوغ السول من أهل العناية، فهو في هذه الحضرة مجموع بالله، و جامع القلوب على الله، شمس الوصول في محرابه طالعة، و أنوار المعرفة عليه ساطعة، و نحن و إن لم يسمح الدهر لنا بالإجتماع برؤية طلعته المنيرة، لنؤدي ذلك على وفق ما نراه، فنشهد بما نرى، فقد ظهرت أنواره للوجود، بما أغنانا عن إقامة الشهود، على ما ظهر منها في الشهود.

و قد تلقينا بعض ما أمليناه، و نمليه ممن تلقوه عن خاصة أصحابه، و عمن كشف الله لهم الحجب عن عرائس الولاية، و قد حدثني سيدي و مولاي أحمد العبدلاوي رضي الله عنه أنه

اجتمع بتونس بأحد خاصة الأولياء من أهل الطريقة الشاذلية، ممن شهد له بالفتح، فقال له: يا فلان، إني شاذلي الطريق، و إني أرى المدد الذي يصلني إنما هو على يد القطب التجاني رضي الله عنه. إهـ.. و بمثل هذا يقول كل من كشف عن عين قلبه، ورأى ما يفيض عليه من حضرة ربه، ممن اصطفاه لحضرة قربه، وراثة محمدية خصت بها الحضرة الأحمدية فضلا من الله و منّة.

و قد من الله تعالى عليَّ و له الحمد بمعرفة سر إمداد سيدنا رضي الله عنه للأولياء في عالم السر، في واقعة مباركة شاهدتُ فيها المصطفى صلى الله عليه و سلم جالسا جلوس إجلال وإكرام، و سيدنا رضي الله عنه عن يمينه، و العارف بالله سيدي ابن وَفَا[1] عن يساره، و العبد الضعيف في مقابلته، فسمعت سيدي ابن وفا يقول: يا سيدي يا رسول الله نحب أن نراك، فأجابه صلى الله عليه و سلم بلسانه، مشيرا بيده وبنانه إلى سيدنا رضي الله عنه قائلا: سل هذا من ابن سالم، فعرفت بذلك سر الخصوصية، و سر الوساطة التي نالها بعدما طلب الوصلة في حضرة جمع الجمع بالله في حضوره و غيبته، و طلوع تلك الشمس في قبلته، حسبما أخبر عن نفسه من ضمان الرسول صلى الله عليه و سلم لجميع طلباته، ثم قال سيدنا رضي الله عنه :

و هل وابل العلم اللدني[2] هاطل إلي و يبقى دائمًا كل لحظة

فهذا استفهام فيه تمني نيل العلم اللدني، و هطل وابله إليه، و طلب بقائه كل لحظة فائضا عليه، و قد تحقق بهذا المقام حسبما أشرنا له أول الكلام، فكان رضي الله عنه بحرا زاخرا، كل من أراد أن يسأله أو يكتب عنه يملي له من غير تأمل في كل ما أراد، كأنه لوح بين عينيه ينظر فيه، و هذا مُشَاهد للخاصة و العامة كما قاله في الجامع، ثم قال عقبه: و قال لي مرة بعد أن كتبت عليه جواب مسألة: لو سألني أحد أربع سنين و أنا أملي عليه و هو يكتب لم يفرغ، يعني من غير تأمل.

قلتُ وهذه أحوال العلم اللدني رضي الله عنهم، و لا يستغرب هذا منه، لأن سيد الوجود صلى الله عليه وسلم قال لهُ: كل ما أمليت فأنت مترجم عني، أو كلاما هذا معناه. إهـ..، فهو رضي

---

[1]- محمد وفا بن محمد بن محمد، من أكابر أهل التصوف بمصر، أصله من بلاد المغرب، له عدة مصنفات في التصوف منها: نفائس العرفان من أنفاس الرحمان، والأزل، والمقامات السنية المخصوص بها السادة الصوفية، والعروش، والصور، وغيرها. توفي عام 765 هـ.
أنظر ترجمته في الطبقات الكبرى، للشعراني 2: 21 رقم 314. الخطط التوفيقية، لمبارك 5: 141. الدرر الكامنة، لابن حجر العسقلاني 4: 279. شذرات الذهب، لابن العماد 2: 206. الأعلام، للزركلي 7: 37.

[2]- المقصود بالعلم اللدني في مصطلح القوم هو: معرفة ذات الله تعالى وصفاته علما يقينا من مشاهدة وذوق ببصائر القلوب. إهـ.. وقد جاء لفظ (لدني) في القرآن الكريم في قوله تعالى: آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما. إهـ.. وجاء أيضا في آيات أخرى، بيد أن الآية المذكورة اختصت بقصة موسى والخضر المذكورة في سورة الكهف، وهي تشير إلى اختصاص الله عز و جل للسيد الخضر بهذا العلم الباطني العظيم، وينصب موضوع هذا العلم حول أحكام الأسماء الإلاهية ولوازمها، وكيفية ظهورها في مظاهر الوجود، كما يحتوي العلم بأعيان الموجودات الثابتة، وأعيانها الخارجية من حيث هي مظاهر للحق.

الله عنه هطلت سحائب العلم اللدني عليه بالوابل، بما لم يمطر به على الأوائل، و قد أقرَّ له بهذا معاصروه، و بقيت رشحة من علومه و معارفه تنبع من عيون كمالاته المودعة في ضمن ما ألفه البعض من أحبّائه و إخوانه، و العرب عنها: كل من جاء بعده بتبيانه، يمليها على لسانه، و يرسمها ببنانه، و في ذلك أعظم كرامة له في كل عصر، تظهر بين أحبابه في كل مصر، و لا يجحد هذا إلا من طبع على قلبه بطابع الحرمان، و معرفة أمثاله و التسليم لهم لا ينال إلا بتأييد الرحمن، فقد بلغ رضي الله عنه الغاية القصوى من جميع مطالبه، واستولى من كل مطلب منها على أعلا مراتبه، فكان قوله:

و هل أملي من هذه بالغ المـدى — فيا حبّذا أم لا بلوغ لمنيتـــــــي
و هل تجمع الأيام شملي ببغيتي — و نيل مُرادي أم أمُوت بحسرتي

من تمام الإستفهام المبني عليه طلب تعجيل قضاء مطالبه التي وفق لها بإلهام، و قد نالها وفق المرام، فإنه رضي الله عنه جمعت الأيام شمله ببغيته، و بلغته فوق أمنيته قبل منيته، فكملت له المسرة، و لم يمت منها بحسرة، و حق له أن يقال في جوابه:

بلغت المدى يا حبّذا من مزيـــــــة — بها فقت أهل الله يا خير صفـــــوة
حَباك بما تهواه ربك بالرضـــــــــى — على وفق ما يرضاه منك بدعـــــوة
فنلت من الحب الذي يكشف العنـــــا — و يحيي نفوس الخلق أنفس سكـــرة
و فوق ذوي الإحسان صرت مبَرزا — و ذلك فضل الله طبق المشيئـــــــة
فأنت بغيب الله بالله حاضـــــــــــر — مع الكل و الأكوان فيك تجلـــــــتِ
قد انطبعت فيك المحاسن كلهــــــا — بنفحة قرب فيه هدم الطبيعـــــــة
و قد جذبتك بالتجلي جـــــــــواذب — إلى حضرة في ضمنها كل حضـوةِ
و قد وردت بالوصل منها بشائــــــر — ترقيك في العليا لأرفع رتبــــــــة
وردت بها بحر الشهود حقيقـــــــة — فنلت شفاء كاشفًا كل غلّـــــــــة
و قد طلعت شمس المعارف و الهدى — بقلبك و الأنوار منك تبـــــــدَّتِ
وصلت إلى الله الكريم مؤيـــــــدا — بخير كرامات و كل كريمـــــــــةِ
لبست من التوحيد خير حلى و قـــد — تمكنت حقا في بساط الحقيقـــــــة
و نلت بجمع الجمع بالله وصلـــــة — بها صرت موصولا بكل جميلـــةِ
و أنت من العلم اللدني رويتَ مـــــا — بهِ منك قد فاضت ينابيع حكمـــــة
ليهنيك يا مولاي يا أحمد الرضـــــى — بُلوغك للمطلوب قبل المنيــــــــة

و هذه المطالب التي استفهم عنها رضي الله عنه كانت في ابتداء أمره، و نظمها في تلك الأبيات التي جارينا الكلام عليها من غير تأنق في تتبعها و لا قصد في استيفاء ما اشتملت عليه من المطالب بتفننها و تنوعها، و قد ضُمِنَت له، و لم ينتقل من الحياة الدنيوية حتى حصل على غاية المنتهى منها، وفق ما كان يتمنى فضلا من الله و امتنانا، و الله يوتي فضله من يشاء و الله ذو الفضل العظيم و صلى الله على سيدنا محمد الفاتح الخاتم و على آله وأصحابه أجمعين إلى يوم الدين، و الحمد لله رب العالمين. إهـ..

الحق المبين

في انتصار التجانيين على علماء القرويين

للعلامة سيدي أحمد سكيرج رضي ا عنه

تحقيق ذ محمد الراضي كنون

الإدريسي الحسني

الحق المبين في انتصار التجانيين على علماء القرويين[1]

بسم الله الرحمن الرحيم و صلى الله على الفاتح الخاتم و آله و صحبه و سلم تسليما
الحمد لله المنتصر لأوليائه، موذن من عادَاهم بالمحاربه، باسط آلائه لمن والاهم بأدنى مقاربه، نحمده حمد من أقر بعبوديته بين العباد، و نشكره شكر من اعترف له بنعمتي الإيجاد و الإمداد. ونصلي و نسلم على الواسطة المكرم و الحجاب الأعظم، عين الرحمة الربَّانية الياقوته الحقانيه.

محمَّد سيد الكونين و الثقلي ن و الفريقين من عرب و من عجم

و على آله الطيبين. و أصحابه الهادين و المهتدين. و من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد، و لله الأمر من قبل و من بعد، فقد عثرنا على ما كتبه علماء القرويين جوابا عما ورد من وزير العدلية المغربية في استفهامهم عَن الحكم الشّرعي اللازم في نازلة التَّأليف الذي ذكر فيه صاحبه أن صلاة الفاتح من كلام الله القديم، و أنها أفضل الأذكار، فرأينا ذلك الجواب مشتملا على الغث و السَّمين، إن لم نقل كله ضلال مبين، لا ينبغي الإلتفات إليه، فضلا عن الإستناد عليه، لصدوره عن قلوب ملئت في أهل الله بغضا، و خَلا لهم الجو فانتصروا لبعضهم بعضا، وتمالئوا على تضليل المتمسكين بحبل الطريقة التجانية، و طعنوا في سائر التآليف المؤلفة فيها، ولم يرقبوا في مومن إلا و لا ذمَّة[2]، و سفهوهم و هم المسفهون في الحقيقة عند من نظر ذلك من أعلام الأمة. ولعمري أن من اطلع عليه من ذوي الألباب، يقضي بأنه من أوله إلى آخره غير صواب، و كأني بمن وافقوا عليه من المفتين المفتونين، قد نظروا لنفس زعيمهم الموقد لنيران هذه الفتنة، فتابعوه لنيل الحظوة لديه، و لو راقبوا الله ما تجرِّءوا على أهل الله بتحاملهم في فتواهم، وهم عنها سيسألون بين يدي مولاهم.

---

[1]- هو أحد مؤلفاته غير التامة، ولو أتمه لكان نافعًا في بابه، نظرًا للكفاءة العلمية الكبيرة التي كان يتمتع بها المؤلف، خصوصًا في هذا الإطار المتعلق بالدفاع عن حوزة الطريقة التجانية وحرمة رجالاتها الكبار، ولا ننسى ما للعلامة سكيرج من مؤلفات عديدة في هذا الجانب، رد بها على كثير من رؤوس المنكرين، سواء بالمغرب، أو بالجزائر وتونس ومصر وغيرها من دول أخرى.
ولا ننسى أيضا العلاقة الحميمية التي تربط بين العلامة سكيرج والفقيه سيدي محمد بن عبد الواحد النظيفي، فقد كان كل منهما يحترم الآخر ويقدره، وينوه بعمله وصلاحه.
وكان العلامة سكيرج إبان صدور هذه الفتوى قاضيا بمدينة الجديدة، فسارع إلى مساندة صديقه المذكور ودعمه بكل ما لديه من وسائل وطاقات.
ويتبين من خلال عنوان هذا الكتاب أن العلامة سكيرج لم يكن متساهلا مع أي خصم من خصومه في هذا الصدد، وإن كانت تربطه صداقات بكثير من علماء القرويين، غير أنه من طينة قوم كرام لا يخشون في الله لومة لائم، الشيء الذي دفعه لحمل القلم والإسهام به في الذود عن حمى طريقته الأحمدية التجانية.
[2]- سورة التوبة، آية 10.

و لله در الحضرة الشريفة فإنها أحسّت بنفس المبغضين حين وصلته هذه الفتوى، فألقاها في حيز الإهمال، و لم يظهر لها أثر في الوجود بحال، و إنَّه ليتعين على المحقين نقضها عروة عروه، لكون السكوت عنها ليس من شيم ذوي الفتوّه، و نحن و إن كنا نتحقق بأن جل الموافقين عليها مدفوعون بأيدي التهديد، طبق ما يفهم من احتراسهم فيما خطوه ببنانهم، وأفصحوا عنه ببيانهم، فإننا نشكرهم في ملامتهم حيث لم يصرحوا على رؤوس الأشهاد بمخالفتهم، لأن المسألة علميّة، لا حظ لها من التنافس عند ذوي النفوس الأبية، في حط ذوي المراتب العليّة، و الحق لا يعدم أنصاره و لو بعد حين.

فأما فتواهم هذه و إن كانت مما لا يلقي لها أهل الإنصاف سمعا، ولا يجدي للمدلين بها نفعا، فإننا بحول الله سنبين للناس ما اشتملت عليه، ليتضح للخاص و العام ما هم عليه من التحامل على أهل هذه الطريقة الممنوحة بالفضل التام، و بما سنفصح عنه يظهر خلو جعبة هؤلاء المتحاملين من سهام المعارف، و أنه ليس لهم نصيب منها عند كل عارف، و إنما حظهم الشهرة بالتظاهر في إتقان العلوم، مع أنهم جهّال على الحقيقة حتى بالإنشاء بين العموم.

ولعمري إن فتوى كهذه وضع عليها الجم الغفير خطوطهم، مع ما يقتضيه البساط من تقديمها للحضرة الشريفة بأن يبالغوا في تنميقها، و ما قصروا في ذلك وفق إمكانهم، مع تعدد جلساتهم لتنقيحها في أخص مكانهم لَدَالَّةٌ على انحطاطهم عن درجة أهل العلم. و يقضي بذلك عليهم كل من اطلع عليها، و بان لديه بشواهد الحق منع الإستناد إليها، و سينجلي ذلك للعيان، و ما بعد الحق من بيان، و الحق يظهر من معنى و من كلم، لدى فهم و علم، و سنأتي عليها بحروفها من أولها إلى آخرها، و ننقلها باللفظ طبق ما وقفنا عليه منها مأخوذة بآلة التصوير الشمسي، الذي لم يدع منها حرفا واحدا، ولا يهمنا في صدعنا بالحق المعلق عليها ملامة لائم، فإن أمرنا بالله قائم، فنسأله سبحانه التَّأييد و التوفيق، لأقوم طريق، فنقول:

نص فتوى علماء القرويين التي تحاملوا فيها على التجانيين عموما و خصوصا و هي:
الحمد لله الذي زين أقواما بالعلم و التقوى فتزخرفت لهم جنة محبته، و ألبس آخرين سرابيل قطران الجهل و الهوى فغشيت وجوهَهم نار طرده و إبعاده، و الصلاة و السلام على سيدنا محمد أفضل خلقه، و سراج أفقه، القائل يحمل هذا الدين من كل خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، و تأويل الجاهلين، و على آله و أصحابه الذين بذلوا نفائس نفوسهم في محبته، وأنفقوا بدائع ذخائرهم في تأييده و نصرته، أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون[1].

أما بعد، فلما أن ورد أمر مولانا الإمام. حامي بيضة الإسلام. أعلا الله مقامه. و خلَّد أيامه. على سعادة الشريف. العلامة البركة. رئيس المجلس العلمي[2]. حفظه الله بما حاصله تحت عدد 460. وتاريخ ثالث شهره. أنه قد ظهر تأليف في عالم المطبوعات. منسوب للمسمى

[1]- سورة المجادلة، الآية 22

[2]- إشارة للعلامة الشهير سيدي أحمد بن محمد ابن الخياط، حيث كان وقتئذ رئيسًا للمجلس العلمي بفاس، وقد سبق التعريف به في الجزء الأول من هذه الرسائل، والمعروف أن وفاته كانت بعد صدور هذه الفتوى الظالمة بأربعين يوما لا غير.

محمد النظيفي السوسي المراكشي[1]. ذكر فيه صاحبه أن صلاة الفاتح من كلام الله القديم، وليست من تأليف مخلوق، فهي بمنزلة القرآن، و قال فيه أيضا أنها أفضل الأذكار، مع أن النبي صلى الله عليه و سلم قال: أفضل ما قلته أنا و النبيئون من قبلي لا إله إلا الله[2].

أمر أعزه الله الرئيس المذكور بجمع المجلس وسائر من ينتمي للعلم، و ينظر الكل التأليف المذكور بإمعان، و يشيروا بما اقتضاه الشرع في النازلة في أقرب وقت ممكن إلى آخره. بادرت مجادة الرئيس رعاه الله لامتثال الأمر الشريف بمجرد وصوله إليه. و انتدب الكل للحضور بمقصورة القرويين عمرها الله. و حينئذ حضر قضاة الحضرة الفاسية و أعضاء المجلس العلمي و باقي ساداتنا العلماء الأعلام أعز الله عدد الجميع. و زاد في مدده و النفع به آمين. و علموا مضمون الأمر المولوي علم يقين، و أحضرت نسخة من التأليف المشار له بالمطبع المشرقي، ذكر فيها أنه ختم طبعها في اليوم الأول من شهر شعبان عام 1332 هـ عدد صفحها 456. و في صحيفة 24 منها ما نصه: و مصل على حبيبك المصطفى الكريم، بصلاة الفاتح التي هي من كلامك القديم، تعبدا لك، و تعظيما لنبيك سيدنا و مولانا محمد، وكتب عليه ما لفظه: كلامك القديم فهي بمنزلة القرآن، لأنها من كلام الله القديم، و ليست من تأليف مخلوق . إهـ.. بحروفه كما أحضرت نسخة من الياقوتة فألفيت بها الأبيات التي يمدح بها شيخه و نصها

و في الجنة العليا له أربعون من	مقامات أنبيـــــاء من غير ريبـــــة
ينادى به في الحشر هذا إمامكم	و هذا ممدكم بأعلا المنصـــــــــة
و فضله فاعتقد على الكل أنـــــه	كشمس الضحى و هم كواكب ليلـة
فعينه عين العين فافهم إشارتـــي	و من فيض بحره الأنام استمـــدت

و أمعن الجميع النظر في هذه الترهات، التي يمجها الطبع و تأباها الفطرة الدينية و العقل السليم، وأجمعوا وقر الله جمعهم على أن الكلام المذكور و نظيره مما في الكتابين المذكورين

[1]- العلامة الولي الصالح سيدي محمد بن عبد الواحد النظيفي، فقيه صوفي جليل، من أعلام الطريقة التجانية بمدينة مراكش، وهو من مواليد ناحية سوس سنة 1267 هـ، أخذ العلم بمسقط رأسه على جماعة من العلماء، لعل من أبرزهم شيخه الفقيه علي بن أبي الجماعة المسفيوي، وأحمد بن موسى الطاطائي السوسي، والتحق بعد ذلك بجامع القرويين بفاس، فتتلمذ لنخبة من جلة فقهائها، كمولاي عبد المالك الضرير العلوي، ومولاي محمد (فتحا) العلوي، وسيدي محمد (فتحا) كنون وآخرين.
ثم تمسك بعد ذلك بالطريقة التجانية، فغدا واحدا من خيرة أعلامها في عصره، وله فيها أسانيد عالية وإجازات مختلفة، في مقدمتها سنده على العلامة الصالح سيدي محمود الدرعي، وآخر على القطب العارف بربه سيدي الحاج الحسين الإفراني، وآخر على العلامة الأديب سيدي عبد الله أكنسوس، وآخر على الفقيه العلامة الشهير سيدي محمد (فتحا) كنون.
وله تآليف كثيرة منها: الدرة الخريدة، في أربعة أجزاء، والطب الفائح، وزبدة الإعراب، والعطفة الكنزية في تخميس الهمزية، وترياق القلب الجريح في تخميس بردة المديح.
توفي رحمه الله عام 1366 هـ_ 1947م، وكان عمره عند وفاته 99 سنة، أنظر ترجمته في فتح الملك العلام بتراجم بعض علماء الطريقة التجانية الأعلام، للعلامة الحجوجي رقم الترجمة 155، إتحاف أهل المراتب العرفانية بذكر بعض رجال الطريقة التجانية، للمؤلف نفسه (الجزء السابع). المعسول، للمختار السوسي 19: 137_ 144. الأعلام، للزركلي 6: 185.
[2]- سبق تخريجه ضمن هذا الجزء ص

وغيرهما من الكتب التي يتداولها أهل هذه الطريقة على منواله كثير، و أنه ضلال وإفك كبير، ءالله أذن لكم أم على الله تفترون[1]؟ تبجحتم أيها الناس في وضع أسمائها، و تنمقتم كي يرغب سواد العامة الذين هم جل أتباعكم في مسمياتها. فقلتم لهم هذه جواهر، و هذه إفادة، وهذا عطر، و هذه ياقوتة، و ما علمتم أنها بسبب ما فيها صارت رخيصة، لدى أهل النهى ممقوتة، زاد هذا المتغالي منكم تحيلا على جمع العامة، واقتفائهم إياه بتشكيل عطره في الصنع على هيئة دلائل الخيرات، لأغراض يعلمها عالم الخفيات، فصار متهاترا متهورا من حيث لا يشعر. يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا و في الآخرة و يضل الله الظالمين و يفعل الله ما يشاء[2]. و ما علم أن فيما تفوه به عداوة لكلام الله الذي لا يدانيه شيء، ليس كمثله شيء و هو السميع البصير[3]، فما لقياسك أيها المتجرئ من نتيجة و لا اقتباس، وما لفضيحتك العظيمة من شك و لا التباس، و ما لإشارتك التي أمرت بفهمها من معنى و لا إشارة، و ما لفحش قولك من نظافة و لا طهارة، أو ما علمت أن الثواب أمر توفيقي لا يتلقى إلا من جانب المشرع الأعظم صلى الله عليه و سلم، فما صح عنه عليه الصلاة و السلام قبلناه و اتبعناه، و ما حدث بعده من عمل الجهلة المبطلين مثلك نبذناه و رفضناه.

في المعيار عن ابن الماجشون أنه سمع الإمام مالكا رضي الله عنه يقول: من أحدث في هذه الأمة شيئا لم يكن عليه سلفها فقد زعم أن رسول الله صلى الله عليه و سلم خان الرسالة، لأن الله تعالى يقول: اليوم أكملت لكم دينكم[4]، فما لم يكن يومئذ دينا فلا يكون اليوم دينا[5]. هـ، وقال الشيخ حلولوا آخر باب الإستدلال من شرحه لجمع الجوامع: قال الشيخ أبو سليمان الداراني رضي الله عنه: ما قبلت خاطرا إلا بشاهدي عدل الكتاب و السنة. هـ، و قال الشيخ الإمام سيدي عبد القادر الفاسي آخر جواب له ما نصه: و ترتيب الثواب على الأذكار و الدعوات إنما يكون من قبل النبوءة و الله أعلم. إهـ..

و في حاشية عم والده أبي زيد سيدي عبد الرحمان بن محمد على شرح الصغرى ما نصه: قال صاحب كتاب عوارف العارف: ما كان من الفتح بسياسة الشرع و صدق المتابعة لرسول الله صلى الله عليه و سلم أنتج تنوير القلب و الزهد في الدنيا و حلاوة الذل و المعاملة لله بإخلاص القلب في الصلاة و التلاوة و غير ذلك. ثم قال: و ما يفتح الله على من ليس تحت سياسة الشرع يصير سببا لمزيد بعده و غروره و حماقته واستطالته على الناس وازدرائه بالخلق. لا يزال حتى يخلع ربقة الإسلام من عنقه، و ينكر الحدود و الأحكام، و الحلال والحرام، و يظن أن المقصود من العبادات ذكر الله و ترك متابعة الرسول، ثم يتدرج من ذلك إلى تلحد و تزندق. وقد نقله الشيخ ابن عباد على قول الحكم: لولا ميادين النفوس ما تحقق سير السائرين[6]. إهـ..

---

[1]- سورة يونس، الآية 59

[2]- سورة إبراهيم، الآية 27

[3]- سورة الشورى، الآية 11

[4]- سورة المائدة، الآية 3

[5]- أنظر الإحكام في أصول الأحكام، لابن حزم 6: 225. الإعتصام، للشاطبي 1: 23.

[6]- أنظر الحكم العطائية الكبرى، رقم الحكمة 244، ونصها الكامل: لولا ميادين النفوس ما تحقق سير السائرين، إذ لا مسافة بينك وبينه حتى تطويها رِحْلَتُك، ولا قطعة بينك وبينه حتى تمحوها وُصْلَتُك.

كما اتفقوا حفظهم الله على أنه يجب من أجل ما ذكر حرق تلك الكتب المحتوية على هذه المقالات الشنيعة و نحوها، و منع المسلمين من قراءتها و إقرائها كلا أو بعضا، و الحرق المذكور لأجل ما ذكر لا ينافي إكرام أسماء الله كما هو معلوم، قال الشيخ أبو الحسن بن بطال ما نصه في أمر عثمان رضي الله عنه بتحريق المصحف و المصاحف[1] (أي سوى الذي جمع) جواز تحريق الكتب التي فيها أسماء الله تعالى، و إن ذلك من إكرامها، و فيه صيانة عن الوطء بالأقدام، و مثله للقاضي أبي بكر الباقلاني، أنظر تفسير القرطبي، لما أن كان هذا الصادر من هذا الرجل موجودا في كتب شائعة بينهم فيما قبل كما تقدمت الإشارة له، و لعله اغتر فيما تفوه به بسبب ذلك لمظنة جهله و تغاليه، و حبك الشيء يعمي و يصم، والدم المعصوم لا يقدم عليه بأدنى شبهة طبق المنصوص، و الجهل و إن كان لا يعذر به في مواطن الكفر البواح التي يقصد فيها الإستهانة بمن يجب تعظيمه، لكن موقف هذا الرجل هنا ينافي قصد الإستهانة بدليل استيفائه أسماء الله في نظمه المطبوع، مع نسخة العطر[2] المشار لها، و قوله في الصلاة المذكورة: تعبدا لك، و تعظيما لنبيك، سيدنا و مولانا محمد. إلخ... سلمنا أنه لا يصح إطلاق القول بأن الجهل يعذر به في الكفر أو لا يعذر، لكن القرائن التي ذكرنا دلت على عذره بالجهل مع تحقق عصمة الدم، و دونك بعض النصوص بل كان ذلك موجبا لتغليظ التعزير عليه فقط باجتهاد مولانا الإمام، و دونك بعض النصوص الراجعة لما قلناه.

قال في الثلث الأخير من فصل الوجه السادس، أن يقول القائل ذلك حاكيا عن غيره، و آثرا له عن سواه من الباب الأول في بيان ما هو في حقه صلى الله عليه و سلم سب أو نقص من تعريض أو نص من شفاء القاضي عياض ما نصه: و قد حكى أن رجلا سأل مالكا رحمه الله عمن يقول أن القرآن مخلوق؟ فقال مالك: كافر فاقتلوه، فقال: إنما حكيته عن غيري. فقال مالك: إنما سمعناه منك، و هذا من مالك رحمه الله على طريق الزجر والتغليظ، بدليل أنه لم ينفذ قتله[3]. إهـ. بلفظه.

---

[1]- إشارة للحديث الذي رواه الحافظ البخاري عن أنس بن مالك، أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان، وكان يغازي أهل الشام في فتح إرمينية وأذربيجان مع أهل العراق، فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة، فقال حذيفة لعثمان: يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى، فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلي إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها إليك، فأرسلت بها حفصة إلى عثمان، فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها في المصاحف، وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فإنما نزل بلسانهم، ففعلوا، حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف رَدَّ عثمان الصحف إلى حفصة، وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق. إهـ. صحيح البخاري (كتاب فضائل القرآن) باب جمع القرآن رقم 4867.

[2]- المراد به كتاب العطر النافح في شرح الطب الفائح، وهو من مؤلفات الفقيه الجليل سيدي محمد بن عبد الواحد النظيفي.

[3]- أنظر كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس للعلامة إسماعيل الشافعي العجلوني (حرف القاف) رقم 1869، عند قول الشافعي رحمه الله: القرآن كلام الله غير مخلوق، فمن قال بغير هذا فقد كفر.

و فيها أيضا في آخر الفصل قبله ما نصه: و نزلت أيضا مسألة استفتى فيها بعض قضاة الأندلس شيخنا القاضي أبا محمد بن منصور في رجل تتقصه آخر بشيء فقال له: إنما تريد نقصي بقولك و أنا بشر و جميع البشر يلحقهم النقص حتى النبي صلى الله عليه و سلم، فأفتاه بإطالة سجنه وإيجاع أدبه، إذ لم يقصد السب، و كان بعض فقهاء الأندلس أفتى بقتله. إهـ.. لفظه[1]، وسأل أبو عبد الله محمد بن الحسن بن عرضون الفقيه أبا العباس أحمد بن محمد البعل عن مسألة شرطي حاكم بمدينة شفشاون، شهد عليه عدلان أنه قال له رجل أما تستحيي، فقال: و الله لا أستحيي و لو جاء رسول الله صلى الله عليه و سلم، عافانا الله من ذلك، و سمع منه عدلان بل عدل آخر و قد قال لبعض خدامه حين شكاه رجل بامرأة: جيبوها. فقال الخديم هي امرأة فلان. فقال الحاكم المذكور: جيبوها. و لو كانت امرأة عيسى إلخ... السؤال فأجاب بما حاصله أن قوله و لو جاء رسول الله صلى الله عليه و سلم يحتمل أن يحمل على وجه مرجوح أي ما استحييت منه في القيام بالحق أو على وجه راجح أن ما استحييت منه في القيام بالظلم.

و يعضد الاول صلاته على النبي صلى الله عليه و سلم إذ هي توذن بالتعظيم و التوقير، ويعضد الثاني النازلة الأخيرة، و الشاهدان لم يقع منهما بيان، إذ لم يسمعا منه إلا مجرد الصورة و قد فاتهما البساط و الإحتمال، الثاني فيه الإستخفاف بجانب النبوءة لا محالة، مع أن جزءيات في الشفا للقاضي عياض أشد استخفافا من هذه، و هو قوله: جميع البشر يلحقهم النقص حتى النبي صلى الله عليه و سلم، جوابا لرجل استنقصه آخر، فأفتى بإطالة السجن والأدب، وغير ذلك من الجزءيات، و الإحتياط في هذه النازلة الأخذ بالسجن الطويل والأدب الوجيع، إذ لا أقل عليه منهما في موجب الحكم، إذ لا يوجد نص في النازلة بعينها فنتقلده، ولا قول لمن مضى فنعتمده، فإن ملنا إلى قتله حماية لعرضه صلى الله عليه و سلم وصيانة لنفسه الكريمة، وقطعنا النظر عن حكم الشريعة خفنا، و إن كان العكس فالعكس، فكانت السلامة في السجن والأدب متعينة، و الله تعالى أعلم.

و وافق على الجواب المذكور في المسألة الشيخ أبو عبد الله محمد بن قاسم العيسى القصار، وقال: يطال سجنه جدا، إلى أن قال: و قد كرر عمر رضي الله عنه ضرب المسجون السائل عن أشياء من القرآن[2] إلخ... أنظر نوازل الشريف العلمي، و في الشفاء أن استباحة دم

---

[1]- الشفاء، للقاضي أبي الفضل عياض 234.

[2]- إشارة لما جاء في سنن الدارمي عن نافع مولى عبد الله بن عمر، أن صبيغ العراقي جعل يسأل عن أشياء من القرآن في أجناد المسلمين، حتى قدم مصر، فبعث به عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب، فلما أتاه الرسول بالكتاب فقرأه، فقال أين الرجل؟ فقال في الرحل، قال عمر: أبصر أن يكون ذهب فتصيبك مني به العقوبة الموجعة، فأتاه به، فقال عمر: تسأل محدثة، فأرسل عمل إلى رطائب من جريد، فضربه بها حتى ترك ظهره وبرة، ثم تركه حتى برأ، ثم عاد له، ثم تركه حتى برأ، فدعا به ليعود له، قال فقال صبيغ: إن كنت تريد قتلي فاقتلني قتلا جميلا، وإن كنت تريد أن تداويني فقد والله برئت، فأذن له إلى أرضه، وكتب إلى أبي موسى الأشعري أن لا يجالسه أحد من المسلمين، فاشتد ذلك على الرجل، فكتب أبو موسى إلى عمر أن قد حسنت توبته، فكتب عمر أن يأذن للناس بمجالسته. إهـ.. سنن الدارمي (كتاب النبي صلى الله عليه وسلم) باب من هاب الفتيا وكره التنطع والتبدع 1: 55 رقم 150. موطأ مالك (كتاب الجهاد) ما جاء في السلب من النفل 3: 24 رقم 991.

الموحدين خطر، و الخطأ في ترك ألف كافر أهون من الخطأ في سفك بحجمة من دم مسلم واحد[1]. فقد قال صلى الله عليه و سلم: فإذا قالوها (يعني الشهادة) عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها و حسابهم على الله. فالعصمة مقطوع بها مع الشهادة. و لا ترتفع ويستباح خلافها إلا بقاطع إلخ ... و قال فيها أيضا قال القاضي أبو بكر: القول عندنا أن الكفر بالله هو الجهل بوجوده، و الإيمان بالله هو العلم بوجوده، و لا يكفر أحد بقول، و لا رأي إلا أن يكون هو الجهل بالله إلى أن قال ناسبا للأشعري قال: لأنهم لا يعتقدون ذلك اعتقادا يقطع بصوابه، ويرونه دينا و شرعا، و إنما يكفر من اعتقد أن ما قاله حق، و احتج هؤلاء بحديث السوداء[2]. إلخ.. في فصل بيان ما هو من المقامات كفر.

و ذكر في الفصل الذي قبله أن أكثر قول الأشعري أن الكفر خصلة واحدة و هي الجهل بوجود الباري هـ، و في جواب للشيخ التاودي ابن سودة رحمه الله لمن سأله عن تعيين القائل من العلماء بأن الجهل يعذر به في الكفر، و أشار لذلك بعض شراح المختصر عند قوله في باب الردة: أو شك في ذلك، و في الزرقاني في باب الردة عند قول المؤلف: كإلقاء مصحف. إلخ... و عند الحنابلة أن تصغير المصحف يكفر به. و هو ظاهر في المستهزئ المستخف لا في الجاهل. ما نصه: و أما المسألة الثانية و هي مسألة العذر بالجهل في الحكم فما يصح إطلاق القول فيها بأن الجاهل يعذر بجهله و لا إطلاق القول بأنه لا يعذر بجهله بل لا بد من تفصيل واف، و تحرير شاف، إلى أن قال: اعلم أن الذي جاءت به السنة، و تظافرت عليه أدلة الشرع هو الإكتفاء من الخلق بما تضمنته كلمة الحق.

قال صلى الله عليه و سلم: أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم و في رواية حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم، الحديث[3]. فمن علم أن الله واحد لا إله غيره، ولا شبيه له، و لا ثاني له في ذاته. و لا في صفاته. و لا في أفعاله، خالف كل شيء و هو بكل شيء عليم، فهو مومن قطعا، و من جهل ذلك و اعتقد أن مع الله إلاها آخر أو أحدا من خلقه يماثله أو يشابهه فهو كافر، و لا يعذر في ذلك بجهل.

و قد نص الأبياري و الغزالي و غيرهما على أن التكفير شرعي لا عقلي، قالوا: و الدليل على أنه شرعي أمران، إباحة دمه في الدنيا، و الحكم له بتخليده في النار في الأخرى، وهذان

---

[1]- أنظر كتاب الشفا، للقاضي عياض فصل في تحقيق القول في إكفار المتأولين 2: 276_277.

[2]- إشارة لما رواه الإمام مالك في الموطأ عن عمر بن الحكم أنه قال: أتيت رسول الله فقلت: يا رسول الله إن جارية لي كانت ترعى غنما لي، فَجِئْتُهَا وقد فُقِدَتْ شاةٌ من الغنم، فسألتها عنها، فقالت: أكلها الذئب، فأسفت عليها، وكنت من بني آدمَ فلطمت وجهها، وَعَلَيَّ رقبة، أفأعتقها، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم: أين الله؟ فقالت: في السماء. فقال: من أنا؟ فقالت: أنت رسول الله، فقال رسول الله: أعتقها. إهـ.. أنظر موطأ مالك (كتابة العتاقة والولاء) باب ما يجوز من العتق في الرقاب رقم 1478. سنن البيهقي الكبرى (كتاب الظهار) باب عتق المومنة في الظهار رقم 15542.

[3]- أنظر صحيح البخاري (كتاب الإيمان) باب فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم رقم 25. (كتاب الإعتصام بالكتاب والسنة) باب قوله تعالى وأمرهم شورى بينهم وقوله تعالى وشاورهم في الأمر. صحيح مسلم (كتاب الإيمان) باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله رقم 92 رقم 93.

حكمان لا يلتقيان إلا من الشرع، و إذا كان التكفير شرعيا فلابد فيه من نص الشارع فيما يكفر به، قال في رد التشديد في مسائل التقليد: و ضابط ما يكفر به ثلاثة أمور، الأول ما كان نفس اعتقاده كفرا، كاعتقاد أن الله تعالى عن ذلك علوا كبيرا عاجز أو جاهل أو ميت، أو معه شريك، إلى غير ذلك مما يناقض الجزء الأول من كلمة التقوى، و الثاني ما فيه تكذيب للنبي صلى الله عليه و سلم، كاعتقاد أنه صلى الله عليه و سلم و شرف و كرم و مجد وعظم ليس برسول، أو لم يرسل لجميع العالمين، إلى غير ذلك مما يناقض الجزء الثاني من كلمة التقوى.

الثالث ما اجتمعت الأمة على أنه لا يصدر إلا من كافر، كالسجود للصنم تعظيما له واختيارا، وغير ذلك من الأقوال المقتضية للكفر، كالقول بقدم العالم، و الأفعال التي تتضمنه كالتردد للكنائس تعظيما، و لباس الزنار و نحو ذلك. هذا معنى ما ذكره الفحول كالغزالي والابياري وعياض و عز الدين ابن عبد السلام و غيرهم رضي الله عنهم، فإذا علمت هذا فمن نطق بالشهادة و عرف ما ذكرناه كان مومنا عارفا و لم يكن جاهلا بالله تعالى، إلا أن يكفر عنادا، ومن جهل ذلك أو نطق بصريح الكفر مختارا متعمدا حكمنا عليه بالكفر، و تبقى مسائل من الإعتقادات و الأفعال و الأقوال كفر بها قوم و لم يعذروا فيها بالتأويل، و عذر فيها آخرون، وقبل الجهل بها في بعضها، و لم يقبل في البعض، و اختلف في بعض.

و قد رجح صاحب الشفاء ما هو من المقالات كفر و ما ليس بكفر و ما يتوقف فيه، و أطال في ذلك، فلينظر فيه، و مما يمثل به مسألة هارون بن حبيب القائل: لقيت من مرضي هذا ما لو قتلت أبا بكر و عمر لم أستوجبه، اختلف فيه أهل قرطبة، فأفتى البعض بتنكيله، و البعض بقتله[1]، و مسألة منكر حكم الإجماع، فقد اختلف في تكفيره. قال ابن الحاجب في المنتهى أما الإجماع القطعي فكفر به بعض و أنكره بعض، والظاهر أن نحو العبادات الخمس و التوحيد مما لا يختلف فيه، و نحوه للأمدي، و أما قوله في مختصره الأصلي: و في منكر حكم الإجماع ثالثها إن كان نحو العبادات الخمس، ففي السبكي و غيره من شراحه فيه خبط واختلاف كثير.

و الصواب أنه أراد ما في المنتهى فانقلبت عليه العبارة، و ما في الشفاء عن القاضي عياض بل أبي بكر[2] أن الكفر بالله تعالى هو الجهل بوجوده نقله إمام الحرمين في الإرشاد عن الصالحي، واختيار الأشعري و نص الإرشاد. و حكى أبو الحسن الأشعري في بعض كتبه عن أبي الحسن المعروف بالصالحي أنه كان يقول: إن الإيمان خصلة واحدة و هي المعرفة بالله، إلى أن قال: وإن الجهل بالله هو الكفر به، ثم قال بعد ذلك أبو الحسن الأشعري رحمه الله والذي أختاره في الإيمان بالله تعالى هو ما ذهب إليه الصالحي. إهـ..

و قال ابن عطية في قوله تعالى: قال أنا خير منه[3]: فيه رد على حكمة الله تعالى و تجوير وذلك بين في قوله: أرايتك هذا الذي كرمت علي[1]، ثم قال: أنا خير منه، و عند هذه المقالة

[1]- أنظر حاشية الدسوقي على الشرح الكبير، باب في الردة وأحكامها 4: 313.
[2]- أنظر حاشية الدسوقي على الشرح الكبير، باب في الردة وأحكامها 4: 313.
[3]- سورة ص، الآية 76

اقترن كفر إبليس به إما عنادا على قول من يجيزه، و إما بأن سُلِبَ المعرفة، و ظاهر أمره أنه كفر عنادا، لأن الله تعالى قد حكم عليه بأنه كافر، ونحن نجده خلال القصة يقول: يا رب و بعزتك و إلى يوم يبعثون، و هذا كلام يقتضي المعرفة، وإن كان للتاويل فيه مزاحم. هـ، ففيه أنه قد تكون المعرفة و يوجد الكفر معها بقول كهذا، و فعل كشد الزنا مع الذهاب للكنيسة في بلد الإسلام، ولم يكن على وجه اللعب و السخرية كما قيد بذلك شراح المتن، و غير هذا من الأمثلة التي في المختصر و ابن الحاجب، مما اتفق عليه و اختلف فيه، و لذا قال ابن شاس في الجواهر: و لا ينبغي أن تقبل الشهادة على الردة مطلقا دون تفصيل لاختلاف المذاهب في التكفير.

و قال ابن الحاجب و تفصل الشهادة فيه لاختلاف الناس في التكفير. قال ابن عبد السلام يعني أن الناس من أهل السنة و غيرهم لما اختلفوا في أسباب التكفير ما هي حتى ألف بعضهم في ذلك، فربما كفروا بلوازم المذهب، و لم يكفر بذلك، و من حكم بالتكفير بها ربما قصر بعضهم ذلك على اللوازم القريبة، و اختلف هؤلاء في تعيين القريب و البعيد، احتيج من أجل ذلك إلى تفصيل الشهادة و سؤال الشاهد عن الكلام أو الفعل الذي صدر من المشهود فيه. إهـ. و هو صريح فيما قلناه من امتناع إطلاق القول في أن الجهل يعذر به في الكفر أو لا يعذر به.

وفي الزرقاني من هذا أيضا في قوله: أو لعن العرب أو بني هاشم، عن الشفا أن من لعن من قال لا يبيع حاضر لباد يؤدب إن عذر بجهل، و إلا فمرتد، فعذره بالجهل، و قد اعترض في طالع الأماني ما ذكره الزرقاني لدى قول المتن في باب اليمين: أو هو يهودي إلخ... إن من ذلك في غير يمين يكون مرتدا و لو جاهلا أو هازلا بكلام ابن يونس و نصه: قال مالك: ومن قال إن فعلت كذا فهو يهودي أو مجوسي أو كافر بالله تعالى أو برئ من الإسلام، فليست هذه أيمانا، و ليستغفر الله تعالى، و لا يكون كافرا حتى يكون قلبه مضمرا على الكفر و بئس ما قال. إهـ.

و قال ابن المنذري: اختلف فيمن قال: أكفر أو نحو ذلك إن فعلت كذا ثم فعل، فقال ابن عباس وأبو هريرة و عطاء و قتادة وجمهور فقهاء الأمصار: لا كفارة عليه إلا إن أضمر ذلك. وقال الأوزاعي و الثوري و الحنفية وأحمد و إسحاق: هو يمين و عليه الكفارة، لقوله عليه السلام: من حلف باللات و العزى فليقل لا إله إلا الله[2]، و لم يذكر الكفارة و لا غيرها هـ، و قال في الشفاء أيضا ما نصه: فصل و أما من أضاف إلى الله تعالى ما لا يليق به ليس على طريق الردة بل السب و لا الردة و قصد الكفر، و لكن على طريق التأويل و الإجتهاد و الخطأ المفضي إلى الهوى و البدعة من تشبيه أو نعت بجارحة أو نفي صفة كمال فهذا مما اختلف السلف و الخلف في تكفير قائله و معتقده. و اختلف قول مالك وأصحابه في ذلك، و لم يختلفوا في قتالهم إذا تحيزوا فئة و أنهم يستتابون، فإن تابوا و إلا قتلوا، وإنما اختلفوا في المنفرد

[1]- سورة الإسراء، الآية 62

[2]- إشارة لقوله صلى الله عليه وسلم: من حلف باللات والعزى فليقل لا إله إلا الله، ومن قال لصاحبه تعال أقامرك، فليتصدق بشيء. إهـ. أنظر صحيح ابن حبان (باب ما يكره من الكلام وما لا يكره) ذكر الأمر بالصدقة لمن قال هجرًا في كلامه 5: 360 رقم 5608.

منهم، فأكثر قول مالك و أصحابه ترك القول بتكفيرهم، و ترك قتلهم، والمبالغة في عقوبتهم، و إطالة سجنهم حتى يظهر إقلاعهم، و تستبين توبتهم، كما فعل عمر رضي الله عنه بصبيغ.

و هذا قول محمد بن المواز في الخوارج و عبد المالك بن الماجشون، و قول سحنون في جميع أهل الأهواء، و به فسر قول مالك في الموطأ، و ما رواه عن عمر بن عبد العزيز وجده وعمه من قولهم في القدرية يستتابون فإن تابوا و إلا قتلوا إلخ. إهـ..

فبان من هذه النصوص كلها صحة ما أسلفناه من وجوب تغليظ التعزير على هذا الرجل باجتهاد مولانا الإمام، و حسم مادة تلك المحتوية على هذه المقالات المبتدعة، التي ما أنزل الله بها من سلطان، و من أظلم ممن افترى على الله كذبا أو قال أوحي إلي و لم يوح إليه شيء و من قال سأنزل مثل ما أنزل الله[1]. و لذلك قر رأيهم حفظهم الله على الحكم المذكور حسبما بإمضاءاتهم المنيفة عقبه، داعين لمولانا الإمام بالنصر و التأييد مدى الدوام. أبد الله عزه و فخره. و أعلى على علو السماكين قدره. آمين والسلام، و حرر في 29 رجب الفرد الحرام عام 1343 هـ الحق لا و عياض و عز إلخ صح به. إهـ.

نص الرد:

بسم الله الرحمن الرحيم

لا أبالي بجمعهم   كل جمع مؤنث

لم يبتدئ هؤلاء المفتون هذه الفتوى بالبسملة لما في ذلك من السر الذي أظهره الحق لنا ولكل من طالعها، و هو منحصر في أمرين، أمَّا أولا فتنزيلها منزلة الأمر الذي لا يبتدأ بها، لكونها ليست من الأمر ذي البال، و هو واضح فيما اشتملت عليه من الطعن في أهل الله، مما اقتضاه هوى المتحزبين على أهل هذه الطريقة التجانية، و أما ثانيا فلكونها من حيز الأمر الأبتر الأقطع الأجذم. و قد جاء في حديث أبي هريرة: كل أمر ذي بال لا يبتدأ فيه باسم الله الرحمن الرحيم فهو أبتر. وفي رواية أقطع. و في أخرى أجذم[2]. فهي و إن تمت عندهم بألفاظها المرقومة فهي ناقصة معنى، حتى صارت كأنها معدومة، لا يقال قد ابتدؤوها بالحمدلة، فتكفي عن الابتداء بالبسملة، لأنا نقول المدار على الإبتداء الحقيقي و هو محل السير الذي فات غير المبدو بها. حتى صار ناقص البركة. معدوم الانتفاع به دنيا و أخرى. إن لم يكن وَبالا على صاحبه الكاتب له. و قد صدق من قال و هو من الناصحين:

و ما من كاتب إلا و يفنـــى   و يبقي الدهر ما كتبت يداه
فلا تكتب بكفك غير شـيء   يسرك في القيامة إن تـرَاه

---

[1]- سورة الأنعام، الآية 93

[2]- سبق تخريج هذه الأحاديث ضمن هذا الجزء

قولهم الحمد لله الذي زيَّن أقواما بالعلم و التقوى فتزخرفت لهم جنة محبته، و ألبس آخرين سرابيل قطران الجهل و الهوى فغشيت وجوهَهم نار طرده و إبعاده إلخ... فيه مبحثان **الأول منوط بالسجع الذي ارتكبوه في هذا الكلام المنمق عندهم**

خليلي هذا القوم لا علم عنـــــدهم بتحقيق تبيان و حق بيـــــان
تخطوا صفوف النّاس من جهلاتهم و لم يعرفوا مَا أظهروا للعيان

فإن من نظر إلى هذه الخطبة قضى من أول وهلة على جهل هؤلاء القوم بعلم الإنشاء، الذي يحسنه أصغر الكتَّاب، فأحرى العلماء المتصدرين للتدريس، و بيان ذلك و إن لم يحتج فيه إلى بيان، فإن سجعاتها متفاقمة، غير ملائمة في التركيب، حيث إن كلمة التقوى و لفظة محبته في ترصيع الفقرتين الأوليين لا يناسبهما كلمة الهوى و لفظة إبعاده في الفقرتين الأخريين، و إنما المناسب مقابلة هاتين الفاصلتين اللتين هما التقوى و محبته بنحو الأهْوَا ونقمته بدلا عن الهوى و إبعاده، لتحسين الاتزان حيث راموه، على حد قول الحريري: يطبع الأسجاع بجواهر لفظه، ويقرع الأسماع بزواجر وعظه، فإن لفظة الأسماع التي هي الفاصلة الأولى من الفقرتين الأخيرتين مع لفظة وعظه التي هي الفاصلة الثانية منهما مناسبتان للفظة الأسجاع وَ لِلَفْظَةِ لفظه اللتين هما الفاصلتان في الفقرتين الأوليين، كما هو واضح في فن الإنشاء، و لكن لا علم لهؤلاء القوم به، و أنت خبير بأن روي الفاصلة التي هي جنة محبته هو التاء فيتعين بتاء و نحو نغمته في الروي لا حرف الدال من إبعاده فرارا من العيب المنوط بالسجع، و لكن هؤلاء القوم لا خبرة لهم به.

المبحث الثاني منوط به من جهة المعنى

خليلي هذا القوم عمهم الهوَى فزكوا نفوسا منهم في الزمـــــان
و قد جهلوا مقدارهم فترفـــــعوا على من لهم في المجد أرفع شان

بعيشك أيها القارئ الكريم أنظر إلى هذه الكلمات التي صدروا بها مقالهم و هي: زيَّن أقواما، ويعنون بذلك أنفسهم، حسبما يقتضيه البساط، و إلى قولهم: ألبس آخرين سرابيل. إلخ... كيف حطوا من منزلة غيرهم وهم في نظرهم أهل هذه الطريقة التي يربو عدد المتقيدين بحبلها على الملايين من المومنين، و جلهم أفاضل و أماثل، كما يشهد بذلك الوجود، فكيف يليق بمن ينتمي للعلم فضلا عمن يدعي التزين بالعلم و التقوى أن يزكي نفسه و يحط من مقام غيره والله تعالى يقول: فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى[1]، و يقال في تهذيب الأخلاق: الشيء الذي يقبح أن يقال و إن كان حقا مدح الشخص نفسه، و ما ذاك إلا للرضى عن النفس التي استولت عليهم في حب الظهور.

[1]- سورة النجم، الآية 32.

و في الحكم العطائية لأن تصحب جاهلا لا يرضى عن نفسه خير من تصحب عالما يرضى عن نفسه[1]، و أي جهل لجاهل لا يرضى عن نفسه، و أي علم لعالم يرضى عن نفسه، وبالرضى عن النفس يرفع الجاهل المتصف بالجهل المركب نفسه عن الناس، و يرى أنه هو العالم الذي يستحق الإقتداء به، و إنا لله و إنا إليه راجعون ممن تظاهروا بظاهر العلماء وساعدتهم الكلمة و الجاه على استلفات الأنظار إليهم، والإستماع لما يقولون باعتقاد العامَّة فيهم بأنهم من العلماء، و هم عند المحققين حظهم الشهرة مع أنهم ليسوا منهم بالمرَّة، ولعمري إنه لكثير ما يبلغنا أن العلم من فاس قد ارتحل عنها و لم يبق بها من متعاطيه إلا من قيل في حقه

إن شئت تدعى فقيه قوم　　　فطول الكم ثم عمم

و كنا نستحيل ما يبلغنا عنهم لما لمدينة فاس من الشهرة، و نقيم لذلك ألف معذرة، حتى عثرنا على هذه الفتوى التي جمعت جميع ما انتسب للعلم بها، و قد اطلعوا عليها حتى صارت كأن كل واحد منهم هو المؤلف لها، فجاءت على حسب طاقتهم في ركاكة تركيب، و تعقيد ترتيب، وحشو زائد، و لم يوجد منهم رجل رشيد في تنبيههم للسلوك على الجادة، حتى لا يفتضحوا بين القادة ممن يطلعون عليها فيشهدون بجهلهم الفادح، سيما و جماعتهم تجمَّعت على تعزير ذلك الرجل الصالح، و لسان حاله ينشد فيهم ما أنشده جاد الله الزمخشري

إن قومي تجمَّعوا　　　و بقتلي تحدَّثوا
لا أبالي بجمعهم　　　كل جمع مؤنَّث

[1]- أنظر الحكم العطائية الكبرى، رقم الحكمة 35، ونصها الكامل كالتالي: أصل كل معصية وغفلة وشهوة الرضا عن النفس، وأصل كل طاعة ويقظة وعفة عَدَمُ الرضا منك عنها، ولأن تصحبَ جاهلا لا يرضى عن نفسه خير لك من أن تصحبَ عالمًا يرضى عن نفسه، فأي علم لعالمٍ يرضى عن نفسه؟ وأي جهل لجاهل لا يرضى عن نفسه؟

تنوير الأفهام
بختم تحفة الحكام

للعلامة سيدي أحمد سكيرج رضي الله عنه

تحقيق ذ محمد الراضي كنون
الإدريسي الحسني

تنويــر الأفهام

بختـم تحفـة الحكـام[1]

بسم الله الرحمان الرحيم. وصلى الله على سيدنا محمد وآله.

الحمد لله الذي ختم بالسعادة على من نظر إليه بعين العناية. وتمم نعمه على من شاء بتوفيقه لعبادته من عباده إلى أن فاز بالحسنى والزيادة. بمحض الفضل المحوط بالرعاية بواسطة من أتاه الله الحكمة وفصل الخطاب. وأوتي جوامع الكلم في المقال والجواب. فقضى بين الخلق بالحق والصواب. كما أنزل عليه بذلك الكتاب. واقتفى أثره أصحابه الأعلام. واقتدى بهم في الأحكام من وفقه الله بعدهم من الحكام. فعليه وعليهم أتم الصلاة والسلام على طول الدوام.

وبعد: فيقول العبد الفقير الذي لا يزال على فضل ربه يعرج. أحمد بن الحاج العياشي سكيرج. غفر الله ذنوبه. وستر عيوبه. إن الأيادي الباهرة. والألاء الباطنة والظاهرة. التي لا يفي بعدها إحصاء. ولا يوافي بشكرها شكور باستقصاء. وهيهات أن يقوم شكر بها وهو من النعم. وبه يستوجب الشاكر الزيادة منها مع دفع النقم. وكل ذلك من المولى جل علاه. كما قال جل من قائل: وما بكم من نعمة فمن الله[2]. فسبحانه لا إله إلا هو. قد أنعم علينا بما لولا عنايته لم نكن له أهلا. كرما منه وفضلا. وذلك بختم تحفة الحكام. في نكث العقود والأحكام. بمجلس إقرائنا مع الطلبة بالقرويين. عمرها الله بذكره المبين.

وقد دعاني داعي محبة نشر العلم الشريف. الذي لا يخيب من استظل بظله الوريف. إلى أن نكتب ما أمليناه فيه بين الطلبة. فإن المجلس إنما ينتفع من حضره. والكتابة يدوم نفعها في العلم لمن طلبه. والله أسأل أن يسدد أقوالنا ويصلح أحوالنا. ويوفقنا لما فيه رضاه. وينفعنا بالعلم. ويلطف بنا في كل ما قضاه. قول الناظم رحمه الله:

وَإِرْثُ خُنْثَى بِمَبَالِهِ اعْتُبِرْ وَمَا بَدَا عَلَيْهِ فِي الحُكْمِ اقْتُصِرْ[3]

الأبيات الأربعة. قد تقدم لنا أن الناظم رحمه الله ترجم في الفصل الذي نحن فيه لموانع الإرث. وجعله آخرا لما فيه من نوع براعة الإختتام. التي هي من أنواع علم البديع. ومعناها عندهم أن يأتي المتكلم في آخر كلامه بما يشعر بانتهائه. ولو بوجه دقيق. ولا يخفى أن المنع بمعنى الكف عن الشيء والحبس عنه. وفي ذلك إشارة إلى أنه يكف عن الزيادة من النظم. وهي نفس البراعة التي ذكرناها. ولم يستوف رحمه الله على الموانع كما ذكره أبو علي رحمه الله تعالى. وهي عندهم سبعة. ورمز لها بعضهم بقوله: عش لك رزق. فالعين لعدم الاستهلال. وهو مأخوذ من قول الناظم:

---

[1]- هو من عداد مؤلفاته التي كتبها إبان تواجده بمدينة فاس، حيث ذكر في ختامه أنه فرغ من كتابته يوم السبت 11 شعبان المعظم عام 1327 هـ- 28 غشت 1909م، وكان وقتئذ أستاذًا لمادة الفقه بجامع القرويين، لاسيما علم الفرائض، الذي كان يحسب له فيه ألفُ حساب، لدرجة أن كثيرًا من كبار علماء الجامع المذكور كانوا يستشيرونه في معضلات هذا العلم ومسائله المستعصية.

[2]- سورة النحل، الآية 53

[3]- أنظر تحفة الحكام لابن عاصم (فصل في ذكر موانع الميراث)

ويوقف القسم[1] والشين للشك. فيمن مات أولا من المتوارثين. وهو قول الناظم: وحالة الشك[2]. إلخ.. مع قوله: وبين من مات[3]. واللام للعان. وهو مأخوذ من قوله: وابن اللعان[4]. والكاف والراء للكفر والرق. وهو قول الناظم: الكفر والرق لإرث منعا[5]. والزاي للزنى. وقد بقي على الناظم. والقاف للقتل. وهو قول الناظم: ومطلقا يمنع قتل العمد[6]. وقد تقدم الكلام على جميعها مستوفى. فلا فائدة في التطويل به هنا إلا اللعان. فإن الناظم أخره في قوله:

وابْنُ اللِّعَـــانِ إرْثُـــهُ بِأُمِّـــهِ	مَـا كَـانَ والسُّدُسُ أَقْصَى سَهْمِـهِ
وَتَـوْأَمَــاهُ هَبْهُمَــا تَعَـــدَّدَا	هُمَـا شَقِيقَـانِ فِـي الإرْثِ أَبَــــدَا[7]

ومعنى كلامه أن الولد الذي نفاه والده باللعان كيف ما كان ذكرا أو أنثى أو خنثى، إنما يرث أخاه من أمه على أنه أخ لأمه. وأقصى ما يأخذه من الإرث السدس إذا انفرد. وأما إذا تعدد بأن كان ابن اللعان توأمين فأكثر فإنه يكون شقيقا لمن حصل اللعان فيه معه. والإرث يكون بينه وبينه كإرث الأشقاء فيما بينهم. ويورثون من أخيهم لأمهم الثلث كما تقدم في قوله:

والثُّلْثُ لِلجَدِّ بِرَجْحٍ بَـادِي	وَالأُمُّ دُونَ حَاجِـبٍ وَالإِخْـــوَةِ
لَهَـا وَهُـمْ فِـي قَسْـمِ ذَاكَ أُسْــوَةِ[8]	

و أما من نفاهم عنه باللعان فلا يرثهم ولا يرثونه. وإلى ذلك يشير الشيخ خليل رحمه الله بقوله: ولا يرث ملاعن وملاعنة وتوءمان شقيقان. وكان من حق الناظم رحمه الله أن لا يؤخر هذين البيتين قبلهما وهما:

وإرْثُ خُنْثَى بِمَبَالِـهِ اعْتُبِـرْ	وَمَا بَـدَا عَلَيْـهِ فِي الحُكْمِ اقْتُصِـرْ
وَإِنْ يَبُـلْ بِـالجِهَتَيْـنِ الخُنْثَـى	فَنِصْـفُ حَظَّـيْ ذَكَـرٍ وَأُنْثَـــى[9]

---

[1]- إشارة لقول صاحب تحفة الحكام (فصل في ذكر موانع الميراث)
وَ يُوقَفُ القَسْمُ مَعَ الحَمْلِ إِلَى أَنْ يَسْتَهِلَّ صَارِخًا فَيُعْمَلا

[2]- إشارة لقول صاحب تحفة الحكام (فصل في ذكر موانع الميراث)
وَ حَالَةُ الشَّكِّ بِمَنْعٍ مُغْنِيَهْ

[3]- إشارة لقول صاحب تحفة الحكام (فصل في ذكر موانع الميراث)
وَ بَيْنَ مَنْ مَاتَ بِهَدْمٍ أَوْ غَرَقْ يَمْتَنِعُ الإرْثُ لِجَهْلِ مَنْ سَبَقْ

[4]- إشارة لقول صاحب تحفة الحكام (فصل في ذكر موانع الميراث)
وَ ابْنُ اللِّعَانِ إرْثُهُ بِأُمِّهِ مَا كَانَ وَ السُّدُسُ أقصَى سَهْمِهِ

[5]- إشارة لقول صاحب تحفة الحكام (فصل في ذكر موانع الميراث)
الكُفْرُ والرِّقُ لِإرْثٍ مَنَعَا وَإنْ هُمَا بَعْدَ المَمَاتِ ارْتَفَعَا

[6]- إشارة لقول صاحب تحفة الحكام (فصل في ذكر موانع الميراث)
وَ مُطْلَقًا يَمْنَعُ قَتْلُ العَمْدِ

[7]- أنظر تحفة الحكام لابن عاصم (فصل في ذكر موانع الميراث)

[8]- أنظر تحفة الحكام لابن عاصم (فصل في ذكر أهل الفروض وأصولها)

[9]- أنظر تحفة الحكام لابن عاصم (فصل في ذكر موانع الميراث)

ليكون الكلام على الموانع متصلا بعضه ببعض. ويكون الختم بهذين البيتين موافقا لختم المختصر. فإنه مختوم بالكلام على الخنثى إذ قال : وللخنثى المشكل نصف نصيبي ذكر وأنثى. إلى آخره، وقد ذكر الناظم رحمه الله هنا حكم الخنثى المشكل وبماذا يزول إشكاله. ومقدار إرثه. وجعل الكلام عليه في هذا الفصل رعاية لقول من جعله من الموانع في الحال. كما فعل ابن شاس وابن الحاجب وغيرهما. لأنه لا يعجل القسم حتى ينظر في حالته هل هو مشكل أولا. فإذا تبين أمره بالعلامات المذكورة قسم الميراث. وحكم له بحكم ما تبين فيه. وإن أشكل فيعطى حينئذ نصف نصيبي ذكر وأنثى. كما قال الناظم: وارث خنثى البيتين. ومعنى كلامه أن ميراث الخنثى يعتبر بما له. ويقتصر في الحكم على ما ظهر منه. فإن بال من محل الذكر فله حكم الذكر. وإن بال من فرج الأنثى فله حكمها. وإن بال من محل الذكر وفرج الأنثى معا فهو الخنثى فله المشكل. وهو الذي إذا أطلقه الفرضيون انصرف إليه وارثه على هذا نصف نصيبي ذكر وأنثى. وهذا ما ذكره الناظم رحمه الله على سبيل الإجمال. وأما تفصيل الكلام فيه فهو من وجوه:

الوجـــه الأول

في اشتقاقه وتعريفه وعود الضمير عليه. اعلم أن الخنثى بالخاء المعجمة والمثلثة مأخوذ من مصدر خنث. بوزن فرح. كانخنث بمعنى تثنى وتكسر. وهو على وزن حبلى. ويجمع على خناثى. كحبالى. وعلى خناث كإناث. ومنه:

لَعَمْرُكَ مَا الخِنَـاثُ بَنُـو قُشَيْـرٍ   بِنِسْـوَانٍ يَلِـدْنَ وَلا رِجَـــالِ[1]

وتخنث في كلامه كذلك. والخنث ككتف من فيه انخناث وتثن. وهو المسترخي المتثني. والاسم من الانخناث الخنث. قال جرير:

أتوعدني وأنت مجاشعـــي   أرى في خنث لحيتك اضطرابـا[2]

وفي حديث لمولاتنا عائشة رضي الله عنها أنها لما ذكرت رسول الله صلى الله عليه وسلم ووفاته قالت: فانخنث في حجري فما شعرت حتى قبض[3]. أي فانثنى وانكسر. لاسترخاء أعضائه صلى الله عليه وسلم. والتخنيث مصدر خنثه المضعف بمعنى عطفه. فتخنث تعطف. ومنه المخنث بصيغة اسم الفاعل واسم المفعول معا. وهو الرجل المتشبه بالنساء في الإنثناء والتكسر.

---

[1]- أنظره في لسان العرب، لابن منظور، مادة الخاء (خنث) وفي محيط المحيط، لبطرس البستاني (مادة خنث)

[2]- البيت للشاعر العربي جرير بن عطية الخطفي اليربوعي، قاله ضمن قصيدة يهجي بها الفرزدق، قال في مطلعها:

ألا حي المنازل بالجنابِ   فقد ذكَّرْنَ عهدك بالشباب

[3]- إشارة للحديث الذي رواه البخاري عن الأسود قال: ذكر عند عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم أوصى إلى علي، فقالت من قاله؟ لقد رأيت النبي صلى الله عليه وسلم وإني لمسندته إلى صدري، فدعا بالطست فانخنث فمات، فما شعرت فكيف أوصى إلى علي؟ صحيح البخاري (كتاب المغازي) باب مرض النبي صلى الله عليه وسلم رقم 4346.

وقال بعض فقهاء اللغة: إذا أريد بالمخنث من يفعل الفاحشة فهو على صيغة اسم المفعول لاغير. وقال بعضهم خنث الرجل كلامه بالتثقيل إذا شبهه بكلام النساء لينا ورخامة. والرجل مخنث بالكسر. ويقال للمخنث خناثة بالضم كما ضبطه الصاغاني. خلافا لما يفهم من تقرير المصباح من أنه بالكسر. كما قاله الشيخ مرتضى الشريف الحسني رحمه الله، وتصغيره خنيثة. وقيل الخنثى المشكل مأخوذ من قولهم خنث الطعام من باب تعب إذا اشتبه أمره. فلم يخلص طعمه المقصود منه. وشارك طعم غيره لاشتراك موجب الشبهتين. وهو الآلتان. وحينئذ يحصل الإشتباه.

وفي القاموس: خنثه كضرب يخنثه هزء به. وفي الأساس: خنث له بأنفه كأنه يهزأ به. وخنث فم السقاء ثنى فاه وكسره إلى خارج فشرب منه كاختنثه. وإن كسره إلى داخل فقد قبعه. وفي الحديث أنه صلى الله عليه وسلم نهى عن اختناث الأسقية[1]. وقيل خنث فم السقاء إذا قلب فمه داخلا كان أو خارجا. وكل قلب يقال له خنث[2]. وأصل الاختناث التكسر والتثني. قال الشيخ مرتضى: ومنه الخنثى. والخنثى فرس عمرو بن عمر بن عدس كزفر. طلبه عليها مرداس بن أبي عامر السلمي يوم جبلة. ففات فقال مرداس:

تمطت كميت كالهراوة صلــــدم	بعمرو بن عمرو بعدما مُسَّ باليد
فلولا مَدي الخنثى وطول جرائهـا	لرحت بطيء المشى غير مقيد[3]

وألف الخنثى للتأنيث. وليست للإلحاق كما يقول بعضهم. لأن ما فيه ألف الإلحاق لا يكون على وزن فعلى بضم الفاء. وهو ممنوع من الصرف لقول الألفية:

وَأَلِفُ التَّأْنِيثِ مُطْلَقًا مَنَــعْ	صَرْفَ الّذِي حَوَاهُ كَيْفَ مَا وَقَــعْ[4]

ولا يؤتى بضمائره إلا مذكرة وإن اتضحت أنوثته، لأن مدلول لفظه شخص.

الوجـه الثانـي

في تعريفه وذكر السبب في نقصان خلقته. اعلم أنهم عرفوا الخنثى بأنه من له آلة الذكر وفرج الأنثى. ويوجد منه نوع ليس له واحدة منها، وقال التتائي رحمه الله في شرح الغمارية: الخنثى المشكل هو الذي يكون له فرجا الذكر والأنثى. على صفتهما غير ناقصتين عنهما. فلو كان له فرج المرأة وذكر من غير خصيتين أو خصيتان بلا ذكر فامرأة بلا إشكال. وكذا لو كان له ذكر وخصيتان وله ثقبة في موضع الفرج ناقصة عن صورة فرج المرأة سواء كانت نافذة أم لا فرجل.

---

[1]- إشارة للحديث الذي رواه البخاري عن أبي سعيد الخدري قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ينهى عن اختناث الأسقية، قال عبد الله: قال معمر أو غيره: هو الشرب من أفواهها. إهـ. صحيح البخاري (كتاب الأشربة) باب اختناث الأسقية رقم 5499 رقم 5498. صحيح مسلم (كتاب الأشربة) باب آداب الطعام والشراب رقم 5227 رقم 5228.

[2]- قاله ابن شميل، أنظر تهذيب اللغة للأزهري (باب العين والقاف مع الباء)

[3]- أنظر القاموس المحيط للمرتضى الزبيدي (مادة خنث)

[4]- البيت من ألفية ابن مالك، وهو البيت رقم 650

وإنما المشكل من له الفرجان الكاملان. أولا فرج له وإنما له ثقبة يبول منها[1]. وهذا القسم الأخير قليل جدا. حتى قيل بعدمه. وأما ما قبله فقد وجد. لكنه قليل بعد الاتفاق على وجوده.

وقد ذكر الإمام القزويني في كتابه عجائب المخلوقات في سبب الذكورة والأنوثة ما نصه: زعم بعضهم أن السبب لذلك زيادة حرارة خلقها الله تعالى للمادة التي يخلق منها الذكر ونقصان المادة التي يخلق منها الأنثى. وكذلك تبرز أعضاء التناسل من هذا وتخفى من هذا، ثم إذا كانت الحرارة الغريزية في أصل الخلق كاملة خرج الذكر تام الأعضاء. قوى التذكير. وإن نقصت نقصت قوة تذكيره. فتشبه أفعاله أفعال النساء. وهكذا قوة التأنيث. فإن من الإناث من تشبه أفعالها أفعال الرجال، وإذا تصورت هذه المراتب فربما يقع فيها مرتبة غريبة بعيدة الاتفاق. فيكون المولود لا ذكر ولا أنثى. بل خنثى إلى آخر كلامه.

الوجـه الثالـث

في المعاملات التي يزول بها إشكاله. وهي عشرة وفاقا وخلافا. والمشهور منها سبعة. أشار إليها الشيخ خليل رحمه الله بقوله: فإن بال من واحدة وكان أكثر أو أسبق. أو نبتت له لحية أو ثدي. أو حصل له مني أو حيض فلا إشكال، ولم يعتمد ناظمنا هنا إلا المبال. وزاد بعضهم على السبعة المذكورة الولادة أو الشهوة وعد الأضلاع. وقد جمعت هذه العشرة في قولي:

يتضح الخنثى من الإشكال	بعشر أشياء بلا إشكال
ببوله من أحد الفرجين أو	كثرته أو سبقه فيما حكوا
والحيض مع ولادة مني	كذا نبات لحية أو ثدي
وشهوة منه على المعتاد	ومثله الأضلاع بالتعداد

فالبول يكون للذكر والأنثى. إلا أنه إن صدر من الخنثى من آلة الذكر فهو ذكر. وإن كان من فرج أنثى فهو أنثى. كالسبقية من أحدهما. وكذلك يعمل على كثرة البول من أحد الفرجين. ومعنى الكثرة أن يكون بوله من أحد الفرجين كثيرا. ومن الفرج الآخر قليلا. ويعرف ذلك بكيل أو وزن على المشهور. وأنكر الشعبي رحمه الله ذلك وقال: لا ينظر للقلة والكثرة في البول بكيل أو وزن. بل بالنظر لتكرر خروجه.إهـ..

فإن اجتمعت الكثرة و السبقية عمل على السبقية. وأما الحيض فهو خاص بالأنثى، فإذا حاض الخنثى فهو أنثى بلا إشكال، وللحيض أسماء جمعها الشيخ عبد الباسط البلقيني رحمه الله في قوله:

وللحيض أسماء ثلاث وعشرة	محيض محاض كيد وإعصار
دراس وضحك ثم طمت عراكها	وضيف وإشهاد نفاس وإكبار

قالوا والحيض كما يكون في أنثى بني آدم كذلك يكون لبعض الحيوانات. جمعها من قال:

---

[1]- أنظر شرح الخرشي لمختصر خليل (باب في الفرائض) إرث الخنثى المشكل

تحيـض أنثـى حيوان وقـد	عـدت بخمـس عندمـا تحسـب
أنثـــى بنـي آدم مـع كلبـة	والضبـع والخفـاش والأرنـب

وذيلتها بما زاده عليها بعضهم بقولي:

وناقـة مـع حجـرة وزغـة	بنـات وردان لمـن يطلـب

ومن عجيب قدرة الإله أن الأرنب على ما حكاه الثقاة تكون عاما ذكرا وعاما أنثى، وقد ورد الحديث لحيضها، روى أبو داوود في سننه من حديث جابر بن الحويرث عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في الأرنب إنها تحيض، وجابر بن الحويرث قال فيه ابن معين لا أعرفه، وذكره ابن حبان في الثقاة. ولا يعرف له إلا هذا الحديث، وروى البيهقي عن ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم جيء له بأرنب فلم يأكلها ولم ينه عنها. وزعم أنها تحيض[1].هـ

وما ذكرناه أولا من أنه يكون الخنثى في غير الآدمي صحيح، ومن أعجب ما يحكى ما ذكره العلامة الدميري في حياة الحيوان عن ابن الأثير في الكامل. ذكره من حوادث سنة 623هـ: أن صديقا له اصطاد أرنبا له أنثيان وذكر وفرج أنثى، فلما شقوا بطنه رأوا فيه ما يدل على ذلك، قال: وأعجب من ذلك أنه كان لنا جار له بنت اسمها صفية. بقيت كذلك نحو الخمسة عشر سنة. ثم طلع لها ذكر ونبتت لها لحية. وصار لها فرج رجل وفرج امرأة[2]. إهـ..

فإن اجتمع بول الخنثى من محل الذكر مع الحيض فهو خنثى مشكل، وأما نبات اللحية فهو من علامة الرجولية، فإذا نبتت للخنثى لحية فهو ذكر ولا إشكال حينئذ. كما أن نبات الثدي يدل على أنوثته، فأما اللحية وهي الشعر النازل على الذقن فنباتها للمرأة نادر. فلا يلتفت إليه كالثدي الكبير، فهو من خاصة النساء، فإن نبتا معا فهو مشكل. قال الإمام التتائي وغيره : وإنما زال الإشكال بنبات اللحية لأن أصل نبات الشعر من البيضة اليسرى. وما قاله رحمه الله مخالف لما ذكره اللقاني عن ابن حبيب من أن من ذهبت بيضته اليسرى لا يلاعن لنفي الحمل. لأنها تنضج المني، كما قاله أهل الطب والتشريح. فإذا فقدت فقد فقد الولد، واليمنى لنبات الشعر. إهـ..

وأما المني فيزول به الإشكال. لكن ينبغي أن يكون بصفة مني الرجال فيما إذا أمنى من الذكر، وإن كان من الفرج فينبغي أن يكون بصفة مني النساء، وأما الشهوة فذكر بعضهم أنها يزول بها الإشكال. وذلك بأن ينظر في الخنثى، فإن كان يميل للنساء ويحب مجالستهم ومباسطتهم فهو ذكر. وإلا فهو أنثى، وأما الولادة فإما أن تكون من الصلب أو الظهر، فإن ولد الخنثى من بطنه فإنه يرتفع بولادته الإشكال ولا إشكال، وأما الولادة من الصلب إن وقعت فهو ذكر. إلا أنهم قالوا الولادة من الظهر لا يكاد يقطع بها، وقد قيل أنها نزلت بسيدنا علي كرم الله وجهه. جاءته امرأة خنثى زعمت

---

[1]- إشارة للحديث الذي رواه أبو داوود في سننه عن أبي خالد بن الحويرث قال: إن عبد الله بن عمرو كان بالصفاح، قال محمد: مكان بمكة، وإن رجلا جاء بأرنب قد صادها، فقال: يا عبد الله بن عمرو ما تقول؟ قال قد جيء بها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا جالس فلم يأكلها ولم يَنْهَ عن أكلها، وزعم أنها تحيض. إهـ.. سنن أبي داوود (كتاب الأطعمة) باب في أكل الأرنب رقم 3792

[2]- أنظر حياة الحيوان الكبرى للدميري (مادة الأرنب)

أنها متزوجة بابن عمها. وأنها وطئت أمتها فحملت الأمة منها، فأمر الأمة فعدت أضلاعها لكونها لم يصدقها في أن الحمل منها، فأخبرته أنها كأضلاع الرجل، فألبسها ثياب الرجال. وسأل ابن عمها عن حمل الأمة منها فصدقها. وقال له: هل وطئتها بعد أن حملت الجارية منها، فقال: نعم. فقال له: إنك أجرأ من خاصي الأسد[1]. وخاصي يقرأ بالياء دون همز، وضرب له هذا المثل في إقدامه على الفعل بعد علمه ما صدر من هذه الخنثى.

وأصل هذه المقالة أن العرب كانت تقول في ملاحمها أن أسدا وقف على حراث يحرث بثورين في غاية السمن والقوة، فقال الأسد للحراث: ما الذي أطعمتهما حتى سمنا، فلعلي آكله أنا فيحصل لي ما حصل لهما من السمن والقوة، فقال له الحراث: سمنا من أجل أني خصيتهما. فقال له الأسد: فأخصني. فقال: لا. لأن للخصاء ألما شديدا فإن أخصيتك وأحسست بالألم عدوت علي وقتلتني. فقال له الأسد: أنا أعطيك عهد الله لا أوذيك. فأخصاه. فوجد ألما شديدا. فنهض إلى جبل وهو يتوجع من شدة الألم. وهو يشتم الحراث. ولم ينقض العهد والميثاق. إهـ..

وهذه الحكاية يؤتى بها في الملاحم لتهذيب أخلاق الشخص السامع لها. فلا يرضى بنقض عهده وميثاقه. ولو وقع في شدة. لأن هذا حيوان ومع ذلك فلم ينقض عهده. فكيف بمن يعقل بعده. وكذلك يستفاد منها أن الشيء الذي تشتهيه النفس يوقع الشخص فيما يؤول إلى الضرر العظيم. وفيها غير ذلك، و أما عد الأضلاع فقد قال به سيدنا علي كرم الله وجهه كما في القضية المذكورة، وهو مذهب الحسن وغيره. ومذهب الأكثر أنه لا يعتبر، قال الإمام ابن عرفة: النظر إلى عد الأضلاع ضعيف. لإجماع أهل التشريح بالغين حد التواتر على خلافه. وأنه لا فرق بين الذكر والأنثى من الجانبين.إهـ.. والذي يقول بالعد اختلفوا. فمنهم من قال أن المرأة من كل جانب ثمان عشرة ضلعا. بكسر الضاد وفتح اللام. وقد تسكن. وللرجل من الأيمن كذلك. ومن الأيسر سبع عشرة. وهو قول ابن يونس. وقال الحوفي[2]: في سبع عشرة للمرأة وللرجل من الأيسر ست عشرة. وسبب نقصه ضلعا عن المرأة ما ورد في بعض الأحاديث المذكورة في كتب القصص والتاريخ.

وقد نقل في ذلك الشيخ حسين بن محمد الديار بكري في كتابه الخميس روايات. فلنذكر كلامه هنا تتميما للفائدة. ونصه: قال وهب وجماعة: خلق الله حواء خارج الجنة. ثم أمرها بدخول الجنة. ثم اختلف هؤلاء فقال بعضهم: خلقها في الأرض و آدم بين مكة والطائف. ثم حملا على سرير إلى الجنة، وقال بعضهم: خلق الله آدم و أمر بحمله على سرير إلى سماء الدنيا. فلما وصل إلى باب الجنة وضع السرير. وألقي عليه النعاس. وخلقت حواء من ضلعه اليسرى. ثم أمر بدخول الجنة.

وقال ابن عباس و ابن مسعود وجماعة: خلقها في الجنة بعد دخول آدم فيها. فالمرأة أصلها من الجنة. ولهذا أبيح لها الحرير والذهب. وهما لأهل الجنة، وفي تفسير الثعلبي: أن آدم عليه السلام لما هب من نومه رآها عنده. أو قال عند رأسه كأحسن ما خلق الله. فقال لها: من أنت؟ قالت: أنا

[1]- أنظر مواهب الجليل في شرح مختصر خليل، عند قول المصنف (وللخنثى المشكل نصف نصيبي ذكر وأنثى)

[2]- علي بن إبراهيم الحوفي، أديب نحوي مفسر، من أعلام مصر، له مؤلفات كثيرة منها: الموضح في النحو، والبرهان في تفسير القرآن، والإرشاد لطريق خير العباد والعبَّاد، وإعراب القرآن، إلى غير ذلك من مؤلفات أخرى.

توفي في مستهل شهر ذي الحجة الحرام عام 430 هـ-1039م. أنظر ترجمته في بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، للسيوطي 2: 140 رقم 1648. الأعلام للزركلي 4: 250. معجم المؤلفين لكحالة 7: 5-6.

زوجتك، خلقني الله لك تسكن إلي و أسكن إليك، فقالت الملائكة عند ذاك: يا آدم ما هذه؟ قال امرأة، فقالوا: لم سميت بذلك؟ قال: لأنها خلقت من المرء. قالوا: وما اسمها؟ قال: حواء. قالوا: لم سميت حواء؟ قال: لأنها خلقت من حي. قالوا: تحبها؟ قال: نعم. فقالوا لحواء تحبينه؟ قالت: لا. وفي قلبها أضعاف ما في قلبه. قالوا: فلو صدقت امرأة في حبها لزوجها لصدقت حواء[1]. قال ابن عباس: إن الله تعالى خلق حواء من آدم في الجنة من ضلعه اليسرى. يقال له القصيري. وكان بين النائم واليقظان. ولو كان في النوم لم يعلم أنها خلقت منه. فلم يعطف عليها. ولو كان يقظان لتألم لذلك فلم يعطف عليها. قال الشاعر:

هي الضلعة العوجاء ليست تقيمها ألا أن تقويم الضلوع انكسارها
أتجمع ضعفا واقتدارا على الهوى أليس عجيبا ضعفها واقتدارها[2]

وفي بحر العلوم قال الله تعالى: يا آدم هذه زوجتك خلقتها منك لأجلك أفترضى. قال: رضيت، هذه لحمي و دمي وزوجي و قرة عيني. و في المواهب اللدنية: فلما استيقظ ورآها سكن إليها ومد يده لها، قالت الملائكة: مه يا آدم. قال: ولم وقد خلقها الله لي. فقالوا: حتى تؤدي مهرها. قال: وما مهرها؟ قالوا تصلي على محمد ثلاث مرات، وذكر ابن الجوزي في كتابه سلوة الأحزان أنه لما رام القرب منها طلبت منه المهر. فقال: يا رب ماذا أعطيها؟ قال: يا آدم صل على حبيبي محمد بن عبد الله عشرين مرة ففعل.إهـ.. وفي رواية مائة مرة، وقد جاء بعض الشعراء يخاطب النبي صلى الله عليه وسلم في قوله :

وأبوك آدم إذ رأى حـــوا وقد زفت بأنواع الحلي والجوهـر
صلى عليك فكان ذلك مهرها والحور بين مهلل ومكبـــر

ثم قال صاحب الخميس: فعند ذلك زوجها الله إياه، وهذه خطبة نكاح آدم وحواء خطبها الله تعالى: الحمد ثنائي. والعظمة إزاري. والكبرياء ردائي. والخلق كلهم عبيدي وإمائي. اشهدوا يا ملائكتي وحملة عرشي وسكان سمواتي. أني زوجت حواء أمتي عبدي آدم بديع فطرتي وصنع يدي. على صداق تقديسي وتسبيحي وتهليلي. يا آدم أسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها[3] الآية. إهـ..

ويؤيد ما تقدم من أنها مخلوقة منه ما ورد في حديث الصحيحين من قوله صلى الله عليه وسلم: إن المرأة خلقت من ضلع أعوج[4]. الحديث.

---

[1]- تفسير الثعلبي سورة البقرة الآية 30، قوله تعالى وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة

[2]- ذكرهما القرطبي في تفسيره: الجامع لأحكام القرآن، عند قوله تعالى: وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة. إلخ..

[3]- سورة البقرة، الآية 35

[4]- إشارة للحديث الذي رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: استوصوا بالنساء، فإن المرأة خلقت من ضلع، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء. إهـ.. صحيح البخاري (كتاب الأنبياء) باب خلق آدم وذريته رقم 3261 (كتاب النكاح) باب الوصاة بالنساء رقم 5065، صحيح مسلم (كتاب الرضاع) باب الوصية بالنساء رقم 3602

الوجـــه الرابـــع

في أول من حكم فيه أما في الإسلام فقد أخرج البيهقي من طريق يعقوب بن إبراهيم القاضي عن الكلبي وله شاهد عن علي موقوفا كما ذكره الحافظ السيوطي في تعقبه على موضوعات ابن الجوزي، وهو مروي عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال : سئل رسو ل الله صلى الله عليه وسلم عن مولود ولد وله قبل وذكر من أين يورث؟ فقال صلى الله عليه وسلم: يورث من حيث يبول[1]. أي يجعل وارثا من حيث يبول فيورث. في الحديث الشريف من أورثه إذا جعله وارثا لا من ورث مضعفا. لأن معنى ورثه بالتضعيف أدخل على الورثة من ليس منهم فجعل له نصيبه. ولا شك أن معنى الحديث ليس كذلك، ولا من ورث الثلاثي المبني للمفعول. بمعنى يرثه غيره. كما يتبادر من اللفظ أن السؤال ليس عن هذا واقعا.

قال ابن غازي بعد أن قدر نحو ما تقدم: ولما مر بعض من عاصر شيوخنا من هذا الوهم أي وهو لو قرأناه يورث لتوهم أنه من ورث فيكون موروثا لا وارثا وليس بمقصود، قال: إنما هو يورث بالتشديد. ثم قال: قلت إن وردت بالتشديد رواية فيجب المصير إليها. وإلا فلفظ يورث بإسكان الواو وتخفيف الراء المفتوحة يؤدي المعنى الذي ذكرناه أتم تأدية وأبلغها. سيما وهو المحفوظ. قال تعالى: ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا[2]. بل ظاهر كلام الجواهر أن أورث بهمزة التعدية موضوع لما نحن بصدده والله أعلم.إهـ..

وروى مجاهد عن الشعبي أن سيدنا علي كرم الله وجهه حكم في الخنثى بأنه يورث من قبل مباله[3] وهذا الذي صدر من سيدنا علي إخبار بحكم شرعي على وجه الإلزام. فهو أول من حكم به في الإسلام بعد النبي صلى الله عليه وسلم. قيل وما ورد في الحديث قبله إنما خرج منه عليه السلام مخرج الفتوى. لأنه سئل من أين يورث فأجاب بذلك. ولم يتكلم به على وجه الإلزام، و أما أول من حكم فيه في الجاهلية فهو عامر بن الظرب[4] بفتح الظاء المشالة وكسر الراء، كما ضبطه العدوي وغيره. وهو آخر حكام العرب. كانت العرب في الجاهلية لا تقع لهم معضلة إلا أتوا إليه واختصموا لديه ورضوا بحكمه. وكان مع ذلك مشركا. فأتوا إليه مرة وسألوه عن خنثى. وقالوا له أنجعله ذكرا أم أنثى؟ فقال: أمهلوني. فبات ليلته ساهرا. وفي رواية أقاموا عنده أربعين يوما. وهو يذبح لهم كل يوم. وكانت له أمة يقال لها سخيلة. فقالت له: إن مقام هؤلاء عندك قد أسرع في غنمك. وكانت ترعى له غنما. وكانت تؤخر السراح والرواح حتى تسبق. وكان يعاتبها في ذلك فيقول لها: أصبحت يا سخيلة. أمسيت يا سخيلة. فلما رأت سهره و قلقه قالت له: مالك في ليلتك هذه قد بت ساهرا. فقال لها: ويلك دعي أمرا ليس من شأنك. فأعادت عليه السؤال. فذكر لها ما بدا له. فقالت

---

[1]- رواه البيهقي في سننه (جماع أبواب الجد) باب ميراث الخنثى 9: 350 رقم 12658 رقم 12662

[2]- سورة فاطر، الآية 32

[3]- سنن الدارمي (كتاب الفرائض) باب في ميراث الخنثى 2: 365 رقم 2969، مصنف ابن أبي شيبة (كتاب الفرائض) باب في الخنثى يموت كيف يورث 7: 374 رقم 27099

[4]- عامر بن الظرب بن عمرو بن عياذ العدواني يقال له (ذو الحلم) من رؤساء الجاهلية، كان زعيمًا لقبيلة مضر وأحد كبار فرسانها، كما كان حاكما خطيبا، وكانت العرب لا تعدل بفهمه فهمًا، ولا بحكمه حكما، وهو ممن حرم الخمر في عهد الجاهلية. أنظر ترجمته في الأعلام للزركلي 3: 252

لـه: سبحان الله اتبع القضـاء المبال. فقـال: فرجتها و الله يـا سخيلة. أمسي بعدها أو اصبحي، فخرج حين أصبح فقضى بذلك[1].

وفـي هذه القضـية فوائد لا بـأس بذكرها هنا تتميما للفائـدة. الأولـى إذا كـان هذا المشرك مـع ظلمـة جاهليته توقف عن الإقدام علـى الحكم فـي هذه النـازلة أربعين يـوما حتـى فتح الله عليه بمن ألهمه الرشد الموفق للصواب. فكيف لا يقتدي غيره به في عدم المسارعة للجواب. حتى لا يفتي بغير علم لـم يـأت بـه سنة ولا كتاب. ولا يقدم على الحكم والقضاء بسرعة ربما توجب من مولاه عدم الرضى فهاتـان نكتتان ضـمن هذه الفائـدة. تنبـئ بنـزول صـواعق مـع زواجر لمن يتجاسـر علـى ذلـك. فأمـا الفتوى بغير علم فلا يخفـى ما فيها من الوعيد. المنبـئ بالعذاب الشديد. وإذا كان الإقدام عليها مع العلم خطيرا فكيف بغير علم.

وقد كانـت الصـحابة رضـوان الله عليهم إذا سـئل أحدهم في مسألة أو أستفتي في نـازلة يود أن غيره كفاه الجواب. كما قـال ابن أبـي ليلى. وقال مرة أخرى: أدركت ثلاثمائة يسأل أحدهم عن الفتوى أو الحديث فيرد ذلك إلى آخر. ويحيل الآخر على صاحبه. وكانوا يتدافعون الفتوى فيما بينهم[2]، وأخرج ابـن عسـاكر عن سيدنا علي كرم الله وجهه كما في الجامع الصغير: من أفتى بغير علم لعنته ملائكة السموات والأرض[3].

وقـال الشعراني فـي تنبيه المغترين : فـلا تظن يا أخي أن واحدا من السلف كان يحب التقدم في أمر مـن أمـور الدنيا. كان أحدهم يكره الفتيا ويقول إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : المفتي يدخل فيما بـين الله و بـين عباده[4]. وروى المحاسبي: ما من عالم إلا و يسأل عن ثلاثة أشياء، عما أفتى بـه، هـل كـان مـن علـم أو جهـل. وهـل قصـد بـه وجـه الله العظـيم أو غيـره. وهـل أراد وصـول الفائـدة والنصيحة أو الكبر والإستعلاء. وعلى هذا فالجواب على المشفق على نفسه الخائف من سطوة ربه قبل موته وبعد حلول رمسـه. إذا سئل عن مسـألة أن يتأنـى فـي الجواب. ولو علم أنه على صـواب. حتـى يتضـح الحق لـه عيانـا. وإذا سئل عما لا يعلمه أو هو على شك منه فيجيب بقوله لا أدري. ولا يستحي من ذلك. فقد قالها النبـي صـلى الله عليه وسلم كمـا فـي الحديث الصـحيح أنه سئل عن خير البقاع وشرها فقال: لا أدري حتى أسأل جبريل عليه السلام. فسأله فقال جبريل: لا أدري حتى أسأل

---

[1]- أنظر مواهب الجليل في شرح مختصر خليل (باب الفرائض) عند قول المصنف وللخنثى المشكل نصف نصيبي ذكر وأنثى.

[2]- عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: أدركت عشرين ومائة من الأنصار من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، يسأل أحدهم عن المسألة فيردها هذا إلى هذا، وهذا إلى هذا، حتى ترجع إلى الأول.
وفي رواية أخرى قال: أدركت عشرين ومائة من أصحاب رسول الله من الأنصار، ما منهم أحد يسأل عن شيء إلا ود أخاه كفاه، ولا يحدثه حديثا إلا ود أخاه كفاه. إهـ.. أنظر كتاب العلم، لزهير بن حرب الشهير بأبي خيثمة 1: 14 رقم 21. سير أعلام النبلاء، للذهبي (الطبقة الأولى من كبار التابعين) ترجمة عبد الرحمن بن أبي ليلى 3: 215 رقم 463.

[3]- جامع الأحاديث والمراسيل (حرف الميم مع النون) 6: 514 رقم 20331. الفتح الكبير في ضم الزيادة إلى الجامع الصغير (حرف الميم) 3: 167 رقم 11473

[4]- قال المناوي في فيض القدير لشرح الجامع الصغير: قال ابن النكدر: المفتي يدخل بين الله وبين خلقه، فلينظر كيف يفعل، فعليه التوقف والتحرز لعظم الخطر، وكان ابن عمر إذا سئل قال: اذهب إلى هذا الأمير الذي تقلد أمر الناس فضعها في عنقه، وقال: يريدون أن يجعلونا جسرًا يمرون علينا على جهنم، فمن سئل عن فتوى فينبغي أن يصمت عنها ويدفعها إلى من هو أعلم منه بها، أو من كلف الفتوى بها، وذلك طريق السلف.

رب العزة. فسأله فقال جل جلاله وتقدست أسماؤه وصفاته: إن خير البقاع المساجد وشر البقاع الأسواق[1].

و روي عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : العلم ثلاث كتاب ناطق وسنة ماضية و لا أدري[2]. وقال صلى الله عليه وسلم: أربع لو شدت إليهن الرجال لكان قليلا. لا يرجو العبد إلا ربه. ولا يخاف إلا ذنبه. ولا يستحي الجاهل أن يتعلم. ولا يستحي العالم إذا سئل عما لا يعلم أن يقول لا أعلم. وفي وصية إمامنا مالك رضي الله عنه ليحيى بن يحيى: أوصيك بثلاث. الأولى أجمع لك فيها علم العلماء. والثانية أجمع لك فيها حكمة الحكماء. والثالثة أجمع لك فيها طب الأطباء. أما التي أجمع لك فيها علم العلماء فإذا سئلت عن شيء لا تدريه فقل لا أدري. وأما التي أجمع لك فيها حكمة الحكماء فإذا جلست مع قوم فكن أصمتهم. فإن سلموا سلمت معهم. وإن أخطأوا سلمت من خطاهم. وأما التي أجمع لك فيها طب الأطباء فارفع يديك من الطعام وأنت تشتهيه[3]. وقال أيضا رضي الله عنه: جنة العالم لا أدري فمتى أخطأها أصيبت مقاتله[4] ونظمه من قال:

إذا ما علمت الأمر حقا فقل به ... وإياك والأمر الذي أنت جاهله
ومن كان يهوى أن يرى متصدرا ... ويكره لا أدري أصيبت مقاتله[5]

والحاصل أن رد العلم إلى الله فيما لا يعلمه الشخص ما فيه إلا السلامة في الدنيا و الآخرة. و أعظم بالسلامة من كرامة ظاهرة ومنقبة فاخرة. وفي ذلك كنت قلت:

إذا ما سئلت ولا تعلم ... فقل لست أدري ولا تحشم
ورد إلى الله ذاك فمن ... إلى الله قد رده يسلم

وروى الدارمي والبيهقي عن الشعبي من قوله: لا أدري نصف العلم[6]. وعقده الشيخ عبد الرحمن الحنبلي الدمشقي بقوله:

---

[1]- صحيح ابن حبان (باب المساجد) ذكر البيان بأن خير البقاع المساجد 3: 49 رقم 1978. سنن البيهقي الكبرى (كتاب النكاح) باب كان لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى 10: 177 رقم 13494. مجمع الزوائد، للهيثمي (كتاب الصلاة) باب فضل المساجد ومواضع الذكر والسجود 2: 108 رقم 1927. المستدرك، للحاكم (كتاب العلم) 1: 167 رقم 313 (كتاب البيوع) 2: 9 رقم 2187. الترغيب والترهيب، للمنذري (كتاب الصلاة) الترغيب في المشي إلى المساجد، سيما في الظلم وما جاء في فضلها 1: 136 رقم 491.

[2]- مجمع الزوائد (كتاب العلم) باب ثان منه في اتباع الكتاب 1: 418 رقم 801. جامع الأحاديث والمراسيل (حرف العين المحلى بألف) 5: 226 رقم 14516. الفتح الكبير في ضم الزيادة إلى الجامع الصغير (حرف العين) 2: 250 رقم 7979. كنز العمال، للمتقي الهندي (المجلد العاشر) 1: 1981 رقم 28660

[3]- ذكرها العلامة سيدي حسن اليوسي في كتابه زهر الأكم في الأمثال والحكم، وذلك بصيغة مشابهة، حيث قال: ويقال أن مالكا رضي الله عنه لما ودع يحي بن يحي قال له: أوصيكم بأربع كلمات، الأولى أجمع لك فيها فقه الفقهاء، إذا سُئِلت عن شيء لا تعرفه فقل لا أدري، والثانية أجمع لك فيها حكمة الحكماء، إذا جالست قومًا فكن أصمتهم، فإن أصابوا أصبت معهم، وإن أخطأوا سلمت، والثالثة أجمع لك فيها طب الأطباء، أن تضع يدك في الطعام وأنت تشتهيه، وترفع يدك وأنت تشتهيه، فإنك إذا فعلت ذلك لم يصبك مرض إلا مرض الموت. إهـ.. أنظر زهر الأكم في الأمثال والحكم، لليوسي ص 81، عند شرحه للمثل القائل: البطنة تذهب الفطنة.

[4]- أنظر سير أعلام النبلاء، للذهبي (الطبقة السابعة) ترجمة الإمام مالك بن أنس 5: 286 رقم 1180

[5]- البيتان للشاعر العربي محمد بن الحسن بن دريد الأزدي، من شعراء العصر العباسي توفي سنة 321 هـ.

[6]- الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة، للسيوطي (حرف اللام ألف) 1: 280 رقم 464.

أطـل صمتـا ولا تعجـل بإفتـاء تفـز فـادري
فكـل العقـل فـي صمـت ونصـف العلـم لا أدري

وأما القضاء بسرعة من غير ترو وتأن في الحكم فربما يوقع القاضي في الضلال. المفضي للوبال في الحال والمآل، ولو لم يرد في وعيد ذلك إلا قوله تعالى: ومن لم يحكم بما أنزل الله فؤلئك هم الكافرون[1]. فؤلئك هم الظالمون[2]. فؤلئك هم الفاسقون[3]. لكفى في ذلك. لاسيما وقد وردت في ذلك أحاديث كثيرة ترتعد منها الفرائس. فمن ذلك ما رواه أبو داوود والترمذي والنسائي وابن ماجة وغيرهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : القضاة ثلاثة إثنان في النار وواحد في الجنة، رجل عرف الحق فقضى به فهو في الجنة، ورجل قضى للناس على جهل فهو في النار، ورجل عرف الحق و جار في الحكم فهو في النار[4]. و أخرج الشيرازي في الألقاب عن عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: القاضي العدل يجاء به يوم القيامة فيلقى من شدة الحساب ما يتمنى أن لا يكون قضى بين اثنين في ثمرة قط[5]. ذكره في الجامع. وورد عنه عليه السلام أنه قال : إن القاضي يأتي يوم القيامة مغلولة يداه إلى عنقه فيطلقهما عدله ويوثقهما جوره، وعنه أيضا: من ولي القضاء فقد ذبح بغير سكين[6]. إلى غير ذلك. وكان العلامة الجليل سيدي أحمد بن عبد العزيز الهلالي كثيرا ما يوصي طلبة مجلسه بالإعتراض عن خطة القضاء وينشدهم :

ألا فاعتبـر يوم القضاء وفصلـه إذا حشـر الله الخلائـق أفـذاذا
فـدع خطة القضـاء ويحك لا تـرم ولـو كنت قد وليت مصـرا وبغدادا

ومن الفوائد التي استنبطت من القضية المتقدمة أن الله سبحانه وتعالى قد يجري الحكمة على لسان من لا يظن به معرفتها كهذه الجارية، ولهذا لا ينبغي للعاقل أن يكتفي بعقله في كل ما نزل به من المعضلات. وعليه بمشاورة غيره ولو كان أحط منه رتبة في العقل والفضل والعلم. وليتلق ما يوافق غرضه منه بالقبول، و في معنى هذا يقول القائل:

لا تحقـرن الـرأي وهو موافـق وجـه الصـواب إذا أتى من ناقـص
فالـدر وهو أجـل شـيء يقتنـى مـا حط قيمتـه هـوان الغائـص[7]

---

[1]- سورة المائدة، الآية 44
[2]- إشارة لقوله تعالى ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون. سورة المائدة، الآية 45
[3]- إشارة لقوله تعالى ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون. سورة المائدة، الآية 47
[4]- السنن الكبرى للبيهقي (كتاب آداب القاضي) باب إثم من أفتى أو قضى بالجهل رقم 20797 رقم 20800. سنن النسائي الكبرى (كتاب القضاء) ذكر ما أعد الله تعالى للحاكم الجاهل 3: 461 رقم 5884. سنن ابن ماجة (كتاب الأحكام) باب الحاكم يجتهد فيصيب الحق 2: 776 رقم 2381
[5]- مسند الإمام أحمد (حديث السيدة عائشة رضي الله عنها) 7: 110 رقم 24071. مجمع الزوائد، للهيثمي (كتاب الأحكام) باب في القضاء 4: 347 رقم 6986. جامع الأحاديث والمراسيل (حرف الهمزة مع النون) 2: 250 رقم 5186 (حرف اللام مع الياء) 6: 169 رقم 17925.
[6]- سنن أبي داوود (كتاب القضاء) باب في طلب القضاء رقم 3572. مصنف ابن أبي شيبة (كتاب البيوع والأقضية) باب في القضاء وما جاء فيه 5: 357 رقم 18724. مسند الشهاب القُضاعي 1: 246 رقم 396. سنن الدارقطني (كتاب في الأقضية والأحكام وغير ذلك) 4: 130 رقم 4368.
[7]- البيتان للحسين بن علي الطغرائي، صاحب لامية العجم

ومنها أن الشخص إذا كانت له نباهة ورءا من يساعده في حيرته. فينبغي للنبيه أن يطلب منه مشاركته في أمره. ويبدي له ما في ضميره. عسى أن يجد له فرجة يخرج منها من الضيق الذي هو فيه. وربما يكون معه دواء يشفي به علته. أو يشير عليه بما يبرد غلته. ويلح عليه في ذلك كما فعلت هذه الجارية مع سيدها حتى شاركها في أمره. وقبل منها ذلك. ولم يعرض عما أبدته له حين رآه صوابا، فهي نصيحة منها صادقة. ولم يردها عليها لهمته الفائقة. فكيف لا يتخلق بهذا الخلق الشريف غيره. ليزول عنه بذلك ضيره. وقد أنشد أبو العيناء عن الأصمعي :

النصح أرخص ما باع الرجال فَلا	تردد على ناصح نصحا ولا تلـم
إن النصائح لا تخفى مناهجها	على الرجال ذوي الألباب والفهم

ومنها الإنصاف. الذي هو من شيم الأشراف. فإنه أنصف لها هذا الجاهلي وجازاها بخير، و كفاها بترك ملامتها عن تأخير الغدو و الرواح. فقال لها: أصبحي بعدها أو أمسي. وترك معاتبتها بعد ذلك. فكيف لا يتحلى غيره ممن ليس في الجاهلية بهذه الخصلة الشريفة، وقد أجاد القائل وهو أبو عبد الله محمد بن عبد الملك بن عبد الحميد الفارقي:

إذا أفادك إنسان بفائدة	من العلوم فلازم شكره أبدا
وقل فلان جزاه الله صالحة	أفادنيها وألغ الكبر والحسدا
فالحر يظهر فضلا للمفيد له	خيرا ويشكره إن قام أو قعدا

وقال العلامة الصعيدي: إنها أي سخيلة لما صارت شيخا له سامحها في التأخير. وهو أدب منه لها. لأنها صارت شيخا. وهي أي الشيخوخة تحصل ولو بمسألة واحدة. كما يشير إليه ما نقل عن سيدنا عيسى عليه السلام أن إبليس قال له: قل لا إله إلا الله. فقال: أقولها لا لقولك. وذلك كما ذكروا أن إبليس أراد أن يكون عيسى تلميذا له بذلك. فحماه الله من ذلك. ونقل أن رجلا من العوام كان إذا قدم على الإمام الشافعي يقوم له. فسئل عن ذلك. فقال: أنا سمعت منه أن الكلب إذا بلغ يرفع رجله عند البول.إهـ.. ورحم الله العارف بالله سيدي عبد العزيز الديريني رضي الله عنه إذ قال من أرجوة له :

وكل من أخذت عنه علما	أو أدبا فهو إمامي حتما[1]

---

[1]- البيت من قصيدة رجزية للشيخ عبد العزيز الديريني، تقع في 130 بيتا، قال في مطلعها:

الله أرجو ليس غير الله	الله حسب الطالب الأواه

إلى أن يقول:

وكل شيخ نلت منه علما	أو أدبا فهو إمامي حتما
وكل شيخ زرته للبركه	فقد وجدت ريح تلك الحركه
وقد عددت منهم جماعه	اشتهروا بالفضل والبراعه

إلى أن يقول في ختامها:

والحمد لله العظيم القادر	المنعم البر الرحيم الغافر
ثم الصلاة والسلام السرمدي	على النبي المصطفى محمد
ونسأل الله قبول المعذره	والعفو عنا وجميع المغفره

فيجب على من أراد السلامة لنفسه أن يراعي الأدب مع أشياخه. ويخضع لهم بقلبه ورأسه. وقد نقل عن الإمام الشافعي رضي الله عنه أنه قال: من استخف بأستاذه ابتلاه الله بثلاث. قصر عمره. وكَلَّ لسانه عند الموت. ونسيان ما حفظ. ورضي الله عن الإمام ابن عربي الحاتمي حيث قال:

ما حرمة الشيخ إلا حرمة الله فقم بها أدبا بالله بالله[1]

ومنها الحكم بالعلامة. وقد شرعت الشريعة المطهرة الحكم بها. ومما استدل به على ذلك قوله تعالى : وجاءوا على قميصه بدم كذب. ووجه الدليل أن القميص لما لم يكن فيه خرق ولا أثر أنياب، كان ذلك كذبا. حكى الثعالبي وغيره من المفسرين أن إخوة يوسف كانوا قد اصطادوا ذئبا ولطخوه بالدم. وأوثقوه بالحبال. ثم جاءوا به إلى أبيهم وقالوا: يا أبانا هذا الذيب الذي يحل بأغنامنا ويفترسها. ولعله الذي فجعنا في أخينا لا نشك في ذلك. وهذا دمه عليه. فقال يعقوب: أطلقوه. فأطلقوه. فبصبص له بذنبه. و أقبل يدنو منه. فقال له يعقوب: ادن. فدنا حتى ألصق خده بفخذه. فقال: أيها الذئب لم فجعتني في ولدي وأورثتي بعده حزنا طويلا. ثم قال: اللهم انطقه. فأنطقه الله تعالى. فقال: والذي اصطفاك نبيا ما أكلت لحمه. ولا مزقت جلده ولا نتفت شعره. والله ما لي بولدك عهد. وإنما أنا ذئب غريب. أقبلت من نواحي مصر في طلب أخ لي فقدته. فلا أدري أحي هو أم ميت. فاصطادني أولادك. وأوثقوني و أحضروني. وإن لحوم الأنبياء حرمت علينا وعلى جميع الوحوش. والله لا أقمت في بلاد يفعل فيها أولاد الأنبياء بالوحوش هكذا. فأطلقه يعقوب. وقال لبنيه: لقد أتيتم بالحجة على أنفسكم. هذا ذيب خرج يتبع ذمام أخيه و أنتم ضيعتم أخاكم. وعلمتم أن الذيب بريء مما جئتم به. بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون[2]. إهـ..

ومنها أن المذاكرة سبب في الإفادة و الاستفادة. ومن أسباب النفع العاجل والآجل. قال ابن أبي ليلى: إحياء العلم مذاكرته. وقال بعض العلماء كما في أدب الدنيا والدين[3]: من أكثر المذاكرة بالعلم لم ينس ما علم واستفاد ما لم يعلم. وقال الشاعر:

---

[1]- هو مطلع أبيات للشيخ ابن عربي الحاتمي رضي الله عنه، ذكرها في كتابه الفتوحات المكية لدى افتتاحه الباب 181، في معرفة مقام احترام الشيوخ ونصها:

ما حرمة الشيخ إلا حرمة الله فقم بها أدبا لله بالله
هم الأدلاء والقربى تؤيدهم على الدلالة تأييدًا على الله
الوارثون هم للرسل أجمعهم فما حديثهم إلا عن الله
كالأنبياء تراهم في محاربهم لا يسألون عن الله سوى الله
فإن بدا منهم حال تولههم عن الشريعة فاتركهم مع الله
لا تتبعهم ولا تسلك لهم أثرا فإنهم طلقاء الله في الله
لا تقتدي بالذي زالت شريعته عنه ولو جاء بالأنبا عن الله

[2]- سورة يوسف، الآية 18

[3]- كتاب أدب الدنيا والدين، للعلامة الأديب علي بن محمد الماوردي الشافعي المتوفي سنة 450 هـ، رتبه على خمسة أبواب، الأول في العقل، والثاني في العلم، والثالث في أدب الدين، والرابع في أدب الدنيا، والخامس في أدب النفس. إهـ.. أنظر كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، لحاجي خليفة 1: 45.

إذا لم يذاكر ذوو العلم بعلمه ولم يستفد علما نسى ما تعلما
فكم جامع للكتب في كل مذهب يزيد مع الأيام في جمعه عما[1]

وقد قيل: حفظ سطرين خير من حمل وقرين. ومذاكرة اثنين خير من هاتين[2]. وهذا إذا كانت المذاكرة مع من لا يجحد. وإلا فتركها أحمد. ورحم الله القائل:

وإذا جلست إلى الرجال و أشرقت في جو باطنك العلوم الشرد
فاحذر مذاكرة الجحود فإنما تغتاظ أنت ويستفيد ويجحد

ومنها استفادة الحكم في الخنثى. وأنه يورث من محل بوله كما قدمناه. وهناك فوائد أخرى نكتفي هنا بما ذكرناه.

الوجه الخامس في مقدار إرثه

اعلم أن الخنثى إذا زال إشكاله فإرثه يكون بالجهة المحققة بعلامتها فيه. وإن بقي على إشكاله فهو يرث نصف نصيبه على فرض كونه ذكرا. ونصف نصيبه على فرض كونه أنثى. ويجمع النصفان ويأخذ ما اجتمع له منهما وهو معنى قول الناظم:

وإن يبل من جهتين الخنثى فنصف حضي ذكر وأنثى[3]

وهذا الذي ذكره إنما هو فيما إذا كان إرثه بالجهتين مختلفا. لأن له أحوالا خمسة جمعتها في قولي:

خمسة أحوال أتت للخنثى ذات الذكورة وفرج الأنثى
تأخذ نصف حظ كلتا الحالتين فيما إذا اختلف إرث الجهتين
وإن ترث من جهة ومنعت من جهة بنصف إرث قنعت
وإن تساوى الإرث في الحالين فإرثها يكمل دون مين

الحالة الأولى يرث على أنه ذكر وعلى أنه أنثى. إلا أن ميراثه بالذكورة أكثر كما إذا كان إبنا وابن ابن، الثانية عكسه كزوج وإخوة لأم وأخ شقيق أو لأب وهو الخنثى. فهذه الصورة مثل ما قبله في كونه يأخذ نصف حظي ذكر وأنثى. لأن إرثه على الحالتين مختلف فيها. وإليهما أشرت بالبيت الثاني وهو: تأخذ...إلخ، الثالثة يرث على أنه ذكر فقط كما إذا كان عما أو ابن عم، الرابعة عكسه وذلك فيما إذا كان في مسائل العول كالأكدرية. فإنه لا يعال فيها له على أنه ذكر. وإنما يعال فيها على أنه أنثى. والحكم في هذه مع ما قبلها يليها أنه يرث نصف الوجه الذي يرث به ذكرا كان كما في الصورة قبله أو أنثى كما في هذه. وإليهما أشرت بقولي: وإن ترث من جهة. الخامسة يتساوى

[1]- قريب من هذين البيتين قول الإمام الشافعي رحمه الله:
علمي معي حيثما مشيت يتبعني وعاؤه القلب لا بيتي وصندوقي
إن كان في البيت كان العلم فيه معي أو كنت في السوق كان العلم في السوق

[2]- أنظر زهر الأكم في الأمثال والحكم، لليوسي ص 225، لدى شرحه للمثل القائل: خير العلم ما حُوضِرَ به.

[3]- أنظر تحفة الحكام لابن عاصم، (فصل في ذكر موانع الميراث)

إرثه بالذكورة وبالأنوثة كما إذا كان أخا لأم. فهذا يرث فرضه كاملا لاستواء الحالتين. وإليهما أشرت بقولي : وإن تساوى الإرث. إلى آخر البيت.

وكيفية العمل في ذلك ما أشار إليه الشيخ خليل رحمه الله بقوله: تصحح المسألة على التقديرات ثم تضرب الوفق أو الكل في حالتي الخنثى. وتأخذ من كل نصيب من الإثنين النصف وأربعة الربع. فما اجتمع له فنصيب كل كذكر وخنثى. فالتذكير من اثنين والتأنيث من ثلاثة. فتضرب الإثنين فيها. ثم حالتي الخنثى له في الذكورة ستة والأنوثة أربعة. فنصفها خمسة. وكذلك غيره. وكخنثين وعاصب فأربعة أحوال. تنتهي لأربعة وعشرين. لكل أحد عشر. وللعاصب اثنان. وحاصل ذلك أنك تصحح المسألة على أنه ذكر محقق. وتصححها أيضا على أنه أنثى محققة. ثم تنظر بين المسألتين كما تنظر بين العددين إذا أرت ردهما إلى عدد واحد من تداخل وتباين وتوافق وتماثل. فتكتفي بأحد المتماثلين و بأكبر المتداخلين. أو تضرب وفق أحدهما في كامل الآخر في المتوافقين. أو تضرب الكل في الكل في المتباينين. ثم اضرب الخارج في حالتي الخنثى. واقسم الخارج على التقديرات. فما اجتمع له فيهما فاعطه بنسبة واحد إلى أحوال الخناثي التي بيدك. فيأخذ هو وغيره ممن معه بتلك النسبة. فإن كان بيدك حالان فتعطي لكل واحد نصف ما حصل بيده من مجموع الفرائض. وإن كان أربعة أحوال فتعطيه ربع ما بيده. وعلى هذا القياس فإن كان خنثى واحدا فله حالان. وإن كان اثنان فلهما أربعة أحوال. لأنهما يقدران في حالة ذكرين. وفي أخرى أنثيين. وفي أخرى يقدر أحدهما ذكرا والآخر أنثى. وبالعكس. وهكذا فمهما زاد عدد الخناثي فإنك تضعف عدد الأحوال. فلو كان في الفريضة ذكر واحد وخنثى واحد فبتقدير كونهما ذكرين تكون المسألة من اثنين. وبتقدير كون الخنثى أنثى فمن ثلاثة. فتضرب الإثنين في الثلاثة لتباينهما يكون ذلك ستة. ثم تضرب الستة في حالتي الخنثى باثني عشر تكون صورة ذلك هكذا.

	2		3	6	12	12
ابـنـــــا	1				6	
خنثى على أنه ذكـر	1				6	
ابـنـــــا			2	4		8
خنثى على أنه أنثـى			1	2		8

فللخنثى في التذكير ستة. وللذكر المحقق ستة. وله في التأنيث أربعة. وللذكر ثمانية. فتنسب واحدا هوائيا لحالتي الخنثى وهو نصف. فيعطى كل واحد نصف ما حصل بيده. فالذي بيد الخنثى في الحالتين عشرة. فيعطى نصفها وهو خمسة. والذي بيدي الذكر المحقق في الحالتين أربعة عشر. فيعطى نصفها وهو سبعة.

ولو ترك الميت خنثيين وعاصبا فإن العمل في ذلك لابد فيه من أربعة أحوال. تعمل فريضة التذكير من إثنين ولا شيء للعاصب. وفريضة التأنيث من ثلاثة للعاصب منهم. ولهما سهمان. ثم تذكير أحدهما فقط وثلاثة أيضا. ثم تذكير الأنثى و تأنيث الذكر من ثلاثة أيضا. فثلاث فرائض متماثلة تكتفي بواحدة منها. وتضربها في حالتي التذكير وهي اثنان بستة. ثم ضربها في الأحوال الأربعة بأربعة وعشرين تكون صورة ذلك هكذا:

24	24	24	24	6	3		3		3		2	
			12	3							1	خنثى ذكر
			12	3							1	خنثى ذكر
		8							1			خنثى بنتا
		8							1			خنثى بنتا
		8							1			عاصبا
	8						1	بنتا				
	16						2	ابنا				
16					2	ابنا						
8					1	بنتا						

فعلى تذكيرهما لكل واحد منها إثنا عشر. وعلى تقدير تأنيثهما يكون لكل واحد منهما ثمانية وللعاصب ثمانية. وعلى تذكير واحد فقط يكون للذكر ستة عشر وللأنثى ثمانية. وكذلك العكس. ثم تجمع ما بيد كل وتعطيه ربعه. لأن نسبة واحد هوائي إلى الأربعة أحوال ربع. وقد علمت أن مجموع ما بيد كل خنثى أربعة وأربعون. لأن له في التذكير اثنا عشر. وفي التأنيث ثمانية. ثم ثمانية أيضا في كونه أنثى والأخر ذكرا. وفي العكس ستة عشر. وبيد العاصب ثمانية. فيعطى لكل خنثى أحد عشر. وللعاصب اثنان. وقس على ذلك وبالله التوفيق .

الوجــه الســادس في مسائل تتعلق به

قال الشيخ الصعيدي رحمه الله: قال إذا حكم له بأحد الأمرين من ذكورة وأنوثة ثم حدثت علامة أخرى تقتضي ضد الأولى. فقال العقباني: لم أقف على شيء إلا ما رأيته لبعض أشياخي. ونصه: إن حكم بأنه ذكر لعلامة ظهرت فيه ثم جاءت علامة أخرى تدل على أنه أنثى أو بالعكس لم ينقل عما حكم له به أولا. كان يبول من الذكر ثم جاء الحيض أو كان يبول من الفرج ثم جاءت اللحية. إهـ.. قال الشيخ سيدي علي الأجهوي: قلت الذي ينبغي اعتبار العلامة الثانية حيث كانت أقوى من الأولى. كما إذا كانت الأولى سبق البول أو أكثريته. والثانية الحمل. إهـ..

ثم لا يخفى أنه ولد من بطنه أو ظهره فأمره واضح. وإن ولد منهما معا فمشكل على ما اختاره بعضهم. وقال الحطاب: فإن ولد منهما معا فقال العقباني: الظاهر أن الحكم لولادة البطن، لأنها قطعية، لكن على مذهب الشافعي. وأما على مذهبنا فالخنثى باق على إشكاله. إهـ.. ويجب تقييد هذا كما ذكر بعض الشراح بما إذا كانت ولادته من الظهر والبطن في آن واحد. وإلا فالعمل بما ثبت له بالمتقدم. ويمتنع بين ما ولد له من ظهره وما ولد له من بطنه الإرث. لأنه لم يجمعهما أب ولا أم. إهـ.. وفي ذلك يقول محبنا الشريف العلوي مولاي عبد السلام المحب الأديب اللغوي يخاطبني ملغزا:

يا فـــــرد فـــي علـــم الفـــــرا	ئض قــــد غدا من دون ثـــان
مـــاذا تقـــول حفظـت فــــــي	أخوين لا يتوارثـــــــــــــان
مــــع أنـــه لا منـــــع مــــو	جــــود عــــن التوريث ثان
فأجـــــب فحـــل المشكـــــلا	ت ألذ مــــن نغم المتانـــــي

فأجبته بقولي:

ألغزت فــــــي خنثى لـــه	بطنــــا وصلبــــا مولدان
فلــــــواحــــد أمـــا غدا	وأبا لآخـــــر بالبيـــــان
من مات مـــن هاذيــــن لا	ميراث منه يـــــرى لثاني
هذا جوابـــي وهـــــو مــــن	خزف ونظمـــك مـن جمان
فاقبلــــــه يـــا بـــدر العلا	لا زلت تحظـــى بالأمــــان

وكذا يمتنع بينهما النكاح لأن ما خلق الله من مائه بمنزلة ولده في النكاح. وهل يعتق أحدهما على الأخر أو لا لقولهم لم يجمعهما أب ولا أم. والظاهر أنه لا يعتق لما تقدم من أنهما لا يتوارثان. ولا نسب بينهما. وأما لو وطئ فرجه بذكره غلطا وولد له فهو مشكل. ويرثه أولاده بالأبوة والأمومة. وهو يرثهم. وهم إخوة أشقاء على ما ذكروا. ثم قال الشيخ الصعيدي (تنبيه) الخنثى كما يكون في الآدمي يكون في الإبل والبقر. ويجوز التضحية به. ولو كان إشكاله بثقبة يخرج منها البول. لأنه إما ذكر أو أنثى. وكل منهما يجوز التضحية به. فعلى هذا ابن آدم محصور في كونه ذكرا أو أنثى. فلا فرد يخرج عنهما. ويدل عليه قوله تعالى: وما خلق الذكر والأنثى[1]. فهو دليل على أن الخنثى إما ذكرا أو أنثى. فيحنث من حلف لا كلم ذكرا ولا أنثى وكلمه. كما قال بعضهم. والحاصل أن الجمهور على أنه غير واسطة. وأنه واقع خلافا لمن منعه. ثم قال (فائدة) وجدت في خط بعض شيوخنا رحمه الله أنه يدخل الجنة ذكرا. إهـ. وقد جمعت هذه المسائل المذكورة أولا وآخرا في أبيات تقدم بعضها. ونص الباقي منها:

يا طالبـا أقسام حكــــم الخنثى	وهي بفرج ذكـــــر وأنثى
فاسمع لمـــــا أمليه من أقسام	ومـــــن علامات ومن أحكام

يتضح الخنثى، الأبيات الأربعة المتقدمة، ثم قلت وخمس أقسام أتت للخنثى، الأبيات الأربعة المتقدمة أيضا ثم قلت:

وعندهم ما دام خنثى مشكــــــلا	منع مناكحته بين المـــــــلا
فإن يلد من بطنه وظهـــــــره	فإنه يرث مثل غيـــــــره
فهو يرى أبا لنسل صلبـــــــه	وأم مَنْ مِن بطنه فانتبــــــه
وإن يمـــت فالمـــال لــلأولاد	بالإرث مطلقــا علـى المعتاد
وبين مــــن من بـــطنه وظهره	يمتنع الميراث حقـــا فادره
ولا نكـــاح بينهـــــم ولا ولا	وعتقه يرى عليهم مسجـــلا

---

[1]- سورة الليل، الآية 3

وإن بوطئـــــه لنفســــــه ولــد فحكم الأولاد أشقــاء اطــرد
ومعلن بتركــــه التكلمــــــــا مع الذكــور والإناث قسمــا
يحنث إن كلم خنثــــى مشــكلا كما عليـه نص بعض الفضلا
ويدخل الخنثى عــلى مــا ذكرا بعض الشيوخ للجنان ذكــرا
وجازت الأضحى بخنثى مشكل من غنم أو بقـــر أو إبـــــل

ثم قال الناظم رحمه الله:

وما قصدت جمعه هنـــا انتهــى والحمـــد لله بغيـــر منتهى[1]

يعني أن الأحكام التي تنزل بالقضاة والحكام وتتكرر لديهم في الوجود مع ذكر بعض نكات العقود التي قصد جمعها في هذا النظام. كما أشار له بقوله في أول الكلام:

وبعد فالقصد بـــــهذا الــــرجز تقرير الأحـــكام بلفظ مــــــوجز[2]

قد انتهى هنا. فهنا ظرف لقوله انتهى. ويصح جعله ظرفا للجمع. أي وما قصدت جمعه هنا انتهى وكمل. ثم حمد الله تعالى كما ابتدأ نظمه على هذه النعمة التي امتن عليه المولى بها من التوفيق لنظم هذا الرجز. مع الإنعام عليه بكماله. لأنه من الأعمال التي لا تنقطع بالموت. لأنه من بث العلم. وقد ورد عنه صلى الله عليه وسلم أنه إذا مات ابن أدم انقطع عمله إلا من ثلاث. صدقة جارية. أو ولد صالح يدعو له. أو علم يبثه في صدور الرجال[3]. فالثواب للعالم الذي يبث العلم في الصدور. حاصل له بتأليفه ولو حل في القبور. إلى يوم النشور. ولذلك قيل:

أخو العلم حي خالد بعـــد موتــــــــــه وأوصاله تـحت التراب رميم
وذو الجهل ميت وهو ماش علــى الثــرى يعد من الأحياء وهو عديـم[4]

وكثير من العلماء لم يؤلفوا. فصاروا كأنهم لم يعرفوا. وقد كان طبق الكون صيتهم في حياتهم. فانقطع ثوابهم بمماتهم. ولو ألفوا المؤلفات. لانتفعوا بها بعد موافاة الوفاة. فالتوفيق من الله للمؤلفين نعمة ظاهرة. يجب الشكر عليها في كل وقت وحين. فلذلك حمد الله المولى. على أن جعله للتأليف أهلا. وحمده بحمد غير محصور. لما فيه من نوع الإقرار بالعجز عن الوفاء بشكر المنعم الشكور جل علاه. وقد كان صلى الله عليه وسلم يقول مخاطبا مولاه: لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت

[1]- أنظر تحفة الحكام لابن عاصم (فصل في ذكر موانع الميراث)
[2]- أنظر تحفة الحكام لابن عاصم (مقدمة النظم)
[3]- رواه مسلم بصيغة أخرى عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث، صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له. إهـ. صحيح مسلم (كتاب الوصية) باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته رقم 4177.
[4]- البيتان للشاعر ابن السيد البطليوسي

على نفسك[1]. ولا شك أن الحمد من جملة الشكر. بل هو رأس الشكر كما ورد في بعض الأحاديث. روى الخطابي في غرائبه والديلمي في مسند الفردوس والبيهقي في الأدب. بسند رجاله ثقاة لكنه منقطع. عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: الحمد رأس الشكر. ما شكر الله عبد لا يحمده[2]. وروى الطبراني في الأوسط بسند ضعيف قال: سرقت ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم الجدعاء. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لئن ردها الله علي لأشكرن ربي فردت فقال الحمد لله، فنظروا هل يحدث صوما أو صلاة. فظنوا أنه نسي. فقالوا له. قال: ألم أقل الحمد لله[3]. وأسند ابن أبي حاتم من طريق حسن عن ابن عباس قال: الحمد لله كلمة الشكر. فإذا قال العبد الحمد لله قال: شكرني عبدي. وفي صحيح الإمام مسلم مرفوعا: الحمد لله تملأ الميزان[4]. وقد وعد المولى سبحانه عباده بالزيادة من نعمه إذا شكروه. وأقسم على ذلك. فقال جل من قائل: لئن شكرتم لأزيدنكم[5]. وقد كنت قلت في المعنى:

الشكـــر مفتاح أبواب الزيـــــادات	من كل خير من المولى لنـــا ياتي
لذا به أمر المولـــى خليقتـــــــه	عساهم أن ينالوا كـــل خيـــرات
فلتسألوا بالذي إليـــه أرشـــــدنا	إن الكريم ليهـدي للسعـــــادات
فهو الكريم الذي للخير يرشــدهم	وفضله لا يزال فــــي زيـــادات
سبحانه من كريم شكـــر نعمتـــه	لسنا نوافي به في كل ساعـــــات
فكيف لا ومن النعماء منـــه لـــنا	شكرا له دائما في كـــل حـــالات

فينبغي للعاقل أن يحافظ على شكر المولى. ليكون للزيادة من نعمه أهلا. كما قلت:

شكر الإله عـــلى الـذي	أولاك مـــن نعمائـــــه
داع إلى نيل الزيـــــــا	دة منـــه من آلائـــــه

---

[1]- إشارة لقوله صلى الله عليه وسلم في دعائه: اللهم أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك. إهـ.. صحيح مسلم (كتاب الصلاة) باب ما يقال في الركوع رقم 1042.

[2]- جامع الأحاديث والمراسيل (حرف الحاء المحلى بألف) 4: 249 رقم 11405. مشكاة المصابيح، لابن حجر الهيثمي (كتاب الدعوات) الفصل الثاني 5: 134. فيض القدير لشرح الجامع الصغير (حرف الحاء المحلى بألف) رقم 3835. الفتح الكبير في ضم الزيادة إلى الجامع الصغير (حرف الحاء) 2: 81 رقم 5950. مصنف الصنعاني (كتاب الجامع) شكر الطعام 10: 424 رقم 20639.

[3]- من حديث طويل رواه الطبراني في معجمه الكبير والأوسط، أنظر مجمع الزوائد، للهيثمي (كتاب الإيمان) باب لا نذر في معصية إنما النذر إلخ 4: 336 رقم 6960.

[4]- إشارة لقوله صلى الله عليه وسلم: الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن (أو تملأ) ما بين السماوات والأرض، والصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء، والقرآن حجة لك أو عليك، كل الناس يغدو فبايع نفسه فمعتقها أو موبقها. إهـ.. صحيح مسلم (كتاب الطهارة) باب فضل الوضوء رقم 487.

[5]- سورة إبراهيم، الآية 7

قال العارف بالله ابن عطاء الله في حكمه:من لم يشكر النعم فقد تعرض لزوالها. ومن شكرها فقد قيدها بعقالها[1]. وقد عقد هذه الكلمة شيخنا العلامة الرئيس سيدي الحاج عبد الكريم بنيس في نظمه للحكم في قوله:

من لم يكن شاكــرا لله أنعـــمـــــــه	فــقد تعرض للنعماء بالنقل
والشكر قيد وصيد قيد حاصلهــــــــا	وصيد إبقائها بأوثق الحبــل[2]

وقد سأل السري السقطي رضي الله عنه الإمام الجنيد عن حقيقة الشكر فقال: أن لا يعصى الله بنعمه [3]. وعليه فمن عصا الله تعالى بنعمة فإنه لم يشكرها. فإنها لا محالة يفقها ولو بعد حين. ورحم القائل:

إذا كنت في نعمة فارعـــها	فإن المعاصي تزيل النعـــم
وحافظ عليها بشكر الإلـــه	فإن الإلـــه شديد الـنقـــم[4]

والكلام في هذا المقام طويل الذيل. فلنكتف منه بهذا القدر. ثم قال الناظم رحمه الله:

وبالصلاة ختمه كمـــا أبتدي	علـــى الرسـول المصطفى محمد[5]

أتى بالصلاة تبركا بها في المحلين. ولجعلها في الموضعين كالشفيعين في قبول نظمه. لأنها فيها مقبولة عند الله تعالى. والمولى سبحانه أكرم من أن يقبل الصلاتين ويدع ما بينهما. ولا شك أن العمل لا يعتد به إلا إذا كان مقبولا. وقد ورد في الحديث عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: والذي نفس محمد بيده لن يدخل أحدا عمله الجنة. قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا. إلا أن يتغمدني الله بمحض فضله[6]. وجمع بين هذا الحديث وبين قوله تعالى: ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون[7]. بأن العمل لا يعتد به إلا إذا كان مقبولا. وقبوله إنما هو بمحض الفضل. ثم الكلام على الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم في هذا المقام في مقامات، المقام الأول. أتى الناظم رحمه الله بالصلاة عليه صلى الله عليه وسلم أخيرا كما أتى بها أولا. لأنها من المواضع المتأكد فيها الإتيان بها كما

---

[1]- أنظر الحكم العطائية الكبرى، رقم الحكمة 64

[2]- أنظر الواضح المنهاج في نظم ما للتاج، للعلامة سيدي عبد الكريم بنيس ص 49، رقم البيتان 185_186

[3]- أنظر سير أعلام النبلاء للذهبي (الطبقة السادسة عشر) ترجمة الجنيد 9: 166 رقم 2555. تاريخ بغداد، للبغدادي (ذكر من اسمه الجنيد). طبقات الحنابلة، لابن أبي يعلى (باب الجيم) ترجمة الجنيد بن محمد.

[4]- البيتان للإمام علي كرم الله وجهه، قالهما ضمن أبيات له اختتمها بقوله:

فكم آمنٍ عاش في نعمةٍ	فَمَا حس بالفقر حتى هجمْ
وكم قَدَرٍ دَبَّ في غفلـة	فلم يشعر الناسَ حتى هجمْ

[5]- أنظر تحفة الحكام لابن عاصم (فصل في ذكر موانع الميراث)

[6]- إشارة لقوله صلى الله عليه وسلم: لن ينجي أحدًا منكم عمله، قالوا: ولا أنت يا رسول الله. قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة، سددوا وقاربوا وأغدوا وروحوا وشيء من الدلجة، والقصد القصد تبلغوا. إهـ.. صحيح البخاري (كتاب الرقاق) باب القصد والمداومة على العمل رقم 6316 رقم 6320 (كتاب المرضى) باب تمني المريض الموت رقم 5545. صحيح مسلم (كتاب صفة القيامة) باب لن يدخل أحد الجنة بعمله رقم 7060 رقم 7063 رقم 7065 رقم 7066 رقم 7071.

[7]- سورة النحل، الآية 32

نص عليه غير واحد. كالقاضي عياض في الشفا. والشيخ يوسف ابن عمر في شرح الرسالة وغيرهما. وهو المختار. وبه يقول الناظم بدليل إتيانه بها. وقيل منهي عنها في آخر الكتاب. قال الشيخ زروق في شرح الرسالة والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم في آخر الكتاب جاء فيها حديث ضعيف بالنهي عنه. ذكره أبو النعيم في الحلية. ولم يعده العلماء من المواضع المنهي فيه عنها. وهي سبعة عند العثرة والذبح والبيع والأكل والجماع والخلاء والحمام والمواضع القدرة وزيد عليها العطاس والعجب. وجمعتها في قولي:

عطاس جـــماع عثرة وتعجـــب	وذبح وأكل مثل بيـــع وحمـــام
وفي موضع الأقذار قد كرهـوا على	أجـل الورى قدرا صلاة لإعظـــام

المقام الثاني إتيان الناظم رحمه الله بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم بغير اللفظ الوارد إشارة إلى أنه يقول بجواز ذلك. وأن الثواب الموعود به فيها يحصل ولو بغير اللفظ المروي عنه عليه الصلاة والسلام. وإلى قوله نحا جماعة من العلماء. منهم تقي الدين السبكي. قال الشيخ أبو عبد الله الحطاب رحمه الله: أغرب القاضي أبو بكر بن العربي في العارضة[1] فقال: الذي أعتقده أن قوله صلى الله عليه وسلم من صلى علي صلاة صلى الله عليه بها عشرا[2]. ليست لمن قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم. وإنما هي لمن صلى وسلم كما نصصناه. إهـ.. وقال الشيخ سيدي محمد العربي الفاسي في شرح دلائل الخيرات: الأمر بالصلاة في الآية مطلق. يصدق بأي كيفية. وقد جاء عنه صلى الله عليه وسلم تعليم الكيفية حين سئل عنها[3]. إلا أن ذلك ليس على سبيل التعيين الذي لا يجزئ غيره. بدليل اختلاف الألفاظ. فهي روايات التعليم. وكلها صحيحة.

وقد وردت كيفيات أخرى عن النبي صلى الله عليه وسلم. وعن الصحابة والتابعين ومن بعدهم رضي الله عنهم أجمعين. وعلى ذلك جرى عملهم. وقد قال بعض العلماء: ولا يصلي عليه إلا بالكيفية الواردة في التعليم. والذي جرى عليه عمل الناس خلافه. ولا مرية في أن الواردة ولا سيما على سبيل التعليم أولى من غيره. وإنما الكلام في تعيينه هو مثله في شرح سيدي المهدي الفاسي رضي الله عنه.

المقام الثالث أفرد الناظم رحمه الله الصلاة عن السلام تبعا للقول بعدم كراهة ذلك. وهو قول جماعة من المحققين. وقيل بكراهة الإفراد. واعتمده جمهور العلماء من المحدثين. وبالغ ابن حجر الهيثمي في الانتصار له. حتى حكى عليه الإجماع. ومحل الخلاف في ذلك ما لم يجمعهما في مجلس كان

---

[1]- إشارة لكتابه عارضة الأحوذي في شرح الترمذي

[2]- إشارة للحديث الذي رواه الإمام مسلم في صحيحه عن عبد الله بن عمرو بن العاص، أنه سمع النبي صلى الله عليه و سلم يقول: إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلوا عليَّ، فإنه من صلى عليَّ صلاة صلى الله عليه بها عشرًا، ثم سلوا الله لي الوسيلة، فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لي الوسيلة حلت له الشفاعة. إهـ.. صحيح مسلم (كتاب الصلاة) باب استحباب القول مثل قول المؤذن لمن سمعه ثم يصلي على النبي ثم يسأل الله له الوسيلة رقم 800.

[3]- إشارة لما رواه البخاري في صحيحه عن أبي حميد الساعدي، أنهم قالوا يا رسول الله كيف نصلي عليك؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قولوا اللهم صل على محمد وأزواجه وذريته كما صليت على آل إبراهيم، وبارك على محمد وأزواجه وذريته كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد. إهـ.. صحيح البخاري (كتاب الأنبياء) باب قول الله تعالى واتخذ الله إبراهيم خليلا. إلخ.. رقم 3304 (كتاب الدعوات) باب هل يصلى على غير النبي صلى الله عليه وسلم. إلخ.. رقم 6215. صحيح مسلم (كتاب الصلاة) باب الصلاة على النبي بعد التشهد رقم 862

يصلي في الخط ويسلم في اللفظ أو العكس فلا كراهة. كما أن الخلاف إنما هو في إفراد الصلاة عن السلام عن النبي صلى الله عليه وسلم. وأما إفراد ذلك في غيره عليه السلام من سائر الأنبياء والملائكة عليهم السلام فلا كراهة اتفاقا. إهـ..

المقام الرابع في ذكر بعض فضل الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم على سبيل الإجمال: اعلم أن الصلاة عليه عليه السلام من أجل الطاعات. وأعظم القربات. وأفضل العبادات. وهي الذخيرة التي لا تنفذ. والعمل الذي لا يرد. وصاحبه لا يطرد. وإذا أردت أن تعرف ما قلناه حقيقة. لتسلك من البرهان الدال على ذلك أقوم طريقة. فانظر إلى قوله تعالى في التنويه بنبيه زاده الله تشريفا وتعظيما: إن الله وملائكته يصلون على النبي. يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما[1]. فقد بدأ سبحانه وتعالى بالصلاة والتسليم عليه أولا بنفسه. وثنى بملائكة قدسه. وأمر بها المومنين من عالمي جنه وإنسه. فظهر من ذلك أن الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم لها مقام عظيم عند الله تعالى. ونور يتلألأ. وأنها أفضل العبادة. التي ينال بها العبد من مولاه أعلا درجة في السعادة. والموت إن شاء الله تعالى على الشهادة. بمحض فضل الله وكرمه صلى الله عليه وسلم.

الله عظـــم قدر جاه محمـــــد	وأنالـــه فضـــلا لديه عظيمـا
في محكم التنزيل قـــال لخلقـــه	صلوا عليه وسلموا تسليـــــما

ولو لم يرد في فضلها إلا قوله صلى الله عليه وسلم: من صلى علي مرة واحدة صلى الله عليه بها عشر مرات. ومن صلى عليه مائة مرة صلى الله عليه ألف مرة. ومن صلى علي ألف مرة حرم الله جسده على النار وثبته بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة عند المسألة وأدخله الجنة. وفي رواية ومن صلى علي ألفا زاحمت كتفه كتفي على باب الجنة لَكَفَى في فضلها. لا سيما وقد ورد في فضلها أحاديث كثيرة. وفي كتب الأوائل والأواخر شهيرة. قال الإمام ابن عطاء الله رضي الله عنه في قوله صلى الله عليه وسلم من صلى علي مرة واحدة صلى الله عليه بها عشرا. من صلى عليه مرة واحدة كفاه هم الدنيا والآخرة. فكيف بمن صلى عليه عشرا.إهـ..

وعن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: جاءني جبريل عليه السلام وقال: يا محمد لا يصلي عليك أحد إلا صلى عليه سبعون ألف ملك. ومن صلت عليه الملائكة كان من أهل الجنة. وعن ابن عمر رضي الله عنهما عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: حجوا حجة الفريضة فإنها أعظم من غزوة في سبيل الله. وإن غزوة في سبيل الله أعظم من عشرين حجة. وإن الصلاة علي أعظم من ذلك كله. وعن سيدنا علي كرم الله وجهه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: من حج حجة الإسلام وغزا بعدها غزاة كتبت غزاته بأربعمائة حجة. فانكسرت قلوب قوم لا يقدرون على الجهاد. فأوحى الله إليه: ما صلى عليك أحد إلا كتبت صلاته بأربعمائة غزاة. كل غزاة بأربعمائة حجة. وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: للمصلي علي نور على الصراط. و من كان على الصراط من أهل النور لم يكن من أهل النار. ولو تتبعنا الأحاديث الواردة في فضل الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم لاحتجنا إلى تأليف فيها بالخصوص. وفيما ذكرناه كفاية. وفضل الله ليس له نهاية. وقد نطق لسان القلم هنا فقال:

[1]- سورة الأحزاب، الآية 56

إن الصلاة على النبي ليس لهـــا   في الفضل شيء من الأشيا يعادلها
إن كان عنها يجازي الله صاحبها   فكيف بين الورى تحصى فضائلهــا

ولما كانت الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم لا تكون كاملة إلا إذا ذكر فيها الصلاة على الآل لقوله صلى الله عليه وسلم: إياكم والصلاة البتراء. قالوا: وما هي يا رسول الله؟ قال: أن تصلوا علي دون آلي. أتى الناظم رحمه الله بالصلاة عليهم مع الصحابة رضي الله عنهم أجمعين فقال:

وآله وصحبه الأخيــــــار   مكــور الليل علــــى النهار[1]

والمشهور على أن آله صلى الله عليه وسلم في باب الزكاة هم أقاربه المومنون من بني هاشم فقط. وقيل والمطلب. وأما في باب المدح فينبغي أن يفسروا بأتقياء الأمة لقوله صلى الله عليه وسلم: آل محمد كل تقي[2]. وهو حديث ضعيف. وأما حديث: أنا جد كل تقي[3]. فهو موضوع كما قال السيوطي رحمه الله في فتاويه. وفي باب الدعاء يفسر الآل بأتباعه من جميع أمته. لأن الدعاء مهما كان أعم كان إلى الإجابة أقرب. قال الشيخ سيدي يحيى الشاوي رضي الله عنه: الحق توسعة الدائرة هنا. يعني في باب الصلاة عليهم. بخلاف مصرف الزكاة فعلى اختلاف الفقهاء. إهـ..أقول إطلاقه على الجميع ينافي التخصيص المنصوص عليه في الحديث المتقدم المقصود به آل البيت الكرام. كما قال الإمام الشافعي رضي الله عنه:

يا آل بيـــت رسول الله حبكـم   فـرض من الله فــي القرآن أنزلـه
يكفيكم مـن عظيم المجد أنكـــم   من لم يصل عليكم لا صـــلاة لـه[4]

وأتى بالصلاة على الصحابة الأخيار. الذين رفع الله لهم المقدار. لأنها من آثار المحبة فيهم. التي هي محبة النبي صلى الله عليه وسلم. وقدم الآل عليهم لمزية قرب آله منه عليه السلام. وقد كانت الصحابة رضوان الله عليهم يحبون تقديم الآل عليهم. لقرب رحمهم منه صلى الله عليه وسلم. وقد كان صلى الله عليه وسلم يقول مخاطبا لهم ولسائر أمته فيما أخرجه مسلم والترمذي والنسائي عن زيد بن أرقم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: أذكركم الله أهل بيتي[5]. وأخرج الترمذي وحسنه والطبراني عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أحبوا الله لما يغذوكم من نعمه. وأحبوني لحب الله. وأحبوا أهل بيتي لحبي[6].

---

[1]- أنظر تحفة الحكام لابن عاصم (فصل في ذكر موانع الميراث) وهو آخر أبيات النظم المذكور

[2]- جامع الأحاديث والمراسيل (حرف الهمزة مع الألف) 1: 24 رقم 21. الفتح الكبير في ضم الزيادة إلى الجامع الصغير (حرف الهمزة) 1: 12 رقم 20.

[3]- (أنا جد كل تقي) سئل عنه الحافظ السيوطي، فقال: لا أعرفه، أنظر كتاب الحاوي للفتاوي، للحافظ السيوطي 2 : 89، وذكره أيضا الألباني ضمن كتابه سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة 1: 65 رقم 9.

[4]- البيتان للإمام الشافعي، أنظر ديوان الشافعي ص 121

[5]- رواه الإمام مسلم ضمن حديث طويل (كتاب فضائل الصحابة) باب من فضائل علي بن أبي طالب رقم 6178 .

[6]- سنن الترمذي (باب في مناقب أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم) رقم 3951. المستدرك، للحاكم (كتاب معرفة الصحابة رضي الله عنهم) 3: 162 رقم 4767، جامع الأحاديث والمراسيل (حرف الهمزة مع الحاء) 1: 107 رقم 570.

والصحب اسم جمع عند سيبويه. وقال الأخفش: إنه جمع له. وبه جزم الجوهري كركب وراكب. والمراد بالصاحب الصحابي. وهو في عرف المحدثين من اجتمع مؤمنا بالنبي صلى الله عليه وسلم اجتماعا متعارفا عليه ومات على ذلك. روى عنه أم لا. طال اجتماعه به أم لا. وقولهم ومات على ذلك لابد منه ليخرج من ارتد بعد اجتماعه به صلى الله عليه وسلم ومات على ردته. و قد ارتد في زمن النبي صلى الله عليه وسلم ثلاث فرق. وفي زمن الصديق رضي الله عنه سبع فرق. وفي زمن سيدنا عمر فرقة واحدة. وقد جمعتهم في قولي:

قد عـــاد للكفر ثلاث فــرق	في عصر خير العالمين المرتقي
وهم بنـــوا حنيفة كـــذا بنوا	أسد ومدلج وكـــانوا آمنـــوا
وارتد فـــي خلافة الصديــق	سبع مـــن الفـرق بالتحقيـــق
كندة مع بعض بنـــي تميــم	وغطفـــــان وبنو سليــــم
كذا بنو بـــكر بـــن وائل بنو	يربوع مع فزارة قـــد بينـــوا
وارتد في خلافة الرضى عمر	غسان وحدها فذي إحدى عشـر

وقولهم اجتماعا متعارفا المراد به اللقي في الحياة على وجه الأرض. فيخرج من رآه صلى الله عليه وسلم بعد موته وقبل دفنه. كما يخرج من اجتمع به من الأولياء بعد موته يقظة كرامة من الله لهم. وقد ادعاها كثير من أكابر الأولياء. وأنكر عليهم أهل الظاهر ذلك. وحاشى ساداتنا الأولياء أن يخبروا بما لم يشاهدوا. أو يلتبس عليهم الأمر فيما شاهدوا رضي الله عنهم. وكذا يخرج من اجتمع به عليه السلام ليلة الإسراء من الأنبياء الكرام والملائكة المطهرين عليهم السلام. وأما سيدنا عيسى عليه وعلى نبينا السلام فهو من الصحابة رضي الله عنهم. لأنه اجتمع به صلى الله عليه وسلم في الأرض مرات. وكان اجتماعه بالنبي صلى الله عليه وسلم في غير ليلة الإسراء بمكة مرات[1]. كما أخرجه ابن عدي وابن عساكر عن أنس. وقال الإمام الذهبي: إنه آخر الصحابة موتا[2]. وفيه ألغز الإمام السبكي بقوله:

من باتفاق جميع الخلق أفضل من	كل الصحاب أبـــي بكر ومن عمـــر
ومن علي ومن عثمان وهو فتــى	من أمة المصطفى المختار من مضر[3]

وأجاب عن السؤال بعض أفاضل الرجال فقال:

---

[1]- حول هذا الموضوع قال الحافظ ابن حجر العسقلاني في كتابه فتح الباري: وقد تواردت عليه ظواهر الأخبار الصحيحة فلا ينبغي العدول عن ذلك، إذ ليس في العقل ما يحيله حتى يحتاج إلى التأويل. إهـ. فتح الباري لشرح صحيح البخاري (كتاب مناقب الأنصار) باب حديث الإسراء.
وفي الموضوع نفسه يقول العلامة المذكور في كتابه الإصابة: ويتجه ذكر عيسى خاصة لأمور اقتضت ذلك، أولها أنه رُفِعَ حيًّا، ثانيها أنه اجتمع بالنبي صلى الله عليه وسلم ببيت المقدس، ولا يكفي اجتماعه به في السماء، ثالثها أنه ينزل إلى الأرض فيقتل الدجال ويحكم بشريعة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، فبهذه الثلاث يدخل في تعريف الصحابي. إهـ. أنظر الإصابة في معرفة الصحابة 4: 761.

[2]- أنظر كتاب تجريد أسماء الصحابة، للحافظ الذهبي 1: 432

[3]- أنظر الإصابة في معرفة الصحابة، لابن حجر العسقلاني (حرف العين المهملة) ترجمة نبي الله عيسى عليه السلام 4: 761.

ذاك ابن مريم روح الله حــين رءا — نبينا المصطفى في أحسن الصور
فوق السماوات ليلا عندما اجتمعــا — كذاك عند طواف البيت والحجــر[1]

قال صاحب روح البيان: ولا وجه لتخصيص عيسى عليه السلام. فإنه كما اجتمع به ذلك الاجتماع كذلك الخضر وإلياس عليهما السلام فإنه صلى الله عليه وسلم اجتمعا بهما اجتماعا متعارفا. إهـ.. ولذلك أجبت عن اللغز بقولي:

يا من أتانا بلغز ضمه عجـــب — وفضلـــه قد بدا في البدو والحضر
رأيته صادقا بســـادة وهـــم — عيســى المسيح وإلياس مع الخضر

وقول الناظم (الأخيار) جمع خير بمعنى أفضل أي الأفضلين. وفيه تلميح مع نوع اقتباس من قوله تعالى: كنتم خير أمة[2]. في قول الضحاك من أن المراد بالآية الصحابة رضي الله عنهم. وقيل فيها غير ذلك. وقد ورد في محبة أهل البيت وفضلهم وفضل الصحابة كلهم أحاديث كثيرة. و آثار شهيرة. وأتى الناظم رحمه الله بالصلاة على الجميع كما تقدم إشارة منه إلى أنه يحبهم ويودهم. ولو لم يكن كذلك ما صلى عليهم. وقد أخرج البخاري في تاريخه عن الحسن بن علي رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لكل شيء أساس. وأساس الإسلام حب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وحب أهل بيته[3]. وأخرج الديلمي عن علي كرم الله وجهه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أثبتكم على الصراط أشدكم حبا لأهل بيتي وأصحابي[4]. فهذه بعض الأحاديث الواردة فيهم مع اشتراكهم. ومما ورد في فضل آل البيت على الإنفراد ما أخرجه سعيد بن منصور في سننه عن سعيد بن جبير في قوله تعالى قل: لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى[5]. قال: قربى رسول الله صلى الله عليه وسلم[6]. وقد ضمنها الشيخ الأكبر ابن عربي الحاتمي قدس سره في قوله:

أرى حب أهل البيت عندي فريضـــة — علــى رغم أهل البعد يورثني قربا
فما اختار خير الخلق مـــنا جـزاءه — على هـديه إلا المودة في القربــى

---

[1]- البيتان للعلامة أبي عبد الله محمد الطالب بن الحاج، ذكرهما في حاشيته على المرشد المعين، وذلك جوابًا على لغز الإمام السبكي رحمه الله.
[2]- سورة آل عمران، الآية 110.
[3]- جامع الأحاديث والمراسيل (حرف الهمزة) 3: 457 رقم 9778. كنز العمال، للمتقي الهندي (المجلد الحادي عشر) 1: 2319 رقم 32523. ونص هذا الحديث كالتالي: الإسلام عُريان، فلباسه الحياء، وزينته الوفاء، ومروءته العمل الصالح، وعماده الورع، ولكل شيء أساس، وأساس الإسلام حب أصحاب رسول الله وحب أهل بيته. إهـ..
[4]- جامع الأحاديث والمراسيل (حرف الهمزة مع الثاء) 1: 92 رقم 454. فيض القدير شرح الجامع الصغير، للمناوي (حرف الهمزة) رقم 159. الفتح الكبير في ضم الزيادة إلى الجامع الصغير (حرف الهمزة) 1: 40 رقم 263. كنز العمال، للمتقي الهندي (المجلد الثاني عشر) 1: 2412 رقم 34157 رقم 34163.
[5]- سورة الشورى، الآية 23
[6]- أنظر إحياء الميت بفضائل أهل البيت للسيوطي (الحديث الأول)

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله تعالى: ومن يقترف حسنة[1]. قال: المودة لآل محمد[2]. وأخرج الطبراني في الأوسط عن الحسن بن علي رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: الزموا مودتنا أهل البيت. فإنه من لقي الله وهو يودنا دخل الجنة بشفاعتنا. والذي نفسي بيده لا ينفع عبدا عمل من عمله إلا بمعرفته حقنا[3]. وأخرج ابن أبي شيبة ومسدد في مسنديهما والحكيم الترمذي في نوادر الأصول وأبو يعلي والطبراني عن سلمة بن الأكوع قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: النجوم أمان لأهل السماء. وأهل بيتي أمان لأمتي[4]. وأخرج البزار عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: مثل أهل البيت مثل سفينة نوح من ركبها نجا. ومن تركها غرق[5].

وأخرج الطبراني عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا تزول قدم عبد حتى يسأل عن أربع. عن عمره فيما أفناه. وعن جسده فيما أبلاه. وعن ماله فيما أنفقه. وعن محبتنا أهل البيت. وأخرج الديلمي عن علي كرم الله وجهه عنه عليه السلام قال: أربعة أنا لهم شفيع يوم القيامة. المكرم لذريتي. والقاضي لها الحوائج. والساعي لهم في أمورهم عندما اضطروا إليه. والمحب لهم بقلبه ولسانه[6]. فهذا بعض ما يتعلق بمحبتهم. وأما بغضهم فهو داعية البوار. ومناط الخسار. في الدنيا والآخرة. ورضي الله عن الإمام بن عربي الحاتمي حيث قال:

فلا تعدل بأهل البيت خلقا ... فأهل البيت هم أهل السعادة
فبغضهم من الإنسان خسر ... حقيقي وحبهم عبادة[7]

أخرج ابن حبان في صحيحه والحاكم عن أبي سعيد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: والذي نفسي بيده لا يبغضنا أهل البيت رجل إلا أدخله الله النار[8]. وأخرج الطبراني عن الحسن بن علي رضي الله عنهما أنه قال لمعاوية بن خديج: يا معاوية بن خديج إياك وبغضنا فإن رسول الله صلى

---

[1]- سورة الشورى، الآية 23
[2]- أنظر إحياء الميت بفضائل أهل البيت للسيوطي (الحديث الثالث)
[3]- مجمع الزوائد، للهيثمي (كتاب علامات النبوة) باب في فضل أهل البيت رضي الله عنهم 9: 272 رقم 15007. إحياء الميت بفضائل أهل البيت، للسيوطي (الحديث الثامن عشر)
[4]- جامع الأحاديث والمراسيل (النون المحلى بألف) 11: 249. الفتح الكبير في ضم الزيادة إلى الجامع الصغير (حرف النون) 3: 267 رقم 12725. كنز العمال، للمتقي الهندي (المجلد الثاني عشر) 1: 2413 رقم 34188.
[5]- مجمع الزوائد، للهيثمي (كتاب علامات النبوة) باب في فضل أهل البيت رضي الله عنهم 9: 265 رقم 14979 رقم 14980. المستدرك، للحاكم (كتاب التفسير) 2: 373 رقم 3361 (كتاب معرفة الصحابة رضي الله عنهم) 3: 163 رقم 4771. مسند الشهاب القضاعي 2: 274 رقم 1345. جامع الأحاديث والمراسيل (حرف الهمزة مع النون) 2: 388 رقم 6152 (حرف الميم) 6: 430 رقم 19732.
[6]- جامع الأحاديث والمراسيل (حرف الهمزة) 1: 411 رقم 2809. كنز العمال، للمتقي الهندي (المجلد الثاني عشر) 1: 2413 رقم 34180.
[7]- البيتان للشيخ ابن عربي الحاتمي، أنظرهما في كتابه الفتوحات المكية، الباب 502 في معرفة حال قطب كان منزله لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون.
[8]- جامع الأحاديث والمراسيل (حرف اللام ألف) 8: 358 رقم 26650. كنز العمال، للمتقي الهندي (المجلد الثاني عشر) 1: 2413 رقم 34204.

الله عليه وسلم قال: لا يبغضنا أحد ولا يحسدنا أحد إلا ذيد يوم القيامة عن الحوض بسياط من نار[1].
وأخرج الطبراني في الأوسط عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم. فسمعته وهو يقول: أيها الناس من أبغضنا أهل البيت حشره الله يهوديا[2]. وأما ما ورد في الصحابة رضي الله عنهم فشيء كثير. حتى قال ابن عباس في قوله تعالى: وسلام على عباده الذين اصطفى[3]. هم أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم.

وقال صلى الله عليه وسلم: إن الله اختار أصحابي على جميع العالمين سوى النبيئين والمرسلين[4].
وقال عليه السلام: إن الله اختار لي أصحابي فجعل لي منهم وزراء وأصهارا. فمن سبهم فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين. وقال عليه السلام: الله الله في أصحابي لا تتخذوهم غرضا بعدي. فمن أحبهم فبحبي أحبهم. ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم. ومن آذاهم فقد آذاني. ومن آذاني فقد آذى الله. ومن آذى الله يوشك أن يأخذه[5]. وعنه عليه السلام أنه قال: من أحب جميع أصحابي ووالاهم واستغفر لهم جعله الله معي يوم القيامة في الجنة[6] ورحم الله القائل:

هم الصحابة خير الخلق أيدهـــم	رب الســـماء بتوفيق وإيثــار
فحبـــهم واجب يشفى السقيم بــه	فمن أحبهم ينجو مــن النـــــار

ثم وقت الناظم رحمه الله الصلاة التي أتى بها في نظمه بما يفيد الدوام والإستمرار بقوله ما كور الليل على النهار. ومعناه: والصلاة عليهم مدة تكوير الليل على النهار. وليه عليه ولفه. يقال كار العمامة على رأسه وكورها. أي لفها ولواها. كأنه يقول ما دام يخلف النهار الليل ويخلف الليل النهار. أو ما دام يغطي الليل النهار والنهار يغطي الليل. وذلك مدة بقاء الدنيا. وما ذكره الناظم في هذه الأبيات التي ختم بها نظمه فيها لطائف. منها أن الناظم رحمه الله فرغها في قالب فرغ فيه لازم أبياته الثلاث التي ختم بها مقصورته المشهورة إذ قال فيها:

بدأتها باسم الــذي ختمتهـــــا	بحمــــده جــــل الإله وعـــلا
فالبدء باسم الله أولى ما بــــــه	عند افتتاح كل أمـــر يعتنـــى
والحـــمد لله أجل غــــــاية	يبلغ بالقول لهـــا وينتهـــــى

---

[1]- مجمع الزوائد، للهيثمي (كتاب النكاح) باب الإستثمار 4: 511 رقم 7466 (كتاب علامات النبوة) باب في فضل أهل البيت رضي الله عنهم 9: 272 رقم 15008. جامع الأحاديث والمراسيل (حرف اللام ألف) 8: 357 رقم 26644. كنز العمال، للمتقي الهندي (المجلد الثاني عشر) 1: 2413 رقم 34203.
[2]- مجمع الزوائد، للهيثمي، ضمن حديث طويل (كتاب علامات النبوة) باب في فضل أهل البيت رضي الله عنهم 9: 272 رقم 15009.
[3]- سورة النمل، الآية 59.
[4]- مجمع الزوائد، للهيثمي، ضمن حديث طويل (كتاب علامات النبوة) 9: 736 رقم 16383. كنز العمال، للمتقي الهندي (المجلد الحادي عشر) 1: 2349 رقم 33094 (المجلد الثالث عشر) 1: 2669 رقم 36708.
[5]- مسند الإمام أحمد (حديث عبد الله بن مغفل المزني) 6: 42 رقم 20152 رقم 20181، سنن الترمذي (كتاب مناقب الرسول صلى الله عليه وسلم) باب في من سب أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم رقم 4029، صحيح ابن حبان (باب في فضل الصحابة والتابعين) ذكر الزجر عن اتخاذ المرء أصحاب رسول الله غرضا للتنقص رقم 7142.
[6]- فضائل الصحابة، للإمام النسائي 1: 340 رقم 491.

ففيها تلميح مليح إليها. ومنها أنها اشتملت أيضا على نوع لطيف من الإقتباس من قوله تعالى يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل[1]. وفي ضمن هذه الآية الشريفة نكات بديعة. وطرائف رفيعة. مما يدل على قدرة الله الباهرة. وعلى إبداع حكمته الباطنة والظاهرة. وتتبعها يؤدي إلى التطويل. والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

وقد تقدم لنا أن الناظم رحمه الله حمد الله تعالى على الإنعام عليه بإتمام هذا النظم لأنه من بث العلم الذي ينتفع به العباد. وقد قال صلى الله عليه وسلم: الخلق عيال الله وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله[2]. وقد ورد في فضل العلم والتنويه به ما يحث كل عالم على الإزدياد منه مدة حياته. ويغرى كل جاهل على اقتنائه قبل مماته. وقد جرت عادة الشيوخ رحمهم الله في ختم دروسهم العلمية بذكر بعض ما يتعلق بالعلم من الترغيب فيه على سبيل الإجمال. ومنهم من بسط القول فيه ويذكرون فضائله الخاصة والعامة. بين الخاصة والعامة. لأمور منها تشويق الطلبة لأن يعودوا لقراءة ما لم يفهموه. ولا يكتفوا بما تعلموه. لأنهم إذا سمعوا فضله تقوى همتهم على تحصيله. ويزداد نهمهم المنوط بإجماله وتفصيله. وقد قال صلى الله عليه وسلم: منهومان لا يشبعان. طالب علم وطالب دنيا[3]. فإذا لم يكن طالبه منهوما فليس بطالب. وإذا لم يكن راغبا فيه فهو عنه راغب. وقد ورد أنه لا يزال الرجل عالما ما طلب العلم. فإذا ظن أنه عالم فقد جهل. لأن العلم بحر لا ساحل له.

قل للذي يدعي في العلم مـــــعرفة	علمـــــت شيئا وغابت عنك أشياء

وانظر إلى سيد الوجود صلى الله عليه وسلم فإنه عليه السلام قد علم علم الأولين والآخرين. ولم يصل إلى ما علمه صلى الله عليه وسلم أحد من المخلوقين. ومع ذلك فقد أمره الله تعالى بطلب الزيادة فقال تعالى: وقل ربي زدني علما[4]. وفي ذلك قيل:

عليك بالعــــلم ولــــــو	سموت فيــــه القومـــا
فالعلم لـــــم يُحِطْ بــــه	إلا الإلــــه حتمـــــــا
لو كان للغــــير اكتـــفا	بمــــــا دراه يومـــــا
ما قال ربـــي للنبـــــي	قل ربي زدني علمـــا

ولا شك وأن النفس إذا سمعت فضائل العلم الشريف فإنها تتوق إلى الاستظلال تحت ظله الوريف. وهذا هو السر في ذكر المبادئ العشرة المطلوب الإتيان بها أول الشروع في الفن الخصوصي المشروع فيه. لكون فضيلته وفائدته من جملتها. وما ذاك إلا ليحصل لطالبه الإنكباب عليه. ومن عرف ما قصد. هان عليه ما وجد. وقد أجمعت جميع الملل على تعظيم العلم وأهله. وكلهم مقر

---

[1]- سورة الزمر، الآية 5

[2]- مجمع الزوائد، للهيثمي (كتاب علامات النبوة) باب فضل قضاء الحوائج 9: 349 رقم 13706. مسند أبي يعلى (ثابت البناني عن أنس بن مالك) 6: 194 رقم 3481 رقم 3318 رقم 3373. كنز العمال، للمتقي الهندي (المجلد السادس) 1: 1192 رقم 16171.

[3]- سنن الدارمي (كتاب النبي صلى الله عليه و سلم) باب في فضل العلم والعالم رقم 337 رقم 340. سنن ابن أبي شيبة (كتاب الأدب) ما جاء في طلب العلم وتعليمه رقم 21860. المستدرك، للحاكم (كتاب العلم) 1: 169 رقم 318. مسند الشهاب القضاعي 1: 212 رقم 322.

[4]- سورة طه، الآية 114.

بفضله. لأنه من إرث النبوة التي لا تدرك بالكسب. وقد ورد في الحديث الشريف: العلماء ورثة الأنبياء[1]. إلا أنه إنما يناله من بذل فيه نفيس أوقاته. وجعله قوتا في حركاته وسكناته. وفي ذلك أقول:

العلم شـــيء كبيـــر	قد خلفتـــه النبـــوه
مـــا نالــــه ذو تـــوان	بجـــلولة أو بخلـــوه
وإنـــما نـــاله مـــن	تُرَى له فيــه صـــبوه
لو لم يكـــن باجتهـــاد	ينالـــه ذو الفتـــوه
ما قال ربــي ليحيـى	خذ الكـــتاب بقـــوه
فابذل نفيســك فـــيـه	يعطيك في المر حلـــوه

وأما من لم يجد في الطلب. ولم يسلك فيه الأدب. ورام فيه بلوغ الأرب. فهو إن حصل شيئا منه فمن العجب. وفي ذلك أقول:

أيا طالب العلم دم فـي الـطلب	ستحمد فيه جميــع التعـــب
فللعلم مرتبة فــي الـــعلا	علت في البرية كـل الرتــب
وأبوابه لـــيس يبلغهـــا	فتى لـم يلازم سلـوك الأدب
فلازمه تحظى بـــه والـذي	يجد لشيء يجـد مـــا طلب

ومنها أن العامة الذين لا يحضرون مجالس العلم غالبا إذا سمع البعض منهم بختم درس من الدروس العلمية فإنهم يحضرونه للتبرك. فإذا سمعوا فضائل العلم فإنه يحصل لهم بذلك لوعة واشتياق. وربما اشتغلوا باقتنائه بعد الإفتراق. فيحضرون المجالس العلمية. ويقومون على ساق الجد في تعلم أمور دينهم وتعليم أولادهم على وفق ما سمعوه من الفضائل. التي منها أن كل من اشتغل به لابد أن يحظى بحظ من طلبه إما في العاجل و إما في الآجل. وفي هذا المعنى قلت:

يا طالب العلـــم أبشـــر	بنيل خيـــر كثـــير
لابد مـــن فـــتح باب	لـــه وأجـــر كبــــير

وفي هذا المعنى أيضا:

لطالب العلم إمـــا الفتح يصحبه	أجر وإما حصول الأجر فــي الطلب
ما خاب طالبـه في نيـــل مقصده	يوما ولا سيما إن كــــان ذا أدب

[1]- سنن الترمذي ضمن حديث طويل (كتاب العلم) باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة رقم 2752. سنن الدارمي (كتاب النبي صلى الله عليه وسلم) باب في فضل العلم والعالم رقم 348. سنن أبي داوود (كتاب العلم) باب في فضل العلم رقم 3642. صحيح ابن حبان (باب الإعتصام بالسنة) ذكر وصف العلماء الذين لهم الفضل الذي ذكرنا قبل رقم 88. سنن ابن ماجة (باب في فضائل أصحاب رسول الله صلى الله عليه و سلم) باب فضل العلماء والحث على طلب العلم رقم 227.

وقد ذكروا أن العلم لابد أن ينتفع به صاحبه ولو لم يعمل به. لأنه غالبا في آخر الأمر يورث الخشية من الله تعالى. فلا تنكر فائدته وثمرته. وقد ورد في بعض الأحاديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأبي ذر: لأن تغدو فتتعلم بابا من العلم عملت به أو لم تعمل خير لك من أن تصلي ألف ركعة[1]. وفي العهود للعارف بالله سيدي عبد الوهاب الشعراني رضي الله عنه أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نبجل العلماء ولو لم يعملوا بعلمهم. ونقوم بواجب حقوقهم. ونكل أمرهم إلى الله تعالى. فمن أخل بواجب حقوقهم من الإكرام والتبجيل فقد خان الله ورسوله. فإن العلماء نواب رسول الله صلى الله عليه وسلم. وحملة شريعته وخدامه. فمن استهان بهم تعدى ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم هـ.

و قال أيضا أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه و سلم إذا لم نعمل بعلمنا أن ندل عليه من يعمل به من المسلمين وإن لم يكن ذلك يجبر خللنا على التمام. فإن من الناس من قسم له العلم ولم يقسم له عمل به. ومنهم من لم يقسم له واحد منهما كبعض العوام. وسمعت سيدي علي الخواص رحمه الله تعالى يقول: يتعين على كل من لم يعمل بعلمه أن يعلمه الناس ولمن يرجو عمله. وسمعته مرة أخرى يقول: ما ثم عالم إلا وهو يعمل بعلمه ولو بوجه من الوجوه ما دام عقله حاضرا. وذلك أنه إن عمل بالمأمورات الشرعية واجتنب المنهيات فقد عمل بعلمه بيقين إذا رزقه الله الإخلاص فيه. وإن لم يعمل بعلمه كما ذكرنا فيعرف بالعلم أنه خالف أمر الله فيتوب ويندم. فقد عمل أيضا بعلمه. لأنه لولا العلم ما اهتدى لكون ترك العمل بالعلم معصية. فالعلم نافع على كل حال. ويحمل ما ورد في عقوبة من لم يعمل بعلمه على من لم يتب من ذنبه هـ. وهو كلام نفيس وملخص ذلك أنه لا يشترط في كون الإنسان عاملا بعلمه عدم وقوعه في معصية كما يتبادر إلى الأذهان وإنما الشرط عدم إصراره على الذنب أو عدم إصراره على الإصرار.

وقال العلامة شهاب الدين القرافي من عمل بما علم فقد أطاع الله طاعتين. ومن لم يعلم ولم يعمل فقد عصى الله معصيتين. ومن علم و لم يعمل فقد أطاع الله سبحانه و تعالى طاعة و عصاه معصية. إهـ.. و عليه فالعلم حسنة. و ترك العمل به سيئة. والحسنة تذهب السيئة. كما قال تعالى: إن الحسنات يذهبن السيئات[2]. وتعلم العلم وتعليمه من نفس العمل بالعلم. فالعالم يصدق عليه أنه عامل بالعلم على كل حال. وغالب الناس يسول لهم الشيطان والنفس الأمارة ويقولان له بقاء الشخص على جهله خير له من علمه بلا عمل. فيترك ذلك من أجل غرورهما المفروغ في قالب النصيحة. وقد خاطبت بعضهم نفسه بذلك فتفطن لمكيدتها فقال:

قالت لي النفس لما صرت مشتغلا	بالعلم من بعد ما قد كنت ذا كسل
إني نصحتك فاعمل في الحياة بما	أردت تعلمه أو دعه يا أملي
فقلت يا مهجتي دعي الغرور بذا	إن التعلم والتعليم من عملي

---

[1]- سنن ابن ماجة (باب في فضائل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم) باب فضل من تعلم القرآن رقم 223 ، الترغيب والترهيب (كتاب العلم) الترغيب في العلم وطلبه وتعلمه رقم 116 (كتاب قراءة القرآن) الترغيب في قراءة القرآن في الصلاة وغيرها وفضل تعلمه وتعليمه والترغيب في سجود التلاوة رقم 2214، كنز العمال، للمتقي الهندي (المجلد العاشر) 1: 2014 رقم 29373 رقم 28762.

[2]- سورة هود، الآية 114

كان مجاهد رضي الله عنه يقول: طلبنا هذا العلم وما لنا فيه كبير نية. ثم رزق الله بعد فيه النية[1]. وقال الحسن البصري رضي الله عنه: كنا نطلب العلم للدنيا فجرنا إلى الآخرة. وقال أيضا طلب أقوام العلم ما أرادوا به الله وما عنده. فما زال بهم العلم حتى أرادوا به الله وما عنده[2]. وعقدته بقولي:

يا طالب العلم للدنيا الدنية في	حياته وعلى الإخلاص ما قدرا
قدم عليه فإن العلم منهجه	يفضي إليه ولا تكن به ضجرا

وكان سفيان بن عيينة رضي الله عنه يقول: قرأنا هذا العلم لغير الله، فأبى العلم أن يكون إلا لله[3]. وعقدت هذا أيضا في قولي وفيه جناس مع الإشارة إلى أنه لا ينبغي لطالب العلم أن تكون نيته فيه مقصورة على الدنيا. لأن ذلك من أفعال اللاهين عن الله عياذا بالله

طلبت العلم للدنيا	وهذا الفعل للاهي
ويأبى الله إلا أن	يكون العلم لله

وقد آن لنا أن نختم هذا المجلس الشريف بذكر بعض الأحاديث الواردة في فضل العلم الذي لا يخيب من استظل بظله الوريف، عسى أن يهدي الله لسلوك طريقته الناظر والمتكلم والسامع. و المأمول من المولى الكريم أن يرزقنا بفضله العلم النافع، إنه رب ذلك والقادر عليه. روى الشيخان وابن ماجة عن حميد بن عبد الرحمن قال: سمعت معاوية رضي الله عنه يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين. وإنما أنا قاسم والله المعطي، ولن تزال هذه الأمة قائمة على أمر الله لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله[4].

والتنوين في قوله خيرا للتعظيم والتكثير، أي خيرا عظيما، فلا يرد الإشكال الذي أورده بعض العلماء على ما يقتضيه عموم من الذي هو في قوة كل من يراد به الخير. إلخ. وهو أن كل من مات قبل البلوغ مومنا ونحوه قد أريد به الخير وليس بفقيه. وأجيب أيضا بأنه على حذف الصفة أي خيرا خاصا. وهو مفاد الأول أيضا في الجملة. وقال بعضهم: ممكن حمل الخير على الإطلاق. واعتبار من لم يتفقه في الدين منزلة العدم بنسبته إلى الفقيه في الدين. فيكون الكلام مبنيا على المبالغة. كأن مَنْ لَمْ يُعْطَ الفقه في الدين ما أريد به الخير. ومعنى يفقهه يجعله فقيها في الدين. والفقه لغة الفهم. قال القسطلاني: والحمل عليه هنا أولى من الإصطلاحي ليعم فهم كل علم من علوم الدين. ومن موصولة تضمنت معنى الشرط هـ. أقول: والموصول قد يعامل معاملة الشرط كما في التسهيل. ومنه قول الشاعر:

---

[1]- أنظر سير أعلام النبلاء للحافظ الذهبي (ترجمة مجاهد بن جبر) الطبقة الثانية من التابعين رقم الترجمة 542.

[2]- أنظر سنن الدارمي (كتاب النبي صلى الله عليه وسلم) باب من طلب العلم بغير نية فرد العلم إلى النية 1: 102 رقم 365.

[3]- أنظر إحياء علوم الدين، للإمام الغزالي (كتاب العلم) الباب الخامس في آداب المتعلم والمعلم، بيان وظائف المرشد المعلم 1: 79. ميزان العمل، للمؤلف نفسه، بيان وظائف المتعلم والمعلم في العلوم المسعدة ص 47

[4]- صحيح البخاري (كتاب العلم) باب من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين رقم 71 (كتاب فرض الخمس) باب قوله تعالى فإن لله خمسه وللرسول رقم 3048. صحيح مسلم (كتاب الزكاة) باب النهي عن المسألة رقم 2345.

ومن يحفرن بئرا يريد به أخـــــا	فإنـــه حقا فيه من دونــــــــه يقع
كذاك الذي يبغي على الناس ظالما	تصبه على رغم عواقب مــا صنــع[1]

وأخرج هذا الحديث أيضا أبو يعلي من وجه آخر ضعيف. وزاد فيه: ومن لم يفقهه في الدين لم يبال الله بـه[2]. وروى أبو نعيم في الحلية وابن عبد البر أن الحكمة تزيد الشريف شرفا وترفع المملوك حتى تجلسه مجالس الملوك[3]. والمراد بالحكمة الفقه. كما فسرت بها أيضا في قوله تعالى: يؤتي الحكمة من يشاء. ومن يوت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا[4].

وقد نبه هذا الحديث على ثمرة العلم في الدنيا. ومعلوم أن الآخرة خير وأبقى. وأخرج أبو نعيم أيضا من حديث ابن عباس رضي الله عنهما عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال :أقرب الناس من درجة النبوة أهل العلم وأهل الجهاد. أما أهل العلم فدلوا الناس على ما جاءت به الرسل. وأما أهل الجهاد فجاهدوا بأسيافهم على ما جاءت به الرسل[5]. وأخرج أبو داوود والترمذي وابن ماجة وابن حبان في صحيحه من حديث أبي الدرداء عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال:العلماء ورثة الأنبياء[6]. وفي بعض الروايات بزيادة يحبهم أهل السماء ويستغفر لهم الحيتان في البحر إذا ماتوا.

وأخرج أبو داوود عن أبي الدرداء رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له طريقا إلى الجنة وأن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضًى بما يصنع. وإن العالم ليستغفر له من في السموات والأرض حتى الحيتان في جوف الماء. وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكوكب. وإن العلماء ورثة الأنبياء. لم يخلفوا دينارًا ولا درهما. وإنما خلفوا العلم. فمن أخذه أخذ بحظ وافر[7]. وأي منصب يزيد على منصب من تشتغل ملائكة السماوات والأرض بالإستغفار له. فهو مشغول بنفسه. وهم مشغولون بالاستغفار له. وذلك أن العالم لما كان سببا في حصول العلم الذي به نجاة النفوس من أنواع المهلكات. وكان سعيه مقصورا على هذا. وكانت نجاة العباد على يديه جُوزِيَ مِنْ جنس العمل. وجعل من في السموات والأرض ساعيا في نجاته من أسباب الهلاك باستغفارهم.

وأخرج الخطيب في التاريخ من حديث الزبيدي عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: من تفقه في دين الله كفاه الله همه ورزقه من حيث لا يحتسب[8]. وفي رواية: من طلب العلم تكفل الله برزقه[9]. وأخرج

---

[1]- البيتان للتابعي الجليل أبي الأسود الدؤلي، من أبيات له قال في مطلعها:

إذا ضاق صدر المرء عن سر نفسه ففاض ففي صدري لسري متسع

[2]- أنظره في الترغيب والترهيب (كتاب العلم) الترغيب في العلم وطلبه وتعلمه رقم 100، مسند الشاميين 1: 240 رقم 430.

[3]- سبق تخريج هذا الحديث ضمن هذا الجزء ص

[4]- سورة البقرة، الآية 269

[5]- جامع الأحاديث والمراسيل (حرف الهمزة) 2: 50 رقم 3799، كنز العمال، للمتقي الهندي (المجلد الرابع) 1: 729 رقم 10647.

[6]- سبق تخريج هذا الحديث ضمن هذا الكتاب ص

[7]- سبق تخريجه ضمن حديث العلماء ورثة الأنبياء، أنظر ص

[8]- جامع الأحاديث والمراسيل (حرف الميم) 7: 172 رقم 21686

[9]- مسند الشهاب القضاعي 1: 244 رقم 391، جامع الأحاديث والمراسيل (حرف الميم مع النون) 7: 60 رقم 20869. الفتح الكبير في ضم الزيادة إلى الجامع الصغير (حرف الميم) 3: 210 رقم 12011.

الترمذي من حديث أبي أمامه وقال: حسن صحيح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: فضل العالم على العابد كفضلي على أدنى رجل من أصحابي[1]. فانظر كيف جعل العلم مقارنا لدرجة النبوءة. وكيف حط رتبة العمل المجرد عن العلم وإن كان العابد لا يخلو عن علم بالعبادة التي يواظب عليها. ولولاه لم تكن عبادة.

ذاك الذي بغير عـلم يعـبد	لا يصلح العمـل لكـن يفسد

وأخرج ابن ماجة من حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال:يشفع يوم القيامة ثلاثة الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء[2]. قال صاحب قوت القلوب بعد هذا الحديث من غير سند: فقدم العلماء على الشهداء لأن العالم إمام أمة. فله مثل أجور أمته. والشهيد عمل لنفسه.إهـ.. وقال في الإحياء بعده: فأعظم بمرتبة هي تلي النبوءة وفوق الشهادة مع ما ورد في فضل الشهادة[3]. وقال الشيخ مرتضى رحمه الله نقلا عن الإمام القرطبي: فأعظم بمنزلة هي بين النبوءة والشهادة بشهادة المصطفى صلى الله عليه وسلم[4]. ولما كان العلماء يحسنون إلى الناس بعلمهم الذي أفنوا فيه نفائس أوقاتهم أكرمهم الله تعالى بولاية مقام الإحسان إليهم في الآخرة بالشفاعة فيهم جزاء وفاقا. وقد أخذ بقضية هذا الخبر جمع فصرحوا بأن العلم أفضل من القتل في سبيل الله. إلخ.. وأخرج الطبراني في الأوسط وأبو نعيم من حديث أبي هريرة ورواه الترمذي وابن ماجة من حديث ابن عباس رضي الله عنهما عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: ما عبد الله بشيء أفضل من فقه في دين، ولفقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد، ولكل شيء عماد وعماد الدين الفقه[5]، وقد اقتبس من هذا بعضهم قوله فقال:

عليك بتحصيل العلوم ودركـها	وفي الفقه فـي الدين القويم فجاهد
فإن فقيها واحـدا دون مريـة	أشد على الشيطان مـن ألف عابد

وأخرج ابن عدي من حديث أبي هريرة وابن عبد البر من حديث ابن عباس عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: فضل المومن العالم على المومن العابد سبعون درجة. وفي رواية بزيادة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض[6]. وفي رواية: الله أعلم ما بين كل درجتين. وفي رواية: بين العالم والعابد مائة درجة بين كل درجتين حضر الجواد المضمر سبعين سنة. وفي رواية: فضل العالم

---

[1]- سنن الترمذي (كتاب العلم) باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة رقم 2755

[2]- سنن ابن ماجة (كتاب الزهد) باب ذكر الشفاعة رقم 4405، جامع الأحاديث والمراسيل (حرف الهمزة مع الواو) 3: 302 رقم 8783. الفتح الكبير في ضم الزيادة إلى الجامع الصغير (حرف الهمزة) 1: 470 رقم 4697. كنز العمال، للمتقي الهندي (المجلد العاشر) 1: 1981 رقم 28770.

[3]- أنظر إحياء علوم الدين للإمام الغزالي (كتاب العلم) الباب الأول في فضل العلم والتعليم والتعلم وشواهده من النقل و العقل 1: 12

[4]- تفسير القرطبي (سورة المجادلة) عند تفسيره لقوله تعالى يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات

[5]- مجمع الزوائد، للهيثمي (كتاب العلم) باب منه 1: 327 رقم 487. مسند الشهاب القضاعي 1: 150 رقم 206. سنن الدارقطني (كتاب البيوع) باب منه رقم 3044.

[6]- مجمع الزوائد، للهيثمي (كتاب العلم) باب في فضل العالم والمتعلم 1: 329 رقم 498. جامع الأحاديث والمراسيل (حرف الفاء مع الضاد) 5: 268 رقم 14772. مسند أبي يعلى (من مسند عبد الرحمن بن عوف) رقم 855. الفتح الكبير بضم الزيادة إلى الجامع الصغير (حرف الفاء) رقم 8151.

على المجتهد مائة درجة ما بين كل درجة خمسمائة سنة حُضْر الجواد المضمر[1]. والحضر بالضم وسكون الضاد نوع من أنواع سير الفرس. والمضمر هو الجواد للحضر والركض.

وأخرج الطبراني من حديث أبي موسى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: يبعث الله يوم القيامة العباد ثم يبعث العلماء ثم يقول: يا معشر العلماء إني لم أضع علمي بينكم إلا لحلمي بكم. ولم أضع علمي فيكم لأعذبكم. اذهبوا فقد غفرت لكم[2]. وفي رواية يقول الله عز وجل للعلماء يوم القيامة إذا قعد على كرسيه لفصل عباده: إني لم أجعل علمي وحكمي فيكم إلا وأنا أريد أن أغفر لكم على ما كان فيكم ولا أبالي. وقال صلى الله عليه وسلم من أحب أن ينظر عتقاء الله من النار فلينظر إلى المتعلمين. والذي نفس محمد بيده ما من متعلم يتخلف إلى باب عالم إلا كتب الله له بكل قدم عبادة سنة. وبنى له بكل قدم مدينة في الجنة. ويمشي على الأرض والأرض تستغفر له. ويمسي ويصبح وهو مغفور له. وتشهد له الملائكة هذا معتق من النار. فانظر إلى هذه المزية العظيمة التي ينالها طالب العلم من غفران ذنبه وشهادة الملائكة له بأنه معتق من النار. مع استغفار الأرض له وهو يمشي عليها. وبناء المدن له في الجنة. وأن له بكل قدم ثواب عبادة سنة. كل ذلك أقسم عليه سيد الوجود صلى الله عليه وسلم مع ما انضم إلى ذلك من الأحاديث التي تقدمت التي هي في حيز ما لم يذكر كنقطة من بحر. فكيف لا يشتغل العاقل بجمع هذه الذخيرة العظمى. التي يرتقي بها في الدارين للمقام الأسمى.

وقد نص العلماء على أن حضور المجالس العلمية من باب الهجرة إلى الله و رسوله ومن كانت هجرته إلى الله ورسوله. فهجرته إلى الله ورسوله. وكفى بذلك منقبة شريفة ورتبة. ولذلك كان أبو هريرة رضي الله عنه يقول: لأن أجلس ساعة فأتفقه أحب إلي من إحياء ليلة القدر[3]. وقال: تذاكر العلم بعض ليلة أحب إلي من إحيائها[4]. وفي الحديث الشريف: باب من العلم يتعلمه الرجل خير له من الدنيا وما فيها[5]. ويروى عن الحسن البصري رضي الله عنه: لأن أتعلم بابا من العلم فأعلمه مسلما أحب إلي من أن يكون لي الدنيا كلها في سبيل الله. وفي الحديث: حضور مجلس علم يكفر سبعين مجلسا من مجالس اللهو. وفي رواية أبي ذر: حضور مجلس علم أفضل من صلاة ألف ركعة. وعيادة ألف مريض. وشهود ألف جنازة. فقيل يا رسول الله وقراءة القرآن؟ فقال: وهل ينفع القرآن إلا بالعلم.

وهذه الأحاديث وإن تكلم العلماء في أسانيدها لكن بعضها يقوي البعض. وعلى كل حال فمن وفقه الله تعالى لحضور مجالس العلم فليحمد الله على ما أنعم به عليه من هذه النعمة العظيمة. وليجتهد في إخلاص النية إلى الله تعالى ليكون من الفائزين. وليعمل بما علم بقدر الإستطاعة ليورثه الله علم ما لم يعلم. ويكون من العلماء العاملين. ولا يتكل على مجرد سماعه لهذه الأحاديث الشريفة. فربما تكون كما قاله جمهور العلماء مقيدة بالعمل والإخلاص فيه. وإنما تذكرها مجردة لتشويق النفس مع

---

[1]- سنن الدارمي (كتاب النبي صلى الله عليه و سلم) باب في فضل العلم والعالم رقم 357.

[2]- الترغيب والترهيب (كتاب العلم) الترغيب في العلم وطلبه وتعلمه رقم 132

[3]- الترغيب والترهيب، للمنذري (كتاب العلم) الترغيب في العلم وطلبه وتعلمه رقم 137

[4]- مصنف الصنعاني (كتاب الجامع) باب العلم رقم 21531

[5]- قريب منه قوله صلى الله عليه وسلم: لَبَابٌ من العلم يتعلمه الرجل أحب إلي من ألف ركعة تطوعا. إهـ.. مجمع الزوائد (كتاب العلم) باب منه 1: 331 رقم 507.

حسن الرجاء كل عالم بلسان فيه. ولذلك قال في العهود المحمدية: جميع ما ورد في فضل العلم والعمل إنما في حق المخلصين فيه. فإياك يا أخي والغلط فإن الناقد بصير هـ. وقد عقدته في قولي:

فضيلة العلم حقا ليس يدركها ... إلا فتى مخلص في العلم والعمل
إياك من غلط يغر صاحبه ... فللنقود بصير غير منخذل

وقال في الحكم العطائية: العلم إن قارنته الخشية فلك وإلا فعليك[1]. وقد عقد شيخنا العلامة الرئيس سيدي الحاج عبد الكريم بنيس حفظه الله هذه الحكمة في قوله:

العلم إن قارنته خشية لك ما ... يفيد من شرف ورفعة النزل
أما الذي ليس فيه خشية فله ... عليك حجته باللوم والعذل[2]

وقد حكى الإمام القصار أن بعض الأفاضل قيل له في النوم

تعلم ما استطعت لقصد وجهي ... فإن العلم من سفن النجاة
وليس العلم في الدنيا بفخر ... إذا ما حل في غير الثقاة
ومن طلب العلوم لغير وجهي ... بعيد أن تراه من التقاة

ومع هذا فلا ينبغي للعامة أن ينظروا للعالم الذي يرونه منكبا على الدنيا مع اشتغاله بالعلم بعين النقص والازدراء. فإن ذلك يعود عليهم بالوبال وخسارة الدارين عياذا بالله تعالى. والواجب عليهم هو نظر العلماء بعين التعظيم والإحترام. وإنما التوفيق بيد الله. قال السنوسي رضي الله عنه في شرح كبراه: الإنتفاع بالعلم بيد الله. وليس بين العلم والعمل ربط عقلي. لأن هذا لا يقدح في وجوب العلم ولا في شرفه. وليس العلم هو الذي حمل العالم على المخالفة حتى يقدح في شرفه هـ. وقد ورد في الحديث عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: من عظم عالما فإنما عظم الله ورسوله. ومن تهاون بعالم فإنما ذلك استخفاف بالله ورسوله. وقال عليه السلام: ثلاث لا يستخف بهم إلا منافق. ذو الشيبة في الإسلام. وذو العلم. وإمام مقسط[3]. وقال عليه السلام: ليس منا من لم يجل كبيرنا. ويرحم صغيرنا. ويعرف لعالمنا حقه[4]. ومن علامة الساعة أن يحقر الصغير الكبير. ولا يوقر الجاهل العالم. وقد وجد على عرش بلقيس ما معربه:

ستأتي سنون هي المعضلاة ... يراع من الهرعة الأجدل

---

[1]- الحكم العطائية الكبرى رقم الحكمة 233

[2]- أنظر الواضح المنهاج في نظم ما للتاج للعلامة سيدي عبد الكريم بنيس ص 90

[3]- الترغيب والترهيب (كتاب العلم) الترغيب في إكرام العلماء وإجلالهم رقم 174، مصنف ابن أبي شيبة (كتاب الجهاد) ما جاء في الإمام العادل رقم 28297.

[4]- مجمع الزوائد، للهيثمي (كتاب العلم) باب في معرفة حق العالم 1: 338 رقم 532 (كتاب الأدب) باب توقير الكبير ورحمة الصغير. إلخ.. 8: 33 رقم 12610. كنز العمال، للمتقي الهندي (المجلد الثالث) 1: 445 رقم 5980.

وفيها يهين الصغير الكبـــيـر   وذو العـــــلم يسكته الأجهل[1]

عنه صلى الله عليه وسلم قال: يهتز العرش لثلاث، لليتيم إذا ضرب، وللغريب إذا ظلم، وللعالم إذا حقر. وقال صلى الله عليه وسلم: من وقر عالما فقد وقر ربه[2]. ولا شك وأن المتعلم شريك في الفضل مع العالم فيجب تعظيمه أيضا. وقد ورد عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: العالم والمتعلم شريكان في الخير. وسائر الناس همج لا خير فيهم[3]. وقال اغد عالما أو متعلما أو مستمعا أو محبا ولا تكن الخامس فتهلك[4]. والخامس هو المبغض للعلم وأهله. ولا يبغضهم إلا من لا خير فيه. ومن نظم سيدنا علي كرم الله وجهه يمدح العلم وأهله :

الناس من جهة التمثيل أكفـــــاء   أبــــوهم آدم والأم حــــــــــواء
وإن يكن لهم فــي أصلهم شرف   يفاخـــرون بــه فالطين والمـــاء
ما الفخر إلا لأهل العلــم إنهـــم   على الهدى لمن استهـدى أدلاء
ووزن كل امرئ ما كـــان يحسنه   والجاهلون لأهل العلــم أعـداء
ففز بعلم ولا تجـهل مواضعــــه   فالناس موتى وأهل العلم أحيـــاء

والحاصل أن العلم أفضل شيء به يعتنى. وأجل ذخيرة للمعاد تقتنى. لا سيما إذا انظم العَمَلُ إليه. ولم يتكل في نيل فضل الله عليه. فنسأل المولى الذي عظمت نعمه. وتعاظم فضله وكرمه. أن يرزقنا علما نافعا. وقلبا خاشعا. ويصلح أحوالنا. ويخلص أعمالنا. وأن لا يكلنا إلى غيره طرفة عين. وأن يكون لنا ولجميع المسلمين في الدارين. وأن يغفر لنا ولوالدينا. ولمن له حق علينا. ولجميع الأحباب الغائبين والحاضرين لدينا. وينظر جمعنا هذا بعين الرضى الذي لا سخط بعده. والحمد لله وحده. ولنختم مجلسنا هذا بما ورد عنه عليه الصلاة والسلام أنه ما جلس أحد في مجلس فكثر فيه لغطه. فقال قبل أن يقوم من مجلسه سبحانك ربي ظلمت نفسي وعملت سوءا فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت. إلا غفر الله له ما فعل في مجلسه.

---

[1]- ذكرهما الدميري في كتابه حياة الحيوان الكبير، الجزء الثاني، باب حرف الهاء (الهزبر) وذكرهما أيضا العلامة المعافى بن زكريا في كتابه الجليس الصالح والأنيس الناصح، وزاد إليهما بيتا ثالثا وهو:
ترى الشيخ يلقي العصا طائعًا   ويمشي عليها الفتى الأرجلُ
أنظر كتاب الجليس الصالح والأنيس الناصح، للمعافى بن زكريا (المجلس السابع والأربعون) أبيات وجدت على سد مأرب.

[2]- قريب منه ما جاء في الحديث عن عمار بن أبي عمار، أن زيد بن ثابت رضي الله عنه ركب يومًا، فأخذ ابن عباس رضي الله عنهما بركابه، فقال له: تنح يا ابن عمِّ رسول الله، فقال له: هكذا أُمِرْنَا أن نفعل بعلمائنا وكُبرائنا. فقال زيد رضي الله عنه: أَرِنِي يَدَكَ، فأخرج يَدَهُ، فَقَبَّلَهَا، فقال: هكذا أُمِرْنَا أن نفعلَ بأهل بيت نبيِّنا. إهـ.. أنظر جامع الأحاديث والمراسيل 19: 481 رقم 15189. كنز العمال، للمتقي الهندي (المجلد الثالث عشر) 1: 2722 رقم 37061.

[3]- سنن ابن ماجة (باب في فضائل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم) باب فضل العلماء والحث على طلب العلم رقم 232. مجمع الزوائد، للهيثمي (كتاب العلم) باب في فضل العالم والمتعلم 1: 328 رقم 493. مسند الشهاب القضاعي 1: 188 رقم 279.

[4]- مجمع الزوائد، للهيثمي (كتاب العلم) باب في فضل العلم والمتعلم 1: 328 رقم 495. جامع الأحاديث والمراسيل (حرف الهمزة مع العين) 2: 6 رقم 3447. الفتح الكبير بضم الزيادة إلى الجامع الصغير (حرف الهمزة) 1: 204 رقم 2050. كنز العمال، للمتقي الهندي (المجلد العاشر) 1: 1981 رقم 28730.

وأخرج الشيخان مرفوعا: من قال سبحان الله وبحمده في يوم مائة مرة حطت خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر[1]. وفي الترغيب والترهيب لسيدي عبد العظيم المندري: من قال سبحان الله وبحمده مائة مرة كتبت له مائة ألف حسنة وأربعة وعشرون ألف حسنة[2]. وفي الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه: كلمتان حبيبتان إلى الرحمن. خفيفتان على اللسان. ثقيلتان في الميزان. سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم[3]. فلنذكرها في هذا المجلس مائة مرة. اغتناما لهذا الفضل العظيم. من الرب الكريم. فنقول سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم. إلخ.. سبحان ربك رب العزة عما يصفون. وسلام على المرسلين. والحمد لله رب العالمين. وكان الفراغ بحمد الله العظيم زوال يوم السبت حادي عشر شعبان المعظم. عام سبعة وعشرين وثلاثمائة وألف. من هجرة من أكرمه الله بأكرم وصف. صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين. والحمد لله رب العالمين.

---

[1]- صحيح البخاري (كتاب الدعوات) باب فضل التسبيح رقم 6258. صحيح مسلم (كتاب الذكر والدعوات) باب فضل التهليل والتسبيح رقم 6793.

[2]- مجمع الزوائد، للهيثمي (كتاب الأذكار) 10: 98 رقم 16835. الترغيب والترهيب (كتاب الذكر والدعوات) الترغيب في التسبيح والتكبير رقم 2375. كنز العمال، للمتقي الهندي (المجلد الثاني) 1: 246 رقم 3869.

[3]- صحيح البخاري (كتاب الدعوات) باب فضل التسبيح رقم 6259 (كتاب الأيمان والنذور) باب إذا قال والله لا أتكلم اليوم فصلى أو قرأ أو سبح أو كبر أو حمد أو هلل فهو على نيته رقم 6534 (كتاب التوحيد) باب قوله تعالى ونضع الموازين القسط ليوم القيامة رقم 7397. صحيح مسلم (كتاب الذكر والدعوات) باب فضل التهليل والتسبيح رقم 6796.

الغنيمة الباردة
في ترجمة سيدنا الوالد وسيدتنا الوالدة

للعلامة سيدي أحمد سكيرج رضي الله عنه

تحقيق ذ محمد الراضي كنون
الإدريسي الحسني

الغنيمـــة البـــاردة[1]
في ترجمة سيدنا الوالد وسيدتنا الوالدة

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، يقول كاتبه عبد الكريم ابن مؤلف هذه الترجمة رحمه الله و رضي عنه: إن سيدنا الوالد كان أخَّر مقدمة هذا التويلف إلى أن ينتهي من جمع ما أراد إثباته فيه. فلم يتيسر له ذلك. ولهذا أبتدئ كما يلي:

وقد استعملت أرجوزة ضمنتها ترجمة سيدنا الوالد المتوفى قرب عصر يوم الأحد رابع جمادى الثانية عام 1328هـ رحمه الله واقتصرت فيها على النزر اليسير من أحواله، ولا بأس بذكرها هنا بنصها، وهي هذه:

حمدا لمن هو العلـي الله الأحـد ... وهـو المهيمن القوي الله الصمد
ولم يلـد ولم يكـن مـن ولـــد ... ولم يكـن كفؤا لـــه مـــن أحد
ثم صلاته على الهادي الرسـول ... وآلــه وصحبــه أهـل الوصول
ورضـــي الله عـن الاتبـــاع ... ووالـدي المجـد فـي الانتفـاع
ورحم الله الـذي لـي قد دعـــا ... مع والـــدي ولنفعنـــا سعـــي
وبعد فالمقصود من هذا الرجـز ... ذكرى لترجمـة والـدي الأعـز
نظمته لغرض لــي قد عــرض ... أداؤه علــيّ حـــق مفتــرض
ولم أرد بـــه تبجحـــا ولاً ... فخرا بـه على سواه في المـــلا
والله أرجوا أن يـديم نفعـــه ... وأن يحلـي في العيون صنعـــه
فيقتفـــي أثـــري الأبنـــاء ... فــي حفظ مـا خلفــه الأبـــاء
وها أنا ذا شارع في نظم مـــا ... قصـدته وبـــالقبول ختمـــا

نشـــأتــه

قد نشا الأرضى أبـي العيـاشي ... عند أبيـــه في ثيـــاب جـــاش
وناظرا لـــه بنظرة الرضـــى ... ولم يكن بفعلـــه معترضـــا
لأنه يسرّه مـــــــا سرّه ... مبدلا باليسر منـــــه عسره
وهكـــذا نشـــأ مع والـــده ... طبق الذي يتلوه من شاهـــده
ولم يزل معتنيـــا بأمـــره ... وسامعـــا لنهيه وأمـــره
وصرف الوجهـة في تعليمـــه ... بـــكـل ما دل على تعظيمـــه
وكان أول بنيـــه الأحيـــا ... مخصصـــا من بينهم بأشيـــا

[1]- يعود تاريخ نظم هذه الأرجوزة إلى نفس السنة التي توفي فيها والده و هي سنة 1328 هـ_1910م. ومن البديهي أنه كتبها بمدينة طنجة، إذ أنه لم يعد لفاس إلا في مطلع السنة الموالية لها 1329 هـ_1911م. و اغتناما للنفع فقد أضاف نجل المؤلف الأديب سيدي عبد الكريم سكيرج لِهذه الأرجوزة بعضا مما يناسبها من قصائد والده ذات الصلة بالموضوع نفسه.

فحفظ البعض من القرءان   وفاق بالذكاء في الأقران
ثم تولع بصنعة أبيه   وفاق فيها عنده كل نبيه
فعاش والدي بكدّ يده   برفع همة لنيل قصده
معلما إخوته مما علم   وجمعهم من التصنع سلم
ولم يدع والدي الدروسا   مع شغله الذي وقاه بوسا
فقرأ العلم على شيوخ   فيه لديهم قدم الرسوخ
وكان يهوى العلم والأعلاما   وفي ذراهم نشر الاعلاما

ترجمة شيخه الفقيه
سيدي محمد بن الهاشمي[1]

وكان عمدة أبي ابن الهاشمي   مفيد كل جاهل وعالم
أخبرني عنه أبي بأخبار   دلت على مقامه في الأحبار
وكان شيخا من شيوخ التربيه   يشفي بسره العيوب القلبيه
وكان من عادته في التعليم   حل العبارة لأجل التفهيم
وكان يختصر بالرموز   ما عدّ من مفاتح الكنوز
مقربا بالرمز بعض الأحكام   مع مسائل بكل إحكام
حتى غدت بذلك العوام   نفعهم من أجل ذاك تام
ووالدي لازمه زمانا   ففاق في زمانه الأقرانا
وأنه النور المحمدي الذي   بيده أخذ خير مأخذ
عليه قد أخذ علم الفقه مع   ما جاء في سير خير متبع
و لا يفارق حضور درسه   في أي وقت فيه طيب نفسه
فكان من بين العشأين له   درس من الفقه الذي حصله
وكان يحضر لديه في السير   بعد صلاة العصر في وقت غبر
وذاك أن الشيخ قال يوما   مالي أرى لا يحضروني قوما

[1]- المراد به العلامة الفقيه سيدي محمد بن الهاشمي السلاوي، توفي سنة 1322 هـ، أنظر ترجمته في إتحاف المطالع لابن سودة 1: 362. موسوعة أعلام المغرب 8: 2837.

سمعت عنهم من المساوي ... حضورهم بمجلس الفراوي[1]
هيا بنا غد لسرد الواقدي[2] ... فضمنه عجائب المشاهد
هيا بنا فنقرأ الكلاعي[3] ... أولى من الجمع بلا انتفاع
فحضروا لديه بعد العصر ... وظفروا منه بشرح الصدر
وبعدما استجلب بعض الحاضرين ... بذكره معارك المجاهدين
فانتقلوا من الخرافات إلى ... معرفة الأخبار مما نقلا
وهكذا الشيوخ يعملونا ... لرفع قدر من يعلمونا

ترجمة شيخه الفقيه سيدي الحاج محمد كنون[4]

وكان يحضر لدى كنون ... شيخ الجماعة أبي الفنون
وهو الرضى محمد بن المدني ... صاحب الاختصار[5] والدر السني
كان أبي منوها بقدره ... وما به يفيض بحر صدره
وقال لي لم تر عيني مثله ... في الحفظ والسر الذي حصله
وكان من أحواله في درسه ... يغيب في إملائه عن حسه
والناس كلهم له قد سلموا ... وفضله بين الجميع يعلم
ووالدي حضر في مجالسه ... وكم تلقى عنه من نفائسه
يحضرها بعد صلاة الصبح ... وفاز من حضورها بالربح
حدثني عنه بما أبرى العليل ... وما به أبرد غلة الغليل

---

[1]- محمد بن الفضل الصاعدي الفراوي فقيه محدث من أهل نيسابور و بها كان مولده سنة 441 هـ. له مؤلفات مفيدة منها المجالس الملكية في الوعظ و التذكير. توفي سنة 530 هـ. أنظر ترجمته في الأعلام للزركلي 6: 330. معجم المؤلفين، لكحالة 11: 127. إيضاح المكنون، للبغدادي 2: 249. هدية العارفين، للمؤلف نفسه 2: 87. شذرات الذهب، لابن العماد 4: 96.

[2]- محمد بن عمر الواقدي من أقدم المؤرخين في الإسلام. من مصنفاته المغازي النبوية. و فتح العجم. وفتح إفريقية. و أخبار مكة. و كتاب صفين. و مقتل الحسين. و فتوح الشام. و غيرها. توفي سنة 207 هـ. أنظر ترجمته في الأعلام، للزركلي 6: 311. معجم المؤلفين، لكحالة 11: 95_97. تاريخ بغداد 3: 3_21. ميزان الإعتدال للذهبي 3: 110_111.

[3]- سليمان بن موسى الكَلَاعي محدث الأندلس و بليغها في عصره. له مؤلفات كثيرة. توفي سنة 634 هـ. أنظر ترجمته في الأعلام، للزركلي 3: 136. معجم المؤلفين، لكحالة 4: 277. شذرات الذهب، لابن العماد 5: 164. تذكرة الحفاظ، للذهبي 4: 202_204. كشف الظنون، لحاجي خليفة 2: 1706. فهرس الفهارس، للكتاني 1: 488_489 رقم 280.

[4]- سبق التعريف به ضمن الجزء الأول من هذه الرسائل.

[5]- المراد به اختصار حاشية الرهوني على مختصر خليل.

ترجمة شيخه الفقيه
سيدي التهامـــي كنون[1]

وبعده بسيدي ابن رحمـــــــون	حضر في درس التهامي كنـون
وكم حضرت مع والدي بـــــــه	وما ارتويت من لذيذ شربـــــه
وكان والدي له معظمـــــــــا	منوها بشأنـــــه في العلمـــــا
وعنه قد أخذ علما جمـــــــــا	فيه لنا ضرب منه سهمـــــــا
فكـــــان والدي يبث فينـــــــا	مما استفاده هدى يقينــــــــا

[1]- فقيه محدث مدرس. من أعلام مدينة فاس. ينسب إلى أسرة أولاد كنون. أحد أبرز البيوتات العلمية بالمدينة المذكورة. و الثابت في نسب هذه الأسرة أنهم شرفاء حسنيون من نسل القاسم بن المولى إدريس الثاني باني مدينة فاس. كما أنهم ذووا صلة عميقة بأبناء عمومتهم القاطنين بقبيلة بني مستارة. و ذلك حسبما وقفت عليه من عقود و تقاييد و ظهائر عديدة. أما المترجم فقد اشتغل منذ السنين الأولى من عمره بطلب العلم. فأظهر فيه نبوغا عظيما و نجابة غير معهودة. و قد أسهمت في تكوينه نخبة من كبار علماء فاس إذ ذاك. في طليعتهم شقيقه العلامة الشيخ سيدي محمد بن المدني كنون. و هو عمدته.
و بانتهاء فترة تحصيله تصدر مترجمنا للتدريس بأكابر مساجد فاس. لا سيما منها جامع القرويين المبارك. فكان ممتعا في تدريسه. جوهري الصوت. حسن الصورة. تأتي الناس لحضور مجالسه العلمية من الحومات البعيدة. نظرا لسلامة أسلوبه الذي يقوم على تبسيط المعنى و تسهيل الشرح و تقريبه أكثر ما يمكن للأذهان.
و له مؤلفات كثيرة منها: إرشاد المسافر للربح الوافر. و أربعون حديثا في فضل الجهاد. و أربعون حديثا في فضل الصلاة على النبي صلى الله عليه و سلم. و أربعون حديثا في فضل حج بيت الله الحرام. وأربعون حديثا في الزكاة. و أربعون حديثا في فضل صيام رمضان و قيامه بإخلاص و نية. و أربعون حديثا في فضل الصلاة و المحافظة عليها و آدابها في وقتها و في الجماعة. و أربعون حديثا في فضل يوم الجمعة و بركاتها المذخرة لهذه الأمة المحمدية. و أربعون حديثا في فضل الهيللة. و قرة العيون بشرح نظم ابن يامون في آداب النكاح. و هدية المحبين إلى ذكر مولد سيد المرسلين. و تعليق على كتاب الشفا للقاضي عياض سماه: المنهل الصافي. و تعليق مختصر على كتاب الموطأ سماه: أقرب المسالك. و تعليق على صحيح الإمام البخاري. و آخر على صحيح مسلم. و إرشاد الخلائق لآداب زيارة منبع الحقائق. إلى غير ذلك من مصنفات أخرى.
توفي بفاس بتاريخ يوم الخميس 7 رجب عام 1331 هـ_12 يونيه 1913م. و دفن بالقباب خارج باب الفتوح. بجانب قبر أخيه العلامة الشيخ محمد بن المدني كنون.
أنظر ترجمته في إتحاف المطالع، لابن سودة 2: 404. دليل مؤرخ المغرب الأقصى، للمؤلف نفسه 1: 183 رقم 694. معجم الشيوخ، لعبد الحفيظ الفاسي 1: 127_128 رقم الترجمة 53. معجم المطبوعات المغربية، للقيطوني 66_68 رقم 166. الأعلام، للزركلي 6: 65. الدرر البهية و الجواهر النبوية، للفضيلي 2: 370. مختصر العروة الوثقى، للحجوي 53. موسوعة أعلام المغرب 8: 2876. معجم المطبوعات، لسركيس ص 717. الأعلام الشرقية 2: 271. معجم المؤلفين، لكحالة 9: 139. الدر المكنون في التعريف بالشيخ جنون، للمشرفي 110. إتحاف الأعيان بأسانيد العرفان، للعلامة سيدي حسن مزور 32. معلمة المغرب 20: 6833.

ترجمة شيخنا الشريف مولاي
إبــراهيم اليـــزيدي[1]

وكان يحضر أبي بمجلــــــــس	مولاي إبراهيم محيي الأنفـــس
وهو الشريف العلوي اليزيـــدي	مزود المريد بالمزيــــــــــــد
وكان والدي به مشغوفـــــــــا	وقد غدا بسره معروفـــــــــا
ألزمنا الحضور في مجالســـــه	لنقتني النفيس من نفائســـــــه
وكم أخذنا عنه من علـــــــــوم	مع الخصوص ومع العمـــــوم

[1]- فقيه أديب مدرس. من أعلام مدينة فاس. و بها نشأ في عفاف و صون. تحت ظل والده الذي كان شديد الإهتمام بتربيته. عميق الحرص على تكوينه أحسن تكوين. فحفظ القرءان الكريم حفظا متقنا. متفننا في استظهاره رسما و ضبطا و تجويدا و غيره.
ثم تفرغ بعد ذلك لطلب العلم بجامع القرويين بفاس. فأخذ به عن جماعة من أكابر فقهاء ذلك الحين، كمحمد بن عبد الرحمان الفلالي. و محمد بن المدني كنون. و محمد بن عبد الواحد بن سودة. و أحمد بن أحمد بناني كلا و غيرهم.
و لم يبلغ العشرين من عمره حتى تمكن في علوم مختلفة. و بلغ شأوا عظيما في الفقه و الحديث و السيرة. و علوم الآلة و الأدب. و قد ساعده على ذلك ما كان يتمتع به من ذكاء خارق و مؤهلات نادرة.
و لدى انتهاء فترة تحصيله اتجهت رغبة مترجمنا نحو التدريس. فقطع في هذا الصدد أشواطا بعيدة. تميز خلالها بسعة اطلاعه. و قوة عارضته. و رسوخ علمه. مما سمح له بالظهور البين بين كافة العلماء المتصدرين للتدريس بالقرويين. و تخرج به جم غفير من الطلاب. و قد وقفت ببعض وثائقه الخطية على جرد بأسماء الكثير من هؤلاء. و هو أول مجيز للعلامة أحمد سكيرج ضمن شيوخه الذي يناهز عددهم السبعين شيخا. كما له تقاريض على كثير من كتب تلميذه المذكور. منها تقريضه على كتاب منهل الورود الصافي. و ذلك بقصيدة فائية افتتحها بقوله:

شرح الصدر شرح شاف يوافي	من بديع العروض صنع القوافي
و تحلى بعقد حمر اليواقيـــــــــــــــــــــــت	به فخر جيد عاطل شافي

إلى أن يقول فيه:

حسن الوضع متقن الصنع يسلـــي	بضروب المغاني قلب المصافي
رائق الرصف فائق الوصف يملي	باللآلي الحسان جيب الموافـــي

و مما خاطبه به تلميذه المذكور قوله:

ألا أيها البدر المنير الذي سما	سماوات إجلال على كل ذي علــــــــو
و يا أيها الدر العزيز نظيـــره	لمستحسن الإخلاص في الحضر و البدو
تقلدنا من يم فضلك منــــــــة	جزاك المرجى للقبول و للعفـــــــــــو
و زادك عزا دائما و جلالـــــة	يفوق سناها البدر في أفق الجـــــــــو
عليك أيا بدر التمام تحيــــــة	من الله ما بين الورى فضلكم مــــــروي

و لا يفوتنا التنبيه على أنه من أعلام الطريقة التجانية. و له شرح على صلاة جوهرة الكمال في مدح سيد الرجال. توفي يوم الإثنين 3 رمضان المعظم عام 1322هـ_11 نونبر 1904.
أنظر ترجمته في قدم الرسوخ، للعلامة سيدي أحمد سكيرج رقم الترجمة 13. فهارس الشيوخ لصاحب قدم الرسوخ، للمؤلف نفسه (مخطوط خاص). تطبيب النفوس بما كتبته من بعض الدروس و الطروس، للمؤلف نفسه (مخطوط خاص). نسمات الأسحار في نظم الأشعار، للمؤلف نفسه (مخطوط خاص). موسوعة أعلام المغرب 8: 2835. إتحاف المطالع، لابن سودة 1: 360.

والفضل في ذاك لوالدي الــذي صيره لنــا أجل منقـــــــذ

بيان معارفــه وفنونـــه

كان أبي يتقن علم التوحيـــــــد مؤيدا فيــــه بكل تأييــــــــد
وكان عارفا بعلم الفقه مـــــع بعض النوازل التي بها انتفـــع
لاسيما مسائل الأحكــــــام وجل ما ينزل بالحكـــــــــام
فإنه له التضلع القــــــوي وما به نهج نهجه الســـــوي
وكان يتقن فرائد الحســـــاب وكان يحسن فرائض الكتـــاب
وكان ذا علم بفن الألغـــــاز بنوع إطناب ونوع إيجـــــاز
وكان عارفا بفن الملحـــــون وفيه قد زاحم أهل المـــوزون
له قصائد من الأزجـــــــال في الوعظ قد تمت بحسن الحال
وشهدت له شيوخ الموهـــوب بأنه قد نال فيه المطلــــــوب
من بعد ما قارع منهم من قـــرا ومن به في الشعرا تصـــدرا
ولم يكن يميل للبطالـــــــه بل ألزمته نفسه أشغـــــاله

حرفــتـــه الطــرازية

تقلب الوالد في بعض الحـــرف من صغر لكبر بها احتـــــرف
من بعد ما تعلم القـــــراءه وسدد الله بهـــــــا آراءه
ولم يكن مع العيال عالـــــه على أبيه عند ضعف الحالـــه
فكان في حرفته ممتـــــازا على سواه قد غدا طـــــرازا
وهو صبي لا يميل للكســـل ولا يمل في القيام بالعمــــل
مشمرا عن ساعد الجد بمـــا صيره لغيره معلمـــــــــا
وكان مالكا لأمر نفســــــه منذ صباه في رياض أنســـه
وقد حكى لي أنه له وقـــــع في حالة الصغر ما به انتفـــع
مما به آدابه قد كملــــــت بعد امتحان نفسه التي علـــت
فقال لي كنت بشغلي قانطـــا يوما فقمت كي أصير ناشطـــا
وقد غدوت لرياض زاهـــره والنفس مني بالسرور ظــافره
فعن لي أن أرتقي لشجـــره عالية رأيت فيها ثمـــــره
وقد رأيتها بغصن عـــــال والنفس في الصغر لا تبالــي
ثم علوت فوق تلك الأغصــان والقصد دركها بما في الإمكــان
وكنت في ذاك المحل وحـــدي والنفس لاتردني عن قصـــدي
وبعد ما قطفتها التفـــــت إذ حية رقطاء منها خفـــت
قد قصدتني من غصون الشجره فأطلقت يداي تلك الثمـــــره
ثم سقطت من علو في فـــزع و ليس عندي في الحياة من طمع
و قد سقطت بين جدري دوحتين رأسهما كالسيف ماضي الجهتين

خرجت من بينهما بتعـــــــب ولم يصب ذاتي أدنى عطــــب
فقمت قاصدا محل شغلــــــي والرأس مني بمصابي يغلــــي
وكان هذا دون نصف ساعــــه وقع لي من تركي الصناعــــة
فقلت سبحان الذي نجانـــــي من الردى وكنت فيه الجانـــي
ولم أخاطر بعد ذا بنفســـــي ولا تركت عملي ودرســـــي

تعاطيه لحرفة التجارة

وقد تعاطى حرفة التجـــــارة وشد في مدتهـــــــا إزاره
فصار عاملا بها وصـــــرع نفسا إلى الخيربها قد ســـارع
كانت به تقوى على التقوى ومـا مال إلى مال عليه حرمـــــا
مقابلا حرفته بالجــــــــــد فيها وقد وقف عند الحـــــد
وكان يحضر مجالس العلــــوم وقت الفراغ ونفى عنه الغمــوم
فاكتال من أسرارها بالأوفــــى وهو روى منها المعين الأصفى
وكل من قد عرفوه شهـــــدوا له بفضل دائما لايجحـــــد

خطته التوكيليـــة

وقد تعاطى حرفة الوكالـــــــه وأجرها قوى به اتكالــــــــه
قام مقام كل من وكلـــــــــه مقام صدق في الذي أم لـــــه
ولم يزل مناضلا في الحــــق يهدي لم من ضل بين الخلـــق
وكل من لم ير حقا معــــــــه يرشده لمـــا بــه نفعـــــه
يقول مالك من الدعوى التـــي تقيمها غير العنا والمحنـــــة
فإن صغى لقوله وأقلعـــــــا عما أراد لم يزل منتفعـــــا
وربما أعرض عن إشارتـــــه فلام نفسه لدى خسارتـــــــه
فكان في المحكمة الشرعيـــــه يبدي لأحكام لها مرعيـــــة
ويقطع اللدد من أهل اللـــــدد وسالكا مع الخصوم للســـدد
فقصدته الناس في القضايـــا وعنهم قد دافع الرزايـــــا
وكم لناس رفض التوكيـــــلا حين رآهم حاولوا التنكيـــلا
ولم يحاب أحدا في الحــــق وكان نفعه بقول الصـــدق
حتى لقد عجب منه الخصمـــا ولم يزل مقاله مسلمـــــا
وهو وإن لم يك ممن أدرجـــوا في طبقات علما تخرجـــوا
فهو له باع طويل في العلـــوم به الخصوص انتفعوا مع العموم
وكم قضايا انعقدت فحلهـــا ولم يكن سواه يدري حلهـــا
وكان مقصودا لدى النـــوازل معتمد القول لدى المحافـــل
وذاك بعد حجه البيت الحـــرام وعوده لنفس فاس باغتنـــام
وقد دعا الله به أن يجعـــلا مصالح الناس لديه مسجـــلا

فكان من نتائج الدعـــــــاء أن كان مقصودا للإهتـــــداء
يقصده البعيد والقريــــــــب لأن رأيه هو المصيــــــــب

جهاده في الإسبان

وجاهد الوالد في الإسبــــــان عام خروجه إلى تطـــــوان[1]
ولم يقصر في مطاردتهـــــم ومنهم كم قاد من قاداتهـــــم
مازال يلقاهم بكل معتـــــرك وفيهم كم من مصائب تـــــرك
وقد أصيب بين من أصيبـــوا وكلهم في نصره مصيــــــب
وبعد ما أصابه جـــــــراح وعظمت من فقده الأتـــــراح
جاء إلى مواقع القتلى أبـــوه مع فتية من قومه فطلبـــوه
فوجدوه بينهم كالميــــــــت فحملوه وهو في تثبــــــت
ثم شفاه الله بعد مــــــــده وكان ما كان لديهم بعــــــده
والأمر لله الذي كل الأمـــور بيده لدى الورود والصـــدور
وكم تعاهده برء جرحـــــــه بألم حتى ارتقى في صرحـــه[2]

حجه لبيت الله الحرام

حج أبي من بعد ما تزوجـــــا ولم يكن بزوجه مبتهجـــــا
وكان ماله الذي حج بـــــــه من كد نفسه وخير كسبـــــه
ومعه أصحب بعد السلعـــــه ببيعها بمصر نال نفعـــــــه
وباشر البيع بنفسه ولــــــم يحتج لغيره لما به ألـــــــم
وقد أتم الحج بالزيــــــاره وعاد وهو حائز بشـــــاره
وبعد ما رجع فارق التـــــي كان تزوج بها في نعمـــــة
لأنها ما أحسنت في العشـــره وارتاح من فراقها بالمـــــره
واستحسنت فراقها والدتـــــه ولم تضق عن سعة مائدتــــه
وبعدها تزوج الفيلاليـــــــه أم أخي ذى الرتبة الاجلاليـــه
ثم تزوج أبي بأخــــــــرى فنال بين زوجتيه الســـــرا
ثم تزوج أبي بأمــــــــــي بإذن جدي بعد موت عمـــي[3]

---

[1]- للتوسع في هذا الموضوع أنظر الجزء الأول من هذه الرسائل حيث ترجمنا له فيه بإسهاب.
[2]- صرحه: ضريحه و قبره.
[3]- المراد به السيد الحاج محمد بن عبد الرحمن سكيرج، أخو سيدي العياشي صاحب الترجمة، توفي إبان شبابه عام 1294 هـ، و خلف ابنا اسمه محمد، و ذلك من زوجته السيدة (فروح) التي تزوجها بعد ذلك أخوه الحاج العياشي، فكان أول ما أنجبت له من الأبناء العلامة القاضي سيدي أحمد سكيرج.

زهده في الخدمات المخزنية

كان أبي معظما للمخـــزن ... لأنه به انجلاء الفتـــن

ولا يميل قلبه لفتـــان ... خرج في الأوطان عن ذي سلطان

وما تولى والدي في خطـــه[2] ... ولم يضع على الخطايا خطـــه[1]

وكم دعته الخدمات وهـــو لا ... يقبلها لأنه عنها ســـلا

وما تعلق بغيـــر الله ... لنيل شيء عند أولى الجـــاه

ومن عجيب ماله قد وقعـــا ... وكان فيه قصده نيل الدعـــا

فقال لي خرجت مع جماعـــه ... خارج فاس بين أولي الطاعـــه

لما أتى السلطان مولانا الحســن[3] ... أول مرة لها بعد الفتـــن

وخرج الناس إلى لقيـــاه ... مؤملين لهم رضـــاه

وسار والدي مع الذي معـــه ... لجهة الجيش الذي قد تبعـــه

فصادفوا السلطان في الطريـــق ... منفردا عن ذلك الفريـــق

فنزل الوالد عما ركبـــه ... مستعملا مع الأمير أدبـــه

ثم تقدم له ورفعـــا ... يديه يطلب له منه الدعـــا

فرفع السلطان في الحين يديـــه ... ووالدي مؤمن منه لديـــه

وبعدما فرغ من دعائـــه ... رجع بالأدب من ورائـــه

وسار والدي ولم يطلب ســـوى ... دعائه طبق الذي منه نـــوى

فعجب السلطان من حال أبـــي ... إذ لم يزد على الدعا من طلـــب

وأمر السلطان بعض الخـــدام ... أن يسألوه ما اسمه ومـــا رام

فتبع الخادم في الحين أبـــي ... وقال ماسمك وهل من طلـــب

فقال والدي أنا عبـــد الله ... ومقصدي الدعا وقد تـــولاه

فالله ينصر أمير المؤمنيـــن ... فارجع إليه ولتعش في الأمنيـــن

فقال للوالد ذاك الخـــادم ... ماسمك كي يسدي لك المكـــارم

فقال والدي أنا مالي طلـــب ... وليس لي تشوف إلى الرتـــب

---

[1]- الخط: الكتابة، و المعنى أنه لم يسبق له أن زاول شيئا من الخدمات و الحرف الساقطة، و لا وضع توقيعه عليها.

[2]- خطة: مفرد خطط، و المراد بها الوظائف المخزنية.

[3]- المراد به السلطان المولى الحسن الأول، توفي ليلة الخميس 13 ذي الحجة الحرام عام 1311 هـ، ودفن بالرباط بضريح جده السلطان سيدي محمد بن عبد الله، أنظر ترجمته في إتحاف المطالع، لابن سودة 1: 322_323. إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس 2: 115_549. الدرر الفاخرة، للمؤلف نفسه 97. الإستقصا، للناصري 9: 128_209. موسوعة أعلام المغرب 8: 2797_2798. الأعلام، للزركلي 2: 220_221.

فرجع الخادم وهو معجـــــــب بحاله وحق منه العجـــــــب

محبتــه لأهــــل الله
وبغضــه للإنكار عليــهم

قد كان والدي يحب الأوليـــــا ولم يزل بهديهم مقتديـــــــا
وكان فيه لهم حسن اعتقــــاد ولا يميل للذي فيه انتقــــــاد
ودأبه التسليم والتفويـــــض ولم يكن له بهم تعريـــــض
وفيهم حببنا من الصغــــــر بما حباه الله من حسن النظـــر
وكيف لايحبهم وهم هـــــم قد انجلى بربهم همهـــــــم
وهو المحارب لمن عاداهـــم وهل نجا في الخلق من آذاهـــم

تحذيره من الدنيا وعدم ثقته بها

كان أبي يعرف حال الدنيـــــا وحال من باهوا بها في العليـــا
فكان منها دائما على حــــذر محذرا منها ببدو و حضـــــر [1]
وقال لي أني أرى الدنيا التــي بها النفوس عن هداها ضلـــت
كأنها عجوزة ضاع لهـــــا ولدها الوحيد بين من لهـــــا
وعينها التي بها تبصر فـــي وسط رأسها ومكرها خفـــي
تمشي فتعثر فتقبض علـــى من عثرت فيه برفق في المـــلا
تظنه ولدها الوحيـــــدا وعنه بين القوم لن تحيـــدا
ثم تضمه لصدرها وقـــد حنت عليه باشتياق قد وقـــد
ولم تزل ترفعه في الخلـــق بين يديها للعلى بالرفـــق
وهي تظن أنه ولدهـــــا وهو في غفلته يحمدهـــــا
حتى إذا أعلته فوق رأسهـــا وقد سقته في الهوى بكأسهـــا
ونظرت له ولم تجـــــده ولدها وهي لم تلـــــده
رمت به من فوق رأسها إلـــى مهواة تهلكته منجـــــدلا

[1] - إشارة لقوله صلى الله عليه و سلم: يا جرير أحذركم الدنيا، و حلاوة رضاعها، و مرارة فطامها. إهـ.. أنظر جامع الأحاديث و المراسيل (عبد الله بن عباس رضي الله عنهما) 20: 107 رقم 15770. كنز العمال، للمتقي الهندي (المجلد الثالث) 1: 590 رقم 8601.
و كذلك لقوله صلى الله عليه و سلم: الدنيا سجن المؤمن و جنة الكافر. إهـ.. صحيح مسلم (كتاب الزهد والرقائق) باب منه رقم 7366.
و رحم الله الشاعر ابن عبد ربه إذ يقول:
ألا إنما الدنيا غضارة أيكـــة إذا اخضَرَّ منها جانبٌ جفَّ جانب
هي الدار ما الآمال إلَّا فجائــعٌ عليهَا و لا اللذاتُ إلا مصائــبُ
فلا تكْتَحِلْ عينَاكَ منها بعبــرةٍ على ذاهبٍ منها فإنَّك ذاهــبُ
فكم أسخَنَتْ بالأمس عيناً قريرةً و قرَّت عيونٌ دمعُهَا اليومَ ساكبُ

تمت تعثر بغيره وقـــــــــــد ظننتـه أنه الوحيد المفتقـــــــــد
ترفعه لرأسها بشـــــــــــوق ثم به ترمي بغير رفـــــــــق
ولم تزل ترفع مخفوضا وتـــــر مي بالرفيع من علاه للممـــــــر
فلا يغرك ابتسام الدنيـــــــــا في وجه من فيها ارتقى للعليـــا

وقوفـــه مع ماحد له شرعا

وكان والدي محافظا علـــــــى ما حده الشارع منذ عقـــــــلا
وكان يحتاط لأمر الديـــــــن ولم يكن يعمل عن تخميـــــن
يقف في الأمور حتى يعلمــــا ماالله فيهن به قد حكمـــــــا
وكان يعمل على التأنــــــــي وليس يعمل على التمنـــــــي
ولم يكن بجده مقنطـــــــــا ولا بهزله يرى مفرطـــــــــا
ولم تزل تغبطه الســـــــادات وهو له انحرقت العــــــادات

عـــــادتــه مع أهلـــه

كان أبي له ثلاث نســـــــــوه به لهن تمت الفتـــــــــــــوه
كان لهن خير راع للذمــــــام وخير راعب لهن بمــــــــلام
يصفح عن هذي وهذي وهو فــي إنصافه من ضرهن قد كفـــــي
ولم يزل بين الجميع عــــادلا لم يخش في نصرة حق عـــاذلا
وكلهن ائتلفت قلوبهـــــــن به وعنهن انتفت كروبهـــــن
كن على قلب بما عاملهـــــن به وكلهن قد جاملهــــــــن
ولم يزلن في اتحاد بينهـــــن حتى أبان الدهر عنه بينهـــن
وكان آخرتهن الوالـــــــــده ذات الصلاح والصلات العائده
وهي التي في بيتها وافتــــــه وفاته وبالرضى كافتـــــــــه
قامت له بأكمل البـــــــرور في عمره عمته بالســـــــرور
وأيدته في أمور دينــــــــه وهي اليسار حل في يمينـــــه
وقد أعانته على دنيـــــــاه ودينه طبق الذي يرضـــــــاه
فكان يشكر جميل برهـــــــا وبكمال عقلها وسرهـــــــــا
ووافقته أكمل الوفـــــــاق في كل إنفاق بلا نفـــــــاق
يسرها إنفاقه اليسيـــــــــر كما يسر غيرها الكثيـــــــر
وكان لا يبخل بالموجـــــود لهمم قضت لـــه بالجـــــود
همته مصروفة في الخيـــــر وصرفه في أهله والغيــــــر
ومن عجيب حاله أن فسخـــا شركة كانت له وقت الرخـــــا
كانت له مع بعضهم وحاسبـوه فتم ربحهم بما قد جلبـــــوه
فناب كل واحد من ربحـــــه ما زاد بين الناس في فرحــــه
ووالدي قد كان أنفق الـــذي قد نابه من ربحه بالمأخـــــذ

فقال بعض الشركاء لأبـــــي وكان موصوفا بحســـن الأدب
يا أيها الرجل إني مشفـــــق عليك فيما أنت منه تنفـــــق
نحن ربحنا خير ربح ونــــرى جميع ما ربحته ما ادخــــرا
وذاك مما أنت في العيـــــال تنفقه من كثرة الأمـــــوال
وأنت في حال الرخا المساعــد لك مع الربح بلا معانـــــــد
فياترى لو ضاق رأس المـــال ولم يكن ربح مع الإقـــــلال
والوقت وقت فتنة وشــــــده وفيه يفقد الرشيد رشـــــده
ما أنت صانع مع التعـــــدد من نسوة ولست بالمقتصـــــد
فالتفت الوالد في الحين إليـــه ولم يكن مجترئا قبل عليـــه
وقال قول ثابت الإيمــــان معترفا بفضل ذي الإحســـان
انظر إلي وإلــــى أولادي ومن أنا أخصهم بالـــــزاد
فمن وجدت رزقه لديـــــك فاقطعه في الحين وما عليـــك[1]
مالي ومالك وأنت حــــزت جميع حظك الذي ربحـــت
وها أنا ذا قد فسخت الشركـــه بينكم يا من يخاف التهلكـــه
فقال ما قصدي غير نصحـــك حيث صرفت أنت كل ربحـــك
فابق على ما كنت فيه أنـــت من عمل فيما لنا قد صنـــت
فقال لا وحق رازق العبـــاد مالي بعد اليوم فيكم اعتقـــاد
ولتنظروا الرزق الذي يأتينـــي على يدي من هو في تأمينـــي
فخجل الشريك من مقالـــه وفيه أثر نفوذ حالـــــــه
وتاب في الحين على يديـــه من قوله ولم يعد إليــــــه
وفتح الله على الوالد فـــــي دنياه وهو مطلق التصـــرف
موسعا لأهله في النفقـــــه وشاكرا فضل الذي قد رزقـــه
يعجبه أن يدخل الســــرور عليهم ويشرح الصـــــدورا
وكان يذخر قوت العــــام مع اتكاله على العـــــلام
وقصده اطمئنان نفس أهلـــه بذاك مهما غاب عن محلـــه
فانظر إلى صدق اعتقاد الوالـــد وفي ادخاره له مقاصـــــد
ولا ينافي الإذخار الإتكـــال عند الذي يعرف مقصد الرجال

---

[1]- إشارة لقوله تعالى: الله يبسط الرزق لمن يشاء، سورة الرعد، الآية 26.
ورحم الله الشاعر البحتري إذ يقول:

إذا ما كان عندي قوت يوم طَرَحْتُ الهَمَّ عني يا سعيدُ
ولم تخطر هموم غد ببالي لأن غدا له رزق جديـــدُ

عــادتـــه مــع أولاده الذكـور

قد كان والدي رقيق الطبـــــع ... بين بنيه حاكما بـــالشـــرع
مراعيا لهم جميع الحركــــات ... مبينا لهم بها كل النكــــات[1]
مختبرا أحوالهم في كل يـــوم ... وربما أيقظهم من بعد نـــوم
يحب تعظيم الصغير للكبيـــر ... منهم و تكريم الكبير للصغيـــر
يشكر منهم مستحق الشكـــر ... منورا بذاك كل فكـــــر
محافظا على تنافسهـــــم ... بينهم دون تعـــاكسهـــم
لا سيما في حالة القـــراءه ... فإنه يجعلهـــــم إزاءه
يحثهم على أداء الصلـــوات ... في وقتها بين ذكور و بنــات
ويصحب الذكور معه للجمـــع ... ولا يحب لومهم في مجتمـــع
لكن يلوم منهم المقصــــرا ... لينتهي ويرعوي من حضــرا
ويكتفي في حالة التأديـــب ... بذم فعل السوء بالترهيـــب
وفي الغذاء والعشاء والفطـــور ... جميعهم مع حضوره حضـــور
يقول أكل الجمع فيه بركــــه ... والقصد في مؤنه المشتركـــه
ويتفقد شؤون شغلهـــــم ... وحالهم في جدهم وهزلهـــم
يرشدهم لكثرة التكـــرار ... خوفا من النسيان عند القــاري
ويظهر الفرح في حفظـــهم ... محافظا فيهم على وعظهـــم
عودهم ترك الفضول في الكــلام ... وغض طرفهم بجمع ذا احتشــام
عودهم منه جميل الصمــــت ... بين الأفاضل وحسن السمــت
عودهم أن يجلسوا بـــأدب ... ولا يسامح لهم في الكـــذب
عودهم أن يخرجوا من حضـرته ... إن ينبسط مع غيره بنظرتـــه
عودهم أن يقبلوا عليه فـــي ... خطابه لهم بلا تكلـــــف
عودهم من صغر لثم يـــده ... وكم بذاك غرفوا من مــــدده
عودهم برورهم بأمهـــــم ... مع القيام بحقوق قومهـــم
عودهم ترك الخصام واللـــدد ... وترك كل سفه في كـــل دد
عودهم كيف مداراة الـــورى ... مع التمشي في الأمام والـــورا
عودهم زيارة القبـــور ... صباح يوم الجمعة المشكـــور
عودهم صلاة يوم الجمعــــه ... مع الجماعة ويمشون معــــه

---

[1]- تماشيا مع قوله صلى الله عليه و سلم: ما نحل والد ولده أفضل من أدب حسن. إهـ.. مسند الشهاب القضاعي 2: 251 رقم 1295. جامع الأحاديث و المراسيل (حرف الميم مع الألف) 6: 305 رقم 18934. مشكاة المصابيح، لابن حجر الهيثمي (كتاب الأدب). الفصل الثاني 8: 711. منتخب عبد بن حميد 1: 141 رقم 362. الفتح الكبير في ضم الزيادة إلى الجامع الصغير (حرف الميم) 3: 125 رقم 10975.

عاداتـــــه مع بناتـــــه

عودهن خفض صوت في الكـلام ... مع الجلوس في وقار واحتشـــام
عـــــودهن نهضة في العمـــــل ... مع التأني واجتناب الكســـــــل
عـــــودهن عدم الخـــــــروج ... وفي العلا ارتقين للبـــــــروج
عودهن الصدق في الأقـــــوال ... وما به يشكرن من أحـــــوال
عودهن الشكـــــر لليسيـــــــر ... مع عدم الطغيان بالكثيـــــــر
عودهن الصبر في الملمـــــات ... وكيف يسعين إلى المهمـــــات
عودهن تركهن الغيبــــــــــه ... والبعد عن موقف كل ريبـــــه
عودهن ود كل الإخـــــــــوه ... مع قيـــــامهن بالفتـــــــوه
عودهن الود للجيـــــــــران ... وعدم الجفاء للأختــــــــان
علمهن الإقتصاد في الصـــــدور[1] ... وفي الورود مع توسط الأمـــور
علمهن أحسن التدبيـــــــــر ... والترك للتكثير في التقتيـــــر
علمهن ألطف المعاشـــــــره ... لمن لهن تجمع المعاصـــــره
علمهن أدب التربيـــــــــه ... مع تحلي الصورة القلبيــــــه
علمهن كيف يجلبن الســــرور ... وكيف يدفعن عوالم الشــــرور
علمهن شعب الإيمـــــــــان ... محذرا لهن من أيمـــــــــان
مكلفا بأمرهن أمهـــــــــن ... حتى تعلمن الذي قد همهـــــن
فكن من خير البنات الصالحـات ... ومن أماثل النساء الناجحـــات

---

[1]- إشارة لقوله صلى الله عليه و سلم: الإقتصاد في النفقة نصف المعيشة، و التودد إلى الناس نصف العقل، و حسن السؤال نصف العلم. إهـ.. مجمع الزوائد للهيثمي (كتاب العلم) باب حسن السؤال و التودد 1: 395 رقم 727. جامع الأحاديث و المراسيل (حرف الهمزة المحلى بألف) 3: 447 رقم 9701. مشكاة المصابيح، لابن حجر الهيثمي (كتاب الآداب) الفصل الثالث 8: 795. الفتح الكبير في ضم الزيادة إلى الجامع الصغير (حرف الهمزة) 1: 507 رقم 5055. كنز العمال، للمتقي الهندي (المجلد الثالث) 1: 415 رقم 5434.
و كذلك لقوله عليه السلام: ما عال من اقتصد. إهـ.. مسند الإمام أحمد (مسند عبد الله بن مسعود) رقم 4266. مجمع الزوائد (كتاب الزهد) باب الإقتصاد 10: 443 رقم 17848. جامع الأحاديث و المراسيل (حرف الميم مع الألف) 6: 263 رقم 18635. الفتح الكبير في ضم الزيادة إلى الجامع الصغير (حرف الميم) 3: 96 رقم 10676.

عاداتـــــه مع الأضيـــاف

كان أبي يفرح بالأضيـــــــاف[1] وورد ودهم لديه صـــــــاف
فيكثر الإنفاق مهما جـــــاءوا إلى محله ولا يستـــــــــاء
يقول مرحبا بكم ويظهــــــــر لهم بشاشة إذا ما حضـــــروا
فإن تكلموا صغى للقـــــــول مؤيدا لهم بغير هـــــــــول[2]
ولم يزل مؤنسا لهم بمــــــــا فيه سرور لهم معظمـــــــــا
مقابلا خدمتهم بنفســــــــــه ولم يزل يتحفهم بأنســـــــــه
حتى يسيروا شاكرين فضلــــه متوجين منه بالتجلـــــــــــه
يلزمنا الأدب معهم إن حضــــر وأن نغض في المعايب النظـــر
حتى غدونا نكرم الأضيـــــاف لا سيما الأعلام والأشـــــراف
وذاك من شدة الإعتنـــــــاء من والدي بهم بلا ريـــــــاء
والولد الأصلي يتابع أبـــــــاه بطبعه وإن أبى منه هـــــواه

عادتـــــه في معاملته مع الأصهار والأقارب

كان يعامل الأقارب بمـــــــــا به غدا من بينهم مقدمـــــــــا
يقابل الأصهار بالمجاملـــــــه وعنهم ما قطع المواصلـــــــه
وملزما لنفسه بالإنصـــــــاف وملجما لها بترك الإخــــــلاف
فكان في بناته أزواجهـــــــن على رؤوسهن منهم تاجهـــــن
قمن بحقهم بأحسن قيـــــــام بما به ألزمهن باحتـــــــرام
وكان يوصيهن باحتمال مــــا يرين من أزواجهن دائمـــــــا
مع الملاطفة في المعاشــــره مع كل من جمعت المعاصـــره
ولم يكن يخاصم الأصهــــارا إذا ابنة شكت له الأضــــرارا
وربما لزوجها ينتصــــــــر ولا بحبها عليه تنتصـــــــر
وحاله مع بناتـــــه جــــرى كحاله مع زوج أخته يـــــرى

---

[1]- تماشيا مع قوله صلى الله عليه و سلم: من كان يومن بالله و اليوم الآخر فلا يؤذ جاره، و من كان يومن بالله و اليوم الآخر فليكرم ضيفه، و من كان يومن بالله و اليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت. إهـ.. صحيح البخاري (كتاب الأدب) باب إكرام الضيف و خدمته إياه رقم 5993.
و من أفضل ما قيل من الأشعار في هذا الصدد قول سيف الدولة الحمداني:
منزلنا رحب لمن زاره نحن سواء فيه و الطارق
و كل ما فيه حلال لـه إلا الذي حرمه الخالـــق
و كذلك قول بعضهم:
يا ضيفنا لو زرتنا لوجدتنا نحن الضيوف و أنت رب المنزل

[2]- يقال أن من تمام الضيافة الطلاقة عند أول وهلة. و إطالة الحديث عند المؤاكلة، و من هذا القبيل قول الشاعر عاصم بن وائل:
و إنا لنقري الضيف قبل نزوله و نشبعه بالبشر من وجه ضاحك

فكان في أصهاره محترمـــــا وبالحياء منه كل أكرمـــــا
وهكذا أصهارنا كانوا معــــه قلوبهم في حبه مجتمعــــه
وهكذا قد كانت الأقـــــارب في وده صفت لهم مشــــارب
ويتحبب لمن منهم جفـــــاه ويتجنب الذي يعصي الإلـــه

عاداتـــه في تحمله إساءة جيرانـــه

كان أبي يسامح الجيرانــــا[1] فيما به آذوه منذ كانــــا
يغضي عن الإساءة العيونـــا وقد أزاح عنهم الشجونـــا
وكلهم عاملهم بالرفـــق مؤيدا لهم بنهج الحـــق
يبدأ بالسلام منهم من لقـــي مع التأدب وحسن الخلـــق
ومع ماله من التواضـــع يرفع نفسه عن التخـــادع
فلا يخادع ولا يخـــادع وكم حسود بينهم قد صـــانع
وكم تحمل من الإســـاءه ولم يواخد منهم من ســـاءه[2]
مدافعا عنهم بقدر الإمكـــان ونافعا لهم بجلب الإحســـان
و إن أصيب أحد منهم بمـــا يكرهه كشف عنه الألمـــا
و لا يوالي منهـــم غير الولي ولا يعادي غير ذى الشر الجلي
فكل من رآه منهم فاجـــرا غدا له إن لم يهاجر هاجـــرا

عادتـــه في رياضة نفســـه في الخلوة والجلوة

قد كان والدي لدى الرياضـــه يقصد في نزهته رياضـــه
فهو في فصل الربيع يخـــرج لخارج البلد وهو أبهـــج
وغالبا يخرج في العشيـــة منفردا أو مع خير جلـــة

[1]- تماشيا مع قوله صلى الله عليه و سلم: التمسوا الجار قبل الدار، و الرفيق قبل الطريق. إهـ.. مجمع الزوائد (كتاب البر و الصلة) باب ما جاء في الجار 8: 300 رقم 13534. جامع الأحاديث و المراسيل (حرف الهمزة مع اللام) 2: 69 رقم 3957. كنز العمال، للمتقي الهندي (المجلد الخامس) 1: 3120 رقم 41495.
و كذلك لقوله عليه السلام: ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه. إهـ.. صحيح البخاري (كتاب الأدب) باب الوصاة بالجار رقم 5876. صحيح مسلم (كتاب البر و الصلة و الآداب) باب الوصية بالجار و الإحسان إليه رقم 6639.
[2]- لسانه حاله في ذلك قول الشاعر حاتم الطائي:
بعيني عن عورات جاري غفلة و بالسمع مني عن حديثهما وقر
و من هذا المعنى قول الإمام علي كرم الله وجهه: ليس حسن الجوار كف الأذى، بل الصبر على الأذى. إهـ.. من حديث طويل له. أنظر جامع الأحاديث و المراسيل (مسانيد الصحابة) حرف الياء 18: 253 رقم 8611. كنز العمال، للمتقي الهندي (المجلد السادس عشر) 1: 3323 رقم 44226.

ثم يعود بنشاط نفـــــــــــس مع انبساط من بساط الأنــــس
وفي المصيف والخريف ربمـــا قصد بالأهل لروض قد سمـــا
وفي المزاح معهم لا يفـــــرط ولم يكن في أمرهم يفــــــرط
وإن خلا بنفسه أكثر مـــــــن ذكر بقلب ولسان قد أمـــــن
ويتفقد أمور نفســـــــــــه بنفسه كأنه في درســـــــــه
وغاية الأمر فإن والـــــــدي حاز كمالات برغم الحاســـــد

عادتــــه في الصحــة

في حالة الصحة كان والــــدي يصرف منه الوجه للمحامـــد
فيغنم الصحة والفراغ مــــن شغل لتحصيل الذي به أمـــن[1]
يعمر الأوقات بالعبــــــاده وكثرة الذكر بخرق العـــــاده
لم ينس حظه من التمتــــــع مع المحافظة بالتـــــــورع
ولم يزل في حال صحة يـــرد موارد الخير بجد المجتهـــد
بهذه الحلة قد عرفتــــــــه ولا غلو في الذي وصفتـــــه

عادتـــه في المرض

وإن ألم بأبي ملـــــــــــم فإنه بحالـــه يهتـــــــــم
ولا يلازم الفـــــــــراش إلا في سقم عليه قد تجلـــــى
وقلبه بربه معلـــــــــــق في حالة فيها المريض يقلـــق
وكل من في سقمه قد عــــاده يرى لديـه منه خرق العـــاده
بجده في حالة الثبــــــات محسنا في ربه النيـــــــات
محافظا على أداء الصلـــوات في وقتها وهو ثقيل الحركـــات
وحيث لا يضبط وقتها يســـل عنه ولا يشغله عنها عمـــل
ويتعاطى للشفا الأسبابـــــا وفاتحا في وجهه الأبوابـــا
مدافعا عن قلبه ما يشغلـــــه ومخلصا في كل شيء يعملـــه

عادتــه عند نزول الحوادث بـــه

يفزع والدي إلى مـــــولاه في كل ما عراه أو دهــــــاه
فيكشف الله البلاء عنـــــــه وكل خير فهو يأتـي منـــــه

[1]- تماشيا مع قوله صلى الله عليه و سلم: نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة و الفراغ. إهـ. صحيح البخاري (كتاب الرقاق) باب ما جاء في الرقاق و أن لا عيش إلا عيش الآخرة رقم 6225.
و رحم الله الشاعر أبا العتاهية إذ يقول:
إن الشباب و الفراغ و الجده مفسدة للمرء أي مفسده

وكان والدي له الصبر الجميــل[1] ولم يكن لغير مولاه يميــــــل
والصبر عند الصدمة الأولى لــه فضل وللعبد هو الأولى لــــــه
ما زال يظهر رضاه بالقضــــــا حتى ارتدى ردا القبول والرضا

عادته إذا رأى جنازة أو سمع بها

كان إذا مرت به جنـــــــازه يرجو له ثم لها المفــــــــازه
وغالبا يتبعها لا سيمـــــــــا إن تك من حومته مستسلمـــــا
ولم يزل متعظا في يومهـــــا مسارعا إلى عزاء قومهـــــا
وإن تكن من قومه الجنــــازه ملك نفسه بصبر حــــــازه
ويقتدي بــه أجل قومــــــه ويختشي من والدي ولومــــه
يقول إن الصبر خير من جزع لا نفع في الجزع والصبر نفــع

عادته في زيارته للقبور

كان أبي يزور قبر الوالديـــــن قبل زيارة قبور الصالحيـــــن
يزورهم في كل يوم جمعــــــه وغالبا يصحب جلنا معــــــه
يبتدئ الدعاء بالســــــــلام عليهم في ذلك المقــــــــام
ثم لنا يفتح بعض الســــــور نقرؤها جهرا بذاك المحضـــر
ونرفع الأكف في الختـــــــام مع الدعاء لذوي الإســـــلام
وربما فرق منه صدقـــــــات حال مرورنا ببعض الطرقــات

عاداتـــه في أفراحـــه

يسلك في أفراحه التوسطـــــا ولا يحب أن يرى مفرطـــــا
فيعمل العوائد المحمـــــــوده لجبره الخواطر المنكـــــوده
ويكره المغنيات في الفــــــرح ككرهه للنائحات في التـــــرح
ولم يزل محارب العوائـــــــد في أهله وهو لهم مجاهـــــــد
حتى غدت تكرهها نفوسهـــــم وأذعنت بها له رؤوسهــــــم
وكان يرشد إلى التوســـــــط في كل أمر وهو غير غلـــــط
مؤولا قول ذوي الإنصـــــاف منازل الأشراف في الأطــراف

---

[1]- تماشيا مع قوله صلى الله عليه و سلم: الصبر مفتاح الفرج. إهـ. الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة، للسيوطي (حرف الصاد المحلى بالألف) 1: 196 رقم 297.
و كذلك قوله عليه السلام: الصبر معول المسلم. إهـ. الترغيب و الترهيب، للمنذري (كتاب الجنائز و ما يتقدمها). الترغيب في الصبر سيما لمن ابتلي في نفسه أو ماله، و فضل البلاء و المرض و الحمى، و ما جاء فيمن فقد بصره 4: 140 رقم 5148.

فالعربي مخاطر بنفســــــه فيها لكي يعظم عند جنســــه
والقصد من توسط الأمــــــور[1] حيث التطرف من الغــــرور
فالعبد بالغلط يغدو ملكـــــا ومثله العابد يغدو ملكـــــا
وانظر لأمة نبي الحــــــق كيف تعد وسطا في الخلــــق
ولازم الوالد هذي الحالـــــه فلم يطل في عمره آمالـــــه
ولم نجاوز في الأمور حـــدا وما اعتدى بها ولا تعـــدى
فكان في الإنفاق غير مســرف ولم يكن على الردى بمشــرف

عاداتــــه في الأعيـــاد

كان أبي في سائر الأعيـــــاد يكثر في الإنفاق لـــــلأولاد
أما بعيد الفطر فهو يخـــــرج بنفسه الفطرة ثم يخـــــرج
وذاك من بعد صلاة الفجــــر قبل طلوع شمس عيد الفطـــر
يخرج للصلاة بعد فطـــــره ولو قليلا لاكتساب أجـــــره
يصحبنا إلى المصلى معـــــه ثم يعود مرضيا مجمعـــــه
يجمع أهله عليه للهنـــــا ومنهم بوده ينفي العنـــــا
ولا يحب فطرة تؤخـــــر في داره وهو بها لا يشعـــر
فان رآها لم يدعها ولهـــــا يخرج في الحين لمن سلمهـــا
وهكذا في عيد يوم الأضحـــى لكن فطره يرى إن ضحـــى
من كبد الأضحية التي لــــه لسنة وأجرها حصلـــــه
وبعد ذاك يصل الأرحامـــــا ونحن معه نغنم الإكرامـــــا
ثم نعوذ ظافرين بالســـــرور لدارنا والأهل مشروحوا الصدور
وهكذا في موسم الميـــــلاد وهو لديه أفضل الأعيــــاد
يكثر في ليلته من الثنـــــا على النبي في سناء وسنـــا
صلى عليه الله كل حيـــــن مع كل تابع له في الديـــن

[1]- تماشيا مع قوله صلى الله عليه و سلم خير الأمور أوساطها. إهـ.. الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة للسيوطي (حرف الخاء) 1: 163 رقم 226.
و من هذا المعنى قول الشاعر أبي العلاء المعري و قد أجاد:
فإن كنت تهوى العيش فابغ توسطا فعند التناهي يقصر المتطـاول
تُوَقّى البدورُ النقصَ و هي أهلـة و يدركها النقصان و هي كوامل

عاداتـــــه في يوم عاشوراء

يكثر في الإنفاق في عاشـــورا ... منورا لأهله الصـــــــــدورا[1]
موسعا عليهم المضايــــــــق ... ولهم كل سرور سائـــــــــق
محافظا على الذي فيهـــا ورد ... ولو يكون ذاك في ضعف السند
يقول من أصلح فيها أمـــــره ... ينال طول عامه المســــــره
ولم يزل يأخذ بالخواطـــــــر ... فيها لكل غائب و حاضـــــــر
ويخرج الزكاة فيها بعد مـــــا ... يحصي جميع ما لديه أبهمـــــا
ويشتري الأواني الجــــديده ... فيها مع التبخرة المفيـــــــده
ويلبس الجديد فيها كيف مـــا ... له تأتى وله الخير انتمــــــى
ويأمر الأولاد بالتـــــــلاوه ... فيها ويدفع لهم حـــــــلاوه
ويأمر البنات بالأشغــــــــال ... قبل طلوع شمسها بالحـــــال

عادتـــه في دخول الحمــام والخروج منه

غالب حالة أبي المستجمعـــــه ... دخوله الحمام يوم الجمعـــــه
وكان ينوي الفرض والمسنونـــا ... وفق الذي كان بـه مأذونـــــا
وكان فيه غالبــــا يستتـــــر ... بحيث لا يبصره من يحضـــر
وتكتسيـــــه حلة الحيـــــاء ... مهما يراه ذاهب أو جـــــاء
وربما يرجع باختـــــــلاس ... للدار حتى لا يرى في النـــاس

عادته في النظر في المرآة

يقول والدي إذا نظر فـــــــي ... صفاء مرآة مع التلطـــــــف
عليك يا وجه الفنا و العـــــدم ... خير سلام من معيد النســـــم
ولم يزل متعظا بما يــــــرى ... من حاله الذي به تغيـــــــرا

---

[1]- تماشيا مع قوله صلى الله عليه و سلم: من وسع على عياله يوم عاشوراء لم يزل في سعة سائر سنته. إهـ.. مجمع الزوائد، للهيثمي (كتاب الصيام) 3: 434 رقم 5137. جامع الأحاديث و المراسيل (حرف الميم مع النون) 7: 114 رقم 21260. مشكاة المصابيح، لابن حجر الهيثمي (كتاب الزكاة) الفصل الثالث 4: 420. الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة (حرف الميم) 1: 261 رقم 426.
و من هذا القبيل أيضا يقول العلامة المالكي الشهير عبد الملك بن حبيب:

لا تنس لا ينسك الرحمان عاشورا ... و اذكره لا زلت في الأخبار مذكورا
قال الرسول صلاة الله تشملـــــه ... قولا وجدنا عليه الحقَّ و النــــورا
من بات في ليل عاشوراء ذا سعة ... يكن بعيشه طول الحول محبـــورا
فارغب فديتك فيما فيه رغبنـــا ... خير الورى كلهم حيًّا و مقبـــورا

عادتـــه في منامـــــه

قد كان في الليل ينام والـــــدي
بضع سوائع بدون زائـــــــــد

ينام من بعد صلاته العشـــــــا
بعد عشائه وترويح الحشـــــا[1]

يمتد في فراشه مضطجعـــــــا
على يمينه ويكثر الدعــــــــا

ويختم الدعاء بالشهـــــــاده
ثم ينام فيه وفق العـــــــاده

ثم يقوم دائما في الحــــــــر
والبرد من قبل طلوع الفجـــــر

وحين يستيقظ ينهض وقــــــد
يكثر من ذكر ليحيي من رقــد

تمت يسبغ الوضوء ويعــــود
للذكر والدعــا لموضع السجود

ثم لمسجد الصلاة يـــــخرج
وبالثنا على القيام يلهـــــــج

ثم بمجلس العلوم يجلـــــس
وقد يعود للفراش ينعـــــس

وقبل أن تطلع شمس يذهـــب
لموضع فيه غدا يكتســـــب

وهكذا يفعل كل يــــــــوم
مجتهدا في الخير بين القــــوم

عادتـــه في ملبســـه

كان أبي يهتم بالتديــــــــن
ولم يكن يهتم بالتزيـــــــــن

ولم يكن يستلفت الأنظـــارا
بملبس يستوجب الإنكـــــارا

وإنما عادته في الملبــــــس
لباس ما به مثيله كســـــــي

يلوي على الشاشية العمامـــه
بيده ليا نفى اغتمامـــــــــه

ويلبس القباء والكســــــاء
مع سراويل كما قد شــــــاء

ويلبس القميص والفرجيــــه
ثم حزامه يرى الكرزيــــــه

ونعله بلغة أهل فــــــــاس
وذا له الغالب من لبــــاس

محافظا على نقاء الملبـــس
مع النظافة بطيب الأنفـــس

وكلما رام لباسه الجديــــــد
يشكر مولاه ليحظى بالمزيــد

عادتـــه في مأكلـــه

يأكل مما أهله قد هــــيؤه
وهو به مهما أتمّ هنئــــــوه

ولم يكن يأكل بانفـــــراد
بل أكله في الجمع باعتيـــاد

لا يشتهي من أهله طبخ طعـــام
دون تشهيهم له وقت الصيــام

وبعد ما ضعف من قوتـــه
خص بما ينفعه من قوتــــه

يبتدىء الأكل باســـــم الله
ويحمد الله لدى التناهـــــي

---

[1]- تماشيا مع الحديث الذي رواه البخاري عن أبي برزة أن رسول الله صلى الله عليه و سلم كان يكره النوم قبل العشاء و الحديث بعدها. إهـ.. صحيح البخاري (كتاب مواقيت الصلاة) باب ما يكره من النوم قبل العشاء 2: 241 رقم 561.

وهكذا يلقـــــــــن الأولادا بذكره ليحرزوا الأمـــــــدادا
ويبتدي بالأكل من جهتـــــــه حتى يتم القصد من وجهتـــه
مبينا لهم بحســـــــن الأدب أدب أكل المرء دون طلـــب

عادتـــه في الشـــرب

يبتدأ الشرب ببسم الله مـــــع تنفس والحمد معه إن قطـــــع[1]
وليس يشرب سوى الماء القراح أو الأتاي وله منه انشــــراح
يختار ماء البير والعين علــــى وادي الجواهر وماؤه حـــــلا
وقلما شرب بعد الأكـــــــل إلا بفصل الصيف بعد شغـــل
وقلما شرب كأس قهـــــوه لأنها تهدم منــــــــه القوه
وعنده الحليب والألبــــــان من خير ما يشربه الإنســـان
وربما شرب من ماء الزبيـــب مستحسنا لشربه وهو مصيــب
وربما شربه للإسهـــــــال مع رأس ورد وسنا باستعمـــال
وربما شرب ماء اللوز مـــع عصير رمان وليمون نفـــــع
وماء ورد في المذاق يعجبـــه وغير ما ذكرته لا يشربـــــه

لاحـــقـــة
بالعـــادات السابقـــة

كان أبي بنفسه يحمل مـــــا ينفقـــه لداره مسلمــــــــــا
مجردا عن حلة الكبر التـــــي رمت بغيره لأدهى علــــــــة
وبالـــمروءة اكتــــسى رداء منها كسى ناظره الحيــــــاء
ولم يطل جلوسه فـــي الــــدار مراعيا بذاك للوقــــــــــــار
وربما خرج من غيـر كســــا لموضع فيه جلســــــــــــا

---

[1]- تماشيا مع الحديث الذي رواه الحافظ البخاري عن ثمامة بن عبد الله قال: كان أنس يتنفس في الإناء مرتين أو ثلاثا. و زعم أن النبي صلى الله عليه و سلم كان يتنفس ثلاثا. إهـ.. صحيح البخاري (كتاب الأشربة) باب الشرب بنفسين أو ثلاثة رقم 5504.

خـــاتمـــــة

توفي الوالد في فاس وقـــــــــد ... كنت بطنجة ووجدي قد وقــــد[1]

وكان حبّس الرضى علينـــــــا ... موجها نظـــرته إلينـــــــــا

فالله يعلي في الجنان رتبـــــه ... حتى ينال فوق ما قد طلبــــــه

وهو الذي أرجوه أن يعممــــه ... برحمـــه تمت بكل نعمــــــه

ومما قلته في شكر سيدنا الوالد رحمه الله

لوالدي منــــة علـي قد كبـــــرت ... ونعمة في الوجود دائما كثــــرت

قد كان لي سببا في الكون من عدم ... لولاه ما فرحت نفسي بما ظفـرت

ظفرت في هذه الدنيا بمعرفتـــــي ... لله وهو الذي آلاؤه [2] شكــــــرت

به ظفرت بإيماني وما ظفـــــري ... إلا به في الذي نفسي به شعـــرت

يا ليت قومي بفضل والدي افتخروا ... على سواهم كما نفسي به افتخرت

أنا ابن عياش الذي له شهــــــدت ... كل الأعادي بآيات له اشتهـــرت

أنا ابن عياش الذي له حمــــــدت ... في الناس سيرته ونفسه طهــرت

أنا ابن عياش الذي سما رتبـــــا ... فيها له راية الأنوار قد نشـــرت

أنا ابن عياش الذي به ابتهجـــت ... مجالس شمسه في أفقها ظهــرت

أنا ابن عياش الذي محاسنــــــه ... لم أحص أنواعها بالعدّ إن ذكـرت

لالا أطيل مدائحي عليه بمـــــا ... أخشاه من قوله ياليتها اختصـرت

فالمدح مني له مدح لنفســـــي إن ... أنصفت يا ليت نفسي فيه قد عذرت

وإنني لم أزل في الناس شاكــــره ... لأكتسي من رضاه حلة بهــــرت

وإن شكري له شكر لخالقـــــــه ... والله حافظ نعماه التي شكـــــرت

لازلت ياوالدي في رحمة وسعـت ... كل الوجود وفيها نفسك انغمــرت

---

[1]- توفي رحمه الله بتاريخ يوم الأحد 4 جمادى الثانية عام 1328 هـ_13 يناير 1910م. و دفن بجبل زعفران خارج باب عجيسة بفاس. و كان نجله العلامة سيدي أحمد سكيرج حينئذ بمدينة طنجة، حيث توصل هناك من والده المذكور برسالة مؤرخة قبل تاريخ وفاته بيومين فقط، قال في آخرها:

و نعلمك بخالتك آمنة كيرانة، زوجة السيد الحاج المكي بن كيران، عظم الله أجرك فيها، و قد توفيت قبل تاريخه بثلاثة أيام، فالله يلحقنا بها مسلمين آمين، و أما ما كان من أمر أخيك عبد الخالق فإنه قد نزل من الحانوت و دخل القرويين، هذا ما علي و أنا مسافر للآخرة. إهـ..

و قد كتب العلامة سيدي أحمد سكيرج بهامش هذه الرسالة ما يلي:

توفي سيدنا الوالد رضي الله عنه بعدما كتب هذا الكتاب بيومين، عبارتان اثنتان جاءتنا في هذه الرسالة وكأن صاحبها كأنه ينظر من وراء حجاب إلى ما سيقع في القريب العاجل، فالأولى منهما: أنا مسافر للآخرة. فكانت كلمة صادقة. و الثانية: فالله يلحقنا بها مسلمين، كانت دعوة مستجابة. إهـ..

[2]- الآلاء: النعم

وقلت في مدحه رضي الله عنه

كم من نوائب في نواي[1] أكابـــــد ... وتزايدت فيها علي شدائـــــــد

وأنا أعانيها وأظهر أننـــــــــي ... للدهر فيها لا أزال أعانـــــــد

حتى تيقنت العواذل أننـــــــــي ... بالصبر صب في هواه مجاهـــد

ما أثرت فيه ملامة عــــــاذل ... بل بالملامة حبه متزايـــــــد

ولطالما اختبر العدا أحوالـــــه ... وهو الكتوم لما به يتواجـــــد

لم يعرفوا من هاج فيه غرامـــه ... لتثير فيهم من هواه مفاســـــد

والحب إن يخفى على أهل الجفى ... اتهموا الخلي وهل لديه مساعـد

ولو أنهم تركوا الجفى واستفهمـو ... ني قلت إن حبيب قلبي الوالـــد

فأبي الحبيب وما حبيب مثلـــه ... عندي وليس لدي فيه معانــــد

من ذا الذي كأبي يرى في عصره ... ولو أن علياه أباها الجاحـــــد

قل لي الذي أدى الحقوق لوالديـه ... بزعمه لك في البرور محامـــد

ما أنت مستوف وحقك حقهـــم ... وبرورهم صلة لديك وعائــــد

ولقد رأيت لوالدي حبا بــــــه ... خلدي[2] تنور وهو عندي خالـــد

وله مكارم لا تعدّ لحاســـــب ... ولو أنها تحصى لمات الحاسـد

ما أبصرت عيناي مثل أبي وكم ... أبصرت ذا فضل وفيه زوائـــد

فالله يعلي في الجنان مقامـــه ... وله به في المكرمات مقاعـــد

ويحفه[3] بردا القبول متوجـــــا ... تاج الرضى وبه تتم مقاصـــــد

وقلت في الثناء على جنابه قدس الله روحه

إذا افتخر الأبناء يوما بآبـــــاء ... فلي بأبي فخر تسامى بعليـــاء

وما كان فخارا بمال ولا بمـــــا ... لمال يؤول في عدى أو أحبــاء

ولكن برفع النفس عن كل ساقط[4] ... وإحراز فضل مرغم أنف أعدائي

وإحسان أفعال وحسن سريـــرة[5] ... وصدق بأقوال وتسديـــد أراء

أبي والذي أتاه حكما وحكمـــة ... وحلما أبيّ النفس عن كل أسواء

ولم يفتخر لكن به كان مفخــري ... على كل ذي فخر بنفس وأبــاء

وكم من جهول ليس يدري مقامه ... يراه بعين ما بها غيـــره راء

يراه مع الأقوام ما امتاز عنهـم ... بدعوى صلاح وهو فائق أكفـاء

فهل لجهول أو حسود لفضلـــه ... شهود فمال دونه سر إخفــــاء

---

[1]- النوى: البعد.

[2]- الخَلَدُ: البال و القلب.

[3]- يحفه: يحيطه.

[4]- الساقط: اللئيم.

[5]- السريرة: النية أو ما يسره الإنسان من أمره.

أبي لم يكن من دأبه الفخر بالـذي ... له من كمال الفضل بين الأحبـاء
وكان له في المكرمات مشاهـــد ... بها تضرب الأمثال من غير إطراء
وحقك ما في العصر مثل أبي له ... محامد لا تحصى لطالب إحصاء
وإن أبي والله يشهد أنـــــــــه ... رفيع مقام قد علا كل عليـــــاء
تحلى بتقوى في جميع أمــــوره ... بنفس له تقوى على حمل أعـباء
تخلى عن الأهواء في زمن الصبا ... وما مال في حال المشيب لأهواء
تجلى على كرسي السيادة في الملا ... وأملى فتوحات بأحسن إمـــــلاء
يؤثر في قاسي القلوب مقالـــــه ... وعن كل نفس كاشف كـل أدواء[1]
وقد سبقت والحمد لله نظـــــرة ... لنا منه فاقتدنا بها كل مســـــراء
ونلنا به والحمد لله نعمـــــــــة ... نراها بحمد الله أكمل نعمـــــاء
جزاه إله العرش عنا بما بـــــه ... تقربه العينان منه بإرضـــــاء
فيرفع في أعلى الجنان مقامـــه ... ويحظى بقرب منه كامـــل آلاء

وقلت في مدحه رضي الله عنه بعد وفاته

طاب أنسي وكنت في إيحاشــــي[2] ... وإلي من هويت طال انحياشـــي
لم أخف بعد قربه من بعـــــــاد ... عن حماه وفي حماه انتعاشـــــي
يا لقومي هل تعلمون بأنـــــــي ... متفان في والدي العياشـــــــي
لي من حبه بقلبي وجـــــــــد ... صار صبري من بعده في تلاشي[3]
منذ فارقته تفرق شملـــــــــي ... وببعدي عنه زال هشاشـــــي[4]
كان لي والدا شفوقا ولكـــــن ... عنده طاب في الهناء معاشـــي
بدل جهده لنفعي ودفع الضــــر ... عني في الأنس والإيحـــــــاش
لم أشاهد مثيله في زمانـــــــي ... كيف والفضل منه في فاس فـاش[5]
فهو بين الورى تقدم في الفضـــل ... وهم من ورائه كالحواشـــــي
وهو يوم الوغى تصدر في الجيش ... وفيها قد صار ثابت جـــــاش[6]
فلتسل عنه حرب تطوان كـــم دا ... فع عنها من سطوة الأوبــــاش[7]
كان عنها مدافعا وله كــــــم ... من مدافع همة لاندهــــــاش
وأصيب بوقعة كان فيهـــــا ... برصاص من العدا رشــــاش
لم يزل جرحه يعاهده مــــن ... بعده بانتفاخه وانتفــــــاش
ثم حين احتضاره انفجر الجـــر ... ح فكان الشهيد فوق الفـــراش

---

[1]- الأدواء: الأمراض.
[2]- إيحاشي: بمعنى وحشتي، أي يشعر بالوحشة و هي ضد الإستئناس.
[3]- في تلاشي: في ضعف.
[4]- الهشاشة: بمعنى النشاط و الإرتياح.
[5]- فاش: بمعنى منتشر و ذائع.
[6]- الجأش: القلب و الصدر.
[7]- الأوباش: سفلة الناس و أخلاطهم

قدس الله روحه في جنـــــــان   وحباه ما فيه كل انتعــــــــاش

وقلت فيه أيضا :

ما كان في المدح إطراق الأطراء   الا لمدحي أبي كشاف ضرائــي
ولست أطريه في مدح له بثنـــــا   عليه وفق الذي تقضيه أهوائــي
وإنما مدحه بالصدق معترفــــا   بالعجز عن شكره يا أيها الرائي
ماذا ترى إن أنا قصرت فيه ولم   أطل به أو أنا طولت أثنائـــــي
ألم يكن هو يستحق خير ثنـــــا   إن الثناء عليه مذهب دائــــــي
إن قلت من أفضل الأقطاب قاطبة   صدقت في ذاك وهو نور ظلماء
أو قلت أن له العلياء خاضعــــة   لا شك في ذاك فهو قطب علياء
فاعرف بقدر أبي فقد سما رتبــا   تسمو به في المعالي فوق جوزاء[1]
له مكارم لا أحصي لها عــــددا   منها تصرفه بسر الأسمـــــــاء
منها القيام بأمر الدين مجتهـــدا   مجاهدا نفسه ونفس الأعـــــداء
مستهونا زخرف الدنيا بأجمعها   مستعظما أمر أخراه لإ يفـــــاء
لله ما كان منه في ظواهــــــره   وفي المساعي التي جلت بإخفائي
ما كان أولعه بستر طاعتــــــه   وشكره للإله كل نعمـــــــــاء
لو لم يكن لي أبا لقلت فيه ثنـــا   يزداد حسنا بإنشاد وإنشـــــاء
لكنه والدي والمدح فيه يـــرى   من مدح نفسي التي ترمي بأسواء
ولست فيه بمستوف الثناء ولــو   أطلت فيه الثنا بكل إطـــــراء
فالله يشمله رداء رحمتــــــه   في جنة ويوافيه بـــــــآلاء

وقلت أيضا:

يلومونني في ترك مدحي لوالدي   وكم من مقامات له في المحامـد
يقولون لي لم لا تطيل مديحــــه   وأنواره مجلوة[2] للمشاهـــــــد
وأنت ابنه والشكر لا شك واجب   عليك له فلتبده في المقاصـــــد
فقلت لهم إني إذا ما مدحتــــــه   يعنفني في مدحه كل حاســــــد
وفي مدحه مدحي لنفسي وهل أنا   أوفيه شكرا في جميع المــوارد[3]
بلى لا أوفي شكره ولو أننـــــي   أطلت مديحا فيه رغم معانــدي
وإن قصارى النفس مني قصورها   وكم من قصور في الثناء التباعد
وكم في الثناء والتقرب من ثنـــا   تقر به عيناي وهو مساعـــدي
وأتركه كيلا يقال بأننـــــــــي   مدحت أبي حال الرخا والشدائد

---

[1]- الجوزاء: من البروج السماوية الإثني عشر.
[2]- مجلوة: ظاهرة.
[3]- الموارد: جمع مورد، و هو موضع الورود.

أبي كان ذا فضل تقرّ به الـــــعدا   وإن كان لا يحتاج فيه لشاهـــد
وكم من كرامات له في أقاربـــي   وأعظم إكرام له للأباعــــــد
وقد كان محمود المساعي ولم يزل   يعد بها لله أفضل حامـــــــد
يجاهد في الطاعات لله نفســـــه   وكان بها في العصر خير مجاهد
وكان كثير الشكر لله ربـــــــه   كثير اهتمام بالعبادة زائــــــد
فيا رب فارحم والدي فلكم دعـــا   لترحمه في خلوة ومساجـــــد
أنله الرضى واحشره في زمرة النبي   عليه السلام في جميع المشاهـــد
ويشمل كل التابعين لنهجـــــــه   بطيب وفيه لي كمال المقاصـــد

وقلت في رثائه رضوان الله عليه

من عادة الدهر أن يروع الناســـا   وأن يبدل بالإيحاش إيناســــــــا[1]
ولم يزل يسلب الدهر النفوس إلى   أن يقصم الظهر ممن طاب أنفاســـا
آه فقد سامني الدهر الخئون بمـــا   قاس فؤادي به في البعد ما قاســـى
ما كنت أحسب أن الدهر يفجعني   بوالدي وسقاني بالأسى كاســــــا
كاس تجرعتها ولو تجرعهــــا   دهري أرعوى عن تجرع الأسى الناسا
يا دهر لو ذقت ما ذقنا لضقت به   ذرعا وطأطأت منك في الأسى الراسا
آه فقد فقدت نفسي أجـــــــل أب   قد كان لي من جميع السوء حراسا
أبي الذي كان بالإنصاف متصفا   وكان عند انتهاك الحــق عباســـا
من مثله ذروة العليا به ابتهجت   وفاق في الفتح أوتادا[2] وأجراســـا[3]
أبي ولي ولي به مفاخـــــــرة   على الذي بأبــــي أباه قد قاســـا
ولم أفاخر به غيري فغالبنــــي   وإن فخري به ليذهب البـــــاســا[4]
ما قلت هذا تبجحا[6] فيحسبنــــي   من ليس يعرفه قصدت إلباســـــا[5]
لالا وحقك إني ما شكرت أبــي   بغير حق وكم بالخير قد واســـــى
سلني أخبرك عن أبي بمعرفــة   وليس ينكرها من يعرف الناســـا
وإنني لم أوفه بمحمـــــــــدة   هب أنني فيه قد سودت أطراســـا[7]
دعني ومالي وللفخار بعد أبـي   إن الفخار قبيح عند من ساســـــا
والله أسأل أن يعم روضتــــــه   برحمة وبها يطيب أنفاســــــــا

---

[1]- الإيناس: الإستئناس و هو الألفة و سكون القلب بمحبوبه.
[2]- الأوتاد: طبقة من أولياء الله تعالى تعرف بهذا الإسم و مفردهم وتد و هم أربعة.
[3]- الأجراس: طبقة من أولياء الله تعالى تعرف بهذا الإسم و مفردهم جرس.
[4]- الباس: بمعنى الخوف و العذاب.
[5]- إلباسا: بمعنى التباسا.
[6]- تبجح: افتخر و تعاظم.
[7]- الأطراس: مفردها طرس و هو الكتاب أو الصحيفة.

يقول ولد ناظم هذه المرثية عبد الكريم غفر الله ذنبه، وستر عيبه: هنا انتهت قصيدة سيدنا الوالد، وقد وقفت على أشياء بخطه رحمه الله تتعلق بترجمة والده جدنا المرحوم كان في نيته الحاقها بهذه الترجمة، أحببت إثباتها هنا كيفما تيسرت. منها قصيدة في رثاء والده المذكور لم يتم ذكرها، وهي:

دعني فلست بجاحـــــــــــــــد   وأراك غير مساعـــــــــــــدي
أتظن أنك في المـــــــــــــــلا   أديت حق الوالـــــــــــــــد
أو لست تعلم أنـــــــــــــــه   بك كان أعظم واجـــــــــــــد
وعليك كان محافظـــــــــــــا   لتكون أكمل ماجـــــــــــــــد

وإليك يسعى أن برغم أنف الحاسد

يبغي حياتك بعـــــــــــــده   لتنال خير محامـــــــــــــــد
فاشكر أباك فشكـــــــــــره   من باب شكر الواحـــــــــــد
من لي بألسنة بهـــــــــــــا   أدعو الإلـــه لوالـــــــــــدي
لولاه لم أك موجـــــــــــودا   ولديّ خير شاهـــــــــــــــد

هذا كل ما وقفت عليه بخطه من هذه القصيدة التي لم يقدر لها أن تتم، كما وقفت على ورقة ذكر فيها مولد والده، وبعض النقط التي كان ينوي الكتابة فيها أثبتها هنا، وهي: ذكر مولده بفاس بتاريخ 1259هـ، وتربيته في حجر والده الذي كان كفله أولاد ابن كيران. فتربى يتيما هو وأخوه السيد المكي الطبيب، واختراع الطبيب للدواء القائم مقام العشبة، وما كان عليه من التبجح بنسبته للخزرج القاطنين بالأندلس، وينجر الكلام إلى الوزير الكاتب ابن الطيب سكيرج[1]، وروضتهم بسيدي مساء الخير برأس الشراطين. ذكر قراءته ورفع همته عن أن يكون عالة بغير إنفاقه على نفسه، وأنه لا يفاخر إلا بنفسه:

نفس عصام سودت عصاما ...إلخ

ولذلك تعاطى حرفة الطرازة والتجارة والوكالة.

---

[1]- سبق التعريف به ضمن الجزء الأول من هذه الرسائل.

ذكر معارفه وما حصله من الفنون مع التضلع في فن الأحكام والنوازل .
ذكر جهاده في الإسبان.
ذكر حجه لبيت الله الحرام ومروره على مصر القاهرة.
ذكر أولاده.
ذكر شيوخه.
ذكر بعض قصائده .
ذكر عاداته وأحواله.
كان يحب أن يصاهر الشرفاء ببناته، بخلاف أنجاله فلا يحب أن يتزوجوا من آل البيت خشية عدم القيام بحقوق الشريفة.
مصاهراتنا مع العراقيين من قديم، منهم والدة ابن عمنا سيدي الزبير.
انتقال العم الأكبر السيد المكي لمكناس، ثم لرباط الفتح، ثم لطنجة مع ابن العم وبيان سبب ذلك، وهو موت بعض الشرفاء الذين أكلوا سهلته.
أولاده: الأخت راضية زوجة الشريف السغروشني وبنتها.
الأخت خدوج، وتزوجها ابن عمها الأخ الحاج محمد.
الأخت زينب، وتزوجها بالفيلالي وبناتها.
الأخت عائشة، وتعدد أزواجها، وآخرهم الشريف سيدي عبد الهادي الميساوي.
الأخ سيدي محمد.
عبد ربه أحمد.
الأخ سيدي عبد الوهاب.
الأخ الطالب سيدي عبد الخالق.
الأخ سيدي الحاج عبد الرحمن وهو أصغرنا.
عمتنا السيدة الطام سكيرجية وأولادها.
خالاتنا: السيدة كنزة، وآمنة، ورقية كيرانة.
انتهى ما نقلته من ورقة بخط والدنا المرحوم.

ولسيدنا الوالد الحاج العياشي سكيرج أيضا هذه القصيدة بالملحون[1]:

نبدا في وزانـــــــــــــــي	بسم لكريم ربي يفتح لي الأكـــــوان
في مديح التجانـــــــــــــي	صاحب الوظيفة ولعلم مع البيـــــان
وصلاة المدانـــــــــــــــي	درك سرها وطاعت له لكـــــــوان
سره ما لو ثانـــــــــــــــي	ظهرت سنت وخذ عنه الأعيـــــان

[1] ـ هي قصيدة من شعر الملحون، أنشأها المترجم له الحاج العياشي سكيرج في مدح القطب الرباني الشيخ أبي العباس سيدي أحمد بن محمد التجاني رضي الله تعالى عنه، و هي دليل على المحبة العميقة التي كان يكنها المترجم لهذا الشيخ و طريقته و مريديه، و يظهر هذا جليا من خلال مقاطع القصيدة، و ما استعمله فيها من عبارات تنويه و إعجاب متزايد.

في ضريح سلوانـــــــــي   يسبي أهل لعقول والسادات أهل الإيمـان

ونا بهم عانـــــــــــي   وقت ما نظمت ناد بلســـــــــان

مولاي أحمد سلطانـــــــي   ربي فضلو وارفع لصاحبو الشـــــان

شلّ نحكي بلسانـــــــي   في وصف قبتو شلّ رات لعيـــــان

مصابح دهبانـــــــــي   وأنواع ثريات وجومرهم بلـــــوان

جلج واوانـــــــــــي   سقى عروسا برزت بين لغصـــــان

يشرب الظمئـــانـــــــي   ودو لكل سقم يعلج من لمحـــــــان

مياه دفقانـــــــــــي   وزرابي لجوهر وعقيق السسبـــــان

مقام مالو ثانـــــــــي   بالسر وظراف ولجلس ولحســـــان

مولاي احمد سلطانـــــــي   ربي فضلوا وارفع لصحابو الشــــان

وتاج الفوقانـــــــــــي

متوج تيجـــــــــــان   دربوز لملك صنعت تركمــــــــان

ما ملكو عثمانـــــــــي   ولا ملوك العظما كانو زمـــــــان

وحلق ترضانـــــــــي   بذكر ولهلل وموت لحســـــــــان

وصحاب التجانـــــــي   أشر من لا راهم بلعيـــــــــان

سر الله ربانــــــــي   بنوار سطع وطيب يخرق لذهـــــان

مولاي احمد سلطانـــــــي   ربي فضلوا وارفع لصحابو الشــــان

لقطب الربانـــــــــي   يا ختم لولاي يا ينبوع للإحســــــان

نتوسل بلغانـــــــــي   بجاه جدك يهدن هذا الوطـــــــان

تدمر لعديانـــــــــي   تخمد نارهم ونار اهل لديـــــــان

بجاه لعدنانـــــــــي   يعلا علامنا ويتجل هذى لمحـــــــان

يحضر اليمامـــــــــي   وتجاهد لمسلمان كل ما في صعب هوان

مولاي احمد سلطانـــــــي   ربي فضلو وارفع لصحابو الشــــان

أما سيدتي الوالدة رضي الله عنها:

فهي المرأة الصالحة ذات المساعي الناجحة، والكرامات الواضحة،الذاكرة الناسكة الفاضلة. السيدة فروح بنت البركة المقدس سيدي الحاج عبد الوهاب بن محمد التازي. من الماسكات على حبل الذكر، والعاملات بمقتضى التذكر والذكرى في العلن والسر ، ولولا أنها أمي، ومدحي لها يرمي بي إلى مدح نفسي، بين أبناء جنسي، لوصفتها طبق ما شاهدته فيها، وما أتحققه من رفعة قدرها:

هي أمي في مدحها مدح نفســـــي	وامتداحي للنفس غير جميــــل
وجميل بالشخص أن يترك المــد	ح بما فيه خوف طعن الجهول

فإن الجاهل، بل والعالم الجاحد، أو القح المحض، يسبق إلى ذهنه في ذلك تزكية المرء نفسه، ويسيء الظن، فيبادر بالإنكار عليه في مثل هذا، ولا يقبل منه فيه أي اعتذار. وللخوف من الوقوع في ما هو من هذا القبيل ترك كثير من أهل الفضل ترجمة التعريف بأقاربهم، فضلا عن التعريف بأنفسهم، حتى لا تتطرق التهمة فيهم بأنهم يتبجحون بذلك بين العوام والخواص، ونحو ذلك مما يقضي به سوء النية، فلا يحصل النفع بذلك.

ولربما كان الضرر بذلك أكثر من نفعه عند المعاصرين، فاجتناب التعرض لذلك أجمل بالشخص وأليق به. ولذلك قيل: الشيء الذي لا يحسن أن يقال – وإن كان حقا – مدح الرجل نفسه، وهو كلام صحيح من جهة ما ذكرناه، سقيم من جهة كون أهل الفضل لم يمنعهم هذا الخاطر من إعطاء المقام حقه في ذكر ما لديهم من الخصائص والمزايا ونحو ذلك، تحدثا بالنعم، كما فعله الأنبياء والأولياء عليهم السلام. والإقتداء بهم محمودا، وإن كانوا عليهم السلام في مكان مكين من الإخلاص الأتم، وقصدهم في ذلك النفع الأعم، وغير ذلك مما لا يخطر لنا ببال، وغيرهم بسوء القصد منهم.

فصار مدار الأمر في هذا كله على النية، وهي غيب، ولا يجمل بالشخص أن يحمل المتحدث بالنعم على التبجح وحب المحمدة ونحو ذلك، إلا إذا علم من نفسه ذلك، فليضرب حينئذ عنه صفحا، كما فعل كثير من العارفين وقوفا مع ظاهر قول الحق – فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى[1] – ونحن، وإن كانت نياتنا مشوبة بالحظوظ النفسانية، وهو مما يؤكد في حقنا الأمر بالإعراض عن التزكية بذكر المنن التي أمتن الحق بها علينا، ولكن قد يكون في ذلك منفعة أخروية بالتبع لتلك الحظوظ منها، بعد قصد التحدث بالنعم استجلاب محبة الناس في من له محامد ومحاسن تذكر، مع مناقب وفضائل وأعمال جليلة، وسيرة حميدة، وغير ذلك مما يرجع لأمور دينية ودنيوية في معاملته مع ربه، ومعاملته مع خلقه، فإن النفوس مجبولة على حب من تخلق بمثل هذه المكارم واتصف بها، بمجرد اطلاعها عن تخلقه بها، فإذا انجذبت بجاذبية المحبة صدح بالدعاء للمتصف بذلك، وقضت عليه المحبة بالانعطاف القلبي

[1]- سورة النجم، آية 32

بأنواع البرور والإحسان إليه، ولمن انضاف اليه بقدر الإمكان، حسب البواعث الداعية إليه، بسبب ما اطلعت عليه من ذلك التعريف المشوب بالحظوظ النفسانية، بذكر مناقب الشخص وغيرها من أنواع التزكية والتمدح. وفيه من استنهاض ذوي النفوس للإقتداء بالمتصف بها ما يحصل به الغبطة بين أهل الفضل، وبين من هو لذلك أهل، فهذا ما حدا بنا لذكر مثل هذا في هذا الموضوع وغيره.

ولا يبعد أن يكون هذا من مقصد المصرحين بــه، مع قصد آخر لاعلم للمنكر عليهم به، فيفوته حسن الظن بالعباد، ولا يحصل على المنفعة المنوطة بذلك، على أننا قد نستحسن شيئا ولا يروق في نظر غيرنا ما استحسناه، ولا لوم علينا في ذلك لوجود الفرق في الأذواق والمشارب "وللناس فيما يعشقون مذاهب".

ولهذا لا يتسارع العارف للإنكار علينا في التعريف بنفسي، في حديقة أنسي[1]، وهي رسالة لطيفة، كتبناها مساعدة لاقتراح بعض المحبين في جانبنا[2]، وأمليناها حسب ما تأتى لنا من غير تنميق في الخطاب، ولا تزويق مثل ما كتبناه في هذا التقييد في التعريف بسيدنا الوالد، مستطردا فيه الكلام بترجمة سيدتنا الوالدة رضي الله عنها.

ذكر ولادتها مع ترجمة والدها

فقد أخبرتني أنها ازدادت بفاس قبل وفاة المقدس السلطان المولى عبد الرحمن[3] بيسير، وكانت وفاته سنة ست وسبعين ومائتين وألف، وبعدها بيسير توفي والدها البركة سيدي الحاج عبد الوهاب بن محمد التازي، وهو أحد إخوته السبعة الذين أخذوا الطريقة التجانية عن القطب التجاني رضي الله عنه مشافهة، وقد ترجمت لبعضهم في كتابي "كشف الحجاب" وكتابي "رفع النقاب". وقد أنشأت هنا هذه القصيدة في جنابه، والتغزل المصدرة به هو في الطريقة التجانية، تبعا لوارد طرأ عليّ فيها، فقلت:

لماذا تلوم الصب يا خالي القلـــــــب	ولو ذقت ما قد ذاق ذبت من الكرب
أمن كان ذا وجد كمن كان خاليـــــــا	وقد فقد الصبر الجميل مدى الحقب
بعيشك يا هذا إذا ذقت للهـــــــــوى	مذاقا فلم أولا دع اللوم في الحـــب
فما كنت أدري ما النوائب والبكـــــا	إلى أن تولت في النوى منية القلـب

---

[1]- المراد به تأليفه حديقة أنسي في التعريف بنفسي، أدرجناه ضمن الجزء الأول من هذه الرسائل.

[2]- المراد به السلطان الأسبق المولى عبد الحفيظ رحمه الله.

[3]- المولى عبد الرحمان بن هشام، من ملوك الدولة العلوية الشريفة، توفي يوم الإثنين 29 محرم عام 1276هـ. أنظر ترجمته في إتحاف المطالع لابن سودة 1: 217. الاستقصا، للناصري 9: 3_80. إتحاف أعلام الناس، لابن زيدان 5: 1_274. الدرر الفاخرة، للمؤلف نفسه 7. موسوعة أعلام المغرب 7: 2614 . الأعلام، للزركلي 3: 341.

ولم أتحمل مثل بعدي بعدهـــــــا ولا قبلها مثل الجفاء مع القـــــرب
وزاد وشاتي في عيوبي عندهـــــا وأثر فيها ما رأته من الثلـــــــب
ولما دهاني ما دهاني ولم أجـــــد لديّ شفيعا قلب حبي لها حسبـــــي
وأسلمت نفسي للقضاء ولم أجـــد عن الحب في وجدي كأني ذو جذب
وقد غاب عنها كشف حالي ولم تـزل وشاتي[1] تشي بالسوء بالقول والكتـب
وقد أكثروا فيما رموني به ولـــــم تزل بي تستقصي حوادث بي تنبـي
فبان لها أني المحب حقيقـــــــة كحب التجاني عند جدي في الصحب
لقد كان جدي مخلصا فـــــي وداده وعض على الحبل الموثق بالحــب
ولم يك للأغراض جدي عامــــــلا ولكنه قد جد في طاعـــة الـــرب
رأى الشيخ جدي جد في السير طالبا فلاحا فأعطاه من السر ما يسبــــي
فصار به جدي بصدق عزيمـــــة به الله عنه قد نفى سائر الحجـــب
غدا عبد وهاب المواهب حائـــزا به قصبات السبق من حضرة الوهب
وأجلسه الشيخ التجاني بجنبــــه وتوجه تاج الكرامة بالقـــــــرب
فصار لدى الأصحاب ملحوظ رتبة بما قد سقاه الشيخ من مورد عـــذب
وما زال بعد الشيخ فيهم معظمـــا محبته تزداد حبا على حـــــــب
ووالدتي في الحب تابعة لـــــــه بصدق وحب الشيخ بين الورى وهبي
وها أنا ذا في حبه قد ورثتـــــه وحبي له من أجل حبي النبي العربي
عليه سلام منتج لسلامتـــــــــي يعم جميع الآل مع سائر الصحـــب
ونحمد ربي إذ هداني لحبـــــــه ولولا عموم الفضل لم يرتفع حجبي
وأسأله سبحانه أن يزيدنـــــــــي كمال وداد منه يحيي به قلبـــــي
ويمنحني دنيا وأخرى سعــــــادة يتم بها قصدي ويمحى بها ذنبـــــي

وتوفي رحمه الله، وترك والدتي في حجر والدتها التي كان تزوج بها حين رجوعها من سنة حجها مع زوجها الذي توفي في الحجاز في تلك السنة، وترك لها بنات أيست بسببهن من قبول من يتزوج بها بعده، فلم يكن إلا أن أخذت الشفقة قلب الجد المذكور رضي الله عنه، فتزوج بها متحملا لمؤونتهن، متكفلا بالقيام بشؤونهن، قاصدا بالتزوج بها صيانة الجميع، والتحصيل على امرأة صالحة، اطلع ما لها من المروءة والديانة التامة، والأحوال الصالحة التي قلما توجد في إمرأة ، والسفر معها صحبة الركب الحجازي أسفر له عن تلك الأحوال التي دعته إلى التزوج بها، فكان ببناتها بارا البرور التام ، حتى كنّ يعتقدن أنه والدهن، بما يرين من عظيم إحسانه لهن، وشفقته عليهن، حتى توفي وترك والدتي في وسطهن، يلحظنها بعيون المودة السالفة من أبيها لهن، فنشأت في عين الرضى.

[1]- الوشاة: جمع واشي و هو النمام.

يقول سيدي عبد الكريم سكيرج رحمه الله نجل العلامة سيدي أحمد سكيرج رضي الله عنه:

توفيت جدتنا السيدة فروح في صباح يوم الإثنين 24 رمضان المعظم عام 1345 هـ بفاس. وقد رثاها والدنا المقدس بقصائد أحببت أن أثبتها في هذا التوليف الذي أسماه رحمه الله " بالغنيمة الباردة بترجمة سيدنا الوالد مع سيدتنا الوالدة "

أوالدتي بفقـــدك فـــي وجـــــدي ... أكابد[1] فيه مـــا أكابـــده وحـدي
تناءيت مني واستقر بـــك النـوى[2] ... وكنت بقربـي لا تميلي إلى بعـــدي
فهــل أنت تنوين الرجوع إلــيّ عن ... قريب أو الأمر الـذي لم يكن عنـدي
حبيبــــة قلبـي مـا ظننت بأننـــي ... أراك قــد استبدلت ودي بالضــــد
وكنت أظـن القرب منــك مسرمــدا ... وظني أن تبقـي وتخلفني بعـــدي
ولمـــا رآني الدهر فيك مولهـــا[3] ... وحبك لي يزداد أصبح مـن ضـدي
فأقصاك[4] عنـي بعـد طول تقـــرب ... تقر بـه عيناي في القرب والبعـــد
عهدتك عندي فـي رخـــاء وشـــدة ... رقيقة قلب منـك في الحل والشـــد
تروحين في هم لأجلي وربمـــــا ... تقطع حبل الصبر منك بمـا أبـدي
وتغدين في هم لأجلي عديمــــة ... لصبرك مما قد دهاك[5] من الوجــد
ولازلت مني تحملين نوائبــــا ... بكل اهتمام بي لأظفر بالقصـــد
وتخفين عني ما تلاقين من عنـــا ... مخافة أن ألقاك في الألم المـــردي
وتبدين لي ما الله يعلم أنــــه ... من اللطف بي والقلب عندك في وقد
وعاملتني في كل حـــال برأفـــة ... على من أنا أبديه في الأخذ والـــرد
وما كنت لي وحدي بلطفك جنــة[6] ... ولكن لكل الناس أكثرت في الـــود
رأيت لكل النـــاس أمـــا ومـــا أرى ... مثيلك أما في الحنانة والرفـــد
إذا قال منهم واحد آه مـــــرة ... جزعت وأكثرت الدعاء بلا حـــد
أوالدتي والصبر عنك فقدتـــه ... فهل جزعي من بعد موتك لي يجدي؟
فقدت أناسا كنـت أفنـى بحبهـــم ... ولم أر قبل اليوم مثلك من فقـــد
فها القلب مني في اضطراب يزيدني ... تنوع كرب من تـواريك[7] في اللحد
بفقدك عني قد فقـــدت أحبتـــي ... وبعدك عنهم فيه لي غاية البعـــد
أ أبكـــي دماء ؟ والبكا غير نافع ... ولو دام طول الدهر يجري على خدي
ومالي أرى عنك اصطبارا عهدتـــه ... وإن اصطباري عنك فيه انقضى جهدي
فوا أسفاه هل يفـــارقنـــي الأسى ... ومالي آس فيه بالهزل والجـــد

---

[1]- أكابد: أقاسي.
[2]- النوى: البعد و الفراق.
[3]- مولها: مضطرب العقل من شدة المحبة.
[4]- أقصاك: أبعدك.
[5]- دهاك: بمعنى أصابك.
[6]- الجنة: الوقاية و السترة.
[7]- توارى: بمعنى اختفى.

لقـد قام بـي ما لا أقوم بحمـــــله   من الحزن حتى صرت في منتهى الحد
فها أنا ذا مستسلم فيك للقضــــــا   وليس لما يقضي به الحـق مــــن رد
وفيك أعزي النفــس مني معزيا   جميع أحبائي وأكثــر في الحمـــــــد
ولله ما أعطى وإنـــي عبـــــده   لراض بما يقضي على الحـر والعبـد
وأســأل منه أن يحفك بالرضـــى   إلى أن تتالي السؤال في جنة الخلـــد

ورثـــــاها أيضـــا بهذه القصيدة

خـــل عنك أذكار يوم الشبــاب   فجميــع الحياة مثـــل الســـراب
إنما هذه الحياة متـــــــــاع   عــــرضت للعقاب أو للثـــــواب
ليت شعري ما فاعل أنت فيهـا   لتراه بعــرض يــوم الحســـــاب
أنت في غفلة تروح وتغــــدو   والهوى قد دعاك مـن ألف بــــاب
فأجبت الهـوى بكل اشتيــــاق   لم تفرق بيـــن الخطـا والصـــواب
ورماك الهوى بكـل هــــوان   غير مكترث[1] كمـا قد رمى بــــي
كل يـوم أقول أني قطعــــــا   سأتوب غـدا بغيــر ارتيـــــاب[2]
فإذا ما أتى غد قلت من بعــــد   غـد سأتوب حســــــن متـــاب
لم أزل مقتاتا لسوف ومـا لـــي   وازع[3] من نفسي لكـشف اكتئابـــي[4]
فمتى أرعوى وما لي اتعــاظ   بذهـاب أحبتـي واغتــــــــراب
كل يوم أنا المصاب و هذا الـــــــــــــيوم عندي قد جل فيه مصــــابـــي
قد أصبت و في مصابي مـصيبــــــــــــات و فيها جرعت أعظم صـــاب
قد أصبت بفقـــد أم أراهــا   خيـر أم بهــا احترام جنابــــــي
يعلم الله أنهـا خيــــــر أم   مـن رضاها لبست خيـر ثيــــاب
يا لقومي من فقدهـا فأنـا مــن   فقدهـا قد فقدت كل صــــــواب
آه مما أنـابني غيـــر أنـــي   لـم يكن آه نافعـي في منابــــــي
أهل ودي بالله هــــــل أنتــــــــــم وفيتــم ببرورهـا فـي غيابــي
هـل أقمتـم لهـــا مواسم خير   في قدوم منها علـــى الوهـــاب
رب بالفضـل منك أقبل عليهـا   وأثبهــا لديك خير ثـــــــواب
سيـدي سيدي وأمّـــن بفضـل   خوفها اليوم ثـم يـوم الحســـاب

وقال في رثائها أيضا بانيا على بيت اتزن من كلام بعض من كاتبه برسالة في عزائها، ولم يقصد وزنه، وهو أثناء الدعاء لها:

---

[1]- غير مكترث: غير مبال و لا مهتم.
[2]- الإرتياب: الشك.
[3]- الوازع: الزاجر.
[4]- الإكتئاب: الحزن و القلق.

قدس الله روحهـا فـي نعيـــــــم فـــي جوار لسيد الســــــادات

أول القصيدة:

آه ما بــــــال القلب في غمـرات قد توالت والنفس فـي زفـرات[1]
وكأنـي قد صرت في عـــــــالم آخر ممـا أصابني مـن سنـات
لست أدري من شدة الأمر غيــي من أشادي في هذه الساعـــات
يا لقومي ما ذا عرانـي وعنــدي كنت أعهد في الملم[2] ثباتــــــي
عيل[3] صبري بمـــا دهـاني فماذا يا ترى حل بي علـــى غفـلات
أصياح ما قد نعى البرق لي من مـــــــــــــوت أمي فصرت في حسرات
إن يك البرق خلبـــا بعض أحيـــــــــــــان فليس بخلب في الوفـــــاة
يا لقومي وقـــــد رماني زماني في حياتـي بأعظم النكبــــات
لم يكن مثل فقدهـا من مصــــاب جل بـــــي قبلها من الصدمات
آه والقلــــــــــــــب في تقلــــــــــــــب أغيار عليها مني مدى أوقاتي
هل سلو[4] فأشتـــــريه ولكــــن كيف أسلـو عنها بهذي الحيـاة
إنهـــا كانـت جنتي من زمــــان كان يسطــــو علـي بـــالوثبات
إنهـــا كانت جنتـي أثمرت لـــي فـــي أمان كـل المنى الطيبـات
كنت فـــي ظلها محوطا بحفـــظ رافلا[5] في ردا رضاها المواتـي
كنـت منهـا بمنزل الأنـــس مثـــــــــــــــــل النفس مني تنفس الكربـــات
لم تكن لي وحدي تعاملني بالرفـــــــــــــــق لكـن لسائـر العائــــلات
قلبها بالحنــــــــان ممتلـئ بيـــــــــــــــن جميـع الســـــادات والسيدات
نفسها دائما تميــــل لفعل الخيــــــــــــــر إذ كـــانت منبع الخيــــرات
يشهـد الله أنهــــــا خيــــــر أم لبنيها مـــن أكـــرم الأمهـــــات
يشهد الله أنها لجميـــــــــع النــــــــــــاس تبغـي تكـاثر الحسنـــات
بلسان أحلى من الشهـــــد تدعـــــــــــــو الله يرقي الجميع في الدرجات
أي أم تغضي[6] وترضي وتمضي وهي تدعـو بالستـر للـــزلات
عن عيوب للستر تســدل حجبـا عن عيون أحبة وعــــــــداة
وتقـــابل من جفـاها بلطــــف ومن اللطـف لم تـدع من جفـاة
ولقد كان همها أمر أخراهــــا بدنياهـا مع حصـول النجــاة
(قدس الله روحهـــا فـــي نعيـم فـــي جوار لسيـــد السادات)

---

[1]- الزفرات: جمع زفرة، و هو التنفس مع مد النفس.
[2]- الملم: الشديد من كل شيء، و المراد به هنا الملمات، و هي النوازل الشديدة.
[3]- عيل صبري: بمعنى نفد و ضعف.
[4]- السلو عن الشيء: نسيانه.
[5]- رفل: جر ذيله و تبختر.
[6]- تغضي عن الشيء: تسكت و تصبر عنه.

وأراها الوجه الكريم وأعطـــا — هـا أمانا وسائـر الأمنيـــات
سائـلا مـــــــــنه أن يقابلهـــــــــــــــــــا — طبـق مناها بأكمل الرحمات
وعلى المصطفى أتم ســـــلام — وعلـى الآل والصحاب الهـداة
وعليها مع الجميع صـــــلاة — وتحـايا معها أتــم الصــــلاة

وقـال مجيبا الشيخ عبد الحـي الكتانـي[1] عن قصيدة من نظم ولده السيد عبد الأحد[2] في تعزيته في والدته:

جاءت تعزيني وعيني تدمـــــع — وأنا بمـــا قــد هالنـــــي أتوجـــع
جاءت ولم أملك لنفسي رشدهـــا — والحـال مني بالمصـاب مـــروع
نظرت لحالي بعدمـا كنت تـرى — أني لكل ملمـــة لا أجــــــزع
فغدت تكف بكفها دمعي ولــــي — ترثي وقلبـي بالجوى يتقطـــــع
وغدت تصبرنـي وحالي زائـــد — والصبـر فيما نابني[3] لا ينفـــع
ولقد دهشت لحالها إذ أقبـــلت — في حسنهـــا والنور منها يلمـــع
ما كنت أحسبها تمن بعطفـــة — عن بغتـــة والنفس منـي تضرع
فظننت أني في المنام رأيتهـــا — وبوصلها مـا كان قلبي يطمـــع
تلك التي قد زدت فيها لوعـــة — وبلوعتـــــي[4] فيهـا أنا أتمتـــع
تلك التي في الحي أحيت مهجتي — وأنا لعبد الحي عبد يخضـــــع
قد صرت خادم حيها مـن حبهـا — والحب يخفض من دعاه ويرفـــع
وأنا لعبد الحي خادمـه الـــذي — بكمال صدق فيه لا أتزعـــــزع
لم لا أكون له بصدق خادمـــا — ولديه قلبي من يدي لي أطـــوع
بمحبة خلصت وكان نتاجهـــا — صدق الوداد وحبله لا يقطـــــع
و محبة بنيت على أس الإخـــا — أتظن أن حصونـهـا تتضعـــدع
لا لا وحقك لا تزال مشيـــدة — ولهـــا بباطني المقـام الأرفــــع
وسرت محبتنا إلى أبنائنــــــا — وله كمال الفضل فيهـا يرجـــع
ربط القلوب بحبل حب لم يـزل — متـــجددا وبه المودة تــــزرع
من مثل عبد الحي وهو أبو العلا — وذووا العـلا لعلاه حقا تخضــــع
إن قلت بدر فهو فوق البدر فــي — رتب ونور في الدياجـي يسطــع
أو قلت شمس فهو فوق سنائهـا — وبكل قطر نوره متشعشــــــــع[5]
أو قلـت بحر فهو بحر قد حـلا — مـن صدره عين المعـارف تنبـــع

---

[1]- سبق التعريف به ضمن الجزء الأول من هذه الرسائل.
[2]- عبد الأحد بن العلامة المحدث عبد الحي الكتاني، فقيه أديب كاتب شاعر مفلق، توفي مقتولا برصاص الفدائيين يوم السبت 24 ربيع الأول عام 1375 هـ_10 نونبر 1955م. أنظر ترجمته في إتحاف المطالع، لابن سودة 1: 551. موسوعة أعلام المغرب 9: 3307.
[3]- نابني: بمعنى أصابني.
[4]- اللوعة: حرقة الحزن و الهوى و الوجد.
[5]- تشعشع: انتشر ضوءه.

إني لأمدحه وأمدح أصلـــــه مـع نسله والفضـل فيهم يجمــــع
مـن مبلغ عني إليه تحيتـــــي ولنجلـــه ذاك الهمــــام الأروع
فلقد أتتني منـه خير قصيـــدة من ضمنها السحر العجيب الأبــدع
جاءت على نسق به كشف العنا عنا ومنها لي المسرة تطلــــــع
جاءت تعزيني بحلو خطـــابها فحلا بها لي ما أنـــا أتجــــــرع
قد كنت في حزن وفي كدر [1] وفي حتى أتت فأتى سروري أجمــــع
جاءت تعزيني فنلت بها المنـى وجنيت منها ما بـــه أتمتــــع
لله درك يا ابن عبد الحي مـــن مبد لسحر أنت فيه المبـــــدع
أبديـــت بل أبدعــت في تنظيمـــــــــك الدر الذي فيه المحاسن تلمـــــع
سبحان من أعطاك صدرا واسعـــــــــا لبحور شعر مع علــوم تتفــــع
و وقاك من حزب الضلالة حيـــــــــــث ما كانوا و كان لهم لديك المصرع
هـــــم باسمك الاحدى تشتــــــــــــت شملهم فغدا الجميع وقلبه يتقطـــع
فهم الطغاة حقيقـة ومجازهــــم يفضي بهم لردى بهـم متوقــــــع
وهم هـم السفهـاء في آرائهـــم ضلــوا وكل في الضلالة رتـــع [2]
هدموا مشيد المجد مما قد بنـت آباؤهم وجميعهــــــم متنطـــع [3]
هضموا جناب الأولياء وحاربوا الـــــــــــحق الذي يعطي الجميل ويمنــــع
من ذا الذي يرضى بسب جدوده ولبغضـــــهم في كل قلب يزرع
أو ليس من فعل السفيه بأنـــه يهدي سواه وفـــي الغوايـة [4] يركع
هذا لعمرك من سفـــاهة رأيهم وجميعهم في دينه متضعضــــــع [5]
لله درك لا تمل لجموعهـــــم فجميعهم عمـــا قريب يصـــرع
والله يهـدي منهم مـن قصــده نصر الهدى وبقول حق يصـــدع

الحمد لله الذي وهب الخير لأهله، وعمهم بفضله، فنطقوا بحمده وشكره، وعملوا بمقتضى انعامه وبره، في بحره وبره، فزادهم من نعمه، وحفهم برداء كرمه، وأدخلهم لبساط حضرة أنسه، وأجلسهم على كراسي المودة بين عوالم ملائكته وجنه وإنسه، وعرفهم بأنه أتحفهم بالقبول، في حضرة الوصول، بواسطة نبي الرحمة، سيدنا ومولانا محمد الذي هو الواسطة

[1] - الكدر: نقيض الصافي.
[2] - رتع في مكان: أقام و تنعم فيه و أكل و شرب
[3] - تنطع في الكلام: تشدق فيه، و المراد بالمتنطعين هنا أعداء أهل التصوف المحاربون لهم.
[4] - الغواية: الضلالة
[5] - متضعضع: ضعيف

في كل نعمة، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه، وكل من هو معدود من أهل حبه، إلى يوم الدين.

وبعد: فهذه فوائد جليلة، وأجوبة جميلة، جمعتها هنا من سيدتنا الوالدة، متعني الله برضاها، وقصدت بذلك استجلاب خاطر من يقف عليه لإكرامي وإكرامها بدعوة صالحة في ظهر الغيب، عسى أن يغفر الله لنا ما اقترفناه من الذنوب، ويستر ما لدينا من أنواع النقص والعيب. والله المسؤول أن يتجاوز عنا، وأن لا يواخذنا بما صدر منا، ويجعلنا في زمرة من أحبهم، فنظر إليهم بعين الرضى في الدارين، آمين.

سألت سيدتنا الوالدة رضي الله عنها عن سر البسملة والمقصود منها فقالت: البسملة حجاب، ومعنى كونه حجابا أنها تقي كل من قراها، وتقي ما قرأت عليه، وما علقت عليه، وإنها لحصن حصين لقائلها، وإن من كتبها مائة مرة وعلقها عليه، أو على غيره كان كمن علق حرز مرجانة المضروب به المثل في جلب القلوب، وهو حرز كانت بعض جواري بعض الملوك تسمى مرجانة تعلقه عليها، فكانت محبوبة عند الملك محبة كبيرة، وقد توفيت فكاد أن تتلف نفسه من الحزن عليها.

فالبسملة باب لا يتوصل أحد لسر ما في داخل الكتاب إلا بعد التحصيل عليها، ولذلك جعلت في أول الكتاب الكريم، حفظا لما في داخله.

وأفادتني رضي الله عنها في تثقيف ذوات السموم أن يقرأ الشخص (بسم الله الرحمن الرحيم عقدت بها ذنب العقرب، ولسان الحية، ويد السارق، بإذن لاإله إلا الله محمد رسول الله) وكذلك قراءة (سلام على نوح في العالمين[1]، وعلى سيدنا محمد في المرسلين) وهذا الذكر تواظب عليه سيدتنا الوالدة كل ليلة، وتنوي به حفظ نفسها وأولادها، وبحمد الله ما لدغتها حية، ولا لدغتها عقرب في عمرها إلى الآن، وكذلك جميع أولادها الذين من جملتهم كاتب هذه الأحرف إلى الآن ببركة قراءتها لذلك الذكر الشريف. إهـ..

[1]- سورة الصافات، الآية 79

فهرست كتاب: الغنيمـــة البـــاردة، في ترجمـــة سيدنـــا الوالـــد وسيدتنـــا الـــوالدة.

<u>**الصفحة**</u>

ينبوع السلسل
في بعض ما ورد من الحديث المسلسل

للعلامة سيدي أحمد سكيرج رضي الله عنه

تحقيق ذ محمد الراضي كنون
الإدريسي الحسني

رسالة ينبوع السلسل
في بعض ما ورد من الحديث المسلسل[1]

بسم الله الرحمن الرحيم، و صلى الله على سيدنا محمد و آله و صحبه و سلم تسليما. هذه الرسالة المسماة ينبوع السّلسل، في بعض ما ورد من الحديث المسلسل، لخديم الحضرة المحمدية أحمد سكيرج عامله مولاه.

الحمد لله الذي فاض سلسبيل فضله على خلقه، فغمرهم بسلسل مورده في الورود والصدور في جمعه و فرقه، و نصلي و نسلم على الواسطة المكرم في سائر النعم، سيدنا و مولانا محمد ينبوع الفضل و الكرم، و رضي الله عن آله و أصحابه، و كل من تعلق بسبب من أسبابه، أما بعد فهذا تويلف أسميه: ينبوع السلسل، في بعض ما ورد من الحديث المسلسل، قد اقتصرت فيه على الرَّاوي و المتن، و ذكر الحالة المعتبرة في هذا الفن، راجيا من المولى أن ينفع به، و أن يصل حبل القبول بسببه، وقد رويت جل ذلك بفضل الله عمن تصح روايتهم، و كملت بهذا الفن الشريف درايتُهم، و لم أقتصر فيه على ما رويته، بل كل ما وقفت عليه من هذا القبيل ذكرته، و على الله قصد السبيل، وهو حسبنا و نعم الوكيل.

المسلسل بالأولية بقول كل رَاوٍ، و هو أول حديث سمعته منه [2]

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال الراحمون يرحمهم الرحمن تبارك و تعالى. ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء[3].

المسلسل بقول و الله العظيم [4]

عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: و الله العظيم لقد حدثني رسول الله صلى الله عليه و سلم و قال: و الله العظيم لقد حدثني جبريل و قال: بالله العظيم لقد حدثني

---

[1]- يعود تاريخ كتابة هذا التقييد إلى سنة 1327هـ-1909م.

[2]- أنظر الآيات البينات في شرح وتخريج الأحاديث والمسلسلات، لعبد الحفيظ الفاسي 5: 17 رقم 1. الدليل المشير إلى فلك أسانيد الإتصال بالحبيب البشير، لأبي بكر الحبشي العلوي 431-448 رقم 1. حصر الشارد من أسانيد محمد عابد، لمحمد العابد السندي، تحقيق خليل السبيعي 2: 530-541 رقم 1193. جياد المسلسلات، للحافظ السيوطي، تحقيق محمد مكي 73-80 رقم 1.

[3]- سنن الترمذي (كتاب البر والصلة) باب ما جاء في رحمة الناس رقم 1928. مسند الإمام أحمد (مسند عبد الله بن عمرو بن العاص) رقم 6478. سنن أبي داوود (كتاب الأدب) باب في الرحمة رقم 4937.

[4]- أنظر الآيات البينات في شرح وتخريج الأحاديث والمسلسلات، لعبد الحفيظ الفاسي 31-43 رقم 7. الدليل المشير إلى فلك أسانيد الإتصال بالحبيب البشير، لأبي بكر الحبشي العلوي 489-493 رقم 30. حصر الشارد من أسانيد محمد عابد، لمحمد العابد السندي، تحقيق خليل السبيعي 2: 604-609 رقم 1243.

ميكائيل عليه السلام و قال: بالله العظيم لقد حدثني إسرافيل عليه السلام و قال: قال الله تعالى: يا إسرافيل بعزتي و جلالي و جودي و كرمي من قرأ بسم الله الرحمن الرحيم متصلة بفاتحة الكتاب مرة واحدة اشهدوا عليّ أني غفرت له، و قبلت منه الحسنات، و تجاوزت عنه السيئات، و لا أحرق لسانه في النار، و أجيره من عذاب القبر، و عذاب النار، و عذاب القيامة، و الفزع الأكبر، و يلقاني قبل الأنبياء والأولياء أجمعين.

المسلسل بالمصافحة و قول الراوي بعدها السلام عليكم [1]

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: صافحت بكفي هذه كف رسول الله صلى الله عليه و سلم فما مسست خزا و لا حريرا ألين من كفه صلى الله عليه و سلم[2].

المسلسل بالمصافحة من طريق الخضر [3]

عن المعمر أبي العباس الملثم قال: صافحني المعمر (يعني الخضر) قال: صافحني النبي صلى الله عليه و سلم و قال: من صافحني أو صافح من صافحني إلى يوم القيامة دخل الجنة.

المسلسل بالمصافحة الشمهروشية [4]

عن القاضي أبي محمد شمهروش قال: اجتمعت مع رسول الله صلى الله عليه و سلم في جبل أحد فقال لي: يا شمهروش صافحني فإنه من صافحني أو صافح من صافحني أو صافح من صافحني إلى سبع مرات دخل الجنة من غير سابقة العذاب.

المسلسل بالمصافحة المومنية الناصرية [5]

عن أبي العباس أحمد الناصري قال: صافحني عبد المومن الجني البدري الصحابي كما صافحه رسول الله صلى الله عليه و سلم.

---

[1]- أنظر الآيات البينات في شرح وتخريج الأحاديث والمسلسلات، لعبد الحفيظ الفاسي 187. الدليل المشير إلى فلك أسانيد الإتصال بالحبيب البشير، لأبي بكر الحبشي العلوي 463-466 رقم 12. حصر الشارد من أسانيد محمد عابد، لمحمد العابد السندي، تحقيق خليل السبيعي 2: 541-545 رقم 1194. جياد المسلسلات، للحافظ السيوطي، تحقيق محمد مكي 134-140 رقم 8.

[2]- إشارة للحديث الذي رواه البخاري في صحيحه عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال: ما مسست حريرًا ولا ديباجًا ألين من كف النبي صلى الله عليه وسلم، ولا شممت ريحًا قط أو عرفًا قط أطيب من ريح (أو عرف) النبي صلى الله عليه وسلم. إهـ. صحيح البخاري (كتاب المناقب) باب صفة النبي صلى الله عليه وسلم رقم 3485.

[3]- أنظر الآيات البينات في شرح وتخريج الأحاديث والمسلسلات، لعبد الحفيظ الفاسي 204-207. الدليل المشير إلى فلك أسانيد الإتصال بالحبيب البشير، لأبي بكر الحبشي العلوي 469-470 رقم 16. حصر الشارد من أسانيد محمد عابد، لمحمد العابد السندي، تحقيق خليل السبيعي 2: 547-548 رقم 1196.

[4]- أنظر الآيات البينات في شرح وتخريج الأحاديث والمسلسلات، لعبد الحفيظ الفاسي 207-213.

[5]- لم أقف على مصدره

المسلسل بالمشابكة [1]

عن أبي هريرة رضي الله عنه، شبك سيدي أبو القاسم صلى الله عليه و سلم و قال: خلق الله تعالى الأرض يوم السبت، و الجبال يوم الأحد، و الشجر يوم الإثنين، والمكروه يوم الثلاثاء، و النور يوم الأربعاء، و الدواب يوم الخميس، و آدم يوم الجمعة.

المسلسل بوضع اليد على الرأس [2]

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: ما منكم من أحد ينجيه عمله من النار و يدخله الجنة إلا رحمة الله عز و جل. قالوا: و لا أنت يا رسول الله؟ قال: و لا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته[3] و فضله. و وضع رسول الله صلى الله عليه و سلم يده على رأسه. ووضع أبو هريرة يده على رأسه. و هاكذا إلى الشيخ المروي عنه.

المسلسل بالضيافة على الأسودين [4]

عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: أضافني رسول الله صلى الله عليه و سلم على الأسودين التمر و الماء. ثم قال: من أضاف مومنا فكأنما أضاف آدم، و من أضاف مومنين فكأنما أضاف آدم و حواء، و من أضاف ثلاثا فكأنما أضاف جبريل وميكائيل و إسرافيل، و من أضاف أربعة فكأنما قرأ التوراة و الإنجيل و الزبور

---

[1]- أنظر الآيات البينات في شرح وتخريج الأحاديث والمسلسلات، لعبد الحفيظ الفاسي 213-223 رقم 7. الدليل المشير إلى فلك أسانيد الإتصال بالحبيب البشير، لأبي بكر الحبشي العلوي 471-472 رقم 18. حصر الشارد من أسانيد محمد عابد، لمحمد العابد السندي، تحقيق خليل السبيعي 2: 550-552 رقم 1199. جياد المسلسلات، للحافظ السيوطي، تحقيق محمد مكي 123 -133 رقم 7. معرفة علوم الحديث، للحاكم النيسابوري 33-34 (ضمن النوع الثامن من المسلسل). الفوائد الجليلة في مسلسلات ابن عقيلة، لمحمد ابن عقيلة رقم 4.

[2]- أنظر الآيات البينات في شرح وتخريج الأحاديث والمسلسلات، لعبد الحفيظ الفاسي 261-265 رقم 14. الدليل المشير إلى فلك أسانيد الإتصال بالحبيب البشير، لأبي بكر الحبشي العلوي 504-505 رقم 39. حصر الشارد من أسانيد محمد عابد، لمحمد العابد السندي، تحقيق خليل السبيعي 2: 552-554 رقم 1200. جياد المسلسلات، للحافظ السيوطي، تحقيق محمد مكي 141 -147 رقم 9.

[3]- قريب منه قوله صلى الله عليه وسلم: لن ينجيَ أحدٌ منكم عملُهُ، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة، سددوا وقاربوا واغدوا وروحوا، وشيء من الدلجة، والقصد القصد تبلغوا. إهـ. صحيح البخاري (كتاب الرقاق) باب القصد والمداومة على العمل رقم 6316. صحيح مسلم (كتاب صفة القيامة) باب لن يدخل أحد الجنة بعمله رقم 7060 رقم 7062 رقم 7063 رقم 7065 رقم 7066 رقم 7070 رقم 7071.

[4]- أنظر الآيات البينات في شرح وتخريج الأحاديث والمسلسلات، لعبد الحفيظ الفاسي 290-294 رقم 21. الدليل المشير إلى فلك أسانيد الإتصال بالحبيب البشير، لأبي بكر الحبشي العلوي 508-510 رقم 42. حصر الشارد من أسانيد محمد عابد، لمحمد العابد السندي، تحقيق خليل السبيعي 2: 579-581 رقم 1223.

والفرقان، و من أضاف خمسا فكأنما صلى الصلوات الخمس في الجماعة من أول يوم خلق الخلق، و من أضاف ستة فكأنما أعتق ستين رقبة من ولد إسماعيل، و من أضاف سبعة غلقت عنه أبواب جهنم السبعة، و من أضاف ثمانية فتحت له ثمانية أبواب الجنة، و من أضاف تسعا كتب الله له حسنات بعدد من عصاه من أول يوم خلق الله الخلق إلى يوم القيامة، و من أضاف عشرة كتب الله له أجر من صلى وصام و حج و اعتمر إلى يوم القيامة.

المسلسل بالأمر بوضع اليد على الرأس عند ختم سورة الحشر [1]

عن عبد الله قال: لما قرأت على رسول الله صلى الله عليه و سلم لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله قال: يدك على رأسك، فإن جبريل لما نزل بها إلي قال لي: ضع يدك على رأسك، فإنها شفاء من كل داء إلا السام، و السَّام الموت.

المسلسل بوضع اليد على الكتف [2]

عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه قال: حدثني حبيبي رسول الله صلى الله عليه وسلم و يده على كتفي، قال: سمعتُ جبريل عليه السلام و يده على كتفي، قال: سمعت إسرافيل عليه السلام و يده على كتفي، قال: سمعت القلم يقول، سمعت اللوح يقول، سمعت الله عز و جل فوق العرش يقول للشيء كن فلا يبلغ الكاف النون إلا ويكون الذي يكون.

المسلسل بأخذ بيدي [3]

عن أنس بن مالك قال: جاء رجل من الحرب فقال: يا رسول الله متى الساعة؟ فقال وما أعددت لها؟ فقال: ما أعددت لها كثير صلاة و لا صيام و لا صدقة، إلا أني أحب الله و رسول الله، فقال: المرء مع من أحب[4].

---

[1]- أنظر الآيات البينات في شرح وتخريج الأحاديث والمسلسلات، لعبد الحفيظ الفاسي 129-136 رقم 28. حصر الشارد من أسانيد محمد عابد، لمحمد العابد السندي، تحقيق خليل السبيعي 2: 554-555 رقم 1201.

[2]- أنظر الآيات البينات في شرح وتخريج الأحاديث والمسلسلات، لعبد الحفيظ الفاسي 265-269 رقم 15. حصر الشارد من أسانيد محمد عابد، لمحمد العابد السندي، تحقيق خليل السبيعي 2: 555-556 رقم 1202.

[3]- أنظر الآيات البينات في شرح وتخريج الأحاديث والمسلسلات، لعبد الحفيظ الفاسي 251-261 رقم 13. حصر الشارد من أسانيد محمد عابد، لمحمد العابد السندي، تحقيق خليل السبيعي 2: 557-558 رقم 1204.

[4]- قريب منه ما رواه البخاري عن عبد الله بن مسعود قال: جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله كيف تقول في رجل أحب قومًا ولم يلحق بهم؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: المرء مع من أحبَّ. إهـ.. صحيح البخاري (كتاب الأدب) باب علامة الحب في الله رقم 6026 رقم 6027. صحيح مسلم (كتاب البر والصلة) باب المرء مع من أحب رقم 6669.

المسلسل بقول الراوي عدهنّ بيدي [1]
عن علي بن أبي طالب قال: عدّهّن في يدي رسول الله صلى الله عليه و سلم و قال: عدهنّ في يدي جبريل عليه السلام و قال: هاكذا نزلت بهن من عند الله رب العزة جل و علا:
اللهم صل على محمد و على آل محمد كما صليت على إبراهيم و على آل إبراهيم إنك حميد مجيد
اللهم و بارك على محمد و على آل محمد كما باركت على إبراهيم و على آل إبراهيم إنك حميد مجيد
اللهم و ترحم على محمد و على آل محمد كما ترحمت على إبراهيم و على آل إبراهيم إنك حميد مجيد
اللهم و تحنن على محمد و على آل محمد كما تحننت على إبراهيم و على آل إبراهيم إنك حميد مجيد
اللهم و سلم على محمد و على آل محمد كما سلمت على إبراهيم و على آل إبراهيم إنك حميد مجيد

المسلسل بمسح الأرض باليد [2]
عن أبي قتادة قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم: من كذب علي متعمدا فليعد بجنبه مضجعا من النار[3]، و جعل رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول ذلك ويمسح الأرض بيده، و مسح أبو قتادة يده بالأرض كما مسح رسول الله صلى الله عليه و سلم، و هكذا فعل كل واحد من الرواة.

---

[1]- أنظر الآيات البينات في شرح وتخريج الأحاديث والمسلسلات، لعبد الحفيظ الفاسي 240-251 رقم 12. الدليل المشير إلى فلك أسانيد الإتصال بالحبيب البشير، لأبي بكر الحبشي العلوي 506-508 رقم 41. حصر الشارد من أسانيد محمد عابد، لمحمد العابد السندي، تحقيق خليل السبيعي 2: 557-558 رقم 1204. جامع الأحاديث والمراسيل 18: 480 رقم 13033. كنز العمال، للمتقي الهندي (المجلد الأول) 1: 155 رقم 2183 (المجلد الثاني) 1: 266 رقم 3991.
[2]- أنظر الآيات البينات في شرح وتخريج الأحاديث والمسلسلات، لعبد الحفيظ الفاسي 269-274 رقم 16. الدليل المشير إلى فلك أسانيد الإتصال بالحبيب البشير، لأبي بكر الحبشي العلوي 505-506 رقم 40. حصر الشارد من أسانيد محمد عابد، لمحمد العابد السندي، تحقيق خليل السبيعي 2: 558-559 رقم 1205.
[3]- قريب منه ما رواه الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من كذب عليَّ متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار. إهـ.. صحيح مسلم (حال بعض الرواة) باب تغليظ الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم رقم 4.

المسلسل بعض السبابة [1]

عن عبد الله بن مسعود في قول الله عز و جل: فردوا أيديهم في أفواههم قال: و قالوا هكذا، وعضّ على أصبعه السبابة، و هكذا عض كل واحد من الرواة.

المسلسل بالقبض على اللحية [2]

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: لا يجد العبد حلاوة الإيمان حتى يومن بالقدر خيره و شره، حلوه و مره، قال: و قبض رسول الله صلى الله عليه و سلم على لحيته فقال: آمنت بالقدر خيره و شره، حلوه ومره، و قبض أنس على لحيته و قال: آمنت بالقدر خيره و شره حلوه و مره، و فعل هاكذا كل واحد من الرواة.

المسلسل بالنظر في المصحف [3]

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: اشتكيت عيني، فشكوت إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم فقال لي: انظر في المصحف فإني اشتكيت عيني فشكوت إلى جبريل فقال لي: انظر في المصحف فإني اشتكيت عيني فشكوت إلى ربي فقال لي: انظر في المصحف. و هكذا قال كل راو.

المسلسل بقراءة سورة الصف [4]

عن عبد الله بن سلام قال: قعدنا نفرا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه و سلم فتذاكرنا و قلنا: لو نعلم أي الأعمال أقرب إلى الله تعالى لعملناه، فأنزل الله عز و جل: سبح لله ما في السماوات و ما في الأرض و هو العزيز الحكيم، يا أيها الذين آمنوا لم

---

[1]- أنظر الآيات البينات في شرح وتخريج الأحاديث والمسلسلات، لعبد الحفيظ الفاسي 279-284 رقم 18. الدليل المشير إلى فلك أسانيد الإتصال بالحبيب البشير، لأبي بكر الحبشي العلوي 502-503 رقم 37. حصر الشارد من أسانيد محمد عابد، لمحمد العابد السندي، تحقيق خليل السبيعي 2: 560 رقم 1206.

[2]- أنظر الآيات البينات في شرح وتخريج الأحاديث والمسلسلات، لعبد الحفيظ الفاسي 274-279 رقم 17. الدليل المشير إلى فلك أسانيد الإتصال بالحبيب البشير، لأبي بكر الحبشي العلوي 500-502 رقم 36. حصر الشارد من أسانيد محمد عابد، لمحمد العابد السندي، تحقيق خليل السبيعي 2: 560-562 رقم 1207. جياد المسلسلات، للحافظ السيوطي، تحقيق محمد مكي 220-230.

[3]- أنظر الآيات البينات في شرح وتخريج الأحاديث والمسلسلات، لعبد الحفيظ الفاسي 125-129 رقم 27. حصر الشارد من أسانيد محمد عابد، لمحمد العابد السندي، تحقيق خليل السبيعي 2: 563-564 رقم 1209.

[4]- أنظر الآيات البينات في شرح وتخريج الأحاديث والمسلسلات، لعبد الحفيظ الفاسي 17-20 رقم 2. الدليل المشير إلى فلك أسانيد الإتصال بالحبيب البشير، لأبي بكر الحبشي العلوي 456-459 رقم 9. حصر الشارد من أسانيد محمد عابد، لمحمد العابد السندي، تحقيق خليل السبيعي 2: 565-567 رقم 1212. جياد المسلسلات، للحافظ السيوطي، تحقيق محمد مكي 111-122 رقم 6. مسند الإمام أحمد (حديث عبد الله بن سلام رضي الله عنه) 6: 632 رقم 23404. المستدرك، للحاكم النيسابوري (كتاب التفسير) قراءة سورة الصف مسلسلا إلى المؤلف 2: 528 رقم 3853.

تقولـون مـا لا تفعلـون، كبـر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون، حتى ختمها. قال عبد الله: فقرأها علينا رسول الله صلى الله عليه و سلم حتى ختمها. و هكذا قال كل راو.

المسلسل بقراءة آية الكرسي [1]

عن أبـي أمامـة الباهلي رضي الله عنه قال: سمعت عليا رضي الله عنه يقول: ما أرى رجـلا أدرك عقلـه الإسـلام أو ولو في الإسلام يبيت ليلة حتى يقرأ هذه الآية: الله لا إله إلا هو الحـي القيوم إلـى آخرها. قـال لو تعلموها ما هي، أو قال ما فيها لما تركتموها علـى حـال، إن رسـول الله صـلى الله علـيه و سلم قـال: أعطيت آيـة الكرسـي مـن كنـز تحت العرش لم يوتها نبـي كـان قبلـي، قـال علـي: فمـا بـت ليلة قط مذ سمعت هذا من رسـول الله صـلى الله عليه و سلم حتـى أقرأها، و لا تـركتها مـذ سمعنا هذا الخبر من نبيكم صـلى الله عليه و سلم، و قـال أبـو أمامـة: مـا تـركت قراءتها مـذ سمعنا هذا من علي رضي الله عنه، و هكذا قال جميع الرواة.

المسلسل بقراءة إنا أعطيناك الكوثر [2]

عن أنـس بن مالك رضي الله عنه قال: أغفى رسول الله صلى الله عليه و سلم إغفاءة، فرفـع رأسـه متبسـما، قالـوا: لـم ضـحكت؟ فقـال صلى الله عليه و سلم: إني أنزلت علـيّ آنفـا سـورة، فقرأ بسم الله الـرحمن الـرحيم إنا أعطيناك الكوثر حتى ختمها، قال صلى الله علـيه و سـلم: هـل تـدرون مـا الكوثـر؟ قالـوا: الله و رسـولـه أعلـم، قـال: هـو نـهـر أعطانـيه ربـي عـز و جـل فـي الجنـة، عليه خير كثير، ترد عليه أمتي يوم القيامة، قال أنـس: فقرأهـا علينـا النبـي صـلى الله عليه و سـلم حتـى خـتمها، و هكـذا قـال كـل راو، فقرأها علينا حتى ختمها.

المسلسل بقول أعوذ بالله من الشيطان الرجيم [3]

عـن عـبد الله بـن مسـعود رضـي الله عنـه قـال: قـرأت علـى رسـول الله صـلى الله علـيه وسـلم فقلـت: أعـوذ بالسـميع العلـيم، فقـال لـي: يـا ابن أم عبد قل أعوذ بـالله من الشيطان

[1]- أنظر الآيات البينات في شرح وتخريج الأحاديث والمسلسلات، لعبد الحفيظ الفاسي 20-22 رقم 3. الدليل المشير إلى فلك أسانيد الإتصال بالحبيب البشير، لأبي بكر الحبشي العلوي 461-462 رقم 10. حصر الشارد من أسانيد محمد عابد، لمحمد العابد السندي، تحقيق خليل السبيعي 2: 567-568 رقم 1213.

[2]- أنظر الآيات البينات في شرح وتخريج الأحاديث والمسلسلات، لعبد الحفيظ الفاسي 22-25. الدليل المشير إلى فلك أسانيد الإتصال بالحبيب البشير، لأبي بكر الحبشي العلوي 461 رقم 9. حصر الشارد من أسانيد محمد عابد، لمحمد العابد السندي، تحقيق خليل السبيعي 2: 568-569 رقم 1214.

[3]- أنظر الآيات البينات في شرح وتخريج الأحاديث والمسلسلات، لعبد الحفيظ الفاسي 95-100. الدليل المشير إلى فلك أسانيد الإتصال بالحبيب البشير، لأبي بكر الحبشي العلوي 479-481 رقم 24. حصر الشارد من أسانيد محمد عابد، لمحمد العابد السندي، تحقيق خليل السبيعي 2: 569-571 رقم 1215.

الرجيم، هكذا أقرأنيه جبريل عن القلم عن اللوح المحفوظ، و هكذا قال كل راو لمن قرأ أعوذ بالسميع العليم قل أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

المسلسل بالسجود في قراءة سورة إذا السماء انشقت [1]

قال أبو هريرة رضي الله عنه: قرأ علي النبي صلى الله عليه و سلم سورة إذا السماء انشقت حتى ختمها فسجد و هكذا...

[1]- أنظر الآيات البينات في شرح وتخريج الأحاديث والمسلسلات، لعبد الحفيظ الفاسي 284-287 رقم 19. الدليل المشير إلى فلك أسانيد الإتصال بالحبيب البشير، لأبي بكر الحبشي العلوي 459-460 رقم 8. حصر الشارد من أسانيد محمد عابد، لمحمد العابد السندي، تحقيق خليل السبيعي 2: 571-572 رقم 1216.

المسلسل
بالسادة الأشراف في غالبه [1]

بسم الله الرحمن الرحيم هذه أربعون حديثا تروى مسلسلة إلى النبي صلى الله عليه وسلم عن زين العابدين عن الحسن عن علي ابن أبي طالب قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم:

1) الحرب خدعة
2) ليس الخبر كالمعاينة
3) المسلم مرءاة المسلم
4) المستشار مؤتمن
5) الدال على الخير كفاعله
6) استعينوا على الحوائج بالكتمان
7) اتقوا النار و لو بشق ثمرة
8) الدنيا سجن المومن و جنة الكافر
9) الحياء خير كله
10) عِدَةُ المومن كأخذ الكف
11) لا يحل للمومن أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام
12) ليس منا من غشنا
13) ما قل و كفى خير مما كثر و ألهى
14) الراجع في هبته كالراجع في قيئه
15) البلاء موكل بالمنطق
16) الناس كأسنان المشط
17) الغنى غنى النفس
18) السعيد من وعظ بغيره
19) إن من الشعر لحكما و إن من البيان لسحرا
20) عفو الملوك أبقى للملك
21) المرء مع من أحب
22) ما هلك امرؤ عرف قدره
23) الولد للفراش و للعاهر الحجر
24) اليد العليا خير من اليد السفلى
25) لا يشكر الله من لا يشكر الناس
26) حبك الشيء يعمي و يصم

---

[1] - أنظر الدليل المشير إلى فلك أسانيد الإتصال بالحبيب البشير، لأبي بكر الحبشي العلوي 511-513. حصر الشارد من أسانيد محمد عابد، لمحمد العابد السندي، تحقيق خليل السبيعي 2: 621-623 رقم 1252.

27) جبلت النفوس على حب من أحسن إليها و بغض من أساء إليها
28) التائب من الذنب كمن لا ذنب له
29) الشاهد يرى ما لا يرى الغائب
30) إذا جاءكم كريم قوم فأكرموه
31) اليمين الفاجرة تدع الديار بلاقع
32) من قتل دون ماله فهو شهيد
33) الأعمال بالنية
34) سيد القوم خادمهم
35) خير الأمور أوسطها
36) اللهم بارك لأمتي في بكورها يوم الخميس
37) كاد الفقر أن يكون كفرا
38) السفر قطعة من العذاب
39) المجالس بالأمانة
40) خير الزاد التقوى

قال الحافظ زين الدين العراقي هذا أكثر حديث في التسلسل بالآباء و قال الشيخ عبد الغني ينبغي حفظ هذه الأحاديث الشريفة و يكون الإنسان يقرؤها على جهة التبرك والإفادة. إهـ

رسالة الإمتنان والرحمة
على سائر الأمة

للعلامة سيدي أحمد سكيرج رضي ا عنه

تحقيق ذ محمد الراضي كنون
الإدريسي الحسني

رسالة الإمتنان و الرحمة

إلى سائر الأمة[1]

بسم الله الرحمن الرحيم و صلى الله على الفاتح الخاتم و على آله و صحبه و سلم.
إن أحسن ما ينفق في اقتنائه أنفس الأنفاس. و تتنافس في المسارعة لإدراك نتيجته نفوس الأكياس. حمد الله الذي به تتم الصالحات. و تنال به الرغائب. و تقضى به المطالب. من جميع الخيرات. في الحياة و بعد المماة. فنحمده سبحانه، و هو أهل الحمد في كل ما أخفاه أو أظهره. ونشكره على ما أولانا و هو أهل التقوى و أهل المغفرة.

خلق الخلق و أعطى — كل خلق ما استحقــه
و تعالى الله قـــدرا — أن يوافي الخلق حقـه

تفضل على الخلق بنعمة الإيجاد و الإمداد. فعم الوجود بجود ماله من نفاد.

فعم و خص بما شاء مـن — مواهب من بحر فضل وجود
فلم تخل عن سر إمــداده — و ألطافه ذرة في الوجـــود

و أعظم نعمة أولانا مولانا. أن جعلنا من أمة عبده الذي اختاره فضلا و امتنانا. و قد تمنى الأنبياء أن يكونوا منها مع جلالة مقدارهم. و علو مناصبهم. و كمال أنوارهم. و ما ذاك إلا لما لها من الخصوصية بهذا النبي الرسول. الذي رفع الله ذكره. و عظم قدره. فصلى الله عليه وعليهم أزكى صلاة و أذكى سلام. و على آله و صحبه و التابعين من الأنام طول الدوام. ورضي الله عن شيخنا يم المعارف. و برزخ اللطائف و الطوائف. الآخذ من الضمان

[1] - هو من مؤلفاته القديمة التي كتبها إبان فترة تواجده بمدينة فاس، وعلى وجه التحديد في خضم سنة 1333 هـ- 1915م، أراد به أن يكون مقدمة وتوطئة لمجموعة من المطالب النبوية العالية، خصوصا وقد وضع يديه على جملة وافرة منها، وذلك لتسهل قراءتها على المطالع من جهة، وليعرف قيمتها ومكانتها السامية من جهة أخرى، مع التنبيه له على ارتداء جلباب التسليم، احترازا من وقوعه فيما لا يحمد عقباه من الإنكار والاعتراض.
والكلام على المطالب يجرنا للحديث عن الواسطة المعظم سيدي محمد بن العربي الدمراوي، نظرا للصلة الوثيقة بينه وبين هذه المطالب العظيمة، ولهذا قال العلامة سيدي أحمد سكيرج في مطلع ترجمته له من كتابه كشف الحجاب: وقد كان واسطة بين سيدنا الشيخ رضي الله عنه وبين النبي صلى الله عليه وسلم، فيما لا يقدر أن يطلبه منه مشافهة لشدة الحياء، كما هي عادة أكابر الأفراد المحمديين، في كونهم يستعملون وسائط بينهم وبينه صلى الله عليه وسلم في طلب ما يريدونه منه، ولا يقدرون أن يخاطبوه من شدة حيائهم منه صلى الله عليه وسلم، واستغراقهم في محاسنه عند الإجتماع به، ونسيان أنفسهم وجميع مطالبهم بين يديه صلى الله عليه وسلم، كما قلت:

إني لأضمر في نفسي مطالب لـي — إذا رأيت حبيب القلب أذكرهـا
حتى إذا ما اجتمعنا صرت ناسيها — كأنني لم أكن من قبل أضمرها

المحمدي مواثق و عهودا. والمانح بالإرث الأحمدي بين الوجود لكل مستمد من الحضرة الأحمدية مددا وجودا. الختم المعلوم. القطب المكتوم. أصيل الشرف الديني و الطيني:

و من محبته في القلب راسخة   قوى بها الله في أولي الهدى ديني

شمس السعادة البازغة في أفق السيادة. أبو الفيض الشيخ المربي بالهمة و الحال، و إكسير السعادة التي تصلح الأحوال. و تنقذ من الأوحال. الغوث الصمداني. سيدنا و مولانا أحمد التجاني، قدس الله سره. و أفاض علينا و على المحبين سره و خيره، و نسأله سبحانه أن يجعلنا من خاصة الخاصة من أحبابه و أصحابه في الدنيا و الآخرة، و يتجاوز بفضله عما اقترفناه سرا و جهرا، إنه ولي ذلك.

و بعد، فإن نفحات العناية تهب على القلوب فتحييها أرواحها. فتنشط الجوارح من عقالها بأكمل نشاط لنيل ما فيه صلاحها. و لا تهب إلا على من خُصَّ بألطاف خفية، و لا يستنشق عرفها الذكي إلا من كُتِبَت له الحسنى في الحضرة العلية. فاستنشق عرفها. فتتبعه حتى شاهد لطفها. ولم تمنعه النفس. عن الدخول لحضرة القدس. و لم تحبسه المعاصرة عن النظر لأهل وقته بعين التعظيم. و لم تحجبه البشرية عن الإهتداء بأهل الله السالكين على الصراط القويم، بل نظر لنفسه بعين الإعتبار. و عرف منها ما لم يعرفه غيره فيه بمعيار الإختبار، فصدق الله في معاملته. و لم يزك نفسه في مجال مجاملته. فصار ينظر إلى المخرج له من مورط التهلكة. التي تجر النفس إليها في كل معركة. فطفق يتعلق بحبالٍ أدلاها الحق من حضرة التقرب إليه لمن ساقه إليها بين الخلق. ألا وهم شيوخ الطريق في كل فريق.

هم الشيوخ دعوا لله فانبعثت   بواعث الخير بالتصديق في زمر
فاستمسكوا منهم بحبل حبهم   فجرهم حبهم للفتح و الظفـــــــر

و هذه عادة الله في خلقه أن من تعلق بحبل من حبال أهل الله لا بد من انفجار ينبوع المعرفة من قلبه بعدما يذوق حلاوة الإنتساب لجنابهم الذي من دخله أمن من شر العاقبة. و انتصر الحق له من معاديه بأشد محاربة. بمقتضى من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب[1]، و قلما سلم في الدنيا من مد يد الإساءة إلى واحد منهم. أو نظر بعين الإعتراض على أحوالهم التي لم يؤمر أهل الإنابة بالاقتداء بهم فيها و أخذها عنهم. و كيف يسلم من التهلكة من ألقى نفسه من شاهق الإنكار. المفضي إلى حضيض البوار. و لقد قيل:

[1]- أنظر نص تخريجه في ص ، ويعجبني في هذا الصدد قول الشيخ إبراهيم الرياحي التونسي ضمن قصيدته الميمية المشهورة حيث قال:

لا تجادل في الأولياء وسلـم   قبل توتير قوس أيـــــــد رام
بشر الخائضين فيهم بحرب   من قوي في بطشه ذي انتقام
ربِّ إني صدقت كل ولـــيٍّ   راعيا قدرهم بعين احتــــرام
غير أن ابن سالم هو شيخي   وملاذي وعمدتي وإمامـــــي

أبى الله إلا أن يعظم جانبـــــــــه و يرغم من يزري به و يجانبه
و كل امرئ أضحى يريش سهامه ليؤذي أهل الله فهو محاربـــــه
و ليس بناج لا محالة من غـــــدا محاربه هيهات و الله طالبـــــه

أما و الله لا منجى له و لا منحى إلا المسارعة بالتوبة. قبل توثير قوس الحرمان بسهم الطرد له عن الحضرة التي لا يدخلها من كان مثله منظورا بعين المقت عند الله و رسوله. بما جره على نفسه بالإعتراض على أهل الله. و النظر إلى أي فرد منهم بعين لا ينبغي أن ينظر بها لما له من الحرمة عند الله، فإن أهل الخصوصية مؤيدون على رغم أنوف المبغضين. و كلهم على قلب واحد في المدافعة عن حماهم بطرد من فيه أدنى بغض للبعض منهم، و الإنتصار لكل فرد منهم انتصار لله. و بانتصارات البعض للبعض ينهزم المعادون و المعاندون، أولائك حزب الله. ألا إن حزب الله هم الغالبون.

إن أهل الله في الخلق لهم رتبة تعنو لها كل الـــرؤوس
كل من عـــاداهم مجندل حل في بوس به تفنى النفوس

حتى قيل لو كشف الغطاء عن المعترض على أهل الله و المؤذي لهم و لآل البيت لريء بالعيان مسربلا بسربال المقت. متجردا عن حلل الإيمان. متأبطا شرا يفضي به في الدارين للخسران. عياذا بالله من الخذلان. ولهذا تجد العارفين بالله يحثون على تعظيم الشيوخ. وعلى احترامهم والنظر لحرمهم بعين الإجلال. والإذعان لهم في كل مقام لما لهم في جناب الحق من عنايته بهم من كمال الرسوخ. و لم يتصدر شيخ منهم صادق في حاله و مقاله إلا و كان أول ما يصدع به من الأوامر التي لا تصح الرابطة بينه و بين متابعيه إلا باتباعها. و شد اليد على عروتها هو الاشتراط عليهم من أول السير إلى منتهاه احترام أهل النسبتين.

و إن طريق الحق تدعو مريدها ألا إن سري في احترام الشيوخ
فإن رمت يا هذا الوصول حقيقة إلى الله كن في حبهم ذا رسوخ

فالنسبة الأولى الإنتساب إلى الله. فمن قام بلسان الدعوة. و توفرت فيه شروطها بين أهل الفتوة. بحيث لم يبح حراما أو يمنع حلالا. و لا علم لديه في الباطن أو الظاهر. و لا فرقان له يهتدي بنوره من أول الآخر و إلا تنزل عليه قول الششتري:

إذا لم يكن علم لديه بظاهر و لا باطن فاضرب به لجج البحر [1]

و مراده بالضرب به الإضراب عنه بتطلب غيره، فمن توفرت فيه تلك الشروط لأنه لا يصلح للإقتداء من لم تلح عليه دلائل الإهتداء، و هذا في حق من يبحث عن الشيوخ للتعلق بحبالهم ليوصلوه إلى الغاية التي لا مطلب بعدها، فإنه لا يليق به إلا من تَوَّجَهُ الله من العلم والمعرفة بتاج القبول، و نهج على منهج الحق في متابعة الرسول صلى الله عليه و سلم، ومع

---

[1]- هو البيت السادس عشر من القصيدة المسماة (أنوار السرائر وسرائر الأنوار) للعلامة الصوفي أحمد بن محمد الشريشي.

هذا فلا يعرض عنه بتجريد حسام الإنكار، و إلا صادمه ما يعارضه في سيره من شديد البوار.

أما العالم المحق فإن رأى مخالفة في ما لديه من الرسوم العلمية و الحدود الشرعية التي أمره الشارع بإنكارها و الإعتراض على المتجاهر بها. و قام بواجب ما أمر به فهو إن سلم من حظ النفس في الإنكار على من تلك حاله في إقبال أو إدبار فيرجى له السلامة. غير أنه قل من يسلم من حظوظ النفس من الجامدين على النصوص الظاهرية، فإنكارهم غالبا مشوب بها. و بمجرد ما يكون مشوبا أوقع صاحبه فيما لا يحمده في العاجل. و يسوءه في الآجل. فالسلامة في حق الكثير من أهل العلم غير متحققة لهم. و لكن الحق فيما قيل:

إن السلامة من سلمى و جارتها　　　　أن لا تحل على حال بواديها[1]

و أما النسبة الثانية فهي الإنتساب إلى الرسول صلى الله عليه و سلم ممن هو من أهل بيته الذين لا يدخل الإيمان قلب أحد إلا إذا تمكن فيه حبهم. و لا يصح الحب إلا باحترامهم. و لا أقل من الإحترام في الظاهر من ترك مواجهتهم بما يؤذيهم في غير استخراج حق. فإن استخراج الحقوق منهم على وجه لا يخرجهم به من النسبة من كلف بإخراج الحقوق لا يعد من الإذاية لهم التي توجب منه لجدهم العقوق. غير أن النفوس قد تراكم عليها الضلال. فضلت في الغالب عن استخراج الحق من غير استطالة أو انتهاك حرمة. إلا في نادر ممن لاحظتهم العناية. فلم يفرطوا بضياع الحقوق. و لم يفرطوا بما يؤديهم للعقوق.

فالسلامة في هذا الموطن إنما تتحقق لمن لم يتداخل بين أهل النسبة بأدنى اعتساف. وأنصفهم من نفسه بما لا شيء فوقه من الإنصاف، أما الحب الباطني في جانبهم لو تغير بأدنى شعرة في هذه النسبة لانسل الإيمان من القلب المتغير كما تسل الشعرة من العجين، و لو كان له في نفسه من الشرف القدم المكين، و لكن لا شرف إلا لمن لهم هذه النسبة، فهي لا تسلب عنهم ولا تنزع، و هو الذي أعتقده بحمد الله في البضعة المحمدية من أنه لا يشوبها أدنى دنس. فهي جوهرة في غاية الصفاء

أقول قولا حسنا قلتــه　　　　ما النفس فيما قلته آثمــه
لكل شيء جوهر حسن　　　　و جوهر الخلق بنو فاطمه[2]

و لا بدع أن قضى الحق أن لا يوجد منهم بين الخلق إلا طاهر ابن طاهر و طيب ابن طيب. وأن لا يتكون من نطفة زنى من زنى منهم ولد. و أن لا يموت على غير الإيمان في الباطن منهم أحد. و إن كان غير المعصوم ليس بمعصوم من الوقوع في الذنب، و لكن في اعتقادي

---

[1]- ذكره العلامة أبو حيان التوحيدي في كتابه: الصداقة والصديق، وذلك بتركيب آخر غير هذا التركيب، حيث قال: ولقد قلت لابن أبي كانون: لِمَ لا تخالط أصحاب ابن الرازي؟ فأنشد:

إن السلامة من سلمى وجارتها　　　　أن لا تمر بواديها على حال

[2]- هما للوزير الشاعر الأديب المعروف بالصاحب بن عباد

أن البضعة المحمدية محفوظة بعناية الله إلى قيام الساعة من مثل هذا الثلب[1]. فإن فرض أحد في الظاهر أنه منهم و توفي على غير الإيمان فهو في الحقيقة منتحل للشرف، دخيل في أهل النسبة العالية الشرف.

فأكرم بساداتنا آل البيت الكرام. فقد نزه الله ساحتهم عما يكون عرضا تستحيل به العين إلى الخبث، بعدما جزمنا بأنهم أطيب الخلق لارتباط تناسلهم بحبل الأصل. و هو الشرف الذاتي من سيد الرسل. فهم منه و إليه. فشرفهم مُحَقَّق. و هو اعتماد أهل الحق. و قد طغى هنا في هذا المقام علم قوم فتعدوا قدرهم بالطعن في الأنساب. و جاوزوا حدهم بما أوقعهم في سوء الظنون بهم بين الأعداء و الأحباب، حتى قال بعض طغاة الشعراء:

أكثر وطء الناس من شبهة ... أو من زنى و الحل فيهم قليل
فابن حلال نادر نـــــادر ... و النادر النادر كالمستحيـل

و لما سمع بهذا ابن المظفر أجابه متهكما عليه:

ألا قل لسيدنا الشـــــاعر ... و لا تخش من طبعه النافر
أمن شبهة أنت أم من زنى ... فما أنت بالنادر النـــادر[2]

[1]- إشارة للفضائل الجمة التي منحها الله لساداتنا أهل البيت النبوي الكريم، ولعل من أبرزها تطهيرهم من الرجس بمقتضى قوله تعالى: إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا. إهـ.. فهم محفوظون من الدنس والأوساخ والرعونات، مأمونون من الممات على غير هذا الدين الحنيف، ولهذا قال في حقهم مولانا الشيخ رضي الله عنه: عصاة أهل البيت يسلك بهم مسلك أهل بدر، يقال لهم اعملوا ما شئتم قد غفرت لكم، وأما أهل التوفيق منهم فلا يلحقهم غيرهم، وذا مذهب أهل التحقيق. ورحم الله العلامة الشاعر عبد الله بن محمد الشبراوي، أحد مشايخ جامع الأزهر الشريف، حيث قال في قصيدة له في الغرض نفسه:

أنا في عرض آل بيت نبـــي ... طهر الله بيتهم تطهيـــــــــرا
سادة أتقياء أعطاهم اللـــــــــــــــــه مقاما ضخما وملكا كبيرا

إلى أن قال:

يا بحور الكمال يا آل طــــه ... كم مننتم وكم جبرتم كسيـرا
كم أغثتم من جاءكم مستغيثا ... وأجرتم من جاءكم مستجيرا

إلى أن قال في ختامها:

يا أخا الشوق هل ترى لبني عبـــــــــد مناف في العالمين نظيـــرا
هل على غير بيتهم نزل الوحـــــــــــــي بجبريل خادما مأمـــورا
هل سواهم قد أذهب الله عنــه ... الرجس نَصًّا في ذكره مسطورا
لا ومن خصهم بأشرف جـــد ... قد أتى بالهدى بشيرا نذيـــــرا
كم شريفٍ تراه في السلم بدرًا ... وتراه في الحرب ليثًا غيـــورا
هم ملوك على الملوك جميعًا ... رفعة هاشمية لن تبـــــــورا

[2]- البيتان للشاعر عمر بن مظفر المعروف بابن الوردي، وهو أحد شعراء العصر المملوكي توفي سنة 749 هـ

و لو كان حبس لسانه عن مثل هذا الفحش. ما أوقع نفسه فيما انطبق عليه بأتم مطابقة. ولا انطبع فيه ما رءاه في مرءاة غيره الذي لم يدركه بترك الفضول بمسابقة. و لو تفطن لمثل هذا بعض دهاة العلماء كالمقري ما لفظ بما بقيت المعرة فيه عليهم في قولتهم الشنيعة من قولهم: ليس على فروج النساء أقفال. فهي معرة. لهم فيها مضرة. و أشنع بها معرة. لا توازيها معرة. و لقد حفظت في هذا المقام هذه الأبيات من قصيدة في مدح سيدنا العباس عم النبي صلى الله عليه و سلم. ختمت بها باللون الأحمر:

خذ سنة الله بين خلقه أبــــــــدا	و لتجعلنها لديك خير قسطـــــــاس
ما عظم المرء آل البيت دون مرا	إلا و عظم عند الله و النــــــــاس
فالحظ بعين كمال الفضل قدرهم	و اخضع لهم دائما بالقلب و الراس[1]

وإني و أيم الله لتسؤني تلك المقالة. التي هي أدهى و أمر من كل مقالة شنيعة بالأصالة. وتسوء كل إنسان لتنزلها على كل فرد من النسل الآدمي. بما اسودت به بيض الوجوه في الوجود. وتعين بها حد كل من نطق بها في معرض بين الشهود، و قد اتسع الخرق بها. و هي الداهية الطامة. فاستشهد من يظن بهم العلم في هذا البساط بمثل قائل هذه القولة الفظيعة. وبعض الجلة يلتمس الأعذار لمن صدرت منه و يحملونها على محامل. و ينزلونها على التربية. و نحوها مما لا يصح قبوله في المعذرة. لسريان معرتها لكل آدمي. و في ذلك إذاية تامة في جانب البضعة المحمدية المراد تطهيرهم عند الحق بإذهاب الرجس عنهم.

و حاشى جنابهم من رميه بمثل هذا الرجم. فليحذر المُوَفَّق من إساءة الأدب على هذا الجناب، فإن البضعة المحمدية وجودها في الأرض أمان لأهلها[2] من الخسف و المسخ و كل بلاء عام إلى يوم القيامة، و هم الباب المفتوح الذي يُدْخَلُ منه لحضرة الإجتباء. و لا أقرب في الوصول إلى غاية المقاصد من نيلها على أيديهم بصدق المحبة في جنابهم، و الذب عن

---

[1]- يذكر العلامة القاضي سيدي أحمد سكيرج في مقدمة كتابه شرب المدام بتخميس أبيات رأيتها في المنام، أنه رأى في منامه قصيدة في مدح سيدنا العباس بن عبد المطلب عم النبي صلى الله عليه وسلم، وهي ذات قافية سينية، ختمت بثلاثة أبيات بلون مخالف لباقي القصيدة، وهو الأحمر، وقد حفظ هذه الأبيات الثلاثة، التي ظلت راسخة في ذهنه بعد استيقاظه من النوم، ففرح برؤياه المذكورة أيما فرح، كما طلب من كافة أصدقائه العمل على تخميس هذه الأبيات، فلبت طلبه جماعة من خيرة علماء وأدباء جيله، إلى أن بلغ عدد الذين خمَّسوا هذه الأبيات ثمانية وأربعين عالما وأديبا، معظمهم من المغاربة، باستثناء أربعة سنغاليين وتونسي واحد.

[2]- إشارة لقوله صلى الله عليه وسلم: النجوم أمان لأهل الأرض من الغرق، وأهل بيتي أمان لأمتي من الإختلاف، فإذا خالفتها قبيلة من العرب اختلفوا فصاروا حزب إبليس، رواه الحاكم في المستدرك (كتاب معرفة الصحابة) باب أهل بيتي أمان من الإختلاف 3: 162 رقم 4766. كنز العمال، للمتقي الهندي (المجلد الثاني عشر) 1: 2413 رقم 34189. ومما يناسب هذا الموضوع قول العلامة الأديب يوسف النبهاني ضمن قصيدته الهمزية التي تقع في 999 بيتا، قال في معرض التنويه بأهل البيت الكرام:

أنتم كلكم أمان لأهــــــل	الأرض إن زلتم أتانا الفَنَاءُ
وبكم تُؤْمَنُ الضلالة كَالقُرْ	آن فيكم للمقتدين اهتـــداء
أنتم للنجاة خير سَفِيـــــنٍ	كلما فاض في البرايا البلاء
أنتم بضعة النبي فكونـوا	كيف كنتم فما لكم أكفـــاء

حماهم بكل ما أمكن، و السعي في قضاء حوائج كل من انتسب لهذه البضعة بقدر الإمكان، وإظهار الأدب اللائق بكل منتسب منهم في سر و إعلان.

و لهذا تجد الخاصة من أهل الله محافظين على القيام بحق هذا الأدب، و يحذرون غاية التحذير من الإلتفات أدنى ميل لبغض من له قد انتسب خشية الطرد الذي لا قبول بعده، و لا تجدهم يودون مبغضا و لا ينال منهم قصده، و كلما ارتقى أحدهم في المقامات العرفانية ازداد أدبا مع آل البيت، علما منه أنه لولا محبته في جنابهم لرجع القهقرى، و لا نال بلا صدق المحبة فيهم وطرا، فهم حجاب الحضرة يسدلون الحجاب في وجه من لم يكن من حزبهم الحبي، و يرفعون الحجاب عن مخدرات الخيرات لمن تعلق بأدنى سبب بما لهم من الخلافة في الوجود عن الله بالتصرف الوهبي

أولائك أهل للنبي و آلـــــــــه	ألا إنهم ساداتنـا و موالينــــا
يقول لسان الحال منهم مفاخرا	بحق أَلّا مَنْ في الوجود يدانينا

و لقد أحسن من قال في حقهم:

آل النبي لهم في نفس نسبتهم	قدر عظيم له في المجد غايــات
فالأولياء و إن علت مراتبهم	في رتبة العبد و السادات سادات

فلا يقوم بواجب حقهم إلا صديق، و لا يتهاون به إلا زنديق، ثم إن تفاوت أهل خدمة جنابهم على تفاوت مراتبهم في أفق السعادة، و علو مقداره في السيادة، و لقد بلغنا عن شيخنا العارف بالله خاتم الأولياء المحمديين القطب التجاني رضي الله عنه و عنا به أنه كان يبلغ به الإحتفال بأهل النسبة ما كان يؤثر في قلوب المحبين سرورا، و في نفس المعاديين ثبورا.

فكان الأحباء يقتدون بتعظيمه لهم مما خامرهم من الحال المنوط بهم بسريان سر همته بالقيام بهذا الواجب، حتى أنه كان لا يخالطه إلا المحب لأهل البيت، و لا يجالسه إلا من كان صادق الحب فيهم[1]، و يتبرأ من كل من فيه أدنى استخفاف بحقوقهم، و لأن الأعداء يحسدونه على ما يرون منه من عظيم الإحتفال بساداتنا الآل، مما لا يقدرون على القيام بأقل قليل مما يقوم به من صدق المودة القلبية و التعظيم الظاهري، بحيث كان معروفا عند شرفاء عصره برسوخ القدم في محبتهم، فلا ترى واحدا من آل البيت إلا مُثنِيًا عليه، شاكرا لأخلاقه الجميلة عند ملاقاته لهم في الطرقات و الأماكن المباركة، و بالأخص إذا جاء شريف لملاقاته بمحله، فكان يقوم إجلالا لشرفه، و يلاقيه في الغالب من باب الدار، و يدخل معه مصاحبا لمحل الملاقاة، و قد اعتاد ذلك منه أصحابه الذين اتخذهم للقيام بشؤونه في محله، المطلعين على أحواله الداخلية في محله، فيرون منه إذا سمع بباب محله شريف إقباله على المبشر به، وقبوله الجميل بالمسارعة إلى استدعائه للدخول من غير تبربص بالباب، و قيامه لملاقاته بأتم سرور، فيدخل كل شريف لمحله فرحا مسرورا، كأنه داخل إلى محل أعز أحبابه، مستبشرا بنيل ما في نيته من مطالب الدنيا والآخرة.

و إذا خرج يشيعه فيذهب من حيث أتى ظافرا بمنتهى السول، فيؤمل العودة لملاقاته كل من اجتمع به منهم، و يتمنى البقاء معه و لا يفارقه إلا بالجسم عندما تدعوه الضرورة للذهاب لمحله، تاركا قلبه عنده، هذا دأبه دائما مع ساداتنا آل البيت الكرام، سيان الفقير والغني، بل ربما يلاحظ الفقير بكمال الإنبساط عندما يكون الشرفاء مجتمعين بحضرته، فيشعر بذلك منهم و من غيرهم من له نعمة منبسطة، فيتنزل غاية التنزل عن النظر لدنياه إلى معرفة قدر النسبة التي هي المزية الكبرى، و الخصوصية التامة المختص بها أهلها، بحيث لا تنال بكسب و لا اكتساب، فهي محض موهبة في سابق العناية بهم بين سائر الإنسان.

ولقد شاع قيد حياته رضي الله عنه كمال حزمه في الإعتناء بأهل النسبة و عظيم احترامهم، وبعد مماته صار يُضْرَبُ به المثل في مجالس كل من عرفه منهم، و لا زال إلى الآن يتحدث

[1]- كان الشيخ أبو العباس التجاني رضي الله عنه شديد المحبة لساداتنا أهل البيت النبوي الشريف، دائم التعظيم لهم، قوي الإعتقاد في جانبهم، يأمر باحترامهم والإحسان إليهم وإكرامهم، وكثيرا ما كان يوصي أصحابه بمراعاة حقوق ساداتنا الشرفاء، ويذكرهم بقوله تعالى: قل لا أسألكم عليه أجرًا إلا المودة في القربى، وهم قرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم وذريته، فمن نظر إليهم بعين التعظيم فقد رشد و هُدِي إلى صراط مستقيم، ومن استهان بهم وأجحف في حقهم فقد ضل سواء السبيل.
قال العلامة سيدي محمد الحجوجي في الجزء الأول من كتابه: إتحاف أهل المراتب العرفانية بتراجم بعض رجال الطريقة التجانية، قال: ومن عادة مولانا الشيخ رضي الله عنه أنه كان لا يترك أحدًا من الأشراف يقبل يده، ولا يمد رجله بحضرة شريف أبدا، وإن دخل شريف وهو ماد لرجليه جمعها ولو كان نائما. إهـ
وذكر العلامة القاضي سيدي أحمد سكيرج في الجزء الثاني من كتابه رفع النقاب (ترجمة سيدي الطيب السفياني) قال: كان من عادة سيدنا رضي الله عنه أن لا يمكنَ يده لأحد يقبلها، خصوصا ساداتنا الشرفاء، وحدث يوما أن سيدي الطيب السفياني قبل يد مولانا الشيخ رضي الله عنه على حين غفلة، فأمره الشيخ رضي الله عنه أن يمكنه من يده ليقبلها هو الآخر، فقال سيدي الطيب السفياني لسيدنا رضي الله عنه: والله يا سيدي إن قطع يدي لأهون عليّ من أن تقبلها، فقال له رضي الله عنه: كيف يقبل يدي واحد من آل البيت، والله حتى تمكنني من يدك، فمدَّ آنذاك سيدي الطيب يده وقبلها مولانا الشيخ رضي الله عنه. إهـ..

به أهل النسبة ممن تلقوا ذلك من آبائهم الذين لاقوه، و شاهدوا ذلك التعظيم منه عيانا لهم ولأمثالهم من آل البيت، قوى الله مددهم، وزكى عددهم، و يعرف ذلك منهم ممن دخل في طريقته، ومنهم من لم يدخلها، فهو في ذلك سواء في التنويه بقدره إلى الآن، و لا ينكر هذا إلا من له تنافر باطني موجبه الحسد، الذي يفضي بصاحبه للبغض والكراهية.

كل العداوة قد ترجى إزالتها إلا عداوة من عاداك عن حسد[1]

و قد كان رضي الله عنه في مجالسته لسادتنا آل البيت يعرفهم بقدرهم و حق مقدارهم[2]، فترتبط حبال مودتهم القلبية، و يحصل الإئتلاف بينهم على قلب واحد، فتسري بينهم المودة وتتصل القرابة النسبية بحال داخلهم، و همة نافذة في سرهم، فيصير كل واحد بما خامره إذا لقي شريفا مثله يؤدي له من البرور، ما تنشرح به الصدور، وهكذا الشريف الآخر إذا لقي شريفا من أهل الطريقة و غيرها، أما العوام فكان يعاملهم بما يهذب أخلاقهم، و يعرفهم بحق النسبة، فيقع كلامه منهم موقعا جسيما، حتى تتمكن في قلوب جميع من اجتمع به منهم حب كل منتسب للشرف، وسلكوا في مودة آل البيت مسلكا قويما، فبان للعوام شفوف رتبة آل البيت عنده عيانا، فحملهم صدق الحب منه على كمال الصدق في حب جانبهم، فلا تجد عاميا إلا و هو في نفسه ظاهرا و باطنا معترف بفضلهم و رفع قدرهم، و يعد نفسه سعيدا إن أقبل عليه واحد منهم، فسرت مودة ساداتنا آل البيت في قلوبهم، و بسريانها انجذبت قلوب ساداتنا آل البيت لحبهم، والإغضاء عن عيوبهم، فارتبط الفريق بالفريق، و لو لم تجمعهم رابطة الطريق، حتى انتقل الشيخ رضي الله عنه، و انتقل خاصة أصحابه.

و هم بهذا الوصف منصفون على أكمل وجه، و حين جمعت طريقته المحمدية الغث والسمين، وتحزبت الطرق، و كاد أن ينسد بالتنافس النفساني بينهم الأفق إلى زماننا، تغير قلوب البعض على البعض، و كاد أن يطبع على الغالب من الطوائف بطابع البغض، و لم يجد العامة من كل طريق من يرشدهم لصلاح أحوالهم، لانقباض الخاصة عن كشف ما حل بهم ليقتدوا بهم في أقوالهم و أفعالهم، تحققا بأن العامة عموا و صموا عن كل مرشد، وتصدر من لا يستحق التصدر للأخذ باليد، و إنا لله من جموع تجتمع على من لم يشفق منهم على

---

[1]- البيت للعلامة الجليل عبد الله بن المبارك الحنظلي التميمي المتوفي سنة 181 هـ.

[2]- قال العلامة سيدي محمد الحجوجي في الجزء الأول من كتابه: إتحاف أهل المراتب العرفانية بتراجم بعض رجال الطريقة التجانية: ما بلغنا عن أحد من أهل وقته أنه كان يعظم أهل البيت كهو رضي الله عنه. إهـ.. ثم قال في موضع آخر من الكتاب المذكور: وكان لا يهدي لهم إلا الذهب، وما ثبت لدينا أنه أعطى لشريف فضة. إهـ..

وكان رضي الله عنه يتبرأ من كل من سولت له نفسه إذاية ساداتنا الشرفاء والإستهانة بحقوقهم، وقد قيل له مرة: إن فلانا يؤذيك، وكان شريف النسب، فقال رضي الله عنه: أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم أبحت لهم عرضي.

ومما يذكر في هذا الصدد ما جاء في كناش الفقيه سيدي محمد بن يحيى بلامينو الرباطي. قال: قال الولي الصالح العلامة سيدي العربي بن السائح رضي الله عنه: وجه مولاي سليمان للشيخ سيدي أحمد التجاني رضي الله عنه يسأله عن سبب امتناعه لدخول ضريح مولانا إدريس رضي الله عنه، فأجابه بأن القبة مشحونة بمقابر الأشراف، فلا يحل المشي فوق مقابرهم، قال له الشيخ رضي الله عنه: من عرف قبر الشريف واعتمد المشي عليه دخل النار.

نفسه، و يشير بالخصوصية لنفسه بين أبناء جنسه، يتعصبون لما تميل إليه نفسهم، و يجدونه معينا لهم على نحسهم، فانقطع في الطريق الواحدة جماعات، يشتم البعض البعض، و انحلت رابطة المودة من بينهم في الطول والعرض، فتنافرت النفوس و كاد أن يعم هذا البلاء الأذناب و الرؤوس، و ليس هذا بالأمر الهين، ولا يرضى به كل متدين.

إن دام هذا و لم تحدث له غير لم يبك ميت و لم يفرح بمولود[1]

فقد انعكست الأمور، بما يختلج في الصدور، فصار العامي يزاحم الشريف في خصوصيته، وصار الشريف يعين العامي على مصيبته، فلم يشعر العامي ليتلافى ما سيحل به من التلف، وما درى المسكين أنه ذبح نفسه بلا سكين في ترك القيام بحق الشرف، و طفق الشريف في معاملته ماشيا على انحراف يقف به العامي على شفى جرف هار من عدم الإنصاف، أستغفر الله إن الإنصاف من شيم الأشراف، و لكن منا الإنحراف.

فيا خسارة نفس في تحاملها على ذوي الشرف العالي على الشَّرف

و لقد ألف العلامة الفاضل، صاحب التآليف العديدة المفيدة، سيدي محمد بن المشري[2]، أحد خاصة أصحاب سيدنا الشيخ التجاني رضي الله عنه تأليفا لطيفا تلقاه عن سيدنا رضي الله عنه، سماه: نصرة الشرفاء، أعرب فيه عن بعض ما تستحقه النسبة الشريفة من الإجلال والإحترام، و ما ينبغي النهوض له من الحقوق بأتم قيام، فليراجعه المريد، فإنه في بابه مفيد، و هو مغن عن المطولات، بما اشتمل عليه من الكمالات البينات، التي لا يحتاج في كمالها لإقامة البينات، وحاصله:

فلا تعدل بآل البيت خلقــا فآل البيت هم آل السيــاده
فبغضهم من الإنسان خسر حقيقي و حبهم عبــــاده[3]

---

[1]- ذكره الحافظ السيوطي في كتابه الإزدهار فيما عقده الشعراء من الأحاديث والآثار، وقال: قال القالي في أماليه: أنشدني ابن دريد قال: أنشدني الحسن بن خضر قال: أنشدني رجل من أهل البصرة قال: أنشدني أبو هلال:

هذا الزمان الذي كنا نحـــــذره فيما يحدث كعبٌ وابن مسعود
إن دام ذا العيش لم يحزن على أحد ممن يموت ولم يفرح بمـولود

[2]- سيدي محمد بن المشري أحد خاصة أصحاب الشيخ أبي العباس التجاني رضي الله عنه، سبق التعريف به ضمن الجزء الأول من هذه الرسائل

[3]- البيتان للشيخ محيي الدين ابن عربي الحاتمي، ذكرهما في كتابه الفتوحات المكية 7: 255-256 الباب 502، قال: ولقد أخبرني الثقة عندي بمكة قال كنت أكره ما يفعله الشرفاء بمكة في الناس، فرأيت في النوم فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي معرضة عني، فسلمت عليها وسألتها عن إعراضها، فقالت: إنك تقع في الشرفاء، فقلت لها: يا ستي ألا ترين ما يفعلون في الناس؟ فقالت: أليس هم بَنِيَّ؟ فقلت لها: من الآن وتبت، فأقبلت عليّ واستيقظت.

فلا تعدل بأهل البيت خلقا فأهل البيت هم أهل العباده
فبغضهم من الإنسان خسر حقيقي وحبهم عبــــاده

فإذا تمهد هذا على سبيل الإشارة، الذي لم تؤد حقه العبارة، فلنفصح عن المقصود من هذا التقييد المسمى ***برسالة الإمتنان و الرحمة، إلى سائر الأمة، ببشائر التهاني، في مطالب التجاني،*** وإن كان موفيا بالتنبيه على مضمن مسماه، فإنه طالما اختلج في صدري القيام لجمع ما توفر عندي من مطالبه رضي الله عنه الخاصة به، و العامة الشاملة لأهله و أولاده و أهل مودته و قرابته، وسائر أحبابه و أصحابه، و جميع المنتسبين لحضرته، مما طلبه من الحضرة المصطفية والحضرة القدسية من الفتوحات و المقامات و الدرجات، و سائر ما هو من خير الدنيا والآخرة، فلم يدع نفيسا إلا و طلبه، و لا أنفس شيء إلا و سأله، حتى بلغ الغاية التي لا أبلغ منها، وحصل على السر الذي برز عنها، فنال من الحضرة المحمدية قربا لم ينله غيره، و نال من الحضرة الإلهية ما فاض من بعض جوده على الوجود خيره، فرأى مطالبه العاجلة وفق ما تمناه، و تحقق بأن مطالبه الآجلة سَيَرَاهَا فوق ما يهواه، فإن تحصيل العاجل المطلوب تعجيله، عنوان على تحصيل الآجل المؤمل تأجيله.

وسأملي في هذا التأليف مما وقفت عليه بخط يده من مطالبه من الحضرة المحمدية، وجوابها الشريف بخط الواسطة المعظم سيدي محمد بن العربي الدمراوي[1] رضي الله عنه، و ما نقلته مباشرة من ذلك و بواسطة، ما يعرف به الواقف عليه قدر هذا الشيخ الذي أشرقت أنواره وعمت الكون أسراره، رضي الله و أرضاه و عنا به، و قد حملني على جمعها في هذا المجموع، جعله مخصوصا في هذا الموضوع، بعد تردد تواردت علي فيه الخواطر، واختلف علي فيه النواهي والأوامر، فتارة كنت أعزم على جمعها لإفادة الإخوان، و تارة أرجع عن هذا الصدد بعزم قوي خشية الإنكار علي في ذكر ما لا يُذْكَرُ إلا للأعيان، ثم نظرت إلى ما يرجح لي ما أعتمد عليه في الفعل أو الترك، و طال تشوفي لإشراق نور التوفيق لأحد الجانبين، حتى دعاني داعي العناية للنهوض إلى نفع الناس على العموم بهذا التأليف، الذي يستفيد منه أهل الإستفادة ما يشفي لهم الغليل، فتقر به عيونهم، و تنجلي به غيونهم، فيقدرون قدره بالدعاء الصالح للمؤلف، رغما لأنف كل حسود يكفر نعمة الوقوف على ما لم يكن لديه اطلاع عليه قبل العثور في هذا المؤلف.

فقد بلغنا عن بعض الإخوان أصلح الله لي و له الشأن أنه لما وقف على بعض أسرار الطريق مما ذكرته في غير هذا التأليف، و أتحقق بفضل الله أنه لو لم يره فيما ألفته ما عرفه، و لا وجد من يعرفه إياه، أَخَذَتْهُ النفس بحظها فأنكر علي ذلك، و شنع علي غاية التشنيع حتى غَيَّرَ قلوب بعض الأحبة علي، و ما درى أن ذلك نزر يسير مما لم يحط به خبرا، و بسببها قد نال غيره خيرا.

و ما عليَّ إذا قصدت نفع أخ	و كان في نفعه إرغام حاسده
و ما علي إذا ما صار منتفعا	به و عمَّ به نفع لواجـــــــده

ذلك دأب ذوي الصدور السليمة، فإنهم يقصدون نفع الخاصة، فتنتفع بذلك العامة، و قد جرت عادة الله أن الأسرار تدافع عن نفسها، فلا ينتفع بها إلا من كان من جنسها، فاندفع ما يهول به

[1]- سيدي محمد بن العربي الدمراوي التازي أحد خاصة أصحاب الشيخ أبي العباس التجاني رضي الله عنه، سبق التعريف به ضمن الجزء الأول من هذه الرسائل

المهولون، و انجلى ما ينكره المنكرون، فكان من جملة البواعث على النهوض لتأليفي هذا، وهو في الحقيقة تأليف للشيخ رضي الله عنه مُبَشِّرَةٌ منامية، رأيتها إثر استعمالي لقصيدة على لسان أحد الخاصة الأحباء المحبين في مدح الجناب الأحمدي التجاني، استمناحا لنيل ما يؤمله من بشائر التهاني، و نصها:

إني قصدت حماك طالبا مـــــددا	و من إليك أتى ينال ما قصـــــدا
سيان ناء و دان في الوصول إلـــى	نيل الأماني و ما أحصيهم عـــددا
و الكل يثني على علاك حيث لـــه	كمال فضل به الوجود قد شهـــدا
يا أيها الخاتم الذي به ختم اللـــــ	ـــه الولاية و اقتدى به السعـــدا
أنا عبيدك في سر و في علـــــن	فكن لعبدك يا مولاي مستنـــدا
و كن له خير منج منجدا بجـــدى	فيها كمال المنى و تذهب النكـــدا
فقد حططت رحالي في حماك لكي	أحظى بإصلاح حالي فامنح الرشدا
مولاي يا أحمد ابن سالم سنـــدي	يا خير من لذوي العليا غدا سنـــدا
بالله جد لي بالمقصود عن عجـــل	و لا تخيب لظني فيك ما اعتقـــدا
ما لي سواك من السادات أقصـــده	و ليس غيرك لي أراه معتمـــدا
و قد مددت يدي لكي تعاملنـــي	فمد لي سيدي من الأمان يـــدا
فبالنبـــي أتيــت في مداخلتـــي	على علاك لتشفي القلب و الجسدا
فالقلب مني عليل لم يفـــده دوا	نعم شفاء غليلي منك قد شهـــدا
و أنت أدرى بأحوالي و ما طلبـت	نفسي و ما هو في الدارين لي حُمِدَا
و في بلوغ مناي عيل مصطبـري	و طال منتظري فلتكشف الكمـــدا
حاشاك يا سيدي أن لا تواصلنـــي	و الوصل منك لمثلي دائما عهـــدا
من للضعيف و من للمقترين و هل	سواك يمنحهم طول المدى مـــددا
لالا و حقك أنت خير واسطـــة	بين الرسول و بين الكل قد وفـــدا
مني عليك سلام الله يشمل مـــن	به اقتدى فغدا من جملة الشهـــدا
ما قال ذو مهجة في الحب صادقة	إني قصدت حماك طالبا مـــددا[1]

و ذلك أني رأيت رؤيا في ليلة مباركة سيدنا القطب التجاني قدس سره من غير شك عندي فيه أنه هو مقبلا على فرس في صحبته أحد خاصة مقدمي طريقه، و لعله المقدم الفاضل محبنا وحبيبنا سيدي الحاج الطيب السفياني[2] زاد الله في معناه، فلما تشرفت برؤيته وقفت إجلالا لحضرته بالطريق التي هو مار عليها باسطوان باب دار هناك، و المطر ينزل، فوقف سيدنا رضي الله عنه يتكلم معي حتى قال: أتعرف كتابي المسمى كذا؟ فقلت: هو عندي يا

[1]- قالها في مدح مولانا الشيخ أبي العباس التجاني رضي الله عنه، باقتراح من السيد الحسن بن المقدم الأجل سيدي محمد بن عبد الله، وهي ضمن القصائد الموجودة ضمن كتابه النفحات الربانية في الأمداح التجانية (باب حرف الدال) ص 56-57.

[2]- المراد به الشريف البركة المقدم سيدي الطيب بن أحمد بن الطيب السفياني، أحد شيوخ المجيزين للعلامة القاضي سيدي أحمد سكيرج، سبق التعريف به ضمن الجزء الأول من هذه الرسائل.

سيدي، فقال لي: والكتاب الذي عند أخيك عبد الخالق[1]، فقلت: يا سيدي ما اسمه، فقال: رسالة الإمتنان والرحمة إلى سائر الأمة.

فجال فكري في استحضار كتاب يسمى بهذا الإسم، فأكد رضي الله عنه علي فيه و صدَّ، فتناسيت اسمه و تبعته، و قلت له: يا سيدي ما اسمه؟ فأقبل علي رضي الله عنه و قطب بين حاجبيه كالمنكر علي: قائلا بلسان حاله: أمثلك من يجهله، فقلت له: سأحوزه يا سيدي منه، ثم جدَّ في سيره، و قلبي سائر معه يتبع طريقه التي مرَّ عليها، و سرت أخطو من ورائه باختلاس خشية أن يراني، حيث أظهرت له من نفسي أوَّلًا أني متوجه عند الأخ المذكور لأحوز ذلك الكتاب، فاستيقظت و على بالي إسمه، وكدت أن يتخيل لي أني رأيت مسمَّاه، حتى استحضرت الرسالة التي ألفها الخليفة المكرم سيدي الحاج علي حرازم رضي الله عنه، المسماة برسالة الفضل والإمتنان.

ففهمت أن الشيخ رضي الله عنه يؤكد علي في تأليف الرسالة التي أشار لي أنها عند الأخ عبد الخالق تسمى بذلك الإسم، تشتمل على ما كنت أتردد في جمعه من تلك المطالب الشريفة، الدالة على مقاماته المنيفة، و إن مقصوده عند الأخ المذكور بأنها سيخلقها الحق و تبرز للوجود، فتحركت الهمة لجمعها في رسالة أسميها بهذا الإسم، و لكن لكثرة الأشغال، وتشويش البال، لم أتفرغ لهذا المقصد، و لم يساعد الوقت فيه بالأخذ باليد، و بينما أنا مصمم

---

[1]- هو رابع إخوة العلامة القاضي سيدي أحمد سكيرج. ولد بفاس عام 1307هـ. وبها نشأ وشب. فحفظ ما تيسر له من القرآن الكريم. قبل أن يلج جامع القرويين. حيث تلقى بها قسطا وافرا من تعليمه. بيد أنه توقف عن الدراسة بها لأسباب قاهرة. وذلك عقب وفاة والده عام 1328 هـ. فاشتغل إذ ذاك في بعض الأعمال الحرة إلى حين عام 1332 هـ. وهو العام الذي عين فيه شقيقه العلامة القاضي سيدي أحمد سكيرج ناظرا لأحباس فاس الجديد. فعمل بجانب أخيه في الوظيفة المذكورة. بعدما اتخذ له سجلا يدون فيه مداخيل الأحباس باليوم والشهر والسنة.

ثم تخلى عن هذه الوظيفة مباشرة لدى انتقال أخيه لخطة القضاء بمدينة وجدة. لكنه عاد ليعمل بجانبه من جديد حين تعيينه على رأس القضاء بمدينة الجديدة. فكان كاتبا له. ينسخ الرسوم العدلية بخطه الأنيق. بيد أنه ما لبث أن تخلى عن هذه الوظيفة. وذلك لدى انتقال أخيه للقضاء بمدينة سطات.

وهو إلى جانب ما ذكرناه واحد من جلة مريدي الطريقة التجانية في وقته. تمسك بها منذ السنين الأولى من شبابه. وذلك على يد المقدم الشريف سيدي الطيب السفياني. ومما يذكر عنه في هذا الصدد أنه كان شديد الاهتمام بالزاوية التجانية الكبرى بفاس. حريصا على أداء ذكر الوظيفة بها بعد صلاة المغرب من كل يوم. كما كان يصلي بها معظم صلواته الأخرى، وهو علاوة على ذلك رجل محبوب. على جانب من حسن الخلق والخلقة. مجبول على محبة الخير. دائم الابتسامة. مشرق الوجه. عذب الكلام. حسن المعاملة. يتحلى بذكاء وفطنة زائدة.

وقد أثنى عليه شقيقه العلامة القاضي سيدي أحمد سكيرج في كتابه: تاج الرؤوس في التفسح في نواحي سوس. فقال في حقه:

وأخي الشقيق الذاكر المشكور عبـــــد الخالق المحمود في الأقـران
سلك الطريقة للحقيقة فارتوى ... من وردها بل سرها الحقاني
لولا مزيد تشدد في دينـــه ... لشهدت فيه بأنه فردانــــي
فسد الزمان فساد فيه بهمـــة ... رقته في العليا على كيــوان

توفي صبيحة يوم الخميس 25 ربيع الثاني عام 1361 هـ-16 أبريل 1943 م. على إثر مرض لم يتمكن من التغلب عليه. إذ لم يمهله أكثر من أسبوع واحد. وذلك من جراء المجاعة والوباء الذي عم مجموع أرض الوطن إذ ذاك. بسبب مضاعفات الحرب العالمية الثانية ونتائجها الوخيمة.

على استعمال هذا التأليف اقتات السوف الشوق، و حال المتشوف لأمر والتسويف يرفعه من غد لغد معروف، إذ سطع نور التوفيق، بصادق العزم على السلوك على أقوم طريق، في القيام بجمع ذلك، بعدما اجتمعت في حفلة مباركة مع حضرة الشريف الجليل، المدرس النبيل، سلالة الأماثل، المتحلى بسمي الشمائل، أبي العباس مولانا أحمد بن الولي الصالح مولانا علي بن عبد الواحد من دار المقدس المولى عبدالله قدس الله روحه.

و حدثني بأنه رأى في رؤيا نفسه في الزاوية التجانية المباركة التي بها ضريح سيدنا رضي الله عنه، و هي غاصة بأعيان الإخوان، و العبد الضعيف من جملتهم، و الأنوار محدقة بذلك الجمع، فإذا بالضريح الشريف قد انشق و خرج منه سيدنا رضي الله عنه في أجمل منظر، وبيده تقاييد ورسوم و أوراق، فوقف ينظر يمينا و شمالا حتى وقع بصره علي، فأشار إلي من بين ذلك المجمع، فنهضت لأمره الشريف، حتى مثلت بين يديه، فتكلم معي كلاما سريا، و دفع بيدي تلك الأوراق، و الشريف المذكور يشاهد ذلك، و يتعجب من تخصيص الشيخ رضي الله عنه لي بذلك من بين ذلك الجم الغفير، قائلا: ما ذلك إلا لخصوصية و شأن كبير، فاستيقظ من رؤياه، فذهب بنفسه لزيارة الضريح المنيف، عازما على بشارتي بهذه المبشرة، بنيل أسرار للقلوب منورة، ضمن ما أمكنني مما أظهره و أسره، فتحققت بكمال الإذن في هذا التأليف الجليل، و إن تلك الأوراق هي المطالب التي كنت وقفت عليها بتوفيق الجليل، فتأكد عندي القيام بحق هذا المشروع، و التعجيل بإخراج هذا المجموع، على حسب ما جرى به القلم في هذا الموضوع، من غير تأنق في جمعه، و لا تصنع في وضعه، ليكون موفيا بالمقصود، على وفق ما هو لدي متيسر موجود، و إن كانت الصناعة التأليفية تقضي على المؤلف بالتأنق في الترتيب، و حسن تناسق التبويب، لتكون العبارة جَلية، و الإشارة علية، والفائدة تامة، و العائدة عامة، فيجمل الوضع، ويكمل النفع.

و قد آن أن نفصح عن هذه المطالب على الوجه الذي أردته، و أجول في ميدانها على حسب ما فهمته، فإن يكن صوابا فمن الله التوفيق ببركة الشيخ رضي الله عنه. ونظرته النافذة في قلب أهل محبته و السالك على طريقه، و إن يكن غير صواب فالتماس المعذرة عند أهل الإنصاف محقق.

و عين الرضى عن كل عيب كليلة   و لكن عين السخط تبدي المساويا[1]

فإن كان خطأ فادحا، فالمرجو منهم إصلاحه بالتنبيه عليه، خشية أن يقلدني في ذلك الخطأ من كان مثلي متقيدا بحبل الجهل، أو كان عالما و محبته ألزمته الوقوف مع ما رآه ممن يعتقد فيهم أنهم من ذوي الفضل.

---

[1]- البيت للإمام الشافعي رحمه الله قاله في مطلع أبيات ونصها:

وعين الرضا عن كل عيب كليلة   ولكن عين السُّخط تبدي المساويا
ولست بهياب لمن لا يهابنـــــــي   ولست أرى للمرء ما لا يرى لِيَا
فإن تَدْنُ مني تَدْنُ منك مودتـــي   وإن تَنْأَ عَني تَلْقَنِي عنك نَائِيَــا
كِلانا غنيٌ عن أخيه حَيَاتَـــــهُ   ونحن إذا مِتْنَا أشدُّ تَغَانِيَــــــا

و للبغض عين لا تزال عبوسة   و عين الرضى مكحولة بالتبسم

و المأمول من المولى أن ينفع به نفعا عاما، و يجعله في حيز العمل الذي يكون بالإخلاص تاما، فننال به حسن القبول، و نظفر به بعطفة الشيخ رضي الله عنه من الله و الرسول عليه السلام بلوغ المنى و كمال السول، لا رب غيره و لا يرجى إلا خيره، و صلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه و سلم

سابقة فائقة ببسط الحق لاحقة

اعلم أن أشرف هذه الأمة المحمدية على الإطلاق صنفان، **الصنف الأول** شرفه مكتسب بالتخلي عن الرذائل، و التحلي بأحسن الشمائل، و فعل المأمورات، و اجتناب المنهيات، بحيث يحصل للفرد الواحد من أفراد هذا الصنف حال مع الله يدخله بذلك لحضرته القدسية، فيكون من الواقفين على سر التقوى المختصين بمحبته، فيصلح للأنس و الإنبساط بقيام الحق مقامه في حضوره وغيبته، بما له من صدق معاملته في خدمته، قد أدى مفروضاته كما أمره، و اكتسب من نوافل الخيرات حتى أحبه بمقتضى: لا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به و بصره[1] ...إلخ.

فبهذه الخدمة حصل على سر الولاية، فعد من أهل الله الذين يحارب عنهم كل من عاداهم بمقتضى: من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب، فهذا الصنف هم الأولياء على اختلاف مراتبهم ومشاربهم، فقد شرفهم الله بانتمائهم إليه و إقباله عليهم بما لم يُقبِل به على غيرهم،

و هم أمناء الله في خلقه و هـــــم   نجوم اهتدا إن غاب نجم بدا نجم
لهم نظرة في الكون منه بها عُدَّت   مراتبهم حقا على غيرهم تسمـــو

ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم و لا هم يحزنون[2]، فالويل كل الويل لمن عادى واحدا منهم، ولو تعلق بحبال أهل الله كلهم، فهو بمعاداته لواحد صار عدوا للباقين، و إن فرض قبوله في الظاهر عند واحد منهم فهو في الباطن مطرود.

و كيف يقبل ما عادى الأحبة فـي   بساط أنسهم بعد المعـــادات
لا يدخل الحضرة المصون جانبها   إلا فتى لم يزل يبدي المودات

---

[1]- إشارة لقوله صلى الله عليه وسلم: إن الله قال: من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذ بي لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته. إهـ.. رواه البخاري (كتاب الرقاق) باب التواضع رقم 6355.

[2]- سورة يونس، الآية 62

أما و الله إن أهل الله على الحقيقة كلهم واحد في حب من أحبهم كلهم، و بغض كل من عادى واحدا منهم، و لو تقرب إلى الباقي بما في إمكانه من أنواع المبرات، و أدى فوق ما طولب به من الأدب في حقهم في سائر الأوقات، سيان في ذلك الأحياء و الأموات، فالنجاة لكل موفق إنما هي في المودة للجميع، و حب كل منتسب للحضرة كيف ما كان بمجرد الإنتساب لهذا الجناب الرفيع، وليحذر العاقل من تخصيص الإحترام بمن تقدم، فيحرم من أهل وقته[1]، و لو كان كيف ما كان، وذلك مراد الشيطان، فقد عانق النفوس، و أدلى لها بالغرور حتى طأطأت له الرؤوس، فصارت تنظر المزية لها على غيرهما.

فانسدل الحجاب على الخاصة بين العامة، و تكاثفت حجب المعاصرة بهذه الداهية الطامة، فساءت ظنون البعض بالبعض، و كادت أن تنحل عقدة الأخوة الإيمانية بشدة البغض، فتجد جماعة المسلمين تشتم جماعة، و ربما أخرجوهم من الإيمان بما يشنعون به عليهم بأقبح إشاعة، وهم برءاء مما نسبوا إليه أو نسبوه إليهم، حتى كاد أن يعم هذا البلاء للخاصة، خصوصا من يتصدر في الطرق، فيجمعون عليهم عواما عميت قلوبهم عن النظر لأهل الخصوصية بالإحترام، و لم يتنزلوا عن مراتب نفسهم باعتقاد الخير في كل فرد من الأمة، فيؤدون له حق الأخوة الإيمانية بإغضاء عين القلب عما يظهر منه من العورات، فضلا عن كف لسان الثلب بما ليس فيه، و ترك بث البغض في قلوب إخوانهم، و إنا لله ممن تحزبوا عليه و تعصبوا له إن لم يكن له من الله واعظ ينزجر به عن الخوض في غمرات الهوى، في حالتي القرب و النوى، تنظره يوقد نيران الفتنة العدائية بينهم، و يكون معينا على إتلاف نفسه و إتلافهم، فلو عامل الله بصدق هذا المسكين المتصدر للتلقين، و صدق الله في نفسه لنصح لله و لرسوله و لأئمة المسلمين و عامتهم، بمقتضى: الدين النصيحة[2].

فيبذر في القلوب حب الإحترام لكل منتسب، فينبت فيها فنون المحبة لله فيهم، فتثمر مودة قلبية تسري بين قلوبهم المؤمنة، فيتم الإخاء و ينجلي الشقاق، و تسقط أوراق الشقاء، كما هو عليه خاصة أهل الله المحمديين في طرقهم، كما عليه طريقتنا المحمدية التجانية، فقد كان سيدنا رضي الله عنه قائما على ساق الجد في زرع محبة أهل الله في قلوب كل من انتمى إليه أو تعلق بحبله، ويؤكد على الخاصَّة منهم و العامة باحترامهم و تعظيمهم، و يكبر عليه أدنى استخفاف بمن ينتمي لأي طريق من الطرق، و ينقطع بالكلية عمن شم منه رائحة الإنكار على أهل النسبة بعدما يبين له عاقبة الأمر ليتوب على يده من ذلك الشر في الجهر و السر، حتى كان حزبه المنتمي إليه أحب الخلق في أهل الله.

و لا زال بحمد الله ذلك ساريا في سر التجانيين الحقيقيين الذين تمسكوا بحبل الطريقة، و اقتدوا بسيدنا رضي الله عنه فيما بنيت عليه طريقه من قواعد الشريعة و الحقيقة، و تبعوه في أقواله

---

[1]- من هذا القبيل قول الشاعر جعفر بن محمد المعروف بابن شرف القيرواني، حيث قال:

أُغْرِيَ الناس بامتداح القديم ... وبذم الحديثِ غَيْرِ الذَّمِيـــم

ليس إلا لأنهم حسدوا الحَـــــــــــــيَّ ورقوا على العظام الرميــم

[2]- إشارة للحديث الذي رواه الإمام مسلم عن تميم الداري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: الدين النصيحة، قلنا لمن؟ قال: لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم. إهـ.. أنظر صحيح الإمام مسلم (كتاب الإيمان) باب بيان أن الدين النصيحة رقم 159.

وأفعاله، فخامرهم حال رباني من أحواله، فحافظوا على أوراده، فسرى لهم الحظ الأوفر من إمداده، و ذلك هو الذي يصرح به في مجالسه في ارتباط الرابطة السرية بينه و بين كل من دخل في طريقه قيد حياته، و قيده في رسائله ليوفى بحقهم كل من وافى بعد وفاته، و هي في كتب هذه الطريقة مسطرة، و التزام محبة أهل الله على الداخل في طريقته والمتعلق بحبلها من الشروط المقررة كما أشرنا إليه أولا و ثانيا، و سنلم ببعض ذلك في غير هذا المحل بحول الله.

و لقد رأينا البعض إن لم نقل الجل ممن دخلوا في طريقتنا هذه قد غلوا في الطريق غلوا كبيرا، بما لم يأمر به الشيخ رضي الله عنه في معاشرة إخوانهم، فضلا عن غيرهم، فأمضى بهم التنافس في التعصب على الطرق الموجودة، و اتخذهم الآخرون بالتحامل عليهم في محافلهم المشهودة، فسرى البغض من البعض للبعض، و انتهز الشيطان فرصة تغيير القلوب فيما بينها بوشاية نفوس تسعى بالفساد في الأرض، فكان مبدؤها التعصب الديني و الدنيوي، حتى تمكن النفور بين جل الطرق و بين إخوان هذا الزمان، و لم يقف ذلك عند هذا الحد الذي يصطك المسامع منه، بل سرى للإخوان فيما بينهم، فاتخذ بعضهم بعضا سخريا، و كادت أن تنقطع الطريق بين جلهم انقطاعا كليا، و هم يحسبون أنهم على شيء من الطريق، فإذا اجتمع جماعة منهم بواحد ممن ليس على هواهم نبزوه، و بمهماز الإستهزاء همزوه، فلا يفترق الجمع إلا و قد امتلأ قلبه غيظا، ويكاد أن تفيض نفسه فيظا، فإذا اجتمع بجماعته التي من حزبه ملأ فراغا من الشتم و القدح، فتمتلأ الحناجر عما يطول عن الشرح، فتشتبك نيران العداوة بين هذا الفريق وهذا الفريق، كما شاهدنا ذلك بين أحزاب عوام كل طريق.

و لله الأمر من قبل و من بعد، فإن الدين الحنفي لم يجيء بهذا، و لم يرض أحد من الشيوخ بهذا، أزواجا و أفذاذا، و بالأخص شيخنا شيخ الطريقة المحمدية التجانية، فحاشاه و حاشى طريقته من هذه الخزعبلات النفسانية، فليتق الله من يدعي التمسك بعهده، و لينظر إلى نفسه قبل أن ينقطع عن قصده، فإن طريقتنا طريقة محمدية الإنتساب، أحمدية الإكتساب، عالية المقام، غالية المرام، سهلة المأخذ في السلوك، لأصحابها نفوس الملوك، ترقى بهم مراتبها، و هم في الظاهر متنازلون و يسلكون من التواضع مسالك بين الخاصة و العامة، و بالصدق في أحوالهم متعاملون، على أذكارهم مواظبون، و على صلاتهم يحافظون، جعلوا الشيخ أمَامهم، فاقتدوا به في الأفعال السرية و الجهرية، فبلغوا منه مرامهم بادخار الأعمال الخيرية، فأغناهم الشيخ بخيره، و لكن لم يتعدوا الطور بانتهاك حرمة غيره، فنصبوا وصاياه بين عيونهم، و بنوا عليها جميع شؤونهم، فهؤلاء هم التجانيون الحقيقيون.

و لو انكشف الغطاء عما رسم بين عينهم لوجد مكتوبا هذا تجاني حقيقي، فأما من أعرض عن هذه الطريق بما عليه أهل الإدعاء، مع ترك الإقتداء بما عليه الشيخ و خاصة أصحابه، فاشتغل في الظاهر بالأوراد، و نقض في الباطن حبل العهد بالإنتقاد على أهل الله، و انتهاك حرمتهم، وبغض إخوانه المسلمين وبالأخص الحقد على أهل الطريق التي هو متمسك بحبلها، فهو منقطع عن الطريق، لو نظر بعين الكشف لريء مكتوبا بين عينيه هذا محروم غير تجاني، فليس ملازمة الزاوية و حضور الوظيفة و ذكر الجمعة و المحافظة على الصلوات في أوقاتها غاية ما انبنت عليه أركان الطريق، بل لا بد من مراعاة الشروط الباقية.

و هي من التأكيد بمكان، يعرفها كل من تمسك بحبل هذه الطريقة من الإخوان، لاشتراطها عليه من أول الأمر، فإن الطريقة التجانية إن لم يلازم مريدها محبة الأولياء و تعظيمهم واحترامهم انقطعت فيها أمداده، و لا تنفعه أذكاره و أوراده، و كيف ينفع ذلك بعد مبارزته للحق بالمحاربة، و للنبي صلى الله عليه و سلم بالإذاية، يستحق المتصف بها شديد المعاتبة، و لا يقبل اعتباره إلا بعد التوبة النصوح، و تأكد هذا بين الإخوان في ما بينهم.

فتعين تنبيه الخاصة عليه، و تحذير العامة من الوقوع فيه، فترتبط القلوب بالمودة، و تصفو من كدر المعاداة السرية، و المنافرة الجهرية، فتجد رابطة السر قابلية في القلب و القالب، فتستحق حينئذ إنطلاق التجانية على المحافظ على أورادها، و المواظب على أذكارها بشروطها لنيل إمدادها، وأما **الصنف الثاني** فشرفه ذاتي غير مكتسب، بل العناية خصت به أهله، فلو تحلى العبد الذي لم يكن طينه من عنصره بجميع المحامد، و تخلى عن جميع المفاسد، و تجلى على كرسي الجلالة المنصوب لأكابر الأولياء على اختلاف مداركهم في القرب لحضرة القدس، وبلغ الغاية القصوى في تطهير النفس، حتى تجلت له عيانا خرائد الأنس، بين ملك و جن و إنس، ولم يكن من أهل هذا الصنف لم ينل المزية التي نالها أهله عند الله تعالى، و هم آل بيت النبي صلى الله عليه و سلم الذين هم منه و إليه:

بضعة قد شرفت في نفسها	و تحلت بكمالات الشـــــرف
كل علياء علت من تحتهــا	قدرها بالعز و المجد اتصف

فإن شرفهم ذاتي، و شرف غيرهم مكتسب عرضي، و قد قلت في مثل هذا:

شرف الآل لهم ذاتي غدا	و لدينا شرف الغير عَـــــرَضْ
فلتكن في حبهم متصفـــــا	بكمال الصدق من غير غرض

فمحبتهم في الحقيقة محبة للذات المحمدية، و بغض واحد منهم أو إذايته بغض لها، وفي ذلك الشقاوة الأبدية كما أشرنا إليه أولا، و ناهيك بهذه الخصوصية الذاتية و الموهبة اللدنية التي لا تكسب بعمل، و لا تدرك بحيل، فماذا يوازيها في الشرف، فأقسم بمن قسم الحظوظ قسمة عدل، وأرغم أنوف حسادهم بما لهم من الفضل، بأن لهم مقدارا عظيما، ومقاما عليا فخيما، وفضلا راسخا، و مجدا شامخا.

أولئك قوم عظم الله قـــــدرهم و فضلهم في العالمين على الغير
فإن قلت من هم قلت نسل محمد لأجلهم يجري لنا منبع الخيـــر [1]

فالسعيد من أحبهم، و الشقي على الحقيقة من أبغضهم، أو استخف بحقهم، فإن محببيهم هم البررة، ومبغضيهم هم الفجرة، و لقد أجاد من قال:

يا بني الزهراء و النور الذي ظن موسى أنه نور قبسْ
لا أوالي الدهر من عـاداكـم إنه آخر سطر من عـبسْ[2]

يشير لقوله تعالى: أولئك هم الكفرة الفجرة[3]، فبغض معاديهم من تمام محبتهم و كمال مودتهم، ومودة مبغضيهم خدش في وجه إيمان مدعي محبتهم، و لهذا تجد الكمل من الشيوخ يعرفون تلامذتهم بحق هذه النسبة، و يجعلون نسبة الولاية مرتبطة بها، فلا تصح ولاية أحد إلا بولاء أهل هذه النسبة عموما و خصوصا، و ما ذاك إلا لحرصهم على فوز من يتعلق بهم، فيطوون له المسافات لنيل السعادة الأبدية، ثم إن الشيوخ في خاصة أنفسهم مراتبهم في الدلالة و الإرشاد متفاوتة، و تقدمهم في حضرة التداني على مقدار اختصوا به من الشرف الطيني أو الديني، فوجب وجوبا شرعيا احترامهم وفق ما أشرنا إليه في مَن انفرد بإحدى النسبتين، وبالأحروية احترام من جمع بينهما، فمقامه في الفضل أتم، فيسعد من انحاش إليه بأدنى انتساب، و يشقى في الحين معاديه من غير سبب مقبول شرعا بين الأحباب.

فلمثل هذا أفصح أهل الخصوصية ممن حصل له سر هو بين النسبتين على فضله، وحذر من سوء الأدب معه، فأحرى معاداته أو انتهاك حرمته، و إطلاق لسان الفحش في عرضه، و إن

---

[1]- أجمع كبار العلماء والواصلين على أن لساداتنا الشرفاء الكرام مرتبة جليلة، تناهت عند الله تعالى إلى حد عظيم من المكانة وعلو القدر والجاه والمحبوبية الكبيرة، كما نبهوا لما ورد في حقهم من نصوص صحيحة. سواء من الكتاب أو الأحاديث والسنن والآثار.
ورحم الله العلامة الأديب سيدي محمود قابادو التونسي التجاني، حيث يقول في هذا الصدد ضمن قصيدته الميمية التي تقع في 255 بيتا:

يا أهل بيت رسول الله جاهكـم عند الإله عظيم الخطر مُحْتَرَمُ
يا أهل بيت رسول الله ركنكـــم حمًى منيع به تستعْصَمُ الأمـــم
يا أهل بيت رسول الله ذكركـم هو الشفاء إذا ما أعضل الألـمُ
يا أهل بيت رسول الله لا حَـرَمٌ إلا حماكم بيومٍ شره عمــــــم
إذ لا يُرَى حسبٌ عَالٍ ولا نسبٌ يوم القيامة إلا وهو مُنْحَسِـــمُ
يا أهل بيت رسول الله كمْ مِنَـنٍ لجاهكم شهدتها العرب والعجم

[2]- قريب من هذا المعنى قول العلامة الأديب سيدي مدثر بن إبراهيم بن الحجاز التجاني، وهو من علماء السودان، كما أنه من خيرة أخلاء العلامة سيدي أحمد سكيرج بالبلد المذكور، قال ضمن قصيدة له في مدح آل البيت الكرام:

لَكُمُ السيادةُ مِنْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُـــمْ والوصفُ بالحسنى إليكم غَايَتُـــهْ
لكم الوراثة للمفاخر سادتـــــي ولكم نطاق العزِّ دَارَتْ هالتُـــــهْ
هَلْ ثَمَّ بابٌ للنبي سوَاكُـــــمُ أنتم بنُوهُ وأهله وبِطَانَتُـــــــــهْ
مَنْ غيرُكُمْ نسلَ الرسول محمدٍ من غيركم من ذا الورى ريحانته

[3]- سورة عبس، الآية 42

أجل شيخ جمع الله له بين هاتين المزيتين شيخنا التجاني، فقد ظهر بهذا المظهر من الجمال لأحبائه، و الجلال لأعدائه، فهو في كمال الظهور قصم من الأعداء الظهور، و فضله يزداد انتشارا على ممر الدهور، فأما ولايته فقد شهدت بها الأموات و الأحياء من الأعداء والأحباء، فرسمت على جبين الدهر مناقبه، لما علت على غيره في رتب المجد مراتبه، فأصبح لسان الحمد يملي من وقت ظهوره من فضائله و فضائل طريقته المحمدية إملاءات تتلى بلغات شتى إلى الآن.

و لا زال يظهر من كمالاته ما عجز عن وصفه أهل القلوب السليمة و يبرهن انتشار طريقه في كل عصر على صدق ماله من الخصوصية التي شملت كل مريد و محب ينتسب إليه. ذلك فضل الله يوتيه من يشاء و في هذا المقام أنشد ما أنشأته من النفحات الربانية في الأمداح التجانية و ذلك قولي فيه:

كلما رمت في ثناه النهايـــــــه	قيل لي لم توف حق البدايـــه
إنما الناس كلهم إن يقومـــــوا	لثناه لم يبلغوا فيه غايـــــــه
كيف لا و الرضى التجاني إمام	قد غدا في الأنام ختم الولايـــه
خصه المصطفى بنهج قويـــم	كل من سار فيه نال الهدايـــه
ورده قد حلا لكل مريـــــــد	في الأماني يريد نيل الرعايـــه
و ينال الأمان دنيا و أخـــــرى	بضمان النبي وفق العنايـــــه
لا يخاف الذي استجار به مـــن	كل سوء يوما و لا من إذايـــه
و هو كهف يحوط من حل فيـه	في الورى دائما بسور الحمايه
و هو منج و منجد لمريـــــــد	من مريد أراده للغوايـــــــه
و هو غوث يغيث كل منـــــاد	ببلوغ المنى و دفع الشكايـــه
لو أزيل الحجاب عن أعين الحـــــــ	ـــــساد يوما لأبصروا الشيخ آيـه
آية تبهر العقول بما فـــــــي	ضمنها من سعادة و هدايـــه
حاصل القول إنه قطب دهـــر	ليس يلفى لفضله من نهايـــه[1]

أما شرفه الطيني فهو محقق النسب، و لم يكن رضي الله عنه يعول على ما هو مسموع عند الناس من صحة النسبة، وما هو مكتوب في العقود عند آبائه و جدوده، حتى سأل النبي صلى الله عليه و سلم على نسبه وحققه له، فقد صح لدينا عنه رضي الله عنه أنه قال: سألت سيد الوجود صلى الله عليه و سلم على نسبي فأجابني بقوله: أنت ولدي، وكررها ثلاثا.

[1]- أنظر كتاب النفحات الربانية في الأمداح التجانية، للعلامة سيدي أحمد سكيرج، وهي آخر قصائد الكتاب المذكور.

و إلى هذا يشير العلامة الفاضل السيد الطالب اللبار [1] أحد خاصة أصحابه رضي الله عنه في داليته بقوله في وصف الشيخ رضي الله عنه:

لما تمكن بالمنى من ربــــــــه ورأى التساعف من كمال محمد
أبدى السؤال أهل أنا لك مولــد فأجابه جهرا جواب معـــــــدد
و لدي اطمأن فأنت منى بضعة و لك المعالي قد دنت فاستصعد [2]

فوجبت محبته على الخاص و العام، بما له من هذا الفضل التام، و من هنا نصرف الوجهة إلى ما قصدناه من مطالبه، الدالة على علو مراتبه، و فيها من التنويه بقدره، و التزيه لسره، ما يحصل به الحال القوي، بالنهج على صراطه السوي، و يعلم مريده ما طلبه في بداية سيره، حتى حصل على سره، و يعرف غيره جلالة منصب هذا الشيخ الذي ختمت به الولاية، و فتحت به أبواب الخيرات التي ليس لها غاية، غير أني لا أبوح بالمتعين كتمانه، خشية أن يكون لي طيَّ النفع أضرار من لم يقدر على حمله أوانيه فيعظم خسرانه، فإن جل المطالب تستعظمها نفوس القاصرين، و غالب المشاهد لا تحملها عقول المعاصرين.

و لقد كان حدثني العارف بالله سيدي و مولاي أحمد العبدلاوي [3] رضي الله عنه أن الولي الصالح سيدنا العربي بن السائح رضي الله عنه لما وقف على مطالب الشيخ رضي الله عنه أشفق من أن تقع في يد من يتضرر بها، فمكنه منها ليوصلها بنفسه إلى خزانة الأسرار المستودعة عند أولاد سيدنا بعين ماضي، فصحبها معه حتى أودعها محلها.

---

[1] - الطالب بن العربي اللبار، أديب فاضل، من أعلام الطريقة التجانية بمدينة فاس، تمسك بوردها الشريف على يد الشيخ سيدي أبي العباس التجاني رضي الله عنه، وكان وقتئذ صغير السن دون العشرين من عمره، وكان شديد المحبة في جناب الشيخ المذكور، وقد مدحه بقصائد كثيرة، منها قصيدته الفائية التي تقع في 420 بيتا، قال في مطلعها:

لمليكة التذكار لا تستنكف وببذل رقك جند روحك ألف

وله في مدحه أيضا قصيدة أخرى سماها دالية التداني في مدح أبي العباس التجاني، تزيد على ثلاثمائة بيت، إلى غير ذلك من قصائد كثيرة أخرى، توفي ببلدة جنوه بإيطاليا أوائل شهر صفر 1266 هـ-1849 م، وبها دفن.

أنظر ترجمته في كشف الحجاب للعلامة سكيرج 342-352. رفع النقاب، للمؤلف نفسه 2: 183-221. تطييب النفوس بما كتبته من بعض الدروس والطروس، للمؤلف نفسه 60. الجواهر الغالية المهداة لذوي الهمم العالية، للمؤلف نفسه 29 و 39 و51-58 (مخطوط خاص). الفتح الرباني فيما مدح به القطب التجاني، للمؤلف نفسه (مخطوط خاص). إتحاف أهل المراتب العرفانية بتراجم بعض رجال الطريقة التجانية، للعلامة الحجوجي 2 رقم الترجمة 253. نخبة الإتحاف في ذكر بعض من منحوا من الشيخ التجاني بجميل الأوصاف، للمؤلف نفسه رقم الترجمة 145. زهر الآس في بيوتات أهل فاس، لعبد الكبير بن هاشم الكتاني 1: 53-54. إتحاف المطالع لابن سودة 1: 193. موسوعة أعلام المغرب 7: 2588.

[2] - الأبيات من قصيدة للأديب الشهير سيدي الطالب اللبار في مدح الشيخ أبي العباس التجاني رضي الله عنه، قال في مطلعها:

ظعن الفؤاد على الذلول الأقصد مستيقنين تملكًا بالمقصـــــــد
غنت لفرقتهم وقد حامت بهـــم ورق الحمام غناء صب مفقد

[3] - سبق التعريف به في الجزء الأول من هذه الرسائل

وحدثني نجله أخونا في الله الفاضل البركة الأسعد، سيدي محمد[1] أمنه الله، أنه اطلع عليها، وهو الذي جاء بها إلى الولي الصالح سيدي العربي بن السائح، فبقيت عنده مدة إلى أن قدم والده سيدي و مولاي أحمد العبدلاوي فمكنه منها، و قال للأخ المذكور: كنت عزمت على أن أجعل هذه المطالب في صندوق من حديد، و أوجهها إلى سيدنا البشير[2] و حين قدوم والدك كفانا هذه المؤنة، ثم دفعها لوالده المذكور وهي نحو العشرين كراسا تسمى **بالمواهب الإلاهية، في المطالب الأحمدية**، مكتوبة بخط أحد خاصة أصحاب سيدنا و خدامه الفقيه الأجل سيدي الحشاني[3] رحمه الله، منقولة من خط سيدنا رضي الله عنه، يخاطب فيها سيدنا رضي الله عنه الواسطة المكرم سيدي محمد بن العربي الدمراوي، يقول فيها: إذا وصلك كتابي هذا و اجتمعت بالنبي صلى الله عليه و سلم فلتطلب منه ضمان قضاء هذه المطالب التي أرسمها في هذا الكتاب الذي هو الآن بيدي أكتبه على ركبتي ضمانا تاما شاملا عاما، وعليها جواب النبي صلى الله عليه وسلم منقولا من خط الواسطة المذكور، بضمان ذلك المسطور، و حق أن أقول في هذا البساط:

إن التجاني له مطالب كملـــــت ... أسرارها بضمان أفضل الرســل
مطالب لم تكن تجري بفكر فتـى ... يهتم في ذكر ما يقضي من الأمل
مطالب لم ينل سواه معرفـــــة ... لما عليه انطوت من كامل النحل
مطالب ما اهتدى السوى ليسألها ... من الكريم لذي علم و ذي عمـل
مطالب جمعت دنيا و آخـــــرة ... من كل خير خفي قدره و جلــي
مطالب فوق ما يظن سامعــــها ... بما لها من مقام في الكمال علـي

[1]- سبق التعريف به في الجزء الأول من هذه الرسائل

[2]- المراد به الشريف سيدي محمد البشير بن سيدي محمد الحبيب بن الختم أبي العباس التجاني رضي الله عنه، سبق التعريف به في الجزء الأول من هذه الرسائل

[3]- سيدي محمد الحشاني الزيدي، من أولاد زيد، من فرقة النعمة (عمالة بسكرة) بالقطر الجزائري، فقيه جليل، كان ملحوظا لدى سيدنا الشيخ رضي الله عنه بعين الوقار والهيبة، كما اتخذه أستاذا لأولاده يقرؤهم القرآن الكريم، وزوجه بابنة بعض إمائه، وعقد له عليها بنفسه، بعدما قال له: إني أردت أن أزوجك إن قبلت بهذه، وأراه وجهها ويديها، فقال له: يا سيدي كيف لا أقبل ذلك وأنا من جملة خدامك، فأخذ الشيخ رضي الله عنه في ذلك الوقت كاغدًا، وكتب فيه ما نصه: الحمد لله أشهد على نفسه أحمد بن محمد التجاني أنه زوج مكفولته الزناتية لصاحبه سيدي محمد الحشاني. إهـ..
توفي بالأغواط عن عمر يناهز 120 سنة، وبها دفن، وفي حقه يقول العلامة سكيرج في نظمه جنة الجاني:

ومنهم محمد الحشاني ... تُوِّجَ بالوقار في الإخــوان
عقد شيخنا له بنفسه ... عن أمة صغيرة من غرســه
وبعدما غمره إحسانا ... قرأ مع أولاده القرءانــا
فهو شيخ للحبيب والكبير ... معظم عند الصغير والكبير
قد ناهز المائة والعشرينا ... في عمره و بلغ التمكينــا

أنظر ترجمته في كشف الحجاب، للعلامة سكيرج 405-406. رفع النقاب، للمؤلف نفسه 3: 188-189. جنة الجاني في تراجم أصحاب الشيخ التجاني، للمؤلف نفسه (مخطوط). إتحاف أهل المراتب العرفانية بتراجم بعض رجال الطريقة التجانية، للعلامة الحجوجي 2 رقم الترجمة 203. نخبة الإتحاف في ذكر بعض من منحوا من الشيخ التجاني بجميل الأوصاف، للمؤلف نفسه رقم الترجمة 260.

ثم إن المطالب التي ستذكر بحول الله منها ما كان قبل الفتح على سيدنا رضي الله عنه، ومنها ما كان في مبادئ الفتح، و منها ما كان في أواسط الفتح قبل عثوره على الخلافة العظمى، والوقوف على المقام الأسمى، و الحصول على رتبة الختمية، و بلوغ سر الكتمية، و حين بلغ الغاية القصوى من هذه المقامات لم يبق له مطلب يطلبه لا بواسطة و لا بدونها، إلا ما كان يدعو به تعبدا للمولى وقوفًا مع حد الشريعة، بعد انكشاف الحقيقة له عن نيل كل مرتبة رفيعة.

فقد كان رضي الله عنه في ابتداء أمره يبالغ في طلب ما يرفع عنه الحجاب عن مشاهدة الرسول صلى الله عليه و سلم مناما و يقظة، بعد المجاهدة التامة بأنواع التعبدات لله تعالى، وفنون التقربات للحضرة المحمدية عليها السلام، حتى فتح عليه بالاجتماع به عليه الصلاة والسلام في اليقظة، و حصل على السر الذي يتوصل به لملاقاته في أي وقت أراده بكشف الحجب عن عين البصيرة، فيراه بالتبصر مشاهدة عيانا في مجلسه الخصوصي في أي مكان، فكان يهيء المطالب المهمة عنده ليسألها من النبي صلى الله عليه و سلم، يعدها قبل الملاقاة، غير أنه إذا اجتمع به ينسى جميع مطالبه لاستغراق المشاهدة في محاسنه التامة بقلبه و قالبه، فلا يتذكر مطلبا واحدا مما كان معدا عنده قبل الإجتماع به، و بعدما يفترق من الجمع به يهمه عدم استحضاره لمطالبه ليلقيها بين يدي الرسول صلى الله عليه و سلم، لما يراه من إقباله عليه، فكان في ذلك الحال على حد ما قلت:

إني لأضمر في نفسي مطالب لي	إذا رأيت حبيب القلب أذكرها
حتى إذا ما اجتمعنا صرت ناسيها	كأنني لم أكن من قبل أضمرها

فصار يستعين على استحضار مطالبه بكتب ما يهتم به من ذلك في تقاييد يمليها على الرسول عليه السلام، و يبالغ في استحضار همته لتذكرها وقت ملاقاته، فكان الغالب عليه أن لا يتذكر ذلك إلا بعد انفصال المجمع المبارك، فأشفق من حاله صلى الله عليه و سلم، و أمره باتخاذ الواسطة المكرم، و أذنه في كيفية الإجتماع به عليه السلام، ويقوم مقامه في إلقاء مطالبه بين يديه و طلبها منه، فاتخذ الواسطة المكرم السيد محمد بن العربي الدمراوي التازي[1] لهذا القصد، و صار يكتب جميع ما يريده في تقاييد مخصوصة، يضمنها كل مطلب تعلق قلبه به، و توجهت نفسه لإدراكه، فكان الواسطة يلقي تلك التقاييد بين يدي الرسول صلى الله عليه و سلم، و يطلب منه ضمان ما فيها من كل سول، لقيامه مقام الشيخ رضي الله عنه في طلب ذلك، فتارة يجيبه بمحضر الشيخ رضي الله عنه مشافهة في فضائلها، و تارة يأمره بكتب جوابه له بما يمليه عليه، فيكتبه بخط يده حسبما بلغنا ذلك عنه على لسان الثقة، ورأينا أجوبته على غالب مطالبه التي بخطه الشريف مباشرة و بواسطة أو وسائط من غير تحريف.

[1]- سبق التعريف به في الجزء الأول من هذه الرسائل

لاحقة بما تقدم لائقة

كان سيدنا رضي الله عنه لا يكتفي فيما يطلبه من الحضرة المحمدية عليها السلام ومن الحضرة المقدسة بالنطق باللسان المطابق لما في ضميره، بل كان يكتب ذلك في كاغد خصوصي، و يعين مطلبه الخاص كتابة، و ذلك إلا لأسرار منها أنه كان يتذكر بذلك مطالبه كلما رآها مكتوبة عنده، فيفرح لما أجيب فيه، و يلح في ما لم ينله حتى يستوفيه، و لسيدنا رضي الله عنه مآرب أخرى.

و قد أطلع الخاصة على ما في ذلك من الخاصية، يرشد إليها ما ورد في فضل التلاوة في المصحف على التلاوة عن ظهر قلب، و بيان ذلك أن الهمة تكون مجموعة، و الجوارح عاملة في مطلبها برد الوجهة إليه، زيادة على كون المرقوم يبقى نصب العين قائم الذات في الوجود، بخلاف التلفظ وحده فهو من الأعراض الغير القائمة، و إن كانت الألفاظ في نفس الأمر تتجسد أرواحا، و إن لم ير منها المتلفظ أشباحا، كما نص على ذلك أهل الأسرار، ولكن عالم الحس محرك قوي في العالم الروحاني، و قيد مثين لما شرد الواردات منها، وبعبارة أخرى مجرد النطق لا يقوى قوة النطق، و عمل اليد و النظر لجمع الهمة في التأني أكثر من الأول لا يقال العملية تشوش على التفكر في المعاني التي هي روح المطالب، لأنا نقول التفكر فيها حاصل أيضا حالة الكتابة و بعدها في النظر في المكتوب، فلا جرم أن الكتب للشيء أعظم نفعا من النطق به، فإن قيل الملفوظ به يتجسد ذواتا نورانية أو ظلمانية، أو بين بين، فحسب ما تضمن فقيام تلك الذوات بالمطلوب أحسن من صور المكتوب.

فالجواب أن المكتوب تحصل منه تلك الذوات أيضا، لأن المكتوب ملفوظ به، و تتكلم تلك الذوات كلما لفظ به، بخلاف الملفوظ به فقد تضمحل تلك الذوات، و لا يكون لها نظير إن لم يحفظ ذلك الملفوظ به، سيما و اللفظ من قبيل العرض، لا يقوم بنفسه، وصورة المكتوب له تأثير قوي لدى العارفين بالرسوم، و قد نصوا على أن المكتوب له نيابة عن الكاتب في عالم المعنى، يقوم مقامه فيما انطوى عليه، فهو و إن غفل عنه فالمكتوب ينطق بما اشتمل عليه من الألفاظ، و لهذا يقولون في بعض الأذكار: إذا كتبت يحسب فضلها للذاكر، و قد قال سيدنا رضي الله عنه من هذا المعنى في السيفي[1]: من كتبه و علقه عليه فكأنه يذكره ما دام معلقا عليه، و هناك أسرار أخرى نضرب عنها صفحا غيرة عليها من أن تقع في يد المنكرين، وبالله التوفيق.

إعلام للإخوان

لما كان الخاصة من أهل الله مشربهم من عين الرحمة الربانية و موردهم منها بعد التلهف على قدر ما حملته آنيتهم من الفيوضات العرفانية، فتفجرت ينابيع الحكمة من صدورهم، في ورودهم وصدورهم، ما بين أعيانهم و صدورهم، كل واحد منهم على مقدار

---

[1]- دعاء السيفي، من ضمن الأذكار غير اللازمة في الطريقة التجانية، أوله: اللهم أنت الله الملك الحق المبين القديم المتعزز بالعظمة والكبرياء... إلخ

ماله من كمال الإتصال من القرب لذلك المنهل العذب، و أفاضوا على غيرهم من معين المعرفة ما شفى غليل العليل، و أقر العيون التي تتشوف إلى ما يعمها من مواهب الجليل.

تنوعت المطالب و المقاصـــد   على حسب المشاهد و الموارد
فهذا منهل عذب و هـــــــذا   يرى فيه عذاب للمجاحـــــــد
و هذا قد تفجر منـــــــه ورد   حلا للشاربيـــن و كـــل وارد
و هذا لم يرده سوى أنـــــاس   به خصوا و هذا غير بــــارد
تخالفت المشارب و هي ممـن   تفجر أصلهــــا ردت لواحــد

فطفق كل واحد منهم يعرب عن مقامه بلسان الشكر، بما أذن له به في حالة الصحو أو السكر.

الدراري المنولة
في جمع الشعر المذكور في البخاري

للعلامة سيدي أحمد سكيرج رضي الله عنه

تحقيق ذ محمد الراضي كنون
الإدريسي الحسني

الدراري المنوطة
في جمع الشعر المذكور في البخاري[1]

بسم الله الرحمن الرحيم و صلى الله على سيدنا محمد و آله و صحبه و سلم.
الحمد لله الذي بيده النعمة. و الصلاة و السلام على القائل إن من الشعر لحكمة[2]. وعلى آله وصحبه و من تبعهم و تعلق بحبلهم فكان معهم. فقد قضت بعض المذاكرات ذكر شعر أثناء متن صحيح البخاري. فتشوفت النفس إلى جمعه. و إن شاء سيكون عليه تعليق تتم به الفائدة. و على الله الصلة و العائدة. فمن ذلك ما في ***باب نوم المرأة في المسجد*** من كتاب الصلاة عن عائشة رضي الله عنها أن وليدة كانت سوداء لحي من العرب. فأعتقوها. فكانت معهم. قالت: فخرجت صبية لهم عليها وشاح أحمر من سيور. قالت: فوضعته أو وقع منها. فمرت به حدياة و هو ملقى. فحسبته لحما. فخطفته. قالت: فالتمسوه فلم يجدوه. قالت: فاتهموني به. قالت: فطفقوا يفتشون حتى فتشوا قبلها. قالت و الله إني لنائمة معهم إذ مرت الحدياة فألقته. قالت: فوقع بينهم. قالت: فقلت هذا الذي اتهمتوني به زعمتم. و أنا منه بريئة و هو ذا هو. قالت: فجاءت إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم فأسلمت. قالت عائشة: فكان لها خباء في المسجد أو حفس. قالت: فكانت تأتيني فتحدث عندي. قالت: فلا تجلس عندي مجلسا إلا قالت:

و يوم الوشاح من أعاجيب ربنا ألا إنه من بلدة الكفر أنجاني

قالت عائشة: فقلت لها ما شأنك لا تقعدين معي مقعدا إلا قلت هذا؟ قالت: فحدثتني بهذا الحديث. وقد ذكر هذا الشعر في ***باب أيام الجاهلية*** بلفظ تعاجيب ربنا[3].

و من ذلك في ***باب سؤال الناس الإمام الإستسقاء إذا قحطوا*** عن عبد الرحمن بن عبد الله ابن دينار عن أبيه قال: سمعت ابن عمر يتمثل بشعر أبي طالب:

و أبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل[4]

---

[1]- هو من ضمن كتبه غير التامة، لم يكتب منه سوى أربع صفحات

[2]- أنظره في مجمع الزوائد، للهيثمي (كتاب الأدب) باب إن من الشعر حكمة 8: 228 رقم 13325، رقم 13326، رقم 13327، مسند الطيالسي (حديث أبي بن كعب رضي الله عنه) 1: 76 رقم 556، رقم 557. مسند الشهاب القضاعي 2: 99 رقم 964، صحيح ابن حبان (باب الشعر و السجع) ذكر البيان بأن عموم هذا الخطاب في خبر أبي هريرة أريد به بعض ذلك العموم لا الكل 5: 380 رقم 5680. مسند أبي يعلى (مسند عبد الله بن مسعود) 9: 41 رقم 5107.

[3]- أنظر صحيح البخاري (كتاب الصلاة) باب نوم المرأة في المسجد رقم 434 (كتاب مناقب الأنصار) باب أيام الجاهلية رقم 3748.

[4]- أنظر صحيح البخاري (كتاب الإستسقاء) باب سؤال الناس الإمام الإستسقاء إذا قحطوا رقم 996.

و من ذلك في ***باب فضل من تعار من الليل فصلى.*** عن الهيثم ابن أبي سنان أنه سمع أبا هريرة رضي الله عنه و هو يقصص في قصصه. و هو يذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أخا لكم لا يقول الرفث. يعني بذلك عبدالله بن رواحة:

و فينا رسول الله يتلو كتابـــه	إذا انشق معروف من الفجر ساطع
أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا	به موقنات أن ما قـــــــال واقع
يبيت يجافي جنبه عن فراشـه	إذا استثقلت بالمشركين المضاجـع[1]

و من ذلك عن عائشة رضي الله عنها كما في ***الباب قبل كتاب الصوم*** قالت: لما قدم رسول الله صلى الله عليه و سلم المدينة وعك أبو بكر و بلال. فكان أبو بكر إذا أخذته الحمى يقول:

كل امرئ مصبح في أهله	و الموت أدنى من شراك نعله

و كان بلال إذا أقلع عنه الحمى يرفع عقيرته يقول:

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة	بواد و حولي إذخر و جليـــل
و هل أردن يوما مياه مجنــة	و هل يبدون لي شامة و طفيل[2]

و من ذلك في ***باب قطع الشجر و النخل*** عن نافع عن عبد الله رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه حرق نخل بني النظير و قطع و هي البويرة و لها يقول حسان.[3]

و هان على سراة بني لؤي	حريق بالبويرة مستطير[4]

---

[1]- أنظر صحيح البخاري (كتاب التهجد) باب فضل من تعار من الليل فصلى رقم 1138 (كتاب الأدب) باب هجاء المشركين رقم 6008.

[2]- أنظر صحيح البخاري (كتاب فضائل المدينة) آخر أبواب الكتاب المذكور رقم 1868 (كتاب مناقب الأنصار) باب مقدم النبي صلى الله عليه و سلم و أصحابه المدينة رقم 3839 (كتاب المرضى) باب عيادة النساء الرجال رقم 5526، باب من دعا برفع الوباء رقم 5549.

[3]- أنظر صحيح البخاري (كتاب الحرث و المزارعة) باب قطع الشجر و النخل رقم 2289 (كتاب المغازي) باب حديث بني النضير و مخرج رسول الله صلى الله عليه و سلم في دية الرجلين و ما أرادوا من الغدر برسول الله صلى الله عليه و سلم رقم 3945.

[4]- البيت للصحابي الجليل حسان بن ثابت، قال ضمن أربعة أبيات و نصها:

تفاقد معشر نَصَرُوا قريشا	و ليس لهم ببلدته نصيـــر
هم أوتوا الكتاب فضيعوه	فهم عمي من التوراة بور
كفرتم بالقرآن و قد أتيتـم	بتصديق الذي قال النذيـر
لهان على سراة بني لؤي	حريق بالبويرة مستطيـر

و من ذلك ما في ***باب إذا قال رجل لعبده هو لله. و نوى العتق و الإشهاد في العتق من ترجمة العتق و فضله.*** عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه لما أقبل يريد الإسلام ومعه غلامه. ضل كل واحد منهما عن صاحبه، فأقبل بعد ذلك. و أبو هريرة جالس مع النبي صلى الله عليه و سلم فقال النبي صلى الله عليه و سلم: يا أبا هريرة هذا غلامك قد أتاك. فقال: أما إني أشهدك أنه حر. قال: فهو حين يقول:

يا ليلة من طولها و عنائها   على أنها من دارة الكفر نجت[1]

و من ذلك ما في ***باب التحريض على القتال*** عن أنس رضي الله عنه يقول: خرج رسول الله صلى الله عليه و سلم إلى الخندق. فإذا المهاجرون و الأنصار يحفرون في غداة باردة. فلم يكن لهم عبيد يعملون ذلك لهم. فلما رأى ما بهم من التعب و الجوع قال: اللهم إن العيش عيش الآخرة فاغفر للأنصار و المهاجرة، فقالوا مجيبين له:

نحن الذين بايعوا محمدا   على الجهاد ما بقينا أبدا[2]

فقول النبي صلى الله عليه و سلم هنا ليس من الشعر. و يسقط العجز في رواية بايعوا محمدا على الإسلام في الباب المذكور. و في ***باب البيعة في الكرب*** بلفظ على الجهاد ما حيينا أبدا.

و من ذلك ما في ***باب الرجز في الحرب*** عن البراء رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الخندق و هو ينقل التراب حتى وارى التراب شعر صدره. و كان رجلا كثير الشعر يرتجز برجز عبد الله:

اللهم لولا أنت ما اهتدينـا   و لا تصدقنا و لا صلينا
فانزلن سكينـــــــة علينا   و ثبت الأقدام إن لاقينـا
إن الأعداء قد بغوا علينا   إذا أرادوا فتنة أبينـــــا[3]

يرفع بها صوته. و قد خرجت هذه الأبيات عن قانون الشعر بتعريف اللهم مع ذكر الأعداء. وعلى قانونه تقول: لاهم. و تقول إن العداة قد بغوا. فنشهد أن رسول الله ليس بشاعر و لا براوية شعر.

---

[1]- أنظر صحيح البخاري (كتاب العتق) باب إذا قال رجل لعبده هو لله و نوى العتق و الإشهاد في العتق رقم 2483، رقم 2484 (كتاب المغازي) باب قصة دوس و الطفيل بن عمرو الدوسي رقم 4286.

[2]- أنظر صحيح البخاري (كتاب المغازي) باب غزوة الخندق رقم 4010 (كتاب الأحكام) باب كيف يبايع الإمام الناس رقم 7041 (كتاب الجهاد و السير) باب التحريض على القتال رقم 2769 باب حفر الخندق رقم 2770.

[3]- أنظر صحيح البخاري (كتاب المغازي) باب غزوة خيبر رقم 4103. (كتاب الأدب) باب ما يجوز من الشعر و الرجز رقم 6005. (كتاب التمني) باب قول الرجل لولا الله ما اهتدينا رقم 7075. (كتاب الجهاد و السير) باب الرجز في الحرب و رفع الصوت في حفر الخندق رقم 2967، باب حفر الخندق رقم 277 رقم 2772.

و من ذلك قول خبيب:

ما أبالي حين أقتل مسلمــــــا   على أي شق كان لله مصرعــي
و ذلك في ذات الإله و إن يشا   يبارك على أوصال شلو ممزع[1]

في قصة ذكرها في أبواب مكررة برواية فلست أبالي و على أي جنب و بلفظ ما أبالي المذكور.

[1]- أنظر صحيح البخاري (كتاب الجهاد و السير) باب هل يستأسر الرجل؟ و من لم يستأسر، ومن ركع ركعتين عند القتل رقم 2978 (كتاب المغازي) باب فضل من شهد بدرا رقم 3901، باب غزوة الرجيع ورعل و ذكوان و بئر معونة و حديث عضل و القار و عاصم بن ثابت و خبيب وأصحابه رقم 3997 (كتاب التوحيد) باب ما يذكر في الذات و النعوت رقم 7236.

الهدية السارة بالمسامرة
ببيان بعض الفنون النافعة والفنون الضارة

للعلامة سيدي أحمد سكيرج رضي الله عنه

تحقيق ذ محمد الراضي كنون
الإدريسي الحسني

بسم الله الرحمن الرحيم و صلى الله على الفاتح الخاتم و آله و صحبه و سلم تسليما

الهدية السارة بالمسامرة
ببيان بعض الفنون النافعة والفنون الضارة[1]

بسم الله الرحمن الرحيم، حمدا لمن علم الإنسان ما لم يعلم، وكان فضل الله عليه عظيما، والصلاة والسلام على نبي الرحمة المخاطب بقول الله تعالى اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم[2]، وأمره بالإستزادة من العلم بقوله جل علاه: وقل رب زدني علما[3]، فنال مقاما جسيما، وكان بالمومنين رحيما، وعلى آله وأصحابه نجوم الإهتداء، وأئمة الاقتداء.

أما بعد، أيها السَّادة الأفاضل، قد اقترح عليّ سيادة مندوب المعارف العلامة المبرز في العلم والفضل سيدي محمد بن الحسن الحجوي[4] أن ألقي في هذه المدرسة العليا مسامرة في موضوع مفيد، وأسلوب منشط للمستفيد، ولم أجد مندوحة عن امتثال أمره لما له حفظه الله من الحرص على بث المعارف وإحياء دروس العلم وتنوير الأفكار، فجلتُ جولة في بيداء التفكر في موضوعات مختلفة، عسى أن أجد سبيلا أسلك منه إلى مَا يستحسنه ذوو الأذواق السليمة، فاهتديت لأطرق بابا طالما طرأ عليّ الدخول منه إلى ميدانه الفسيح، فأتنزّه في روضات جناته المثمرة أفنانها بفنون المعارف العالية الغالية، وأقتطف ما ازدهى وازدهر فيها من القطوف الدانية، وذلك ما أترجم عنه باسم هذا الرقيم:

[1]- هي مسامرة علمية هامة، ألقاها المؤلف على أسماع طلبة المدرسة العليا بمدينة الرباط، وذلك باقتراح من منذوب المعارف العلامة الشهير محمد بن الحسن الحجوي.
[2]- سورة العلق، الآية 4.
[3]- سورة طه، الآية 114.
[4]- سبق التعريف به في الجزء الأول من هذا الكتاب.

الهدية السارة، بالمسامرة ببيان بعض الفنون النافعة والفنون الضارة، بعد أن كنت نظمت قصيدتي اللامية المعنونة بنفع العموم، بالمسامرة ببعض العلوم[1]، التي مطلعها:

خذ العلوم وإن كسلت عن عمل	فالعلم من أكمل الأوصاف في الرجل
لا يستوي عالم وجاهـــل أبـدا	وَلو بلا عمل أحـــــرى مع العمـــل[2]

وحيث كانت العلوم متنوعة في حد ذاتها واختلاف موضوعاتها، ولكل منها اصطلاح خاص به مما هو متداول وغير متداوَل بين العموم والخصوص، كنت أقضي العجب كما يقضيه غيري من كثرة العدد الذي يذكره بعض العارفين من أنواع العلوم، ولقد وقفت على أسماء كثيرة منها في الفتوحات المكية، وقد ألَّف الإمام الشعراني تأليفا في ذكر جملة من ذلك سماه: تنبيه الأغبياء على قطرة من بحر علوم الأولياء، ذكر فيه نحو واحد وسبعين ألف علم، وَبحثت عليه كثيرا فلم أعثر عليه، حتى وقفت على تأليفه المسمّى: إرشاد الطالبين، إلى مراتب العلماء العاملين، الذي ذكر فيه أربعمائة علم وأحد عشر علما باسم كل واحد منها ليتميز عن غيره، فوجدته قد أشار إلى تأليفه المذكور هناك وأنه لما رأى عقول العلماء تحار فيه رمى به في بحر النيل، وذكر في كتابه المسمّى: الدر النظيم، في علوم القرآن العظيم نحو ثلاثة آلاف علم منها، ونقل عن شيخه العارف بالله سيدي إبراهيم المتبولي رضي الله عنه أنه أخبره بأنه خرَّج من سورة الفاتحة من العلوم مائتا ألف علم وسبعة وأربعين ألف علم وتسعمائة وتسعة وتسعين علما، وهكذا نقل غيره عن جماعة من العارفين، ولا يظن الظان أن هذه العلوم مجرد أسماء أو أسماء لا مسمى لها، بل كل علم منها له اصطلاح خاص في موضوع خاص، مع بقية المبادئ المنوطة به، مع اتساع مجاله في كلياته المندرج تحتها جزئيات كثيرة.

وهذه العلوم تنبئ باتساع عارضة الخائضين فيها من العارفين الذين تكلموا في كل واحد منها حسب اصطلاحه كما هي عليه العلوم المقرر اصطلاحها مما يتضح به جهل المتكلم فيها من غير مراعاته، ويعرف الدخيل فيه من غيره بمجرد كلامه على حسب مقاله ومقامه، ولا ينبغي إنكار مَن لا إلمام له بواحد منها على من تكلم بمراعاة ذلك الإصطلاح فيه عند المنصف، وليست هذه العلوم بمتناولة لكل واحد، لأنها لا تخطر ببال غير أهلها، و لا يظفر شيء منها غير المولوع بالبحث عنها، والقطف من أغصانها اليانعة في بستانها، مع وجود قابلية فيه لحمل مَا قرره أهلها بعباراتهم التي لا تفهم لكل العموم، كالمتكلم مثلا في حدود إشكال القضايا المنطقية عند من لا يعرف الكليات الخمس، فلا جرم أن جاهل ذلك يَصعب

---

[1]- كان للعلامة سيدي أحمد سكيرج رحمه الله مشاركات مكثفة في المسامرات التي كانت تعقدها عدة نوادي علمية أدبية في مختلف مدن المغرب، تلك المسامرات التي كان تعقد بمحضر نخبة من جلة علماء وأدباء الوطن، ويظهر كل منهم حاد نظره وذهنه في البحث والتنقيب في أي مسألة من المسائل العلمية أو الأدبية أو الفكرية أو التاريخية.

وعموما فقد كانت للعلامة المذكور في هذه المسامرات صولات وجولات مشهودة، وكان من أكثر روادها معرفة وتفتحا وسعة أفق، اعتبارا لما عرف عنه من ذكاء وسرعة بديهة، ولما كان يسلكه من أحدث أساليب التحليل الأدبي وتذوق النصوص والإلمام بمختلف التيارات العلمية.

[2]- أنظر نص هذه القصيدة ضمن هذا الجزء ص

عليه الوصول للنتائج على وفق الإصطلاح، إن لم يبادر بالإنكار بالمرة، بكونه لا يمكن لأحدٍ الحصول على هذا الفن الذي هو مجرد قواعد يتوصل بها لعصمة الفكر من غير الخطأ، وهكذا غيره من الفنون.

ولما كانت هذه العلوم غير متناولة لكل أحد، وجهت النظر إلى معرفة أسماء بعض أنواع العلوم التي يخوض فيها النَّاس بين العموم، فوجدتها كثيرة أيضا، ما بين محمود منها ومذموم في نظر الشرع تعلما وتعليما وعلما وعملا، وقد انقسمت بأنواعها المختلفة إلى علوم متداولة وغير متداولة أيضا نظير العلوم المتقدمة.

فسنح لي أن أذكر في هذه المسامرة جملة من ذلك، لتنفتح أفكار المطلعين عليها ممن لم يقفوا عليها من قبل، فيكون لهم بعض الإلمام ولو بإجراء أسمائها على حافظتهم[1]، وعسى أن يهب نسيم الولوع بإحياء الفنون على لواقح القرائح، فتثمر قابلية لتحصيل المحمود منها والعمل به، مع حصول نهضة في العلم بهمة عالية آخذة باليد من مزلق التكاسل والتقاعد عن إدراك ما أدركه غيرنا من أسرار العلوم وثمرات المعارف، التي انجلت بها عنهم غياهب جب الجهالات التي تراكم بعضها على بعض في قطرنا من حيث لا ندري، وندعي أننا ندري ولا نرضى أن نقول لا ندري وحقنا أن نتعلم ونرشد إلى التعلم في هذا العصر الذي لم يتقدم فيه الجهل على العلم عند العارفين بقدره، ولا يزال المتقاعد بجهله وإن تقدَّم بنفسه متأخرا متقهقرا إلى ورا، كما عليه حالة أهل زماننا[2]، حتى أننا حفظنا عن بعض شيوخنا قبل هذا الوقت قول القائل:

زماننـــا كأهلــه	وأهله كمـا تـرى
ومشيهم جميعهم	إلى ورا إلى وَرا

[1]- سعى العلامة سكيرج رحمه الله طول حياته لانتشال المسلمين من سقطتهم، ونشر العلوم النافعة بين أبنائهم، فكان في هذا الصدد المثل الحي لما كان عليه سلفنا الصالح، من حيث الجمع بين الرواية والدراية في كل المعارف الإسلامية، وبين الدأب على نشرها بعد التدقيق والتمحيص، واستنارة خباياها، وإبراز مفاخرها، وكانت تتحلق حوله في معظم مسامراته طبقة من كبار المثقفين المغاربة وقتئذ، وكان العلامة سكيرج أوسعهم علما، وأعمقهم غورا، وأبعدهم نظرا، يسعى إلى غاية هي أكبر أمانيهم ومبلغ طموحهم، فقدموه معترفين بفضله، وعقدوه مقرين آراءه ونظراته، وكان من أولئك العلماء الوزير محمد بن الحسن الحجوي، ومحمد بن علي دينية، وعبد الحي الكتاني، ومحمد بن العربي العلوي وآخرين.

[2]- كان العلامة سكيرج رحمه الله يرمي من وراء هذه المسامرة إلى أهداف عديدة، لعل من أبرزها الدعوة إلى نشر العلم، والإهابة بالعقول أن تستيقظ وتتجه نحو الكمال الممكن في هذه الحياة، ومحاربة الجهل والخرافات المستحكمة، والتنافس الدنيء، وما إلى ذلك من الروابط الممزقة والأسر المفككة، والطمع الرخيص، والكبر والحسد والشحناء، وغيرها من الأوضاع التي لا تتفق والإسلام.
وكان رحمه الله من عداد العلماء الذين تصدوا لإصلاح هذا الوضع، حيث بذل جهدًا كبيرا في تغييره، وما من وسيلة رآها ناجعة إلا جعلها وصلة إلى هدفه، وسلَّمًا إلى غايته، وبالرغم مما كان يعترض طريقه من مشاغبات ومنغصات ومثبطات، شأن كل عالم مصلح يواجه الناس بإنكار ما شبوا عليه وشابوا من بدع وأباطيل، فإنه ظل كالدوحة المنتصبة في الفضاء، تهز بالأعاصير والأنواء ساخرة متحدية.

أمَّا الآن فقد لاحت لنا بارقة خير تحت ظل الجلالة اليوسفية أدام الله سعادتها، فشيّدت في إيالته السعيدة عدة مدارس لدرس بعض العلوم المهمّة التي يحق علينا أن نتسارع بكبيرنا وصغيرنا إلى تحصيلها.

وها هنا نظرة إجمالية في العلوم وأنواعها والسبب في إحيائها وإماتتها، لا غرض لنا في الكلام على تعريف العلم بذكر الحدود والرسوم المميز بها كل نوع من أنواعه، وذكر الجامع والمانع في الطرد والعكس، وما يرد على ذلك من الإيرادات والأجوبة، وإنما نذكر هنا مَا تأتى لنا ذكره من أنواعه بعبارة وَاضحة المعنى، وإن لم تكن جامعة مانعة في نوع العلم الذي نذكره، لكون ذلك يستدعي إلى طول، وليس المقام هنا بمقام درسها، وإنما هو مقام إمْلاء تحريكا للقائح للانكباب على تحصيل العلم بتعلمه في دروسه الخاصة، وإن كان جل هذه العلوم قد اندرس بفقد العارفين بها، إلا فيما قلَّ منها، ولم يبق بين يدينا إلا الإسم منها، على أن جل أنواع العلم لا يُعرَف اسمُه فضلا عن معرفة قضاياه إلا النَّادر من النَّاس، لبرودة القرائح وقصور الهمم وعدم الاعتناء بأهْل العلم.

فإنَّ العلم بل كل نوع من العلم لا يَظهر أمره إلا بالاعتناء بأهْله وإعطاء ممارسيه ما استحقوه بقدر مزيتهم في الترقي فيه بين أبناء جنسهم، واعتبار الحكومة لهم، فالقاضي بإحياء كل نوع من العلوم وإماتته في كل عصر هم الولاة من ذوي الحل والعقد، ولم تتفوق دولة من الدول على غيرها إلا بتخصيص ذوي العلم فيها بما لم يكن للجهَّال من الإعتناء بهم والاعتبار النَّاهض بهم من مقعد التأخّر إلى أمَام التقدم، فلا ترى مؤلفا منهم أو مخترعا أو مكتشفا لما لم يقف عليه غيره ونحو ذلك إلا وله حق خصوصي بالإمتياز على غيره، مع اختصاصه من دولته بإجازة مُنَشِّطَةٍ له ولغيره ليقفو أثره في ذلك، فعمرت أسواق العلوم والمعارف لديهم، وراجت بينهم بضائع المعلومات، وعلا كعب العلم وانتصرت دولته على الجهل.

وقد اهتم ذوو الخبرة من كل دولة بجبر الكسر الواقع بالجهل الذي أضرَّ بهم، فشيَّدوا المدارس، واقتبسوا من علوم الدول التي نبغ فيها العلماء والحكماء، حيث تحققوا بأنه لا ارتقاء إلا بالعلم، وأمدَّتهم مالية الحكومة بقدر إمكانها، وساعدتهم أغنياؤها بما سمحت به أنفسهم في سبيل إحياء الأمة، وتنافس الفقراء في التعلم والتعليم بأنفسهم، وإدخال أبنائهم لتلك المدارس مع أبناء الأغنياء، فازدهى عصرهم بهم، وظهرت مزيتهم على غيرهم، حتى كاد أن يستولي على الجهل البسيط الإنعدام في الأمم المتمدنة، فلا تجد عشرة في المائة لا علم عندهم، ولا واحد في المائة لا يعرف الكتابة والقراءة، معَ تخصيصه ببعض المعلومات بما لا يُعَدُّ بهِ من ذوي البطالة العالة على الناس، ونحن في مغربنا قعد بنا الجهل في مقعد دس الأقدام، لم نلتفت لما أوقعه الجهل بنا من المصائب التي نستحق بها الملام، ولم نزل في غفلتنا متقاعدين عن التعلم والتعليم، وليس بيننا واحد في المائة من عدد أبناء قطرنا الذي يناهز 8 ملايين ممن يطلق عليْه عَالِمٌ بين العالم المتمدن إلا انتحالا وتشبعا بما ليس فيه.

أوَ لَيْسَ من المتعين على كل واحد منا أن يقوم على ساق الجد في طلب العلم، فيجتهد الغني والفقير بقلب وقالب ويأخذ هذا بيد هذا، كل بما قدر عليْه[1]، ولا بأس بذكر قصيدتين كنت خاطبت بهما الفقراء والأغنياء، فكتبت إلى الفقراء:

إلى الفقراء أوجه نصحي   ومن قبل النصح فاز بنجح
عليكم بتعليم أبنائكم   فتعليمهم جالب كل منح
وزيدوا اعتناء بتحريضهم   على حفظ كل الدروس بكدح
ومن لم يكن عنده رأس مال   ومال إلى العلم فاز بربح
فأهل العلوم علوا في العموم   لأعلى المعالي وأرفع صرح
هم سادة الناس شرقا وغربا   وإن يستجرهم سواهم لسرح
هم المستحقون للمدح حقا   وغيرهم ما استحق لمدح
فإن المراتب تدعوهم   وذو الجهل فيها جدير التنحي

وكتبت إلى الأغنياء:

من الأغنيا أستنهض العزم والهممْ   ليقتطفوا العلم الذي شرف الأممْ
فهذا زمان العلم فيه تقدمت   ذووه وفيه الجهل مضطرب القدم
وعار على من فيه أهلية له   وعن نيل حظ منه لم يحظ بالقِسَم
فمدوا إليه ساعد الجد بالجدى   ليدرك بعض الفضل منه أخو الكرم
خذوا بالأيادي أيدي الفقراء في   سلوك طريق العلم تستكملوا النعم
فإن فاتكم أخذ العلوم وبثها   فما فاتكم إن تحملوهم على الذمم
فلا خير في مال إذا لم يكن بما   لكم عول أهل العلم في السهل والعلم
فكونوا لهم أعوان خير لنيله   بما خصكم مولاكم في الورى وعم
ولا تدعوا أبناءكم في جهالة   فتركهم في الجهل ظلم به ظلم
وإن أنتم علمتموهم ظفرتموا   بعزّ به ترقون في الحل والحرم
فقوموا على ساق اعتناء بما به   تنالون من أقصى المرام الذي أهم
وقولوا لهم جدوا بجد وجاهدوا   نفوسكم في نيله واحذروا السأم
ألا علموهم فالتعلم منهج   يؤدي إلى كشف الهموم مع الغمم

---

[1] ـ كان العلامة سيدي أحمد سكيرج رحمه الله شجاعا لا يخاف إلا الله ولا يخشى فيه لومة لائم، فإذا آمن بفكرة صدع بها غير متردد وَلا مكتَرث بمن خالفه أو وافقه، ومن هنا كان يحارب الطبقية والتقاليد البالية العفنة، يدعو الأغنياء لتكريس جهودهم لإغاثة الفقراء والمساكين، وليهبوا لأعمال الخير والبر، وتوفير المشاريع الخيرية المخصصة لفائدة المستضعفين والمحرومين وغيرهم.
كما كان يدعو الفقراء إلى التحلي بالصبر وطلب العلم، والمثابرة في تحصيله ومضاعفة المجهودات كي يجني المرء منه فيما بعد الفوائد الجمة.
وكان رحمه الله كثير المحاربة لليأس، يمقته ويجسم عواقبه الوخيمة، ويرى أن لا خطر على الفرد ولا على الأمة منه، فكان يدعو إلى الأمل والتفاؤل، والنظر إلى المستقبل نظرة باسمة، تنشر الأنس، وتبسط المشاعر، وتبعث على العمل والتعلق بالحياة، وكثيرا ما كان ينشد قول الشاعر:
أعلل النفس بالآمال أرقبها   ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل

ألا علموهم يزدهي عصركم بهم	وتبتهج الدنيا بهم في ذوي الهمم
ألا علموهم إن تريدوا سعادة	تدوم وهل للجاهلين سوى النَّدم
ألا علموهم تطمئن صدوركم	عليهم ومن تجهل بنوه فقد ظلم
ألا علموهم واعلموا أن جهلكم	وجهلهم يفضي إلى العدم والعدم
ألا فانظروا أهل العلوم ومالهم	تأتى من الخبرات من سائر الأمم
ألا وانظروا ما حل بالجاهلين من	رزايا وما لاقوه من ألَمٍ ألَمّ
فبالعلم تنوير الصدور فلم تقف	بكل صدور أو ورود مع الظلم
وبالعلم تدبير الأمور لأهلها	محكمة الأحكام في الحكم والحكم
وبالعلم تسخير البحور فسيرت	بها سفن لم تخش موجا لها اصطدم
وبالعلم طار الطائرون إلى العلى	من الإنس حتى زاحموا النسر و الرخم
وبالعلم تكثير الأجور حقيقة	بدنيا وَأَحْرَى أجر أخرى لدى الحكَم
عليكم به فاستمسكوا بحباله	وشدوا بها أبناءكم تشكروا النعم
فمن شكر النعماء دامت له ومن	بكفرانها يبلى تحل به النقم
ألا واقبلوا نصحي فإني بالاعتنا	من الأغنيا أستنهض العزم والهمم

وإذ تمهد هذا وتشوفت النفس إلى الخوض في موضوع المسامرة، فنصرف العنان إلى ذلك من غير تطويل ولا ترتيب في تعداد هذه الفنون، وإنما أذكر ذلك بحسب ما تأتى لي ذكره وإن كان بعضها مندرجا تحت البعض، فإني أعتبره علما مستقلا بذكر اسمه فنقول:

من الأمر الأكيد أن يعتني الشخص بحفظ علوم اللغة العربية وأهم الفنون المنوطة بها، ثمّ حفظ أصول الدين وبعض الفنون المنوطة به، ثم حفظ فقه الدين وبعض الفنون المنوطة به، ثم معرفة الفنون الصناعية بالعمل الفعلي لا بتحصيل الفن فقط، وما زاد على ذلك فهو زيادة في الفضل، فإن العلم من حيث هو علم أفْضل من الجهل، وهو فضيلة لا تنكر ولا تذم، فالعلم بكل شيء أولى من جهله، ولذلك يقال تعلم الأشياء خير من جهلها ولو كانت حرامًا، وقد قيل:

العلم زين كله لا نفاد له	نعم القرين إذا ما عاقلا صحبا

والتضلع في العلم والتبحر فيه لا يمكن للشخص إلا في بعض أنواع العلوم المرتبط بعضها ببعض، كما لا يمكن البراعة للشخص في كل الصنائع، لأنه من المقرر عند الأعلام أن الملكة إذا تقدمت في صناعة قل أن يجد صاحبها ملكة في صناعة أخرى إلا إذا لم تستحكم الملكة الأولى، ولذلك كان الأهم تقديم المهم في التعلم والتعليم من علم التوحيد ونحوه، حتى لا يزيغ الإعتقاد عن النهج القويم من الدين.

ثم إن أنواع العلوم مع كثرتها لا تخرج عن علوم أديان وعلوم أبدان وعلوم لسان وعلوم بنان وعلوم جنان وعلوم أذهان وعلوم أكوان، وإن كان بعض هذه العلوم أيضا لها نوع ارتباط فيما بينها، فقلما تجد علما لا تعلق له بعلم آخر، بما له من التناسب الذي يجد به المتفنن سبيلا واسعا في استطراد علوم متعددة عند تكلمه في أحد العلوم، لكن لا يمكنه أن يكون له التضلع

التَّام فيها كلها وفق ما أشرنا إليه، وإنما تكون له الملكة في بعضها، وأعظمها ملكةً فيه ما خاض فيه أولا وانطبع في مرآة تفكراته الخيالية، فيصعب عليه أن يرتسم في مخيلته فنون متعددة في ميزان الإستواء بالمهارة التامَّة في جميعها[1].

وإن كان ولا بدّ في بعض الأفراد التضلع من أنواع العلم في ظاهر الأمر فهو يقضي على نفسه في الباطن برجحان كفة العلم الذي مارسه أولا وتمكن منه، فلا يمكنه الإنتقال عنه إلا بوازع قهري يستولي عليه بداعية طارئة تحمله على استحكام طبع آخر في قابليته، ولذلك يعسر الإنتقال من مذهب إلى مذهب بعد التمكن في الأول، كما يصعب الإنتقال عن المألوفات من غير تدريج من طبع من تمكنت فيه.

فاتضح من هذا كله أن المتفنن في جملة من الفنون لا يبلغ فيه مبلغ المتضلع في الفن الواحد منها إلا في النادر، الذي يعدّ من قبيل خرق العادة فيه بالمشاركة التي تيسرت له بما فاض عليه من حضرة الوهب، ولنصرف العنان لذكر بعض علوم اللسان وهي كثيرة.

منها **علم اللغة**:
وهذا العلم حيث كان مجرد ألفاظ ذات معان في لسان التخاطب عند أهل كل لغة عدّ علمها عندهم غير علم، وإنما هي تلقين انطبع في طبع الحيوان الناطق الذي هو الإنسان، وذلك من عناية الحق به، فإنه من الألطاف الإلاهية حدوث الأوضاع اللغوية ليعبر بها عما في الضمير بين أفراد كل مجتمع من النوع الإنساني، فتنوعت اللغات بتنوع المجتمعات، شأن الجمع الخصوصي الذي لم يخالط غيره.

فاختلفت اللغات باختلاف الأجناس والدوَل، وبالدخيل في كل لغة حصل فيها ما حصل من ترق وغيره، فدخلت بذلك اللغات في النطق في طور آخر، ولم تبق على ما كانت عليْه إلا ما كان من حفظ أصلها في بطون الدفاتر، فعدّ الإطلاع عليها حينئذ علما مستقلا، والعارف به عالم لغوي، فإن عرف لغة أخرى زائدة على لغته عدّ صاحب لسانين، كأنَّما ذاته اشتملت على إنسانين، فتحصل له المزية على غيره من هذه الحيثية، ولقد أجاد من قال:

---

[1]- اهتم العلامة سيدي أحمد سكيرج رحمه الله بالتربية والتعليم اهتماما كبيرًا، استبدَّ بمشاعره وأحاسيسه، وصار شغله الشاغل في مجالات حياته، وكان كثير الإستشهاد بقوله تعالى: قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون. وبقوله تعالى: يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين آتوا العلم درجات. وبقوله تعالى: وقل ربي زدني علما.
وخلاصة القول فقد كان في جميع أطواره يتحدث عن التعليم، ويرى أنه من أهم أسباب النهضة إذا قام به الأكفاء علما وخبرة وتجربة. وينتقد طريقة التعليم التي تقوم على حشو الأدمغة بالقواعد والحواشي والنصوص والشروح الطويلة، وتحميل التلامذة ما لا تطيق عقولهم، ويرى أن مراعاة مستوى الطلبة وعيًا وإدراكًا أمر ضروري أكيد.
وعموما فهو يحض على طلب العلم، ويرى أن نشره واجب حتى على رجال الطب والهندسة، كل على حسب طاقته ووقته، ولا يقبل أي عذر في ذلك، لأن الأمة في حاجة إلى أهل العلم والمعرفة في مختلف التخصصات، من صناعة وتجارة وعمران وقضاء وإفتاء.

بقدر لغـــات المرء يعظم نفعـه	وتلك له عند الشدائـد أعوان
فبادر إلى حفظ اللغات مسارعا	فكل لسان في الحقيقة إنسان

ولكن ينبغي للأديب أن يتقن أولا لغته، خصوصا المسلم، فيحق عليه إتقان لغة العرب، فبها يتوصل لمعرفة كلام الله وحديث رسوله، فالتضلع منها فضيلة كبيرة في حقه يستحق عليها الشكر[1].

فما بال الناس لا يتسارعون لسماع ما يتلى عليهم مما يعد تذكرة للعارفين، وتبصرة للمتعلمين، كأنَّ القوم في غنى عَن العلم، مع أن الرجل لا يزال عالما ما طلب العلم، فإذا ظن أنه علم فقد جهل، وَهب أنهم علموا ما يكفيهم من العلم فإن العالم مأمور بالاستزادة من العلم كما أُمِرَ بذلك سيد العالمين بقوله تعالى: وقل رب زدني علما[2]، فإنَّ العلم ميدانه فسيح وقد قيل:

قل للذي يدعي في العلم معرفة	علمت شيئا وغابت عنك أشياء

ولقد أفضى الولوع بالحضور في نادي المسامرات في بعض الأقطار أن يؤدوا قدرا من الدراهم في رخصة الدخول لسماع المسامرة ممن يلقيها، فيدفعوا ذلك القدر بطيب نفس، مع زيادة حرصهم على إقامة مسامرة أخرى لينتهزوا فرصة الحضور فيها بما أمكنهم، ونحن لا يحضر لنادينا من أبناء الوطن إلا بعض من أشرنا لهم بلا شيء، فضلا عن أداء شيء، فهل يا ترى هناك طريقة يتوصل منها إلى زرع حب العلم في القلوب فتتحرك النفوس لتلقي نفيس الدرر في مجالس العلوم، ويحصل الشعور للحضور لنادي المعارف بين الخصوص والعموم.

نرى هناك طريقة كان عليها عمل الأمراء بهذه الإيالة السَّعيدة من قبل، وهي التشديد على الجهلة في الوظائف بعدم تصدرهم فيها، والتضييق عليهم في أداء الواجبات الدولية المالية، وتشييد المنار لأولي العلم بمنحهم بالوظائف طبق الاستحقاق بقدر معلوماتهم، وتخفيف وطأة أداء الضرائب التي يبتلى بها الجاهل لجهله ويكرم بها العالم لعلمه.

---

[1]- كان العلامة سيدي أحمد سكيرج رحمه الله يدعو إلى تعلم اللغات الأجنبية، ويقول: إن المرء يتعدد بتعدد اللغات التي يتقنها، ولكن يجب أن يكون للغة العربية مكانًا خاصًا بين تلك اللغات، وذلك بخصائصها ومميزاتها التي تُبَوِّئُها مكان الصدارة والذروة.
ويرى العلامة سكيرج أن اللغة العربية هي أبرز اللغات وأسماها فضلا وقدرا، وهي لغة القرآن الكريم، ثم يلقي اللوم على بعض المتفرنسين من شبيبة عصره، ممن طرحوا لغة الضاد من حسابهم، وتشبثوا باللغة الفرنسية، يعتزون بها ويفخرون، ويسعون وراءها لاهثين، ضاربين عرض الحائط بما لهم من تعاليم دينية، وقيم أخلاقية واجتماعية، وغيرة صادقة وحمية وطنية.

[2]- سورة طه، الآية 114.

وقد كان من عادة الأمراء أن لا يكلفوا بالأشغال الشاقة إلا الجهلة، ويحرر أهل العلم من التكليفات المخزنية من نحو الاندراج في سلك الجيش العسكري والحركة المولوية وغير ذلك، مما قضى على ذوي النفوس أن يتعلموا بقدر الإمكان في كل مكان، وكل من له ولد عزيز عليه يخاف عليه من التكليف المخزني يبادر به إلى محل التعليم حتى تداخل في ذلك ذوو الأغراض، وانجلت العزائم ببطانة الجهل التي اتصلت بالأمراء، فاختلط الحابل بالنابل، وعمَّ الجهل حين لم يبق تمييز لذوي العلم، فبردت الهمم، وتراكمت الظلم.

ولا نقصد بالعلم مجرد علم العبادات والمعاملات، بل العلم من حيث هو علم يمتاز صاحبه عن صاحب الجهل لأنه لا عمل يعتد به في سائر الأمور بالجهل وإنما المدار على العلم.

والعلم بجوهر لفظه مشتمل على العمل، لأن مادته عين ولام وميم، وهي نفس مادة العمل، فالمتعلم للعلم دائما في عمل نسبي حتى يرتقي به إلى إخراج قوته للفعل، وإلا لم يكن منتفعا بمعلوماته، وإن عمل بضد ما علم كان بمنزلة الجاهل أو أسوأ حالا منه، ومجرد العلم وحده من دون عمل به غير نافع قطعا، ولقد أحسن من قال:

لو كنت منتفعــا بعلـــــــــمك مع مواصلة الكبائر
ما ضر أكل السم ذا علم بأن الســـم ضائـر

وأحرص الناس على العمل بالعلم دول أوربّا، فقد تقدموا في حلبات السبق بالعمل بالعلم الذي حصلوه، حتَّى أحرزوا القصبات البعيدة اللحوق بها، ولا زالوا يتنافسون في إدراك المعلومات والاستزادة من العلم بما وقفنا أمامهم فيه موقف من لا علم عنده، مع جمود القرائح منا عن طلب المعارف وتعلم ما تعلموه سرا وعلنا، وحظنا من ذلك الإعجاب من مخترعاتهم التي اخترعوها واستنباطاتهم التي استنبطوها بما أدركوه من نفائس العلوم، ونحن عن ذلك متقاعدون[1].

---

[1]- إشارة لما كان يعرفه ذلك العصر من إعجاب مطرد بالمخترعات الحديثة التي كانت تتقاطر على مجتمعنا دون انقطاع، ولم يكن في مقدور أهل هذا المجتمع سوى التنويه بهذه المخترعات، والوقوف إكبارًا لها، ولما تقدمه من مساعٍ جليلة في خدمة الإنسان.

ولعل من أبرز هذه المخترعات وقتئذ وسائل الإتصال، من هاتف ومذياع، وما إليه من أنواع المواصلات، كالقطارات والسيارات والدراجات، وغيرها من شؤون الثورة الصناعية الكبيرة التي أضحت تعيشها الدول الغربية حينذاك.

ثم يشير العلامة سكيرج رحمه الله بعد ذلك إلى ركود العقل العربي المعاصر، وقُصُورِهِ عن مواكبة التطورات العلمية الهائلة، والمخترعات والإكتشافات التقنية الحديثة، ويعزي ذلك إلى انسياق العرب وراء الأهواء، وإهمالهم لمجال البحث العلمي، وعدم إعطائه أدنى اهتمام، أضف إلى ذلك انعدام الوعي وعدم الثقة في القدرات الموجودة، وإهمالنا للغتنا العربية، والتجاءنا نحو لغات أخرى قصد إعداد البحوث والمقالات وغيرها.

لا نقصد بهذا مدح الأجانب وذم المسلمين، ولكن دعانا لذلك تحريك همم أولي النجدة ليكونوا مهتمين بالحرص على اقتناء المعارف، وتعلم العلوم، بين الخصوص والعموم، فينظروا بعيون البصيرة إلى تأخر معلوماتنا، مع إظهار التبجح الصادر منا في مقام التنويه بالعصر الجديد، وإن كان لنا معلومات فهي من طور آخر، وأهل شبيبتنا العصرية لم تصل إلى الآن لما نريد.

إننا لا نقنع ممن تعاطى التعلم في المدارس الحادثة في هذه الإيالة السعيدة باعتناء الدولة الفخيمة بمديد مساعدة مولانا السلطان أبي يعقوب دامت سعادته، وهم من أبناء هذا الوطن الآن آباء مستقبل الزمان بما حصلوا عليه من اللغة الفرنسوية، ومعرفة بعض العلوم العصرية، والوقوف مع ذلك في موقف الإكتفاء به، والتظاهر منهم في مظهر النّبغاء السياسيين، وهم في الطّور الأول من دور دائرة التعلم، فإن ذلك منهم بطر وخفة تفضي بهم لما لا تحمد عقباه دنيا ودينا، سيما وقد ظهر من بعضهم من التنطع في الدين والتسارع إلى الاعتراض والإنتقاد الذي يستحسنونه بالتنكيت على من تقدم في حلبات المعارف، مما يعد منهم كفرا للنعمة، ومجلبة للنقمة، التي تعم الصالح والطالح، فهم أشد ضررا على أهل وقتهم من الجاهل الذي يفعل بنفسه ما لا يفعله العدو بعدوه[1].

فاللائق بهؤلاء المتعلمين الذين عرفوا من اللغة الفرنسوية بعض الجمل التي عرفوها في لسان التخاطب وحصلوا بها من معلميهم بعض الفنون العصرية أن لا يتسارعوا إلى ما ليس من شأنهم التداخل فيه، مما يوحي به إليهم ضمائرهم، أو يلقيه إليهم بعض المتهورين الذين يعدون أنفسهم من ذوي الخبرة بالأمور، ويحسبون أنهم يحسنون صنعا بما يشوشون به الأفكار من جهة الإعتقاد، ويزرعون في صدورهم التسارع للإنتقاد، بما يؤدي بهم إلى الفساد، وحصول المضرة لهم بين العباد، ويصدهم عن استغلال ثمرة تعلمهم بما يهب على غرسهم من ريح الطرد عن سبل الإنتفاع العاجل والآجل في البلاد.

---

[1]- لا يخفى على أحد أن الحكومة الفرنسية كانت إبان استعمارها للمغرب قد أنفقت الملايين للتأثير علينا وعلى هويتنا وثقافتنا وحضارتنا وديننا الحنيف.
ومهما يكن من أمر فإن كثيرًا من المغاربة وقتئذ تعلموا اللغة الفرنسية طلبا للعلم، وباسم التقدم والتطور، وللدفاع عن حقوقهم وحضارتهم، ولاعتقادهم بعالمية هذه اللغة، وأنها من أشهر اللغات المسيطرة على كافة الميادين العلمية والإقتصادية والفكرية والسياسية وغيرها.
بيد أن فئة من هؤلاء الشباب المذكور بلغ بهم حال التفرنس إلى حد بعيدٍ من الإنحراف، فنبذوا لغتهم الأصلية، وتشبعوا بالعادات والأعراف الغربية، أكلا ولباسا وعملا ومعاملة، فلبسوا بذلك هوية غير هويتهم، وانصهروا في ثقافة بعيدة كل البعد عن ثقافتهم، فكانوا من ضعاف الأنفس المنبهرين بالطابع والمدِّ الغربي المتعجرف.
وقد وقفت على رسالة للعلامة سكيرج رحمه الله يصف فيها هؤلاء المتفرنسين بأنهم أبناء فرنسا غير الشرعيين في المغرب، ولا يعني هذا أنه كان يرفض تعليم هذه اللغة، بل كان يحض على تعلم مختلف اللغات واللهجات شريطة أن لا تكون على حساب اللغة الأم، حيث تصبح لغة للتخاطب في المنزل والمقهى والشارع والإدارة والأسواق والمستشفيات وغيرها.

ولا يخفى عنكم أيها السادة أن فائدة التعلم والتعليم لا تحصل غاياتها بمجرد تحصيل المبادئ التي لم يحصل عليها المتعلمون الآن مع قلة عددهم في المدارس، وإنما حصلوا على بعضها بالتخاطب باللسان الفرنسوي الذي تعلموه مع بعض الفنون التي إلى الآن لم تظهر عليهم نتائجها، فلا جرم إذا ساء ظن العامة والخاصة من سوء التربية التي لم تقصدها إدارة المعارف، التي ترجو ترقي الأمة ونهضتها من حضيض درك الجهل السائد، السائر مسير الرياح في النواحي المغربية، ويخشى العقلاء منّا أن يغلب في وجوه المتعلمين ظهر المحن، فتصاب يد التعليم بسهام النقض، فتنحلّ رابطة الترقي في المعلومات، ويقتصر فيه على بعض الضروريات، التي لا يرجى معها تَرَقٍّ للأمة المغربية، ويقف بها الجهل بمعالي المعارف في موقف الجاحد للنعمة الذي يستوجب سلبها منه أحب أم كره.

فهل يليق بالمتعلمين أن يتسارعوا وهم في طور التعليم بالتظاهر في مظاهر الواصلين لغاية العلم، وجلهم كما ترون لا يعرف غير الفخفخة بالتبجح باللغة الفرنسوية، منقطعا عن الدروس الغالية، بما هو مشتغل به من الخوض فيما لا يعني ولا يغني من جوع ما يتصدر له من الخدمات، التي يقوم بها أقل الناس خطة ممن ينطق بذلك اللسان. وهذا لا يعود بالمنفعة التي تعم قطرهم ويهتم بها من يرجوا في الحال والمستقبل خيرهم، ولعمري لو تعلَّم أبناء وقتنا جملة من الصَّنائع في هذه المدارس الكثيرة المنافع لكان أولى وأفضل لجلهم من تلقي الدروس الفلسفية والسياسية وغير ذلك مما هو أكبر من عقولهم التي استخفوا بها من تقدمهم، وخالفوا بها عوائد أسلافهم، استحسانا لما تظاهروا به من التسارع بتقليد بعض الأجانب في أمور ضررها أعظم من نفعها دنيا ودينا.

وإنه ليعزّ عليّ أن أنكت على شبيبتنا العصرية في ما عليْه البعض منهم من مخالفة زي أبناء وطنهم هيئةً وتحسينًا، وإنه ليضيق صدري وصدر كل متمسك بالدين، ولا ينطلق لساني خشية جرح عواطف من لا يقبل النصيحة منهم، وهم بالتعصب منهم لما تظاهروا أولى برمينا بالتَّعصب في التنكيت عليهم فيما استحسنوه من ذلك، وجعلوا عذرهم في بعض تلك الهيئات حب الإقتصاد، وذلك منهم مخالفة للعادة التي ألفها أهل قطرهم الذي قيل فيه خالف تعرف، وأجاد في ذلك من قال:

وَ للناس عــادات وقد ألفــوا بهــا	لها سنن يرعونها وفروض
فمن لم يعاشرهم على العرف بينهم	فهو ثقيل عندهــم وبغيض

وفي مثل عادة الزي والهيئة قيل في أمثال العامة "كل بشهوتك والبس بشهوة الناس"، وشهوة الناس في هذا القطر في الملبس عدم المخالفة في اللباس المعتاد.

وما ضرهم لو تعلموا العلوم العصرية وبقوا على هيئتهم الأصلية التي نشأ عليها آباؤهم، ويا تَرى هل هناك أحد منهم حصل نتيجة معرفته لما تعلمه، وكثير منهم يدعي أنه حصل على جملة من المعارف.

فأين منهم من يعرف الفلاحة ويباشرها بنفسه في هذه الإيالة لينتفع بمحصولات البلاد التي نرى الغير يستخرج منها كنوز الإستغلال.

وأين منهم من يعرف عملية بعض الصنائع ولو كانت طفيفة المدخول مثل استخراج الزجاج أو الكاغد أو الحرير، أو استخراج المعادن وغير ذلك، فغاية علم من قرأ هذا نحو أن يقول يُسْتَعْمَلُ الوقيد من كذا وَيُعْمَلُ الزجاج من كذا وغير ذلك عملية تصحبه بهم في الحقيقة مثل فن الكيمياء القديمة، فهو محصل للعلم بزعمه، وهو من أبسط الجهلاء عند العمل، ولا يخفى أن مجرد التعلم لهذه الفنون من غير عمل لا ينفع، وليس التحصيل على الوظائف بالتخريج من المدارس هو الغاية التي يقصدها ذوو النفوس الحية، فإني بكل حرية أقول: المستخدمون في الوظائف على اختلاف طبقاتهم قوم قعدت بهم الصنائع فلم يحصلوا على منفعتها فسلكوا مسلك العجزة فتعلقوا بحبل الوظائف ولو كانت لديهم صناعة ينتفعون بها مَا جنحوا لغيرها.

فإذا اتضح بأن الشبيبة التي نرجو نفعها لا زالت في انحطاط في المعارف، فكيف يحمل ببعضهم الخوض فيما لا تحمد عقباه، ولا يليق بهم مخالفة آباءهم في عوائدهم في الزي، والتنكيث عليهم في مذاهبهم بمجرد الرأي، وهم إلى الآن لم تظهر لهم نتائج تعود عليهم أو على قطرهم بالخير العميم.

ولقد رأينا جماعة من الجزائريين والتونسيين ممن تخرجوا من المدارس المفتُوح أبوابها عندهم لازالوا ولن يزالوا في زيهم الوطني مبتهجين، فهم نعم الأسوة لأبناء وطننا العزيز، ولنذكر هنا بينة يقضي شاهد العيان بأنهم أهل الاقتداء.

فمنهم:

1. جناب رئيس التشريفات المولوية الفاضل المحترم، حبيب الأمة، السيد الحاج عبد القادر بن غبريط التلمساني[1]
2. وأستاذ أنجال الحضرة الشريفة الفقيه الأجل السيد محمد المعمري الجزائري[2]
3. والترجمان المبجل السيد محمد عبروس الجزائري
4. والترجمان بقسم المحكمة العليا السيد عبد القادر بن شهيدة

[1]- سبق التعريف به ضمن الجزء الأول من هذا الكتاب

[2]- سبق التعريف به ضمن الجزء الأول من هذا الكتاب

5. والترجمان بالقسم العدلي الفقيه السيد أحمد التجاني[1]
6. والترجمان الخاص بسيادة الصدر الأعظم السيد كدودو التونسي وأخوه
7. ومراقب الأحباس بمراكش الأستاذ السيد بومدين بن زيان التلمساني
8. ومراقب الأحباس بالجديدة الشريف السيد عمر الخطيب الجزائري[2]
9. ومحرر السعادة الغراء، نابه الذكر الجميل، السيد علي الطرابلسي

فهؤلاء الأفاضل تخرجوا من تلك المدارس، وكل واحد منهم اختص بمعارف سامية المدرك، ولم ينالوا المراتب التي افتخرت بهم بمخالفتهم العوائد، فلا ترى منهم حفظهم الله من يحدد الشارب ويحلق شعر لحيته، ولا من يلبس لباس الأجانب حتى في العمامة والبلغة ونحو ذلك، مما يدل على رجاحة عقلهم وتنوير بصيرتهم، لينظر إليهم القوم بعين الرضى، ولا يستخف عقلهم ودينهم أحد، فلتنظر إليهم الشبيبة العصرية ولتقتدي بهم.

[1]- أحمد التجاني الماضوي، فقيه كاتب مدرس مترجم، من أعلام بلاد الجزائر، أبصر نور الحياة بقرية عين ماضي سنة 1291 هـ-1874م، وبها نشأ وتربى وتعلم، قبل أن ينتقل للعاصمة (الجزائر) حيث اندرج بها ضمن تلامذة المدرسة الثعالبية. وقد أنهى هناك دراسته الثانوية، وكان له حينها نشاط مكثف ضمن صفوف الحركة الوطنية بالجزائر، مما لفت إليه أنظار سلطات الإحتلال الغاشم، فأقدم على إبعاده إلى مسقط رأسه (عين ماضي) حيث ضربت عليه بها الإقامة الجبرية مدة طويلة.
أما مقدمه للمغرب فيعود سببه للوزير المغربي محمد الجباص، الذي زار الجزائر عام 1333هـ-1915م بهدف البحث عن مترجمين أكفاء يجيدون الحديث باللغتين العربية والفرنسية، وذلك قصد العمل بسلك الإدارة المغربية إذ ذاك، فاقترح عليه الفرنسيون مجموعة من صفوة المترجمين، من ضمنهم صاحبنا (أحمد التجاني) الذي لم تقترحه سلطات الإحتلال بناء على كفاءته أو مقدرته، بل بهدف نفيه عن الجزائر تمامًا.
وبحلوله بالمغرب عمل مترجمنا ضمن موظفي إدارة الشؤون الشريفة برباط الفتح، فتعرف هناك بالسلطان المولى يوسف، الذي لمس فيه ما لمسه من علم واطلاع، وفصاحة لسان، وكفاءة عالية في مجال الترجمة، فهمس له مرة في إحدى اجتماعاته به قائلا: أنت منًّا وإلينا يا فقيه، كما عينه مؤدبا للأمراء أبناءه (المولى إدريس، والمولى الحسن، وجلالة الملك محمد الخامس).
ولدى وفاة السلطان المولى يوسف عام 1927م، أقدمت السلطات الإستعمارية على إبعاد مترجمنا عن عمله بالقصر الملكي العامر، لا سيما بعد علمها بعضويته ضمن جمعية العلماء المسلمين بالجزائر، مع اتصالاته الوثيقة ببعض أفذاذ الحركة الوطنية بالبلد المذكور، فنفوه أولا لمدينة مراكش، ثم لآسفي فالدار البيضاء، ولم يعد لعمله بإدارة الشؤون الشريفة إلا قبيل إحالته على التقاعد ببضعة أشهر.
ولدى نشوب الأزمة بين السلطان محمد الخامس والإقامة العامة الفرنسية عام 1953م كان صاحبنا حينذاك خير مساعد ومعين لجلالة الملك المذكور، الذي كان يحترمه ويكبر فيه روحه الوطنية المخلصة، وهي المبادئ التي ظل وفيا لها إلى حين استقلال المغرب عام 1375هـ-1955م، فعينه الملك المذكور على رأس وفد الحجيج في السنة نفسها، كما استصحبه معه خلال زيارات عديدة له لدول صديقة، كمدغشقر والعراق والأردن ولبنان والسعودية وما إلى ذلك من دول أخرى.
توفي ليلة المولد النبوي الشريف 11 ربيع الأول عام 1401 هـ- 18 يناير 1981م.
[2]- هو والد الدكتور عبد الكريم الخطيب، أحد أبرز الوطنيين وقادات جيش التحرير بالمغرب.

ولنكف عنان القلم عن الخوض في هذا المضمار، الذي يثير غبار الحقد على المتكلم بمثل ما تكلمت به، ولنرجع إلى ما ينفع في سبيل التعلم والتعليم، فإن هاهنا طريقة سهلة المرور، للحصول على جملة من الفنون في مدة قريبة لطالبها.

ولا شك أن الطالب تتشوف نفسه إلى قراءتها، ويهتم كل الاهتمام بما يوصله لتحصيل العلم الذي يخوض فيه بتلقي الدروس في المتون المؤلفة في الفن المطلوب لديه، ويمنعه من متمناه ما يصادفه من العقبات أمام طلبه من صُعوبة المدرك، مما وضع على تلك المتون من كثرة الشروح والحواشي التي صيرت المختصرات في حيز المطولات بلا طائل تحت حل ألفاظ المتن وإيراد الإيرادات والأجوبة المنوطة بذلك من جهة المعنى ومن جهة المبنى، مع كثرة الاستطرادات التي تستغرق زمنا طويلا في قراءة المتن الواحد في الفن الذي يخوض فيه كما عليْه التعليم القديم، ولا زال الأمر عليْه عندنا زيادة على ما ولع به الطلبة من الاشتغال بفنون متعددة من قبل تحصيل قواعد فَنٍّ منها، فتطول المسافة عليه ولا يصل إلى غاية مقصوده.

ولقد قرر العلامة ابن خلدون في مقدمته وغيره من ذوي المعرفة بطرق التعليم أن من آفة العلم الخوض في جملة كثيرة من أنواعه قبل تحصيل الأهم فَالأهم منها، سيما لمن يريد التبحر في الفنون ويكون عالما للناس أو عالما لنفسه، وقد قال ابن قتيبة: من أراد أن يكون عالما لنفسه فالقليل من العلم يكفيه، ومن أراد أن يكون عالما للناس، فحوائج الناس كثيرة.

وقد سلك الناس قديما وحديثا في التعليم طرقا متعددة، واهتدى الأجانب إلى أسهل الطرق وأنفعها بملازمة الفن الواحد في حق النابغ فيه حتَّى يدرك فيه المدرك الذي يقف به على غوامض أسْراره، ويقدر على الاستنباط من حقائقه ما يعدّ من عجائب العلوم التي تحير الفنون اختراعا واكتشافا، مما تركنا واقفين أمام كل اختراع من ذلك في موقف الإعجاب[1].

والذي ظهر لي في طريق تحسين التعليم والتعلم لمن يريد الاستطلاع على عدة فنون في الأمد القريب أن يقرأ المتون مجردة عن الشروح والتعليقات والحواشي المختصرة والمطولة، وإنما يهتم بتحصيل معنى المتن، فإنه يسهل عليْه التضلع من ينبوع الفنون التي يخوض فيها، ولو كانت من أصعب المختصرات ممن يقتصر من المعلمين على تبيين المعنى من جوهر المبنى، وبهذا يتسنّى للطالب المشتغل بقراءة مختصر الشيخ خليل في الفقه مثلا أن يحيط علما بمضمنه منطوقا ومفهوما في مدة قريبة، ولا شك أنه إذا حصل على مضمن المتن فإنه تحصل له ملكة تحصيل ما اشتملت عليه الشروح والحواشي وغيرها، فالإقتصار على حل ألفاظ المتون في التعليم مفيد جدا في تحصيل العلوم وتنوير الفهوم.

---

[1]- يدعو العلامة سيدي أحمد سكيرج رحمه الله في هذه الفقرة إلى اتباع نظام التخصص وانتهاجه ضمن الحلول القاضية بإصلاح مسار التعليم في المغرب، ولم يكن مجال التخصص معروفًا وقتئذ بشكله الحالي، ويرى العلامة المذكور أن التخصص الواحد كان من أهم العوامل التي ساعدت على نشوء الطفرة الصناعية والثقافية بالدول الغربية، كما يرى أنه أحد أكبر العوامل الكفيلة بالنهوض بمستوانا التعليمي، اعتبارا لكونه يعطي الفرصة للطالب في تنويع تركيزه وتحصيله ضمن فروع تخصصه، وهو ما يتيح له المزيد من المهارات، ويمنحه قوة الملاحظة، والقدرة على الربط والتحليل، والرفع من مستوى بلاغته، سواء كانت شفاهية أو كتابية.

وكذلك التعليم بالمثال والتشخيص وعمل اليد أقرب للتحصيل من التبيين، فليس التعريف بالحدود والرسوم كالوقوف على الأشخاص المعرف بها، مثال ذلك في الشاهد تعريف الربع المجيب وتعريف القطب والقوس والجيب وغير ذلك، فإنه يصعب على المبتدئ معرفتها بدون حضور الآلة نفسها، ويسهل عليه كل السهولة معرفتها بالتوقيف عليها، وهكذا تعريب الاسطرلاب وشبكته ونحو ذلك مما هو من مبادي الفن الضرورية، فلا يحتاج بالوقوف عليها إلى معاناة استحضار هيئتها، وكذلك جميع الفنون اليدوية، فهي بالعمل أسهل تحصيلا وأحوَط غلطا من تحصيل قواعد العلم، مثال ذلك علم التشريح فتعليمه بالعملية المشخصة أولى من تعلم العلم الفني مجردا عن العمل وهكذا، وبهذه المثابة كانت المدارس التي تعلم التلامذة بالتشخيص أعظم نفعا من المدارس التي تعلم القواعد فقط من غير تشخيص[1].

وبكل أسف على من لم يكن يعرف النطق بلغة التعليم المدرسي كيف ضاع وقته من غير تحصيله النّافع له بالفنون المتداولة فيها من نحو الكيميا الجديدة والطب والتشريح وغير ذلك من الفنون الجميلة والصنائع الجليلة، كفن الفلاحة وفن التجارة وغيرها، مع أنها علوم اصطلاحية يتوصل إلى إدراكها في هذه المدارس بالخوض فيها بالتعلم للعموم بتعليم من يحسن اللغة العربية لكونها مدونة في تأليف المطلعين عليها ممن عرفوها من اللغات الأجنبية.

وما أحوجنا معشر المغاربة إلى معلمين ناطقين باللغة العربية، عارفين بهذه الفنون، سيما الفنون الصناعية التي هي أنفع لأبناء وطننا من غيرها، فيقومون بيننا بإلقاء الدروس فيها وتعليمها للعموم الذين لا إلمام لهم باللغة الفرنسوية، فإن كثيرا منا يتلهف على من يعلمه هذه الفنون بلغته، حيث فاته إبّان حفظ غير لغته التي نشأ عليها[2].

---

[1]- يدعو العلامة سيدي أحمد سكيرج رحمه الله إلى إدخال مجال التشخيص في الدراسة على جميع أصعدتها، نظرًا لكونه الأداة الفعالة في تلقين الدروس وتبسيط المقررات وتوضيح المفاهيم، مع ما لديه من وسائل متعددة، كفيلة بتجاوز شتى الصعوبات التي قد تواجه الطالب في مساره، ولا يتأتى ذلك بطبيعة الحال إلا بواسطة البرامج التدريبية والتطبيقية المباشرة.

[2]- كان العلامة سيدي أحمد سكيرج رحمه الله ينادي بضرورة التعريب، وإحلال لغة الضاد مكان اللغة الفرنسية التي امتدت وقتئذ إلى عمق الإدارة المغربية، وهيمنت على وسائل التعليم والمقررات والمناهج التعليمية، لا سيما بعد ظهور نخبة من الشباب المغاربة المشبعين بالثقافة الغربية، ممن كانوا ينظرون إلى اللغة الفرنسية كأداة رئيسية للإنفتاح على دول القارة الأوروبية والتخاطب معها.
والمعروف أن لهذه المسألة بعدًا آخر يتمثل في الاستعمار الفرنسي الغاشم لبلاد المغرب ما بين عامي 1912م-1956م، حيث لم يكتفي هذا الاستعمار باحتلال الأرض ونهب خيراتها والقضاء على سيادتها الوطنية، بل امتد إلى ما هو أبعد من ذلك، ليخلق بلبلة داخل الجوانب الثقافية والاجتماعية لهذا الوطن، وذلك لإحداث انشطار على كافة مستويات بنية هذا المجتمع، غير آبهٍ بشيءٍ من تقاليده وأعرافه وطقوسه، مما تولد عنه تقطيع للبنية التحتية ضمن محاولة لإلحاق هذا المجتمع داخل نظام فرنسي كبير، فأصبح الشارع المغربي وقتئذ مقسم ما بين تعليم عصري وآخر تقليدي، وقضاء أجنبي وآخر شرعي، واقتصاد حديث وآخر قديم.

ولو اهتدت أعضاء المجالس البلدية في هذه الإيالة لاقترحوا توظيف معلمين بهذا الوصف على إدارة المعارف ومديرها الفاضل، ولو بإلقاء دروس ليلية باللغة العربية في هذه الفنون، ونحن نعرض هذه الفكرة على سيادة مندوب المعارف والعلوم، الحاضر معنا، ليكون خير واسطة في استعطاف الحضرة الشريفة أدام الله سعادتها للمساعدة على هذا الاقتراح في تعليم من لا يحسن اللغة الفرنسوية، وفي ذلك وسيلة للنجاح وامتداد رواق الإصلاح[1].

أيّها السَّادة:

إن المقصود من المسامرات هو استنهاض الهمم وإبداء المسامر لفكره بما يعرضه على الحاضرين في ناديه من معلوماته الجيدة والزائفة، فهو يقف في موقف الرضى في عين قوم، وفي عين السخط عند آخرين، فيجد بينهم مستحسنا بالحقيقة أو مداهنًا يتراءى له بالاستحسان لمقاله، وَ في ظهر الغيب يقرضه بمقراض الغيبة بين قرنائه، فلا يجني المسامر بينهم من ثمار مسامرته إلا نكدا، فيرى من الحضور في إلقاء أفكاره مَا يلزمه التأخّر في هذا المضمار الذي قصد به التنافس في إحراز الفضيلة بما يقع التنبيه عليْه مما ينبغي التسارع إلى اقتنائه وما ينبغي التباعد عنه والإحتراز منه من كل مَا يشين في الدنيا وفي الدين.

وليس المقصود من المسامرة تحسين القبيح أو تقبيح الحسن، أو مدح زيد أو ذم خالد، فإن ذلك من قبيل المداهنة المذمومة، حيث إن ذلك من الغش المفْضوح صاحبه، سيما إذا كان الحاضرون مثلكم ممن يعرفون الوقت وما يستوجب به الشخص الرضى ومَا به يستوجب المقت، فلا بدع إذا نظر إلى المسامر بعيون مكحولة بإثمد الرضى أو توتية السخط.

وللبغض عَين لا تزال عبوسة　　　وعين الرضى مكحولة بالتبسُّم

وقيل:

وعين الرضى عن كل عيب كليلة　　　ولكن عين السخط تبدي المساويا

وليس ذلك من الإنصاف الذي ينشط الحاضر والباد، سيما المسامر في ذلك الناد، وإنما اللائق أن يتلقى من المسامر مقاله، الذي أبدى به أفكاره، وبعد ذلك يتعرض مسامر آخر لإبداء أفكاره أيضا في تأييد ما قاله الأوّل، أو ينتقد عليه بلهجة لا تمس بالعاطفة القلبية في القبول والرد، وكل كلام فيه المردود والمقبول إلا كلام الرسول عليه السلام.

---

[1]- كان العلامة سيدي أحمد سكيرج رحمه الله من أنصار تعريب العلوم، وكان كثيرًا ما يؤكد على أنها مسألة حتمية لا غنى عنها، وذلك إذا كنَّا نأمل مواكبة العصر ومستجداته، والحلول في مصاف الدول المتقدمة علميا وثقافيا وتكنولوجيا، وقد أشار إلى هذا الموضوع في كثير من كتبه، وتناوله باهتمام واسع، وذكر أن علماء الحضارة الإسلامية كانوا قد استوعبوا هذه الحقيقة عندما أقدموا على ترجمة كتب ومعارف الإغريق إلى العربية، واستوعبها أيضا علماء الغرب حينما ترجموا علوم الحضارة الإسلامية إلى لغاتهم ضمن عصر النهضة الأوروبية الحديثة.

وبناء عليه فتعريب العلوم عنده أضحى من آكد الضروريات، بغية النهوض من الكبوة، والسعي إلى اللحاق بركب الحضارة التي ينشدها مجتمعنا الحديث.

ولا يعزب عنكم أن إبداء أفكار المسامرين مما يوحي به إليهم ضميرهم يعرض على محك النقد، وما كانت فيه مصلحة للعموم إلا ويعين على إظهارها بالوساطة في تنفيذها من المخزن الشريف أهل الحل والعقد من الحاضرين، لسماع إلقائها مع الذين بَلَغَتْهُمْ، ولا لوم على المسامر في إبداء فكره مما يمس بالسياسة إلا إذا كان متحاملا بلهجة حادة في تهييج الأفكار ضد المخزن والحكومة، متعمدًا لذلك بما هو خارج عَن النهج الأدبي، القاضي بالملام بما فاه به من سقطات الكلام[1].

ولم نر من أبناء وطننا مسامرا فتح باب الانتقاد على المسامرين أفكارَهم، ولا أبدى استحسانا بتأييد فكرة تأتي بخير عاجل أو آجل جاء بها المسامر، وهو في شك من أمره في استحسانها في نظر العموم أو استقباحها في نظر غير ذوي الأغراض، وغير من يتسارع في بداية الأمر بالاعتراض، فجاءت المسامرات التي تكررت من قبل معَ جميل موضوعها وسحر بيانها كل واحدة منها مثل تأليف خصوصي في موضوع خاص، ولم يقع من السامعين لتلك المسامرات اهتمام ولا اهتبال بها، ولا تكرر منهم طلب من إدارة المعارف في اقتراح من واحد منهم عليها أن يسامر فلانا أو فلانا في موضوع كذا، ويشكروا الإدارة والمدير والمندوب على إحياء نادي المسامرة الذي فَتحت أبوابَه لمن يريد الحضور فيه للاستماع، وتعرف إدارة المعارف بذلك من حال الناس أن ذلك مفيد لهم، فتزيد في توسعة نطاق المعارف لنفع العموم.

وما دَام الناس متكاسلين عن حضور المسامرات أو حضورها من غير مبالات بمن سعى في إلقائها، بقطع النظر عن ملقيها الذي لا يلقى شكرا عليها لا منهم ولا من غيرهم، فإن الهمم تزيد برودة على برودتها، وتكون فائدة المسامرات في ناديها الرفيع لغير أهل الوطن الذين نرى تكررها في الشهر مرارا في موضوعات مختلفة، ونحن كالمتفرجين إن حضرنا مرة لسماعها وليس لنا منها إلا مجرد النظر إلى الجمع الجميل، أو إشارة لمرسوم هناك جميل، لكوننا لا نعرف اللغة التي يلقي المسامر فيها مسامرته، وليس معنا من أبناء وطننا من يسمح لنا بترجمة ما يلقيه ذلك المسامر بتلك اللغة في موضوعه، الذي نرى ابتهاج الحاضرين لسماع خطابه، ونشاهد تعدد تصفيق الاستحسان منهم لما يلقيه.

---

[1]- التحفيز على طلب العلم، والدعوة إلى التكافل والتراحم والإخاء، ونبذ العنف ومحاربة الجهل والخرافات، وحث الناس على العمل والإبداع، والتحلي بالفضيلة والقيم والأخلاق الفاضلة، تلك هي إذن المواضيع التي كان يخوض فيها العلامة سكيرج أولا بأوَّلٍ خلال مسامراته، وقد كانت لهجته المتحمسة وتعابيره المختارة وتشابيهه الثرية تضفي على تلك المواضيع من الرونق والكثافة ما كان يثير إعجاب المستمعين الذين لا يحصى عددهم.
كما كان يشير دومًا وأبدًا إلى الأخطار المحدقة بالمجتمع المغربي المسلم، رغم ما له من ماض مجيد، فيستعرض في سياق حديثه بعض الأحداث التاريخية الهامة التي عرفها بلدنا الكريم، حيث يستخلص منها العبر، مؤكدًا على الأخطاء المتعمدة أو غير المتعمدة التي غيرت مجراها.

أمَّا مسامراتنا العربية فلا يحضر لسماعها إلا أقل القليل ممن نهض بهم حب الخير وحب أهله ونحو ذلك من المقاصد، ولا يأتي غيرهم للنادي لعدم مبالاته بما هو فيه، وما هو عليه حال وقته، المؤدي إلى مقته، لا فرق بينهم وبين المتخلف عن الحضور تكبّرا بنفسه على المسامر، أو بإظهار ورع كلي في الحضور في نادي المسامرات الذي هو من قبيل الحضور في مجالس الذكر والتذكير، ومجالس العلم عند البصير الخبير.

ولا ينبغي له أن يفني عمره فيها من غير أن يقتبس من نور علوم أخرى مما ينفع دنيا ودينا، لأنها مع علوم الأدب المنوطة بها آلة يقصد بها العملية الكبرى في غيرها من الاطلاع على العلوم النافعة والعمل بمقتضاها[1].

وإنما قدمنا هذا الكلام على اللغة قبل غيرها لأنها مقدمة بالطبع، وغيرها متوقف عليها، وقد يحصل للمطلع عليها ملكة في النطق، بحيث يمكنه أن يتكلم بألفاظ فصحى وألفاظ غريبة بحسب ما يفضي به عليه المقام من توضيح وإبهام، كقول سيدنا علي رضي الله عنه يخاطب شخصا: اجعل حضريتك إلى قهيلي حتى نغي لغية إلا وعيتها حماطة جلجلانك، فهذا كلام عربي معناه: اجعل قلبك إلى ناحيتي حتى لا أتكلم بكلمة إلا حفظتها داخل سرك.

ويمكن للمطلع عليها أن يستر لكنته وغيرها بجعل لفظ يقدر على النطق به بدلا عن لفظ يكون فيه ألثغ مثلا، فقد حكي عن واصل وكان ألثغ، وقلما تفطن له أحد في النطق بالراء لهجرانه لها، حيث لا يساعده نطقه عليها، فعمد أحد الكتاب إلى إنشاء مكتوب أمر مخزني، ودفعه إليه ليقرأه على الجماعة الحاضرة قاصدا بذلك إظهار كونه ألثغ ونصها: أمر أمير الأمراء أن يحفر بئر في الصحراء، فنظر إليها قبل القراءة وعرف المقصود فجال في اللغة وأتى بما يرادف كل لفظة وقال: قضى حاكم الحكام أن ينحث جُب في البادية، فزاده ذلك اعتبارا عند المطلعين على ذلك، وعلى ذكر الألثغ تذكرت قولي فيه:

---

[1]- أدرك العلامة سيدي أحمد سكيرج رحمه الله مثل الكثيرين من زملائه أهمية المسامرات العلمية ودورها في سبيل العمل المشترك الرامي إلى النهوض بالبلاد ثقافيا ومعنويا، ولهذا كان يدعو الناس لحضور مثل هذه المسامرات، ويحضهم على اعتيادها ومواكبة فعالياتها أينما عُقِدَتْ، إذ من خلالها يمكن تسليط الضوء على كثير من القضايا الوطنية والإجتماعية والعلمية وغيرها.
وكانت في مقدمة مشاغله رحمه الله قضية التعليم، وهي قضية ذات أهمية قصوى، لا سيما إذا علمنا أن تسعة أعشار مواطِني المغرب وقتئذ كانوا يتخبطون في ظلمات الجهل، كما كان يحث على النهوض ببعض الصناعات التقليدية بفضل التعليم التقني الملائم والتشجيعات الحكومية، ولا يتأتى ذلك في نظره إلا بتوسيع نطاق التعليم المهني والزراعي. وجعله في متناول الطبقة الشغيلة، أضف إلى ذلك مجال القضاء والعدالة والإنصاف، وغيرها من المجالات التي كانت تَهُمُّ المجتمع المغربي وقتئذ وتعتبر من أوكد الحاجات.

وألثغ جــيء بـــه		يفعل ما لا ينبغي
قلت له أنت بري		قال نعم أنا بغـــي

وَ الحاصل أن التضلع من اللغة مفيد جدا، ومن جملة الفنون المنوطة بها علم النحو بمعنى فن الإعراب، وهو من الآلات التي ينبغي التحصيل عليها، لأنه يوصل إلى معرفة كلام العرب الذي أرسل النبي عليه بلسانهم، فلم يكن عليه السلام يلحن في حديثه، ومن لحن فيه يعد كاذبا عليه، وقد قال عليه السلام من كذب عليّ متعمدا فليتبوأ مقعده من النار، والجاهل بالإعراب إذا لحن في كلامه، فهو كالمتعمد، فلذلك ينبغي تعلم النحو، وبالأخص من يقرأ الحديث الشريف. ومن نظمي:

النحو أحسن ما به		يتحمل النطق الفصيـحْ
إن الكـــلام بدونــــه		من دون شك شبْهُ ريحْ

ومن ذلك علم التصريف، فإنه تحصل به الملكة في إفراغ اللفظ في قوالب تناسب المعنى المطلوب، لأنه علم تعرف به أحكام أبنية الألفاظ المتداولة في المعاني المختلفة، من غير خروج عن الكلام العربي، وهو علم نافع جدا، وهو من تتمة علم اللغة، فلذلك يهتم به.

كنز المعارف

للعلامة سيدي أحمد سكيرج رضي الله عنه

تحقيق ذ محمد الراضي كنون
الإدريسي الحسني

بسم الله الرحمن الرحيم و صلى الله على الفاتح الخاتم و آله و صحبه و سلم تسليما

كنز المعارف[1]

الحمْد لله كما ينبغي لجلاله، وَالشكر له على كمال إنعامه وإفضاله، وَالصَّلاة والسّلام على ينبوع النعم، وَمعدن الفضل والكرم، سيدنا محمّد بن عبد الله، وعلى كل من والاه، وَبعد، فيقول الفقير إلى ربه أحمد سكيرج، أمنه الله في الدارين في الحياة وَبعد الممات، هذا بحول الله تويلف أعنونه بكنز المعارف، أقيّد فيه كل مَا استفدته من غير تأنُّق في الخطاب، ولا تقيُّد بموضوع خاص في إيجاز أو إطناب، وَإنما أكتب ذلك على حسب ما سنح لي ذكره خشية نسيانه، وقصدا لإفادة من وقف عليْه، سائلا من المولى النفع لي ولمَن نظر فيه بعين الرضا، ودعا لي بما يحبه لنفسه من الرحمة الدائمة والألطاف الخفية والمغفرة التّامة، فَإن الدعاء ينفع في ظهر الغيب[2]، وَلله خزائن لا تنفذ بالإنفاق، وَهو سبحانه المرجو في كفاية ما أهم وما لم يهم، وَصلى الله وسلم على سيدنا ومولانا محمّد وآله وصحبه مدا الدوام.

رؤيا في صباح 15 شعبان عام 1334 هـ:

رأيت نفسي كأني بمراكش، وَاجتمعت فيها بجماعة من الأعيان ذوي شيبة منورة، ولم أكن أعرفهم، غير أنّي قلت مظهرا لمعرفتهم هذا فلان وهذا فلان كأنني أعرفهم، وَمن جملة من سمَّيته منهم رجل ذو وجه منور وهيأة جميلة، فقلت: هذا سيدي جعْفر الكتاني المراكشي، فصاروا يتعجبون من ذلك، ثمّ شرعت في مدحه بقصيدة لم تتم، واستيقظت ومطلعها على حافظتي وهو:

علوت على أعلى العلا في المعالي　　　　وفقتَ وسدت في الورى كل عَالم

إهـ..

أقول استحضرت في هذه الرؤيا شيخنا العلامة الفاضل أبا محمّد سيدي جعفر الكتاني الفاسي[3]، وأظهرت في الرؤيا المذكورة أنه غير المرئي، فلذلك قلت المراكشي، وَشيخنا

---

[1]- هو من عداد كنانيشه القديمة، شرع في تدوينه بمدينة فاس، إبان عمله كناظر لأحباس فاس الجديد ما بين عامي 1332 هـ-1336 هـ موافق 1914م-1918م. ويظهر من مطلع عنوانه ومقدمته أن الغاية منه كانت منصبة على جمع غرر الفوائد والمعلومات، سواء منها ذات الصلة بالميدان العلمي، أو بالأدب والأخلاق والتصوف، مع ذكر بعض الأشعار اللطيفة والمواعظ، إلى جانب بعض المجربات الإقتصادية التي يُرْجَى أن تعود بالنفع والفائدة على عامة الناس.

[2]- إشارة للحديث الصحيح المروي عن أبي الدرداء أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ما من عبد مسلمٍ يدعو لأخيه بظهر الغيب، إلا قال الملكُ: ولك بمثل. رواه الإمام مسلم في صحيحه (كتاب الذكر والدعاء). باب فضل الدعاء للمسلمين رقم 6877.

[3]- سبق التعريف به ضمن الجزء الأول من هذا الكتاب

المذكور هو رجل كبير السن وَالقدر، كَانَ من أفاضل علماء القرويين الذين بالغوا في إفادة العامّة وَالخاصّة، وقد حضرتُ بين العلمين لمجلس وعْظه، وَهو على كرسيه المرتب فيه، كنت أقصده حَالة توريقه من جملة المستمعين، وكنت أتأسّف على أن فاتني الحضور بمجالس تدريسه، حيث إنه كان يترك التدريس في ذلك الإبان، وَأعلل نفسي بأنه حيث فاتني تدريسه فإنه لم يفتني بحمد الله حضور مجلس توريقه وَالسَّماع من لفظه ووعظه المؤثر في النفوس، فهو بذلك من شيوخنا الجلة قدس الله روحه في الجنّة، وَقد صدحت القريحة في رثاه هنا فقالت:

عَلام عينك قد فَاضــت منابعهــا وَاصفرّ للنفس منك اليوم يَانعهــا
ولَم تكن قبل هذا اليوم في جــزع وَاليوْم عينك قد جرت مدامعهــا
مَا ذاك إلا لأمْر لا تطيــق لــه صبرًا فأوجع منك النفس فاجعهـا
كأنّ ما بك من فقد الإمــام أبـي محمّد جعْفـر للنفـس باخعهــا
مهلا عليـك فإنّ الله قدّس فـي جناتــه روحــه وَازدَانَ طَالعها
فإن تكن أنتَ تبكيــه فقد فرحـت به من الجنة العليــا مَوَاضعهــا
لقد تلقته بالهنـــا مَلائكـة وفي العلا ازدهرت بهم شوارعها
لم لا وَقد كان في علم وَفي عمَـل فردًا وكم من نفوس فهو نافعهــا
أحيى علومًا وَأفْنى الجهْل وابتهجت به الصُّدور بما منــه يطاوعهــا
وكم أزال عَن العقول من حجـب به تديَّـن عاصيهـا وَطائعُهــا
فلا مزيَّــة إلا حَــاز جيدهـا ولا فضيلــة إلا وَهو جامعهـا
بالإرث حَاز كَمالا وَاشترى رتبـًا في الفَضل غالية ســوَاه بائعُهـا
أعَار للشمس نـورا منه فابتهجـت به ولولاه لم تشــرق مطالعُهـا
من مثله كانت الأقـدام تقصـده ولم يخب فيه للنفـوس طامعهـا
فكان مانــح فضل جل موقعــه في أنفس غيره بالبخــل مانعهـا
فلا كرامــة إلا وهو كاسيهـا ولا حميــدة إلا وهو زارعهـا
وَلا فضائل إلا وهو حاصدهـا ولا كرامــة إلا وهو وَازعُهـا
فالله أســأل أن يديــم رحمتَــه عليه حتّى يعـم الخلق وَاسعُهـا

فائدة من فوائد السيد أبي بكر المصري[1]

وهو من الأمور التي كان يستعملها للحضرة الحسنيّة أيام المصيف لاستخراج الأرياح المزمنة المعكوسة كالقولنج وشبهه، وذلك أن يؤخذ قدر من المزهر المعروف عندنا بالمغرب بالزريق، وبالإسكندرية برأس الهدهد، ويوزن مع أغصانه ويطبخ ثم يجعل في مائه بعد

[1]- أبو بكر المصري المكاوي، فقيه مشارك مطلع، له معرفة واسعة بعلم السيمياء والتنجيم، كان السلطان مولانا الحسن الأول يجله ويتتلمذ له، خصوصًا في مجال علم الحروف وما إليها، والمعروف عن هذا الشخص أنه مشرقي الأصل من بلاد الحجاز، وقد استوطن مدينة فاس ولقي بها ترحيبًا من طرف أهلها، إلى أن أدركته المنية بها عام 1336 هـ- 1918م. ودفن بضريح الشيخ المزالي داخل باب عجيسة. أنظر ترجمته في إتحاف المطالع، لابن سودة 2: 420. موسوعة أعلام المغرب 8: 2902.

الطبخ ثلاثة أمثاله سكر، لكونه مرا، ويعقد شرابا، ويؤخذ منه أكلا وقت الحاجة معلقة تحل بماء مطلق، ويشرب، فهو نافع كاف لجميع الأرياح. قال: وَالبري أحسن من البستاني، لا سيما النوع الذي على أوراق نوره صورة ألف، قال: والقاعدة في كل ما هو مر أن يجعل فيه ثلاثة أمثاله سكرا، فإن خفت المرارة فمثلاه، ثم مثل لغيره، وهذا الزهر هو الذي إذا أكله المهر يخرج منه البادزهير، وهو أنواع، من أنواعه النوع المعروف بالحكم الأصفر.

فائدة

فائدة النوم راحة الحواس، وأول ما تنام: القوة الباصرة، ثم تتبعها السامعة، ثم ما بقي من الحواس الخمسة، ثم الدماغ، فإن نامت الحواس دون الدماغ رأى الإنسان الأحلام، فالنوم التام هو ما لا أحلام معه.

فائدة في الطبخ بلا نار

السر في ذلك وضع القدر التي فيها الطبخ على النار حتى تبتدئ تغلي، ثم رفعها عن النار ووضعها حالا في صندوق فيه هشيم أو تبن أو ما أشبه ذلك، وإغلاق الصندوق بضبط، ويجوز لف القدر بصوف أو غيره، والغاية حفظ الحرارة التي في القدر، فينضج الطبخ كأنه على النار، غير أنه سيشغل بذلك وقتا أطول من الوقت الذي يشغله على النار، بما يقتضي إنضاجه نصف ساعة على النار يقتضي ساعة في الصندوق، وهذه الطريقة توافق الرز والبقول التي لا تحتاج إلى نار قوية، فالنّار الواحدة كافية لطبخ أشكال كثيرة.

حفظ البيض من الفساد

لحفظ البيض طرائق كثيرة مختلفة، وقد أراد بعضهم أن يجرب تلك الطرائق ليرى أيها هو أفضل، فجمع بيضا كثيرا وعالجه بحسب وتركه من أول حزيران إلى آخر شباط، ثم عاد ففحصه فوجده كما يلي:

من 100 بيضة غطست في الماء المالح 100 فاسدة
من 100 بيضة لفت بالورق 80 فاسدة
من 100 بيضة حفظت في النخالة 70 فاسدة
من 100 بيضة وضعت في محلول الشب 50 فاسدة
من 100 بيضة حفظت في الرماد 20 فاسدة
من 100 بيضة حفظت في دقيق الفحم 20 فاسدة
من 100 بيضة حفظت في ماء الكلس، لا شيء فاسد

وبما أن الطريقة الأخيرة هي أحسن الطرائق فضلا عن أنها قريبة المتناول على كل الناس، ولا تكلف نفقة، فبيانها ضع في وعاء عشرة كيلوغرامات من الماء العادي، ثم أضف إلى الماء نصف كيلوغرام من دقيق الكلس المصفى، وامزج الكلس بالماء مزجا شديدا، واترك المزيج أربعا وعشرين ساعة، ثم عد إليه تجد منهما من الكلس قد رسب في قعر الوعاء، فقطر الماء قليلا قليلا إلى وعاء آخر، ثم ضع فيه البيض واجعله في مكان رطب قليل

الضوء، وبهذه الطريقة يحفظ البيض ستة أشهر، بشرط أن تكون البيضات المقصود حفظها جديدة.

نصائح لحفظ البيض من الفساد

خذ جزءا من القلفونة وهي صمغ الصنوبر، أو أحد الصموغ الموجودة، ودقه ناعما، وضعه في عشرة أجزاء من السبيرتق أو العرق مدة يومين، فيصير صالحا لدهن ظاهر البيض بالشعرية الفرشاة، ومتى جف كان دهانا يحفظها من الفساد طويلا.

ادهن البيض بمادة شحمية أو بزيت كزيت بزر الكتان، فتحفظه شهرا.
خذ مشبع عشرة أجزاء الكلس المطفي، وجزء من السكر، وغطس البيض فيه مدة أسبوعين.
خبئ البيض في ناعم الرماد أو النشادر أو دقيق الفحم، فيحفظ طويلا. اهـ

رؤيا سيدتنا الوالدة

رؤيا سيدتنا الوالدة لوالد والدنا البركة سيدي الحاج عبد الرحمان سكيرج[1] بعد وفاته: رأت الوالدة سيدنا الجد المذكور بعد وفاته مستلقى على قفاه كأنه في فراش أعدَّ له لمباشرة عينيه، فرأت عينيه تفوران، فتكلمت معَه ثم تذكرت أنَّه توقى، فقال له يا سيدي كيف وَجدتَّ الحال؟ فقال لها مجيبا: أمَا ومن خير عند الله، فاستيقظت من الفرح الحاصل لها بهذه البشارة، وكانت تقول: من الوقت الذي قال لي ذلك لم يبق عندي خوف من الموت، واستوت عندي الحياة والممات.

عمامة الشيخ التجاني رضي الله عنه

كانت عمامته قدس سره على ما بلغنا على لسان الثقة من الثوب المعروف بالمطيب، وهذا الثوب كاد أن ينقطع، وهو من الكتان الغليظ، ذات عشرة أدرع، ويكورها على قلنسوة حمراء من تحتها قلنسوة بيضاء، ويغرز طرفها بإبرة حتى لا تنحل، وَيلفُّ عليها حبلا رقيقًا من الوَبَر على عادة أهل الشرف الوطني[2]، وقد تبركت بحبل من الحبال التي كان يلف بها عمامته، وجعلته على رأسي، ولويته على عنقي في وسط جماعة من الإخوان، من جملتهم محبنا الأعز المرحوم السيد الحاج محمّد فتحا بن المدني القباج[3]، وهذا الحبل كان على ملكه، وقد أدرجهُ في عنقي وعنقه، وهذا الرجل من الفانين في محبة الشيخ رضي الله عنه، وقد

---

[1]- سبق التعريف به في الجزء الأول من هذا الكتاب.

[2]- في كناش العارف بربه سيدي محمد بن يحيى بلامينو الرباطي، قال الولي الصالح سيدي محمد العربي بن السائح : كان سيدنا الشيخ رضي الله عنه يخيط عمامته من وراء لئلا تشغله في الصلاة إذا انفكت. وهي شقة كاملة من الثوب الرفيع. قال العلامة سكيرج : وهي عند المقدم الآن من النوع المسمى بالمطيب، ومقدار طولها عشرون ذراعا.

[3]- ترجم له العلامة سكيرج في كتابه الرحلة الحبيبية الوهرانية، وقال فيه بعد كلام : ويكفيك فيه أنه من أبناء خدام الحضرة التجانية من السادة أولاد القباج. ودارهم دار الشيخ رضي الله عنه في الحضرة الفاسية، ينسبون إلى الشيخ رضي الله عنه بجميع ما لهم من أولاد وأهل وفرع وأصل، قد لحظتهم عين العناية فكانوا من خاصة المنتسبين لهذه الحضرة التجانية، حيث استغرقوا أعمارهم في حب الشيخ رضي الله عنه وحب من انتسب إليه الخ ... انظر الرحلة الوهرانية للعلامة سكيرج ص 19.

أفضى به الإستغراق في المحبة إلى الجذب الذي اتَّصف به آخر عمره بنحو أربع سنين، وَقد توفي رحمه الله عام 1333هـ، وحول هذا المقام أنشدت مخاطبا لسيدنا رضي الله عنه وأرضاه وعنا به[1] :

حبلي بحبك لا يزال منبرمـــــا	رغما على أنف من يراه منصرمـا
ومنك أسديت لي أجل مكرمـــة	بها أعز كرامــــة لدى الكرمـــا
أدنيتني منك في سر وفي علـــن	فنلت أقصى المرام منـك والنعمـا
مولاي يا أحمد بن سالم سنـــدي	يا سيدا كل من به احتمـى سلمـــا
ربطت رأسي بحبل كنت تربطه	من فوق هامة فضل قد علت هممـا
وقد تيقنت أن السعـد ساعدنـــي	بنيـــل سر بذاك أمــره عظمـــا
وذاك طبق اعتقادي فيك يا أملـي	حبلي توثق في حبـل بك انبرمـــا
بالله لا تقطع الحبل الذي اتصلت	به حبالي وكن لي راعيـا ذممـــا
فقد بلغت مقاما لـيـــس يـدركه	سواك دنيا ولا أخـرى لـدى العلمـا
ألست أنت إمام الأوليا وبك الـمــــــــــ	ــولى الولاية في الدارين قد ختمـــا
وقد رجوتك في دنيا وآخــــرة	لكل أمر مهـــم كلمـــا دهمـــا
وَحاش أن لا أنال فوق أمنيتـــي	من بحر جودك وهو يكشف الغمما
والمصطفى لك قد أدى ضمانتـه	بنيلك المبتغى طبق الذي علمــــا
صلى عليه الإله دائمـــا وعلى	آل وصحب ومن به قد احترمــــا

وكان رضي الله عنه يجعل عليها طيلسانا شالا يسدلهُ على رأسه ويمر به تحت حنكيه وَعنقه الشريف، وربَّما لف عليه حبله الوبري وربما لفّ الحبل فوق ليّة حائكه، وكَان رضي الله عنه يجعل في بعض الأحيان حرزا بين ليات عمامته لسر باطني يقصده بذلك، ومما بلغنا أنه رضي الله عنه وضع عمامته يوما بجنبه، فَانتهز الفرصة أحد الخاصة من الأحباب بوضعها على رأسه تبركا، فأصابه في الحين صداع كبير، فالتفت الشيخ وَقد رآه فقال له: آذيت نفسك، فصار يتملق بين يديه في كشف ما نزل به، فدعا له فحفظه الله من استصحاب الألم، وما ذاك إلا للسر الذي حملته من ملابسة الرأس الشريف.

برنوس الشيخ رضي الله عنه وكساؤه

كان الشيخ رضي الله عنه يلبس سلهامًا من الوَبر في بعض الأحيان، وفي بعض الأوقات يلبسه من الصّوف، يدخله في عنقه، ولا يجعله على عاتقه من غير أن يدخله في عنقه،

[1] - قال العلامة سكيرج : ومما وقع لسيدي الحاج علي أملاس مع سيدنا رضي الله عنه ما حدثني به بعض أحفاده أنه دخل على سيدنا رضي الله عنه والحجام يحسن له، ورأى عمامة سيدنا رضي الله عنه فوق الأرض منزلة، فأخذها وجعلها فوق رأسه ليتبرك بها، فبمجرد جعلها عليه أحس بخروج عينيه من موضعها من فرط ما حملته من السر، لمسها لرأس سيدنا رضي الله عنه، ثم إنه جعل يديه عليها وصار يصيح، فرآه سيدنا رضي الله عنه، فقال له : ما حملك على هذا ؟ ونزعها من رأسه، وصار يطلب له من الله اللطف لئلا تتلف عيناه من فرط التجلي الذي حصل له بسبب ذلك، وبقي مريضا مدة إلى أن شفاه الله تعالى. انظر كشف الحجاب للعلامة سكيرج ص 272.

ويضرب بطرفه على رأسه لتغطية وجهه عندما يريد أن لا يرى أحد وجهه، وبالأخص عند مروره بين النسوان وقت زيارته ووعظه لهن[1].

ولون برنسه البياض، وكَان يتخيّل لي أنّه أسْود، ولا يبعد أن يكون عنده، وله برنس كذلك من صبغة الرحمان، وأما لون الوبر فهو معروف، وكان يلبسه سفرا وحضرا، ولباس البرنس من لباس السلف الصالح، ففي العتبية قال مالك : سمعت عبد الله بن أبي بكر وكان من العباد وأهل الفضل يقول: ما أدركت الناس إلا ولهم ثوبان، برنس يغدو به، وخميصة يروح بها، قال القاضي أبو الوليد ابن رشد : البرانس ثياب في شكل الغفائر عندنا، مفتوحة من أمام، تلبس على الثياب في البرد والمطر، وأما الخمائص فهي أكسية من صوف رقاق معلمة وغير معلمة يلتحف بها، كانت من لباس الأشراف في أرض العرب الخ ... كما كان له رضي الله عنه كساء يلتحف بها، وكان يعقد طرفها بحزامه حتى لا تنحل عن كتفه، وكانت من النوع الرفيع والسدي الرقيق المتنافس في عمله للأكابر.

نعل الشيخ رضي الله عنه

كانت نعل سيدنا رضي الله عنه من النعال المعروفة عندنا بفَاس بالنعال المشيطة، وهي الجنس الرفيع من النعال في وقته، تشابه النعل الشريفة في الهيئة، فكان رضي الله عنه يلبسها مدة قليلة ثم يلتمس الأصحاب منه أن يتحفهم بها، فيلبس بدلها جديدًا، وما رئيت في رجله الشريفة نعل بالية، وذلك حالة ركوبه ومشيه راجلا، مما ازداد به حسَّاده عجبا من الترفه الذي لم يظفروا منه بأقل قليل، وقد تشرفت بالتبرك بنعله اليسرى عند محبنا الأعز السيد أحمد بن الحاج محمد بن المدني القباج[2] . وباليمنى عند عمه المحب الصادق السيد محمد فتحا القباج، وتشرفت بالنعل الشريف التي عند الشريف الجليل سيدي إبراهيم بوطالب.

---

[1]- حول هذا الموضوع ذكر العلامة سكيرج في كتابه كشف الحجاب ما نصه : وكثيرا ما كان سيدنا رضي الله عنه يدخل لدار صاحب الترجمة (عم العباس بن الغازي) فيجتمع عليه أهله للزيارة، فيضع سيدنا رضي الله عنه طرف سلهامه على وجهه لئلا يرى أجنبية، فإذا أكثرن عليه من طلب الدعاء وتقبيل يديه يقول لهن : بركه بركه، بمعنى يكفي يكفي، يأمرهن بالكف عنه، وكذلك كان رضي الله عنه يفعل في عشية الجمعة بالزاوية المباركة إذا كان خارجا منها، فإنه يذهب وحده للموضع الذي كان جعله لهن، لئلا يزدحمن بباب الزاوية فيحصل بذلك الضرر الديني من ازدحام النساء والرجال في الدخول والخروج، فإذا ذهب لناحيتهن يجعل على وجهه طرف سلهامه، فيزدحمن عليه للزيارة، فيدعو لهن بصلاح الأحوال دنيا وآخرى ويعظهن ويذكرهن إلخ ... أنظر كشف الحجاب للعلامة سكيرج ص 311.

[2]- أحمد بن الحاج محمد بن المدني القباج، فقيه جليل، من مواليد مدينة فاس عام 1290هـ، وبها أخذ العلم والمعرفة، ثم انتقل لمدينة وهران عام 1320هـ، وذلك بقصد مزاولة التجارة بها، وقد توسع العلامة سكيرج في ترجمته في كتابه الرحلة الحبيبية الوهرانية ص 21-32. وكذلك في كتابه رياض السلوان ص 21.

وكنت عملت في ذلك أبياتا ذكرتها في الرحلة الوهرانية [1]، وتبركت بها عند أولاد السيد ابن التّاج بوجدة حيث كنت بها قاضيا، وتبركت بها عند الأمين الكاتب بدار المخزن السيد علال بن حيون[2]، ولم أعرفها عند غير هؤلاء.

وكتب لنا محبنا الأديب الغطريف السيد **الحاج الطيب عواد السلوي**[3] بعدما استعار مني جزءا من تاج العروس:

يا من به تسلو النفوس	عن الفها وعن العــروسْ
لا زلتُ نشوانا بمـــا	دونتَه لا بالشمـــــوسْ
وأفاقني من نشوتـــي	من رمت من تاج العروسْ

وقال في مدح سيدنا الشيخ التجاني رضي الله عنه:

قالوا مدحت الشيخ قلت بدِيهـة	كل اليراع عن اختطـــاط مناقبه
وغدا البليغ أخو الفصاحة باقلا	لا يستطيع الدهر وصف مشاربه
أوما علمت بأنه الغوث الــذي	سعد الذين تمذهبـــوا بمذاهبـــه

رائية الإمام الساحلي رضي الله عنه:

أيا طالبا يبغي الترقـــــي بالذكـــر	أصخ نحو إيضاح أتـــى لك بالـــدر
لئن كنت بحاثا عن المسلـــك الــذي	سلكته فاسمع ما أنـــصُّ من الأثـــر

---

[1]- انظر الرحلة الحبيبية الوهرانية للعلامة سكيرج ص 31. وقد قال في آخر هذه القصيدة :

لله من شيخ يفوز مريده	بمناه مهما حل رحب مناره
إني لأحمد خدمتي لجنابه	بمدائح نظمت بسلك نظاره
إن كان يوما فاتني منه اللقا	ما فاتني الآيات من آثاره
فأنا الذي في حبه أصبحت لا	أبغي سوى التعطير من أخباره
إن لم أكن قبلت أخمص رجله	فلقد ظفرت بلثم نعل يساره
وبموطئ القدم الشريفة كحلت	عيناي منه تبركا بغباره
وبذاك آمل أن أفوز بمطلبي	دنيا وأخرى كي أرى بجواره
وأكون ملحوظا بعين عناية	في الدهر لا أخشى جميع شراره
متوسلا في ذا بشيخي المرتضى	وبجاه ما قد نال من أذكاره
وبجاه ما قد نال من خير الورى	من فيض عرفان ومن أسراره
فعليه خير تحية لا تنقضي	تغشى جميع الآل مع أنصاره

[2]- الكاتب الفقيه السيد علال بن عبد الرحمان بن حيون الفاسي، من مواليد مدينة فاس عام 1284هـ، تقلب في مناصب مخزنية بارزة منها أمين للأملاك والمستفادات المخزنية برباط الفتح. وبعدها عين كاتبا بوزارة المالية بالأعتاب الشريفة. وهو حفيد السيد الحاج محمد بن حيون أحد أصحاب وأحباب الشيخ أبي العباس التجاني رضي الله عنه، انظر ترجمته في رياض السلوان للعلامة سكيرج ص 105.

[3]- سبق التعريف به في الجزء الأول من هذا الكتاب.

هو المسلك العالي الرفيـــع مكانـــه ... على طرق الإرشاد ناهيك من فخـــر

طريق سريع الفتح سهـــل مرامـــه ... يزحزح أدناس الهواء عن الصّـــدر

ويرقى به الإنسان في عالـــم العـــلا ... على السنة البيضاء والمهيـــع البر

إلى حضرة التقديـــس دون تكلـــف ... إلى منزل الإيصال نايا عن الفخـــر

تفوق به الخـــدَّام في كـــل مشهـــد ... هنيئـــا لهم غاصوا على درر الـــدر

براهينه كالشمـــس دون سحابـــة ... لقد حقَّ بالتأييـــد حقا وَبالنَّصـــر

وليس لذي الإنكـــار في ذاك مدفـع ... وشد سهام الظفـــر في حالـــة النكر

طريـــق قويـــم لاح بـــدر كمالِه ... تبلغ للجنـــات تاتيـــك بالأجـــر

تضمـــن أذكـــارا تـــردد خمسة ... أتينا بها نقلا عن الســـادة الغـــر

فأولهـــا استغفارنـــا لإلاهنـــا ... ومن بعده ذكر المشفع في الحشـــر

وثالثها الإثبـــات تهليـــل قائـــل ... ومن بعده التنزيه يتلى على الإثـــر

وخامسهـــا الإفـــراد لله ربنـــا ... فكن واعيا للخمس واحضض على الستر

وَصِـلْ به ذكر المصطفى وإلاهـــه ... وإياك أن تنسى نبيـــك في الذكـــر

فما فـــاز من قد فارق البدر لمحـــة ... وهل فـــاز إلا من تمسك بالبـــدر

تعلق بأذيـــال الذين تفرغـــوا ... لخدمة هذا المصطفى كأبي بكـــر

فما فارق الصديـــق ذكر محمّـــد ... وإن كان في الأفراد كالكوكب الدري

وما نال تصديقـــا بغير حبيبـــه ... فدع قول بدعـــي تدنس بالـــوزْر

وخذ جملة الأذكار واكتب سطورهـــا ... بكف قبول الحق في صفحة الصـــدر

ورتب فصـــول الذكر لا تك ناقصا ... لترتيبها مهما دعيـــت إلى النشـــر

وإيـــاك أن ترقـــى بغير علامـــة ... فتضطرب الأقدام منك على الفـــور

ولا بد من شيـــخ إمـــام وقـــدوة ... يرقيك تدريجا على مقتضى الخُبـــر

فللذكر أســـرار تلـــوح لأهلهـــا ... وتظهر إعْلانـــا لمن عمَّ بالطهـــر

وبالصدق والإخـلاص يشرق نـورها ... فخذ في سبيل الصدق تنبئك بالسِّـرِّ

وما ترتقي الأنجـــاد في ثمراتهـــا ... سوى بدوام الذكر فادأب على الذكـر

وإن شروط الذكر لا شـــك خمســة ... سأشرحها في النظم نصا كما أدري

فتركك للإسراف في الأكـــل واحـد ... فدونك جنب ما يـــؤول إلى الضـــر

وثاني شروط الذكر إيثـــار خلـــوة ... ففي خلوات الذكر يربـــح ذو تجـــر

ومن بعدها استقبال بيـــت إلاهنـــا ... ورابعها استعمـــال ذاك على طهـــر

وخامسها يا مظهـــر الجد مقصـــد ... عليه بناء الذكر في مجلـس الـــذكر

ولا بد في هذا من إعمـــال سبحـــة ... تنظمها وِترًا فحافـــظ على الوتـــر

كما أن سد العين في الـــورد لازم ... وإلقاء رأس الذل في وسط الحجـــر

فحافظ على الأوراد ما دمت جاهـــدا ... وخذ يا أخي تلقـــاء واعيـــة اليسْر

وقسّم على وقتيـــن وردك يا فتـــى ... فذلك مخصوص بمبتدئ يســـري

وخذ نصفه بين العشاءيـــن خاليـا ... وخذ نصفه الثاني على أثر الفجـــر

وَصن أذنا تصغى لقولـــة لائـــم ... وَجالس خيارا لا يميلـــون للشـــر

وخذ في سبيل الصمت عن كل قاطع ... فإن كنت لا تقوى فجاهد على الصبر

فما الربح إلا في مخالفـــة الهَـوى ... وما الجد إلا مالك النفـــس بالقهـــر

وما نفد السبـــاق إلا بخمســة ... بها نهض السباق فانهض على الإثر

فأولهـــا منـــــع لنفـــس غبيـــة عن الشهوات الداعيات إلى الخســر
كذلك غض العيـــن عن كل قاطـع كما بين الرحمان في محكم الذكــر
وإشغال قلب في مراقبـــة الـــذي يرى حضرة الإخفاء في منزل السرّ
يليها على التدريج تزييـن ظاهــر بسنة مختار دعانــــا إلى الأجــر
وأكل حلال فهو ســـر طريقنــا فجاهد على كسب الحلال مدى الدهر
فإن قلت لا يلفى حــلال بموضــع فكل أكل محتاج عديــم ومضطـــر
ولكن من بعد الحراســـة دائمــا وبعد اجتهاد منك في حيــز الحَظـر
وإياك أن تبســط يمينـــك آخـــذا لتحفة خوان وإعطـــاء ذي جـــور
وكن راضيا بالفقـــر لا تك مكثرا وجرد ثياب الحرص فيها على الظهر
فإن رسول الله ســـرا وجهـــره رمى زهرة الدنيا ومـــال إلى الفقر
فكن تابعا للمصطفـى في فعالـــه وأصحابه الأخيار والأنجم الزهــر
فما صحت الدعوى بحـب محمَّــد لمن خالف الهادي ومال عن الأمْــر
فآيـة صـدق المولعيـــن بحبـــه مساعدة المحبوب في السر والجهـر
إليك ينـــادي الساحلـــي تضرعا لتشرح لي صدري وتغفر لي وزري
وعفوك أرجـــوه لأمـــة أحمـد عليه صلاة منك تترى إلى الحشــر
وأفضل تسليـــم عليه ورحمـــة وأصحابه أهل السيـــادة والفخــر

.إهـ..

من **الذخيرة**[1] هذه الأبيات أسفله:

محمَّد بشـــــر لا كالبشــر بل هو كالياقوت بين الحجــر
محمَّد بشـــــر لكنــــــه أبهى من البدر ونور الغُـــرر
محمَّد بشـــــر لكنــــــه أبهى من الشمس ونور القمـر
محمَّد بشـــــر لكنــــــه مصباح نور في الوجود انتشر
محمد أبهـــى وأجمـــل من غرة فجر لاح بيـــن الطـرر
محمد أبهـــى وأجمـــل من شقائق النعمان بين الزهـــر

---

[1]- ذخيرة الغني والمحتاج في الصلاة على صاحب اللواء والتاج، من تأليف العلامة الصوفي الشهير سيدي محمد المعطي بن صالح الشرقي، تقع في سبعين جزءًا، قال في مطلع جزءها الأول ما نصه: لما رأيت ما في الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم من الفضائل والخيرات، والبشائر والأنوار والشوارق ولوائح المسرات، ووقفت على ما في كتب القوم من غرر الصلوات، ونفائس التحيات، حركني حامل الحب الذي لا يُرَدّ وارده، وجذبني عامل الشوق الذي لا يكتم شاهده، أن أدلي دلوي بين المحبين المادحين، وأرسم شكلي في توقيعات المحبوبين المقربين. إهـ..
واستمر في تأليفه لأسفار هذه الذخيرة مدة تناهز عشرين سنة، إذ لم ينتهي منها سوى قبيل وفاته بقليل، وفي حق هذا الكتاب وصاحبه يقول بعضهم: امتزجت فيه محبة النبي صلى الله عليه وسلم بلحمه وعظمه، وشعره وعروقه ودمه، وقال في تقريظها بعض علماء المشرق:
الغرب شيء نفيس ولي عليـه أدلــه
الشمس تغرب منه ومنه تبدو الأهله

محمد أبهـــى وأجمـــل من | فرائد المرجان بين الـــــدرر
محمد فذ العـــــلا والبهـــى | واسطة العقد ونور البصـــر
محمد غرة لـــوح الهـــدى | وبهجة النفس وروح الصـور
محمد بين الـــورى جـوهر | فرد وما مثله حسنا ظهـــــر
محمد نــــوراني ملـــــك | روحاني بشر لا كالبشـــــر
صلى عليه الله ما طلعـــت | شمس وما هب نسيم السّحــر
والآل والأصحـاب ما غردت | جامعة الورق وفاح الزَّهـــر

ومن رسالة وجهتها للسيد الحجاز بن مدثر ابراهيم الحجاز[1] بعد كلام:
وقد ألقيت طلبكم بين يدي من لا يرد السائل ولا يبخل، فعسى أن يجيب وقد أجاب بلا شك وفعل، ففي الحديث القدسي: أنا عند ظن عبدي فليظن بي ما شاء[2]. نعم، إن بروز المظنون للعيان منوط بأوقات لا تتعداها لحكمة اقتضتها المقادير، ولو كشف الغطاء لرأى الطالب مطلوبه مقبلا بحركة إذا وَزَنَهَا وَقَدَّرَهَا تحقق أنه سيصله في الوقت الذي لا محيد عنه ولا خروج عنه البَتة، وقد تطوى المسافة لبعض أهل الخصوصية طيا في الزمان والمكان، ولا يبعد أن يكون لكم الحظ الأوفر من هذا المشرب بالدعاء لكم في ظهر الغيب بما لكم من حسن الظن، ولا عجب في فتح باب القبول، بتعجيل قضاء المأمول، وبلوغ السول في الوصول، غير أن الحكمة الربانية رتبت الأمور وأناطتها بأسباب لا بد منها، والتوفيق للعمل عليها من قبيل الأخذ باليد، فتحرك يا ولدي حركة العبد الذي لا يعتمد عليها، واعمل بها فيأتيك المطلوب طبق ما تطلبه. ألا ترى أن العلم اللدني فإنه يرد من الحضرة القدسية على مورده بوارد الإلهام، ولا بد فيه من تقدم اجتهاد نفس بطلب، ولو بلا إخلاص في العمل، وإن كان السر في الإخلاص

وإن سر الله في صدق الطلب | كم ريئَ في أصحابه من العجب

نعم لا يوجد العمل إلا بحال، ولا حال إلا بالعلم لأنه:

كل المقامـــات عن ثلاثة صـــــــدرت | العلم ينتج حالا وهو للعمـــل
والحسن في الأصل حسن في النتائج لا | ياتيك من حسن إلا بنسل عَلي[3]

ولا بد في العلم من حركة، وبتعاطي مقدماته وآلاته بقريحة ذات كد وإلحاح، ليحصل النجاح، وقد قيل قديما:

---

[1]- سبق التعريف به في الجزء الأول من هذا الكتاب.
[2]- أنظر صحيح البخاري (كتاب التوحيد) باب قول الله تعالى: ويحذركم الله نفسه. رقم 7239. صحيح مسلم (كتاب الذكر والدعاء). باب الحث على ذكر الله تعالى. رقم 6756.
[3]- البيتان للعلامة سيدي عبد الكريم بنيس، قالهما ضمن نظمه للحكم العطائية المسمى: الواضح المنهاج، في نظم ما للتاج. ورقم هذين البيتين 140 و141.

أخلق بذي الصبر أن تقضى حوائجه   وَمُدْمِنُ القرع للأبواب أن يلجا[1]

و قد نصح العربي منصوحه في قوله:

اطلب ولا تضجر من مطلب   فآفة الطالب أن يضجـــرا
أما ترى الحبل بتكـــــراره   في الصخرة الصماء قد أثرا[2]

فأقبل على طلب العلم بوجه القبول حتى ترى القابلية فيك متمكنة، ولا يهمك ما يتراءى لك في بادي الأمر من صعوبة التحصيل لمعقول أو منقول، فلَتحصيل فائدة واحدة في كل يوم أحب إليك من حمر النعم، والعلم كما علمته إن أعطيته كلك أعطاك بعضه، وإن أعطيته بعضك لم يعطك شيئا، هكذا قالوا، ولكن نقول لا يهولك هذا، فإنك إن أعطيت العلم بعضك أعطاك منه ما لم يعطك الجهل، فَحُسِبْتَ من العلماء وحشرت في زمرتهم، فكن عالما أو متعلما أو مستمعا ولا تكن الرابع فتهلك[3]، ولا يزال الرجل عالما ما طلب العلم، فإذا ظن أنه علم فقد جهل، فلا بد من أن تلقي دلوك مع الدلاء لأنه:

على المرء أن يسعى لما فيه نفعه   وليس عليه أن يساعده الدهر [4]

وفي طلب أهل الدنيا لدُنياهم عبرة لطالب العلم مع أن علياه أعلى من علياهم (فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهمل[5]) واقبل على ما يغنيك بحسن العمل تنل فوق الأمل، فهم يتنافسون في الدنيا

---

[1]- من أبيات للشاعر محمد بن حازم بن عمرو الباهلي، أحد شعراء العصر العباسي، قال في مطلعها:

ماذا يكلفـــك الروحـــات والدلجـــا   البر طورا وطورا تركب اللججا
كم من فتى قصرت في الرزق حظوته   ألفيته بسهام الـــرزق قد فلجـــا

[2]- ذكر هذين البيتين صاحب كتاب كشف الخفاء ومزيل الإلباس، عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس (حرف العين) عند حديث: العلم في الصغر كالنقش في الحجر. رقم 1557. قال فيه: قال ابن الغرس: لكنه قد يثبت في الكبير بالتكرار الكثير (يعني طلب العلم وحفظه لدى الشخص الكبير المسن) وشاهده قول القائل:

اطلب ولا تضجر من مطلب   فآفة الطالب أن يضجـــرا
أما ترى الحبـــل بتكـــراره   في الصخرة الصماء قد أثرا

[3]- إشارة لحديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: أُغْدُ عالمًا أو متعلّمًا أو مستمعًا ولا تكن الرابع فتهلك. رواه الدارمي في سننه (كتاب النبي صلى الله عليه وسلم) باب في ذهاب العلم رقم 253.

[4]- وقفت على تشطير جميل لهذا البيت من طرف الشاعر محمد الهلالي صاحب المنظومة، ونصه:

على المرء أن يسعى لما فيه نفعه   ويضرع للباري إذا مسه الضر
وحقا عليه أن يسلم للقضا   وليس عليه أن يساعده الدهر
فإن نال بالسعي المنى ثم قصده   ودامت له النعماء وانجبر الكسر
وإن أنكر الأسباب فاصدعه لائمًا   وإن صدَّهُ المقدور كان له العذر

[5]- هو الشطر الثاني من آخر بيت من قصيدة لامية العجم، للحسين بن علي الطغرائي، وتمام هذا البيت كالتالي:

قد رشحوك لأمر إن فطنت له   فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهمل

ببذل نفيس أنفسهم، فكيف لا يبذل العاقل نفسه في تحصيل ما هو أفضل، ويحيى به بقدر ما حصل:

أخو العلم حي خالـــــد بعد موتـــــــه   وأوصاله تحت التراب رميم
وذو الجهل ميت وهو ماش على الثرى   يُظَنّ من الأحياء وهو عديـم[1]

ولستُ بحاض عليك في الإعراض عن تعاطي الدنيا بالأسباب، والدخول على العلم من كل باب، حتى يكون تعاطيه مانعًا لك من نصيبك منها في الظاهر، فتكون عالة على الناس

وإنما رجل الدنيا وواحدها   من لا يعول في الدنيا على رجل[2]

والله يقول "ولا تنس نصيبك من الدنيا"[3]، كيف لا وهي مطية للآخرة، ولكن كن من الشره وشرها على حذر، ولا تمنن تستكثر، وقد كان الصحابة يحترفون، وإن الله تعالى يحب العبد المحترف، ويكره البطال، وقليل العيش مع الراحة واطمئنان الصدر أفضل من التشوف للاستكثار، فمن لم يقنع لم يشبع.

والنفس راغبة إذا رغبتها   وإذا ترد إلى قليل تقنع[4]

وأحسن تجارة للشخص تعاطي ما لا يصير به تحت سيطرة الغير، والحر لا يرضى بما يوقفه في الضير وما قل وكفى خير مما كثر وألهى، فلا تبع مروءتك بأجرة استخدام مع من لا يرعى حرمتك، وخير الحرف ما واتاك وأتاك بجلال ولو قل، والله المسؤول أن يلهمك رشدك، ويبلغك في الدارين قصدك.

إهـ

---

[1]- البيتان للشاعر العربي الأندلسي عبد الله بن محمد المشهور بابن السيد البطليوسي.
[2]- هو البيت الثامن والأربعين من قصيدة لامية العجم للحسين بن علي الصغرائي.
[3]- سورة القصص، الآية 77.
[4]- البيت للشاعر العربي المخضرم خويلد بن خالد، المشهور بأبي ذؤيب الهذلي، وهو البيت السادس عشر من قصيدته العينية التي يفتتحها بقوله:
أَمِنَ المنونِ وريبها تتوجَّعُ   والدهر ليس بمعتبٍ من يجزعُ

الواردات والمواقف
من حضرة الإلهام

للعلامة سيدي أحمد سكيرج رضي الله عنه

تحقيق ذ محمد الراضي كنون
الإدريسي الحسني

بسم الله الرحمن الرحيم و صلى الله على الفاتح الخاتم و آله و صحبه و سلم تسليما

الواردات والمواقف من حضرة الإلـهام

بسم الله، والصلاة والسلام على مولانا رسول الله وعلى آله وأصحابه وكل من تعلق بصدق جنابه إلى يوم الدين، وبعد فهذه وَاردات من حضرة الإلهام، أكتبُها طبق ما وَردت لذوي الأفهام، فمن وافقته فليقتطف من وردها، وإلا فليدع ما لا يوافقه وما عليّ فيه ولا عليه فيَّ، فكل شخص مرهون بما جنته نفسه، وإني أصرح على رؤوس الأشهاد بأني أشهد أن لا إله إلا الله، محمّد رسُول الله عليه السّلام، وَمتمذهب بمذهب الأشعرية، وإن صدر من الوارد مَا ينافي المذهب فإني أتبرّى .. عليَّ بعد هذا فما ينافي ... وإثمه ولا حول ولا قوة إلا بالله.

الوارد الأوَّل: قال لي ما نصه من سر البسملة

لقد جلت جولة فيما ذكره أهْل العلم بالمناسبة بين الحروف والكلمات وَنحوها، فرأيت فضاء متسعا، وجوا خاليا من الصقور الخاطفة لطيور الأفكار الجالية فيه، فلا سيطرة عليها فيما تجرأت عليه من ذكر المناسبات التي تصرح بها في هذا الميدان الذي استحلى الجولان فيه كل ذي شقشقة يهذي بكلامه، وَيظن الواقف عليه بأنه يهدي بذلك على وفق بلغت إليه من ذلك سوابق أفهامه، ويعد ذلك من الفتوحات الوهبية والمعارف الخفية[1]، ولعمري أن تلك المناسبات مما لم يرد عن منبع السر عليه السّلام إنما هي من أبواب يفتحهما المتكلم بها ليصل إلى ما يريد أن يبسطه من كلام يبهر السّامع، فيقدر قدر المتكلم به، ويكبر بين عينيه ذلك، مع أن ذلك لا ضابط يضبطه، ولا حد يحصره، إلا ما أحدثه بعض من أرادَ المناضلة عما تكلم فيه من فحول المتصوفة، قاصدا بذلك تنوير الأفهام، بما يوحيه إليه وارد الإلهام، فيرتقي الفهم مما يصوره من تلك المناسبات إلى إدراك حقائق لا تدرك بمجرد التأمل، ولكن التسور على تصور ما لا يدرك من الحقائق في الجملة لا يكون إلا بمثل ذلك.

---

[1] - من المعلوم أن العلوم كلها من حيث الأصل لدنية وهبية، ولكن بعضها يتحصل بواسطة التعلم والأخذ عن العلماء والفقهاء، وهذا النوع لا بد فيه من البحث، مع الجد والمثابرة والاجتهاد، وهو الذي يسمى العلم الرسمي الكسبي، وبعضها ينفتح في سر القلب المنور من غير سبب مألوف من خارج إلا سبب التقوى والإخلاص في العمل، إذ التقوى مدعاة للعلم والمعرفة. قال الله تعالى: "واتقوا الله ويعلمكم الله". وهذا العلم هو عبارة عما اشتملت عليه قلوب أهل الله الخلص من المعارف وحقائق التوحيد، وغوامض العلوم اللدنية التي لا تطيقها جل الفهوم البشرية، وهي من أسرار الله التي تتجلى أنوارا وفهوما وأذواقا ومشاهد في قلوب العارفين، كما أنها لا تنال بحيلة ولا اكتساب، ولا تؤخذ من دفتر ولا كتاب، وإنما تفاض من حضرة الكمال، بمحض الفضل والنوال، وقد أشار إلى هذا بعض العارفين بقوله:

قلوب العارفين لها عيون ترى ما لا يُرَى للناظرين
وأجنحة تطير بغير ريش إلى ملكوت رب العالمين

وباعتبار هذا تخف المسؤولية المتوجهة على المتكلمين بهذه المناسبات المحدثة، حيث تحدثوا بها ولا دليل عليها سوى التشدق والتوطية لما يريدون بسطه كما أشرنا إليْه، وإذا نظرنا إلى جلالة المتكلم بذلك من الفحول يمنعنا الحياء من التصريح بما ذكرناه، ولكن الجرءة التي قادتنا لما بسطناه جاريناها لمجاراة من جرى في ميدان الإنكار على القوم وجعل ذلك غاية ما خاضوا فيه، مع أنهم أعْلى مقاما عما رموهم به من المجازفة في الهذيان، وما دروا أنهم قاصرون عن مدارك هؤلاء القوم، فإن ما ذكروه من المناسبات قصدوا به ترقية السّامع والمطالع، وهو وإن لم يكن محصورا محدودا باصطلاح في سائر الفصول والوصول المذكورات في مسطوراتهم، فلا يبعد أن يعدّ من قبيل الفنون المحدثة مما له اصطلاح وما لا اصطلاح له.

ولا يأبى الذوق السليم بعض تلك المناسبات، فَانجلى لك من هذا الغبار الذي أثرناه في ميدان هذه المقدمة مع مَا آثرناه من الاعتذارات عن القوم أن التسليم أوْلى[1]، واستحسان ما يستحسن من ذلك لا يقبله إلا مَن كان له أهلا، وَماذا يلزم الوارد من الورد الأحلى إذا قال إن الباء من البسملة متضمنة لما جرى على الألسنة من قولهم: بي كان ما كان، وبي يكون ما يكون، أو يقول ما لم يقولوه من أنها إشارة إلى قول الرسول عليه السّلام: بربي عرفت كل شيء، وحقك لا يلزمه شيء، وقس على ذلك، والله أعلم بما هنالك.

الوارد الثاني: قال لي ما نصه من سر البسملة أيضا

لقد تشدّق كثير ممن خاض في أسرار الحروف بذكر بعض المناسبات المنوطة بهيأة الحروف الرسمية من استقامة واعوجاج، وَقصر وطول، وتمطيط وانحناء، وإهمال وإعجام، ذاكرا أن ذلك اقتضته الحكمة المنوطة به عند الوضع الحرفي وتعلق الفلك وَدورانه بذلك على وفق الحكمة الأزلية، وفي ذلك أسرار باطنية أكثر مما هوّل به هؤلاء المتشدّقون.

ونحن لا ننكر الأسرار المنطوية تحت ذلك بإبداع المبدع الحكيم في إيجاد ذلك، من أول مرة إلى آخر دورة من الفلك وآخر ظلمة في الوجود، وإنما نقول تلك المناسبات لا دخل لها في أصل الوضع والأسْرار التي تستنبط من ذلك، إنما هو من قبيل التقولات وَالتهويلات المستودعة في حيز التبجح على الأقران، بادعاء التحصيل على سر الفعل والانفعال، وَذلك مجرد أوهام وتحكمها في أنفس المنفعلين الذين يصدقون الوهم ويقدمونه على اليقين، ومع ذلك فنحن نستحسن بعض تلك المناسبات في غير باب التأثير بها، وإنما التأثير لله وَحده، وعبرة بما يصادف من الانفعالات الموافقة لما ذكروه في ذلك.

---

[1]- طريق القوم قائم على التسليم، وهو أقل ما يمكن أن يعتقده المرء في هذا الصدد، لأن التسليم للقوم بعد ثبات صدقهم وصدق ما روي عنهم هو النجاة والفلاح، ومن هذا القبيل قول الإمام الغزالي رضي الله عنه: من لم يكن له نصيب من علم القوم أخاف عليه سوء الخاتمة، وأدنى نصيب منه التصديق به والتسليم لأهله، وأقل عقوبة من ينكره أن لا يرزق منه شيء. إهـ. وفي الصدد نفسه يقول بعض العارفين: التسليم ولاية، والإعتقاد عناية، والإنتقاد جناية، فإن عرفت فاتبع، وإن جهلت فسلم.

ولعمري من يقول إن معانقة الألف باللام في لام الألف، لم يكن إلا للإشارة لكذا، أو صدر عن كذا، ونحو ذلك لهاذ بالذال المعجمة غيرها بمهملها، وإنما يريد أن يفرغ علمه الذي اطلع عليه باستطراد مفروغ في مثل تلك القوالب، ولو عقد بابا في ذلك العلم بالخصوص من غير تهويل بتلك الخزعبلات لكان أنفع للسامع وأجمع للفوائد للمطالع، ولستُ بمنتقد على علماء الرسم في الحذف والإثبات والزوائد الرسمية في الصحف التي تشير للقراءات والروايات ونحو ذلك، وإنما أنكر على من يقول إن الحرف الفلاني لم يكن على هيأته إلا للسر الفلاني من غير الصورة التي تميزه من غيره، كنقطة الخاء من أعلى، وَالجيم من أسفل.

أمّا ما كان للإشارة الرسمية، فإني أستحسنه كثيرا، ألا ترى إلى الخليل كيف يقول: ما طولت الباء من البسملة إلا للإشارة لهمزة الوصل المصدر بها الاسم قبل دخول الباء في أوله، فحذفت الألف وطولت الباء إشارة إليه، فإن مثل هذا من أنفس المقالات في الرسم، فهذا لم يكن عن أسْرار وهمية وحكمة سرية، ولكن الرسم من أجل العلوم وأنفسها، بالنظر لما تعلق به من كلام الحق.

ولعمري أن من يقول الميم في اسم محمد صلى الله عليه وسلم بمنزلة الرأس، والحاء بمنزلة اليدين والميم بمنزلة البطن، والدال بمنزلة الرجلين لمبدع في المناسبة، ولكن لا يوافقه كل الخطوط الرسمية، ولو تتبعنا المناسبات طبق الرسم لقلت في هذا ما هو أعجب طبق ما أرانيه بعض الأعيان، فقال إن اسم محمد صلى الله عليه وسلم يقرأ ظهرًا وبطنًا إذا كُتِبَ هكذا ، فبالله عليك إذا نظرت إلى هذه الصورة من غير أن تعرف الميم والحاء من صورة الدال ألستَ تقول في العكس بأنه محمد عليه السّلام.

ولو ادعينا أن لذلك سرا لصدّقَنَا فيه كل ذي وهم يصدق ما يتجلى له في مرآة مخيلاته من المغربات، ومن العجب أنه يكتفي بالتصديق بتلك الخزعبلات من غير أن يقف على أثر من الآثار التي يحسبها من أبدع الأسرار، فلا تلتفت إلى ما هو من هذا القبيل في باب التصرف بالحروف اعتمادا على مثل هذه المناسبات، والله الموفق.

الوارد الثالث: من نفس البسملة أيضا

لا غرابة إذا أنكرت خواصّ أشكال هذه الحروف الهجائية من حيثية الهيأة الرسمية من غير الخاصية المودعة في تمييز حرف من حرف، وأثبت صحة الأشكال الطلسمية الدالة على حروف مرموز بها لمعان موافقة للطلسم الموضوع باقتران حركات ملكية توجد عندها الخاصية لا بها، خلافا لاعتقاد السّاحر الذي استعان بقوة وهمية، أو غيرها من القوات الروحية، وإنما السر عندي في الذكر أو العدد المخصوص المنوط بتلك الحروف، أو بوضع الحرف باستحضار معنى مرموز عليْه عند الوضع، كمن وضع حرف الباء من البسملة، واستحضر عند وضع نقطتها خاصية خصوصية، فإن الخاصية تتحقق بإذن الله.

وليس ذلك من المصادفة، وإنما هو من باب وجود المسبب بوجود السبب، وليس هناك فاعل سوى الله بديع السماوات والأرض، ولا شك أن الأشكال لها خواص منوطة بها أودعها ذلك المدبر الحكيم، ولكن لا يقف على التصرف بها إلا الخصوص من الخصوص، وكم من طارق لهذه الأبواب وقف بعد الخوض في علم سر الحرف وعلم الوفق ونحوهما من علوم السيمياء متحيرا في الطريق الموصلة له للتصرف الذي طالما تلهف عليْه، وعلى من يوقفه عليه بالقدم فلم يحصل سوى الدعوى العَريضة، والأماني المستولية على الأنفس المريضة، ذلك شأن الخائضين في هذه الفنون معَ تبجُّح بمعرفتها، وبخل تام بالمفاوضة مع الغير فيها، اعتمادا على أنها من الأسرار التي يجب كتمها.

وبذلك تجد النفوسَ متسوفة للاستطلاع على ما خفى عليها من ذلك حين لم تصل إليه، وترى أهل ذلك مصرين عليه مع التبجح التام ومنعهم من الخوض معهم في ذلك بين الخواص والعوام، فبمنعهم تزداد النفوس تشوقا للخوض فيها، وتتوق دائما إلى من يطلعها على ما خفي عنها من ذلك، وأحب شيء إلى الإنسان ما مُنع، والعجب كل العجب وثوق نفس بعض المولــوعين بذلك بما يتحدثون به وما يحدثهم به الغير بحيث لا ينشلهم من ذلك الوثوق ثقة ولا مستراب، بل لا يرجعون عن معتقدهم من غير تحقق حاصل لهم بما يبلغهم على لسان الغير أو يحصل لهم مصادفة إلا بعد امتحانات وخيبة المسْعى، ومع ذلك لا ينفكون كل ذلك تبعا لهوى النفوس المجبولة على تضحية صاحبها بما أمكنها من أنواع التهلكة التي تعشقها الأمّارة.

ولعمري إن الرجوع إلى الله في السر والعلانية لهو مفتاح أبواب الخلافة في الكون، حتى يصير هذا الراجع يقول للشيء كن فيكون بربه، ولهذا قال الشبلي: بسم الله من العبد بمنزلة كن من الحق، والله الموفق.

علم الدور

هذا العلم ذكر اسمَه الشعراني في كتابه المسمَّى إرشاد الطالبين إلى مراتب العلماء العاملين، وَأورد فيه أنه إذا كان كل مولود يولد على الفطرة ولكن أبواه يهودانه أو ينصرانه الحديث[1]. فمن أين جاء كفر الأوّل، وهو ينزل العقل هنا من حيث فكره منزلة الأبوين في كون هذا الشخص قد أخرجه نظره من فطرته إلى إثبات الشرك، مع أن الشرك عدم، وقد سنح لي أن أقول حيث كان الشرك للولد يأتيه من أبويه، والأبوة والبنوة متلازمان لا يتعقل انفكاك واحد منهما بدون الآخر جاء الشرك للأول من نفسه المستولية على عقله المعقول بقيدها، بعد أن كان في حيز الإطلاق الذي لا يمكنه أن يصرح بالشرك، لأن الشريك معدوم لا يتعقّل مع واجب الوجود، فَالفطرة السّالمة دائما لا شرك لها، ولذلك لم يقل في الحديث الشريف أو يلقنانه الإيمان، لأنه إذا ترك وَنفسه لاهتدى إن كان من ذوي العقول إلى مقتضى فطرته، فالذي جنى على الولد من حيثية الشرك هما الأبوان، فهما وَإن كانا السبب في وجوده فهما السبب في عدمه، ولذا قال ذو المعرة[2]:

هذا جناه أبي علي وما جنيت على أحد[3]

ولكن العدم شر محض، والوجود أغلبي الخير[4]، فشكر المتسبب في الوجود واجب، فَالمعري ومن على شاكله ملوم من هذه الحيثية، لكون الوقوع والنزول لا يرتفع، وَترك شكر المتسبب كفر نعمته، غير أن الشرك الوَاصل للولَد قاض على الأبوين بجزعهما عليه، لأنه منهما انفصل، فعذاب المشرك في خاصة نفسه، ومن جهة وَلده فيه زيادة تنكيل به من أي جهة كانت، إلا وجهة المشرك ففيها غاية الأسف لأنه إن كان ولده مسلما حزن على ما فرط فيه،

---

[1]- إشارة للحديث الذي رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ما من مولودٍ إلا ويولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسبون فيها من جدعاء، ثم يقول أبو هريرة رضي الله عنه: فطرة الله التي فطر الناس عليها، لا تبديل لخلق الله، ذلك الدين القيم. إهـ .. أنظر صحيح البخاري (كتاب الجنائز). باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه؟ وهل يعرض على الصبي الإسلام؟ رقم الحديث 1374.

[2]- المراد به الشاعر العربي أحمد بن عبد الله بن سليمان التنوخي، المشهور بأبي العلاء المعري، ولد في معرة النعمان بسوريا، بين حماة وحلب، عام 363 هـ. وكان نحيف الجسم، أصيب بالجدري صغيرا، فعمي في السنة الرابعة من عمره، وقال الشعر وهو ابن إحدى عشر سنة. قال عنه ياقوت: والناس مختلفون في أبي العلاء، فمنهم من يقول كان زنديقا، ومنهم من يقول زاهدا متعبدًا، يأخذ نفسه بالرياضة والخشونة والإعراض عن أعراض الدنيا، توفي سنة 449 هـ. أنظر ترجمته في الأعلام للزركلي 1: 157.

[3]- البيت للشاعر أبي العلاء المعري، وقد أوصى قبل وفاته أن يدفن عند الممات في بيته، ويكتب البيت الشعري المذكور على شاهدة قبره، فنفذ أصحابه الوصيتين، الدفن والكتابة.

[4]- أجمع المحققون من أهل العلم على أن الوجود خير محض والعدم شر محض، والدليل عندهم في هذا القول هو رجوع كافة الكمالات والفضائل والمحاسن إلى الوجود، وكون العدم أساس جميع النقائص والمعاصي والمصائب، ومن مقالاتهم في هذا الصدد أيضا قولهم: الأهوال شرور والشرور أعدام.

وإن كان والده مشركا حزن ولده على ما فاته من خير والده، وإن كانا معا مشركين، فالبلاء والويل والثبور لهما، فالذي جاء على الفطرة هو المؤمن، ولذلك كان من أسماء الحق المؤمن، فهو سبحانه لم يلد ولم يولد، فالمؤمن على الفطرة دائما، ولذلك لما نوديت الأرواح في عالمها قبل أن تقيد بالنفس وتدخل لسجن الجسم يوم ألست بربكم. قالوا: بلى[1]. لأنها على فطرتها عارفة بربها، وَقد حجبت في عالم الحس حين عقلت بنفسها، فلو بقي العقل مطلقا عن قيدها لنفى الشرك، لأنه لا يقبله البتة، لما قام لديه من الدليل القاطع والبرهان الساطع بالعلم والمعرفة التي جبل عليها في فطرته، فلا يتصور الشريك، لأنه لو كان هناك شريك ما وجد الولد ولا الوالد بمقتضى لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا[2]. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

[1]- سورة الأعراف، الآية 172.
[2]- سورة الأنبياء، الآية 22.

محتويات الجزء الثالث من الكتاب